أُورْهَان باموق

متحف البراءة

ترجمة عبدالقادر عبداللي

دار الشروق

متحف البراءة

MASUMIYET MÜZESI

متحف البراءة

أورهان باموق

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

الطبعة العربية الأولى ـ دار الشروق ٢٠١٦

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٦/٣٥١٩
ISBN 978-977-09-3385-5

أورهان باموق

متحف البراءة

ترجمة عبدالقادر عبداللي

دار الشروق

المحتويات

إلى رؤيـة

إنهم أبرياء إلى درجة اعتقادهم بأن الفقر ذنب يمكن أن يُنسى بكسب النقود.

جلال صاليك، من دفاتره

إذا دخل رجل إلى الجنة في حلمه، وأُعطي زهرة بكونها إشارة على دخول روحه الجنة حقيقة، وإذا رأى الرجل الزهرة بيده عندما يستيقظ ـ إيه؟ وماذا بعد؟

صاموئيل تايلور كوليردج، من دفاتره

بداية تفرجت على قطع حليّها الصغيرة التي على الطاولة، والعطر الذي تستخدمه، ومواد تجميلها. تناولتها، ونظرت إليها. قلّبت ساعتها الصغيرة بيدي. ثم نظرت إلى خزانة ألبستها. ألبسة طبقات، وأدوات زينة. كل ما يكمّل المرأة يشعرني بوحدة فظيعة، وشفقة، ورغبة بأن أكون لها.

أحمد حمدي طانبنار، من دفاتره

١ ـ اللحظة السُّعْدَى في حياتي

كانت أسعد لحظة في حياتي من دون أن أعرف. لو عرفت، فهل كنتُ سأتمكن من المحافظة على هذه السعادة، ويغدو كل شيء مختلفًا تمامًا؟ لو أدركت أنها أسعد لحظة في حياتي، لما فوّت تلك السعادة نهائيًّا. لعل تلك اللحظة الذهبية والعميقة الطمأنينة التي لفّت كل طرف مني دامت بضع ثوانٍ، ولكن السعادة بدت لي ساعات وأعواما. وكالتحرر من الذنب والجريمة والعقاب والندم، كانت لحظةُ تحرر من قوانين الزمن والجاذبية الأرضية قرابة الساعة الثالثة إلا ربعًا من يوم الاثنين ٢٦ أيار/ مايو ١٩٧٥. قبّلت كتف فسون المتصبب عرقًا بتأثير الحر وممارسة الحب، واحتضنتها بهدوء من الخلف، وعضضت أذنها اليسرى بشكل خفيف. بدا لي القرط أنه توقف لحظة في الهواء، ثم سقط تلقائيًّا. كنا سعيدين في ذلك اليوم إلى درجة أننا لم ننتبه نهائيًّا إلى شكل ذلك القرط، وتابعنا تبادل القبل.

كانت ثمة سماء برّاقة خاصة بأيام ربيع إسطنبول في الخارج. الحرارة تعرّق الإسطنبوليين الذين لم يتخلصوا من عادات الشتاء بعد في الشوارع، ولكن داخل البيوت والدكاكين، وتحت أشجار الزيزفون والكستناء ما زال باردًا قليلًا. كنا نشعر ببرودة مشابهة تنبعث من داخل الفراش الذي تفوح منه رائحة العفن ونمارس عليه الحب كالأطفال السعداء ناسين كل شيء. هبّت نسمة ربيعية محملة برائحة البحر والزيزفون من نافذة الشرفة المفتوحة، فرفعتْ الستارة الرقيقة، وتركتها بحركة بطيئة فوق ظهرينا، وبثت القشعريرة بجسدينا العاريين. من الغرفة الداخلية للشقة الواقعة

في الطابق الثاني، والسرير الذي نضطجع فيه، سمعنا أولادًا يلعبون كرة القدم باندفاع مصحوب بالشتائم في فسحة البناء الخلفية تحت حرارة أيار/ مايو، وانتبهنا بأننا نفعل ما يتبادلون قوله بشكل حرفي، فتوقفنا وسط ممارستنا الحب للحظة، ونظر كل منا إلى عيني الآخر، وابتسمنا. ولكن سعادتنا كانت عميقة وعظيمة إلى درجة أنها أنستنا هذا المزاح الذي قدّمته لنا الحياة من الحديقة الخلفية فورًا، كما نسينا القرط.

عندما التقينا في اليوم التالي، أخبرتني فسون بأنها فقدت أحد قرطيها. في الحقيقة أنني رأيت القرط المحفور عليه الحرف الأول من اسمها فوق الملاءة الزرقاء بعد ذهابها، وبدلًا من وضعه في مكان ما جانبًا، وضعته بدافع غريزي غريب في جيب سترتي لكي لا يضيع. قلت: «إنه هنا يا روحي!». ومددت يدي إلى الجيب الأيمن للسترة المعلقة على مسند الكرسي. قلت: «آآ، مفقود!». شعرتُ للحظة بأن هذا مؤشر على كارثة أو شؤم، ولكنني حين انتبهتُ إلى حرارة الصباح، تذكرتُ أنني ارتديت سترة أخرى. «بقي في جيب سترتي الأخرى».

قالت فسون محملقة: «اجلبه غدًا رجاء، لا تنسه. إنه مهم جدًّا بالنسبة إليّ».

«حسنٌ».

فسون قريبتي من بعيد، فقيرة بلغت الثامنة عشرة، وكنت قد نسيتها إلى ما قبل شهر تقريبًا. أما أنا فقد كنت في الثلاثين من عمري، وعلى وشك أن أعلن خطوبتي على سيبَل التي يعتبرها الجميع لائقة جدًّا بي، وأتزوجها.

٢ ـ بوتيك شانزليزيه

بدأت الأحداث والمصادفات التي ستغير حياتي كلها قبل شهر، أي في ٢٧ نيسان/ إبريل ١٩٧٥ حين رأينا ـ سيبل وأنا ـ حقيبة نسائية ماركة جيني كولون الشهيرة في واجهة محل. أثناء سيري في شارع «دار الوالي» مع

سيبل التي سأعلن خطوبتي عليها قريبًا مستمتعًا بطعم مساء الربيع المنعش، كنا ثملين قليلًا، وسعيدين. أثناء العشاء في مطعم «فوآية» المفتوح حديثًا في نيشان طاشِ، تحدثنا مطولًا لوالدي ووالدتي حول تحضيرات حفل الخطوبة: ستقام الخطوبة في أواسط حزيران/ يونيو من أجل أن تستطيع نورجيهان صديقتها من أيام ثانوية القديسة دام في إسطنبول وإقامتها في باريس، من القدوم من هناك. كانت سيبل قد أوصت على ثوب الخطوبة من محل «عصمت الحرير» أغلى خياط في إسطنبول، وأكثرهم حظوة منذ زمن طويل. تجادلت سيبل مع أمي لأول مرة حول طريقة ترصيع الثوب باللآلئ التي ستأخذها منها في ذلك المساء. يريد حموي المستقبلي أن يقيم لابنته الوحيدة حفل خطوبة لا يقل عن حفل الزواج، وهذا ما يعجب أمي. وكان والدي أيضًا سعيدًا لأن فتاة مثل سيبل درست في السوربون (كان بورجوازيو إسطنبول يقولون عن الفتيات اللواتي تلقين تعليمًا ما في باريس جميعهن: «درست في السوربون») ستكون كنته.

فيما كنت أصطحب سيبل إلى بيتها بعد العشاء، وألف بعشق كتفها القوي بذراعي، وما أن فكرت كم أنا سعيد ومحظوظ، قالت سيبل: «آ، ما أجمل هذه الحقيبة!». على الرغم من أن رأسي يدور قليلًا بتأثير النبيذ، وضعت المحل والحقيبة في زاوية سيئة من عقلي، وظهر اليوم التالي، ذهبت لشراء الحقيبة. في الحقيقة أنني لست من الرجال الرقيقين المهذبين الملاحقين للنساء بالولادة، ويشترون لهن الهدايا بشكل مستمر، ويتحينون الذرائع من أجل إرسال الأزهار إليهن، ولعلني أريد أن أكون هكذا. كانت ربات البيوت الغنيات المغربات في أحياء شيشلي، ونيشان طاشِ، وببك وما شابهها عندما يشعرن بالملل والضيق يفتحن «بوتيك» وليس «صالة عرض فنية»، ويحاولن بيع ألبسة «الموضة» التي يقلدنها من مجلات مستوردة مثل «Elle»، و«Vogue»، وألبسة وحليًّا وإكسسوارات مهربة في حقائب من باريس وميلانو للنساء السائمات الغنيات الأخريات مثلهن بأسعار باهظة يمكن اعتبارها عبثية. عندما التقيت بصاحبة بوتيك شانزليزيه السيدة شيناي،

ذكرتني بأنها قريبة من بعيد جدًّا لوالدتي مثلها مثل فسون. إعطاء السيدة شيناي لي ما لديها من أشياء بعد سنوات من دون أن أطلبها منها بسبب اهتمامي الشديد بكل الأشياء القديمة المتعلقة ببوتيك شانزليزيه وفسون بما في ذلك لوحة المحل، أشعرني بأن لحظات الغرابة التي عشتها لم تكن محل انتباهها وحدها، بل محل انتباه شريحة أوسع بكثير مما كنت متوقعًا.

قرع جرس الجمل البرونزي ذي المطرقتين المعلق على الباب بصوت ما زال يُسرّع ضربات قلبي عندما دخلت إلى بوتيك شانزليزيه قريب الساعة الثانية عشرة والنصف في اليوم التالي. كان داخل الدكان خفيف الظلمة ومنعش البرودة ظهيرة يوم ربيعي حار. اعتقدتُ بداية أنه ليس هناك أحد في الداخل. فيما بعد رأيت فسون. كانت عيناي تحاولان الاعتياد على ظلمة الدكان بعد شمس الظهيرة، ولكن قلبي هاج كموجة ضخمة على وشك أن تضرب الشاطئ وصلت إلى فمي.

قلت: «أريد شراء الحقيبة التي تحملها دمية العرض في الواجهة».

قلت لنفسي إنها جميلة جدًّا، وجذابة جدًّا.

«هل الحقيبة جيني كولون بلون الكريم؟».

فور تقابل أعيننا تذكرت فورًا من تكون.

همست كما لو أنني في حلم: «التي تحملها دمية العرض في الواجهة».

قالت: «فهمت»، وسارت نحو الواجهة. خلعت حذاءها الأصفر العالي الكعب بحركة واحدة، وداست بقدمها العارية المطلية أظافرها على قاعدة الواجهة، ومدت نفسها نحو الدمية. نظرتُ بداية إلى الحذاء الفارغ، ثم إلى ساقيها الجميلتين طويلًا. احترقا بالشمس منذ الآن قبل دخول أيار/ مايو.

تنورتها الصفراء المزهرة ذات الدانتيل تبدو أقصر مما هي بسبب طول ساقيها. تناولتِ الحقيبة، وذهبت إلى خلف نضد البيع، وفتحت جيبها ذا السحاب (خرجت منه كرات ورق شفاف بلون الكريم)، وفتحتيها

الصغيرتين (كانتا فارغتين)، والجيب السري الذي أخرجت منه بأصابعها الطويلة الماهرة ورقة كتب عليها جيني كولون ودليل العناية، وأرتني إياها بجو مبالغ بغموضه وجديته كأنها تريني أمرًا له حرمته. تقابلت أعيننا للحظة.

«مرحبا فسون. كبرت كثيرًا. يبدو أنك لم تعرفيني».

«لا يا أخ كمال، عرفتك فورًا، ولكنك عندما لم تعرفني، قلت علي ألا أزعجه».

خيّم صمت. نظرت إلى المكان الذي أشارت إليه في الحقيبة قبل قليل. هناك ما أقلقني، يمكن أن يكون جمالها أو قِصر تنورتها بحسب ذلك الوقت، أو شيء آخر، فلم أكن أتصرف بشكل طبيعي.

«إيه، ماذا تفعلين؟».

«أحضّر لامتحان الدخول إلى الجامعة. وآتي إلى هنا كل يوم. وأتعرف على أناس جدد في الدكان».

«جميل جدًّا. بكم هذه الحقيبة الآن؟».

قطبت حاجبيها، وقرأت الرقم المكتوب بخط اليد على لصيقة الحقيبة الملصقة أسفلها: «ألف وخمسمائة ليرة. (كان هذا المبلغ في ذلك الوقت يساوي راتب موظف شاب لمدة ستة أشهر). ولكنني واثقة من أن السيدة شيناي ستراعيكم. ذهبت إلى البيت من أجل الغداء. إنها نائمة، لا يمكنني أن أتصل لكي أسألها. ولكنكم إذا مررتم قريب المساء..»..

قلت: «ليس مهمًّا». وبحركة ستقلدها فسون كثيرًا بشكل مبالغ فيه عند لقاءاتنا اللاحقة، أخرجتُ محفظتي من جيبي الخلفي، وعددت النقود الرطبة. لفت فسون الحقيبة بالورق بانتباه، ولكن من دون مهارة، ووضعتها في كيس نايلوني. كانت تعرف أنني أنظر إلى حركات ذراعيها بلون العسل السريعة والرقيقة طوال فترة الصمت تلك. عندما قدمت لي الحقيبة بلباقة،

شكرتها. قلت: «احترامي للعمة نسيبة والوالد (لم يخطر ببالي اسم السيد طارق في تلك اللحظة)». توقفت لحظة: خرج شبحي من داخلي، وعانق فسون في زاوية كالجنة، وقبّلها. سرت نحو الباب بسرعة. كان هذا حلمًا عبثيًا، فوق هذا فإن فسون لم تكن جميلة جدًّا. قُرع جرس الباب، وسمعت صوت كناري بدأ يغرد. خرجت إلى الشارع، وأمتعني الحر. كنت مسرورًا من هديتي. كنت أحب سيبل كثيرًا. قررت أن أنسى الدكان وفسون.

٣ ـ أقرباء بعيدون

على الرغم من هذا فقد فتحت الموضوع لأمي على العشاء، وقلت لها بأنني قابلت قريبتنا البعيدة فسون أثناء شرائي حقيبة لسيبل.

قالت أمي: «آ، نعم، ابنة نسيبة تعمل هنا في دكان شيناي، يا حرام! لم يعودوا يعرجون حتى في الأعياد. كانت مسابقة ملكة الجمال تلك سيئة. أمرّ كل يوم من أمام الدكان، فلا أجد في نفسي دافعًا لأسلم على المسكينة، ولا يخطر هذا ببالي. مع أنني كنت أحب تلك الفتاة كثيرًا في صغرها. كانت ترافق أمها أحيانا عندما تأتي نسيبة من أجل الخياطة. كنتُ أُخرج ألعابكما من الخزانة، وأعطيها إياها، وكانت تلعب بصمت في أثناء عمل أمها بالخياطة. وكانت عمتكم المرحومة مهريفير والدة حسيبة إنسانة طيبة».

«ما قرابتهم بنا تمامًا».

لأن والدي كان يشاهد التلفاز، ولا يسمعنا، فقد روت مع كثير من البهارات أن والده (أي جدي أدهم كمال) الذي ولد مع أتاتورك في العام نفسه، وكان يذهب إلى المدرسة الابتدائية التي يذهب إليها مؤسس الجمهورية مدرسة شمسي أفندي، وقبل أن يتزوج من جدتي بسنوات طويلة، كان له زوجة تزوجها على عجل قبل أن يبلغ الثالثة والعشرين من عمره. قالت بأن هذه المسكينة ذات الأصول البوشناقية (أي والدة جدة فسون) ماتت أثناء تفريغ

أدرنة أثناء حرب البلقان. لم يرزق جدي السيد كمال من هذه المرأة المسكينة بطفل، ولكن بحسب قول أمي فإن لها طفلة من شيخ فقير تزوجته من قبل عندما «كانت بسن الطفولة» تدعى ميهريفر. وتقول والدتي منذ القديم بأننا يجب ألا نعتبر العمة ميهريفير (جدة فسون) وابنتها نسيبة (والدة فسون) ومجموعة من الأشخاص غريبي الأطوار أقرباء، وهم أقرباءُ أقرباءٍ بعيدون جدًّا، ولسبب ما تريدنا أن ننادي نساء ذلك الفرع من العائلة «عمة». أثناء زيارات الأعياد في السنوات الأخيرة تصرفت والدتي (اسمها وجيهة) مع «أقرباء الأقرباء» هؤلاء الذين سقطوا فقراء، وسكنوا في أحد أزقة تشويكية الخلفية، ببرود واضعة مسافة طويلة، وجرحتهم. لأن العمة نسيبة لم تنبس على مشاركة فسون في مسابقة ملكة الجمال قبل سنتين، أي عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها وتدرس في ثانوية نيشان طاشِ للبنات، وحتى إنها غضبت منها كثيرًا لأننا سمعنا فيما بعد بأنها شجعتها على المشاركة؛ ونتيجة الشائعات التي سمعتها لاحقًا، واعتبار العمة نسيبة نفسها أنها أقدمت على عمل تفخر به، بينما يجب أن تخجل منه، أدارت لها ظهرها.

مع أن العمة نسيبة كانت تحب أمي التي تكبرها بعشرين سنة، وتحترمها. ولا شك في أن دعم أمي أدَّى دورًا بتجوالها على البيوت الراقية في شبابها، وعملها في الخياطة.

قالت أمي: «كانوا فقراء جدًّا جدًّا». وأضافت خشية من المبالغة: «ولكن ليسوا وحدهم يا بني، كانت تركيا كلها فقيرة». كانت والدتي تقول في ذلك الوقت عن العمة نسيبة: «إنسانة طيبة جدًّا، وخياطة جيدة جدًّا». وتقترحها على صديقاتها، وتدعوها إلى بيتنا مرة في السنة (أحيانًا مرتين) من أجل أن تخيط لها ثوبًا لعرس.

لم أكن أراها عندما تأتي إلى الخياطة لأنني أكون في المدرسة على الأغلب. عندما اضطرت أمي لثوب عاجل من أجل عرس في أواخر صيف عام ١٩٥٦، استدعت نسيبة إلى المصيف في سعادية. وفي الغرفة

الخلفية الصغيرة المطلة من خلال أوراق النخيل على الزوارق والمراكب ذات المحركات والأولاد الذين يقفزون إلى البحر من المرسى وهم يلهون، خيطت الاثنتان على آلة والدتي ماركة سنجر حتى منتصف الليل وسط المقصات والدبابيس وشرائط القياس، الكشاتبين، وقطع القماش، والدانتيل، وشكواهما من البعوض، وإنجاز الثوب بوقته، وتبادلا المزاح كأنهما أخت كبيرة وأختها الصغرى. وكان الطباخ بكر يهرع بكئوس الليمونادة إلى تلك الغرفة التي تفوح برائحة المخمل، لأن نسيبة التي كانت في العشرين من عمرها حينئذ حامل، وتشعر بالوحام بشكل مستمر، وأثناء تناولنا الطعام كلنا معًا، قالت للطباخ بين الجد والمزاح: «يجب أن تقدم للحامل كل ما تشتهيه، وإلا فإن الطفل يأتي بشعًا». وأذكر أنني كنت أنظر إلى بطن العمة نسيبة المنتفخ قليلًا باهتمام. أعتقد أن تلك هي المرة الأولى التي أنتبه لوجود فسون، ولكن أحدًا لم يكن يعرف بعد ما إذا كانت تحمل بصبي أم بنت.

مع تذكر والدتي للحادثة، قالت بغضب: «ادّعت نسيبة بأن عمر ابنتها أكبر، وأدخلتها المسابقة من دون أن تخبر زوجها. الحمد لله أنها لم تفز، وأُنقذوا من الفضيحة. ولكنها لو فازت، لطردوا الفتاة من الثانوية... لعلها أنهت الثانوية الآن، ولا أعتقد أنها يمكن أن تدرس فرعًا معقولًا. لم يعودوا يزورونا حتى في الأعياد لأعرف ما يفعلون... الجميع يعرف نوعية البنات والنساء اللواتي يشاركن بمسابقات ملكات الجمال. كيف تصرفت معك؟».

كانت والدتي توحي إليَّ أن فسون قد بدأت بمضاجعة الرجال. سمعت شائعة كهذه من أصدقائي ملاحقي النساء في نيشان طاشِ عندما تجاوزت فسون المرحلة الأولى من المسابقة، ونشرت صورتها مع صور الفائزات في هذه المرحلة في جريدة ملييت، ولم أرد أن أبدو مهتمًّا بموضوعات مخجلة كهذه. عندما خيّم صمت قالت لي أمي وهي تهز بإصبعها بشكل غامض: «انتبه! أنت على وشك أن تعلن خطوبتك على فتاة جميلة جدًّا، وخاصة

جـدًّا، ولطيفـة جدًّا! أرنـي الحقيبة التي اشـتريتها لها. ممتاز! (اسـم والدي) انظر، كمال اشترى لسيبل حقيبة!».

قال والدي: «حقًّا؟» بدا على وجهه تعبير سـعادة قلبية كأنه رأى الحقيبة، وأعجـب بهـا كثيرًا، وسـعد لسـعادة ابنه وحبيبتـه، ولكنه لم يـزح وجهه عن التلفاز.

٤ ـ ممارسة الحب في المكتب

كانت على الشاشـة التي ينظر إليها والدي دعاية «أول مياه غازية بالفواكه ملتـم» الطموحة التـي ينتجها صديقي زعيـم، ويوزعها على السـوق التركية كلهـا. نظـرت بانتباه للحظة، وأحببـت الدعاية. عندما حقـق والده الصناعي مكاسـب كبيرة في الأعوام العشرة الأخيرة مثل والدي، دخل زعيم برأسمال والـده أعمـالًا جديدة جريئـة. أريد لصديقـي الذي أقدّم لـه النصائح في هذا المجال أن ينجح.

درسـتُ إدارة الأعمال في أمريكا، وعدتُ، وأنهيتُ جنديتي. أراد والدي أن أكون مؤثرًا في إدارة مصنعه المتوسـع كثيرًا، وشـركاته الجديدة مثل أخي الأكبر، لهذا السـبب جعلني مديرًا عامًّا لشـركة صاطصاط (بِـعْ بِعْ) للتوزيع والتصدير في الحربية وأنا مازالت شابًّا. كانت صاطصاط ذات رأسمال كبير، وتحقق أرباحًا كبيرة، ولكن هذا لم يكن بفضلي، بل بفضل ألعاب المحاسبة التي تحوّل أرباح المصانع والشـركات الأخرى إلى صاطصاط. كانت أيامي تمضـي بإظهار التواضع للموظفيـن المجتهدين الذين يكبروني بعشـرين أو ثلاثين سـنة، والخالات الموظفات الخبيرات كبيرات الصدور بعمر والدتي وقـد أصبحت مديرًا على رأسـهم لأنني ابن رب العمل محـاولًا تعلم دقائق الأمور منهم.

فـي بناء شـركة صاطصاط القديم فـي الحربية الذي يرتجـف بقوة عندما

تمر من أمامه حافلات البلدية والحافلات الكهربائية المتعبة والمنهكة مثل الموظفين المسنين - وكثيرًا ما كانت تمر - كنت أمارس الحب في غرفة المدير العام الخاصة بي مع سيبل التي تزورني بعد ذهاب الموظفين والجميع، وسأعلن خطوبتي عليها بعد فترة قصيرة. وعلى الرغم من كلمات الحداثة والأوربة التي تعلمتها حول حقوق المرأة والفمنية، فإن فكرة سيبل حول السكرتيرة لا تختلف عن فكرة والدتي، فقد كانت تقول أحيانًا: «دعنا لا نمارس الحب هنا، أنا أشعر بنفسي كالسكرتيرة!». ولكن ترددها الذي كنت أشعر به أثناء ممارسة الحب على الأريكة الجلدية في المكتب ناجم عن خوف الفتيات التركيات في ذلك الوقت من الدخول بعلاقة جنسية قبل الزواج.

في تلك الأعوام كانت النخبة من بنات العائلات الغنية المغرّبة اللواتي رأين أوربا قد بدأن بكسر قدسية «البكارة» للمرة الأولى، ومضاجعة عشاقهن قبل الزواج. وكانت سيبل تفخر بأنها واحدة من هذه البنات «الجريئات»، وقد ضاجعتني قبل أحد عشر شهرًا. (هذه فترة طويلة، وأصبح علينا أن نتزوج!).

ولكنني في أثناء رواية قصتي بعد أعوام طويلة بكل صدق، لا أريد أن أبالغ بجرأة حبيبتي، أو أستخف بالضغط الجنسي على النساء؛ لأن سيبل لم تسلمني نفسها إلا بعد رؤيتها أن «نيتي جدية»، أي عندما آمنت «بأنني موضع ثقة»، أي عندما أدركت أنني في النهاية سأتزوجها بالتأكيد. ولأنني صاحب مسئولية ورجل مستقيم فمن المؤكد أنني كنت عازمًا على الزواج من سيبل، وكنت أريد هذا بشدة، ولكنني حتى لو لم أرد، لم يعد بإمكاني تركها لأنها «منحتني بكارتها». الشعور بالمسئولية هذا كان يلقي بظلاله على شعور آخر هو شعور «الحرية والحداثة» (من المؤكد أننا لم نكن نستخدم هذه الكلمات عن أنفسنا) نتيجة ممارستنا الحب قبل الزواج، ولكنه يقرب أحدنا من الآخر.

أشعر بظل مشابه عندما أنتبه إلى تلميحات سيبل، وهلعها في موضوع زواجنا في أقرب فرصة. ولكن هناك لحظات كنا سعداء جدًّا فيها عند ممارستنا الحب في المكتب. أذكر اعتقادي بأنني محظوظ جدًّا، وسأكون معها سعيدًا إلى آخر حياتي عند عناقها في ظلمة الغرفة أثناء تناهي ضجيج الحافلات والمواصلات من شارع خلاصكار غازي. بعد ممارستنا الحب ذات مرة، وأثناء تدخيني سيجارة، ونفض رمادها في منفضة السجائر المكتوب عليها صاطصاط، جلست سيبل على مقعد سكرتيرتي السيدة زينب شبه عارية، وأثناء طقطقتها على الآلة الكاتبة، مثلت دور «السكرتيرة الغبية الشقراء» التي تشغف بها المجلات الساخرة والرسوم الكاريكاتيرية وهي تضحك مطلقة صوتًا خفيفًا.

٥ ـ مطعم فوآية

كان مطعم فوآية (استراحة المسرح) الذي بحثت بعد سنوات طويلة عن قائمة طعامه المصورة، وأحد إعلاناته وعلبة ثقابه الخاصة ومناديله، ووجدتها، وعرضتها، أحد مطاعم الطراز الأوربي (تقليد الفرنسي)، وقد أصبح خلال فترة قصيرة أحد المطاعم الأثيرة لدى عدد محدود من الأغنياء (إذا أردنا أن نستخدم التسمية الساخرة لزوايا الشائعات: «الطبقة الراقية») الذين يعيشون في بيه أوغلو وشيشلي ونيشان طاش. ولا تطلق هذه المطاعم على أنفسها أسماء تبرز لزبائنها أنهم في مدينة أوربية مثل «أمباسدور»، «ماجستيك»، «رويال»، بل أسماء تذكر بأنهم على أطراف أوربا، وفي إسطنبول مثل: «كواليس»، مردوان (درج)، «فوآية». ومع تفضيل أغنياء الجيل اللاحق الأطعمة التي كانت تطبخها جداتهم في مطاعم أبهة، فتحت محلات تجمع أسماؤها بين التقليدي والأبهة مثل: «خنذان» (الأسرة المالكة)، «سلطان»، «هنغار» (حاكم)، «باشا»، «وزير»، ونُسي فوآية.

أثناء تناولنا العشاء في مطعم فوآية مساء اليوم الذي اشتُريت فيه الحقيبة، قلت لسيبل: «أليس من الأفضل أن نلتقي في شقة والدتي في بناء «مرحمة»؟ إنها تطل على حديقة خلفية جميلة».

قالت سيبل: «هل تعتقد بأن انتقالنا إلى بيتنا الخاص بعد خطوبتنا وزواجنا يتأخر؟».

«لا يا روحي، ليس هناك شيء كهذا».

«لا أريد أن ألتقي بك في شقق سرية مثل المذنبين كأنني خليلة».

«معك حق».

«كيف خطر ببالك اللقاء في تلك الشقة الآن؟».

قلت: «لا تهتمي!». وألقيت نظرة على زحام مطعم فوآية السعيد، وأخرجت الحقيبة التي أخفيها في كيس نايلون.

قالت سيبل بشعور استلام هدية: «ما هذه؟».

«مفاجأة! افتحيها، وانظري».

«بجد؟». أثناء فتحها كيس النايلون ارتسم على وجهها تعبير نشوة طفولية، حل محلها تعبير متسائل عندما رأت الحقيبة، ثم تعبير عن الخيبة لم تستطع إخفاءه.

ذكّرتُها بسرعة: «هل تذكرت؟ إنها التي رأيتها في الواجهة، وأعجبتك عندما رافقتك إلى بيتك مساء أول البارحة».

«نعم، أنت لطيف جدًّا».

«فرحت لأنها أعجبتك. ستليق بك هذه الحقيبة في الخطوبة».

قالت سيبل: «للأسف أن الحقيبة التي سأحملها في الخطوبة حُددت منذ زمن. آا، لا تحزن! إنها هدية جميلة، واشتريتها لي بلطف كبير... حسن، سأخبرك لكي لا تحزن. لا يمكن أن أحمل هذه الحقيبة في خطوبتي لأنها مزورة!».

«كيف؟».

«هذه ليست حقيبة جيني كولون حقيقية يا عزيزي كمال. هذه مزوّرة».

«كيف عرفت؟».

«من كل ما فيها يا عزيزي. انظر إلى خياطة تثبيت الماركة على الجلد. وانظر إلى جيني كولون الأصلية التي اشتريتها من باريس، كيف خياطة ماركتها؟ جيني كولون ليست أغلى ماركة في فرنسا والعالم هكذا دون سبب. لا يمكن أن تستخدم هذا الخيط الرخيص..».

في أثناء النظر إلى خياطة الحقيبة الأصلية، تساءلت عن سبب شعور خطيبتي المستقبلية بالنصر ذات لحظة. كون سيبل ابنة سفير متقاعد باع آخر مقاسمه الآيلة إليه من جده الباشا، وصفّر، بمعنى من المعاني «ابنة موظف»، يشعرها بالقلق وعدم الثقة أحيانًا. عندما يُسيطر عليها هذا القلق تروي عن عزف جدتها على البيانو، أو جدها الذي قدم خدمات في حرب الاستقلال، أو قرب جدها لأمها من عبد الحميد، وأنا أتأثر بخجل سيبل في هذا الموضوع، وأحبها أكثر. بفضل زيادة عدد سكان إسطنبول إلى ثلاثة أضعاف في مطلع السبعينيات مع نمو قطاع النسيج والتصدير، تضاعفت أسعار مقاسم البناء في حينا، ونمت شركات والدي في العقد الأخير كثيرًا، وازدادت ثروة العائلة خمسة أضعاف، ولكن كما يبدو من كنيتنا «بصمجي» (الطباع) فإننا أغنياء في قطاع النسيج منذ ثلاثة أجيال. أقلقني ظهور أن الحقيبة الأوربية «مزورة» على الرغم من جهود الأجيال الثلاثة هذ.

عندما رأت سيبل أن مزاجي قد تعكر، داعبت يدي، وسألتني: «كم دفعت بالحقيبة؟».

قلت: «ألف وخمسمائة ليرة. إذا لم تريديها، أبدلها غدًا».

«لا تبدلها يا روحي، استعد نقودها. لأنهم خوزقوك بشكل سيئ».

قلتُ رافعًا حاجبي إلى الأعلى كثيرًا مستغربًا بشدة: «صاحبة المحل السيدة شيناي، هي قريبتنا من بعيد!».

في أثناء عبث سيبل بمحتويات حقيبتها التي استعادتها وهي شاردة، قالت مبتسمة بحنان: «لديك كل هذه المعرفة والذكاء والثقافة، ولكنك لا تفهم كيف يمكن للنساء أن يخدعنك».

٦ - دموع فسون

ظهيرة اليوم التالي، ذهبتُ إلى «بوتيك شانزليزيه» حاملًا كيس النايلون نفسه وفيه الحقيبة. اعتقدت ثانية بأن أحدًا لا يوجد في الدكان الذي بدا لي خفيف البرودة ومظلمًا بعد قرع الجرس. ما إن خيّم الصمت الساحر على الدكان شبه المظلم حتى غرد الكناري. رأيتُ ظل فسون خلف حاجز بين أوراق أصيص بخور مريم الكبيرة. كانت بجوار امرأة بدينة تجرب ثوبًا في غرفة القياس. كانت ترتدي هذه المرة قميصًا ظريفًا مغطى بزهر الخزامى والأزهار البرية والأوراق، ولائقا جدًّا بها. عندما رأتني ابتسمت بشكل جميل...

قلت لها: «يبدو أنك مشغولة» وأشرت نحو غرفة القياس.

قالت وكأنها تشارك زبونًا قديمًا خصوصية الدكان: «سينتهي عملنا حالًا».

كان طائر الكناري يغيّر مكانه بين الأعلى والأسفل في القفص. وقعت عيني على بعض الأشياء المستوردة من أوربا ومجلات الأزياء في إحدى الزوايا، ولكن عقلي لم يكن مستعدًّا للتركيز على أي شيء. حُفرت في قلبي ثانية الحقيقة اللافتة التي أردت نسيانها، واعتبارها أمرًا طبيعيًّا. أثناء نظري إليها، شعرت بأنني أنظر إلى أحد أعرفه جيدًا. كانت تشبهني. كان شعري أجعدَ وأسود في طفولتي مثل شعرها، وقد أصبح سابلًا مع تقدمي

بالعمر مثل فسون. كأنني أستطيع أن أضع نفسي مكانها بسهولة، وأفهمها بعمق. يُظهر القميص المزهر الذي ترتديه طبيعية شعرها، وصباغه الحالي الأصفر بشكل أكبر. تذكرت بألم قول أصدقائي عنها «خريجة بلاي بوي». هل يمكن أن تكون قد ضاجعتهم؟ قلت لنفسي: «أعد الحقيبة، واسترد نقودك، واذهب. إنك على وشك أن تخطب فتاة رائعة». كنت أنظر إلى الخارج، نحو ساحة نيشان طاشِ، فجأة انعكس خيال فسون كأنه شبح في الواجهة الضبابية.

عندما خرجت المرأة التي جربت الثوب من دون أن تشتري شيئًا وهي تنفخ، بدأت فسون بطيّ اللصيقات، ووضعها مكانها. قالت: «رأيتكم البارحة مساء على الرصيف». وقد فتحت فمها الجذاب إلى أقصاه. عندما ابتسمت بلذة، انتبهت إلى أن شفتيها مدهونتان بطلاء شفاه زهري. كان طلاء الشفاه المحلي البسيط ماركة ميسلين رائجًا بقوة، ولكنه أثر عليها بشكل غريب.

سألتها: «متى رأيتنا؟».

«مساء. كنتم مع الآنسة سيبل. أنا كنت على الرصيف المقابل. هل كنتما ذاهبين إلى العشاء؟».

«نعم».

قالت مثل بعض العجائز الذين يستمتعون برؤية الشباب سعداء: «مناسبان جدًّا بعضكما لبعض».

لم أسألها من أين تعرف سيبل. قلت لها: «لي رجاء صغير منكم». وشعرت بخجل وارتباك أثناء إخراج الحقيبة: «أريد أن أعيد هذه».

«طبعًا أبدلها. لأعطيكم هذين القفازين الأنيقين، أو هذه القبعة القادمة توًّا من باريس. ألم تعجب الحقيبة الآنسة سيبل؟».

قلت بخجل: «لن أبدلها. أريد استرداد ثمنها».

رأيت تعبير دهشة على وجهها، ويكاد يكون خوفًا، سألت: «لماذا؟».

همست: «هذه الحقيبة ليست جيني كولون أصلية، إنها مزورة».

«كيف!».

قلتُ بيأس: «أنا لا أفهم بهذه الأمور».

قالت بحزم: «لا يمكن أن يحدث شيء كهذا هنا. هل تريدون نقودكم فورًا؟».

«نعم!».

ظهر على وجهها تعبير ألم شديد. قلت لنفسي، يا إلهي، لماذا لم أرمِ هذه الحقيبة إلى الزبالة، وأقول لسيبل إنني أعدتها، واسترجعت نقودي! قلت لها مع محاولة الابتسام: «انظري، الأمر لا يتعلق بك أو بالسيدة شيناي. كل شيء ينتشر في أوربا، نعمل نحن الأتراك تقليده ما شاء الله. بالنسبة إليّ (هل كنت يجب أن أقول بالنسبة إلينا؟) يكفي أن تسد الحقيبة حاجة الإنسان، وأن تليق بيد المرأة. ليس مهمًّا ماركتها، وكونها أصلية». ولكنها لم تؤمن بكلماتي مثلي.

قالت بحدة: «لا، سأعيد لكم نقودكم». وأطرقتُ خجلًا كأنني راض بقدري.

على الرغم من كثافة لحظة الخجل تلك، شعرت بأن فسون لم تفعل ما يجب أن تفعله، وأن في الأمر غرابة. تنظر فسون إلى الخزنة كأنها تنظر إلى شيء سحري فيه جان، ولا تستطيع الاقتراب بأي شكل. سيطر علي الهلع عندما رأيت وجهها مقطبًا، والدموع متراكمة في عينيها، وخطوت خطوتين نحوها.

بدأت تبكي بشكل خفيف. ضممتها، ولم أعرف في أي وقت كيف حدث هذا. هي أيضًا أسندت رأسها على صدري، وبكت. همستُ: «عدم المؤاخذة يا فسون». وداعبتُ شعرها الناعم، وجبينها. «انسي هذا رجاء. في النهاية حقيبة تبيّن أنها مزورة».

نشقتْ كطفل، ونشجتْ مرتين، ثم عادت إلى البكاء. شعرتُ بدوار نتيجة لمس ذراعيها الطويلتين الجميلتين وجذعها، وشعوري بصدرها، وإمساكي بها هكذا للحظة: لعل تأجج الشعور بأنني أعرفها منذ سنوات طويلة، وحقيقة الأمر أننا قريبان جدًّا. هو من أجل إخفاء الرغبة المتصاعدة في داخلي إزاء كل لمسة. كانت هي أختي الصغيرة الجميلة والحلوة والحزينة التي يصعب إرضاؤها! لعلني شعرت بالتشابه بطول أذرعنا وسيقاننا، وبنية عظمنا الرقيقة، وهشاشة أكتافنا نتيجة معرفتي المسبقة بأننا قريبان من بعيد. لو كنتُ فتاةً، وأصغر باثنتي عشرة سنة، لكان جسمي على هذا النحو. قلت لها وأنا أداعب شعرها الأصفر الطويل: «لا يوجد ما يثير الحزن».

شرحت قائلة: «لا أستطيع فتح الخزنة، وإعادة نقودكم. لأن السيدة شيناي تقفل الخزنة، وتأخذ معها المفتاح عندما تذهب إلى بيتها في عطلة الظهر. وهذا ما يحزنني». أسندت رأسها إلى صدري من جديد، وبدأت تبكي. كنت أمسح على شعرها الجميل بحنان وانتباه. قالت وسط النشيج: «أنا أعمل هنا من أجل التعرف على الناس، وقضاء الوقت، وليس من أجل النقود».

قلت بغباء، ودون مشاعر: «يمكن للإنسان أن يعمل من أجل النقود أيضًا».

قالت مثل ولد حزين: «نعم. والدي مدرس متقاعد... بلغتُ الثامنة عشرة قبل أسبوعين، ولم أرد أن أكون عبئًا عليهم».

خفت من الحيوان الجنسي الذي بدأ يتلوى، وينتفض في داخلي، وسحبتُ يدي عن شعرها. هي أيضًا أدركت هذا، واستجمعت نفسها، وابتعد أحدنا عن الآخر.

بعد أن فركت عينيها، قالت: «رجاء، لا تخبر أحدًا أنني بكيت».

قلت: «وعد. أقسم لك، نحن كاتما أسرار بعضنا بعضًا يا فسون..».

رأيتها تبتسم. قلت: «لأترك الحقيبة الآن، وآتي فيما بعد لأستعيد النقود».

«لتبق الحقيبة إن أردتم، ولكن لا تأتوا لأخذ نقودها. ستصر السيدة شيناي على أنها ليست تقليدًا، وتحزنكم».

«لنبدلها بشيء آخر إذًا».

قالت بموقف فتاة صاحبة كرامة وخجولة: «هذا أنا لم أعد أقبل به».

تدخلتُ: «لا، ليس مهمًّا نهائيًّا».

قالت بحزم: «ولكن هذا مهم بالنسبة إليّ. عندما تأتي السيدة شيناي إلى الدكان، أنا آخذ ثمن الحقيبة منها».

أجبت قائلًا: «لا أريد أن تحزنك هذه المرأة أكثر».

قالت بابتسامة غير واضحة تمامًا: «لا، أنا وجدتُ طريقة منذ الآن. سأقول لدى الآنسة سيبل حقيبة مثلها تمامًا، لذلك طلب إعادتها، ممكن؟».

قلت: «فكرة جيدة. وأنا هذا ما أقوله للسيدة شيناي».

قالت فسون بحزم: «لا، لا تقولوا لها أي شيء أنتم. لأنها ستبدأ باستدراجكم بالكلام. لا تأتوا إلى الدكان نهائيًّا. أنا أودع النقود عند الخالة وجيهة».

«أرجوك، علينا ألا ندخل أمي بهذه الموضوعات، فهي فضولية جدًّا».

قالت فسون رافعة حاجبيها: «أين أودع لكم النقود إذًا؟».

قلت: «لدى والدتي شقة في شارع تشويكية، رقم ١٣١، بناء مرحمة. كنت أغلق على نفسي فيها، وأدرس وأستمع للموسيقى قبل ذهابي إلى أمريكا. مكان جميل جدًّا يطل على حديقة خلفية... والآن أخرج من العمل كل يوم بعد الظهر، وأغلق على نفسي هناك بين الثانية والرابعة، وأعمل وحدي».

«طبعًا. آخذ نقودكم إلى هناك. كم رقم الشقة؟».

قلـت كأنني أهمس: «أربعـة» في أثناء ذهابي، خرجت أربع كلمات ذاوية من فمي بصعوبة: «الطابق الثاني. أستودعك الله».

بـدأ قلبـي يتحـرك بجنون لأنـه أدرك الوضع. قبـل أن ألقي بنفسـي إلى الخارج، اسـتجمعت قواي كلها، وألقيت نظرة إليها كأن كل شـيء طبيعي. عندمـا امتزجت مشـاعر الخجل والندم مع خيالات السـعادة فور خروجي إلـى الشـارع، بدأت تبـدو لي أرصفة نيشـان طاش فـي حر الربيع الشـديد شـديدة الصفرة بشكل سحري. أخذتني قدماي عبر الظل، وتحت شماسي الدكاكيـن ذات الأقـلام العريضـة بـالأزرق والأبيـض المفتوحـة لحمايـة الواجهـات وتحت السـقيفات، وفجأة رأيت فـي إحدى الواجهـات إبريقًا شـديد الصفرة، فدخلت واشـتريته. وعلـى عكس ما يحدث للأشـياء التي تُشترى بشكل عفوي، صمد الإبريق الأصفر عشرين عامًا على مائدة والدي ووالدتي بداية، ثم على مائدتي مع أمي دون أن يحكى حوله أي شيء. كلما أمسكت مقبض الإبريق الأصفر على طعام العشاء، أتذكر أيام بداية التعاسة حيـن دفعتني الحياة إلى داخلها، وبدأت أمـي تصفعني بنظراتها التي تمزج بين التأنيب والحزن.

حيـن رأتنـي أمـي أمامها قـرب المسـاء، فرحـت، ونظرت إلـي نظرة بمعنـى: «خيـر إن شـاء اللـه؟»، فقبلتهـا. قلـت: «إن هـذا الإبريـق جذب نظري، فاشتريته». وأضفت: «أعطني مفتاح شقة بناء مرحمة! أحيانًا يكون المكتب مزدحمًا جدًّا، فلا أسـتطيع العمـل. لنرى ما إذا كان المكان هناك مناسبًا؟ كنتُ أغلق على نفسي هناكِ في شبابي، وأدرس جيدًا».

قالـت أمي: «المـكان هناك مغبرّ كثيـرًا». ولكنها جلبت مـن غرفتها فورًا مفتاحي البابين الخارجي والشـقة المربوطين بشريط أحمر. في أثناء إعطائي المفتاح قالت: «هل تذكـر المزهرية ذات الأزهار الحمراء إنتاج «كوتاهية»؟ إننـي لا أجدهـا فـي البيت، انظـر ما إذا كنت قـد أخذتها إلى هنـاك! لا تعمل كثيرًا... عَمِلَ والدك طوال عمره من أجل أن تستمتعوا أنتم أولاده، وتسعدوا.

تنزه مع سيبل، واستمتعا بطعم الربيع، والهوا». وأثناء وضعها المفتاح بيدي، قالت برفقة نظرة غامضة: «انتبه!». عندما كانت أمي تنظر إلينا في صغرنا هذه النظـرة، فهي تشـير إلى مـا يمكن أن يأتي مـن الحياة، وخطـورة أعمق وأكثر غموضًا من إيداع مفتاح.

٧ ـ بناء مرحمة

اشـترت أمـي شـقة بناء مرحمـة قبل عشـرين عامًا مـن أجل الاسـتثمار، وليكـون عندهـا مـكان يمكـن أن تذهب إليـه لتريح رأسـها أحيانًـا، ولكنها سـرعان ما بدأت تسـتخدمها مكانًا تلقي فيه الأشـياء القديمة التي قررت أن طرازها قد مضى، والأشـياء الجديدة التي اشـترتها، وسـرعان ما ملّت منها. كنت أجد اسـم البناء الذي أحب حديقته الخلفية التي تظللها أشـجار السرو والكسـتناء الضخمـة، ويلعـب فيها الأولاد كـرة القدم مثيـرًا للمرح، وأحب قصة هذا الاسم الذي تستمتع والدتي بقصها.

عندمـا اشـترط أتاتورك على الأمـة التركية كلها أن تختـار كنيات في عام ١٩٣٤، بـدأ يطلق على كثير من الأبنية التي تبنى حديثًا في إسـطنبول أسـماء العائلات. وقد كان هذا منطقيًّا لأن أسـماء الأزقة في إسـطنبول وأرقامها لم تكن متطابقة، واعتبرت العائلات الكبيرة والغنية التي تسـكن بشكل جماعي فـي دور ضخمـة الأبنيـة الطابقية مثل تلك الـدور، (لدى كثير مـن العائلات الغنيـة التي سـأذكرها في قصتي هذه أبنية تحمل اسـمها) الاتجـاه الثاني في تسـمية الأبنية خـلال الفترة ذاتها هي إطلاق أسـماء قيم رفيعـة، وكانت أمي تقول عن الذين يسـمون أبنيتهم «حرية»، «عناية»، «فضيلة»، هم الأشـخاص الذين داسـوا طوال حياتهم على هذه القيم. بدأ غني مسـنّ عمل في الحرب العالميـة الأولى بتجارة السـكر في السـوق السـوداء ببناء بنـاء مرحمة تحت ضغـط عـذاب الضمير. فهـم ابناه (ابنة أحدهمـا كانت زميلتي في المدرسـة

الابتدائيـة) أن الرجـل سـيوقف دخـل البنـاء للفقـراء، فأثبتا بموجـب تقرير الطبيـب أن والدهمـا خَـرِف، ورمياه في بيـت العجزة، ووضعـا يدهما على البناء، ولكنهما لم يغيرا اسمه الذي كنت أجده في طفولتي غريبًا.

فـي اليوم التالي المصادف الأربعاء ٣٠ نيسـان/ إبريل ١٩٧٥ كنت أنتظر فسـون في بنـاء مرحمة بيـن الثانية والرابعـة، ولكنها لـم تأتِ. شـعرت بجرح خفيـف بقلبـي، وتشـوش عقلي، وكنت أشـعر بقلـق عميق أثنـاء عودتي إلى المكتب. في اليوم التالي ذهبت ثانية إلى الشقة كأنني أريد أن أهدئ من قلقي. ولكـن فسـون لـم تأتِ أيضًا. كنـت أرى في الغرف الخانقـة كثيرًا من ذكريات الطفولة والشـباب بين المزهريات والثياب والأشـياء القديمة المغطاة بالغبار التـي وضعتها أمي هناك، ونسيتها، وأسـتعرض الصور التـي صورها والدي بشكل غير متقن، وأتذكر مناسباتها، وكأن قوة الأشياء تلك تهدئ قلقي.

فـي أثنـاء تناولـي الغداء مـع وكيـل صاطصاط فـي قيصـري (زميلي في الجنديـة) عبد الكريم فـي مطعم الحاج عارف في بيه أوغلو، تذكرت بخجل انتظاري فسون في الشقة الفارغة ليومين متتاليين. ولكنني نظرت إلى ساعتي بعد عشرين دقيقة، وتخيلت بأن فسون تسير باتجاه بناء مرحمة من أجل إعادة ثمـن الحقيبـة، فلفقت كذبـة على عبد الكريـم، وأنهيت الطعـام على عجل، وهرعت إلى بناء مرحمة.

بعد عشـرين دقيقة من دخولي الشقة، قرعت فسـون الباب. أي يجب أن تكون فسون هي التي قرعت الباب. وأنا ذاهب نحو الباب تذكرت أنني رأيت في حلمي أنني أفتح لها الباب.

كانت تحمل شمسية. شعرها رطب. عليها ثوب أصفر منقط.

«آآ، كنت أعتقد أنك نسيتني. ادخلي».

قالت: «لا أريد أن أزعجك. لأعطيك النقود، وأذهب». كان بيدها ظرف مسـتعمل كُتب عليه «مدرسـة التفوق للدورات»، ولكنني لم آخذه. أمسكتها من كتفها، وسحبتها إلى الداخل، وأغلقت الباب.

قلـت من دون معرفـة: «إنها تمطـر كثيـرًا». ولكنني في الحقيقـة لـم أنتبه للمطر. «اجلسـي قليلًا، ولا تتبللي سـدى. أنا أعد الشـاي، تدفئين نفسـك». وذهبت إلى المطبخ.

عندمـا عـدت، كانـت فسـون تنظـر إلـى الأشـياء القديمـة، والأثرية، والتماثيـل، والسـاعات المغطـاة بالغبـار، وعلـب القبعـات، والأغـراض المختلفـة. ولكي أريحهـا رويت لها كيف اشـترت والدتي هذه الأغراض مـن دكاكين نيشـان طاش وبيـه أوغلو التـي تعرض آخر الطـرز، ومن دور الباشـاوات المتبعثـرة والشـاليهات المحروقـة نصفها، ومن باعة الأشـياء الأثرية، وحتـى من التكايا المفرغة، ومن مختلف المحلات أثناء رحلاتها العديـدة إلى أوربا، وبعد أن اسـتخدمتها فترة، أرسـلتها إلى هنا، ونسـيتها تمامًـا، وكنـت أدس الطرائـف أثنـاء الحديـث. وكنت أفتـح الخزائن التي تفوح منها رائحة النفتالين والغبار، وأريها لفات القماش، والعجلة الهوائية التـي لعبنا عليها كلانا في طفولتنا (كانت أمي تـوزع ما يعتق لدينا لأقربائنا الفقراء)، ومقعدة، والمزهرية الكوتاهية ذات الزهر الأحمر التي قالت أمي «انظر، هل هي هناك؟»، وعلب قبعاتها الكثيرة.

ذكرتني سـكرية كريسـتال بطعام العيد القديـم. كنا نضيّف فـي العيد بهذه السـكرية الحاوية خليطًا من السـكر المعقود وسكاكر اللوز، ومسحوق اللوز، والسكاكر بجوز الهند عندما تزورنا فسون مع والدها ووالدتها.

قالـت فسـون وقـد قدحـت عينيهـا: «خرجت معـك ذات عيـد أضحى، وتنزهنا بالسيارة».

تذكرت نزهتنا، قلت لها: «كنت يومئذ طفلة. والآن أصبحت صبية جميلة جدًّا جذابة جدًّا».

«شكرًا لك، لأذهب أنا».

«لم تشربي شايك بعد. ولـم يهدأ المطر». وسحبتها إلى أمام باب الشرفة، وأفرجت الستارة الرقيقة بشكل خفيف.

نظـرت عبر النافذة إلى الخـارج باهتمام كما يفعل الأطفـال الذين يأتون إلـى مـكان أو بيت جديد أول مـرة، أو الفتيان الذين لـم يتلقوا ركلات الزمن بعد، ولديهم فضول ومنفتحون على كل شـيء. نظـرتُ برغبة إلى رقبتها من الخلـف، وصدرها، وبشـرتها التي تجعـل خديها جذابين إلى هـذه الدرجة، والشـامات العديدة الناعمة التي لا تُميّز من بعيد (أما كان لدى جدتي شـامة لحميـة هنا في هذا المـكان بالضبط؟). امتدت يدي تلقائيًّا كأنها يد شـخص آخر، وأمسكت ربطة شعرها. كان ثمة أربعة أزهار ناعمة على الربطة.

«ترطب شعرك كثيرًا».

«هل أخبرت أحدًا بأنني بكيت في الدكان؟».

«لا. ولكنني أود كثيرًا معرفة سبب بكائك».

«لماذا؟».

قلت: «فكرت بك كثيرًا. أنت جميلة جدًّا، ومختلفة جدًّا. أتذكر جيدًا أنك تلك الفتاة الصغيرة الحلوة والسـمراء. ولكن لم يخطر ببالي أنك ستصبحين جميلة إلى هذه الدرجة».

ابتسـمت بشكل متوازن كما تفعل الفتيات الجميلات المعتادات على المجاملة، ورفعت حاجبيها بشك. خيم صمت. ابتعدت عني خطوة.

غيرت الموضوع قائلًا: «ماذا قالت السيدة شيناي؟ هل قبلت بأن الحقيبة مزورة؟».

«غضبـت. ولكنها عندما فهمـت أنكم تركتم الحقيبة، وتريدون اسـتعادة ثمنهـا، لـم ترد أن تكبّر الموضوع، وطلبت مني أن أنسـاه. أعتقد أنها تعلم أن الحقيبـة تقليد. هي لا تعـرف أنني جئت إلى هنا. قلت لها إنكم مررتم ظهرًا، وأخذتم نقودكم. علي أن أذهب الآن».

«لا يمكن دون أن تشربي الشاي!».

لأجلب لك شايك من المطبخ. تابعت نفخها على الشاي بشكل خفيف،

ثم ارتشافها بدقة وعجلة. بمشاعر تمزج بين الإعجاب والخجل، والشفقة والفرح... امتدت يدي تلقائيًّا، وداعبت شعرها. قربت رأسي من وجهها، وحين رأيت أنها لم تتراجع، قبلتها من طرف شفتها. امتقعت بالحمرة. لم تستطع حماية نفسها مني لأن يديها مشغولتان بفنجان الشاي الساخن. غضبت مني، وتشوش عقلها، شعرت بهذا أيضًا.

قالت بتباه: «أحب تبادل القبل كثيرًا، ولكن لا يجوز الآن معكم».

قلت محاولًا أن أكون ولدًا غرًّا: «هل تبادلت القبل كثيرًا؟».

«طبعًا تبادلت القبل. ولكن ليس كثيرًا».

بنظرة أشعرتني بأن الرجال جميعًا متشابهون للأسف، وألقت نظرة أخيرة على الغرفة والأشياء، والسرير ذي الملاءة الزرقاء الذي لم يرتب تمامًا بقصد مني. رأيت أنها تراقب الوضع بعقلها، ولكن لم يخطر بعقلي أي شيء يمكّنني من الاستمرار باللعبة.

كنت قد وضعت طربوشًا مصنوعًا خصيصًا للسياح وقع تحت نظري في إحدى الخزائن على طاولة صغيرة ليبدو الوضع طريفًا. رأتني أنني انتبهت إلى الظرف المليء بالنقود مسنودًا إلى الطربوش عندما جلت ببصري على الغرفة، ولكنها على الرغم من هذا قالت: «تركت الظرف هناك».

«لا يمكنك الذهاب قبل أن تشربي الشاي».

قالت: «تأخرت». ولكنها لم تذهب.

في أثناء شربنا الشاي تحدثنا عن أقربائنا وطفولتنا، وذكرياتنا المشتركة دون أن نجرح أحدًا، أو نسيء إلى أحد. قالت بأن أمها كانت تحترم والدتي وتخاف منها دائمًا، وأن والدتي أكثر من اهتم بها في طفولتها، وحتى إنها أعطتها الكلب والأرنب اللذين يُشدان بالنابض وتحبهما فسون كثيرًا لتلعب بهما، وخافت كثيرًا أن يخربا، وأرسلت

لها هدايا في كل عيد ميلاد مع السائق تشتين أفندي حتى مشاركتها في مسابقة الجمال: مثلًا هناك مشكال ما زالت تخبئه حتى الآن... كانت أمي إذا أرسلت لها ثوبًا، فتشتريه أكبر من مقاسها بعدة درجات لكي لا يصغر فورًا. كان هناك تنورة إسكتلندية ذات دبابيس شكل كبيرة لم تستطع لبسها إلا بعد عام، وقد أحبتها إلى درجة أنها لبستها فيما بعد (ميني جيب) على الرغم من عدم كونها طرازًا رائجًا. قلت لها إنني رأيتها ذات مرة بتلك التنورة في نيشان طاش. وغيرنا الموضوع فورًا إلى خصرها النحيل، وساقيها الجميلتين. كان هناك الخال ثريا المصروع بعقله. كان يزور أفراد العائلة المتباعدين جميعًا بمراسم كلما عاد من ألمانيا، وبفضله يعلم الجميع أخبار بعضهم بعضًا.

قالت فسون مسيطرًا عليها الانفعال: «صباح ذلك العيد الذي خرجنا فيه بنزهة السيارة كان الخال ثريا في البيت». لبست معطفها المطري بسرعة. بدأت تبحث عن شمسيتها. لم تستطع إيجادها، لأنني أثناء ترددي إلى المطبخ، رميتها بلمح البصر إلى خلف الخزانة ذات المرآة.

قلت لها وأنا أبحث معها بجدية أكبر عن الشمسية: «ألا تذكرين أين وضعتها؟».

قالت ببراءة: «تركتها هنا». وأشارت نحو الخزانة ذات المرآة.

أثناء بحثنا معًا في الشقة كلها، سألتها السؤال الأثير لصحافة المنوعات: «ماذا تفعلين في أوقات فراغك؟». لم تستطع الدخول إلى الجامعة في السنة الماضية لأنها لم تحصل على المجموع المطلوب للفرع الذي تريده. وهي الآن تذهب إلى «مدرسة التفوق للدورات» في الوقت المتبقي لها من بوتيك شانزليزيه. وهي تدرس كثيرًا لأنه لم يبق سوى شهر ونصف الشهر لامتحان الدخول إلى الجامعة.

«أي فرع تريدين؟».

قالـت بقليـل مـن الخجـل: «لا أعـرف. فـي الحقيقـة أنني أريـد دخول الكونسرفتوار من أجل أن أصبح ممثلة».

قلـت: «الوقت يذهب سـدى في مدارس الدورات تلـك، فهي عبارة عن أماكـن تجارية. إذا كانت هناك موضوعات تجديـن فيها صعوبة، وخصوصا في الرياضيات، تعالي إلى هنا، فأنا كل يوم بعد الظهر أغلق على نفسـي هنا، وأعمل. أحل لك الموضوعات بسرعة».

قالـت: «هل تحل رياضيات لفتيات أخريـات؟». وارتفع حاجباها بتعبير السخرية نفسه.

«لا يوجد فتيات أخريات».

«الآنسـة سـيبل تتـردد علـى دكاننـا. إنهـا جميلـة جـدًّا، ولذيـذة. متـى ستتزوجان؟».

«سنعلن خطوبتنا بعد شهر ونصف الشهر. هل تصلح هذه الشمسية؟».

أشـرت إلى شمسـية أمي الصيفية التي اشـترتها من نيس. قالت بأنها من الطبيعي ألا تسـتطيع العودة إلى الدكان وهي تحمل هذه الشمسـية. فوق هذا فهـي تريد الخـروج من هنا، وغير مهم مـا إذا وجدت الشمسـية أم لا. قالت بفـرح: «هدأ المطر». في أثناء خروجها من الباب شـعرت بأنني لن ألتقي بها ثانية، وارتبكت.

قلت: «رجاء تعالي ثانية، ولنشرب شايا فقط».

«لا تغضبـوا يـا أخ كمال، فلا أريـد أن آتي مرة أخـرى. وتعرفون أنني لن آتي. لا تشغلوا بالكم، لن أخبر أحدًا بأنكم قبلتموني».

«ماذا عن الشمسية؟».

قالت: «الشمسـية للسيدة شـيناي، لتبق». قبلتني من خدي بحركة سريعة قبلة لا تنقصها العاطفة، وذهبت.

٨ ـ أول مياه غازية بالفواكه تركية

أعرض هنا إعلانات «ملتم» أول مياه غازية بالفواكه تركية في الجرائد، وأفلامها الدعائية، ونماذجها التي بالفراولة والدراق والبرتقال والكرز الحامض التي تذكرنا بسعادة تلك الأيام وراحتها. كان «زعيم» يقيم وليمة كبرى في شقته ذات الإطلالة الواقعة في أياس باشا من أجل الاحتفال بإنتاج مياه ملتم الغازية. ستلتقي مجموعة أصدقائنا كلها. كانت سيبل تسر من الدخول في وسط أصدقائي الشباب الأغنياء، ومن نزهات المراكب الشراعية في البوسفور، وحفلات عيد الميلاد المفاجئة، واللهو في النوادي الليلية، والركوب بالسيارات بشكل جماعي، والتنزه في شوارع إسطنبول، وتحب غالبية أصدقائي، ولكنها لا تحب زعيمًا. تقول إن زعيمًا محب كثيرًا للاستعراض، وملاحقة النساء، و«سوقي»، وتجد جلبه راقصة هز بطن على أنها «مفاجأة» في آخر الدعوات التي يقيمها، وإشعاله سجائر الفتيات بقداحته ذات شعار «بلاي بوي» تصرفات «شائعة». ولا يعجب سيبل دخول زعيم بعلاقات مع فنانات صغيرات وعارضات أزياء (كانت مهنة جديدة مثيرة للشك في تركيا في تلك الأيام) لن يتزوجهن نهائيًّا، ويعيش معهن مغامرات لمجرد أنهن يضاجعن الرجال دون زواج، وإقامته علاقات مع فتيات جيدات لا يصل بها إلى نتيجة. لهذا السبب، عندما قلت لها على الهاتف إنني لن أستطيع الذهاب إلى الدعوة مساء، وإنني متعب، ولن أستطيع الخروج، دهشتُ من خيبة أمل سيبل.

قالت سيبل: «قيل إن العارضة الألمانية التي مثلت بدعاية مياه ملتم الغازية، وصورت إعلانات الجرائد ستحضر أيضًا».

«دائمًا تقولين إن زعيمًا سيكون مثالًا سيئًا لي..».

«إذا لم تذهب إلى دعوة زعيم، فيجب أن تكون مريضًا بحق، انشغل بالي الآن. هل آتي لأراك؟».

«لا تهتمي. ترعاني أمي والسيدة فاطمة. إلى الغد أشفى».

فكرت بفسون وأنا متمدد في السرير بثيابي، وقررت نسيانها، وعدم رؤيتها نهائيًّا إلى آخر عمري.

٩ ـ ف

في اليوم التالي، أي في ٣ أيار/ مايو ١٩٧٥، وفي الساعة الثانية والنصف، جاءت فسون إلى بناء مرحمة، ومارست معي الحب «إلى النهاية» لأول مرة في حياتها. لم أذهب إلى الشقة في ذلك اليوم بخيال اللقاء بها. عندما بدأتُ أقص ما جرى لي بعد سنوات، أنا أيضًا أعتقد بأن جملتي هذه الأخيرة غير صحيحة، ولكن في الحقيقة أنه لم يخطر ببالي نهائيًّا أن فسون يمكن أن تأتي في ذلك اليوم... كانت ببالي كلمات فسون قبل يوم، وأغراض طفولتها، وقطع والدتي الأثرية، والساعات القديمة، والدراجة ذات العجلات الثلاث، والضوء الخافت الغريب في الشقة، ورائحة الغبار والقِدَم، والبقاء على انفراد، والنظر إلى الحديقة الخلفية... يجب أن يكون هذا ما شدني إلى هناك. وكان ببالي أيضًا التفكير بلقائنا قبل يوم، وعيشه مرة أخرى، وجلي فنجاني الشاي اللذين استخدمتهما مع فسون، ورفعهما، وجمع أغراض أمي، ونسياني العيب الذي أقدمت عليه... أثناء جمعي الأغراض وجدت صورة التقطها والدي وتظهر فيها الغرفة الداخلية والسرير والنافذة، وتذكرت بأن الغرفة لم تتغير منذ سنوات طويلة... وأذكر أنني توقعت أمي عندما قُرِع الباب.

قالت فسون: «جئت لآخذ الشمسية».

لم تدخل. قلت لها: «ادخلي». توقفت لحظة. دخلت بشعور أن الوقوف بالباب ليس لائقًا. أغلقتُ الباب خلفها. ارتدت ثوبًا زهريًا داكنًا عليه أزرار بيضاء يليق بها كثيرًا، ولفت حزامًا أبيض له إبزيم عريض يظهر خصرها أدق مما هو عليه. كانت لدي نقطة ضعف في أولى سنوات شبابي، وهي عدم

الشعور بالطمأنينة إلا عندما أكون حميميًّا مع الفتيات الجميلات والمفعمات بالأسرار. كنت أعتقد أنني تخلصت من هذه الحالة القلبية البريئة، وتبيّن لي أنني أخطأت:

قلت فجأة: «شمسيتك هنا». ومددت يدي إلى خلف الخزانة ذات المرآة، وأخرجت الشمسية من هناك. لم أسأل نفسي حتى لماذا ألقيتها إلى هناك.

«كيف سقطت هناك؟».

«في الحقيقة أنها لم تسقط. خبأتها البارحة لكي لا تذهبي بسرعة».

ترددت لحظة بين الابتسام وتقطيب حاجبيها. أمسكتها من يدها، وسحبتها إلى المطبخ بذريعة تحضير الشاي. كان المطبخ يفوح برائحة الرطوبة والغبار. تطور كل شيء هناك بسرعة، ولم نستطع ضبط نفسينا، وتبادلنا القبل. بعد قليل، كنا نتبادل القبل الطويلة بشغف. أعطت نفسها للقبل إلى درجة كبيرة بحيث لفت رقبتي بذراعيها، وأغمضت عينيها بقوة بحيث شعرتُ بأننا يمكن أن نتبادل ممارسة الحب «إلى النهاية».

ولكن هذا مستحيل لأنها عذراء. في أثناء تبادلنا القبل شعرتُ ذات لحظة بأن فسون قد اتخذت قرارها، وأنها جاءت إلى هنا لكي «تذهب معي إلى النهاية». ولكن هذا لا يحدث إلا في الأفلام الأجنبية. يبدو لي غريبًا أن تُقْدِمَ فتاةٌ على هذا الأمر هنا هكذا فجأة. لعلها ليست عذراء...

خرجنا من المطبخ ونحن نتبادل القبل، وجلسنا على حافة السرير، ودون مزيد من الدلال، ولكن دون أن ينظر أحدنا إلى عيني الآخر، خلعنا ألبستنا، ودخلنا تحت البطانية. كانت البطانية سميكة جدًّا، ويخزني وبرها كما كان يحدث في طفولتي، لذلك رميتها عنا بعد فترة، وظهرت حالتنا شبه العارية. كنا نتصبب عرقًا، ولكن لا أدري لماذا أراحنا هذا. كان يتسلل من بين طرفي الستارة المسدلة حزمة ضوء صفراء مائلة إلى البرتقالي، وتُري لون جسمها المتعرق البرونزي أكثر. تَمَكّنُ فسون الآن من النظر إلى جسمي كما نظرتُ إليها، ونظرها عن قرب إلى الجزء غير المؤدب المنتفخ والظاهر بقوة دون

أن تشعر بالهلع أو الاستغراب، وحتى فرجتها عليه بهدوء وشيء من الشفقة الضبابية التي تصل إلى درجة الرغبة، أثار فيّ الغيرة لأنها رأت غيره في أسرّة أخرى أو على أرائك أو مقاعد سيارات.

تركنا نفسينا لموسيقى لعبة المتعة والرغبة المتطورة تلقائيًّا، وأرى أن أي قصة حب معقولة يجب أن تشهدها. ولكن بعد فترة قصيرة، ظهر من خلال النظرات القلقة التي نتبادلها بأن أمامنا عملًا صعبًا يجب أن ننجزه. خلعت فسون قرطيها اللذين سيكونان أول قطعة من متحفنا، ووضعتهما جانبًا على الطاولة الصغيرة بعناية. قيامها بهذا الأمر مثل فتاة تخلع نظارتيها المقربتين قبل دخولها البحر بشعور الشغف بالعمل جعلني أول مرة أفكر بأننا يمكن أن نذهب إلى النهاية. كان الشباب في تلك السنوات يلبسون أساور وأساور ذات لوحات ولوّاحات عليها أول حرف من أسمائهم، لم أنتبه للقرطين نهائيًّا. أشعرني خلع فسون ملابسها قطعة وراء قطعة، وبالثبات نفسه سروالها الداخلي الصغير بالأمر نفسه، وهو أنها ستمارس معي الحب إلى النهاية. أتذكر في تلك السنوات أن الفتيات اللواتي لا يردن ممارسة الحب إلى النهاية يتركن سراويلهن الداخلية دون أن يخلعنها مثل تبان السباحة.

قبلتُ كفتيها اللتين تفوحان برائحة اللوز، لمست رقبتها المخملية المتعرقة بلساني، وشعرتُ بقشعريرة عندما رأيتُ بشرة ثدييها أكثف بدرجة من لون بشرة المنطقة المتوسطية على الرغم من عدم بدء موسم حمامات الشمس. إذا كان مدرسو الثانوية الذين يُقرِئون هذا الجزء من الرواية يشعرون بالحرج، يمكنهم أن يقترحوا على طلابهم القفز عن هذه الصفحة. أما الفضوليون الذين يجوبون المتحف فرجائي أن يشاهدوا الأشياء، ويكفي أن يفكروا بأنني قمت بما يجب أن أقوم به من أجل فسون التي تنظر إلي بعينيها الطافحتين بالحزن والخوف، ثم من أجلنا، ومن أجل متعتي بشكل قليل جدًّا. كأننا نحاول تجاوز صعوبة فرضتها علينا الحياة بتفاؤل. لهذا السبب، كنتُ أقول لها وسط كلماتي الحلوة أثناء ضغطي عليها: «هل

تتألمين يا روحي؟»، ولم استغرب تركيز نظرها علي دون إعطاء أي جواب، وصمتٌ. كنت أشعر بأن جسمها كله يرتجف بشكل خفيف وبعمق شديد (يمكنكم تصور ارتجاف عباد الشمس بشكل خفيف غير واضح في الهواء) وبأن ألمي هو في تلك النقطة التي أقترب منها أكثر.

فهمت من نظرات عينيها التي تهرب بهما مني، وتوجههما أحيانًا إلى الجزء السفلي من جذعها بدقة طبيب بأنها تسمع نفسها، وهذه هي المرة الأولى التي تعيش الحالة، وتريد أن تعيشها وحدها. وأنا يجب علي أن أفكر بمتعتي بأنانية من أجل إنهاء ما أقوم به، والخروج من هذا السفر الصعب مرتاحًا. وهكذا اكتشفنا بغريزتنا ضرورة عيشنا متعنا التي تربط أحدنا بالآخر من أجل الشعور بها بعمق أكبر، وفي أثناء تبادلنا العناق بقوة وقسوة، وحتى باندفاع شديد، بدأ أحدنا يستخدم الآخر من أجل متعته الخاصة فقط. كانت أصابع فسون التي تتمسك بظهري تشبه تمسك تلك الفتاة التي تستخدم النظارات المقربة، وتتعلم السباحة، ولحظة اعتقادها بأنها ستغرق، تتمسك بوالدها الذي هرع لنجدتها. عندما سألتها بعد عشرة أيام أثناء إغماض عينيها، وعناقي عن الفيلم الذي يريها إياه عقلها، قالت لي: «أرى حقلًا مغطى بعباد الشمس».

كان الأولاد الفرحون والمستمتعون والصادحون والمتصايحون ومتبادلو الشتائم وهم يلعبون كرة القدم في حديقة دار خير الدين باشا الخربة ونحن نمارس الحب في الأيام التالية يتصايحون ويتبادلون الشتائم وهم يلعبون الكرة يومئذ أيضًا. عندما توقف صياح الأولاد لحظة، خيّم على الغرفة صمتٌ خارق عدا بعض صيحات فسون الخجلة، وبعض أنين المتعة الذي أطلقه برغبة منح نفسي لها. أحيانًا كانت تتناهى أصوات صفارة شرطي المرور من بعيد في ساحة نيشان طاشِ، ومزامير السيارات، ومطرقة تدق مسمارًا: رفس ولد علبة كونسروة فارغة، أطلق نورس صيحة، كُسر فنجان، حفت أوراق شجرة الدلب بالنسيم.

خلال هذه الفترة كنا مضطجعين متعانقين نريد أن نخرج من عقولنا طقوس المجتمع البدائي بالاعتياد على الملاءة المدماة والألبسة المخلوعة وجسدينا العاريين، التفاصيل المخجلة التي يريد فهمها علماء الإنسان من أجل تصنيفها. بكت فسون فترة بصمت. لم تُصغ كثيرًا لكلماتي التي حاولت سلوانها بها. قالت إنها لن تنس هذا حتى آخر حياتها، وبكت قليلًا أيضًا، ثم صمتت.

لأن الحياة بعد سنين طويلة ستجعلني عالم سلوك إنساني لما عشته، لا أريد أن أستخف بالناس الشغوفين الذين يجلبون من البلدان البعيدة بعض المواعين والأشياء والأدوات، ويعرضونها بمحاولة لإعطاء معنى لحياتهم. ولكن الانتباه الشديد الذي يمكن أن يولى لآثار «ممارستنا الأولى للحب» وأشيائها، يمكن أن يعيق فهم مشاعر الحنان والشكر القوية المتطورة بيننا. لهذا السبب أعرض هنا المنديل القطني المزهّر المطوي بعناية ولم يخرج من حقيبة فسون نهائيًا في ذلك اليوم من أجل التعبير عن العناية في أثناء مداعبة حبيبتي البالغة الثامنة عشرة من عمرها لجسمي البالغ الثلاثين من عمره بعشق أثناء عناقنا، وتمددنا صامتين. ولتكن مجموعة الكتابة والمحبرة الكريستالية العائدة لوالدتي، ووجدتها فسون، ولعبت بها أثناء تدخينها سيجارة، تعبيرًا عن رقة الشفقة التي بيننا وهشاشتها. وليكن هذا الحزام الرجالي العريض الذي كان طرازًا رائجًا في تلك الأيام وقد أمسكت إبزيمه الضخم وأنا ألبس مما جعلني أشعر بالذنب نتيجة شعوري بالتباهي الرجولي، تعبيرًا عن خروجنا من عُرينا الشبيه بعري الجنة، وارتداء ألبستنا، وصعوبة تجوالنا بنظرنا على ذلك العالم القذر القديم.

قبل خروج فسون، قلت لها بأن عليها أن تدرس كثيرًا خلال فترة الشهر والنصف التي أمامها إذا أرادت أن تدخل الجامعة.

سألتني مبتسمة: «هل تخشى أن أبقى بائعة طول عمري؟».

«طبعًا لا أخشى... ولكنني أريد أن أدرّسك قبل امتحانك. أدرسك هنا. أي كتب تدرسين؟ الرياضيات التقليدية أم الحديثة؟».

«درسنا التقليدية في الثانوية. ولكنهم يدرسوننا الاثنتين في مدرسة الدورات. لأن مكانتهما في الإجابات واحدة. وكلتاهما تشوشان عقلي».

اتفقت مع فسون على اللقاء في المكان نفسه لتدريسها الرياضيات. فور مغادرتها وجدت كتب الرياضيات التي تدرسها في الثانوية ومدرسة الدورات في إحدى مكتبات نيشان طاش، واشتريتها، وعندما تصفحتها قليلًا في المكتب وأنا أدخن، فهمت أنني يمكن أن أساعدها حقيقة. تخيلي بأنني أدرّس فسون الرياضيات خفف العبء المعنوي الذي شعرت به يومئذ، وبقي شعور بالسعادة والتباهي العجيب. كنت أشعر بالسعادة برقبتي وأنفي وبشرتي كألم خفيف، وأعيش التباهي الذي لم أستطع إخفاءه عن نفسي كنوع من الفرح. كنت أفكر بجانب مع عقلي بشكل مستمر بأنني سألتقي كثيرًا من المرات بفسون في بناء مرحمة، وبأننا سنمارس الحب. وقد أدركت بأنني يمكن أن أنجح بهذا فيما لو تصرفت كأنه لا يوجد في حياتي ما هو غير عادي.

١٠ ـ أضواء المدينة والسعادة

في المساء كان في بيرا بلاس حفل خطوبة «يشيم» زميلة سيبل في الثانوية، وسيحضر الجميع، وذهبت. كانت سيبل سعيدة جدًّا، وترتدي ثوبًا فضيًّا لماعًا وفوقه لفة كتفين صوفية، وتهتم بكل شيء، وتندس بالجميع، وتبتسم للجميع لأنها تريد أن تكون هذه الخطوبة نموذجًا لخطوبتنا.

عندما عرّفني ابن الخال ثريا الذي أنسى اسمه دائمًا على العارضة الألمانية إنغة التي مثلت في دعاية مياه ملتم الغازية، كنت قد شربت كأسي عرق، وارتحت.

سألتها بالإنكليزية: «كيف وجدتم تركيا؟».

قالت إنغة: «لم أر سوى إسطنبول. دهشت كثيرًا، لم أكن أتخيل شيئًا كهذا».

«كيف كنت تتخيلينها؟».

تبادلنا النظر فترة بصمت. كانت امرأة ذكية. عرفت فورًا أنها يمكن أن تجرح قلوب الأتراك فيما لو قالت شيئًا خاطئًا، فابتسمت. قالت بتركية مكسرة: «يليق بكم كل شيء!».

«خلال أسبوع عرفتكم تركيا كلها، كيف تصفين هذا الشعور؟».

قالت بفرح طفولي: «الشرطة، وسائقو سيارات الأجرة، وكل من في الشارع يعرفني. حتى بائع البالونات أوقفني، وأهداني بالونًا، وقال لي: «يليق بكم كل شيء»، عندما لا يكون في البلد سوى قناة تلفاز واحدة، فمن السهل أن يُعرف الإنسان».

ترى هل انتبهت إلى أنها بدت مستخفة عندما أرادت أن تتواضع؟ سألتها: «كم قناة تلفزيونية توجد في ألمانيا؟» ففهمت أنها قالت شيئًا خاطئًا، وخجلت. ولم يكن هناك ضرورة لعبارتي. قلت: «كل يوم أثناء ذهابي إلى العمل أرى صورتك بأبعاد بناء، جميلة جدًّا».

«آآآ، نعم، أنتم الأتراك متقدمون أكثر من الأوربيين بكثير في مجال الإعلان».

فرحت كثيرًا لعبارتها هذه للحظة إلى درجة أنني نسيت أنها تقولها مجاملة. بحثت بعيني عن زعيم في الداخل، إلى الأمام قليلًا وسط زحام سعيد يصدح بأصواته. كان هناك، ويتكلم مع سيبل. أمتعني تخيل أن يكونا صديقين. وأتذكر الآن بعد سنوات طويلة بأنني شعرت بسعادة كبيرة: أطلقت سيبل على زعيم اسمًا تذكره فيما بيننا، فتقول: «كل شيء يليق بكم يا زعيم».، وتجد شعار مياه ملتم الغازية هذا أنانيًّا عديم الإحساس.

كانت سيبل تجد هذه العبارة بشعة في بلد فقير ومهموم مثل تركيا يقتل فيه الناس بعضهم بعضًا باسم يساري ويميني.

كان نسيم ربيعي محمل برائحة الزيزفون يدخل من أبواب الشرفة الكبيرة. تنعكس أضواء المدينة في الأسفل على مياه الخليج، ويبدو حتى حي قاسم باشا، وأحياء المخالفات والأحياء الفقيرة جميلة. كنت أشعر بداخلي أنني سعيد جدًّا، إضافة إلى ذلك فإن هذه السعادة هي تحضير لسعادة أكبر سأعيشها في المستقبل. كان ثقل ما عشته اليوم مع فسون يشوش عقلي، ولكنني كنت أعتقد بأن لكل شخص أسراره وقلقه ومخاوفه. من يعلم كم شخصًا له عادات غريبة وجروح نفسية في هذه الدعوات، ولكنه عندما يشرب كأسين وسط الأصدقاء، يظهر مدى تفاهة ما يحمل همه، وكم هو مؤقت.

قالت سيبل: «أتعرف هذا الرجل العصبي الذي تنظر إليه؟ إنه صبحي البارد الشهير. يأخذ كل علبة ثقاب يراها، ويجمعها. يقال إنه لديه ملء غرف من علب الكبريت الفارغة. يقولون إنه أصبح هكذا بعد أن تركته زوجته. يجب ألا يرتدي النذل ألبسة غريبة كهذه في خطوبتنا أليس كذلك؟ لماذا تشرب كثيرًا هذا المساء؟ اسمع ما الذي سأشرحه لك».

«ماذا؟».

«أعجب محمد بالعارضة الألمانية كثيرًا، ولا يتركها. وزعيم يغار منه. آآآ، أترى هذا الرجل؟ إنه ابن خالك ثريا... وهناك قرابة بينه وبين يشيم... هل هناك ما يزعجك ولا أعرف به؟».

«لا، لا يوجد شيء أبدًا، وحتى إنني سعيد جدًّا».

أتذكر اليوم، وبعد أعوام طويلة أن سيبل قالت لي كلمات حلوة. كانت سيبل مرحة وذكية وحنونة، وأعرف أنني أشعر بأنني جيد عندما أكون معها، وليس في ذلك الوقت فقط، بل طوال عمري. وبعد أن رافقتها إلى بيتها في ساعة متأخرة من الليل، سرت في الأزقة القفرة المظلمة طويلًا وأنا أفكر بفسون. ما لم أستطع

إخراجه من بالي نهائيًّا، ويقلقني بشكل كبير جدًّا هو حزمها بمضاجعتي للمرة الأولى. لم تتدلل أثناء خلع ألبستها، ولم تتردد ولو لحظة...

كان البهو في بيتنا فارغًا. كنت أرى والدي أحيانًا قد تأرق، فجلس في البهو بالمنامة، وأستمتع بالحديث معه، ولكنه الآن نائم، وأمي كذلك نائمة، ويتناهى من غرفة نومهما شخير أمي، وتأوه والدي. قلبت كأسًا أخرى من العرق قبل النوم، ودخنت سيجارة أخرى. ولكنني لم أنم فورًا عندما اضطجعت. كانت مشاهد ممارسة الحب مع فسون تتجلى أمام عيني، وتتداخل هذه المشاهد بمشاهد تفاصيل الخطوبة...

١١ ـ عيد الأضحى

ما بين النوم والصحو كنت أفكّر بقريبنا البعيد الخال ثريا وابنه الذي رأيته في خطوبة يشيم وأنسى اسمه دائمًا. عندما خرجت بنزهة في السيارة مع فسون في إحدى زيارات العيد القديمة، كان الخال ثريا أيضًا في بيتنا. في أثناء محاولتي النوم في سريري كانت بعض مشاهد عيد الأضحى ذاك البارد والرصاصي تتجلى أمام عيني أحيانًا كحلم وذاكرة غريبة في آن واحد: تذكرت دراجة هوائية بثلاث عجلات، وخروجي مع فسون إلى الشارع، ومشاهدتنا ذبح الأضحية بصمت، ثم خروجنا بنزهة السيارة. سألتها عن هذا عندما التقينا في بناء مرحمة في اليوم التالي.

قالت فسون المتذكرة كل شيء أفضل مني: «أعدنا الدراجة مع أمي من البيت. بعد أن استخدمت الدراجة مع أخيك أعوامًا، أعطتني إياها والدتك. لم أعد أستطيع ركوبها، فقد كبرت. وقد أعادت أمي الدراجة في يوم العيد ذاك».

قلتُ: «ويجب أن تكون أمي قد جلبتها إلى هنا فيما بعد. الآن تذكرت بأن الخال ثريا كان موجودًا في ذلك اليوم».

قالت فسون: «لأنه هو الذي طلب العنبرية».

تتذكر فسون نزهة السيارة المفاجئة تلك أكثر مني بكثير. أشعر برغبة الحديث عن تلك النزهة كما استمعت لها منها. كانت فسون في الثانية عشرة، وأنا في الرابعة والعشرين من عمري. وكان اليوم الأول من عيد الأضحى في ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٦٩. وكان في بيتنا جمع كبير من الأقرباء البعيدين والقريبين الفرحين مرتدين ألبسة أنيقة، ورابطين ربطات عنق بانتظار الغداء كما هي العادة في صباح أول أيام الأعياد دائمًا. كثيرًا ما يُقرع الباب، ويأتي ضيوف جدد، مثلًا خالتي الصغرى وزوجها الأقرع مع أولادهم الأنيقين والفضوليين، فينهض الجميع على أقدامهم، ويصافحون القادمين، ويتبادلون العناق، وتسحب الكراسي، ونقدم ـ السيدة فاطمة وأنا ـ السكاكر للضيوف الجدد. سَحَبَنا ـ شقيقي الأكبر وأنا ـ والدي جانبًا ذات لحظة.

قال: «ألح الخال ثريا وهو يقول: «لماذا لا يوجد عنبرية؟» ليشتر أحدكما من دكان علاء الدين عنبرية النعناع والفراولة».

لأن والدي منذ تلك السنوات بدأ يفرط بالمشروب أحيانًا، ألغت والدتي عادة تقديم العنبرية بالكئوس الكريستالية والصواني الفضية في الأعياد. اتخذت هذا القرار من أجل صحة والدي. ولكن قبل عامين، وصباح يوم عيد كهذا، وإزاء إلحاح الخال ثريا على العنبرية، قالت والدتي من أجل أن تغلق الموضوع: «وهل يجوز شرب الكحول في المناسبات الدينية؟». وهذا ما فتح نقاشًا حول الدين والحضارة وأوربا والجمهورية بين خالنا الأتاتوركي المتشدد ووالدتي.

قال والدي: «من منكما سيذهب؟». وعرض علينا واحدة من قطع عشر الليرات الجديدة التي تطقطق وقد سحبها رزمًا من المصرف بشكل خاص من أجل أن يوزعها على الأولاد والبوابين والحراس الذين يقبّلون يده في كل عيد.

قال أخي الكبير: «ليذهب كمال!».

وأنا قلت: «ليذهب عثمان!».

قال لي والدي: «هيا يا روحي، اذهب أنت. ولا تخبر والدتك إلى أين ذهبت..».

رأيت فسون عند خروجي من الباب.

«هيا تعالي لنذهب معًا إلى البقال».

كانت إحدى قريباتنا البعيدات في الثانية عشرة من عمرها ذات ساقين رفيعين كعودي الكبريت، وليس فيها ما يلفت النظر إليه غير ربطة الشعر البيضاء على شكل فراشة على شعرها الأسود اللامع وألبستها النظيفة. بعد أعوام ذكّرتني فسون بما سألته لتلك الفتاة الصغيرة في المصعد: في أي صف؟ (الأول متوسط)، إلى أي مدرسة تذهبين؟ (ثانوية نيشان طاش للبنات)، ماذا ستصبحين في المستقبل؟ (صمت).

ما إن خرجت من الباب، ومشينا عدة خطوات، حتى رأيت في المقسم الطيني على الطرف، وتحت شجرة الزيزفون إلى الأمام قليلًا تجمعًا، وهناك خروف على وشك أن يذبح. لو كنت بمفهومي الحالي، لفكرت بأن ذبح الخروف يؤثر سلبًا على فتاة صغيرة، ولما سمحت لفسون بالاقتراب من هناك.

ولكنني سرت بفضول ودون تفكير. شمر طباخنا بكر أفندي، وبوابنا صائم أفندي عن ذراعيهما، وطرحا أرضًا خروفًا مدهونًا بالحناء مقيدَ القوائم. كان بجانب الخروف رجل بيده سكين جزار كبيرة ويضع على صدره مريلة، ولكنه لا يستطيع القيام بعمله، لأن الخروف يتخبط باستمرار. بعد جهد كبير تمكن الطباخ والبواب المتصاعد من فمَّيهما البخار من تثبيت الخروف. أمسك القصاب الخروف من فمه وأنفه المحبب، وأدار رأسه بفظاظة، ووضع سكينه الطويلة على رقبته. خيّم صمت، وقال القصاب: «الله أكبر، الله أكبر». وحرك السكين إلى الأمام والخلف، وغرزها بسرعة في رقبته. عندما سحب القصاب سكينه من رقبة الخروف، نفر دم شديد سميك شديد

الحمرة من رقبته. كان الخروف يتخبط، ويدرك الإنسان أنه ينازع الروح. لم يكن هناك أي حركة. فجأة حركت الريح أغصان شجرة الزيزفون، فأصدرت صوتًا. سحب القصاب رأس الخروف جانبًا، وأفرغ الدم المتدفق في حفرة معدة مسبقًا.

رأيت جانبًا أولادًا مقطبين وجوههم، والسائق تشتين أفندي ورجلًا مسنًّا يدعو. أمسكتْ فسون بكمِّ سترتي وهي صامتة. كان الخروف يتحرك أحيانًا إلى ذلك الوقت، ولكن تلك كانت آخر التخبطات. القصاب الذي مسح السكين بصدارته هو كاظم صاحب الدكان المجاور للمخفر. لم أعرفه للوهلة الأولى. عندما التقت عيناي بعيني بكر الطباخ فهمت أن هذا الخروف هو خروفنا الذي اشتري من أجل العيد، ورُبط في الحديقة الخلفية منذ أسبوع.

قلتُ لفسون: «هيا نذهب».

سرنا دون أن نتكلم، وخرجنا إلى الشارع. هل كنتُ قلقًا لأنني بقيت متفرجًا إزاء فرجة فتاة صغيرة على شيء كهذا؟ كنت أشعر بالذنب، ولكنني لا أعرف سببه بالضبط.

لم يكن والداي متدينين. ولم أشهد أحدهما صلى أو صام. وهما مثل كثير من الأزواج الناشئين في الأعوام الأولى لتأسيس الجمهورية لا يبديان أي استخفاف بالدين، وهما غير مهتمين به، ومثلهما مثل كثير من أصدقائهما يفسران عدم اهتمامهما بكونهما جمهوريين ومحبين لأتاتورك. وعلى الرغم من هذا، فهما مثل كثير من عائلات نيشان طاش العلمانية البورجوازية يذبحان خروفًا في كل عيد أضحى، ويوزعانه على الفقراء كما يجب. ولكن أبي أو أي فرد من أفراد العائلة لا يهتم كثيرًا بالخروف والأضحية، ويتركان للطباخ والبواب عملية توزيع اللحم والجلد على الفقراء. وأنا أيضًا كنت مثلهما، وبقيت سنوات بعيدًا عن مراسم الذبح صباح العيد في المقسم المجاور.

في أثناء سيرنا ـ فسون وأنا ـ باتجاه دكان علاء الدين، هبّت نسمة منعشة أمام جامع تشويكية، وكأن قلقي أشعرني بالقشعريرة.

سألتها: «هل خفتِ قبل قليل؟ يا ليتنا لم ننظر..».

قالت: «خروف مسكين..».

«أنت تعرفين لماذا يذبح الخروف، أليس كذلك؟».

«عندما سنذهب إلى الجنة سيحملنا ذلك الخروف على الصراط المستقيم..».

كان هذا تفسير الأولاد وغير المتعلمين للأضحية.

قلت بموقف المعلم: «وللقصة بداية أيضًا... هل تعرفينها؟».

«لا».

«لم يكن سيدنا إبراهيم يرزق بأولاد. ودعا كثيرًا قائلًا: «اللهمّ ارزقني ولدًا، وأَعْمَلُ ما تطلبه مني». في النهاية قُبِلَ دعاؤه، وولد ابنه إسماعيل ذات يوم. شعر سيدنا إبراهيم بأنه امتلك الدنيا من الفرح. كان يحب ابنه كثيرًا، ويقبله، ويداعبه، ويطير فرحًا، ويشكر ربه كل يوم. ذات يوم ظهر له الله في نومه، وقال له: «اذبح ابنك الآن من أجلي، ضحِّ به»!».

«لماذا قال هذا؟».

«اسمعي الآن... التزم سيدنا إبراهيم بأمر الله. وسحب سكينه، ولحظة هم بذبح ابنه... فجأة ظهر خروف».

«لماذا؟».

«أشفق الله على سيدنا إبراهيم، فأرسل له خروفًا ليذبحه بدلًا من ابنه الذي يحبه كثيرًا. ولأن الله رأى أن سيدنا إبراهيم أطاعه».

قالت فسون: «لو لم يرسل الله خروفًا، فهل كان سيدنا إبراهيم سيذبح ابنه حقيقة؟».

قلت مضطربًا: «سيذبحه. وأحبه الله لأنه كان واثقًا من أنه سيذبحه، وأرسل له الخروف لكي لا يحزن».

ولكنني كنت أرى أنني لم أستطع أن أشرح لفتاة في الثانية عشرة من عمرها كيف يمكن لأب أن يذبح ابنه الذي يحبه كثيرًا. يتحول القلق الذي في داخلي إلى ضيق لعدم استطاعتي شرح معنى الأضحية لفتاة صغيرة.

قلت: «آآآ، دكان علاء الدين مغلق! لننظر إلى الدكان الذي في الساحة».

مشينا إلى ساحة نيشان طاش. كان دكان التبغ والجرائد على زاوية المفرق أيضًا مغلقًا. عدنا. في أثناء مسيرنا بصمت في الشارع، فكرت برؤية لسيدنا إبراهيم يمكن أن تحبها فسون.

قلت: «لم يكن سيدنا إبراهيم في البداية يعرف أن الخروف سيحل محل ابنه. ولكنه كان مؤمنًا بالله، ويحبه إلى درجة شعوره بأنه لا يمكن أن يأتي سوء منه... إذا أحببنا أحدًا كثيرًا جدًّا جدًّا، وقدمنا له أغلى ما عندنا، نعرف بأنه لا يمكن أن يأتي منه سوء. هذه هي الأضحية. من تحبين أكثر في الحياة؟».

«أمي وأبي..».

قابلنا السائق تشتين على الرصيف.

قلت: «تشتين أفندي، طلب والدي عنبرية. الدكاكين في نيشان طاش مغلقة، خذنا إلى تقسيم. لعلنا نتنزه قليلًا بعد ذلك».

قالت فسون: «وأنا أيضًا سأذهب، أليس كذلك؟».

جلسنا ـ فسون وأنا ـ على المقعد الخلفي لسيارة والدي الشفروليه الكرزية الداكنة موديل ١٩٥٦. قاد تشتين أفندي السيارة عبر الأزقة المبلطة بالحجارة كثيرة الحفر. كانت فسون تنظر إلى الخارج عبر النافذة. عبرنا ماتشكا، ونزلنا إلى ضولمة بهتشة. كانت الأزقة فارغة إلا من بعض الأشخاص المرتدين ألبسة العيد. ولكننا عندما عبرنا ملعب ضولمة بهتشة، رأينا جانبًا مجموعة من الأشخاص يذبحون أضحية.

«تشتين أفندي، كرمى لله اشرح للطفلة لماذا نذبح الأضحية. لم أستطع أن أشرح لها جيدًا».

قال السائق: «أستغفر الله يا سيد كمال». ولكنه لم يتخل عن متعته بإظهار ارتباطه بدينه أكثر منا. «إننا نذبح الأضاحي لنعبر عن ارتباطنا بالله مثل ارتباط سيدنا إبراهيم والحمد لله... الأضحية تعني أننا يمكن أن نضحي بأغلى ما لدينا من أجل الله. نحن نحب الله أيتها الآنسة الصغيرة إلى درجة أننا نقدم له أكثر ما نحبه. ودون انتظار أي مقابل».

قلت بمكر: «أليس هناك ذهاب إلى الجنة في النهاية؟».

«إذا كتب الله لنا... هذا ما سيظهر يوم القيامة. ولكننا لا نذبح الأضحية من أجل أن ندخل الجنة. إننا نذبحها تعبيرًا عن حبنا لله دون انتظار مقابل».

«أنت تحب الموضوعات الدينية كثيرًا يا تشتين أفندي».

«أستغفر الله يا سيد كمال، أنتم درستم أكثر منا، وتعرفون أكثر. من ناحية أخرى فإن معرفة هذه الموضوعات لا تحتاج لدين وذهاب إلى الجامع. نحن نقدم ما نعتبره غاليًا ونحرص عليه لمن نحبه كثيرًا دون مقابل».

قلت: «ولكن الشخص الذي نقدم له هذه التضحية سيقلق، ويعتقد أننا نريد شيئًا».

قال تشتين أفندي: «الله عظيم، الله يرى، ويعرف كل شيء... فهو يدرك أننا نحبه دون مقابل. لا أحد يستطيع خداع الله».

قلت: «هنا يوجد دكان مفتوح، قف يا تشتين أفندي، أعرف أنهم يبيعون في هذا المحل عنبرية».

ذهبتُ مع فسون، واشتريت زجاجتي عنبرية النعناع والفراولة الشهيرة إنتاج مؤسسة المواد التي تحتكرها الدولة، وحمل كل منا زجاجة، وعدنا إلى السيارة».

قلت: «لدينا وقت يا تشتين أفندي، نزّهنا قليلًا».

أكثر ما تحدثنا به في نزهة السيارة تلك الطويلة ذكرتني به فسون بعد أعوام. أما أنا فقد بقي في ذهني من صباح ذلك العيد البارد والرصاصي اللون بشكل واضح شيء واحد: إسطنبول تشبه المذبح صباح يوم العيد. لم تذبح عشرات الأضاحي في الأحياء المتطرفة والأزقة الضيقة والمقاسم وأماكن البيوت المحروقة فقط، بل وفي الشوارع الرئيسة والأحياء الغنية أيضًا، وبدءًا من الصباح الباكر. كانت حواف الأرصفة وبلاط الأزقة في بعض الأمكنة مغطاة بالدم. في أثناء صعود سيارتنا الطلعات، ونزولها النزلات، وعبورها الجسور، وتلويها بين الأزقة الفرعية رأينا أضاحي يسلخ جلدها، وأخرى ذبحت توًّا، وأخرى تُقطّع. عبرنا الخليج على جسر أتاتورك. كانت المدينة متعبة وحزينة على الرغم من العيد والأعلام والزحام المتأنق. ومن تحت أقوس بوظضوغان، انعطفنا نحو الفاتح. كانت هناك خراف أضاحي محنّاة تباع في أرض فارغة.

سألتْ فسون: «وهذه أيضًا ستذبح؟».

قال تشتين أفندي: «لعلها لا تذبح كلها أيتها الآنسة الصغيرة. صار الوقت قريب الظهر، ولم يظهر زبون لها بعد... لعلها لا تجد زبونًا حتى نهاية العيد، وتُنقذ هذه الحيوانات المسكينة... ولكن تجار الأغنام سيبيعونها للجزارين في هذه الحال أيتها الآنسة الصغيرة».

قالت فسون: «نذهب، ونشتريها قبل الجزارين، وننقذها». كانت فسون ترتدي معطفًا أحمر أنيقًا. شجعتني، وغمزتني. «نهرِّب الخراف من الرجال الذين يريدون ذبح أولادهم، أليس كذلك؟».

قلت: «نهربها».

قال تشتين أفندي: «أنت ذكية جدًّا أيتها الآنسة الصغيرة. في الحقيقة أن سيدنا إبراهيم لم يكن يريد أن يذبح ابنه نهائيًّا. ولكن الأمر هو أمر الله. إذا لم نطع أوامر الله كلها، تنقلب الدنيا رأسًا على عقب، وتعم الفوضى... أساس العالم هو المحبة. وأساس المحبة هو محبة الله».

قلت: «ولكن كيف يفهم هذا الولد الذي يريد والده أن يذبحه؟».

التقت عيناي بعيني تشتين أفندي عبر المرآة العاكسة.

قال: «أعرف يا سيد كمال أنكم مثل والدكم تقولون لي هذا من أجل ممازحتي. والدكم يحبنا كثيرًا. ونحن نحترمه كثيرًا، ولا نحزن من ممازحاته نهائيًّا. ولا أحزن من ممازحاتكم أيضًا. سأجيبك بمثال. هل رأيتم فيلم «حضرة إبراهيم»؟».

«لا».

«بالطبع أنتم لا تذهبون إلى أفلام من هذا النوع. ولكن عليكم أن تأخذوا الآنسة الصغيرة، وتشاهدوا هذا الفيلم بالتأكيد. لن تملوا نهائيًّا... مثّل دور سيدنا إبراهيم أكرم غوتشلو. نحن ذهبنا مع السيدة وحماتي والأولاد كعائلة، وبكينا كلنا معًا. وعندما أمسك سيدنا إبراهيم السكين، ونظر إلى ابنه بكينا... وعندما قال ابنه إسماعيل كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ (الصافات: ١٠٢)! بكينا أيضًا... وعندما جاء الخروف ليذبح مكان ابنه، بكينا جميعًا مع كل من في السينما من الفرح. إذا قدمنا أغلى ما لدينا لكائن نحبه كثيرًا دون انتظار مقابل، حينئذ تكون الدنيا جميلة، لهذا السبب كنا نبكي أيتها الآنسة الصغيرة».

أتذكر جيدًا انعطافنا من الفاتح إلى باب أدرنة، ومن هناك إلى اليمين، وسيرنا على طول الأسوار نازلين إلى الخليج. في أثناء عبورنا من الأحياء المتطرفة، وتقدمنا على طول أسوار المدينة الخربة، لم يخرب الصمت المخيم على السيارة لفترة طويلة. في البساتين ضمن فتحات الأسوار، ومزابل الورش والمعامل، رأينا في البراميل الفارغة وداخل النفايات بعض الأضاحي المذبوحة، وجلود الأضاحي المذبوحة جانبًا، وأحشاءها الداخلية وقرونها، ولكننا شعرنا بفرح العيد أكثر من أضاحيه بين البيوت الخشبية المتساقط طلاؤها في الأحياء الفقيرة. ولكنني أتذكر

أنني شاهدت مع فسون ساحات العيد حيث الحصن الحديدية والأراجيح والأولاد يشترون المعاجين بعيدياتهم، والأعلام التركية المعلقة في مقدمة الحافلات كالقرون، وتلك المناظر التي سأجمع فيما بعد بطاقاتها البريدية بشغف، وننظر إليها بتفاؤل.

في أثناء صعودنا طلعة شيشخانة، رأينا زحامًا وسط الشارع، وقد سد الطريق. ما إن اعتقدت أنها ساحة عيد أخرى، مرت سيارتنا وسط الزحام الذي فتح الطريق، ووجدنا أنفسنا بجانب أشخاص ينازعون الروح في حادث مرور وقع توًّا. شاحنة أفلتت مكابحها في النزلة، فغيرت مضمار سيرها، ودهست سيارة خاصة دون رحمة.

قال تشتين أفندي: «يا إلهي ما أكبرك. لا تنظري نهائيًّا أيتها الآنسة الصغيرة».

رأينا بما يشبه الخيال داخل سيارة دهست مقدمتها تمامًا رجلًا يحرك رأسه بشكل خفيف. لا أنسى طقطقة الزجاج الذي داست عليه سيارتنا، والصمت الذي خيم بعد ذلك. في أثناء صعودنا الطلعة، ومرورنا من الأزقة الفارغة، ذهبنا من تقسيم إلى نيشان طاش بسرعة كأننا نهرب من الموت.

قال أبي: «أين تأخرتم يا هذا؟ انشغل بالنا. هل وجدتم عنبرية؟»

قلت: «في المطبخ!» كان البهو يعبق برائحة الكولونيا والعطر والسجاد. دخلت زحام الأقرباء، ونسيت فسون.

١٢ ـ تبادلنا القبل من الشفاه

تذكرت مع فسون نزهة العيد هذه التي حدثت قبل ستة أعوام مرة أخرى في لقائنا ظهر اليوم التالي. ثم نسينا كل شيء، وتبادلنا القبل لمدة طويلة، ومارسنا الحب. في أثناء بعث النسيم المنعش المحمل برائحة الزيزفون

المتسلل من فرجة الستارة القشعريرة في جسدها، أفقدني توازني إغماض عينيها، ولفها لي بقوتها كلها كأنها تتمسك بعجلة إنقاذ في البحر، ولا أرى معنى آخر أكثر عمقًا لما عشته، أو فكرت فيه. أدركت أنني يجب أن أدخل بين الرجال كي لا أشعر بالذنب والشك، ولا أغوص في تلك المناطق الخطيرة نتيجة نمو الغرام.

بعد ثلاثة لقاءات مع فسون، اتصل بي صباح يوم السبت أخي الأكبر، ودعاني لحضور مباراة فنار بهتشة بعد الظهر التي من المحتمل أن يُعلن فيها بطلًا للدوري مع نادي غيراصون، فذهبت. أمتعتني رؤية عدم تغير أي شيء في ملعب ضولمة بهتشة منذ طفولتي على مدى عشرين عامًا سوى تبديل اسمه إلى «إينونو». التغيير الآخر الوحيد هو تجربة زراعته بالعشب كما في أوربا. ولكن العشب لم ينبت إلا في الزوايا، وأصبحت الساحة تشبه أقرع بقي قليل من الشعر في صدغيه وخلف رقبته. المتفرجون الأغنياء في المدرجات المرقمة منذ أواسط الخمسينيات أي قبل عشرين سنة، يشتمون لاعبي الدفاع واللاعبين غير المشهورين المقتربين من خطوط التماس وهم يتصببون عرقًا كالدم (اركض ولاه منيك بلا دم). أما المتفرجون المنفلتون على المدرجات المفتوحة من العاطلين عن العمل والفقراء والطلاب، فيطلقون شتائم مشابهة على إيقاع معين بمتعة إسماع غضبهم وصوتهم. وكما سيبدو من صفحات الرياضة في جرائد اليوم التالي، فإن المباراة كانت سهلة، وكلما سدد فنار بهتشة هدفًا، كنت أجد نفسي ناهضًا وصارخًا كالجميع. كان ثمة ما يخفي مشاعر الذنب في داخلي ويحوّل مخاوفي إلى مباهاة في الجو الاحتفالي ذاك، ووسط زحام الرجال الذين يتبادلون القبل مهنئين بعضهم بعضًا. ولكنني في لحظات الصمت من اللعب، وسماع ثلاثين ألف متفرج صوت ركلات الكرة في اللحظة ذاتها، أتجه بعيني إلى البوسفور، وسفينة سوفيتية تمر من أمام قصر ضولمة بهتشة تظهر من خلف المدرجات المكشوفة، وأفكر بفسون. حَفَر في قلبي تسليمها نفسها لي بحزم على الرغم من عدم معرفتها بي كثيرًا. لم تكن مشاهد رقبتها الطويلة، وحفرةُ

بطنها الخاصة بها، والصدقُ والشكُّ اللذان يظهران في عينيها في اللحظة ذاتها، والصدقُ الحزين بنظرتها لي أثناء اضطجاعنا في السرير، وتبادلنا القبل يغيب عن نظري نهائيًّا.

قال أخي: «الخطوبة تثير تفكيرك على الأغلب».

«نعم».

«هل أنت مغرم بها كثيرًا؟».

«طبعًا».

بابتسامة تحمل مزيجًا من الشفقة والخبرة، أدار أخي نظراته نحو الكرة الواقفة وسط ساحة اللعب. كان بيده سيجار محلي ماركة مرمرة يعتقد أن تدخينه أمر له خصوصية، وقد اعتاد عليه منذ عامين، والنسيم الممتع الذي يهب من طرف برج البنت، ويموّج أعلام الفريقين الضخمين وأعلام زوايا ساحة اللعب الحمراء طوال فترة المباراة، يُدخل دخان السيجار بإلحاح شديد إلى عيني، ويلهبهما كما كانت سيجارة والدي تفعل، وتدمع عيني نتيجة الألم كما كان يحدث في طفولتي.

قال أخي من دون أن يزيح عينيه عن الكرة: «سيكون الزواج جيدًا لك. تعملان طفلًا بسرعة. لا تطل الوقت لكي يصادق أولادنا. سيبل امرأة شامخة، قدماها ثابتان على الأرض. وهي توازن حالك الخفيفة التي تطير في العالي. وآمل ألا تبعث السأم في سيبل كما فعلت مع بقية الفتيات. ولاه حكم، هذا فاول ولاه!».

عندما سجل فنار بهتشة هدفه الثاني، نهضنا كلنا معًا، وصرخنا: «هدف»، وتعانقنا، وتبادلنا القبل. بعد نهاية المباراة انضم إلينا صديق والدي من الجندية قدري الدلو، وبعض رجال الأعمال والمحامين محبي كرة القدم. سرنا مع زحام كرة القدم الصاعد الطلعة، وذهبنا إلى فندق ديوان، وشربنا عرقًا ونحن نتحدث في الرياضة والسياسة. أنا كنت أفكر بفسون.

قال السيد قدري لي: «شردت يا كمال. إنك لا تحب كرة القدم مثل أخيك على الأغلب».

«في الحقيقة أحبها، ولكن في السنوات الأخيرة..».

قال أخي ساخرًا: «كمال يحب كرة القدم كثيرًا يا سيد قدري، ولكنهم لا يعطونه تمريرة جيدة».

«في الحقيقة أنني أحفظ أسماء فريق فنار بهتشة لعام ١٩٥٩، ويمكنني أن أذكرها. أوزجان، نديم، بصري، آقغون، ناجي، عوني، ميكرو مصطفى، جان، يوكسل، لفتر، إرغون».

قال قدري الدلو: «كان سراج الدين يلعب في ذلك الفريق أيضًا... إنك نسيته».

«لا، لم يكن يلعب في ذلك الفريق».

طال الموضوع، وكما يحدث في أوضاع كهذه، يصل الأمر إلى الرهان. دخلنا برهان مع قدري الدلو حول ما إذا كان سراج الدين يلعب في فريق فنار بهتشة أم لا. من يخسر سيقدم الطعام والعرق للمجتمعين في فندق ديوان.

في أثناء سيرنا في طريق العودة، انفصلت عن الرجال الآخرين في نيشان طاش. كان ثمة صندوق في شقة بناء مرحمة جمعت فيه صور لاعبي كرة القدم الذين كانوا يخرجون من اللِّبان في فترة مضت. كانت أمي ترسل إلى هناك كل شيء مع ألعابنا القديمة. كنت أعرف أنني سأكسب الرهان إذا وجدت ذلك الصندوق الذي جمعت فيه مع أخي صور لاعبي كرة القدم والفنانين.

ولكن فور دخولي الشقة، أدركت أنني جئت من أجل تذكّر الساعات التي قضيتها مع فسون. نظرتُ للحظة إلى السرير المبعثر الذي مارسنا الحب عليه فسون وأنا، ومنفضة السجائر المليئة بجوار السرير، وأقداح الشاي. الأغراض القديمة التي راكمتها والدتي في الغرفة، والصناديق،

والساعات المتوقفة، والمواعين، والمشمع المغطي الأرض، ورائحة الغبار توحدت مع الظلال في خيالي منذ الآن، وجعلت إحدى زوايا عقلي سعيدة كأنها خارجة من الجنة. أظلم الجو تمامًا، ولكن أصوات صراخ الأولاد الذين يلعبون كرة القدم وشتائمهم ما زالت تتناهى من الخارج.

وجدت علبة الصفيح التي كنت أخبئ فيها صور الفنانين التي تخرج من لِبان زامبو في اليوم العاشر من أيار/ مايو ١٩٧٥ في شقة بناء مرحمة، ولكنها كانت فارغة. أخذت صور الفنانات التي يراها متفرج المتحف من السيد حافظ بعد أعوام طويلة خلال الأيام التي كنت أقيم فيها علاقة مودة مع أصحاب المجموعات الذين يشعرون بالبرد في غرف طافحة بالأشياء. الأكثر من هذا، عند النظر إلى المجموعة بعد أعوام، أستنتج أنني أخرجت صور فنانين مثل أكرم غوتشلو (الذي أدّى دور حضرة إبراهيم) في الأعوام التالية بعد بدئنا بمصاحبة السينمائيين أثناء ترددنا على البارات التي يذهبون إليها. ستمر قصتي بهذه النقط كلها مثل هذه الأشياء التي أعرضها. منذ تلك الأيام أدركت بأن تلك الغرفة الساحرة التي شعرت بغليان السعادة داخلي فيها عندما تبادلت القبل مع فسون وسط الأشياء القديمة ستحتل مكانة مهمة جدًّا في حياتي.

في أعوام أحداث قصتي، كنت قد رأيت أول تبادل للقبل من الشفاه في السينما، وترنحت مثل غالبية من في الدنيا. في الحقيقة أنني لم أصادف اثنين يتبادلان القبل من الشفاه في حياتي خارج السينما ما عدا مرة أو مرتين بالمصادفة في أمريكا. ليس في طفولتي فقط، بل حتى في تلك السنوات كنتُ أرى أن السينمات أمكنة نذهب إليها من أجل رؤية الآخرين يتبادلون القبل. كانت القصة ذريعة من أجل تبادل القبل. وكنت أشعر بأن فسون عندما تبادلني القبل تقلد القبلات التي رأتها في السينما.

أريد الآن أن أقول بعض الأمور حول تبادلنا القبل فسون وأنا. وأريد أن أشعر بجانب جدي لقصتي يتعلق بالجنس والرغبة، ولدي مخاوف

مـن المحافظة على الخفة والسـوقية في آن واحـد: كنت أعتقد بأن طعم السـكر المطحون الذي في فم فسـون ناجم عن لِبان زامبو الذي تلوكه. لـم يعـد تبادل القبل مع فسـون من أجـل امتحان أحدنا الآخـر، والتعبير عن الجاذبية التي يشـعر فيها أحدنا نحـو الآخر كما كانت في البداية، بل من أجـل متعتنا، ومـع تبادلنا القبل نكتشـفها كلانا باسـتغراب. تتداخل الذكريـات في كل تبادل قُبل طويل نسـتمتع بطعمه جيـدًا، بدءًا من فمينا الرطبيـن إلى لسـانينا اللذيـن يمنحاننا الجـرأة، وكنا نكتشـف هذا كلانا لأول مـرة. وهكـذا عندما نتبـادل القبل أقبلهـا بداية، ثم أقبـل تلك التي فـي ذاكرتي، ثم أفتح عيني لحظـة، وأغمضها، وأبادل القبـل التي رأيتها قبـل قليل، والتي في ذاكرتـي، ولكن بعد قليل تختلط بتلك الذكريات ما يشـبهها، وأقبلها، وبعدئذ أقبّل كل ذلك العدد الكبير، وفي الوقت نفسـه أشـعر بذكورتي أكثر، وعندما أقبلها هذه المـرة، أقبلها باعتبارها واحدة أخرى، وتشـوش عقلي المتعة التي أشـعر بها في فمها الطفولي وشفتيها المكتنزتين ولسـانها الراغب اللعوب وحركاته فـي فمي، وتتداخل كثير مـن الأفـكار (قالت إحـدى الأفكار: «هـذه طفلة»، قالت فكـرة أخرى: «نعـم، كثيـر من النسـاء طفـلات».)، وأثناء تقبيلـي لها أغـدو كل الذين أكونهـم، وتغدو أثناء تقبيلي كل الفسـونات اللواتي أتذكرهن، ويتكاثرن بالتدريج. كنت أشعر بمواربة باب جنة نادرًا ما يُحظى بها في هذه الدنيا، ومعلومة جديدة تُستمد من تبادل القبل الطويل ذاك، ومراسم تبادل الحب وتفاصيلـه التـي تتطور رويدًا رويـدا. مع تبادلنا القبـل كأن «زمنًا» طويلًا وواسعًا وضخمًا ينفتح لنا، وليس باب متعة جسدية ورغبة جنسية.

هل يمكنني أن أعشقها؟ أشعر بسعادة عميقة، وأقلق. أستنتج من تشوّش عقلـي بأن روحـي يمكن أن تُزنق بين خطورة أخذ هذه السـعادة على محمل الجد، وسـفالة الاسـتخفاف بها. في ذلك المسـاء جاء عثمان وزوجته برّين وابناه لزيارة أمي وأبي، وتناول العشـاء عندنـا. أثناء الطعام، أتذكر أنني كنت أفكر بفسون، وتبادل القبل معها.

ظهر اليوم التالي ذهبت إلى السينما وحدي. لم يكن ببالي نهائيًّا مشاهدة فيلم، ولكنني شعرت بأنني لن أستطيع تناول الطعام في مطعم يرتاده أصحاب المحلات في بنغالطِ مع محاسبي صاطصاط المسنين، والسكرتيرات السمينات والحنونات اللواتي يستمتعن بتذكيري كم كنت محببًا في طفولتي، وأريد أن أبقى وحدي. سيكون انتظار الساعة الثانية وأنا أفكر بفسون وتبادل القبل معها أثناءها فيما أبادلها المزاح بصخب مع الموظفين الذين أمثل معهم دور «المدير المتواضع» أثناء تناول الطعام، ثقيلًا عليّ.

في أثناء مسيري بشرود وأنا أتفرج على واجهات المحلات في عثمان بيه وشارع الجمهورية، خُدعت بإعلان أسبوع أفلام هيتشكوك، ودخلتُ إلى السينما، وكان هناك مشهد تقبيل لغريس كيلي. وضعتُ مثلجات «ألاسكا فريغو»، ومصباحًا يدويًّا لعامل سينما يدل على المقاعد لكي يذكرني بعروض السينما عند الظهر التي تحضرها ربات البيوت والطلاب الكسالى الهاربون من المدارس كإشارات على وحدتي ورغبتي بتبادل القبل في فترة المراهقة. كنت أستمتع ببرودة السينما في أيام الربيع الحارة، وبجوّها الثقيل برائحة العفن، وبهمس بعض محبي السينما، والشرود بالأحلام وأنا أنظر إلى ظلال الستائر المخملية في الزوايا، يخرج إدراكي بأنني سأرى فسون بعد قليل من إحدى زوايا عقلي لينشر على روحي كلها سعادة. بعد خروجي من السينما، وسيري نحو شارع تشويكية حيث مكان اللقاء عبر أزقة عثمان بيه الفرعية المتعرجة، وأمام دكاكين القماش، والمقاهي، ومحلات الخردوات، والكيّ وتنشية القمصان، أذكر أنني فكرت بضرورة أن يكون هذا لقاءها الأخير.

كنتُ أحاول أن أعلّمها الرياضيات بجدية. كان سقوط شعرها على الورقِ، وتجول يدها على الطاولة، ودخول ممحاة قلم الرصاص التي تعضها طويلًا بين شفتيها الزهريتين مثل حلمة ثدي، وملامسة ذراعها العارية لذراعي العارية أحيانًا تسلبني عقلي، ولكنني كنت أضبط نفسي. عندما تبدأ فسون بحل معادلة يبدو على وجهها تعبير التباهي، وتنفخ الدخان المتجمع في فمها إلى الأمام مباشرة بشكل عمودي (وأحيانًا على وجهي). وفي أثناء

نظرها إلي بطرف عينها لترى ما إذا كنتُ منتبهًا إلى سهولة تحقيق النصر، كانت تقع بخطأ بالجمع، وتخرب المسألة كلها. عندما لا تجد الجواب في أي من الخيارات آ ب ج د ه، تحزن بداية، ثم ترتبك، وتجد عذرًا بالقول: «السبب ليس الغباء، بل عدم الانتباه!». أقول لها بشيء من التباهي بأنها يجب أن تجمع الذكاء والانتباه معًا كي لا تقع بالخطأ مرة أخرى، وأتابع رأس قلم الرصاص المتقافز على الورق مثل منقار عصفور جائع وهي تحل معادلة جديدة، وأتأثر بتبسيطها معادلة بمهارة وهي صامتة تعبث بشعرها بالتململ والقلق المتصاعد نفسه. وفجأة نبدأ بتبادل القبل، ونتبادل القبل فترة طويلة، ثم نمارس الحب. كنا نشعر بأمور مثل البكارة والخجل والذنب، وننتبه لهذا بحركات بعضنا بعضًا. ولكنني أرى بأن فسون تستمتع بالجنس، وأنها تُسحر بانفعال اكتشاف ما كانت تتوق له طوال أعوام. ومثلما ينظر المغامر إلى كل شجرة وحجر ونبع بإعجاب، ويُسحر بها، ويمسك كل زهرة وكل فاكهة بدهشة الرؤية لأول مرة بدقة، ويتذوقها عند وصوله إلى قارة بعيدة قرأ أسطورتها على مدى أعوام، وقطع من أجلها المحيطات الهائجة وتحمل الآلام، وبذل الدماء، تكتشف فسون كل شيء بالفضول والذهول ذاته.

إذا تركنا العضو الجنسي الذي يستمتع فيه الرجل على الأكثر، فإن أكثر ما تستمتع فيه فسون في الحقيقة لم يكن جسدي ولا بنيته الذكرية، بل كان فضولها الأشد ناحية نفسها، وجسدها، ومتعتها. جسمي وذراعاي وأصابعي وفمي كانت ضرورية من أجل إخراج نقط المتعة وإمكانياتها على بشرتها المخملية وفي داخلها. كانت فسون تشعر بالدهشة أحيانًا عندما يكون من الضروري أن أشير إلى إمكانات هذا الطعم من داخل جسدها، وأثناء انغلاقها على نفسها بشرود ممتع، ومتابعة تماوج هذه المتعة كرعشة تتصاعد تلقائيًّا في عروقها ورقبتها ورأسها، وتتجلى كصيحة أحيانًا، تنتظر مني المساعدة من جديد. همست لي عدة مرات: «اعمل هذا مرة أخرى رجاء، اعمل هذا مرة أخرى!».

كنت سعيدًا جدًّا. ولكن هذه لم تكن سعادة من النوع الذي يقدّره عقلي، ويدركه، بل متعة عاشتها بشرتي وعرفتها، ثم بدأتُ أشعر بها أثناء حياتي اليومية العادية، فأشعر بها في رقبتي من الخلف أثناء حديثي على الهاتف، أو قرصة في عصّي أثناء صعودي الدرج، أو في طرف صدري أثناء اختيار الطعام في أحد مطاعم تقسيم مع سيبل التي سأخطبها بعد أربعة أسابيع. أنسى أحيانًا بأن فسون هي التي منحتني هذا الشعور الذي أحمله طوال اليوم في بشرتي - كما حدث عدة مرات - أشعر بالسعادة الكبيرة نفسها المفردة الفريدة أثناء ممارستي الحب على عجل مع سيبل في المكتب عندما لا يكون هناك أحد.

١٣ - العشق، الجرأة، الحداثة

أهدتني سيبل هذا العطر ماركة سبلين الذي جلبته من باريس ذات مساء في فوآية، وأعرضه هنا. دهنت نفسي ذات صباح بهذا العطر على الرغم من أنني في الحقيقة لا أحب استخدامه نهائيًّا، وانتبهت إليه فسون بعد ممارستنا الحب.

«هل اشترت لك الآنسة سيبل هذا العطر؟».

«لا. أنا اشتريته بنفسي».

«ألأنه يعجب الآنسة سيبل؟».

«لا يا روحي، لأنه يمكن أن يعجبك».

«إنك تمارس الحب معها، أليس كذلك؟».

«نعم، ليس كذلك».

قالت فسون: «رجاء لا تكذب». وظهر تعبير قلق على وجهها الذي

يتصبب عرقًا. قالت وهي تنظر إلى عيني بحنان أمّ تحاول تقويل الحقيقة لولد يكذب: «سأقابل هذا بشكل طبيعي. ستمارس معها الحب بالطبع».

«لا».

«صدقني، فإن قلبي يجرح أكثر بالكذب. رجاء قل الحقيقة. حسنٌ، لماذا لا تمارسان الحب إذًا؟».

قلت لفسون وأنا أعانقها: «تعرفت على سيبل في الصيف الماضي في سعادية. ولأن البيت الشتوي كان فارغًا، كنا نأتي إلى نيشان طاش. وفي الخريف ذهبت إلى باريس. ذهبتُ عدة مرات لرؤيتها في الشتاء».

«بالطائرة؟».

«نعم». ثم تابعت قائلًا: «عندما أنهت سيبل الجامعة في كانون الأول/ نوفمبر، وعادت من أجل الزواج مني، بدأنا نلتقي في مصيف سعادية هذه المرة. ولكن بيت سعادية بارد إلى درجة أننا سرعان ما فقدنا متعة ممارسة الحب».

«هل توقفتما عن ممارسة الحب حتى تجدا بيتًا دافئًا؟».

«ذهبنا إلى بيت سعادية في مطلع آذار/ مارس، أي قبل شهرين. كان باردًا جدًّا. أشعلنا الشومينيه فامتلأ البيت بالدخان، وتشاجرنا. ثم أصيبت سيبل بأنفلونزا شديدة. ارتفعت حرارتها، وبقيت أسبوعًا طريحة الفراش. ولم نرد أن نذهب إلى هناك مرة أخرى لممارسة الحب».

قالت فسون: «من منكما لم يرد؟ هل هي أم أنت؟». وبدلًا من تعبير الشفقة لمطالب بقول الحقيقة، ظهر على وجهها نظرة توسل تقول: «رجاء لا تكذب، ولا تحزني!».

قلت: «أعتقد بأن سيبل تفكر بأنني أعطي الخطوبة والزواج أهمية أكبر إذا مارسنا الحب أقل قبل الزواج».

«ولكنك تقول إنكما مارستما الحب من قبل».

«لم تفهميني. ليست القضية بممارسة الحب الأولى».

قالت فسون مخفضة صوتها: «نعم، هذا ليس مهمًّا».

قلت: «أرتني سيبل كم هي تحبني، وتثق بي. ولكن فكرة ممارسة الحب قبل الزواج ما زالت تقلقها... وأتفهم هذا. درست كل هذه الفترة في أوربا، ولكنها ليست جريئة وعصرية مثلك..».

خيم صمت طويل جدًّا. لأنني فكرت بمعنى هذا الصمت طوال أعوام، أعتقد بأنني يمكن أن ألخص الموضوع بشكل متوازن: هناك معنى آخر للجملة الأخيرة التي قلتها لفسون. إنني أوضح لفسون بأن مضاجعة سيبل لي قبل الزواج تعني العشق والثقة، أما قيام فسون بالأمر نفسه فهو جرأة وحداثة. وسأندم لأعوام طويلة على خروج هذه العبارة عن لساني. بسبب مجاملة «الجرأة والحداثة» يتم التوصل إلى نتيجة مفادها أنني لن أشعر بمسئولية وارتباط خاص بفسون لأنني أمارس معها الحب. بما أنها «حداثية» فإن مضاجعتها رجلًا قبل الزواج أو عدم كونها باكرة ليلة الزواج ليست مشكلة بالنسبة إليها... مثل النساء الأوربيات أو النساء الأسطوريات اللواتي يقال إنهن يتجولن في شوارع إسطنبول... مع أنني قلت تلك الكلمات لاعتقادي بأنها ستحظى بإعجاب فسون.

في أثناء مرور تلك الأمور ببالي في ذلك الصمت وإن لم يكن بهذا الوضوح، كانت عيناي متعلقتين بتموج أغصان أشجار الحديقة الخلفية البطيء بتأثير الريح. بعد ممارستنا الحب، كنا نتمدد على السرير، وننظر إلى أشجار الحديقة الخلفية، والأبنية التي وراء الأشجار، والسنونو المتطاير بشكل عشوائي بينها.

قالت فسون بعد زمن طويل: «في الحقيقة أنني لست جريئة وحداثية!».

فسرتُ عبارتها هذه بالقلق الذي سببه هذا الموضوع الثقيل، وحتى بالتواضع، ولم أتوقف عنده.

فيما بعد، أضافت فسون بانتباه: «يمكن للمرأة أن تحب رجلًا بجنون لسنوات، وألا تمارس معه الحب نهائيًا..».

قلت: «طبعًا». وخيم صمت آخر.

«أي أنك في هذه الأثناء لم تعد تحبها نهائيًّا؟ لماذا لا تجلب الآنسة سيبل إلى هنا؟».

قلت: «لم يخطر هذا ببالي». واستغربت لعدم التفكير بهذا الأمر نهائيًّا من قبل. «لا أدري لماذا خطر ببالي هذا المكان الذي كنت أدرس وأستمع فيه مع أصدقائي للموسيقى بسببك أنت».

قالت بانتباه وحذق: «صدقت حقيقة بأنه لم يخطر ببالك. ولكن ثمة كذبًا بما قلته قبل هذا. هل يوجد؟ أريدك ألا تكذب عليّ نهائيًّا. ما زلت لا أصدق أنك لا تمارس معها الحب في هذه الأيام. أقسم، رجاء».

قلت: «أقسم أنني لا أمارس معها الحب في هذه الفترة». وعانقت فسون.

«حسنٌ، متى تنوون العودة إلى ممارسة الحب؟ عندما يذهب أبواك إلى سعادية في الصيف؟ متى سيذهبان؟ أجبني بالحقيقة، ولن أسألك سؤالًا آخر».

تمتمت بخجل: «سينتقلان إلى سعادية بعد الخطوبة».

«لم تكذب عليّ الآن نهائيًّا؟».

«نعم، لم أكذب».

«فكر قليلًا لو سمحت».

تظاهرت بأنني أفكر، وفكرت قليلًا. في هذه الأثناء أخذت فسون رخصة القيادة من جيب سترتي، وكانت تلعب بها».

قالت: «السيد أدهم، وأنا أيضًا لي اسم آخر أنادى به. المهم، هل فكرت؟».

قلت: «نعم، فكرت. أنا لم أكذب عليك نهائيًّا».

«الآن، أم في هذه الأيام؟».

قلت: «في أي وقت... نحن في مكان لا يفرض على أحدنا أن يكذب على الآخر».

«كيف؟».

شرحت لها بأن عدم وجود أي علاقة مصلحة أو عمل بيننا، وعيشنا المشاعر الإنسانية الأكثر براءة وأساسية بصدق، لا يترك مجالًا للكذب واللف والدوران.

قالت فسون: «أنا واثقة بأنك كذبت عليّ».

«استهلكت احترامك لي بسرعة».

«في الحقيقة أنني أردتك أن تكذب عليّ... لأن الإنسان لا يكذب إلا من أجل ما يخاف كثيرًا من فقدانه».

«أكذب من أجلك بالتأكيد... ولكنني لا أكذب عليك. ويمكن أن أفعل هذا من أجلك بعد الآن إن أردت. لنلتق غدًا أيضًا، ممكن؟».

قالت فسون: «حسنٌ!».

عانقتها بكل قوتي، وسحبت إلى داخلي رائحة رقبتها. تفوح رائحة بحر بطحالب ومزيج الكراميل المحروق وبسكويت الأطفال، وكلما شممت هذه الرائحة ينتشر في داخلي شعور بالتفاؤل والسعادة، ولكن الساعات التي أقضيها مع فسون لا تغير دفق حياتي بأي شكل. لعل هذا يحدث لأن هذه المتعة والتفاؤل الطبيعي الذي أشعر به يبدوان لي أنهما شعور طبيعي. ولكن هذا ليس بسبب رؤيتي نفسي على حق أو تعرضي للظلم بشكل دائم مثل كل الرجال الأتراك، بل لشعوري بأنني لست منتبهًا بدقة لما أعيشه.

على الرغم من هذا فقد بدأت أشعر في تلك الأيام بأن جرحًا عميقًا في روحي بدأ يُفتح رويدًا رويدا وسط شعور رهيب بالوحدة السوداء والعميقة

دون مبالاة كما يشعر بعض الرجال. أصبحت أُخرج الزجاجة من الثلاجة كل يوم، وأملأ قدحًا بالعرق، وأشرب وحدي بصمت وأنا أنظر من النافذة إلى الخارج. كانت نوافذ غرفة نومنا في أعلى بناء مقابل جامع تشويكية تطل على غرف نوم كثيرة تشبهها، ومنذ طفولتي أشعر بالطمأنينة عندما أنظر إلى غرف نوم شقق الآخرين.

كنت أفكر في تلك الليالي وأنا أشاهد أضواء نيشان طاش بأنني يجب ألا أعشق فسون لكي تستمر حياتي الجميلة والسعيدة بكل عاداتها. لهذا السبب أشعر بضرورة عدم انجرافي بصداقة فسون، وهمومها، وممازحاتها وإنسانيتها. لم يكن هذا صعبًا جدًّا لأن الوقت المتبقي من دروس الرياضيات وممارسة الحب قليل جدًّا. في أثناء ارتداء الألبسة على عجل بعد ساعات ممارسة الحب السعيدة، بدأتُ أفكر أحيانًا بأن فسون تولي «عدم الانجراف» الأهمية نفسها. وأعتقد أنه لا بد من معرفة تلك السعادة المفرطة والمتعة التي شعرنا بها في تلك الدقائق الخارقة من أجل فهم قصتنا.

رغبتي بعيش لحظات ممارسة الحب من جديد، وكثيرًا، وارتباطي بتلك المتع هي اللهيب الأساسي الذي يحقق دفق القصة. كلما تذكرت لحظات ممارسة الحب التي لا مثيل لها من أجل فهم الارتباط بها على مدى أعوام، فلا تخطر ببالي أفكار منطقية، بل مشاهد ممارسة الحب الجميلة: مثلًا وضعي ثدي فسون الأيسر الكبير في فمي وهي جالسة في حضني... أو سقوط قطرات العرق من جبيني وذقني على رقبة فسون الجميلة، وفرجتي بإعجاب على ظهرها ومقعدتها الجميلين... أو فتح عينيها فجأة بعد أن تطلق تأوهَ لذة... أو التعبير الذي يظهر على وجه فسون في أمتع لحظات ممارسة الحب...

ولكن تلك المشاهد كما سألاحظ فيما بعد، فهي ليست سبب متعتي وسعادتي، بل كانت صورًا محرضة فقط... في أثناء محاولتي فهم سبب عشقي لها إلى هذه الدرجة بعد أعوام، لم أكن أتذكر ممارستنا الحب فقط، بل أحاول تذكر الغرفة التي مارسنا فيها الحب، والمحيط، والأشياء العادية.

يحط أحد الغربان الضخمة التي في الحديقة الخلفية على حامية الشرفة الحديدية أحيانًا، ويتفرج علينا بصمت. إنه مثل الغربان التي كانت تحط على شرفتنا في طفولتي بالضبط. كانت أمي تقول في طفولتي: «هيا نم! انظر، الغراب يراقبك!». وهذا ما كان يخيفني. وهناك غراب تخاف منه فسون أيضًا.

كانت برودة الغرفة وغبارها حينًا، وشحوب الملاءات ووجوهنا أحيانًا وقذرها وظلالها، وكثير من الأمور التي تدخل من الخارج مثل ضجيج الحياة والمواصلات وأعمال البناء التي لا تنتهي، ونداء الباعة في أحايين أخرى، تشعرنا بأن ممارستنا للحب ليست من عالم الأحلام، بل من العالم الحقيقي. أحيانًا نسمع بوق سفينة من نواحي ضولمة بهتشة أو بشكطاش، ونفكر معًا بتصورنا لتلك السفينة. في كل لقاء لنا نمارس الحب بإخلاص أكثر وحرية أكبر أدرك أن الاستطالات المستهجنة في جسد فسون، واندفاعاتها الجلدية، ووبرها، وبقعها المظلمة والمخيفة هي مصدر السعادة، وليس تفاصيل الجاذبية الجنسية فقط.

ما الذي يربطني بها خارج متعة ممارستنا الحب غير المحدودة والطفولية؟ أو لماذا أمارس معها الحب بهذا الاندفاع القلبي؟ هل كانت متعة ممارسة الحب، والرغبة المتكررة باستمرار هي ما يولد العشق، أم أن هناك أمرًا آخر يغذي تلك الرغبة المتبادلة ويولدها؟ لم أكن أسأل نفسي هذه الأسئلة في الأيام التي كنت ألتقي بفسون كل يوم سرًّا، ومثل طفل سعيد دخل دكان سكاكر، يأكل منها باندفاع، ودون توقف.

١٤ ـ أزقة إسطنبول، جسورها، طلعاتها، ساحتها

في أثناء حديثنا، تقول فسون عن مدرس في الثانوية معجبة به: «لم يكن مثل المدرسين الآخرين!»، فسألتها عن قصدها بهذا العبارة، ولم أتلق جوابًا.

بعد عدة أيام، سألتها ثانية عن قصدها بعبارة: «أن يكون الرجل مثل الرجال الآخرين».

قالت فسون: «أعرف أنك تسأل هذا بجد. وأريد أن أجيبك بجد. هل أجيب؟».

«طبعًا... لماذا تنهضين؟».

«لأنني لا أريد أن أكون عارية وأنا أشرح ما أريد شرحه».

قلت: «وهل ألبس أنا أيضًا؟». فلبستُ عندما لم تجبني.

أعرض علب السجائر هذه، ومنفضة السجائر إنتاج كوتاهية التي جلبتها من إحدى الخزن في الداخل إلى غرفة النوم، وفنجان الشاي (فنجان فسون)، والقدح الزجاجي، والقوقعة التي تعبث بها فسون بعصبية بين لحظة وأخرى أثناء قص قصصها لكي تعكس ثقل هواء الغرفة في تلك الأثناء وإرهاقه وسحقه، وأعرض ملاقط شعر فسون الطفولية لكي لا يُنسى أن تلك القصص قد عاشتها طفلة.

بدأت فسون بقص قصتها من صاحب الدكان الصغير الذي يبيع التبغ والألعاب والقرطاسية في زقاق بستان البئر. كان ذلك العم البائس صديق والدها، ويلعب معه النرد بين فترة وأخرى. كلما أرسلها والدها لجلب المياه الغازية أو السجائر أو البيرة وهي بين الثامنة والثانية عشرة من عمرها وخصوصا في الصيف، كان يبقيها العم السافل في الدكان بذريعة: «ليس هناك فكة، انتظري قليلًا، ولأعطيك مياه غازية». ويجد ذريعة عندما لا يكون هناك أحد في الدكان، ويلمسها («أنت تعرقت، انتظري»).

فيما بعد كان هناك البحار الخراء ذو الشاربين الذي يزورهم مع زوجته السمينة مرة أو مرتين في الأسبوع عندما كانت في العاشرة أو الثانية عشرة. كان والدها يحب هذا الرجل الطويل كثيرًا، ويستمع الجميع للإذاعة أو يتبادلون الحديث، ويشربون الشاي، ويأكلون المعمول. وبطريقة لا ينتبه

إليها أحد، ومن دون أن تفهم فسون ما يحدث بالضبط، يمد يده إلى خصرها أو كتفها أو طرف وسطها، أو فخذها، ويتركها هناك كأنه نسيها. أحيانًا كانت يد الرجل تسقط في حضن فسون «بالخطأ» سقوط الفاكهة من الشجرة إلى السلة بمهارة، وفي أثناء ارتجافها هناك بشكل خفيف، وترطبها، وارتفاع درجة حرارتها، تتجمد فسون كأن عقربًا يدبُّ بين وسطها وفخذيها، وفي هذه الأثناء يحتسي الرجل الشاي بيده الأخرى، ويتحدث مع الآخرين في الغرفة.

في العاشرة من عمرها كانت فسون تطلب الجلوس في حضن والدها وهو يلعب الورق مع أصدقائه، وعندما يرفض (انتظري يا بنتي، أنت ترين أنني مشغول)، يقول لها السيد ثقيل: «تعالي، واجلبي لي الحظ»، ويضعها في حضنه، ثم يداعبها بطريقة لا تبدو بريئة.

كانت الحياة تدب بأشباح خيالها المظلم على جسور إسطنبول، وفي أزقتها وطلعاتها وسينماتها وحافلاتها وساحاتها المزدحمة وزواياها القفرة المليئة بأشباح أمثال العم السافل، والسيد الثقيل والجار الخراء ذي الشاربين ولا تكره أحدًا منهم («لعل السبب أن أحدًا لم يهزها»). ما أدهش فسون أن والدها لم يكن منتبهًا نهائيًّا إلى تحول ضيفهم إلى عم بائس أو خراء ذي الشاربين، ومحاصرتها في الدهليز أو المطبخ، ولمسها. عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها بدأت تفكر بأنها من الممكن أن تصبح فتاة جيدة بعدم الشكوى من لمس الزحام الماكر والبائس الثقيل لها. عندما كتب «الولد» طالب الثانوية الذي عشقها في تلك الفترة مقابل نافذتها تمامًا: «أنا أحبك»، جرّها والدها من أذنها، وأراها العبارة، وصفعها على وجهها. وتعلمت مثل كل فتاة إسطنبولية متوازنة ألا تمر من المقاسم الفارغة والأزقة الخلفية والحدائق التي يُخرج فيها الأعمام السفلة أعضاءهم الذكرية، ويرونها لها.

أحد الأسباب التي جعلت تفاؤلها بالحياة لا يتأثر من هذه التحرشات، هو إظهار الرجال انكسارهم بقواعد موسيقى الظلام نفسها السرية. كان ثمة

جيش ممن يراها في الزقاق أو على باب المدرسة أو مداخل السينمات أو في الحافلات، وبعضهم لا يتركها على مدى أشهر، وهي تتظاهر بعدم الانتباه إليهم، ولكنها لم تشفق على أي منهم (أنا طرحت عليها سؤال الشفقة). بعض الذين يلاحقونها لم يكونوا صابرين أو عاشقين أو مهذبين: بعد فترة يسمعونها كلامًا (أنت جميلة جدًّا؛ ممكن أن نمشي معًا؛ أريد أن أسألك سؤالًا، عدم المؤاخذة، هل أنت صماء؟ إلخ.)، ثم يغضبون، ويبدءون بإطلاق العبارات غير المهذبة والشتائم. بعضهم يتجولون مثنى، ومنهم من يجلب أصدقاءه ليريهم الفتاة التي يلاحقها منذ أشهر، ويأخذ رأيهم بها، وبعضهم يتضاحكون بشكل قذر وهم يلاحقونها، وبعضهم يحاولون إعطاءها رسائل أو هدايا، وبعضهم يبكون. ومنذ محاولة أحد الذين يلاحقونها تقبيلها بالقوة، لم تعد تهاجمهم كما كانت تفعل في مرحلة ما. ومنذ الرابعة عشرة من عمرها أصبحت تعرف حيل «الرجال الآخرين» ونياتهم، ولم يعودوا يلمسونها دون انتباه، ولم تعد تقع بالفخ بسهولة، ولكنهم يبتكرون كل يوم طريقة جديدة للمسها، وقرصها، وعصرها، واحتضانها من الخلف في أزقة المدينة. لم تعد تدهش من الذين يمدون أيديهم من نوافذ السيارات، ويلمسون السائرات على الرصيف، والمتظاهرين بأنهم علقوا في فسحة الدرج، ويصطدمون بها، والمحاولين تقبيلها بالقوة في المصعد.

كل رجل لديه علاقة سرية مع امرأة جميلة، مضطر لسماع قصص مختلف الرجال المتعلقين بحبيبته أو الشغوفين بها، والمحاولين التقرب منها بغيرة أحيانًا، وفي أكثر الأحيان بابتسامة فيها شفقة واستخفاف: هناك شاب لذيذ ورقيق بعمرها في مدرسة التفوق للدورات. كثيرًا ما يعرض عليها الذهاب إلى السينما أو الجلوس في حديقة الشاي التي في الزاوية، وعندما يرى فسون يسيطر عليه الانفعال من الدقائق الأولى، ويصمت. ذات يوم رأى أن ليس لدى فسون قلم، فأهداها قلمًا، وشعر بالسعادة كثيرًا عندما وجد أنها تكتب الملاحظات بالقلم.

في مدرسة الدورات نفسها هناك «إداري» في الثلاثين من عمره تقريبًا،

عصبي، مثير للأعصاب، صامت، يدهن شعره بالبريانتين. وبذرائع مثل: «معلومات هويتك ناقصة»، «أحد أوراق إجاباتك مفقودة» يطلب فسون إلى غرفته، ويفتح الحديث حول موضوعات مثل معنى الحياة، وجمال إسطنبول، وقصائده المنشورة، وعندما لا يحظى بأي ردة فعل مشجعة من فسون، يدير لها ظهره، وينظر عبر النافذة، ويقول بصوت مخنوق يشبه الفحيح: «بإمكانك أن تخرجي».

لم تكن تريد الحديث عن الذين يقعون بغرامها فور رؤيتها حين يدخلون إلى بوتيك شانزليزيه، وتبيعهم السيدة شيناي كثيرًا من الألبسة والحلي والهدايا (كان بينهم امرأة). حسنٌ، نتيجة إلحاحي، ستحكي عن أكثرهم «إثارة للضحك»: كان هذا رجلًا غنيًّا في الخمسينيات من عمره، قصير القامة، سمينًا يشبه المكعب، وله شارب يشبه الفرشاة. بفمه الصغير يدخل جملًا فرنسية طويلة أثناء حديثه مع السيدة شيناي، أما رائحة عطره التي تفوح في الدكان فقد كانت تقلق كناري فسون «ليمون»!

التقت مع عدة مرشحي عرسان من بين كثيرين قدمتها أمها لهم من دون أن تجعلها تنتبه بحسب ما تعتقد، وأعجبت برجل مختلف شُغل عقله بها أكثر من الزواج، وقد تبادلت معه القبل. التقت بشاب من معهد روبرت في الصالة الرياضية التي حضرت فيها مسابقة الغناء بين الثانويات العام الماضي، وقد وقع بحبها بشكل فظيع. كان يأتي إلى باب المدرسة، ويخرجان معًا كل يوم، وتبادلا القبل عدة مرات. نعم، خرجت فترة مع حلمي اللقيط، ولكنها لم تبادله القبل. لأنه لم يكن في باله سوى إدخال الفتيات إلى السرير فورًا. لم يكن شعورها بالقرب من المطرب خاقان سرينقان مقدم مسابقة ملكات الجمال لأنه مشهور، بل لاقترابه منها في الكواليس بحنان، وإعطائها أسئلة الثقافة والذكاء (وأجوبتها) التي ترتجف الفتيات كلهن منها خوفًا، فيما كان الجميع هناك يلعبون مختلف الألاعيب، وترى بأن حقها يهضم أمام عينيها. بعد ذلك لم ترد على هواتف هذا المغني على الطراز القديم الملحَّة (لم تكن أمها تريد هذا أيضًا). فسرتْ تقطيب

وجهي بالغيرة، وبمنطق ما زلت أدهش منه، فإن سبب هذه الغيرة لأنه مذيع مشهور فقط، وفسرت بحنان أنها لم تعشق أحدًا بعد السادسة عشرة من عمرها، وهذا كان خيارها. على الرغم من استمتاعها بحديث المجلات والتلفاز والأغاني عن العشق باستمرار، فهي لا تجد أنه من الصواب الحديث عن هذه المشاعر في كل لحظة؛ نعم، وتعتقد أن كثيرًا من الناس غير العاشقين يبالغون بهذه المشاعر من أجل لفت النظر إليهم. ولكن هذا لا يحدث في الحياة إلا مرة واحدة.

سألتها وأنا متمدد بجانبها في السرير: «هل شعرتِ بما يشبه هذا الشعور؟».

قالت: «ليس كثيرًا»، وبعد قليل من التفكير، بدأت تتحدث عن شخص وهي محتاطة كأنها تحاول أن تكون صادقة.

لأن هذا الرجل اقترب من فسون بعشق قريب من الحالة العقدية، شعرت فسون بأنها يمكن أن تحبه، وكان وسيمًا، وغنيًّا و«طبعًا متزوجًا». بعد خروج فسون من البوتيك مساء، كان الرجل يقلها من زقاق «آق قواق» بسيارته الموستانغ. وفي الظلام داخل السيارة، وتحت المطر أحيانًا وحيث تقف السيارات بجانب برج الساعة المجاور لقصر ضولمة بهتشة، ويُشرب الشاي أثناء النظر إلى البوسفور، أو في الأرض الخاوية أمام الصالة الرياضية، يتبادلان القبل طويلًا، وينسى الرجل الشغوف البالغ الخامسة والثلاثين من عمره أنه متزوج، ويعرض عليها الزواج. لعلني كنت سأبتسم من حال هذا الرجل بتفهم كما أرادت فسون، وأضغط على الغيرة التي في داخلي، ولكن بعد ذكر ماركة سيارته ونوع عمله، وعينيه الخضراوين الواسعتين، ذكرت فسون اسمه، لفني من كل جانب نوع من الغيرة التي أُفقدتني توازني. الرجل الذي قالت فسون إنه السيد طورغاي هو أحد أغنياء النسيج «صديق العائلة والعمل»، نلتقي به كثيرًا أبي وأخي وأنا. وكثيرًا ما رأيت هذا الرجل الطويل الوسيم والسليم البنية في سعادة عائلية مع زوجته وأطفاله في شوارع نيشان

طاش. هل سيطرت عليّ غيرة قوية إلى هذه الدرجة نتيجة احترامي للسيد طورغاي وارتباطه بعائلته، وجده، واستقامته؟ روت فسون أن الرجل تردد على بوتيك شانزليزيه لشهور، وكل يوم تقريبًا في البداية من أجل «الحصول عليها»، وكثيرًا ما كان يشتري من المحل كنوع من الرشوة للسيدة شيناي التي انتبهت إلى الوضع.

بداية قبلت هداياه لأن السيدة شيناي قالت: «لا تكسري بخاطر زبائني المحترمين!». وبعد أن وثقت بأن الرجل يعشقها، بدأت تلتقي به نتيجة «الفضول»، وحتى إنها شعرت بقرب غريب منه. نتيجة إلحاح السيدة شيناي أيضًا، فقد ذهبت في سيارة الرجل ذات يوم ثلجي «لمساعدة» صديقة لها تفتح محلًا في ببك، وبعد تناولهما الطعام في أورطا كوي في طريق العودة، أفرط قليلًا «الصناعي الشغوف بالنساء السيد طورغاي»، فألح على دعوتها «لشرب القهوة» في بيت يستخدم للقاء النساء فيه، وحين رفضت فسون، أفرط «الرجل العاطفي الرقيق» العيار، وبدأ يقول: «أشتري لك كل شيء»، وعندما حاول أن يقود السيارة إلى الأماكن الخاوية والأحياء المتطرفة لكي يقبلها كما يفعل دائمًا، رفضت فسون، فحاول «الحصول عليها» بالقوة. قالت فسون: «كان يقول إنه سيعطيني نقودًا. لم ألتق به في اليوم التالي عند إغلاق الدكان. جاء إلى المحل في اليوم التالي، وكان إما قد نسي ما فعله، وإما أنه لم يرغب بتذكره. توسل كثيرًا، واشترى سيارة موستانغ لعبة، وتركها عند السيدة شيناي من أجل أن أتذكر أيامنا الحلوة. ولكنني لم أركب سيارته الموستانغ ثانية. في الحقيقة كان علي أن أقول له: «لا تأت ثانية». ولكنني لم أستطع قولها لأنه يعشقني إلى درجة نسيانه كل شيء مثل طفل. لعل السبب هو إشفاقي عليه، لا أدري. يأتي كل يوم، ويشتري بمبلغ كبير يُسر السيدة شيناي، ويوصي على بعض الأشياء من أجل زوجته، وعندما يلتقطني في إحدى الزوايا، يذبّل بعينيه الرطبتين، ويتوسل قائلًا: «لنكن كما كنا قديمًا، ولآخذك كل مساء، ونتنزه بالسيارة، ولا أريد شيئًا آخر». بعد أن عرفتك، صرت أهرب إلى الداخل كلما جاء إلى الدكان. أصبح نادرًا ما يأتي».

«لماذا لم تذهبي معه إلى النهاية عندما كنت تبادلينه القبل في الشتاء؟».

قالت فسون مقطبة حاجبيها بجد: «لم أكن قد بلغت الثامنة عشرة بعد. بلغت الثامنة عشرة قبل أسبوعين من لقائنا في الدكان، في الثاني عشر من نيسان/ إبريل».

من أهم المؤشرات على العشق انشغال عقل الإنسان بالحبيب أو مرشحي الأحبة، وأنا على وشك الوقوع بعشق فسون. ولكن الرجل الذكي البارد الأعصاب في داخلي يقول لي إن سبب انشغالي الدائم بفسون هو الرجال الآخرون. أما جواب منطقي المرتبك على اعتبار أن الغيرة إحدى مؤشرات العشق المهمة، فهو أن غيرتي مؤقتة: خلال يومين أعتاد على قائمة «الرجال الآخرين»، ولعلني أستخف بأولئك الذين لم يتجاوزوا تبادل القبل. ولكنني دهشت من رؤيتي أنني أشعرتها بحركاتي الحادة أثناء تلبية رغباتي وبشكل آمر فيما كنت أمارس معها الحب في ذلك اليوم، كنت أتحرك بدافع «الحصول عليها» بحسب تسمية الصحفيين، أكثر من شعور السعادة الجنسية الطفولية التي تمزج بين اللعب والفضول والانفعال الشديد.

١٥ ـ بعض حقائق علم الإنسان غير الجيدة

بما أنني ذكرت تعبير «الحصول»، لأعد إلى موضوع معروف جيدًا لبعض قرائنا وزوارنا، ويشكل أرضية لقصتنا. أعتقد أن زوار متحفنا من الأجيال اللاحقة ـ سنة ٢١٠٠ مثلًا ـ سيجدون صعوبة بفهم هذا الموضوع، لذلك يجب أن أعطي معلومات لا طعم لها، أو كما يسميها الأولون «غير جيدة» دون خوف من التكرار.

بقيت «البكارة» كنزًا ثمينًا تحتفظ به الفتيات إلى وقت الزواج في منطقة

البلقان والشرق الأوسط وجنوب البحر المتوسط وغربه حتى عام ١٩٧٥ الشمسي بعد الميلاد. بدأت قيمة هذا الكنز تنخفض قليلًا من الناحية العملية في بعض أحياء إسطنبول بعد أن أصبحت الفتيات يتزوجن في سن أكبر في المراحل التي سميت «التغريب» و«الحداثة»، وعلى الأغلب نتيجة التحول إلى المدنية. كان أنصار التغريب يؤمنون بتفاؤل أن هذه الأخلاق وحتى هذا الموضوع سيُنسى نتيجة اعتبارهم الحداثة مساوية للحضارة. ولكن ثمة دلالات ونتائج خطيرة لممارسة الحب «حتى النهاية» مع رجل آخر قبل الزواج حتى في الأوساط الإسطنبولية الأكثر تغريبًا وغنى في تلك السنوات:

(أ) أبسط نتيجة يمكن استنتاجها ـ مثلما رويتُ ـ هي القرار بالزواج. في الأوساط المغربة الغنية عندما يعلن شابان خطوبتهما أو «علاقة ستصل إلى الزواج» بين الشباب الجادين ـ كما هو الوضع بيني وبين سيبل ـ فإن ممارسة الحب يمكن أن تقابل بتسامح وإن كان على نطاق ضيق. الفتيات المنتميات إلى طبقة عليا وتلقين تعليمًا جيدًا يضاجعن مرشحي الأزواج قبل الزواج، ويستمتعن بتفسير هذه الحركة بالحرية والحداثة إلى درجة عدم الالتزام بالتقاليد أكثر من ممارستهن نتيجة الثقة.

(ب) في الأوضاع التي لا تؤسس لهذه الثقة، ولم تحظ هذه «العلاقة» بالقبول الاجتماعي بعد، إذا لم تستطع الفتاة «ضبط» نفسها، وأعطت بكارتها لأسباب شائعة كثيرة مثل ضغط الشاب، وشدة الغرام، والكحول، والخبل، والجرأة المدهشة، يجب على الرجل المرتبط بالتقاليد أن يتزوج الفتاة من أجل حماية شرفها وفق مبدإ الكرامة. أحمد شقيق صديقي أيام شبابي محمد تزوج زوجته الحالية السعيد جدًّا معها سفدا نتيجة حادث كهذا، والخوف من الندم.

(جـ) إذا غدر الشاب، ولم يتزوج الفتاة، وكانت الفتاة تحت الثامنة عشرة، فإن الأب الغاضب يرفع دعوى قضائية من أجل تزويج الفتاة لذلك

الشاب الشغوف بالنساء. وأحيانًا تتابع الصحافة هذا النوع من الدعاوى، وتغطى صورة عيني الفتاة «المغدورة» عند نشرها بشريط أسود عريض لكي لا تعرف بهذا الوضع السافل. ولأن الشريط الأسود نفسه يستخدم لإغلاق عيني العاهرات المقبوض عليهن في مداهمات الشرطة، أو ممارسات الخيانة الزوجية أو المتعرضات للاغتصاب وتنشر صورهن في الجرائد، فقد كانت قراءة الجرائد التركية في ذلك الوقت تشبه التجول في حفل تنكري بأقنعة عليها أشرطة سوداء فوق العيون. أصلًا من النادر نشر صورة امرأة تركية من دون شريط أسود على عينيها خارج أولئك اللواتي يعتبرن «خفيفات» مثل المغنيات والفنانات والمشاركات بمسابقات ملكات الجمال، ويفضّل نشر صور النساء الأجنبيات غير المسلمات في الإعلانات.

(د) ولأن سقوط فتاة عاقلة وباكرة بهذا الوضع ـ أي «تسليم نفسها» لشاب لا ينوي الزواج منها ـ لا يخطر ببال، فيسود اعتقاد بأن من تفعل هذا الشيء، أي تنام مع شاب دون وعد وأمل بالزواج، لا يكون عقلها في رأسها. وكثيرًا ما كانت الأفلام التركية المحبوبة تشتغل على قصص الفتيات اللواتي يحضرن حفلًا راقصًا بريئًا، ويُخدرن بوضع دواء في الليمونادة التي يشربنها، و«توسيخهن» و«سلبهن ثروتهن الأغلى» في جو من الميلودراما المؤلمة لكي يكنّ عبرة، وتموت في تلك الأفلام طيبات القلوب، وتغدو السيئات عاهرات.

(هـ) لاشك في أن إمكانية أن تكون الرغبة الجنسية ما يسلب عقل الفتيات مقبولة. ولكن الفتاة المتعلقة بمتعتها الجنسية بطفولة وشغف، وترمي التقاليد التي يقتل الناس بعضهم بعضًا من أجلها جانبًا، هي مخلوقة غير واقعية، وتخيف مرشحي الأزواج من خيانتهم في المستقبل. روى لي صديق في الجندية بشيء من الخجل وكثير من الندم أنه ترك حبيبته «لأنهما مارسا الحب كثيرًا قبل الزواج» (بعضهما مع بعض فقط).

(و) على الرغم من هذه القواعد الصارمة والعقوبات التي تصل إلى

دفع الفتيات اللواتي يقدمن على هذا الأمر خارج المجتمع، والقتل أحيانًا، فإن الإيمان بوجود فتيات يمارسن الجنس مع الرجال من أجل المتعة فقط في المدينة شائع إلى درجة مدهشة. يسمي علماء الاجتماع هذه العقيدة «أسطورة المدينة»، وهي شائعة جدًّا بين المهاجرين من الريف إلى إسطنبول، والفقراء، والبورجوازيين الصغار ـ مثل إيمان الأطفال الغربيين ببابا نويل ـ وهي مقبولة دون نقاش إلى درجة أن الشباب في الأحياء الغنية نسبيًّا مثل تقسيم وبيه أوغلو وشيشلي ونيشان طاشِ، وببك، وبخاصة الذين يعانون من الجوع الجنسي قد انجرفوا مع «أسطورة المدينة» هذه. وكانت قصص النساء اللواتي يمارسن الحب مع الرجال من أجل متعتهن فقط قبل الزواج «مثلهن مثل النساء الأوربيات» شائعة كالأسطورة حول نساء أمكنة مثل نيشان طاش حيث تدور أحداث قصتنا ولا يغطين رءوسهن ويرتدين تنانير قصيرة. يتخيل أصدقائي أولاد الصناعيين مثل حلمي اللقيط أن هؤلاء الفتيات مخلوقات طموحات يفعلن أي شيء للاقتراب من الأغنياء أمثاله، والركوب في سياراتهم المرسيدس... فيشربون قليلًا من البيرة في أمسيات السبت، ويسكرون قليلًا، وعندما يثارون تمامًا يمشطون إسطنبول كلها بسياراتهم شارعًا شارعا، وزقاقًا زقاقًا، ورصيفًا رصيفًا على أمل إيجاد واحدة من تلك الفتيات. قبل عشرة أعوام، وعندما كنت في العشرين من عمري قضينا ساعات بالبحث عن فتاة من هذا النوع في مرسيدس والد حلمي اللقيط، ولم نصادف أي فتاة بتنورة قصيرة أو طويلة، بعدئذ ضاجعنا فتاتي لهو ترقصان رقصًا شرقيًّا للسياح والمتنفذين في أحد فنادق منطقة ببك الفخمة بعد أن دفعنا مبلغًا كبيرًا لقواديهما، وصعدنا معهما إلى غرفتين في الفندق. الآن لا أهتم لقراء القرون القادمة السعداء الذين سيعيبون علي هذا الأمر. ولكنني أريد أن أدافع عن صديقي حلمي: على الرغم من فظاظته الذكرية كلها، فإن حلمي لا يعتقد بأن كل فتاة تلبس ميني جيب هي فتاة تضاجع الرجال من أجل متعتها، بل على العكس تمامًا فهو يحمي ذوات الميني جيب وصابغات شعرهن بالأصفر والمزينات أنفسهن من المتحرشين الذين يلاحقونهن، وعند اللزوم يدخل

بشجار يستخدم فيه اللكم والركل مع الفقراء المنهكين العاطلين عن العمل ذوي الشوارب «من أجل أن يعلمهم السلوك مع النساء، والمدنية».

لا بد أن قرائي الدقيقين قد انتبهوا إلى أنني أدرجت معلومات علم الإنسان هذه هنا لكي يكون هناك مسافة بيني وبين الغيرة التي تثيرها فيّ قصص عشق فسون. غرت من السيد طورغاي أكثر من الجميع. وأعتقد أن السبب هو كونه صناعيًّا أعرفه يعيش في نيشان طاش مثلي، وأعتبر غيرتي منه طبيعية، وأؤمن بأنها مؤقتة.

١٦ ـ الغيرة

مساء اليوم الذي حكت فيه فسون بمبالغة وبهارات حول شغف السيد طورغوت، جلست بجوار سيبل في الشاليه القديم الذي تقيم فيه مع والدها ووالدتها قرب سور الأناضول بعد تناول العشاء.

قالت سيبل: «شربت كثيرًا هذا المساء يا روحي، هل هناك جانب لم يعجبك في التحضيرات؟».

قلت: «في الحقيقة أنني مسرور جدًّا لأن الخطوبة ستقام في فندق هيلتون. وأمي أكثر من يرغب بإقامة خطوبة يحضرها جمعٌ كبير، وتعرفين هذا. هي أيضًا مسرورة..».

«ما مشكلتك إذًا؟».

«لا شيء... أعطيني قائمة المدعوين..».

قالت سيبل: «أمك أعطتها لأمي».

نهضتُ من مكاني، وخطوت ثلاث خطوات في البناء المتهالك الذي تصدر كل خشبة منه صريرًا مختلفًا، وجلست بجوار حماتي المستقبلية. «سيدتي، هل يمكنني أن ألقي نظرة أنا أيضًا على قائمة المدعوين؟».

«طبعًا يا بني..».

على الرغم من رؤيتي «الشيش» تحت تأثير العرق «بيش» فقد وجدت اسم طورغاي، وشطبت عليه فورًا بواسطة قلم الحبر الجاف الذي تركته أمي، وفي الوقت نفسه بدافع لذيذ كتبت اسم فسون ووالديها، وعنوانهم في زقاق بستان البئر، وأعدت القائمة، وقلت لها بصوت خفيض:

«والدتي لا تعرف هذا يا سيدتي، على الرغم من أن السيد الذي شطبت اسمه هو صديق للعائلة، ونقدره جيدًا، ولكنه للأسف دخل بحرص شديد قبل فترة قصيرة بعمل كبير يتعلق بالخيوط، ويقصد الإساءة لنا كثيرًا».

قالت حماتي المستقبلية وهي ترف بعينيها متظاهرة بالحكمة: «لم تبق تلك الصداقة والإنسانية القديمة يا سيد كمال. آمل ألا يزعجكم الناس الذين سجلت أسماءهم مكانه. كم شخصًا؟».

«مدرس تاريخ قريب من بعيد لأمي، وزوجته التي عملت بالخياطة لسنوات طويلة، وابنتهم الجميلة البالغة الثامنة عشرة من عمرها».

قالت حماتي المستقبلية: «رحماك، هذا جيد. هناك كثير من الشباب بين المدعوين، وكنا مهمومين لعدم وجود فتيات جميلات يرقصن معهم».

في أثناء إغفاءاتي في طريق العودة بسيارة والدي الشفروليه ١٩٥٦ التي يقودها متين أفندي كان ليل المدينة مظلمًا كما هو عادة، وكنت أنتبه إلى فوضوية الشوارع الرئيسة، والشعارات السياسية، وجمال الجدران القديمة المغطاة بالشقوق والعفن والطحالب، وأضواء بروجكتورات سفن خطوط المدينة التي تسقط على المراسي وبين الأزقة وأغصان شجر الدلب العالية التي يصل عمرها إلى قرن، ومرآة سيارتنا العاكسة، وأستمع إلى تنفس والدي وشخيره الخفيف وهو يغفو بين حين وحين في المقعد الخلفي للسيارة تحت تأثير اهتزازها على بلاط الأزقة.

أما والدتي فقد كانت مسرورة من تحقق ما تريده. بعد زيارات كهذه

نذهب إليها كلنا معًا. وفي أثناء عودتنا بالسيارة، لخّصت معنى تلك الزيارة وفكرتها حول أولئك الناس فورًا كما تفعل عادة.

«نعم، إنهم طيبون جدًّا، ومستقيمون وصادقون ومخلصون، ولا كلام على تواضعهم ورقيهم. ولكن ما حالة ذلك الشاليه الجميل التي تدمي القلب! وا أسفاه! لا أستطيع التصديق بعدم وجود أي إمكانات لديهم. ولكن لا تفهمني خطأ يا بني، فأنا لا أؤمن بأنك يمكن أن تجد فتاة ألذ وأظرف وأذكى من سيبل في إسطنبول».

أردت أن أمشي قليلًا بعد أن تركت أمي وأبي أمام البناء. قلت لأمرّ من أمام دكان علاء الدين الذي كانت أمي تشتري لي ولأخي منه ألعابًا محلية رخيصة، وشيكولاته وكراتٍ ومسدسات ودحلًا ملونة، وأوراقَ لعب، ولبانًا يخرج منه صور، وروايات مصورة وكثيرًا من الأشياء الأخرى. كان الدكان مفتوحًا. أنزل علاء الدين الجرائد التي يلفها على جذع شجرة الكستناء التي أمام الدكان، وما إن كان يطفئ النور الداخلي حتى دعاني إلى الداخل بتسامح لم أكن أتوقعه، وأعطاني من وقته ما يكفي لشراء هذه اللعبة الرخيصة التي نبشتها من بين لفات الجرائد التي سيعيدها في الخامسة صباحًا عندما تأتي الجديدة. شعرت بالألم أول مرة لأنني حسبت بأن هناك خمس عشرة ساعة لوقت إعطاء هذه الهدية لفسون، ولفها، ونسيان غيرتي كلها.

ما شعرت به كان أمرًا هدامًا ينبع من الداخل مثله مثل الندم. ترى ماذا تفعل الآن؟ لم تقدني قدماي نحو البيت، بل في الطريق المعاكس تمامًا. عندما دخلت إلى زقاق بستان البئر سرت من أمام المقهى الذي كنا نلعب فيه الورق ونستمع إلى المذياع، وبجوار باحة المدرسة التي كنا نلعب فيها كرة القدم. الرجل المنطقي الذي في داخلي لم يمت على الرغم من سكره حتى الثمالة، ويقول لي بأن والد فسون سيفتح الباب، وستقع فضيحة. مشيت حتى رأيت بيتهم ونوافذه المضاءة من بعيد. كانت خفقات قلبي تتسارع عند النظر إلى نافذة الطابق الثاني المجاورة لشجرة الكستناء.

إن هذه اللوحة التي طلبت من رسام رسمها بكل تفاصيلها لتعرض في هذه النقطة من متحفنا تعكس بشكل جيد نوافذ بيت فسون باللون البرتقالي المنعكس من المصابيح المنارة في الداخل، وشجرة الكستناء التي تبرق تحت تأثير أشعة القمر في الخلف، وعمق سماء نيشان طاشِ الكحلية خلف مداخن وأسطح الأبنية، ولكن لا أدري إن كانت تنقل الغيرة التي شعرت بها وأنا أنظر إلى ذلك المنظر؟

فيما كنت أنظر إلى المنظر، يقول لي عقلي الآن بصدق بأنني أتيت إلى هنا لكي أتأكد من أن فسون ليست مع رجل آخر أكثر من مجيئي من أجل رؤيتها في الليلة المقمرة تلك، وتمكني من تقبيلها، والحديث معها. لأن الفضول يمكن أن يدفعها لمعرفة كيف ستكون ممارسة الحب مع أحد المعجبين بها بعد أن مارسته معي «إلى النهاية». لأن تعلق فسون بمتعةِ ممارسة الحب بانفعال من كل قلبها مثل طفلة حصلت على دمية جديدة رائعة، وشغفها بممارسة الحب بشكل لم أصادفه إلا لدى القليل جدًّا من النساء، وموهبتها بإعطاء نفسها تمامًا للممارسة، كانت سببًا لنمو غيرة في داخلي باستمرار. لا أذكر كم من الوقت نظرت إلى نافذتها. بعد وقت طويل عدت إلى البيت حاملًا الدمية، ونمت.

فكرت بما فعلته ليلًا وأبعاد الغيرة التي لم أستطع نزعها من قلبي صباحًا فيما كنت ذاهبًا إلى العمل. سيطرة غرام كبير عليّ في تلك الأثناء سيكون كارثة فظيعة. نظرتْ إليّ العارضة إنغة التي تشرب مياه ملتم الغازية بشبق من جبهة بناء جانبية، وقالت إنني يجب أن أنتبه. فكرتُ بأن أبوح بسري لبعض أصدقائي مثل زعيم ومحمد وحلمي بشكل ساخر لكي لا يصل شغفي إلى أبعاد خطيرة. ولكن أصدقائي الأقرب هؤلاء معجبون بسيبل كثيرًا، وأشعر بأنهم يعتبرونني محظوظًا جدًّا، وأعرف أنهم يعتبرون فسون جذابة جدًّا، لذلك لا أتوقع أن يستمعوا إليّ بجد، ويساعدوني لأن غيرتهم ستتأجج. فوق هذا فأنا أشعر بأنني لن أتمكن من إخفاء مشاعري فور فتحي الموضوع. بعد فترة سأرغب بالحديث عن فسون بصدق وبما يليق

بحقيقتها، وحينئذ سيدرك أصدقائي أنني وقعت بغرامها بشكل سيئ جدًّا. وفي أثناء مرور حافلات ماتشكا ـ لوند التي تقرقع، وكنا نعود (أمي وأخي وأنا) بواسطتها من منطقة النفق إلى البيت في طفولتنا من نافذة مكتبي، أدرك أنه ليس بيدي كثير يمكن أن أفعله من أجل ألا يؤثر انفعالي نحو فسون على زواجي السعيد الذي أريد أن أحققه. توصلت إلى أن أفضل ما يمكن القيام به هو تركي كل شيء بحاله، والاستمتاع بطعم اللذة والسعادة التي قدمتها لي الحياة بسخاء.

١٧ ـ أصبحت حياتي كلها مرتبطة بك

ولكنني نسيت فورًا استنتاجي لهذه النتائج عندما تأخرت فسون عشر دقائق على موعدنا في بناء مرحمة. ألقي نظرة على ساعتي هدية سيبل والساعة المنبهة ماركة نجار التي تستمتع فسون بتأرجح بندولها ودقاتها، وأنظر من بين الستائر إلى الخارج نحو شارع تشويكية، وأذرع أرضية الشقة التي تصدر صريرًا، ويَنشغل بالي بطورغاي. بعد قليل، رميت بنفسي إلى الخارج.

سرت من شارع التشويكية إلى بوتيك شانزليزيه وأنا منتبه إلى الرصيفين لكي لا أفوّت فسون إذا كانت قادمة إليّ. ولكن فسون لم تكن في الدكان أيضًا.

قالت السيدة شناي: «تفضل يا سيد كمال».

قلت: «قررنا ـ الآنسة سيبل وأنا ـ شراء حقيبة جيني كولون».

قالت السيدة شناي: «هذا يعني أنكما غيرتما قراركما». وكانت على طرف شفتها ابتسامة ساخرة، ولكنها لم تستمر طويلًا. لأنني إذا كنت مضطرًّا لهذا الأمر بسبب فسون، فهي خجلة من بيع بضاعة مزورة وعلى علم بهذا. صمتنا كلانا. أنزلت الحقيبة المزورة من الواجهة عن دمية العرض ببطء بدا

لـي تعذيبًا، ونظفت الغبار عنها بخبرة بائعة لا تبيع بضاعتها من دون تنظيف. كنت مهتمًّا بالكناري ليمون الذي يعيش يومًا غير ممتع.

بعد دفع النقود، وفي أثناء خروجي من الدكان، قالت لي السيدة شيناي بمتعة تحميل العبارة معنى مزدوجًا: «بما أنكم أصبحتم تثقون بنا، لا بد أن تشرفوا دكاننا أكثر بعد الآن».

«طبعًا».

هل تسرّب شيء ما لسيبل التي تعرّج على الدكانِ أحيانًا إذا لم أشتر بضاعة كافية؟ ما أحزنني هو إجراء هذه الحسابات الصغيرة، وليس الوقوع بحبائل هذه المرأة. تخيلت أن فسون ذهبت إلى بناء مرحمة، ولم تجدني لأنني في الدكان. في ذلك اليوم الربيعي البرّاق كانت الأرصفة تعج بربات البيوت المتسوقات، والصبايا بالتنانير القصيرة المنتشر زيها حديثًا، ويسرن بالأحذية ذات الأرضية السميكة و«كعب البناية» بقلة خبرة، والطلاب الخارجين إلى الأزقة في أيامهم الأخيرة. كانت عيناي تبحثان عن فسون وأنا أنظر إلى النوريات بائعات الزهر، وبائع السجائر الأمريكية المهربة ويقال إنه شرطي مدني، وزحام نيشان طاش المألوف.

فجأة مر صهريج كتب عليه «حياة-ماء نظيف»، وظهرت فسون خلفه.

قال كل منا للآخر في الوقت نفسه: «أين أنت؟» وابتسمنا بسعادة.

«بقيت الجنية في الدكان خلال عطلة الظهر، وأرسلتني إلى دكان صديقها. جئت متأخرة، ولم تكن موجودًا».

«انشغل بالي، فذهبت إلى الدكان، واشتريت الحقيبة لتبقى ذكرى».

كانت فسون تضع القرطين اللذين أعرض أحدهما في مدخل المتحف. سرنا معًا. انعطفنا من شارع قصر المحافظ إلى شارع القصر العقاري الأقل زحامًا. ما إن كنا نعبر من أمام بناء عيادتي طبيب الأسنان الذي كانت أمي تأخذني إليه في

طفولتي وطبيب الأطفال الذي لا أنسى برودة الملعقة التي يدسها في فمي عند معاينتي حتى رأينا زحامًا في أسفل النزلة، ومجموعة من الناس يتراكضون إلى هناك، ومنهم من تأثر بما رآه هناك، وعاد نحونا بوجه مقلوب.

وقع حادث، وأغلق الطريق. رأيت صهريج حياة-مياه نظيفة الذي رأيته قبل قليل قد سحق سيارة خدمة دخلت من الشريط الأيسر وهو نازل في الطريق المنحدر. سائق صهريج الماء الذي أفلتت مكابحه يشرب سيجارة جانبًا ويداه ترتجفان. اختفى مقدم سيارة الخدمة تشويكية-تقسيم ماركة بلايموث الآيلة من الأربعينيات تمامًا تحت تأثير ثقل الصهريج. لم يبق سليمًا سوى عداد الأجرة. من وسط الزحام المتزايد تدريجيًّا رأيت جسد امرأة محشورًا بين أجزاء السيارة وزجاجها المحطم، وأدركت أنها تلك السمراء التي رأيتها قبل قليل عندما خرجتُ من بوتيك شانزليزيه. كان المكان مغطى بحطام الزجاج. أمسكتُ فسون من ذراعها، وقلت لها: «لنذهب». ولكنها لم تبالِ. نظرت بصمت إلى المرأة المسحوقة داخل السيارة حتى شبعت عيناها.

ابتعدنا عن موقع الحادث حين ازداد الزحام كثيرًا لقلقي (أتت سيارة شرطة في النهاية) من رؤية أحد معارفي لنا، أكثر من خوفي من المرأة الميتة (نعم، يجب أن تكون المرأة قد ماتت). أثناء سيرنا صاعدين زقاق المخفر نحو بناء مرحمة، كنا نقترب بسرعة مما ذكرته في بداية كتابي على أنه «اللحظة السُّعْدى في حياتي».

في برودة بيت درج بناء مرحمة، عانقت فسون، وقبلتها من شفتيها. قبلتها حين دخلنا إلى الشقة أيضًا، ولكن انكماشًا كان في شفتيها اللعوبتين.

قالت: «سأقول لك شيئًا».

«قولي».

«أخشى من عدم أخذك ما سأقوله على محمل الجد، أو من تصرفك بشكل خاطئ».

«ثقي بي».

قالت: «لست واثقة من هذا، ولكنني سأتكلم». جاء إلى وجهها تعبير حازم يوحي بأن السهم قد أفلت من القوس، ومعرفة أنها لن تستطيع إخفاء ما بداخلها بعد الآن. قالت: «أموت إذا تصرفت معي بشكل خاطئ».

«انسي الحادث، وقولي».

بدأت تبكي بصمت كما بكت يوم لم تستطع إعادة النقود في بوتيك شانزليزيه. تحول نشيجها إلى غضب ولد مشاكس تعرض للظلم.

«لقد عشقتك. عشقتك بشكل فظيع».

كانت نبرتها اتهامية وحنونة بشكل غير متوقع. «أنا أفكر فيك طول اليوم. أفكر فيك من الصباح إلى المساء».

غطت وجهها بيديها، وبكت.

لأعترف بأن أول ردة فعل صدرت عني كانت ابتسامة غبية. ولكنني لم أفعل هذا. حتى إنني أخفيت فرحي الشديد، واتخذت تعبيرًا عاطفيًّا، وقطبت حاجبي. كانت أكثر لحظات حياتي صدقًا وكثافة، ولكن حالًا مصطنعة قد تغلغلت في داخلي.

«وأنا أيضًا أحبك كثيرًا».

ولكن على الرغم من صدقي الشديد لم تكن كلماتي قوية وحقيقية بقوة كلماتها وحقيقتها. قالتها هي أولًا. ولأنني تكلمت بعد فسون فقد تغلغلت في كلمات عشقي نبرة سلوان ولباقة وتقليد. الأكثر من هذا، حتى لو كنت عاشقًا لها أكثر من عشقها لي (هناك احتمال أن يكون هذا صحيحًا)، فقد خسرت اللعبة لأن فسون قد اعترفت أولًا بالبعد الفظيع الذي وصل إليه عشقها. كانت «تجربة العشق» التي في داخلي ولا أدري من أي تجربة سافلة قد حصلت عليها تبشرني بمكر أن فسون الغرّة قد خسرت «اللعبة» لأنها تصرفت بصدق أكثر مني. يمكنني أن أستنتج من هذا أن مشكلتي وعقدتي بالغيرة ستنتهي.

عندما عادت ثانية إلى البكاء أخرجت من جيبها منديلًا طفوليًا ومجعلكًا. اندسست بها، وفيما كنت أداعب بشرة رقبتها وكتفيها المخملية الجميلة بشكل لا يصدق، قلت لها بأنه ليس ثمة ما هو عبثي بقدر بكاء فتاة جميلة مثلها يمكن أن يعشقها الجميع.

قالت من داخل دموعها: «هل هذا يعني أن الفتيات الجميلات لا يمكن أن يعشقن؟ بما أنك تعرف جيدًا كل شيء، قل هذا إذًا..».

«ما هو؟».

«ماذا سيحدث بعد الآن؟».

كانت تنظر نظرة تظهر بأن هذا هو الموضوع الأساسي، وأن الجواب الذي سأجيبه الآن، وكلماتي حول الحب والجمال لن تكون سلوانًا لها.

لم يكن لدي جواب. كنت أشعر في تلك الأثناء بأن هذا النوع من الأسئلة سيدخل بيننا، ويسيطر علي القلق، ولهذا السبب ألقيت اللوم بغضب على فسون، وبدأت بتقبيلها.

شاركت بالقبل برغبة ويأس. سألت عما إذا كان هذا جواب سؤالها. قلت: «نعم، هذا». سألت: «أما كنا سندرس الرياضيات بداية؟» وكلما قبّلتها كردٍّ عليها، كانت هي تقبلني. كان اهتزازنا حقيقيًّا مقارنة بمأزق الوضع الذي وقعنا فيه، ومليئًا بقوة «الآن» التي لا تحتمل. مع خلع فسون ألبستها وبقية أشيائها لم تكن تخرج من داخلها فتاة مهمومة ويائسة لأنها عاشقة، بل فتاة مستعدة للذوبان في العشق والسعادة الجنسية، وسليمة وطافحة بالحياة. وهكذا بدأنا نعيش ما أسميته أسعد لحظات حياتي.

في الحقيقة أن أحدًا لا يعرف أثناء عيش اللحظة أن تلك هي أسعد لحظات حياته. بعض الناس يفكرون بصدق (وبين فترة وأخرى) في بعض لحظات الانفعال أن ما يعيشونه «الآن» لحظة ذهبية، ويمكن أن يقولوا هذا، ولكن جانبًا من روحهم يؤمن بأنهم سيعيشون في المستقبل لحظات أجمل

وأسعد. لأن أحدًا ـ وخصوصا في مرحلة الشباب ـ لا يمكن أن يستمر بحياته وهو يفكر بأنها ستكون أسوأ... وإذا كان الإنسان سعيدًا إلى درجة اعتقاده بأن تلك اللحظة هي أسعد لحظات حياته، فسيكون متفائلًا بحيث يؤمن بأن المستقبل سيكون أيضًا جميلًا.

ولكننا أيام شعورنا بأن حياتنا قد أخذت شكلها الأخير مثل رواية، يمكننا أن نستنتج اللحظة السُّعدى في حياتنا كما أفعل أنا الآن. وبالتأكيد هناك ضرورة لسرد قصة حياتنا كرواية من أجل تفسير سبب اختيارنا لتلك اللحظة. ولكننا نعرف أثناء إشارتنا إلى اللحظة الأكثر سعادة بأنها بقيت في الماضي ومنذ زمن بعيد، ولهذا السبب فهي تمنحنا الألم. وتحفظ الأشياء الباقية من لحظات السعادة تلك، وذكريات تلك اللحظة، وألوانها، ومتع لمسها ورؤيتها بإخلاص أكبر من الإخلاص لأولئك الذين عيّشونا تلك السعادة.

في لحظة ما من وسط ممارستنا الحب، وأثناء ثملنا ونحن نلهث، ولحظة تقبيلي كتفها المتصبب عرقًا وضمها من الخلف بشكل خفيف، وولوجي بها وعضي رقبتها وأذنها اليسرى، أي في لحظة حياتي السُّعدى سقط قرط فسون الذي لم أنتبه إلى شكله قط من أذنها الجميلة على الملاءة الزرقاء.

كل من لديه بعض المعلومات حول موضوع الحضارات والمتاحف، يدرك بأن المتحفية تكمن خلف معلومات الحضارة الغربية التي سيطرت على العالم كله، ويعرف أن أصحاب المجموعات الأُول الحقيقيين مؤسسي تلك المتاحف لم يفكروا بالنقطة التي سيصلون إليها عندما بدءوا بجمع أولى أشياء مجموعاتهم. وأصحاب المجموعاتِ الأُولِ الحقيقيون أولئك لم ينتبهوا نهائيًّا لقطع المجموعات الكبرى الأولى التي وقعت بأيديهم، وسيعرضونها، ويصنفونها ويعدون أدلتها (الأدلة الأولى، الموسوعات الأولى) فيما بعد.

عندما انتهت اللحظة السعدى من حياتي، وحان وقت الفراق، والقرط

مختبئ في ثنيات الملاءة بيننا، نظرت فسون إلى عيني. وقالت بصوت خفيض: «أصبحت حياتي كلها مرتبطة بك».

هذا ما أمتعني وأخافني في آن واحد.

ارتفعت حرارة الجو ثانية في اليوم التالي. وعندما التقينا في بناء مرحمة، رأيت في عيني فسون خوفًا بقدر ما هنالك أمل.

بعد أن قبلتني، قالت: «أحد القرطين اللذين كنت أضعهما البارحة مفقود».

قلت: «إنه هنا يا روحي!». ومددت يدي إلى الجيب الأيمن للسترة المعلقة على مسند الكرسي. قلت: «آ، مفقود!». شعرت للحظة بأن هذا مؤشر على كارثة أو شؤم، ولكنني عندما انتبهت إلى حرارة الصباح، تذكرت أنني ارتديت سترة أخرى. «بقي في جيب سترتي الأخرى».

قالت فسون محملقة: «اجلبه غدًا رجاء، لا تنسه. إنه مهم جدًّا بالنسبة إليّ».

١٨ ـ قصة بلقيس

شغل الحادث حيزًا مهمًّا من الجرائد. لم تقرأها فسون، ولكن السيدة شيناي تحدثت عن المتوفاة طوال الصباح بحيث بدا لها أن نساء نيشان طاشِ يعرجون على الدكان من أجل أن يتحدثوا عن المتوفاة فقط... قالت فسون: «ستغلق السيدة شيناي الدكان ظهرًا من أجل أن أذهب إلى الجنازة أيضًا. إنها تتصرف وكأننا جميعًا نحب تلك المرأة. ولكن الأمر ليس كذلك..».

«كيف هو؟».

«نعم، كانت تتردد كثيرًا على البوتيك. وتأخذ الأثواب الأغلى الواردة حديثًا من إيطاليا وباريس قائلة: «لأجربها»، وبعد أن تلبسها إلى الدعوات

الكبرى، تعيدها قائلة: «لم تناسبني». وكانت السيدة شيناي تغضب منها لأن الثوب لن يباع بسهولة بعد أن يراه الجميع عليها. غير هذا فقد كانت لا تحبها لأن سلوكها معنا سيئ، وتساوم كثيرًا، وتنمّ عليها من ورائها. ولكنها لا تصدها لأن محيطها واسع. هل كنت تعرفها؟».

قلت: «لا. ولكنها كانت حبيبة أحد أصدقائي في زمن ما». ولأنني حجبت عن سبيل متعة الحديث (كنت أعتقد بأنني سأستمتع أكثر معها) حول القصة الكامنة خلف هذا الموت، شعرت بنفسي أنني بوجهين. مع أنني حتى قبل أسبوع فقط، لم يكن إخفاء موضوع عن فسون، وحتى الكذب عليها يحزنني، ويبدو لي بأن الكذب نتيجة مسلية ولا مفر منها لهذا النوع من العلاقات مع النساء. عندما فكرت بإمكانية اختصار القصة من هنا أو هناك لقصها على فسون، أدركت ثانية بأن الأمر غير ممكن. ولأنها شعرت بأنني أخفي شيئًا، قلت الآتي:

«إنها قصة محزنة جدًّا. لقد استُخف بتلك المسكينة لأنها نامت مع كثير من الرجال».

لم تكن هذه فكرتي. أطلقتها هكذا دون تحمل مسئولية. خيم صمت.

قالت فسون كأنها تهمس: «لا تشغل بالك. لن أضاجع أحدًا غيرك حتى نهاية حياتي».

شعرت بطمأنينة داخلية عند عودتي إلى صاطصاط، وللمرة الأولى بعد زمن طويل عملت دون توقف بمتعة كسب النقود. ووسط المزاح والضحك مع الموظف الجديد الأصغر مني والمغرور كنان، راجعنا حوالي مائة اسم في قائمة المدانين اسمًا اسما.

قال كنان رافعًا حاجبيه بسعادة وهو يبتسم: «ماذا سنفعل بكريم السخي؟».

«سنجعله أكثر سخاء. ماذا سنفعل، إنه يفقد من اسمه».

في طريق عودتي إلى البيت مساء، مشيت تحت أشجار الدلب المخضرة تمامًا في نيشان طاش وأنا أستنشق رائحة الزيزفون المنبعثة من دور الباشاوات التي لم تحترق بعد. شعرت بأنني مسرور من حياتي وأنا أنظر إلى السائقين الذين يضغطون على مزامير سياراتهم بعصبية نتيجة انسداد المرور، وأن أزمات العشق والغيرة التي انتابتني قبل يوم قد انتهت، وأن كل شيء يسير في طريقه. صببت ماء من مرش الحمام عليّ في البيت. في أثناء إخراجي قميصًا نظيفًا مكويًّا من الخزانة خطر ببالي القرط، وعندما لم أجده في جيب السترة التي اعتقدت أنني وضعته فيها، بحثت في الأدراج والخزائن، وفي الصحن الذي تضع فيه السيدة فاطمة الأزرار المقطوعة وقوالب ياقات القمصان وفكة النقود التي تسقط من جيبي والقداحات، ولم يكن موجودًا.

ناديت بصوت خفيض: «سيدة فاطمة. هل رأيت قرطًا هنا؟».

كانت الغرفة الجانبية التي بقيت غرفة أخي حتى تزوج مُنيرةً وواسعة وتفوح برائحة بخار الكيّ والخزامى. في أثناء ترتيب السيدة فاطمة قمصاني وقمصان والدي ومناديلنا النظيفة التي كوتها بعد الظهر، والمناشف في الخزائن، قالت: «لم أر قرطًا أو مرطًا» في أثناء جمعها كل جوربين من السلة، أخرجت جوربًا كأنها تخرج قطًّا مذنبًا، وأرتني إياه، وقالت:

انظر يا «ظفر حفار» (كانت تناديني بهذا اللقب منذ كنت صغيرًا). «إذا لم تقص أظافرك، فلن يبق لديك جورب غير مثقوب من مقدمته». لن أخيط لك جواربك بعد الآن، احسب حسابك».

«حسن!».

كان والدي جالسًا في زاوية البهو المطلة على جامع تشويكية، وعليه صدارة بيضاء، ويحلق له الحلاق بصري شعره، وأمي تجلس مقابله على زاوية، وتشرح له أمورًا ما كعادتها.

عندما رأتني، قالت: «تعال لنرى، أنا أتحدث عن آخر الشائعات».

قطب بصري وجهه كأنه لم يكن يسـمع ما ترويه أمي، وعند سماعه كلمة «شـائعات»، أوقف مقصه لحظة، وابتسـم طويلًا مظهرًا أسنانه الضخمة كأنه يبتسم لكل ما روته.

«ما الموضوع؟».

«ابن آل ليرزان الصغير يريد أن يصبح سـائق سـيارات سباق، ولأن والده لم يسمح له..».

«أعـرف. حطم مرسـيدس والـده. ثم اتصل بالشـرطة مدعيًا أن السـيارة سُرقت».

«حسنٌ، هل سمعت بما فعلته ابنة شازيمنت من أجل أن تتزوج ابن عائلة قرة خان؟ انتظر، إلى أين؟».

«لست موجودًا على العشاء، سآخذ سيبل، ونذهب إلى حفل».

«اذهـب، وقـل لبكـري لا لـزوم لأن يقلي سـمك السـلطان إبراهيم هذا المساء. ذهب إلى سوق السمك في بيه أوغلو وجلبه من أجلك. أعطنا وعدًا لغد على الغداء على الأقل».

«أعدكم!».

كان شعر والدي الأبيض الضعيف يتساقط على بلاط الأرض المثنية عنه السجادة لكي لا تتسخ.

أخـذتُ السـيارة مـن المـرآب، وفي أثنـاء تقدمي علـى الطريـق المبلط، فتحـتُ المذيـاع، وأثناء بـث الأغاني تابعتهـا بالإيقاع بأصابعـي على طرف المقود، وخلال ساعة عبرت جسر البوسفور، ووصلت إلى سور الأناضول. عندما سـمعت سيبل صوت مزمار السيارة، هرعت من الشاليه، وجاءت. في الطريـق قلـت إن المرأة التي ماتت في حادث شـارع العقار هـي حبيبة زعيم السـابقة (قالت سـيبل: «هل زعيـم يليق بكم في كل شـيء؟». وابتسـمت)، وبدأت أروي القصة.

تابعت قائلًا: «اسم المرأة بلقيس، وهي تكبرني بسنة أو سنتين، ويجب أن تكون في الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين من عمرها، وابنة عائلة فقيرة. بعد دخولها أوساط المجتمع الراقي، كان أعداؤها يشيعون بأن والدتها تضع غطاء رأس من أجل أن يهينوها. تعرفت هذه الفتاة في أواخر الخمسينيات على شاب من أقرانها في احتفالات عيد الجمهورية، وأغرم أحدهما بالآخر. كان ذلك الشاب فارس الابن الأصغر لعائلة قبطان أوغلو صاحبة السفن وإحدى أغنى العائلات الإسطنبولية في ذلك الوقت. استمر حب هذه الفتاة الفقيرة والشاب الغني الشبيه بالأفلام التركية أعوامًا. كان غرام طالبي الثانوية هذين كبيرًا أو أنهما مخبولان إلى درجة ممارستهما الحب قبل الزواج، وقد أظهرا هذا لمحيطهما. من المؤكد أن المناسب هو زواجهما، ولكن عائلة الشاب عارضت زواجهما لاعتبارها أن الفتاة مارست الحب مع ابنها إلى النهاية من أجل الحصول عليه، ومعرفة الأمر للجميع. ويبدو أن الولد ليس لديه القوة والنقود الخاصة ليتأبط الفتاة من ذراعها، ويتزوجها. وهكذا أرسلت العائلة بنقودها الولد والفتاة من دون زواج إلى أوربا كحلّ لهذه المشكلة. بعد ثلاث سنوات مات الشاب في باريس بتأثير المخدر أو اليأس. وبدلًا من هرب بلقيس مع شاب فرنسي، ونسيانها تركيا كما يحدث في حالات كهذه، عادت إلى إسطنبول، وأقامت علاقات مع شباب أغنياء آخرين، وبدأت تعيش حياة عشق غنية تتوق لها نساء الطبقة الراقية كلها. كان عشيقها الثاني صبيح الدب... انفصلت عنه، وعاشت مغامرة مع الابن الأكبر لعائلة دميرباغ المجروح بألم عشق. ولأن حبيبها التالي رفيق كان يعاني من ألم عشق هو الآخر، أصبح رجال الطبقة الراقية يطلقون عليها باسمين اسم «ملاك السلوان»، ويحلمون بعيش مغامرة معها. أما المتزوجات الغنيات اللواتي لم يضاجعن غير أزواجهن، وإن فعلن فقد فعلنها مع حبيب سري لم يستمتعن معه من الخوف، أردن إغراق بلقيس هذه بفنجان ماء لأنها كانت تعيش حياة غرام من أكثر الشباب العزاب حظوة في المجتمع الراقي، ومع كثير من المتزوجين على ما أعتقد. يمكن القول أيضًا إن اليوم الذي سيذوي

فيه جمالها، ولن تستطيع الإنفاق كفاية على العناية بنفسها وهندامها قد اقترب. كان حادث المرور منقذًا لهذه المرأة».

قالت سيبل: «أدهش لعدم زواج أحد من كل هؤلاء الرجال منها. هذا يعني أن أحدًا لم يعشقها إلى درجة أن يتأبط ذراعها، ويتزوجها».

«في الحقيقة أن الرجال يعشقون امرأة مثلها بشدة. ولكن الزواج أمر مختلف. لو تزوجت فارس ابن عائلة قبطان أوغلو قبل أن تضاجعه، لنُسي فقر عائلتها بسرعة. أو لو كانت بلقيس ابنة عائلة غنية جدًّا، لما شكلت مشكلة عدم كونها عذراء عند زواجها. لأنها لم تستطع القيام بما تقوم به الفتيات كلهن، وعاشت حياة عشق غنية جدًّا، أطلقت عليها نساء الطبقة الراقية اسم: «عاهرة السلوان». لعلنا يجب أن نحترم بلقيس لأنها غاصت بأول عشق سنح لها، وسلمت نفسها لحبيبها من دون حذر».

قالت سيبل: «هل تحترمها أنت؟».

«لا، كنت أجد المرحومة منفرة».

أقيمت الدعوة التي لا أتذكر ذريعتها على رصيف شاليه إسمنتي. كان ثمة ستون أو سبعون شخصًا يتحدثون كأنهم هامسين وهم يحملون كئوس المشروب بأيديهم، وينظرون بأطراف عيونهم لمن جاء ومن هناك. شعرتُ بأن غالبية النساء لسن مسرورات من طول تنانيرهن، وقلقات لأن أفخاذهن تحت التنانير القصيرة إما مكتنزة وإما قصيرة. لهذا السبب تبدو النساء من النظرة الأولى أشبه بجليسات بارات غرّات. هناك مجرور يصب إلى البحر من مربط المراكب، وتفوح رائحته بقوة وسط الزحام الذي يدور وسطه النادل المرتدين القفازات البيضاء.

هناك «طبيب نفسي» عائد من أمريكا توًّا، وفتح عيادته حديثًا، وبعد اندماجه بالزحام، وفور تعرفه على أي شخص يقدم له بطاقة التعريف خاصته، ونتيجة إلحاح امرأة متوسطة ولكنها تغلي، قدم للمتحلقين حوله تعريفًا للعشق: عندما يرفض الإنسان فرصًا متاحة له، ويرغب بممارسة

الجنس بشكل دائم مع شخص معين، فإن هذا الشعور الذي يمنح السعادة يسمى «عشقًا». بعد حديث العشق هذا، تحدثت مع أم عرفتني على ابنتها الجميلة البالغة الثامنة عشرة من عمرها حول الجامعة التي من الممكن أن تدرس فيها لأن الجامعات دائمًا مضربة. وصل الموضوع إلى ما كتبته جرائد اليوم حول سجن عمال المطبعة التي تطبع كتيبات أسئلة الدخول إلى الجامعة مدة طويلة لكي لا تُسرق.

بعد فترة طويلة ظهر زعيم الطويل القامة والطويل الذقن والجميل الوجه والوسيم مع العارضة الألمانية إنغة النحيلة التي لا تقل عنه طولًا على الرصيف. ما يقبض القلوب هو رؤية النساء اللواتي يصبغن شعرهن الأصفر وينتفن حواجبهن ويجبن محلات الأزياء لكي يظهرن بمظهر أوربي أن نقصًا مهمًّا يشعرن به نتيجة لون البشرة والبنية العرقية التي لا يمكن تلافيها بسهولة، وتذكرهن هذا عندما يرين إنغة الشقراء والزرقاء العيون وذات الساقين الطويلتين الرفيعتين، أكثر من الحسد. أما أنا فقد شعرت بأن وجهها وضحكتها وشفتيها مألوفة لي أكثر من كونها تنتمي إلى الشمال. كنت أفرح لمطالعة وجه إنغة لي في إعلانات الجرائد، وعلى واجهة بناء في الحربية أثناء ذهابي إلى العمل كل صباح. خلال فترة قصيرة تشكل زحام حول إنغة أيضًا.

قالت سيبل وسط صمت السيارة في طريق العودة: «نعم، من الواضح أن «زعيم يليق بكم في كل شيء» رجل طيب. ولكن هل تعتبر عدم الاكتفاء باستخدام عارضة ألمانية من الدرجة الرابعة ومن مستوى مضاجعة الشيوخ العرب في إعلاناته، وتقديمها للجميع كأنها حبيبته عملًا صائبًا برأيك؟».

«هناك احتمال قوي أن العارضة تنظر إلينا نظرة الود نفسها، ولا تجدنا مختلفين عن الشيوخ العرب. مبيعات المياه الغازية حاليًا جيدة. قال زعيم ذات مرة، إذا استمتع الأتراك بمنتج تركي حديث، وعرفوا بأن الغرب أيضًا يحبون هذا المنتج، فسيسعدون أكثر، ويجدون فيه لذة أكبر».

«رأيت عند مصفف الشعر صورتها مع زعيم في صفحة الصور من «نهاية الأسبوع»، وعملوا معهما لقاء في صفحة اللقاءات، ونشروا صورة منحطة جدًّا شبه عارية فيها».

صمتنا فترة طويلة. بعد زمن طويل قلت بابتسامة: «هناك رجل ضخم يحاول بألمانية مكسرة أن يشرح للمرأة بأنها تبدو في الإعلانات أضعف مما هي عليه، وينظر دائمًا إلى شعرها لكي لا تتعلق عيناه بصدرها... هذا هو صبيح الدب حبيب المتوفاة بلقيس الثاني».

ولكن سيبل كانت نائمة أثناء مرور السيارة من تحت جسر البوسفور الواقع وسط الضباب.

١٩ ـ جنازة

في اليوم التالي خرجت من صاطصاط، وذهبت إلى البيت سيرًا على الأقدام، وتناولت سمك سلطان إبراهيم مقليا مع والدتي كما وعدت. كنت أنزع مع والدتي جلد سمك السلطان إبراهيم الزهري الرقيق كالغشاء وحسكه الرفيع شبه الشفاف بدقة جراح، وفي الوقت نفسه تعيد أمي النظر بآخر تحضيرات العرس «وآخر الأحداث» (بحسب تعبيرها). بلغت قائمة المدعوين منذ الآن بعد إضافة الملمحين من أجل دعوتهم، والمعارف الشغوفين «الذين لا يمكن أن يُكسر بخاطرهم» إلى ٢٣٠ شخصًا، ولذلك بدأت تتصل برئيس النَدل في فندق هيلتون وزملائه في الفنادق الكبرى الأخرى ومستوردي المشروبات من معارفها لكي لا نُحرج في «المشروبات الأجنبية» (مفهوم يحمل حرزًا). خياطو الطبقة الراقية المشاهير أصدقاء والدة فسون، ومنافسوها مثل عصمت الحرير، وشازية، وشرمين العسراء، والمدام معلا أوقفوا أخذ الطلبات منذ الآن بسبب الأثواب الفاخرة الموصى عليها من أجل الخطوبة، وتعمل مساعداتهن

حتى الصباح. كانت أمي تعتقد بأن مشكلة أبي الذي يتناوم في الغرفة الداخلية من التعب ليست صحية، بل نتيجة تعكير مزاجه، ولكنها لا تعرف ما الذي يعكر مزاجه في هذه الأيام التي يستعد فيها ابنه للخطوبة، وتحاول أن تستدرجني بالحديث لمعرفة ما إذا كنت أعرف السبب. عندما جلب الطباخ بكري الأرز بالشعيرية الذي عودنا على تناوله فوق السمك ـ وهذه قاعدة لم تتغير قط ـ إلى المائدة، كأن السمك هو سبب فرحتها، فاتخذت أمي فجأة جوًّا حزينًا.

قالت بحزن داخلي: «حزنت جدًّا على تلك المسكينة. عانت كثيرًا. عاشت كثيرًا من الأمور، وغاروا منها كثيرًا. في الحقيقة أنها إنسانة طيبة جدًّا».

روت أمي دون أن تشرح عمن تحكي بأنها «هي» وحبيبها في ذلك الوقت دمير ابن آل دميرباغ الكبير كانا في جبل أولو، وتحادثوا، وأثناء لعب دمير حبيب بلقيس المتوفاة القمار مع والدي، تحادثا وهي تحبك الصوف في «بار الفندق الريفي»، ويشربان الشاي حتى ما بعد منتصف الليل بكثير.

قالت أمي: «عانت المسكينة كثيرًا، عانت من الفقر بداية، ثم من الرجال فيما بعد، عانت كثيرًا جدًّا». التفتت إلى السيدة فاطمة، وقالت: «اجلبي قهوتي إلى الشرفة. سنشاهد الجنازة».

لأن شرفة وبهو الشقة التي قضيت عمري كله فيها ما عدا الأعوام التي قضيتها في أمريكا تطل على صحن جامع تشويكية الذي تُشيع منه كل يوم جنازة أو جنازتان، فإن الفرجة على الجنازة، وتعرفنا على سر الموت المخيف أصبح ملهاة حلوة لا يمكن التخلي عنها. لم يكن الجامع مكان إقامة صلاة جنازات عائلات إسطنبول الغنية، والسياسيين المشاهير، والباشوات، والصحفيين، والمغنين والفنانين فقط، بل ونقطة انطلاق «السفر الأخير» المهمة برفقة الفرقة النحاسية العسكرية أو فرقة البلدية ـ بحسب مرتبة المتوفى ـ التي تعزف النشيد الجنائزي لموتسارت، وحمل النعش على

أكتاف الجماعة من الجامع إلى ساحة نيشان طاشٍ ببطء. كنت مع أخي في طفولتنا نحمل مخدة طويلة وثقيلة على كتفينا، ونجعل الطباخ بكري أفندي والسيدة فاطمة والسائق تشتين وآخرين يلحقون بنا، ونردد النشيد الجنائزي، ونتمايل مثل الجموع تمامًا، ونعبر من الممرات. قبيل تشييع جنازات رؤساء الحكومات والأغنياء المشاهير والمغنين الذين ينشغل بهم البلد كله، لم تكن أمي تبدي تذمرًا من الضيوف الذين يطرقون الباب فجأة من دون دعوة قائلين: «كنا قريبين من هنا، فعرّجنا»، ولكنها تقول بعد ذهابهم: «لم يأتوا لزيارتنا، بل للفرجة على الجنازة»، وتشعرنا بأن هذا العمل ليس احترامًا للموت وأخذ عبرة منه، بل من أجل متعة الفرجة.

فور جلوسنا على جانبي الطاولة الصغيرة على الشرفة، قالت لي أمي: «تعال إلى هنا إذا أردت، ترى بشكل أفضل». ولكنها عندما رأت أن وجهي قد شحب، واتخذ تعبيرًا مناقضًا تمامًا لمتعة الفرجة على الجنازة، فسرت الأمر بشكل خاطئ: «أنا لا أتخلف عن جنازة المسكينة التي أشفق عليها بسبب اضطجاع والدك على فراش المرض في الداخل. ولكنني أعتقد بأنني لن أحتمل تغطية رجال مثل رفقي وصميم أعينهم بنظارات سوداء لإخفاء عدم بكائهم وليس لإخفاء دموعهم. أنت مالك؟».

«لا شيء، أنا بخير».

بدأ قلبي يخفق بشكل عبثي عندما رأيت فسون وسط النساء المغطيات رءوسهن ونساء الطبقة الراقية اللواتي يضعن إيشاربات ملونة آخر طراز، ويجتمعن في المكان الظليل بشكل تلقائي على الدرجات النازلة نحو التابوت من باب باحة الجامع الكبير المؤدي إلى شارع تشويكية. وضعتْ إيشاربًا مائلًا إلى اللون البرتقالي. يبدو أن بيننا مسافة نظر تبلغ حوالي سبعين أو ثمانين مترًا. ولا أرى من حيث أجلس تنفسها، وتقطيب حاجبيها، وتعرق بشرتها الرقيقة بشكل خفيف جدًّا تحت حرارة الصيف، وعض شفتها الأمامية مع شعورها بالضيق وسط النساء المغطيات رءوسهن ومللها،

ونقل وزن جسمها النحيل من قدم إلى قدم فقط، بل أشعر بها في داخلي. أشعر بأنني أريد أن أناديها من الشرفة، وألوح لها بيدي، ولكن صوتي لا يخرج كما في الأفلام، وقلبي يخفق بكل ما أوتي من قوة.

«أمي، أنا ذاهب».

«آآ، ماذا حدث لك؟ وجهك شاحب جدًّا».

نزلت إلى الأسفل، وتفرجت على فسون من بعيد. كانت بجوار السيدة شيناي. وكانت تستمع لحديث امرأة أنيقة وقصيرة، وتلف طرف الإيشارب المربوط بشكل غير متقن وينزل تحت ذقنها على أصبعها في الوقت نفسه. منحها غطاء الرأس جمال التكبر والقداسة. بسبب سوء نظام الصوت الذي يبث خطبة الجمعة إلى الخارج، لا يُفهم من الخطبة سوى بعض الجمل حول اعتبار الموت آخر محطة، وعبارات تتضمن اسم الله المتكرر بشكل غير شاعري بهدف إخافة الناس. أحيانًا كان البعض يأتون منهمكين كأنهم متأخرون على دعوة، وأثناء التفات الرءوس كلها نحوهم، تُثبت على ياقاتهم بالدبوس صورة صغيرة للمتوفاة بلقيس بالأسود والأبيض. كانت فسون تتابع تبادل التحية هذا كله، والتلويح بالأيدي، وتبادل القبل، وعناق السلوان، والسؤال عن الأحوال والخاطر بدقة.

هناك صورة للمتوفاة بلقيس مثل الجميع على ياقة فسون أيضًا. عادة تثبيت صورة المتوفى بالدبوس على الياقة انتشرت في الفترة الأخيرة من جنازات ضحايا الجرائم السياسية، ولكن البورجوازية الإسطنبولية تمسكت بهذه العادة بسرعة. هذه الصور التي تعلق (وعرضت هنا مجموعة منها وجدتها بعد سنوات) على ياقات الزحام البورجوازي الواضع نظارات سوداء ومتظاهر بالألم وهو في الحقيقة سعيد، يحوّل جنازة عادية للمجتمع الراقي إلى جو قضية سامية يُضحى من أجلها. وصورة بلقيس الموزعة على الصحف في إعلان الوفاة بإطار أسود عريض بلون الحداد المقلد للغرب يمنح وقارَ إعلان الجريمة السياسية.

غـادرت المكان مـن دون أن تلتقي عينـاي بعيني أحد، وذهبـت إلى بناء مرحمة، وبدأت أنتظر فسون بنفاد صبر. كنت أنظر إلى ساعتي أحيانًا. عندما أفرجت سـتارة النافذة المغبرة المطلة على شـارع تشـويكية والمغلقة بشكل مسـتمر بدافـع غريزي دون تفكير، مـر تابوت المتوفاة بلقيـس من أمامي في عربة الجنازة، وذهب.

مـرت فكـرة معاناة بعض الناس من الألـم طوال حياتهم بسـبب شـؤم مثـل الفقر والغباء والاسـتخفاف ببطء مـن عقلي كمرور سـيارة الجنازة بالضبط. كنت أشـعر بأن هنـاك درعًا مخفيًّا يحميني مـن كل أنواع البلاء والتعاسـة منـذ كنت في العشـرين مـن عمري. ثمـة جانب بهذا الشـعور يسـرّب إلي بأن انشـغالي كثيرًا بتعاسة الآخرين سيتعسـني أيضًا، ويمكن أن يؤدي إلى ثقب درعي.

٢٠ ـ شَرْطَا «فسون»

جاءت فسـون متأخرة. لـم يقلقني هذا، ولكنهـا كانت أكثر قلقًا. أخبرتني بأنهـا التقت بصديقتها جيدا بما يشـبه الاتهـام وليس الاعتـذار. تغلغلت بها رائحـة عطرهـا. تعرفتْ علـى جيدا في مسـابقة ملكـة الجمال. وهـذه أيضًا غُبنـت، وحصلت على الترتيب الثالث. ولكن جيدا الآن سـعيدة جدًّا، لأنها تخرج مع ابن آل سـيدرجي، والشاب جاد، ويريد الزواج منها. قالت فسون: «ما أجمل هذا، أليس كذلك؟». ونظرت بعينين طافحتين بصدق مزلزل.

ما إن كنت أوافقها برأسـي، حتى قالت بأن لديها مشـكلة. لا يريد ابن آل سيدرجي أن تعمل جيدا عارضة لأنه جاد جدًّا.

«مثـلًا هي تنفّذ الآن دعاية أرجوحة للصيف. حبيبها حاد جدًّا، ومحافظ. فهو لا يسمح لها بالظهور في دعاية الأرجوحة المخصصة لشخصين بالمني جيـب، بل لا يسـمح لها حتى بألبسـة تسـتر جسـمها. مع أن جيـدا خضعت

لدورات عارضات. وتنشر صورها في الجرائد. قبلت شركة تنتة بعارضة تركية، ولكن الشاب لم يقبل».

«قولي لها إن هذا الشاب سيحجبها قريبًا».

قالت فسون بغضب من عدم فهمي الموضوع: «جيدا جاهزة منذ زمن للزواج، والقيام بدور ربة الأسرة. إنها قلقة مما إذا لم يكن الشاب جديًّا. سنلتقي، ونتكلم بهذا الموضوع. برأيك كيف يمكن فهم ما إذا الشاب جديًّا؟».

«لا أعرف؟».

«أنت تعرف هذا النوع من الشباب..».

قلت: «أنا لا أعرف الأغنياء القرويين المحافظين. هيا لنرى وظائفك».

قالت: «لم أنجز أيًّا من وظائفي، حسنٌ؟ هل وجدت قرطي أنت؟».

كادت أن تكون ردة فعلي الأولى مثل ردة فعل السائق السكران الذي توقفه الدورية، وعلى الرغم من معرفته أنه ليس لديه رخصة قيادة يبدأ البحث في درج السيارة وجيوبه وحقيبته. ولكنني ضبطت نفسي.

قلت: «لا يا روحي، لم أجد قرطك في البيت. ولكن لا بد أن نجده في مكان ما، لا تشغلي بالك».

«يكفي، أنا ذاهبة، ولن آتي ثانية».

في أثناء بحثها في حقيبتها وبين أغراضها أدركت أنها جادة من تعبير الكدر على وجهها وعدم معرفتها أين تضع يدها وذراعها. وقفتُ أمام الباب، وتوسلت إليها لكي لا تذهب. وقفت عند الباب مثل حارس خاص في بار، وأتكلم باستمرار، وكلامي كان حول مدى غرامي بها (وكلها صحيحة)، وأدركت من عمق ابتسامة السرور على طرف شفتها، ورفع حاجبيها بشكل خفيف بشفقة حاولت إخفاءها أنها بدأت تلين رويدًا رويدا.

قالت: «حسنٌ، لن أذهب. ولكن لدي شرطين. بداية قل لي من أحب إليك في حياتك..».

أدركت أن عقلي قد تشوش، ولم أستطع القول سيبل أو فسون. قالت: «قل اسم رجل..».

«والدي».

«جميل. هذا شرطي الأول. أقسم برأس والدك أنك لن تكذب عليّ مرة أخرى».

«أقسم».

«ليس كذلك، قل الجملة بشكل كامل».

«أقسم برأس والدي أنني لن أكذب عليك مرة أخرى».

«قلتها من دون أن يرف لك جفن».

«ما شرطك الثاني؟».

ولكننا تبادلنا القبل، وبدأنا ممارسة الحب بسعادة قبل قولها الشرط الثاني. فيما كنا نمارس الحب بكل ما أوتينا من قوة، شعرنا كأننا وصلنا معًا بسكرة الغرام إلى بلد خيالي. مشهد خيالي للمكان الذي شعرنا بأننا وصلنا إليه يشبه مشاهد الكواكب العجيبة، ومناظر الجزر الصخرية القفرة، وصور سطح القمر. فيما كنا نتحدث مرة أخرى كأننا في بلد آخر غريب، قالت فسون بأنها ترى بستانًا كثيفَ الأشجار شبه مظلم، ونافذة تطل على هذا البستان وبحرًا خلفه، وسفحًا تتمايل فيه أزهار دوار الشمس الشديدة الصفرة. كانت هذه المناظر تتجلى أمام أعيننا أثناء ممارسة الحب (أي كما فعلنا في تلك الأثناء بالضبط) وفي اللحظات التي يكون أحدنا أقرب فيها إلى الآخر، مثلًا عندما يكون جزء كبير من ثدي فسون وحلمته الشديدة الحيوية تملأ فمي، أو عندما يكون أنفها مدفونًا في نقطة الوصل بين رقبتي وكتفي، وتعانقني بكل ما أوتيت من قوة. أشعرنا قربنا المزلزل بما لم نشعر فيه من قبل، وقرأ أحدنا هذا في عيني الآخر.

قالت فسون بعد ممارسة سعيدة للحب: «حسنٌ، الآن سأقول شرطي

الثاني. ستأتي إلينا وتتناول العشاء مع والدي ووالدتي حاملًا قرطي ودراجة الأولاد الهوائية هذه ذات يوم».

قلت فورًا بخفة السعادة بعد ممارسة الحب: «طبعًا أذهب. ولكن ماذا سأقول لهما؟».

«ألا يمكن أن تكون قد قابلت قريبتك في الزقاق، وسألتَ عن والدها وأمها؟ ألا يمكن أن تدعوك؟ أو ألا يمكن أن تكون قد أتيت إلى الدكان، ورأيتني، وسألت عن والدي وأمي؟ ألا يمكن أن تدرّس قريبتك قليلًا من الرياضيات قبل امتحان الدخول إلى الجامعة؟».

«سأذهب إلى العشاء حاملًا القرط ذات يوم بالتأكيد. أعدك بهذا. ولكن عليّ ألا أذكر لأحد دروس الرياضيات هذه».

«لماذا؟».

«أنت جميلة جدًّا. سيفهمون أننا عشاق فورًا».

«أي ألا يمكن لرجل وفتاة أن يجلسا في غرفة مغلقة لمدة طويلة مثل الأوربيين من دون أن يمارسا الحب؟».

«طبعًا يمكنهما أن يجلسا... ولكن لأننا في تركيا فإن الجميع سيفكر بأنهما يقومان بعمل آخر وليس الرياضيات. ولمعرفتهما بأن الجميع يفكرون بهذا، سيبدآن التفكير به أيضًا. ولكي لا يُلوث شرف الفتاة، يبدآن بالقول: «لنترك الباب مفتوحًا» أو ما شابه ذلك. ويفكر الرجل بأن الفتاة التي تبقى معه فترة طويلة في الغرفة نفسها قد استسلمت، وإذا لم يفعل شيئًا بعد، يتحرش بالفتاة خشية أن يُحكى على رجولته. بعد فترة يتلوث عقلهما بما يفعله الجميع، ويخطر ببالهما أن يفعلاه. وسيشعران بالذنب إذا لم يمارسا الحب، وأنهما لن يستطيعا البقاء في الغرفة طويلًا من دون ممارسة الحب».

خيّم صمت. كان رأسانا على المخدة، وعيوننا معلقة بأنبوب التدفئة المركزية، وأسطوانة المدفأة، وفتحة أسطوانة المدفأة وغطائها، وسيخ تعليق

الستائر، والستائر، وخطوط زوايا الجدران والسقف، والتشققات، وتقشر الطلاء، والمنظر المتشكل من الغبار. وأسسنا ذلك المشهد بكل تفاصيله ثانية من أجل متحفي لكي يشعر محبو المتاحف بذلك الصمت.

٢١ ـ قصة والدي: قرطا اللؤلؤ

ذات يوم خميس مشمس من أوائل حزيران، وقبل الخطوبة بتسعة أيام، تناولتُ مع والدي طعام غداء طويل في مطعم عبد الله أفندي في أميرغان، وأدركت منذ ذلك اليوم أنني لن أنساه أبدًا. في تلك الفترة كانت أمي مهمومة بسبب تعكر مزاج والدي، قال لي: «لنتناول الطعام معًا وحدنا قبل الخطوبة، ولأقدّم لك بعض النصائح». في سيارة الشفروليه موديل ١٩٥٦ التي يقودها تشتين أفندي منذ طفولتي استمعت لنصائح والدي حول الحياة (علي ألا أعتقد أن زملاء العمل أصدقاء، وما شابه ذلك) بنية طيبة، وبنوع من المراسم التحضيرية للخطوبة، وكان جانب من عقلي مفتوحا على مشهد البوسفور الذي أراه من نافذة السيارة، وجمال سفن خطوط المدينة الجارية مع التيار، وظلمة حدائق البيوت الشاطئية منذ الظهيرة. فوق هذا بدلًا من تنبيه والدي من الكسل والخفة والخيالية، وتذكيره بمسئولياتي التي يجب أن أتحملها كما كان يفعل في طفولتي، ذكرني بأن الحياة كرم من الله، وهي قصيرة يجب أن أستمتع بطعمها، فيما كان النسيم المحمل برائحة البحر والصنوبر يدخل من نافذة السيارة. وهنا أعرض التمثال النصفي الجصي الذي وقف والدي أمام النحات الأستاذ في الأكاديمية صومطاش يونطونتش (أتاتورك من اختار كنيته) من أجل أن ينجزه له بتأثير صديقه. أنا أضفت هذين الشاربين البلاستيكيين نتيجة غضبي من النحات الأكاديمي الذي صغّر الشاربين ليظهر والدي أكثر تغريبًا. كنتُ أراقب شاربي والدي المرتجفين عندما كان يؤنبني بسبب

هوايتـي بالغطس في طفولتي. فسّـرت حديث والدي حـول ضرورة عدم تفويتـي جماليات الحياة بالعمل الكثيف بامتنانه من التجديد الذي أجريته فـي شـركة صاطصاط وبقية الشـركات. عندما طلب منـي أن أهتم ببعض الأعمـال التي يضع أخي الكبيـر عينه عليها منذ أعوام طويلة، قلت له إنني مندفع نحو هذه الأعمال أيضًا، وإن تصرف أخي الكبير المتردد والمحافظ خسّـرنا جميعًـا، ورأيت أن ليس والدي فقط، بل السـائق تشـتين أيضًا قد ابتسم لهذا الكلام.

كان مطعـم عبـد اللـه أفندي سـابقًا علـى الشـارع الرئيس في بيـه أوغلو بجانـب جامـع الآغـا. كان المشـاهير والأغنيـاء يعرجون على هـذا المطعم مـن أجل تنـاول الغداء عندمـا يذهبون إلى بيـه أوغلو، والسـينما، وبعد عدة أعـوام امتلك غالبية زبائنه سـيارات، فنقـل المطعم إلى مزرعـة صغيرة تطل على البوسـفور في سـفوح أميرغان. فور دخول والدي المطعم، اتخذ تعبير المـرح، وحيّـا الندل الذين يعرفهـم من مطاعم أخرى أو مـن مطعم عبد الله القديـم. تلفت فيما حوله ليرى ما إن كان هناك أحد معارفه في صالة المطعم الكبيـرة. فـي أثناء اصطحـاب كبير الندل لنـا إلى طاولتنا، عـرّج والدي على إحـدى الطـاولات، وسـلم على أخرى مـن بعيد، ولاطف سـيدة تجلس مع ابنتها الجميلة على طاولة ثالثة قالت إنني كبرت بسرعة، وأُشْبِه والدي كثيرًا، وكم أنا وسـيم. طلب والدي من كبير الندل الذي كان يناديني طوال طفولتي «السـيد الصغير»، وبعد أن كبرت انتقل بشـكل سلس إلى نداء «السيد كمال» رقائق العجين والمقبلات وعرقًا لكلينا.

سـألني: «وأنـت أيضًا تريـد، أليس كذلـك؟» وأضاف: «دخّـن إن أردت أيضًا». كأن قضية التدخين أمامه لم نحلها براحة بعد عودتي من أمريكا.

قال لأحد الندل: «اجلب منفضة سجائر للسيد كمال أيضًا».

عندمـا تنـاول حبات الطماطـم الصغيـرة المزروعة في بسـتان المطعم، وشـمها، وشـرب من عرقه بسـرعة، شـعرت بأن هناك موضوعًـا يفكر فيه،

ولكنه لم يقرر كيف يجب أن يفتحه. ذات لحظة نظرنا كلانا من النافذة نحو الخارج، ورأينا تشتين يتبادل الحديث مع سائقين ينتظرون في الخارج.

قال والدي كأنه يقدم وصية: «اعرف قيمة تشتين».

«أعرف».

«لا أعرف إن كنت تعلم... لا تضحك من القصص الدينية التي يرويها بين حين وآخر. تشتين رجل غاية بالاستقامة وهو مهذب وإنساني. إنه هكذا منذ عشرين سنة. إذا حدث لي شيء ذات يوم، احذر من إبعاده. ولا تغير السيارة بين حين وآخر مثل الأغنياء الجدد. الشفروليه جيدة أيضًا... هذه تركيا، عندما منعت الدولة استيراد السيارات الأجنبية الحديثة، وتحولت إسطنبول منذ عشر سنوات إلى متحف للسيارات الأمريكية، ولكن لا تهتم، فأفضل المصلحين هم لدينا».

قلت: «لقد ترعرعت في هذه السيارة يا والدي العزيز، لا تشغل بالك نهائيًّا».

قال والدي: «أحسنت». ولأنه دخل جو من يقدم وصيته، يمكنه الآن الدخول في الموضوع الأساسي. قال: «سيبل فتاة جميلة وقريبة من القلب». ولكن لا، هذا ليس الموضوع الأساسي. «أنت منتبه إلى أنه من الصعب إيجاد مثلها، أليس كذلك؟ المرأة، وخصوصا إذا كانت زهرة نادرة مثلها يجب ألا تجرحها في أي وقت، وأن ترفعها على الراحات دائمًا». فجأة حل على وجهه تعبير غريب وخجل. تحدث بنفاد صبر كأنه غاضب من شيء ما: «هل تتذكر تلك الفتاة الجميلة؟.. تلك التي رأيتها معي في بشكطاش... ماذا فكرت أول ما رأيتها؟».

«أي فتاة؟».

غضب والدي. «يا روحي، أما رأيتني ذات يوم قبل عشر سنوات مع فتاة جميلة جدًّا في حديقة بربروس في بشكطاش.».

«لا، لا أتذكر يا أبي».

«كيف لا تتذكر يا بني؟ تقابلت أعيننا. كانت فتاة جميلة جدًّا بجانبي».

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

«أشحت بنظرك أنت بشكل مهذب لكي لا تُخجل والدك. هل تذكرت؟».

«لا أتذكر».

«لا، لقد رأيتنا».

وجدت صعوبة بإثبات عدم تذكري مصادفة كهذه. بعد نقاش طويل أقلقني، فكرنا بأنني قد أكون رأيتهما، ونجحت بنسيان الأمر لأنني أردت نسيانه. لعلهما ارتبكا لاعتقادهما أنني رأيتهما. وهكذا دخلنا الموضوع الأساسي.

جمع والدي أهم عنصرين بالموضوع في جملة واحدة قالها بمباهاة: «بقيت تلك الفتاة حبيبتي على مدى إحدى عشرة سنة، وكانت جميلة جدًّا».

تعكر مزاج والدي عندما لم أشهد على جمال الفتاة التي فكر طويلًا بأن يحدثني حولها، والأسوأ من هذا أنني نسيت ذلك الجمال. أخرج فجأة صورة بالأبيض والأسود من جيبه. كانت صورة امرأة صبية حزينة وسمراء ملتقطة في مقدم سفينة قرة كوي من خطوط المدينة.

قال: «هذه هي. التقطت سنة تعارفنا. للأسف، حزنها الشديد لا يظهر جمالها. هل تذكرتها الآن؟».

صمتُّ. حديث والدي عن حبيبته مهما كانت «قديمة» وتر أعصابي. ولكنني في تلك اللحظة لم أستطع تحديد الجانب الموتر للأعصاب.

قال والدي وهو يعيد الصورة إلى جيبه: «انظر إليّ، احذر من نقل هذا لأخيك. فهو حاد، لا يتفهم الأمر. أنت عشت في أمريكا، ولا أروي لك ما يقلقك. مفهوم؟».

«طبعًا يا أبي».

قال والدي: «اسمع إذًا». وبدأ يشرح وهو يرتشف رشفات صغيرة من كأس العرق.

تعرف على تلك الفتاة أول مرة «قبل سبعة عشر عامًا ونصف العام في يوم مثلج من شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٥٧»، وتأثر كثيرًا ببراءتها وصفائها وجمالها. كانت الفتاة تعمل في صاطصاط التي أسسها والده حديثًا. بداية بدأت علاقتها بزمالة العمل، ولكنها تطورت إلى علاقة «جادة وعاطفية» على الرغم من فرق سبع وعشرين عامًا بينهما. بعد عام من العلاقة مع رب العمل الوسيم (حسبت فورًا بأن والدي كان في السابعة والأربعين من عمره حينئذ) أجبرها على ترك العمل في صاطصاط. ولم تبحث عن عمل في مكان آخر تحت ضغط والدي أيضًا، وبدأت تعيش في شقة بناء في منطقة بشكطاش بصمت على أمل «أن يتزوجا ذات يوم».

قال والدي: «طيبة القلب جدًّا، وحنونة جدًّا، وذكية جدًّا، وإنسانة جميلة جدًّا. لم تكن تشبه النساء الأخريات. حدث أن عشت بعض العلاقات العابرة، ولكنني لم أغرم بواحدة مثل غرامي بها. وفكرت كثيرًا بالزواج منها يا بني... ولكن ماذا سيحدث لأمك؟ وماذا سيحدث لكما؟..».

صمتنا قليلًا.

«لا تفهمني بشكل خاطئ يا بني، أنا لا أقول إنني ضحيت من أجل سعادتكما. في الحقيقة أنها كانت راغبة بالزواج أكثر مني. وأنا ماطلت سنوات. كنت لا أستطيع العيش من دونها، وأشعر بالألم عندما لا أراها. لم أستطع أن أحدث أحدًا وأحدثك بتلك الآلام. فيما بعد، قالت لي: «عليك أن تختار!» إما أن أترك والدتك، وأتزوجها، وإما أن تتركني. املأ لنفسك عرقًا».

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

بعد فترة صمت، قال والدي: «تركتني عندما لم أستطع الانفصال عن والدتك وعنكما». أتعبه قول هذا، ولكنه أراحه. ارتاح أكثر عندما نظر إلى وجهي، وأدرك أنه يستطيع متابعة الموضوع.

«كنت أتألم كثيرًا. تزوج أخوك، وكنت أنت في أمريكا. ولكنني كنت أحاول إخفاء ألمي عن والدتك. وكان الألم في زاوية معزولة بالسر إمعانًا بالألم. بالطبع فقد شعرت والدتك بها كما شعرت بالخليلات الأخريات، وأدركت أن الأمر جدي، ولكنها لم تنبس. كنا في البيت نمثل دور العائلة السعيدة في فندق مع بكر وفاطمة. أرى أن ألمي لا يهدأ بأي شكل، وأنني سأفقد صوابي فيما لو استمرت الأمور على هذا النحو، ولكنني لا أستطيع عمل ما يجب أن أعمله بأي شكل. في الأيام ذاتها كانت هي أيضًا (كان والدي يخفي عني اسم المرأة) حزينة جدًّا، فقد عرض عليها الزواج مهندس، وستتزوج من رجل آخر إذا لم أعط قراري. ولكنني لم آخذ الأمر مأخذ الجد... لقد ضاجعتني أول مرة بحياتها. اعتقدت أنها «تلعب علي» وأن أحدًا لن يقبل بها. وعندما أفكر بطريقة أخرى، ويصيبني الهلع، لا أستطيع أن أعمل شيئًا أصلًا. لهذا السبب أحاول ألا أفكر بهذا الموضوع. أما ذهبنا ذات صيف كلنا معًا إلى معرض إزمير الدولي؟ قاد السيارة تشتين يومئذ... عند عودتي، سمعت بأنها تزوجت رجلًا آخر، ولم أستطع أن أصدق هذا. اعتقدت أنها أشاعت هذا الخبر من أجل أن تؤلمني، وأن تؤثر عليّ. كانت ترفض كل طلباتي باللقاء، ولا ترد على هواتفي. باعت البيت الذي اشتريته لها، وانتقلت إلى مكان آخر. بقيتُ أربع سنوات لم أستطع أن أسأل ما إذا كانت تزوجت فعلًا، وكان زوجها مهندسًا حقيقة، وما إذا كانت قد رزقت بأطفال، وما تفعله. كنت خائفًا من زيادة ألمي فيما لو عرفت، ولكن عدم معرفة أي شيء أمر فظيع. أتخيل أنها تعيش في مكان ما من إسطنبول، وتفتح الجرائد، وتقرأ الأخبار التي أقرؤها، وتشاهد برامج التلفاز التي أشاهدها، وأحزن كثيرًا لعدم رؤيتي لها. تضغط علي فكرة أن الحياة تافهة. احذر من أن تفهمني خطأ يا بني، بالطبع فأنا أفخر بكما وبالمصانع وبوالدتك، ولكن هذا ألمٌ مختلف».

حديثه بصيغة الماضي التام يشعرني بأن القصة التي يرويها قد وصلت إلى نتيجة ما، وقد ارتاح والدي، ولكن لا أدري لماذا لم يكن هذا يعجبني.

«في النهاية، سيطر عليّ الفضول ذات يوم بعد الظهر، فاتصلت بوالدتها. والدتها تعرف من أنا بالتأكيد، ولكنها لم تعرف صوتي. لفقت لها كذبة أنني زوج إحدى زميلاتها من الثانوية. أردت أن أطلب منها رقم هاتف ابنتها لأن «زوجتي المريضة تريد أن تزورها في المستشفى». قالت: «ابنتي ماتت، وبدأت تبكي». ماتت بالسرطان! أغلقتُ الهاتف بسرعة لكي لا أبكي. لم أكن أتوقع هذا نهائيًّا، ولكنني فهمت أنه الصواب. ولم تتزوج من مهندس أو غيره... ما أفظع الحياة! وما أشد فراغ كل ما فيها!».

عندما رأيت الدمع يذرف من عيني والدي، شعرت باليأس. أتفهمه وأغضب منه في آن واحد، وكلما فكرت بالقصة التي رواها لي، يتشوش عقلي بما يسميه علماء الإنسانيات القدماء «المبادئ التي تعترف بمقدسات»، وأشعر بالألم.

قال والدي بعد صمت قصير، واستجماعه نفسه: «مهما يكن، لم أدعُك اليوم لكي أحدثك حول آلامي، وأحزنك يا بني. أردتك أن تعرف هذه القصة المؤلمة، وتفهم والدك بشكل أفضل وأنت على وشك أن تعلن خطوبتك، ولكنني أردت أن أشرح لك شيئًا آخر. هل فهمتني؟».

«ما هو؟».

قال والدي: «أنا نادم جدًّا الآن. أنا نادم جدًّا لأنني لم ألاطفها كفاية، ولأنني لم أقل لها آلاف المرات كم هي لذيذة ولطيفة وغالية علي. كانت فتاة قلبها من ذهب، ومتواضعة وذكية وجميلة جدًّا... لم يكن لديها ذلك الغرور الذي نراه لدى نسائنا جميعًا وكأنّ جمالهن من صنعهن، ويردن أن يُمتدحن باستمرار... انظر، مازلت أتألم اليوم بعد سنوات لأنني فقدتها، ولم أعاملها المعاملة التي تستحقها. يجب أن تتعلم كيف تعامل المرأة في الوقت المناسب، وليس بعد أن يكون كل شيء قد فات».

في أثناء قول والدي العبارات الأخيرة بجو مراسمي، أخرج من جيبه علبة مجوهرات مغطاة بالمخمل قديمة. «اشتريتهما أيام ذهابنا معًا إلى معرض إزمير الدولي لكي لا تغضب مني عند العودة، وتسامحني، ولكن لم يكتب لي أن أعطيها إياهما». فتح والدي العلبة. «كان القرطان سيليقان بها كثيرًا. قرطا اللؤلؤ هذان قيّمان جدًّا. خبأتهما في مكان سري طوال سنين. لا أريد لأمك أن تجدهما حيث خبأتهما من بعدي. خذهما. فكرت كثيرًا، إنهما يليقان بسيبل كثيرًا».

قلت: «والدي العزيز، سيبل ليست حبيبتي السرية، ستكون زوجتي». ولكنني نظرت إلى داخل العلبة التي مدها نحوي.

قال والدي: «دعك من هذا الكلام. لا تروي قصة القرطين لسيبل، وينتهي الأمر. وعندما تراهما في أذنيها، تتذكرني. ولا تنس النصائح التي قدمتها لك اليوم. وعامل تلك الفتاة الجميلة معاملة جيدة... بعض الرجال يعاملون النساء معاملة سيئة، ثم يطوفون كالزيت. احذر أن تكون مثلهم. ولتكن هذه الكلمات قرطًا بأذنك».

أغلق العلبة، ووضعها في راحة كفه بحركة آيلة من السلاطين العثمانيين، ودسها بيدي كأنه يدس بقشيشًا. فيما بعد، قال للنادل: «ابني، اجلب لنا عرقًا وثلجًا إضافيًّا». والتفت نحوي. «ما أجمل هذا اليوم! أليس كذلك؟ وما أجمل هذه الحديقة هنا! إنها تفوح برائحة الربيع والزيزفون».

أمضيت الساعة التالية بالقول بأن لدي موعدًا لا أستطيع إلغاءه، ومن الخطأ أن يتصل والدي بصاطصاط، ويطلب إلغاء الموعد باعتباره رب العمل الكبير.

كان يقول: «يعني أنك تعلمت هذا في أمريكا، أخسنت».

لم أكسر رجاء والدي بشرب كأس عرق معه من جهة، وأنظر إلى ساعتي، ولا أريد أن أفوت موعدي مع فسون ـ خصوصا في ذلك اليوم ـ من جهة أخرى.

قال والدي: «انتظر يا بني، اجلس قليلًا، ما أجمل حديثنا القلبي أبًا وابنه. ستتزوج الآن، وتذهب، وتنسانا!».

قلت وأنا أنهض: «والدي العزيز، أفهم ما تعانيه، ولن أنسى النصائح القيمة التي نصحتني إياها».

مع تقدم والدي بالسن، وفي لحظات انفعاله العاطفي، يرتجف طرف شفتيه. مد يده، وصافحني، وعصر كفي بكل قوته. عندما صافحته بالقوة نفسها، كأن قطعة إسفنج تحت خديه قد عصرت، وبدأ الدمع يقطر منها فجأة.

ولكن والدي شد نفسه فورًا، وطلب الحساب بصوت مرتفع، وغط بالنوم في أثناء العودة في السيارة التي يقودها تشتين بانتباه دون أن يهزها.

لم أتردد كثيرًا في بناء مرحمة. بعد مجيء فسون، وتبادلي معها القبل مطولًا، وشرحت لها بأن رائحة العرق في فمي بسبب تناولي الغداء مع والدي، وأخرجت من جيبي علبة المخمل.

«افتحيها، وانظري».

فتحت فسون العلبة بانتباه.

قالت: «هذا ليس قرطي. هذان لؤلؤ، إنهما غاليان».

«هل أعجباك؟».

«أين قرطي؟».

«اختفى قرطك بداية، ثم نظرت ذات صباح، فوجدت أنه جاء إلى جانب رأسي، وجلب معه زوجه الآخر. وضعتهما في هذه العلبة المخملية، وجلبتهما إلى صاحبتهما الأساسية».

قالت فسون: «أنا لست طفلة. هذان ليسا قرطيّ».

«برأيي أنهما قرطاك بروحهما يا روحي».

«أنا أريد قرطي».

قلت: «هذان هدية مني..».

«أنا لا أستطيع تعليقهما... الجميع سيسألون من أين حصلت عليهما..».

«لا تعلقيهما إذًا، ولكن لا ترفضي هديتي».

«ولكنهما شيء تقدمه لي بدلًا من قرطي... لو لم تضيّع قرطي، لما جلبتهما. هل ضيعته حقيقة؟ ماذا فعلت به؟ أثرت فضولي لمعرفة هذا».

«لا بد أن يظهر ذات يوم من إحدى الخزائن في البيت».

قالت فسون: «ذات يوم... ما هذه الراحة التي تقول هذا فيها؟.. كم أنت غير مبالٍ. كم سأنتظر؟».

قلت بدافع التخلص الآني: «ليس كثيرًا. في ذلك اليوم سآخذ هذه الدراجة أيضًا، وسأزور والدك ووالدتك مساءه».

قالت فسون: «أنا أنتظر». ثم تبادلنا القبل. «تفوح رائحة مشروب كثيفة من فمك».

ولكنني تابعت تقبيلي لها، وحين بدأت ممارسة الحب معها، نُسيت الهموم، وذهبت. تركتُ القرطين اللذين اشتراهما والدي لحبيبته هناك.

٢٢ ـ يد رحمي أفندي

مع اقتراب موعد الخطوبة تشغلني أعمالٌ كثيرة يجب إنجازها، ولا تترك لي وقتًا لهموم الغرام وقلقه. أتذكر أنني استشرت كثيرًا من أصدقاء طفولتي الذين آباؤهم أصدقاء أبي حول طريقة إيجاد الشمبانيا والمشروبات «الأوربية» الأخرى التي ستُقدم في حفل الخطوبة في هيلتون. لا بد لي

من تذكير زوار متحفي بعد سنين بأن قليلًا جدًّا من الشمبانيا والويسكي والمشروبات الأجنبية كانت تدخل البلد بشكل قانوني، لأن الدولة تضبط بشدة استيراد المشروبات الأجنبية، ولا تخصص قطعًا أجنبيًا لاستيرادها. ولكن الشمبانيا والويسكي والسجائر الأمريكية المهربة لم تكن تنقطع من عند باعة المقبلات في الأحياء الغنية، والدكاكين التي تبيع المواد المهربة، وبارات الفنادق الفخمة، وآلاف ملعّبي الطومبالا الذين يدورون بأكياسهم المليئة بفيش الأرقام. لا بد لكل من يقيم حفلًا يفاخر به مثلي من تأمين المشروبات «الأوربية» التي ستقدم للضيوف، وتسليمها للفندق. غالبية كبار الندل في الفنادق الفخمة يرتبطون بعلاقة صداقة فيما بينهم، لذلك يساعدون بعضهم بعضًا في أوضاع كهذه، ويتبادلون إرسال الزجاجات لتأمين حفل فخم جدًّا دون مشاكل. عليّ أن أنتبه لأن صحفيي المنوعات والمجتمع الراقي يكتبون حول هذا الموضوع، ويحددون كمية المشروبات «الأجنبية الأصلية» وكمية ويسكي أنقرة المحلية.

عندما أتعب من هذه الأعمال، أذهب إثر هاتف سيبل إلى ببك أو سفوح أرناءوط كوي أو إتيلر لرؤية البيوت ذات الإطلالات التي تُنشأ حديثًا. وأنا أصبحت مثل سيبل أستمتع بتخيل حياتنا في تلك البيوت الحديثة التي لم ينته بناؤها بعد، وتفوح برائحة الكلس والإسمنت، ومكان غرفة النوم وغرفة الطعام، والأريكة الطويلة التي رأيناها في أحد محلات المفروشات في نيشان طاش بحيث نرى إطلالة البوسفور بشكل أفضل. في الحفلات التي نذهب إليها مساء، تسرُّ سيبل من الحديث لأصدقائنا عن الزوايا والإطلالات التي في تلك الأبنية التي رأيناها، وجوانبها الجيدة والسيئة، ومناقشة خططنا إزاء الحياة، وأنا أغيّر الموضوع بخجل، وأتحدث عن نجاح زعيم بمياه ملتم الغازية، ومباريات كرة القدم، والمحلات المفتوحة حديثًا من أجل الصيف. السعادة السرية التي أعيشها مع فسون تجعلني في اجتماع الأصدقاء أكثر صمتًا، ومع الزمن أصبحت أستمتع أكثر بمراقبة ما يجري وأنا على طرف. بدأ يحل على قلبي الحزن بالتدريج، ولكنني لم

أكن أشعر به بوضوح في تلك الأيام، وأستطيع رؤيته الآن بعد مرور أعوام على قصتي. انتبهت إلى أنني كنت في الفترة «الأكثر صمتًا».

قالـت لـي سـيبل ذات منتصف ليل فيمـا كنت أقلهـا إلى بيتها بالسـيارة: «قليلا ما تتكلم في الأيام الأخيرة».

«هكذا إذًا؟».

«إنك صامت منذ نصف ساعة».

«أمـا تناولت الغداء مع والدي قبـل أيام... انقبض قلبي. يتحدث عن كل شيء كمن يستعد للموت».

يوم الجمعة المصادف ٦ حزيران/ يونيو، أي قبل الخطوبة بثمانية أيام، وقبل امتحان الدخول إلى الجامعة بتسـعة أيام، ذهبنا ـ أبي وأخي وأنا ـ في الشـفروليه التـي يقودها تشـتين إلى بيت يقع بيـن بيه أوغلـو وطوبهانة إلى الأسـفل من حمام تشـوقر جمعة بزيارة عزاء. المتوفى هو عامل مسـن من ملاطيـة عمل مع والدي منذ بدايات سـنوات دخوله عالـم الأعمال. أتذكر هـذا الرجـل المحبب الضخم الـذي يعتبر جزءًا من تاريخ الشـركة منذ أيام عمله في مكتب والدي بأعمال قضاء الحاجيات. كانت إحدى يديه صناعية لأنهـا علقت في إحـدى الآلات، وتحطمت. عرفنا هـذا العامل الذي يحبه والـدي كثيرًا لأنه جلبـه إلى المكتب بعد الحادث. كنـا ـ أخي وأنا ـ نخاف كثيـرًا من يـد رحمي أفندي الصناعية، ولكنه جعلها فـي الأعوام التالية لعبة لنا نحن الطفلين بسبب بشاشة وجهه وتحببه. كلما ذهبنا إلى المكتب ذات فتـرة فـي طفولتنا، كنا ننظر إلى يده الصناعيـة، ونلعب بها. ذات مرة تفرجنا علـى رحمـي أفنـدي وهو يقيم الصـلاة وقد مد السـجادة في غرفـة فارغة، ووضع يده الصناعية جانبًا.

كان لدى رحمي أفندي ابنان ضخمان ومحببان مثله. قبّلا يد والدي. فور رؤيـة زوجتـه المتعبة الزهرية البشـرة والمكتنـزة اللحم والـدي، بدأت تبكي وهي تمسـح دموعها بطرف غطاء رأسـها. سـلى والدي المرأةَ بشكل قلبي لا

أستطيع أنا أو أخي أن أفعله، وعانق الولدين، وقبلهما، وأسس وحدة روحية وقلبية مع من في الغرفة بسرعة غير متوقعة. أما أخي وأنا فقد انجرفنا بشعور الذنب. بينما كان أخي يتحدث بجو من يلقي درسًا، فتحتُ أنا الحديث حول ذكرياتي.

في أوضاع كهذه، ليست الكلمات هي المهمة، بل المواقف، وليست واقعية ألمنا وقوته، بل موهبتنا بالانسجام مع المحيط. أفكّر أحيانًا بأن حب الإنسان الكبير للسيجارة لا ينبع من قوة النيكوتين، بل لأنها تعطي الإنسان انطباعًا بأنه يعمل شيئًا ذا معنى في هذه الحياة الفارغة. أخذ كل منا ـ والدي وأخي وأنا ـ سيجارة من علبة المالتبة التي ضيفنا منها ابن المرحوم الكبير، وأشعل لنا الشاب نفسه بمهارة من الثقاب، ثم ألقينا نحن الثلاثة ساقًا على ساق في اللحظة نفسها كأننا نقوم بأهم أعمال الدنيا، وبدأنا ندخن.

«عُلق» على الجدار بساط مثل عادة تعليق الأوربيين لوحات. سيطر عليّ إيهام بأنني أفكر بأمور «عميقة» على ما أعتقد، وهذا لا بد أن يكون بسبب طعم المالتبة المختلف. القضية الأساسية في الحياة هي السعادة. البعض يكونون سعداء، والبعض لا يستطيعون أن يكونوا سعداء. كنت سعيدًا جدًّا في تلك الأيام، ولكنني لا أريد أن أنتبه إلى هذا. الآن بعد سنوات، أعتقد أن الانتباه إلى السعادة أفضل طريق للمحافظة عليها. ولكنني لم أكن منتبها إلى سعادتي لأنني أخشى من التعاسة المقتربة بشكل عميق، وخسارة فسون. هل هذا ما كان في تلك الأيام يجعلني صامتًا ويزيد من حساسيتي؟

في أثناء نظري إلى الأغراض التي في الغرفة الفقيرة والنظيفة (ثمة مقياس ضغط جوي على الجدار كان طرازًا شائعًا في فرش بيوت الخمسينيات، ولوحة «بسملة») اعتقدت للحظة بأنني سأبكي مع زوجة رحمي أفندي. كان ثمة غطاء تطريز يدوي على التلفاز، وفوق الغطاء دمية كلب منسجمة معه. كأن الكلب سيبكي أيضًا. أذكر أنني شعرت بحالي أفضل فيما كنت أنظر إلى الكلب، وفكرت فيه بداية، ثم بفسون.

٢٣ - الصمت

مع اقتراب موعد الخطوبة تطول فترة الصمت بيني وبين فسون، وتتعمق، ويسمم هذا الصمت لقاءنا الذي يستمر ساعتين على الأقل يوميًّا، وممارستنا الحب التي تزداد شدتها يومًا بعد يوم.

قالت ذات مرة: «جاءت دعوة لوالدتي إلى الخطوبة، فرحت أمي كثيرًا، وقال والدي يجب علينا أن نذهب، ويريدونني أن أذهب معهما. الحمد لله أن امتحان الدخول إلى الجامعة في اليوم التالي، ولن أضطر لتمثيل دور المريضة لأبقى في البيت».

قلت: «أمي أرسلت الدعوة، احذري من الذهاب. في الحقيقة أنني لا أريد الذهاب أيضًا».

أردت أن ترد عليّ فسون ردًّا مشاكسًا، وأن تقول: «لا تذهب إذًا!»، ولكنها لم تقل شيئًا. مع اقتراب يوم الخطوبة كنا نمارس الحب ونحن نصبب العرق أكثر، ونتعانق بحركات أذرع وجسد كأننا اعتدنا عليها مثل عاشقين يعيشان معًا منذ سنوات، وأحيانًا لا نتحرك نهائيًّا، ولا نتكلم بشيء آخر، ونحن ننظر إلى الستارة الرقيقة التي تتحرك بتأثير الريح الذي يدخل من الباب المفتوح.

التقينا في بناء مرحمة حتى الخطوبة كل يوم في الموعد نفسه، ومارسنا الحب بشكل قوي. وكما لم نتكلم حول وضعنا وخطوبتي وما سيحدث بعد ذلك، كنا نبعد ما يمكن أن يجلب تلك الموضوعات إلى البال. هذا ما قادنا إلى الصمت. تتناهى من الخارج صيحات الأولاد الذين يلعبون كرة القدم، وتبادلهم الشتائم. لم نتحدث عن مستقبلنا في أولى ممارستنا للحب أيضًا، وتحدثنا أحاديث عامة، وحول أقربائنا المشتركين، وشائعات نيشان طاش العادية، والرجال السيئين، وضحكنا بمرح. الآن نحن حزينان لانتهاء الضحك والمرح بسرعة. كنا نعرف أن هذا نوع من الخسارة والتعاسة. ولكن هذا الشعور السيئ لا يبعد أحدنا عن الآخر، ويربطنا بشكل عجيب.

أحيانًا أقبض على نفسي متلبسًا بالتفكير أنني ألتقي فسون بعد الخطبة. تحولت هذه الجنة التي يسير فيها كل شيء دون تغيير بشكل تدريجي إلى فنتازيا (لو أقول إنه خيال)، وتوقع معقول. في أثناء ممارستنا الحب بقوة وصدق أصل إلى منطق أن فسون لن تتركني. في الحقيقة أن هذا شعور، وليس منطقًا. وأفكر بهذا بالخفاء عن نفسي. ولكن جانبًا من عقلي يحاول استنتاج ما تفكر فيه فسون من كلماتها وحركاتها. ولأن فسون تعرف هذا جيدًا، لا تمسكني أي رأس خيط، ويطول الصمت أكثر. فسون أيضًا تراقب حركاتي، وتقدم بعض التوقعات التعيسة. كان أحدنا يراقب الآخر مدة طويلة وهو مفتح عينيه عشرة على عشرة مثل الجواسيس من أجل الحصول على مزيد من المعلومات. أعرض السروال الداخلي الأبيض الذي تلبسه فسون، وجوربي الطفل الأبيضين، والحذاء المطاطي الأبيض القذر لتشير إلى لحظات الصمت الحزينة تلك دون تقديم أي تفسير.

جاء يوم الخطوبة بسرعة، وبدد كل التوقعات. في ذلك اليوم حللت عقدة موضوع الويسكي والشمبانيا (لم يسلم أحد الباعة الزجاجات قبل الدفع سلفًا)، ثم خرجت إلى تقسيم، وتناولت همبرغر وشربت لبنًا رائبًا في بوفيه طفولتي «أطلنتيك»، وذهبت إلى حلاق طفولتي جواد الثرثار. نقل جواد الثرثار دكانه من نيشان طاش إلى بيه أوغلو في أواخر الستينيات، ووجدنا -أبي ونحن- حلاقًا آخر في نيشان طاش هو بصري، ولكنني كنت أعرج على دكانه في زقاق جامع الآغا عندما أكون قريبًا، وأحلق ذقني عندما أريد أن أستمتع بمرحه. سُر جواد كثيرًا عندما علم بأن خطوبتي في ذلك اليوم، وحلق لي حلاقة العرسان، واستعمل رغوة صابون مستوردة دون إفراط، ومرطب جلد قال إنه دون رائحة، واهتم بكل شعرة من شعر لحيتي. ذهبت سيرًا على الأقدام إلى نيشان طاش، وبناء مرحمة.

جاءت فسون في وقتها المعتاد. كنت قد قلت قبل عدة أيام إننا يجب ألا نلتقي يوم السبت، لأن هناك امتحانًا في اليوم التالي، وقالت فسون إنها يجب أن تريح عقلها في اليوم الأخير بعد أن درست كثيرًا. لم تذهب إلى

بوتيك شانزليزيه منذ يومين أساسًا بذريعة الامتحانات. جلست إلى الطاولة فور دخولها، وأشعلت سيجارة.

قالت بسخرية: «لم تعد الرياضيات تدخل عقلي لكثرة التفكير فيك». وأطلقت قهقهة كأن هذه العبارة قالب خرج من الأفلام ولن يحدث شيء آخر، ثم امتقع وجهها بالحمرة.

لو لم تمتقع بالحمرة وتخجل كل هذا، لحولت الأمر أيضًا إلى مزاح. تظاهرنا بأننا لا نفكر حتى بأننا نفكر بخطوبتي التي ستقام اليوم. لم نستطع أن نفعل هذا. شعرنا بحزن كثيف وقوي لا يمكن احتماله. أدركنا أن هذا الحزن غير القابل لتمريره بالمزاح، وتخفيفه بالكلام، والتقليل من تأثيره بالبوح، لا يمكن تجاوزه إلا بممارسة الحب. ولكن الحزن أبطأ ممارستنا الحب، وسممها. تمددت فسون على السرير ذات لحظة كمريض يريد أن يريح جسمه وكأنها تشاهد غيومَ الحزن التي تتطاير فوق رأسها، وتمددت بجوارها، وأنا أيضًا نظرت إلى السقف. كان الأولاد الذين يلعبون كرة القدم صامتين، ولا نسمع سوى صوت الكرة. بعدئذ صمتت الطيور أيضًا، وبدأ صمت عميق. سمعنا صوت بوق سفينة بعيدة جدًّا، ثم بوق سفينة أخرى.

فيما بعد، شربنا سوية الويسكي بقدح آيل من جدي أدهم كمال وهو في الوقت نفسه زوج أم جدتها الثاني، وبدأنا نتبادل القبل. في أثناء كتابة هذا أشعر بأنني يجب ألا أحزن المحبين المهتمين بقصتي أكثر: ليس بالضرورة أن تكون القصة حزينة لمجرد أن أبطالها حزانى. كنا نمرر الوقت بالأغراض التي في الغرفة، والأثواب والقبعات الآيلة من أمي، والتماثيل الصغيرة. وكنا نتبادل القبل بشكل جميل جدًّا كما اعتدنا. لأننا تقدمنا على صعيد تبادل القبل. لا بد لي من القول إن شفتي فسون كانتا تذوبان في فمي. في أثناء تبادلنا القبل التي تطول أكثر، يتراكم سائل دافئ حلو كالعسل في مغارتي فمينا، وأحيانًا يسيل من طرف شفاهنا إلى ذقنينا، ويتجلى أمام أعيننا بلد جنة لا يمكن إلا أن يكون حلمًا طفوليًّا، وكأننا

نتفرج على ذلك البلد الذي نراه عبر مشكال يضج بالألوان كما نتفرج على الجنة. أحيانًا يلتقط أحدنا شفة الآخر السفلية أو العلوية مثل تينة في فم طائر شغوف بمتعته، ويشدها نحو فمه، ويمصها، ويعض قطعة الشفة تلك بين أسنانه وكأنه يقول: «أصبحت تحت رحمتي»، وفي اللحظة ذاتها يتذكر بأن ليس شفة الحبيب فقط بقيت تحت رحمته، بل وجسد الحبيب كله، وكم هو جذاب! وبعد أن يشعر لأول مرة بأن أكثر مناطق الغرام ظلمة وعمقًا هي تلك التي تتوسط الرحمة والاستسلام، يفعل الأمر نفسه للشفة الأخرى، وفي هذه اللحظات بالضبط يقبض على لسانينا بين أسناننا، لتذكيرنا هذه المرة بنعومة الحب واحتضانه وليس بشدته وعنفه.

بعد ممارستنا الطويلة للحب غططنا بالنوم. عندما رفعت الريح الخفيفة اللذيذة المحملة برائحة الزيزفون الستارة الرقيقة، وتركتها فوق وجهينا مثل الحرير، استيقظنا مرتعشين.

قالت فسون: «كنت في حقل دوار الشمس في حلمي. وكانت أزهار دوار الشمس تتمايل بشكل خفيف في الريح. لا أدري لماذا كانت مخيفة جدًّا، وأردت أن أصرخ، ولكن صوتي لم يخرج».

قلت: «لا تخافي، أنا هنا».

عليّ ألا أشرح كيف نهضنا من السرير، وكيف ارتدينا ثيابنا، ووصلنا إلى الباب. بعد أن قلت لها يجب أن تكون هادئة في الامتحان، وألا تنسى بطاقة الامتحان، وأن كل شيء سيكون على ما يرام، وستكون ناجحة... وقلت لها ما خططت لقوله ملايين المرات، وهو أن تبدو طبيعية.

«لنلتق غدًا في الساعة نفسها، ممكن؟».

قالت فسون: «حسنٌ!» وأشاحت بعينيها.

نظرت إليها من الخلف بغرام، وأدركت فورًا بأن خطوبتي ستمر بشكل جميل.

٢٤ ـ الخطوبة

حصلت على البطاقات البريدية التي تُظهر فندق هيلتون بعد مرور أكثر من عشرين سنة على أحداث القصة التي أروي وقائعها من أجل المتحف أثناء تجوالي على أصحاب المجموعات البارزين في إسطنبول، ومن باعة الأشياء المستعملة في المدينة وأوربا (والمتاحف الصغيرة). بعد مساومات طويلة، وسماح صاحب المجموعات الشهير السيد خالد المريض بلمسي إحدى هذه البطاقات، والنظر إليها عن قرب، لم يذكرني أسلوب جبهة الفندق المألوف الحداثي والدولي بليلة الخطبة فقط، بل وبطفولتي كلها. عندما كنت في العاشرة من عمري ذهب والدي ووالدتي بانفعال إلى سهرة افتتاح الفندق التي حضرها المجتمع الراقي الإسطنبولي كله برفقة النجمة الأمريكية تيري مور التي نسيت الآن، وفي الأعوام اللاحقة، اعتادا خلال فترة قصيرة التعريج على هذا الفندق الذي يظهر بناؤه من نافذتنا، وغريب تمامًا عن منظر إسطنبول الظليل القديم والمتعب. كان ممثلو الشركات الأجنبية التي يبيعها والدي بضاعة ويحبون الرقص الشرقي يقيمون في فندق هيلتون. عندما كنا نذهب كعائلة إلى سهرات الأحد من أجل تناول الشيء المدهش المدعو «همبرغر» ولم يأتِ إلى أي مطعم من مطاعم تركيا بعد، كان يسحرنا ـ أخي وأنا ـ البواب بشاربيه الغليظين وبزته الحمراء بلون الرمان بأشرطتها الذهبية، وكتفيتيها وأزرارها البراقة. في تلك الأعوام كانت كثير من أمور «التغريب» تجرب بداية في الهيلتون، وتضع الجرائد الكبرى لها مراسلا في الفندق. إذا تبقع طقم تحبه والدتي كثيرًا، ترسله إلى مصبغة هيلتون، وكانت تحب شرب الشاي مع صديقاتها في قاعته. وأقيمت كثير من أعراس أقربائنا وأصدقائنا في قاعة الحفلات الكبيرة التي في الطابق السفلي. عندما أدركنا أن شاليه حماتي المستقبلية شبه الخرب في منطقة سور الأناضول لن يكون مناسبا لحفل الخطوبة، قررنا جميعًا إقامته في الهيلتون. غير هذا فإن الهيلتون

منذ افتتاحه من أماكن إسطنبول القليلة الحضارية التي تعطي السادة والسيدات المحترمين غرفًا دون السؤال عن بطاقة الزواج.

أقلَّنا (أمي وأبي وأنا) تشتين أفندي إلى باب الفندق الدوار الذي تشبه سقيفته البساط الطائر.

قال والدي الذي يتأجج المرح لديه كلما دخل الفندق: «ما زال هناك نصف ساعة».

جلسنا في زاوية نرى منها بهو الفندق كله، وطلبنا من نادل مسنٍّ عرف والدي وسأله عن أحواله كأسي «عرق» ولأمي شايًا. كنا مستمتعين بالفرجة على زحام الفندق المسائي، والمدعوين المتكاثرين مع مرور الوقت ونحن نستذكر السنين الماضية. لم يكن المدعوون إلى الخطوبة من المعارف والأقرباء الفضوليين وهم يتقاطرون فرادى وجماعات بألبستهم الأنيقة يروننا لأننا كنا جالسين خلف أصيص زهر قرن الغزال العريض الأوراق.

كانت أمي تقول: «آآ، كم كبرت ابنة رزان؟ صارت لذيذة جدًّا». وتقول عن ضيفة أخرى وهي مقطبة بحاجبيها: «يجب منع الميني جيب عمن ساقاها لا تناسبانه». يقول والدي ردًّا على سؤال: «هم أجلسوا عائلة باموق في الخلف، ولسنا نحن، للأسف!». ثم يشير إلى مدعوين آخرين: «يا حرام، كيف أصبحت السيدة فضيلة؟! ذهب ذلك الجمال الرائع، ولم يبق شيء منه... لو أنهم أبقوها في البيت، ولم أر المسكينة بهذه الحال... وأولئك المغطون رءوسهم أقرباء سيبل من طرف أمها... أما ترك زوجته شبيهة الورد وأولاده وتزوج تلك المرأة العادية؟ لهذا فإن السيد حجاب انتهى بالنسبة إلي... انظر إلى مصفف الشعر نوزت، فقد صفف شعر زمرد مثل تصفيف شعري نكاية بي. من هذان كرمى لله؟ إنهما زوجان يشبهان الثعالب بأنفيهما ووقفتهما وحتى بلباسهما؟.. هل لديك نقود يا بني؟».

قال والدي: «ما المناسبة الآن؟».

«نعم، جاء راكضًا، وغير ثيابه وخرج كأنه خارج إلى ناد وليس إلى خطوبة. هل وضعت نقودًا بجيبك يا عزيزي كمال؟».

«وضعت».

«حسنٌ. امش منتصبًا، ممكن؟ لأن الجميع ستكون أعينهم عليك... هيا لننهض».

أشار والدي إلى النادل إشارة «كأس» لنفسه بداية، ثم نظر إلى عيني وطلب لي كأسًا بإشارة كمية بيده.

قالت أمي لأبي: «لم تشف وتتخلص من مرضك، ماذا حدث ثانية؟».

قال والدي: «ألا أشرب في خطوبة ابني، وأمرح؟».

قالت أمي عندما رأت سيبل: «آه يا روحي، ما هذا الجمال! الثوب بمنتهى الأناقة، واللآلئ راكبة في مكانها. ولكن الفتاة مدهشة إلى درجة أنها تظهر جميلة مهما لبست... ما هذا الظرف وهذه الرقة التي يحملها الثوب، أليس كذلك؟ ما ألذها وكم هي سيدة! ابني، هل تعلم كم أنت محظوظ؟».

عانقت سيبل صديقتين لها جميلتين مرتا من أمامنا قبل قليل. أمسكت الفتاتان سيجارتيهما الرفيعتين الطويلتي الفلتر بدقة، وتبادل الجميع القبل بحركات مبالغ بها لكي لا يخربن زينتهن وشعرهن وأثوابهن، ودون أن تمس شفاههن شديدة الحمرة اللامعة أي مكان، «وأرين أثوابهن وعقودهن وأساورهن لبعضهن بعضًا، وتضاحكن».

قال والدي وهو يراقب الفتيات الثلاث: «كل عاقل يدرك أن الحياة جميلة، وأن الهدف منها أن يكون سعيدًا. ولكن فيما بعد لا أحد يسعد سوى المخبولين. كيف نفسر هذا الأمر؟».

قالت أمي: «يعيش الولد واحدًا من أجمل أيامه، لماذا تقول له هذا الكلام يا ممتاز؟». والتفتت إليّ: «هيا يا بني، لماذا تقف، اذهب إلى جانب سيبل... كن بجانبها في كل لحظة، وشاركها كل لحظات سعادتها!.».

تركت كأسي، وخرجت من خلف الأصيص، وفيما كنت أسير نحو الفتيات، رأيت وجه سيبل قد أنير بابتسامة سعيدة. في أثناء تقبيلها، قلت لها: «أين تأخرت؟».

بعد أن عرّفتني سيبل بصديقتيها، التفتنا معًا، وبدأنا ننظر إلى باب الفندق الدوار.

همست بأذنها: «أنت جميلة جدًّا يا روحي، لا مثيل لك».

«أنت أيضًا وسيم جدًّا... ولكن دعنا لا نقف هنا».

على الرغم من هذا وقفنا هناك، وليس لأنني أبقيتها، بل لأنها مسرورة جدًّا من البقاء تحت أنظار المعارف والذين لا نعرفهم والمدعوين وسائح أو سائحين أنيقين في بهو الفندق عندما يلتفتون، وينظرون إلينا.

أستنتج من تذكري الآن بعد أعوام الداخلين من الباب الدوار في ذلك اليوم واحدًا واحدا أن محيط أغنياء إسطنبول «المغربين» كان ضيقًا، ويعرفون بعضهم بعضًا وشائعاتهم جميعها: عائلة خالص أغنياء زيت الزيتون والصابون من أيوالك التي كانت تصاحبهم والدتي عندما تصطحبنا إلى حديقة ماتشكا لكي نلعب بالدلو والمجرفة وكنتهم ذات الذقن الطويلة جدًّا مثلهم (زواج الأقرباء!) وابنهم صاحب الذقن الأطول... صديق والدي في الجندية ورفيقي في مباريات كرة القدم حارس المرمى السابق ومستورد السيارات قدري الدلو وبناته ذوات الأقراط والأساور والخواتم اللامعة... ابن رئيس جمهورية سابق غليظ الرقبة دخل مجال التجارة، وورد اسمه في كثير من عمليات الفساد وزوجته الظريفة... الدكتور باربوت الذي استأصل لوزات المجتمع الراقي بعملياته التي كانت طرازًا شائعًا في طفولتي، ولم أخف منه وحدي عندما كنت أحمل حقيبتي المدرسية وألبس بنطالي بلون وبر الجمل حين أقابله، بل يخافه مئات الأطفال...

قال لي الطبيب وهو يعانقني: «لوزتا سيبل في مكانهما».

كـرر مزاحه الذي يقوله كثيرًا للآخرين: «أصبح هناك كثير من الأسـاليب الطبيـة الحديثـة مـن أجل إخافـة الفتيات الجميـلات، وجلبهن إلـى الطريق القويم!».

أردت ألا تنتبـه والدتـي إلـى السـيد هـارون الوسـيم وكيل سـيمنس في تركيـا، وتتوتـر. تصف والدتي هـذا الرجل الهـادئ والناضج جـدًّا بكلمات مثـل: «دب، سـافل»، وقـد تزوج للمرة الثالثـة من ابنة زوجتـه الثانية دون أن يبالي لصراخ المجتمع الراقي كله: «فضيحة، سـفالة!»، وبثقته بنفسه وبرودة أعصابـه وضحكتـه اللذيـذة فرض وضعـه من جديـد على الوسـط. تبين أن ألبتكيـن الابن الأكبر للسـيد جنيد وزوجتـه فيضان زميلي في المدرسـة منذ المرحلة الابتدائية، وكذلك ابنتهما أسـينا زميلة سـيبل، وكان السـيد جنيد قد تحول من مراب إلى صناعي بشـرائه مصانع اليهود والروم الذين سـيقوا إلى معسـكرات السـخرة لعدم تمكنهم من دفـع الضرائب أثناء الحـرب العالمية الأولـى، ويغضب منه والدي عند ذكره بسـبب الغيرة أكثر من الأخلاق. وقد سعدنا كثيرًا لانتباهنا إلى هذه الزمالة أول مرة، وقررنا اللقاء قريبًا.

قلت: «ألا ننزل إلى الأسفل بعد الآن؟».

كـررت سـيبل عبارة أمـي دون علمها: «أنت وسـيم جـدًّا، ولكن قف شامخًا».

دخل الطباخ بكر أفندي، والسيدة فاطمة، والبواب صائم أفندي، وزوجته وأولاده بألبسـة أنيقـة جدًّا وفواصـل زمنية قصيرة وهم خجلـون، وصافحوا سـيبل. تضع السـيدة فاطمة وزوجة صائـم مجيدة إيشـاربين أنيقين جلبتهما والدتـي مـن باريس كغطـاء رأس. ابناهما اللـذان يرتديان سترتين ويربطان ربطتـي عنـق ووجهاهما مليئـان بالحب ينظران إلى سيبل بطـرف عينيهما. بعدئـذ رأينـا صديق والدي الماسـوني فصيـح فاخر وزوجته ظريفة. لا يسـر والدي من كون صديقه المحبب هذا ماسونيًّا، ويتكلم كثيرًا بحق الماسونيين في البيت، ويقول إنه «شـركة مصالح وواسـطات» سـرية في عالم الأعمال،

ويقرأ قوائم الماسونيين الأتراك التي تصدرها دور النشر المعادية للسامية بانتباه، وهو يقول: «واخ، واخ!». وقبل أن يأتي فصيح إلى بيتنا يُنزل كتبًا مثل «الوجه الداخلي للماسونية»، «كنت ماسونيًا» عن الرف، ويخبئها.

عندما رأيت القوادة الوحيدة في إسطنبول (ولعلها الوحيدة في العالم الإسلامي) المألوفة والمعروفة للمجتمع الراقي كله شرمين الفاخرة الشهيرة، اعتقدت أنها من المدعوين إلى الخطوبة، وكان على رقبتها فولار بنفسجي يحمل رمزًا تجاريًّا (لم تكن ترفعه لأنه يخفي جرح سكين)، ومعها واحدة من «بناتها» الجميلات تنتعل حذاء عالي الكعب جدًّا، دخلت مثل المدعوين إلى الخطوبة، وذهبت إلى محل المعجنات. فاروق الفأر ذو النظارة الغريبة، وأنا صديقا «حفلات عيد الميلاد» بسبب صداقة أمه مع أمي، وابن معروف غني التبغ الذي كنا نذهب معًا إلى الحديقة لأن مربيتينا صديقتان، تعرفهما سيبل جيدًا من النادي الكبير.

دخل وزير الخارجية الأسبق السمين والمسن مليك خان الذي سيلبسنا خاتمي الخطوبة مع حمي المستقبلي من الباب الدوار، وعانق سيبل عندما رآها، وقبلها لأنه يعرفها من طفولتها. ورمقني بنظرة، ثم التفت إلى سيبل.

قال: «ما شاء الله، إنه وسيم جدًّا. تشرفت بالمعرفة أيها الشاب»، وصافحني.

تقترب صديقات سيبل وهن يبتسمن. براحة التلبس بلبوس المحب للنساء، وبالتسامح الخاص بالمسنين الذي يقابل به، امتدح أثواب الفتيات وتنوراتهن وزينتهن وشعرهن بمزيج بين الجد والمزاح، وقبلهن واحدة تلو الأخرى من خدودهن، ونزل إلى الأسفل بموقف المسرور من نفسه كما هي عادته.

في أثناء نزول والدي من الدرج، قال: «لا أحب هذا الرجل القذر أبدًا».

قالت أمي: «لا تهتم كرمى لله، وانتبه للدرج».

قال والدي: «أنا أرى، والحمد لله لم أعمَ». حين دخل إلى الحديقة، ورأى الإطلالة على قصر ضولمة بهتشة والبوسفور وبرج البنت والأوسكدار من خلف القصر، والزحام الصاخب، شعر بالمرح. تأبطتُ والدي من ذراعه، وبين الندل المقدمين الضيافة للجالسين على الأرائك الملونة، بدأنا بالسلام على المدعوين، وسؤالهم عن أحوالهم فردًا فردا.

«سيد ممتاز، ما شاء الله ابنكم كما كنتم في شبابكم بالضبط... كأنني أراكم وأنتم شباب».

قال والدي: «أنا ما زلت شابًّا يا حضرة السيدة. ولكنني لم أتذكرك..». ثم التفت إلي، وهمس بشكل حلو: «دعني، لا تمسك ذراعي بقوة كأنني عاجز».

انفصلتُ عنه بهدوء. كانت الحديقة متلألئة ومليئة بالفتيات الجميلات. غالبيتهن يلبسن أحذية مفتوحة من المقدمة، وعالية الكعاب، وقد لوّن أظافر أقدامهن بعناية ومتعة بأحمر الإطفائية، وبعضهن يلبسن أثوابًا طويلة ولكنها تكشف أكتافهن وأذرعهن تمامًا، وارتحت لرؤيتهن مرتاحات لعدم ظهور سيقانهن. أكثر النساء الشابات حملن حقائب صغيرة لامعة ذات أقفال معدنية.

فيما بعد، أمسكتني سيبل من يدي، وعرفتني على كثير من أقربائها وأصدقاء طفولتها وزملائها في المدرسة، وأصدقائها الذين لا أعرفهم نهائيًّا.

في كل مرة تقول: «كمال، سأعرفك الآن على صديقة ستحبها كثيرًا». وتمتدح تلك الفتاة بجو يبدو لي رسميًّا على الرغم من صدقها وانفعالها الشديدين، وينتشر على وجهها تعبير فرح. من المؤكد أن ما يجعل الفرح العميق يطفو على وجهها هو سير كل شيء في حياتها كما تريد، وكما خططت له. ومثلما كل لؤلؤة على ثوبها وكل ثنية من ثناياه وكل عقدة من عقده ثبتت على كل نقطة من نقط جسمها الجميل المتناسق دون نقص،

تستنتج بأن حياتها السعيدة ستتحقق بكل تفاصيلها كما خططت لها، وكما نفذت هذه الليلة بتخطيط دام أشهر. لهذا السبب فإن كل لحظة جديدة من لحظات الليلة، وكل وجه جديد، وكل من يعانقها، ويقبلها يبدو بالنسبة إليها سببًا لسعادة جديدة. أحيانًا تندس بي بقوة، وتعمل أصبعيها كالملقط، وتطارد شعرة أو ذرة غبار خيالية على كتفي بموقف الحامية.

عندما أرفع رأسي عن الأشخاص الذين أصافحهم وأقبلهم أرى المدعوين مسرورين، وقد ارتخوا قليلًا بتأثير المشروب، وبدءوا يطلقون القهقهات أثناء دوران الندل بينهم بالصينيات لتقديم الضيافة لهم. النساء جميعهن مزينات بشكل مبالغ به، وغاية بالأناقة. لأن غالبيتهن يرتدين ألبسة تستند إلى الخصر، وهي مكشوفة من الأعلى، يبدو أنهن يشعرن بالبرد. غالبية الرجال مثل الأولاد الذين يلبسون لباس العيد وقد عقدوا أزرار سترات بزاتهم البيضاء الأنيقة، وربطوا ربطات عنق تعتبر ملونة بالنسبة إلى متوسط الألوان المستخدمة في تركيا وتذكر بربطات «الهبيين» ذات الزخارف الكبيرة والملونة وكانت رائجة قبل عدة سنوات. يبدو أن كثيرًا من رجال تركيا لم يسمعوا بأن طرز السالفين الطويلين والشعر الطويل والكعب العالي قد انتهى في العالم قبل عدة سنوات، أو أنهم لم يؤمنوا بهذا. السالفان الأسودان الطويلان جدًّا، والعريضان من الأسفل على أن هذا «موضة»، والشعر الطويل الأسود، والشاربان التقليديان الأسودان العريضان تجعلان وجوه الرجال شديدة السواد. لعل هذا ما يجعل الرجال فوق الأربعين عامًا كلهم تقريبًا يدهنون شعرهم بالبريانتين. رائحة البريانتين والعطور الرجالية الكثيفة والعطور النسائية، ودخان السجائر التي ينفخها الرجال عمومًا دون متعة عندما تمتزج مع رائحة زيت القلي المنبعثة من المطبخ بفعل نسيم الربيع، تذكرني بالولائم التي كانت والدتي تقدمها في طفولتي، وموسيقى المصعد التي تعزفها الفرقة (الأوراق الفضية) كمدخل بمزيج من الجد والهزل تهمس لي بأنني سعيد.

ما إن مل الرجال من الوقوف والانتظار، وتعب المسنون، وهرع

الجائعون منذ الآن ليبدءوا بالجلوس في أماكنهم بمساعدة أولادهم («وجدت طاولتنا يا جدتي»/ «أين؟ قف لا تركض، ستسقط!»)، حتى تأبط وزير الخارجية الأسبق ذراعي من الخلف، وبمهارة الدبلوماسي السياسي سحبني جانبًا، وحكى لي عن رقة سيبل التي يعرفها منذ طفولتها وظرفها، وثقافة عائلتها وجمالها مضيفًا ذكرياته الشخصية.

قال: «لم تبق عائلات عريقة عاشت عزًّا يا سيد كمال. أنتم في عالم الأعمال، وتعرفون أكثر مني أن الأثرياء الجدد يملئون كل مكان، ولف البلد أثرياء ريفيون يغطون زوجاتهم وبناتهم. قبل فترة رأيت رجلًا لف زوجته بملاءة سوداء مثل العرب، وقطرها خلفه، ويأكلان مثلجات في بيه أوغلو... هل أنت مصمم على الزواج من هذه الفتاة، وأن تسعدا حتى نهاية عمركما؟».

قلت: «أنا مصمم يا سيدي». تزيين إجابتي بالسخرية لم تغب عن عين الوزير السابق، مما جعل أحلامه تبوء بالفشل.

«لا يمكن فسخ الخطوبة. هذا يعني أن ذكر اسم هذه الفتاة سيقترن بذكر اسمك حتى نهاية حياتك. هل فكرت بهذا جيدًا؟».

اجتمع الزحام حولنا منذ الآن في دائرة.

«فكرت».

«دعوني أعلنكما خطيبين، ونبدأ بتناول طعامنا. تعال إلى هنا لكي أرى..».

شعوري بأنه لم يحبني لم يخرب مزاجي. روى الوزير لجمع المدعوين من حولي إحدى ذكرياته في الجندية بداية. يريد أن يصل إلى نتيجة بأن تركيا كانت فقيرة جدًّا قبل أربعين سنة، وكذلك هو، بعد ذلك روى بصدق كيف أعلن خطوبته على المرحومة زوجته من دون حفل ومراسم وورد وصخب. امتدح سيبل وعائلتها للجميع. لم يكن فيما

رواه كثير من المزاح، ولكن الجميع بمن في ذلك الندل الذين ينظرون من بعيد حاملين الصواني استمعوا إليه باسمين، وحتى سعداء كأنه يروي شيئًا مرحًا. عندما جلبت هوليا المحببة ذات سني الأرنب وتحب سيبل كثيرًا الخاتمين اللذين أعرضهما هنا في صينية فضية، خيّم صمت للحظة. نتيجة انفعالنا ـ سيبل وأنا ـ وارتباك الوزير تداخلت الأصابع التي ستلبس الخواتم والأيدي، ولم نستطع الخروج من الأمر. عند بدء بعض المدعوين المستعدين أساسًا للضحك بالصراخ: «ليس بهذه الأصبع، باليد الأخرى» تصاعد ما يشبه صخب طلاب مدرسة سعداء، فوجد مكان الخواتم أخيرًا، ثم قص الشريط الذي يربط الخاتمين، وتصاعد تصفيق يشبه خفقان أجنحة سرب من الطيور. انفعلت كالأطفال لتصفيق كل هؤلاء الناس لنا بفرح على الرغم من تحضيري هذا الأمر بنفسي. ولكن ليس هذا ما جعل قلبي يخفق.

رأيت فسون بين والدها ووالدتها وسط الزحام في مكان ما من الخلف. انتشر في قلبي فرح كثيف. في أثناء تقبيل سيبل من خديها، وعناق والدي ووالدتي وأخي القادمين إلى جانبنا فورًا، وتقبيلهم كنت عارفًا سبب انفعالي، واعتقدت أن بإمكاني إخفاءه ليس عن الحضور فقط، بل حتى عن نفسي. كانت طاولتنا بجوار منصة الرقص مباشرة. قبل أن أجلس إلى الطعام، رأيت فسون في الخلف تجلس إلى جانب والدها ووالدتها بجوار موظفي صاطصاط.

قالت برين زوجة أخي: «إنكما سعيدان جدًّا».

قالت سيبل: «ولكننا تعبنا كثيرًا... إذا كانت الخطوبة هكذا، من يعلم كم سيكون العرس متعبًا..».

قالت برين: «في ذلك اليوم ستكونان سعيدين جدًّا أيضًا».

سألت: «ما السعادة برأيك يا برين؟».

قالت برين: «أوه، يا لهذه الموضوعات التي تفتحها». وتظاهرت بأنها

تفكر بسعادتها، ولكنها أحرجت من مجرد تذكر تلك اللحظة وإن كان مزاحًا، مما جعلها تبتسم بخجل. وسط أصوات الزحام السعيد الذي حظي بالطعام، والصياح، وقرقعة الشوكات والسكاكين، ونغمات الفرقة الموسيقية سمعت في الوقت نفسه صوت أخي القوي الأجش وهو يروي شيئًا ما لأحدهم.

قالت برين: «العائلة والأولاد والزحام. وإن لم تكن سعيدًا، وحتى في أتعس أيامك (أشارت نحو أخي بطرف عينها) تعيش كأنك سعيد. تذوب كل همومك وسط جو العائلة، وتتبدد. أنتما أيضًا اعملا ولدًا بسرعة. اعملا كثيرًا من الأولاد مثل القرويين».

قال أخي: «ما هذا؟ أسمعوني، بماذا تنمون؟».

قالت برين: «قلت لهما يجب أن ينجبا أولادًا، كم ولدًا يجب أن ينجبا؟».

لم يكن أحد ينظر، قلب فورًا نصف كأس عرق.

بعد قليل انحنت برين على أذني: «من هذا الرجل الذي يجلس على طرف الطاولة مع تلك الفتاة اللذيذة؟».

«إنها نورجيهان أعز صديقة لسيبل من الثانوية وفرنسا. أجلستها سيبل بجوار صديقي محمد بشكل خاص. تريد أن توفّق بينهما».

قالت برين: «ليس هناك كثير من التقدم حتى الآن!».

شرحت لبرين أن سيبل متعلقة بمزيج من الإعجاب والشفقة بنورجيهان، وأن نورجيهان عاشت غرامًا مع الشباب الفرنسي أثناء دراستها هناك، وقد مارست الحب بجرأة مع أولئك الشباب (هذه قصص روتها لي سيبل بتوق)، وانتقلت للإقامة معهم في بيت واحد بالسر عن عائلتها الغنية في إسطنبول، ولكن مغامرتها الأخيرة أحزنتها كثيرًا، ونتيجة تأثرها بسيبل قررت العودة إلى إسطنبول. ولكنني أضفت: «يجب أن تتعرف على أحد تقدره، وتعشقه من مستواها، ولن يسبب لها مشكلة بسبب عشاقها السابقين في فرنسا».

همست برين باسمة: «والله لا يبدو أن هناك بداية عشق كهذا بعد. ماذا تعمل عائلة محمد؟».

«إنهم أغنياء. والده متعهد بناء مشهور».

عندما رفعت برين حاجبها الأيسر إلى الأعلى باستخفاف، شرحت لها أن محمدًا صديقي الذي أثق به جدًّا من روبرت كلج، وهو إنسان مستقيم. نعم، على الرغم من أن عائلته متدينة جدًّا ومحافظة، ولكنه عارض لأعوام طويلة أن يتزوج عن طريق خاطبة، وأن تجد له والدته فتاة إسطنبولية متعلمة، ويريد أن يتزوج من فتاة يقيم معها علاقة صداقة. «ولكن الأمر لم يتم مع أي من الفتيات المعاصرات اللواتي وجدهن».

قالت برين بجو العارفة جدًّا: «بالطبع لا يمكن».

«لماذا لا يمكن؟».

قالت برين: «انظر إلى حالته، وشخصيته. واحد مثله جاء من قلب الأناضول... يريد أن يتزوج الفتاة بأسلوب الخاطبة. يتنزه معهن ويدور، وإذا تمادين، يخشين أن يعتبرهن الرجل في سره «عاهرات».».

«محمد ليس بهذه العقلية».

«ولكن المكان الذي جاء منه، وعائلته، وشخصيته من هذا النوع. الفتيات العاقلات لا ينظرن إلى أفكار الرجل، بل إلى عائلته وحالته العامة، أليس كذلك؟».

قلت: «بلى، أنت محقة. ولكن الفتيات العاقلات أنفسهن اللواتي خفن من محمد، ولم يردن الاقتراب منه على الرغم من جديته الشديدة (دعيني لا أذكر أسماءهن الآن) يتصرفن براحة شديدة من دون التأكد من جدية نية الرجل بالزواج، ويتمادين بعلاقاتهن».

قالت برين بغرور: «أما قلت لك؟ هناك رجال كثيرون في هذا البلد يستخفون بزوجاتهم لأنهن تمادين معهم قبل الزواج. دعني أقول لك شيئًا

آخر: في الحقيقة أن صديقك محمد لم يعشق أيًّا من تلك الفتيات اللواتي لم يستطع الاقتراب منهن بأي شكل. لو عشقهن، لأدركت الفتيات هذا، وتصرفن معه على هذا الأساس. طبعًا لا أقول إنهن سيضاجعنه، ولكنهن يقتربن منه إلى درجة تمكنهن من الزواج».

«ولكن محمدًا لم يستطع أن يعشق تلك الفتيات لأنهن لم يقتربن منه، ولأنهن محافظات وجبانات. أي مثل البيضة قبل الدجاجة أم الدجاجة قبل البيضة..».

قالت برين: «هذا ليس صحيحًا. الجنس والمضاجعة ليسا ضرورة من أجل العشق. العشق هو حال قيس وليلى».

أصدرتُ ما يشبه الهمهمة.

قال أخي من الطرف الآخر للطاولة: «ماذا يحدث؟ احكوا لنا أيضًا. من يضاجع من؟».

نظرت برين إلى زوجها نظرة بمعنى «هناك أطفال!». وهمست بأذني قائلة: «لهذا السبب يجب فهم سبب عدم عشق صديقك محمد هذا الذي يبدو على وجهه أنه كالنعاج أيًّا من الفتيات اللواتي يريد أن يقترب منهن، ويتعرف عليهن بجد».

أردت للحظة أن أخبر برين التي أحترم ذكاءها بأن محمدًا مدمن على بيوت الدعارة ومن الصعب أن يبرأ من هذا. هناك «فتيات» يزورهن محمد باستمرار في أربعة أو خمسة بيوت خاصة في سيراسلفيلر، وجيهان غير، وببك، ونيشان طاشِ. وفيما كان يعمل على إقامةِ علاقة عاطفية قوية مع الفتيات البكر خريجات الثانوية العامة المتجاوزات العشرين من أعمارهن اللواتي يتعرف عليهن في مكتبه، يقضي ليالي وحشية مع فتيات يقلدن نجمات السينما الأجنبية في تلك البيوت الفخمة حتى الصباح، وعندما يفرط بالشرب ينزلق عن لسانه بأنه لم يعد يستطيع أن يلحق النقود لتلك الفتيات، ويستجمع عقله، ولكننا عندما نخرج من دعوة في منتصف الليل، بدلًا من

الذهاب إلى بيته حيث والده الذي يمسك المسبحة، ووالدته وأخواته اللواتي يصمن رمضان مع الجميع، يغادرنا، ويذهب إلى أحد بيوت الدعارة الفخمة في جيهان غير وببك.

قالت برين: إنك تشرب كثيرًا هذا المساء. لا تفرط. هناك زحام كبير، والعيون كلها عليكما..».

قلت لها باسمًا: «حسنٌ»، ورفعت الكأس.

قالت برين: «انظر إلى حالة عثمان المسئولة هذه، وإلى حالتك المشاكسة... كيف يكون الأخوان مختلفين إلى هذه الدرجة؟».

قلت: «الأمر ليس على هذا النحو أبدًا، نحن متشابهان جدًّا. غير هذا سأكون بعد الآن أكثر مسئولية وجدية من عثمان».

بدأت برين قائلة: «في الحقيقة أنني أيضًا لا أريد الجد نهائيًّا.». بعد فترة طويلة، قالت: «أنت لا تستمع إلي».

«ماذا؟ أسمعك».

«قل إذًا ما قلته لك!».

«قلتِ إن العشق يجب أن يكون كما في الحكايات القديمة. قلت: مثل قيس وليلى».

قالت برين باسمة: «لا، لم تكن تستمع إلي». ولكن كان على وجهها تعبير قلق على حالتي. التفتت نحو سيبل لترى ما إن كانت منتبهة لوضعي. ولكن سيبل كانت تروي شيئًا ما لمحمد ونورجيهان.

لم أحاول أن أخفي عن القراء فقط تعلق جانب من عقلي دائمًا بفسون، وشعوري بأنها تجلس في مكان ما خلف ظهري أثناء حديثي مع برين، وأنني أفكر فيها بشكل مستمر، بل وحاولت أن أخفيه عن نفسي بخجل أيضًا، ولكن هذا يكفي! أصلًا إنكم ترون أنني لم أستطع أن أنجح بهذا. لأكن صادقًا مع القراء بعد الآن على الأقل.

وجـدت ذريعـة للنهوض عـن الطاولـة. أردت أن أنظر نظرة إلى فسـون. لا أتذكـر الذريعة. نظرت إلى الخلف، ولكنني لـم أسـتطع رؤية فسـون. كان هنـاك زحـام كبيـر، والجميع يتكلمـون في الوقت نفسـه صراخًـا، والأولاد الذين يلعبون «الاسـتغماية» بين الطاولات أيضًـا يطلقون صراخًا. وأضيفت الموسـيقى إلى قرقعة الشـوكات والسـكاكين ليتشـكل صخب هادر. وسط الهدير الشبيه بيوم الحشر هذا. سرت نحو الخلف على أمل رؤية فسون.

قال صوت: «مبروك يا عزيزي كمال، سـيكون هناك رقص شـرقي أليس كذلك؟».

كان هـذا سـليم المتكبر الجالـس على طاولة زعيم. ضحكـت كأنه مزح مزاحًا مسليًا.

قالـت خالة متفائلة: «لقـد اخترت خيارًا جيدًا جدًّا يا سـيد كمال. أنتم لا تذكرونني. أمكم بالنسبة إلي..».

ولكن قبل أن تقول لي أين تعرفت على أمي، دفعني نادل يحمل صينية، ودخل بيننا. عندما استرجعت موقفي، كانت المرأة قد بقيت بعيدًا.

قال طفل: «أرني خاتم الخطوبة!». وتعلق بيدي بقوة.

سـحبت الطفل بشدة والدته السـمينة، وقالـت: «اترك، عيب!» وتصرفت كأنها ستصفع الولد كفًّا على وجهه، ولكن الولد كان خبيرًا، أقدم على حركة وهـو باسـم، وابتعد عن صفعة والدته. صرخت الوالـدة: «تعال، اجلس هنا! عدم المؤاخذة... مبروك».

عندمـا التقت عيناي بعيني امرأة متوسـطة العمر لا أعرفها نهائيًّا وهي تضحـك ووجهها ممتقع بالحمـرة، اتخذتُ موقفًا جديًّـا. عرفني زوجها بنفسـه: كان قريـب سـيبل، ولكننـا خدمنا جنديتنـا معًا فـي أماصيا. هل أجلس إلى طاولتهما؟ نظرت بكل انتباه إلى الطاولات الخلفية عسـى أن أرى فسـون، ولكنني لم أسـتطع رؤيتها. كأنها اختفت. شعرت بألم. كان ثمة تعاسة لم أشعر بها من قبل تنتشر في جسمي كله.

«هل تبحثون عن أحد؟».

«خطيبتي تنتظر، ولكن لأشرب معكم كأسًا..».

فرحوا كثيرًا، ورصوا الكراسي بسرعة، وسحبوها. لا، لا أريد طبقًا وشوكة وسكينًا، هاتوا قليلًا من العرق فقط.

«عزيزي كمال، هل تعرفت على إرتشتين باشا؟».

قلت: «آا، نعم». في الحقيقة أنني لم أستطع تذكره.

قال الباشا بتواضع: «أنا زوج ابنة خالة والد سيبل أيها الشاب. مبروك».

«عدم المؤاخذة يا باشا، لم أستطع معرفتكم لأنكم مدنيون. سيبل تذكركم باحترام شديد».

في الحقيقة أن سيبل حكت لي عن شغف إحدى قريباتها البعيدات بضابط بحرية وسيم قابلته عندما ذهبت إلى المصيف في جزيرة هيبلي، وأنا لم أستمع بانتباه للقصة لأنني اعتقدت أنه أحد العسكريين المهمين اللازمين لكل عائلة غنية من أجل تأجيل الخدمة العسكرية وعلاقات الواسطة مع الدولة. ولكنني الآن بدافع كسب الإعجاب الغريزي والتواضع العجيب، أردت أن أقول له: «متى سيضع الجيش يده على السلطة، فالشيوعيون والرجعيون يجرون البلد إلى الكارثة..». ولكنني على الرغم من سكري الشديد شعرت بأنه لن يحترمني، ويعتبرني سكرانًا إذا قلت له هذا. نهضت ذات لحظة بدافع غريزي وكأنني في حلم، ورأيت فسون في مكان بعيد.

قلت لمن حول الطاولة: «عن إذنكم، سأغادر!».

سرت شاعرًا بأنني على طبيعتي كما يحدث لي عندما أشرب كثيرًا.

جلست فسون إلى طاولتها التي في الخلف. كانت مرتدية ثوبًا بحمالتي كتف. كان كتفاها عاريين وسليمين. صففت شعرها. كانت جميلة جدًّا. مجرد رؤيتها ولو من بعيد ملأ قلبي بالانفعال والسعادة.

كانت تتظاهر بأنها لم ترني. على الطاولة الرابعة من الطاولات السبع

التي تفصل بيننا تجلس عائلة باموق. اندسست بذلك الطرف، وتبادلت بضع عبارات مع الأخوين آيدن وغوندوز باموق. كان عقلي مشغولًا بطاولة فسون، ويجلس إلى الطاولة نفسها موظفو صاطصاط، وانتبهت فورًا إلى أن الموظف الشاب الطموح كنان لا يستطيع رفع عينيه عن فسون كالجميع، ويبادلها الحديث.

كان آل باموق أيضًا منكمشين على أنفسهم مثلهم مثل كثير من العائلات الغنية التي فقدت ثروتها بقلة خبرتها، ويسيطر عليهم القلق أمام الأغنياء الجدد. ولم أر ما يلفت النظر في أورهان البالغ الثالثة والعشرين من عمره، ويجلس مع والدته الجميلة ووالده وأخيه الأكبر وعمه وأبناء عمه غير أنه يدخن باستمرار، وهو متوتر ونافد الصبر، ويحاول الابتسام بسخرية على الدوام.

نهضتُ عن طاولة آل باموق المملة، وسرتُ مباشرة نحو فسون. كيف أستطيع شرح السعادة التي ظهرت على وجهها حين انتبهت إلى أنها لن تستطيع تجاهلي، وأنني أتقدم نحوها بغرام، ومباشرة؟ امتقعت ذات لحظة بالحمرة، ومنحها لون الحمرة الداكنة حيوية مدهشة. فهمتُ من نظرات العمة نسيبة بأن فسون كانت تشرح لها شيئًا ما. بداية صافحت يد والدتها الجافة، ثم يد والدها الجميلة ذات الأصابع الطويلة، والرسغ الرفيع مثل ابنته، ويبدو عليه أنه لا يعلم شيئًا. عندما جاء الدور على جميلتي، صافحتها، ثم انحنيت، وقبلتها من خديها، وشعرت برغبة داخلي للنقط الحساسة تحت أذنها وعلى رقبتها في لحظات السعادة والمتعة. حلت عبارة «حسنٌ أنك أتيت!» محل سؤال «لماذا أتيت؟» الذي كان يتكرر كثيرًا في عقلي. خطت كحلًا رفيعًا حول عينيها، ودهنت شفتيها بلون زهري خفيف، وهذا ما جعلها غريبة وأكثر أنوثة ممتعة كالعطر الذي اندهنت به. ما إن استنتجت من حمرة عينيها والانتفاخ الطفولي تحت عينيها أنها بكت في بيتها بعد أن افترقنا قريب المساء، حتى حل على وجهها تعبير السيدة الحازمة الواثقة بنفسها.

قالت بجرأة: «سيد كمال، أنا أعرف الآنسة سيبل، إنه قرار صائب جدًّا... مبروك لكما».

«آ، شكرًا لك».

قالت أمها في الوقت ذاته: «سيد كمال، من يعلم كم من الأعمال تركتم لتدرسوا ابنتي الرياضيات، الله يرضى عليكم!».

قلت: «أليس امتحانها غدًا؟ سيكون جيدًا فيما لو عادت هذا المساء إلى البيت باكرًا».

قالت أمها: «طبعًا، أصبح لديكم حقوق عليها. ولكنها كانت تعاني حزنًا شديدًا أثناء تدريسكم لها، دعوها تستمتع هذا المساء».

ابتسمتُ لفسون بحنان معلم. كأن أحدًا لا يسمعنا بسبب الزحام وهدير الموسيقى (كما يحدث في الأحلام). رأيت غضبًا في نظرة فسون لأمها كما تظهر عندما نكون في شقة بناء مرحمة، وألقيت نظرة أخيرة على صدرها الجميل الذي يظهر نصفه، وكتفيها المدهشين، وذراعيها الطفوليين. في أثناء عودتي شعرت في داخلي بموجة عملاقة تضرب شاطئ السعادة بالتصوير البطيء، وهي على وشك أن تضرب مستقبلي بشعور النصر.

كانت فرقة «الأوراق الفضية» تعزف أغنية «مساء على البوسفور» المقتبسة من أغنية «It`s now or never». لو لم أؤمن بأن السعادة الصرفة في هذه الدنيا لا تتحقق إلا بعناق آخر، وسأحصل عليه «الآن»، لأردت أن أشير إلى تلك اللحظة بأنها «أسعد لحظات حياتي». لأنني استنتجت من كلمات الأم، ونظرات فسون الغاضبة والحزينة أنها لن تنهي علاقتنا، وأن والدتها تقبل بهذا متعلقة ببعض الآمال. فهمت أن فسون لن تنفصل عني إلى آخر حياتي فيما لو استطعت أن أعاملها بانتباه واهتمام شديدين، وأشعرها بمدى حبي لها! إن الله لا يمنح لبعض عباده مثل والدي وعمي سعادة الرجولة خارج الزواج إلا بعد عمر الخمسين، وكثيرًا من العذاب. أي أن الله منحني فرصة علاقة سرية وسريعة مع فتاة جذابة ووحشية أثناء المشاركة بمتع حياة

العائلـة السـعيدة كلها مع امـرأة متعلمـة وذات ثقافة مناسـبة وذكية وراجحة العقـل دون مزيد من العذاب ودون مقابـل تقريبًا وأنا مازلت في الثلاثين من عمـري. على الرغم من عدم كوني متدينًا فإن منظر السـعادة المتجلي بزحام المدعويـن السـعداء في حديقـة الهيلتون وأضواء البوسـفور التـي تظهر بين المصابيح الملونة وأشـجار الدلب والسماء الكحلية هي هبة من الله ستحفر في ذاكرتي على ألا يخرج أبدًا.

قالت سيبل: «أين كنت؟» كانت قد خرجت للبحث عني. «انشغل بالي. قالت برين إنك أفرطت قليلًا بالمشروب، هل أنت بخير يا روحي؟».

«نعم، أفرطت قليلًا، ولكنني الآن بخير يا روحي. مشـكلتي الوحيدة هي السعادة المفرطة».

«وأنا أيضًا سعيدة جدًّا، ولكن لدينا مشكلة».

«ما هي؟».

«لا يحدث الأمر بين نورجيهان ومحمد».

«إن لم يحدث، فليكن. نحن سعيدان جدًّا».

«لا، لا. كلاهما يريد هذا. لو شعر أحدهما تجاه الآخر بالدفء، أنا واثقة بأنهما سيتزوجان فورًا. ولكنهما تربطا، ولا يستطيعان الحركة... وأخشى أن تضيع الفرصة».

نظرت إلى محمد من بعيد. لا يسـتطيع أن يندس بنورجيهان بأي شـكل، وحين ينتبه إلى فشله، يغضب من نفسه، ويحزن، فيتربط أكثر. كان ثمة طاولة صغيرة عليها أكوام من الصحون الفارغة.

قلـت: «لنجلس هنـاك، ونتكلم على انفـراد. لعلنا تأخرنا كثيـرًا من أجل محمد... لعله بات من غير الممكن أن يتزوج فتاة جميلة معقولة!».

«لماذا؟».

جلسـنا إلى الطاولة. قلت لسـيبل المحملقة فضولًا وخوفًا، بأن محمدًا

يمكن ألا يجد سعادته إلا في الغرف ذات الروائح العطرة والضوء الأحمر. وطلبتُ فورًا عرقًا من النادل القادم.

قالت سيبل: «أنت تعرف تلك البيوت جيدًا! هل كنت تذهب معه قبل أن تعرفني؟».

قلت: «أنا أحبك كثيرًا». ووضعت يدي فوق يدها دون مبالاة للنادل الذي تعلق نظره بيدينا اللابستين خاتمي الخطوبة. «ولكن لا بد أن محمدًا يشعر بأنه لن يستطيع عيش حالة حب عميقة جيدة مع أي فتاة جيدة. ولهذا السبب هو مرتبك».

قالت سيبل: «آه، يا حرام. بسبب البنات الخائفات منه..».

«لو أنه لم يُخِف الفتيات أيضًا... الفتيات على حق... ماذا لو لم يتزوجن الرجل الذي يضاجعنه؟ ماذا ستفعل الفتاة إذا سارت نميمتها، وبقيت معلقة؟».

قالت سيبل بانتباه: «المرأة تفهم هذا».

«ما الذي تفهمه؟».

«ما إذا كانت ستثق بالرجل أم لا».

«ليس سهلًا إلى هذه الدرجة فهم هذا. كثيرٌ من الفتيات يصبن باليأس نتيجة عدم فهمهن هذا. أو أنهن يمارسن الحب، ولكن من دون متعة نتيجة الخوف... لا أدري إن كان هناك فتيات جريئات لا يشغلن بالهن بأي شيء. لو لم يكن محمد قد استمع لقصص الحرية الجنسية في أوربا وهو فاتح فمه، لما وضع في ذهنه أبدًا قضية ممارسة الحب قبل الزواج باسم الحداثة والحضارة. في هذه الحال يمكن أن يجد فتاة معقولة يرتبط معها بزواج سعيد. أما الآن، انظري! أنه يتلوى بجوار نورجيهان..».

قالت سيبل: «يعرف أن نورجيهان ضاجعت شابًا في أوربا... وهذا يجذبه ويخيفه في آن واحد... علينا أن نساعده».

كانت فرقة الأوراق الفضية تعزف مقطوعة «السعادة» من ألحانها. أثّرت شاعرية الموسيقى على قلبي. شعرت بعشقي لفسون بألم وسعادة، وشرحت لفسون بموقف أبوي بأن تركيا لا بد أن تصبح حديثة بعد مائة سنة، وحينئذ ستتخلص من قلق البكارة وحساب كلام الناس، وسيمارس الجميع الحب كما هو موعود في الجنة، وحتى ذلك الوقت سيبقى الناس يتلوون بألم العشق والجنس.

قالت خطيبتي الطيبة القلب الجميلة وهي تمسك يدي: «لا، لا! قريبًا سيكونان سعيدين مثلما نحن سعيدان اليوم. لأننا سنزوِّج نورجيهان ومحمد بالتأكيد».

«حسنٌ، ما الذي يجب أن نفعله؟».

«هل انزوى الخطيبان الجديدان في زاوية، وبدآ النميمة؟». كان هذا رجلا سمينا لا نعرفه. «هل يمكنني الجلوس يا سيد كمال؟». ودون انتظار جوابنا، سحب كرسيًّا قريبًا، وجلس بجانبنا. كان في الأربعين من عمره، على ياقته قرنفلة بيضاء، واندهن بعطر نسائي يدفع إلى الإغماء. «جلوس العريسين جانبًا هكذا، وتهامسهما يعكر صفو الحفل كله».

قلت: «لسنا عريسين بعد. لقد أعلنا خطوبتنا فقط».

«ولكن الجميع يقولون بأن هذه الخطوبة أفخم من أكثر الأعراس بهرجة يا سيد كمال. ما المكان الذي تفكرون فيه من أجل العرس غير الهيلتون؟».

«عدم المؤاخذة، مع من نتكلم؟».

«أصلًا، لا تؤاخذونا أنتم يا سيد كمال، الحق معكم. نحن الكتاب نعتقد أن الجميع يعرفوننا. اسمي ثريا صابر، لعلكم تعرفونني من زاويتي في جريدة أقشام (المساء) باسم «القرنفلة البيضاء»».

قالت سيبل: «آ، إسطنبول كلها تقرأ أخباركم حول شائعات المجتمع الراقي. كنت أعتقد أنكم امرأة، إنكم تعرفون جيدًا بشئون الأزياء والأناقة».

سألته في اللحظة نفسها بجهل: «من دعاكم؟».

«شكرًا جزيلًا يا آنسة سيبل. ولكن في أوربا أيضًا معروف أن الرجال رقيقو الروح يفهمون بالأزياء. سيد كمال، بحسب قانون الإعلام، لدينا نحن الصحفيين الحق بالدخول إلى الاجتماعات العامة شريطة إبراز بطاقة الصحافة هذه للمسئول. وبحسب القانون كل اجتماع تطبع له بطاقة دعوة يعتبر «عموميًّا». ولكنني على الرغم من هذا لم أذهب إلى حفل دون دعوة. ودعوتي إلى هذا الحفل الجميل وجهتها لي السيدة المحترمة والدتكم. ما تسمونه شائعات المجتمع الراقي، أي أخبار المجتمع الراقي تعطيها والدتكم أهمية باعتبارها امرأة راقية، لذلك فهي تدعوني إلى الاجتماعات التي تعدها. وهناك ثقة بيننا إلى درجة أنني عندما لا أجد فرصة للذهاب إلى حفل ما، أسمع وقائعه عبر الهاتف من والدتكم، وأكتبها كما تنقلها إلي بالضبط. لأن حضرة الوالدة مثلكم تمامًا، تنتبه إلى كل شيء، ولا تعطي أي معلومة خاطئة. ليس هناك أي خطأ في أخبار المجتمع الراقي التي أكتبها، ولا يمكن أن يكون هناك خطأ يا سيد كمال».

تمتمت سيبل بما يعنى: «فهمتم كمال بشكل خاطئ..».

«قبل قليل كان بعض سيئي النية يقولون إن الويسكي المهربة التي في إسطنبول كلها جاءت إلى هنا... بلدنا يعاني من أزمة قطع أجنبي، وليس لدينا قطعٌ لشراء المازوت الذي يُشغّل مصانعنا! البعض يكتب بغيرة وعداء للثروة «من أين تأتي المشروبات المهربة؟» محاولين التعكير على هذه الليلة الجميلة يا سيد كمال. إذا عاملتموهم معاملة سيئة كما فعلتم معي، صدقوني سيكتبون أسوأ من هذا... لا، أنا لا يمكن أن أحزنكم. سأنسى عبارتكم المزعجة هذه إلى ما لانهاية. لأن الصحافة التركية حرة. ولكن أرجوكم أن تجيبوا عن سؤالي بصدق».

«بالطبع يا سيد ثريا، تفضلوا».

«قبل قليل انغمستما بموضوع جميل جدًّا، وجاد جدًّا... أثير فضولي كثيرًا. بماذا كنتما تتكلمان؟».

قلت: «كنا نتساءل عما إذا كان المدعوون مسرورين من الطعام أم لا».

قال القرنفلة البيضاء: «آنسة سيبل، لك مني خبر جيد. زوجك المستقبلي لا يعرف كيف يكذب نهائيًّا!».

قالت سيبل: «كمال طيب القلب. الموضوع الذي كنا نتحدث فيه هو كم من شخص في هذا الزحام يعاني من هموم العشق والزواج، وحتى من هموم الجنس!».

قال كاتب الشائعات: «آآآ، نعم». نعم، استخدمت كلمة «جنس» التي بدأت تنتشر حديثًا، وتشكل مقدسًا. وصمتَ للحظة يفكر ما إن كان سيتخذ موقف من حصل على اعتراف يحمل صفة الفضيحة، أم تفهّم الآلام الإنسانية العميقة. قال فيما بعد: «بالطبع أنتما إنسانان حداثيان سعيدان تجاوزتما هذه الآلام». لم يقل هذا بسخرية، بل قاله براحة الخبرة بأن مداهنة الشخص المقابل له هي أفضل أساليب الخروج من الوضع الحرج. بدأ يستعرض الزحام كأنه يهتم له محاولًا استنتاج ابنة مَنْ تعشق ابن مَنْ عشقًا يائسًا، وأي فتاة «حرة زيادة» تَنبذها العائلات الجيدة، ولكن الشباب كلهم يسيل ريالهم عليها، وأي أم تأمل أن تعطي ابنتها لأي ابن غني ملاحق للنساء، وأي ابن عائلة تافه يعشق ابنة أي عائلة على الرغم من كونه قد طلب فتاة. وأنا أيضًا بدأت.أستمع بمتعة مثل سيبل، وانفعل القرنفلة البيضاء حين رأى هذا، وبدأ يشرح. عندما بدأ الرقص، وما إن قال بأن هذه السفالات كلها ستظهر واحدة تلو الأخرى، حتى جاءت أمي، وقالت ما فعلتماه عيب كبير، جلوسكما على طاولة على انفراد، وتهامسكما في الوقت الذي ينظر إلينا الضيوف جميعًا عمل خاطئ جدًّا، وأرسلتنا إلى طاولتنا.

فور جلوسي بجوار برين، بدأ خيال فسون يشع في داخلي بكل قوته مثل آلة كهربائية وصلت بمأخذ الكهرباء. ولكن أشعة الخيال هذه المرة لا تنثر القلق بل السعادة، ولا تنير الليلة فقط، بل مستقبلي كله. بدأت أتصرف كالرجال الذين يعتبرون مصدر السعادة وجود حبيبة سرية، ويمثلون دور السعيد بفضل عائلاتهم وأولادهم، وشعرت بوضوح للحظة بأنني تصرفت كأنني سعيد جدًّا بفضل سيبل.

بعد أن تحدثت والدتي قليلًا مع كاتب الشائعات، عرجت على طاولتنا. قالت: «أرجوكما، انتبها لهؤلاء الصحفيين. يكتبون كل أنواع الكذب، ويسيئون للناس. ثم يطلبون إعلانات أكثر من والدك تحت التهديد. هيا انهضا الآن، وافتتحا الرقص. الجميع ينتظركما». التفتتْ نحو سيبل: «الفرقة ستبدأ عزف الرقص. آه ما ألذك، وما أجملك!».

رقصتُ مع سيبل على أنغام التانغو التي عزفتها فرقة الأوراق الفضية. تحوَّل المدعوين جميعًا إلى عين واحدة تنظر إلينا بصمت، يمنح سعادتنا عمقًا مصطنعًا. وضعت سيبل ذراعها على كتفي وكأنها تلفني، وقرّبت رأسها كثيرًا من صدري كأننا في زاوية مظلمة من صالة رقص، وتقول لي عبارات ما أحيانًا وهي تبتسم، وبعد أن ندور قليلًا، ألقي نظرة من فوق كتفها إلى حيث تشير، مثلًا إلى نادل وقف حاملًا الصينية وهو يشاهد سعادتنا، وذرف والدتها عدة دمعات، وضحكة امرأة لفت شعرها بشكل عش الطائر، وإدارة محمد ونورجيهان ظهر كل منهما للآخر في غيابنا، وتناول المسن التسعيني غني الحرب (الحرب العالمية الأولى) الطعام بمساعدة خادمه الذي يضع ربطة عنق رفيعة، ولكنني لا أنظر نهائيًّا نحو الخلف حيث تجلس فسون. من الأفضل ألا ترانا فسون أثناء شرح سيبل لي ما تراه من فوق كتفي وهي تقول: «انظر إلى هذا، كيف تجد وضع فلان الفلاني؟».

فجأة انفجر التصفيق. ولم يستمر طويلًا، وتابعنا الرقص كأن شيئًا لم يكن. عدنا إلى طاولتنا عندما بدأ أزواج آخرون ينهضون إلى الرقص.

قالت برين: «كنتما جيدين جدًّا، وكل منكما مناسب جدًّا للآخر». أعتقد بأن فسون لم تكن بين الذين يرقصون بعد. كان عدم حدوث أي شيء بين نورجيهان ومحمد يحزن سيبل كثيرًا إلى درجة أنها طلبت مني أن أكلم محمدًا: «قل له ليتحرش بنورجيهان قليلًا». ولكنني لم أفعل شيئًا. تدخلت برين هامسة، وقالت هذا أمر لا يتم قسرًا، وهي تراقب الوضع جيدًا من حيث تجلس، وليس محمد فقط مغرورًا، بل والفتاة أيضًا مغرورة، كأنهما إذا لمسا سيكسران، ولا يمكن الإلحاح إذا لم يكن أحدهما مسرورًا من الآخر. قالت سيبل: «لا، لحفلات الخطوبة والأعراس سحرها أيضًا. كثير من المتزوجين تعارفوا في الأعراس. ولا تدخل الفتيات فقط الجو في الأعراس، بل الشباب أيضًا. ولكن يجب مساعدتهم..». انضم أخي إلى النقاش قائلًا: «بماذا تتكلمون، أخبروني أنا أيضًا». وشرح بطريقة المدرس بأن أسلوب الخاطبة قد انتهى، ولكن قلة الأمكنة التي تجمع الشباب والفتيات ليتعارفوا في تركيا تلقي عبئًا إضافيًّا على الموفّقين بين الشباب والفتيات، ثم التفت نحو نورجيهان كأن الموضوع لا يتعلق بهما، وسألها: «حضرتك لا تتزوجين بأسلوب الخاطبة، أليس كذلك؟».

قالت نورجيهان وهي تضحك بصوت خفيف: «إذا كان الشاب جيدًا، فليس مهمًّا كيف أقيمت العلاقة معه يا سيد عثمان».

أطلقنا جميعنا قهقهة كأننا سمعنا كلامًا فظًّا لا يمكن قوله إلا من باب المزاح. ولكن محمدًا امتقع وجهه بالحمرة، وهرب بعينيه.

قالت سيبل في أذني بعد ذلك: «هل ترى؟ خوفت الشاب. اعتقد أنها سخرت منه».

لم أكن أنظر نهائيًّا إلى الذين يرقصون. ولكنني أثناء تأسيس متحفنا، قال لي السيد أورهان باموق الذي التقيته بعد أعوام طويلة بأن فسون رقصت مع شخصين في تلك الأثناء. لم يكن يعرف الشخص الأول الذي رقصت معه، ولا يتذكره، ولكنني فهمت أنه كنان من صاطصاط. أما الثاني الذي دعا

فسون إلى الرقص فهو السيد أورهان نفسه الذي التقت عيناي بعينيه أثناء جلوسه على طاولة آل باموق. تحدث لي كاتب كتابنا هذا عن تلك الرقصة بعد خمسة وعشرين عامًا وعيناه تبرقان. القراء الذين يريدون معرفة ما شعر به السيد أورهان أثناء رقصه معها بلسانه، فالرجاء أن يقرءوا الفصل الأخير المعنون «السعادة».

في أثناء رقص السيد أورهان تلك الرقصة التي حدثني عنها بعد أعوام طويلة، وأؤمن أنه كان صادقًا، لم يحتمل محمد حديثنا حول العشق والزواج وأسلوب الخاطبة و«الحياة المعاصرة» المزدوجة المعاني، وضحك نورجيهان، فنهض، وغادر الطاولة. وتعكر مزاج الجميع فجأة.

قالت سيبل: «تصرفنا جميعًا بشكل معيب. لقد جرحنا قلب الشاب».

قالت نورجيهان: «لا تقولي هذا وأنت تنظرين إليّ. أنا لم أفعل أكثر مما فعلتموه. كلكم شربتم، وتتضاحكون باستمرار. محمد هو التعيس».

قالت سيبل: «هل تعاملينه بشكل جيد يا نورجيهان إذا أعاده كمال إلى الطاولة؟ أعرف أنك تستطيعين إسعاده كثيرًا. ولكنك يجب أن تتصرفي معه بشكل جيد».

سُرت نورجيهان من قول سيبل أمام الجميع بأنها تحاول أن توفّق بينهما. قالت: «لا ضرورة لأن نتزوج فورًا. لقد عرفني، ويمكنه أن يقول لي عبارتين حلوتين».

قالت سيبل: «يقول، ولكنه يجد صعوبة مع واحدة مثلك شخصيتها قوية». وهمست ببقية عبارتها بأذن نورجيهان وهي تضحك.

قال أخي: «هل تعرفون لماذا لا تتعلم الفتيات لدينا إغواء الشباب؟». واتخذ تعبير الوداعة الذي يظهر على وجهه عندما يشرب. «لأنه لا يوجد مكان يغوينهم فيه. وبالطبع ليس هناك كلمة إغواء».

قالت برين: «الإغواء بحسب قاموسك يعني اصطحابي إلى السينما بعد

ظهر أيام السبت قبل أن نعلن خطوبتنا... وكنت تجلب معك المذياع الصغير لتستمع إليه كل خمس دقائق لمعرفة نتيجة مباراة فنار بهتشة».

قال أخي: «في الحقيقة أنني كنت آخذ المذياع من أجل أن أؤثر عليك، وليس من أجل الاستماع للمباراة. كنت أباهي بأنني أول من جلب مذياع ترانسستور نقال في إسطنبول».

اعترفت نورجيهان أيضًا بأن والدتها كانت تفاخر بأنها أول من استخدم الخلاط في تركيا. قبل البدء ببيع عصير الطماطم المعلب في البقاليات بسنين طويلة، أي في أواخر الخمسينيات، كانت والدتها تقدم لضيوفها القادمين للعب البريدج عصير البندورة، والكرافث، والشمندر، والفجل، واعتادت أن تدعو نساء المجتمع الراقي اللواتي يحملن الكئوس الكريستالية المليئة بعصير الخضار والفواكه إلى المطبخ، وتريهم أول خلاط دخل تركيا. وهذا استذكر كيف انتشر هوس أول من استخدم آلات الحلاقة الكهربائية التي تصدر موسيقى، وسكاكين اللحم الكهربائية، وفتاحات علب الكونسروة الكهربائية وكثيرًا من الآلات العجيبة المخيفة بين الأوساط البورجوازية الإسطنبولية، وكيف أدمت أيديهم ووجوههم. وتحدثنا عن أجهزة التقاط الصوت التي جلبت من أوربا بكثير من الانفعال، وخربت بعد استخدامها مرة واحدة، وأجهزة تجفيف الشعر التي تحدث تماسًا في الكهرباء، وتقطعها، ومطاحن القهوة التي تخيف الخادمات، وآلات صنع المايونيز التي ليس لها قطع تبديل في تركيا، وبقيت في إحدى زوايا البيت لأن أحدًا لم تطاوعه نفسه لرميها، ونسيت. وفيما كنا نتضاحك، جلس زعيم «يليق بكم كل شيء» على الكرسي الذي أفرغه محمد بجانب نورجيهان، وبدأ حديثًا بكل اندفاع من دون أن يضيع الوقت، ورأينا أنه همس عدة مرات بأذن نورجيهان، وأضحكها قهقهة.

سألت سيبل زعيمًا: «ماذا حدث لعارضتك الألمانية؟ هل تركتها فورًا؟».

قـال زعيم من دون أن يفقد مرحه: «لـم تكن إنغة حبيبتي، لقد عادت إلى ألمانيـا. كانـت علاقتنا علاقة عمل فقط، وكنت أصطحبها في السـهرات من أجل أن أعرّفها على ليالي إسطنبول».

قالت سيبل العبارة القالبية المستخدمة كثيرًا في صحافة المنوعات: «أي أنكما كنتما صديقين فقط».

قالت برين: «رأيت الفتاة في السينما اليوم. ظهرت في الإعلان، وشربت المياه الغازية، وضحكت بشكل ممتع». والتفتت إلى زوجها: «عندما قطعت الكهرباء عند مصفف الشعر، خرجت، وذهبت إلى سينما «سيتة»، وشاهدت صوفيـا لوريـن وجيـن غابين». التفتـت نحو زعيـم: «أرى إعلاناتهـا في كل مكان، وكل البوفيهات، وأصبح الجميع يشربون المياه الغازية وليس الأولاد فقط. أهنئك..».

قال زعيم: «اخترنا زمنًا جيدًا، ونحن محظوظون أيضًا».

رأيـت نظرة نورجيهان المتسـائلة، ولأنني شـعرت بأن زعيمًـا انتظر هذا مني، فشرحت باختصار أن صديقي صاحب شركة شكطاش منتجة مياه ملتم الغازيـة، وهو الذي عرفنا على العارضة الألمانية إنغة التي نراها في إعلانات المدينة كلها.

سألها زعيم: «هل وجدت فرصة تذوق المياه الغازية بالفواكه؟».

قالـت نورجيهان: «طبعًا، وأحب بشـكل خاص تلك التـي بالفراولة. لم يستطع الفرنسيون عمل شيء كهذا طوال هذه السنوات».

سـألها زعيم: «هل كنت مقيمة في فرنسـا؟». ثم دعانا لزيارة المصنع في نهاية الأسبوع، ونزهة في البوسفور، وطعام في غابة بلغراد. كان كل من على الطاولة يراقبه هو ونورجيهان. بعد فترة قصيرة، نهضا إلى الرقص.

قالت سيبل: «اذهب، وجد محمدًا لكي ينقذ نورجيهان من زعيم».

«هل نرى ما إذا كانت نورجيهان تريد الإنقاذ؟».

«لا أريـد لصديقتي أن تكـون طعمًا لتقليد كازنوفا هـذا الذي لا يفكر إلا بإلقاء الفتيات إلى السرير».

«زعيـم طيـب القلـب، وصـادق، ولديه ضعف أمام النسـاء فقـط. ثم ألا يمكـن لنورجيهـان أن تعيش هنا مغامـرة كتلك المغامرات التي عاشـتها في فرنسا؟ هل الزواج ضروري؟».

قالت سيبل: «الرجال الفرنسيون لا يهينون المرأة لأنهم يضاجعونها قبل الزواج. أما هنا فتفضح. الأهم من هذا، لا أريد أن يُجرح قلب محمد».

«أنـا أيضًـا لا أريد هـذا. ولكنني لا أريـد أن يتعكر حفـل خطوبتنا بهذه المشاكل».

قالت سـيبل: «أنت لا تسـتمتع بالجانب المـرح للتوفيق بيـن اثنين. فكر بأنهما إذا تزوجا سيكونان صديقينا طوال العمر».

«لا أعتقـد بأن محمدًا يسـتطيع أخذ نورجيهان من يـد زعيم هذه الليلة. إنه يخاف من التنافس مع الشباب الآخرين في الحفلات والدعوات».

«أنت كلمه، وقل له ألا يخاف. أنا أعده بأن أقنع نورجيهان. ولكن اذهب، واجلبه فورًا». عندما رأتني أنهض، ابتسمت بشكل لذيذ، وقالت: «أنت وسيم جدًّا. احذر من التلهي مع الآخرين، وعد بسرعة، وقومني إلى الرقص».

فكـرت أننـي يمكـن أن أرى فسـون. فـي أثنـاء بحثـي عـن محمـد على الطـاولات واحـدة واحـدة وسـط صخـب الزحـام وقهقهاته، كنـت أصافح كثيـرًا من الأشـخاص. ومثلما كانـت صديقات أمي يصبغن شـعرهن باللون الخرنوبي الفاتح نفسه عندما كن يأتين للعب الورق كل يوم أربعاء بعد الظهر دون اتفـاق بينهـن، يلوحن لي الثلاثة مع أزواجهن في اللحظة نفسـها كأنهن متفقات فيمـا بينهن، وينادين كما لو أنهن ينادين طفـلًا: «كمااااال!». صديق والدي المستورد الذي دخل الصحافة باسم «التاجر الذي أسقط الوزير» بعد عشـرة أعوام عندما طلب منه وزير الجمارك رشـوة ضخمة جدًّا، وقدم له في علبة بقلاوة كبيرة رزم الدولارات، ودخل معه بحديث ودي سـجله بواسـطة

مسجلة مثبتة بشاش ضماد ماركة «غازو»، وقدمه للرأي العام، تدخل صورته إلـى ذاكرتي بالسموكن الأبيض وأزرار القميص الذهبية وأظافره المشذبة، ورائحة عطره التي لا تخرج من يدي التي يصافحها نهائيًّا. تبدو بعض الوجوه مألوفة جدًّا مثل الوجوه التي تقصها والدتي، وتلصقها على الألبوم، وأشعر بأنها قريبة، وفي الوقت نفسه لا أستنتج هذه زوجة من أو أخت من، وهذا يقلقني بشكل غريب.

في تلك الأثناء بالضبط قالت امرأة لذيذة متوسطة العمر: «هل تذكر أنك عرضت عليّ الزواج وأنت في السادسة من عمرك يا عزيزي كمال؟». لم أتذكر من هي حتى رأيت ابنتها الفاتنة البالغة الثامنة عشرة من عمرها. قلت للابنة الصغرى لابنة خالة والدتي الكبرى: «آآ، الخالة ميرال، ابنتك صارت كأنها أنت!». عندما قالت الأم بنبرة الاعتذار بأنهما مضطرتان للنهوض باكرًا لأن ابنتها ستدخل امتحان الدخول إلى الجامعة غدًا، فكرت بأن فرق العمر بيني وبين هذه المرأة الممتعة وبيني وبين هذه الفتاة الجميلة اثنتا عشرة سنة بالضبط، ووجدت نفسي أنظر نحو تلك الجهة، ولكنني لم أر فسون على منصة الرقص ولا على الطاولات الخلفية، وكان المكان مزدحمًا جدًّا. اشتريت صورة تظهر في تلك اللحظة يدي فقط، وليس وجهي، ويظهر فيها صديق والدي أيام الشباب الذي يعمل في التأمين «الثقة تغرق السفينة». من صاحب مجموعات حصل على صور الدعوات والأعراس التي أقيمت في الهيلتون، وكومها في بيته الشبيه بالمزبلة. سأصافح السيد المصرفي المحترم الذي يظهر في خلفية الصورة الملتقطة بعد ثلاث ثوانٍ، وعند معرفتي بأنه من معارف والد سيبل، وسأتذكر مندهشًا أنني كلما ذهبت إلى مخزن هاورودز في لندن (مرتين) وأنا أفكر بالسيد المصرفي المحترم، أراه وهو يختار بزة داكنة اللون.

في أثناء مسيري بين الطاولات أجلس مع المدعوين، وألتقط معهم صورًا تذكارية، وأرى كم هناك من السمراوات اللواتي يصبغن شعرهن بالأصفر، وكم هناك رجال أغنياء واثقون من أنفسهم، وكم هناك ربطات

عنق وساعات وأحذية عالية الكعب وأساور متشابهة، وتكاد سوالف وشوارب الرجال تكون نموذجًا واحدًا، وأنتبه إلى أن لي معرفة وذكريات مشتركة مع كل هؤلاء الناس، وأشعر بالتأكيد بالحياة المدهشة التي أمامي، وليلة الصيف المحملة برائحة الميموزا. تبادلنا القبل من الخدين مع أول ملكة جمال أوربا تركية، وبعد زواجين فاشلين، وتجاوزها الأربعين من عمرها أعطت نفسها لجمع التبرعات من حفلات الجمعيات الخيرية الراقصة للفقراء والأيتام (كانت أمي تقول: «أي مثالية هذه يا عزيزي، إنها تقبض نسبة»). تحدثتُ مع السيدة المحترمة التي تحضر الاجتماعات العائلية دائمًا باكية بعد مقتل زوجها صاحب السفن إثر إصابته برصاصة في عينه نتيجة خلاف عائلي. صافحتُ يد جلال صاليك الناعمة (أعرض له إحدى زواياه) وهو كاتب الزاوية الأحب والأغرب والأجرأ في تركيا بصدق واحترام. جلست إلى إحدى الطاولات مع ابني المرحوم جودت بيك أول تاجر مسلم غني في إسطنبول وابنته وأحفاده، والتقطت معهم صورة. ودخلتُ بِرهان مع مدعوي سبيل الجالسين على طاولة أخرى حول نهاية مسلسل «الهارب» (الدكتور كيمبل ملاحق بسبب جريمة لم يرتكبها، وهو يهرب بشكل دائم لأنه لم يستطع إثبات براءته، ويهرب، ويهرب) الذي سينتهي يوم الأربعاء.

في النهاية وجدت محمدًا مع طيفون زميلنا الآخر من روبرت كليج جالسين على كرسيين جانبيين من كراسي البار، ويشربان العرق.

قال طيفون عندما رآني أجلس: «أوه، كل العرسان هنا..». عبرت وجوهنا نحن الثلاثة ابتسامة مليئة بالشوق بفضلِ ذكرياتنا السعيدة التي تثيرها كلمة «العرسان»، وليس نتيجة تقابلنا بعد كل هذا الزمن فقط. كنا نذهب نحن الثلاثة بالمرسيدس التي يعطيها لطيفون والده من أجل أن يذهب إلى المدرسة في فرصة الظهيرة عندما كان في الصف الأخير من الثانوية إلى بيت دعارة غاية في الفخامة هو قصر باشا قديم على سفوح منطقة أميرغان، وكنا نضاجع الفتيات الجميلات والمرحات أنفسهن في

كل مـرة. كانت الفتيات يطلبن منا مبلغًـا أقل بكثير مما يقبضنه من المرابين المسـنين والتجار السـكارى، وخرجنا معهن عدة مرات بنزهات بالسيارة، وارتبطنا بهن بعاطفة قوية كنا نحاول إخفاءها. كانت العاهرة السابقة الرفيعة المستوى صاحبة بيت الدعارة تعاملنا معاملة راقية جدًّا كأننا نتقابل في حفل راقـص للطبقـة الراقية في النادي الكبيـر في الجزيرة الكبيـرة. ولكنها كلما رأتنا بسـترات المدرسـة وربطات العنق في البهو الـذي تجلس فيه الفتيات بالمني جيب، ويقرأن الروايات المصورة بانتظار الزبائن مساء، تطلق قهقهة من قلبها، وتنادي: «يا بنات، جاء العرسان طلاب المدرسة». بدأت من هذه الذكريـات لمعرفتي بأنهـا تمتع محمدًا. ذكرتهما بمـرة ذهبنا فيها، وغطَطنا بالنـوم بعد ممارسـة الجنس في غرفة دافئة بأشـعة شـمس الظهيـرة في يوم ربيعـي، ففوّتنا الدرس الأول بعد الظهر، وعندما سـألتنا مدرّسـة الجغرافية العجـوز المحترمة التي دخلنا درسـها التالي في منتصفه عن سـبب تأخرنا، قلنا لها: «درسنا علم أحياء». وبعدئذ أصبحت عبارة «دراسة الأحياء» تعني فيمـا بيننـا: «الذهاب إلـى بيت الدعـارة». وتذكرنا أن أسـماء فتيات القصر القديـم المكتـوب عليه «فندق ومطعم الهلال» مسـتعارة مـن عالـم النبات: تشتشـك (زهرة)، يبـرق (ورقة)، دفنة (غار)، غـول (وردة). ودخلنا بثرثرة لذيذة فارغة حول هذا الأمر. ذهبنا ذات مرة إلى القصر بزيارة ليلية، ولحظة دخولنـا إلى الغرف مع الفتيات جاء غني مشـهور بصحبة شـركائه الألمان، وقرعـت أبـواب غرفنـا، وأنزلونا على عجـل من أجل تقديم رقص شـرقي للضيـوف الأجانب. فيما بعد، سـمحوا لنا من بـاب الترضية أن نجلس إلى طاولة في زاوية متطرفة من المطعم لنتفرج على الرقص الشـرقي. وتحدثنا حول فرجتنا بسعادة على رقص الفتيات بألبسة الرقص الشرقي اللامعة ذات البـرق، إذ كنّ يرقصن لنا أكثر من رقصهن لأولئك التجار مدركات عشـقنا لهن، وعن إدراكنا أننا لن ننسـى ما عشـناه في حياتنا كلها. عندما كنت أعود إلى إسـطنبول في الصيف من أمريكا، كان محمد وطيفون يريانني الغرائب التـي يريانها فـي بيوت الدعارة هذه التي تأخذ أشـكالًا جديدة مع كل مدير

أمن جديد. هناك على سبيل المثال بناء رومي قديم بسبعة طوابق في شارع سيرسلفيلر، وكلما داهمت الشرطة طابقًا، وختمته بالشمع الأحمر، تستقبل الفتيات المعجبين بهن في طابق آخر فيه المفروشات والمرايا نفسها... هناك قصر في أحد أزقة نيشان طاش الخلفية يطرد الحراس الواقفين على بابه الضيوف والفضوليين عندما يقررون أنهم ليسوا أغنياء كفاية. قبل اثني عشر عامًا كانت شيرمين الفاخرة التي رأيتها داخلة إلى الفندق قبل قليل تقود سيارة بلايموث ذات ذيل موديل ١٩٦٢، وتخرج مساء إلى نواحي فندق بارك، وساحة تقسيم، وفندق ديوان، وتدور قليلًا، وتتوقف قليلًا، وتنتظر زبائن لفتاتين أو ثلاثة غاية في النظافة والأناقة. وإذا كان هناك اتصال هاتفي مسبق، تقوم «بخدمة التوصيل إلى البيوت». يُفهم من كلمات صديقي الطافحة بالتوق أنهما يعيشان سعادة أكبر بكثير مما يمكن أن تقدمه الفتيات «الطبيعيات» اللواتي يرتجفن خوفًا على البكارة و«الشرف».

لم أر فسون جالسة إلى الطاولة، ولكن والدها ووالدتها جالسان، لم يذهبا بعد. طلبت كأس عرق آخر، وسألت محمدًا عن آخر «البيوت» والتحديثات. قال لي طيفون ساخرًا إنه يمكن أن يعطيني عناوين بيوت الدعارة الحديثة والفخمة، ثم قدم لي غاضبًا قائمة بأعضاء مجلس النواب المشاهير الذين قبضت عليهم شرطة الأخلاق، ومعارفه المتزوجين الذين ينظرون إلى الخارج عبر النافذة في غرفة الانتظار لكي لا تلتقي أعينهم بعينيه، ومن السياسيين الباشا مرشح رئاسة الحكومة السبعيني الذي مات بين ذراعي فتاة شركسية في العشرين من عمرها على سرير غرفة نوم تطل على البوسفور، وعلى الرغم من ذلك أعلن أنه توفي بين ذراعي زوجته في بيته. كانت موسيقى لذيذة وناعمة طافحة بالذكريات تعزف، ورأيت أن محمدًا لا يريد أن يستخدم نبرة طيفون الظالمة والغاضبة. ذكرته بأن نورجيهان عادت إلى تركيا من أجل أن تتزوج، وأضفتُ أنها أخبرت سيبل بأنها معجبة به.

قال محمد: «إنها ترقص مع بائع المياه الغازية زعيم».

قلت من دون أن أنظر إلى ذلك الطرف: «من أجل أن تثير غيرتك».

بعـد أن تدلل محمـد قليلًا، قال لي بصدق إنه يجد نورجيهان لذيذة جدًّا، وإذا كانت «جدية حقيقة»، فسيجلس بجانبها، ويقول لها كلمات حلوة، وإذا تم هذا الأمر فسيبقى شاكرًا لي طوال حياته.

«لماذا لم تتصرف مع الفتاة بشكل جيد منذ البداية إذًا؟».

«لا أعرف، لم أستطع».

«تعال، لنعد إلى الطاولة لكي لا يجلس أحد مكانك».

فـي أثنـاء عودتي إلـى الطاولـة وأنـا أتبـادل التحيـة والقبل مـع كثير من الأشـخاص، ألقيـت نظـرة إلى منصـة الرقص لأرى فـي أي مرحلـة يرقص زعيم مع نورجيهان، فرأيت فسون ترقص... مع الشاب الوسيم كنان موظف صاطصـاط الجديد. كان جسـداهما متقاربين كثيرًا... انتشـر ألـم في بطني. جلست إلى الطاولة.

قالت سيبل: «ماذا حدث؟ ألم يتم؟ لم تعد نورجيهان تقبل. لأنها داخت بزعيم. انظر كيف يرقصان. لا تحزن».

«لا، لست حزينا، محمد موافق».

«لماذا أنت عابس إذًا؟».

«لستُ عابسًا».

قالت سيبل باسمة: «يبدو عليك بوضوح شديد أن مزاجك قد تعكر. ماذا هنالك؟ حسنٌ، لا تشرب أكثر بعد الآن».

عندما انتهت المقطوعة المعزوفة، بدأت مقطوعة أخرى مباشـرة. كانت هـذه أبطـأ وأكثر شـاعرية. خيّم صمـت طويل، وطويـل جدًّا علـى المائدة، وشـعرتُ بـأن سـائل الغيرة الذي يبـث الألـم بـدأ يختلط بدمـي. ولكنني لا أريد أن أقبل بأنني أشـعر بهذا. أستطيع أن أسـتنتج من نظرات الجد والغيرة الخفيفـة التي تظهر على وجوه المتفرجيـن على منصة الرقص أن الراقصين

اندسـوا بعضهـم ببعض أكثر. لـم نكن أحمـد أو أنا ننظر إلى الراقصين نهائيًّا. قال أخي شـيئًا ما، ولا أذكر بعد هذه السـنوات الطويلة ما قاله، ولكنني أذكر بأنني حاولت الدخول إلى الموضوع وكأنه مهم جدًّا. عندما بدأت مقطوعة موسـيقية أبطـأ وأكثـر «شـاعرية»، لـم ينظر أخي فقـط بطرف عينـه إلى لف الراقصين بعضهم بعضًا، بل ونظرت برين وسيبل والجميع. لم أكن أستطيع استجماع أي شيء في عقلي.

قلت لسيبل: «ماذا تقولين؟».

«نعم؟ لم أقل شيئًا. هل أنت بخير؟».

«هل أرسل ملاحظة «لأوراق الفضة» لكي يوقفوا الموسيقى قليلًا؟».

قالت سـيبل «لمـاذا؟ آ، دع الضيوف يرقصون. انظـر، حتى الأكثر خجلًا أنهضـوا الفتيات اللواتـي وضعوا أعينهـم عليهن إلى الرقـص. صدقني، في النهاية نصفهم سيتزوجون هذه الفتيات».

لـم أنظر. ولـم تلتق نظراتي بنظرات محمد.

قالت سيبل: «انظر، إنهما قادمان».

تسـرعت ضربـات قلبي لأننـي اعتقدت للحظـة أن القادمين هما فسـون وكنـان. إنهما نورجيهان وزعيم، تـركا الرقص، وعادا إلى الطاولة. بقي قلبي يخفق بقوة. قفزتُ من مكاني، وتأبطتُ زعيمًا من ذراعه.

قلت له: «تعال لأقدم لك مشروبًا خاصًّا في البار». واصطحبته إلى هناك. في أثناء مروري وسـط الزحام عانقت كثيرًا من الأشـخاص، وتبادلنا القبل، ومـازح زعيم فتاتين اهتمتا بـه. فهمت من نظرات الفتـاة الثانية الطويلة ذات الشعر الأسـود والأنف المقوس العثماني اليائسـة أنها التي دارت الشائعات حول عشقها الكبير لزعيم، وحتى محاولتها الانتحار لهذا السبب.

قلـت له فور جلوسـنا إلى البـار: «كل الفتيات يدخن إعجابًا بك، ما سر هذا الأمر؟».

«صدقني أنني لا أفعل شيئًا خاصًّا».

«ألم يحدث شيء خاص مع العارضة الألمانية أيضًا؟».

ابتسم زعيم ببرود موحيًا بأنه يحفظ السر، ثم قال: «أنا لست مسرورًا جدًّا من سمعة ملاحقتي للنساء. في الحقيقة أنني أريد أن أتزوج فيما لو وجدت فتاة مذهلة مثل سيبل. أهنئك عليها. سيبل حقيقة فتاة كاملة. والسعادة ظاهرة على عينيك».

«لست سعيدًا كل هذا الآن. أردت أن أفتح معك هذا الموضوع. ستساعدني أليس كذلك؟».

نظر إلى بؤبؤ عيني، وقال: «أنا أفعل أي شيء من أجلك، تعرف هذا. ثق بي، واحك لي فورًا».

أثناء تحضير البارمان عرقنا، نظرتُ إلى منصة الرقص: هل كانت فسون تسند رأسها على كتف كنان بجو الموسيقى الشاعرية؟ كانت تلك الزاوية من منصة الرقص مظلمة، ومهما ضغطتُ على نفسي لا أستطيع الفرجة دون أن أتألم.

قلت وأنا أنظر إلى المنصة: «هناك فتاة تربطني بها قرابة بعيدة من طرف أمي. اسمها فسون».

«التي شاركت بمسابقة ملكة الجمال؟ إنها ترقص الآن».

«كيف تعرف؟».

قال زعيم: «إنها جميلة جدًّا. دائمًا أراها أثناء مروري من أمام ذلك البوتيك في نيشان طاش. أبطئ السير، وأنظر مثل الجميع. لديها جمال لا يخرج من البال. والجميع يعرف هذا».

وخشية من قول زعيم شيئًا خاطئًا، قلت: «إنها حبيبتي». رأيتُ غيرة خفيفة على وجه صديقي. «رقصها مع شخص آخر الآن يؤلمني. يبدو أنني

أعشقها بشكل فظيع. أعتقد أنني لا أستطيع الخروج من هذا الوضع السيئ، وفي الحقيقة أنني لا أريد أن يستمر هذا الأمر مدة طويلة».

قال زعيم: «نعم، الفتاة مذهلة، ولكن الوضع سيئ. ولا يمكن أن يستمر وضع كهذا فترة طويلة أصلًا».

لم أسأله عن سبب عدم استمراره فترة طويلة. لم أتوقف كثيرًا حول ما إذا كانت هناك لمحة استخفاف وغيرة على وجه زعيم. ولكنني فهمت أنني لن أستطيع البوح له فورًا بما أريد. أردته بداية أن يشعر بعمق ما أعيشه مع فسون، وصدقه، وأن يحترمه. ولكنني كنت سكرانًا، وبعد أن بدأت بشرح شعوري نحو فسون بقليل، أدركت أنني لا أستطيع أن أشرح سوى الجانب العادي مما عشته، وإذا بدأت بشرح الجانب العاطفي، يمكن أن يعتبرني زعيم ضعيفًا، وحتى مضحكًا، والأكثر من هذا سيعيّرني على الرغم من مغامراته كلها. الأمر الذي أتوقعه من صديقي أصلًا ليس معرفته صدق مشاعري، بل إدراكه كم أنا محظوظ وسعيد. أثناء قصي هذه القصة بعد سنين طويلة أرى أنني لم أكن أريده أن ينتبه إلى ذلك التوق بوضوح أشد، وهكذا أثناء فرجتنا على فسون وهي ترقص، كنت أشرح له ما عشته بعقل مخمور. أنظر أحيانًا إلى وجه زعيم بانتباه للحظة، وأرى ملامح الغيرة، وأحاول أن أقنع نفسي بأنني أنتظر منه تفهمًا، وليس غيرة، وأشرح له أنني أول رجل ضاجع فسون في حياتها، وسعادتنا بممارسة الحب، وشجار عشقنا، وبعض سلوكياتي الغريبة التي خطرت ببالي. قلت له بإلهام: «باختصار، أكثر ما أريده في هذه الحياة هو عدم فقداني هذه الفتاة».

«مفهوم».

أراحني قبوله عشقي برجولة دون صفعي بأنانيتي، ودون محاكمة سعادتي بالعشق.

«ما يثير همومي أن الشاب الذي تراقصه الفتاة الآن هو الشاب المجدّ كنان الذي يعمل لدي في صاطصاط. إنها تعبث بعقل الشاب لكي تثير غيرتي...

وبالطبع أخشى أن يأخذ الأمر مأخذ جد. في الحقيقة أن كنان يمكن أن يكون زوجًا مثاليًا لها».

قال زعيم: «مفهوم».

«بعد قليل سأدعو كنان إلى طاولة والدي، وما أريده منك أن تذهب فورًا، وتنشغل بفسون، و«ملاحقتها» عن قرب مثل لاعب كرة قدم جيد لكي لا أموت من الغيرة، ولأنهي هذه الليلة السعيدة دون مشكلة، ودون أن تسيطر عليّ أحلام طرد كنان من العمل. أصلًا سينتهي هذا العشق المستحيل قريبًا».

قال زعيم: «لا أدري إن كانت فتاتك تهتم بي هذه الليلة، ولكن هناك مشكلة أخرى».

«ما هي؟».

قال زعيم: «كما ترى، فإن سيبل تحاول إبعادي عن نورجيهان. إنها تجدها مناسبة لمحمد. ولكن نورجيهان أعجبت بي على الأغلب. وأنا أيضًا أعجبت بها كثيرًا. وأنا أريد مساعدتك في هذا الموضوع. محمد صديقنا، ليكن تنافسنا شريفًا».

«ماذا نفعل؟».

«لا يمكنني أن أطوّر الأمر الليلة بوجود سيبل ومحمد، ولكنني لن أتمكن من الاهتمام بنورجيهان بسبب فتاتك. وأنت ستسد هذه الثغرة. عدني الآن بأن تصطحبا نورجيهان إلى زيارة المصنع والنزهة يوم الأحد القادم».

«حسنٌ، أعدك».

«لماذا تريد سيبل أن تبعدني عن نورجيهان؟».

«إنها لا تحب ملاحقتك للنساء، والعارضات الألمانيات والراقصات، وأمور من هذا القبيل. ستزوج صديقتها من شخص تثق به».

«رجائي أن تشرح لسيبل أنني لست سيئًا».

قلت وأنا أنهض: «أنا أشرح لها أصلًا». خيّم صمت، ثم قلت: «أشكرك على تضحيتك. ولكن عليك أن تنتبه وأنت تهتم بفسون، احذر أن تنجرف بالأمر. لأنها لذيذة جدًّا».

رأيت تعبير تفهم على وجه زعيم جعلني لا أخجل من غيرتي، وارتاح قلبي وإن كان لفترة قصيرة.

في أثناء عودتي، جلستُ إلى طاولة أمي. قلت لوالدي الواصلة متعته إلى الذروة بتأثير العرق إنني سأعرفه على كنان الموظف الشاب الأذكى والأكثر جدًّا على طاولة صاطصاط. كتبتُ ملاحظة باسم أبي لكي لا يغير الجالسون على طاولة صاطصاط البعيدة، وأعطيتها للنادل محمد علي الذي يعرفنا منذ افتتاح الفندق، وطلبتُ منه أن يوصلها إلى كنان عند استراحة الرقص. في هذه الأثناء انسفح العرق على ربطة عنق والدي عندما حاول الشرب، ومدت أمي يدها، وأمسكته، وقالت: «لا تشرب أكثر، كفى». عندما أعطيت فرصة من موسيقى الرقص، كانت مثلجات توضع في كئوس أمامنا. أرى مشاهد فتات الخبز، والكئوس التي على حوافها حمرة الشفاه، والمناديل المبقعة، ومنفضات السجائر المليئة، والقداحات، والأطباق الفارغة القذرة، وعلب السجائر المجعلكة من مشاهد عقلي المعكرة، وأشعر بألم أن السهرة شارفت على نهايتها. كنا في ذلك الوقت نشرب سجائر بسعادة قبل كل طبق جديد. ذات لحظة صعد إلى حضني صبي في السادسة أو السابعة من عمره، وهرعت سيبل، وجلست بجانبي بذريعة الولد، وبدأت تلعب معه. عندما نظرت أمي إلى الولد في حضن سيبل، وقالت: «لاق بكِ كثيرًا». كان الرقص مستمرًّا. بعد قليل جلس الشاب الوسيم كنان إلى طاولتنا وهو غاية في الأناقة الملفتة، وحكى عن الشرف العظيم الذي حظي به بالتعارف على وزير الخارجية الأسبق الذي على وشك النهوض، وعلى والدي. بعد ذهاب الوزير متمايلًا، قلت إن السيد كنان يعرف جيدًا موضوع الانفتاح على الريف وبخاصة موضوع إزمير، ومدحته طويلًا بحيث يسمع والدي

والجميع. بدأ والدي يسأله الأسئلة التي يسألها لكل «موظف» جديد أقبله في الشركة. «أيّ لغة أجنبية تعرف يا بني؛ هل تقرأ الكتب؛ هل لديك هوايات؛ هل أنت متزوج؟». قالت والدتي: «ليس متزوجًا. كان قبل قليل يرقص بشكل جميل جدًّا مع فسون ابنة نسيبة».، قال والدي: «ما شاء الله صارت هذه الفتاة جميلة جدًّا». قالت أمي: «يُخشى أن يتحدث الأب والابن عن العمل، ويضايقانك. أنت الآن تفكر باللهو مع أصدقائك الشباب». «لا يا سيدتي، شرف معرفتكم ومعرفة السيد ممتاز أهم من كل شيء». همست والدتي: «إنه شاب مهذب جدًّا ورقيق جدًّا. هل أدعوه ذات مساء؟».

ولكن والدتي همست بصوت يسمعه كنان. عندما تمتدح أمي أحدًا وتقدره، تقول هذا كأنها تسمعنا فقط، ولكنها تريد أن يسمع الشخص هذا المديح، وتعتبر خجل الشخص إزاء هذا الأمر قوة لها، وتبتسم. أثناء ابتسام أمي بدأت «الأوراق الفضية» بعزف مقطوعة بطيئة وشاعرية. رأيت زعيمًا يُنهض فسون إلى الرقص. قلت: «لنتحدث بموضوع صاطصاط والريف هنا بوجود والدي». قالت والدتي: «وهل ستتكلم بالعمل في حفل خطوبتك يا بني؟». قال كنان لوالدتي: «يا سيدتي، لعلكم لا تعرفون هذا، ولكن ابنكم يبقى في الشركة بعد انصراف الموظفين، ويعمل حتى ساعة متأخرة لثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع». أضفت: «أحيانًا أستمر بالعمل مع كنان». قال كنان: «نعم، أحيانًا نستمتع كثيرًا السيد كمال وأنا». «نعمل حتى الصباح أحيانًا، ونركب جملًا مقفاة لأسماء المدينين». قال والدي: «ماذا تفعلون بالشيكات التي لا تُدفع؟» قلت: «أريد أن أكلم موظفي صاطصاط ووكلاءنا حولها يا والدي العزيز».

أثناء عزف الفرقة مقطوعات بطيئة وشاعرية تحدثنا حول التحديث الذي سنجريه في صاطصاط، وأماكن اللهو في بيه أوغلو عندما كان والدي بعمر كنان، وأساليب السيد إسحاق أول محاسب عَمِلَ مع والدي ويرفع الآن القدح مع الجالسين معه على الطاولة، وجمال السهرة والشباب

بحسب تعبير والدي، و«العشق» الذي أدخله والدي إلى الحديث ممازحًا. على الرغم من أسئلة والدي الملحة، لم يبح كنان بما إذا كان عاشقًا أم لا. استدرجت والدتي كنان بالحديث حول عائلته، وعندما علمت أن والده موظف في البلدية، وعمل سائقًا لترامواي لسنوات طويلة، قالت: «آه، ما أجمل الترامويات القديمة يا أولادا!».

غادر أكثر من نصف الضيوف. كانت عينا والدي تُغمضان أحيانًا.

عند تقبيل والدي ووالدتي لنا فردًا فردا، ومغادرتهما قالت أمي وهي تنظر إلى عيني سيبل وليس إلي: «لا تتأخروا كثيرًا أنتما أيضًا يا بني».

أراد كنان أن يعود إلى طاولة زملائه في صاطصاط، ولكنني لم أدعه. قلت: «لنتحدث مع أخي أيضًا بموضوع فتح دكان في إزمير. لا نجتمع نحن الثلاثة بسهولة».

عندما أردت أن أعرّف أخي بكنان على طاولتنا (يعرف أحدهما الآخر منذ زمن طويل)، رفع أخي حاجبه الأيسر إلى الأعلى ساخرًا، وقال إنني ثملت زيادة. ثم تبادلت برين وسيبل إشارة العيون والحواجب، وأشارتا إلى الكأس التي بيدي. نعم، في تلك الأثناء شربت كأسي عرق بسرعة. لأنني كلما وقعت عيني على رقص فسون وزعيم، يسيطر عليّ شعور عبثي بالغيرة، ويتحسن وضعي. لأن غيرتي منهما أمر عبثي. ولكن في أثناء شرح أخي لكنان صعوبة عملية التحصيل، كان كل من حول طاولتنا بما في ذلك كنان يشاهد رقص زعيم وفسون. وحتى نورجيهان الجالسة وظهرها لهما شعرت بأن زعيمًا يهتم بواحدة ثانية، وقلقت. قلت لنفسي ذات لحظة: «أنا سعيد». على الرغم من سكري كله، أشعر بأن كل شيء يسير كما أريد. رأيتُ على وجه كنان قلقًا يشبه القلق الذي على وجهي، فأحضرتُ لصديقي الغر والطموح الذي فقد الفتاة الرائعة التي كانت بين يديه قبل قليل نتيجة اندماجه باهتمام رب عمله به، عرقًا بكأس طويلة ورفيعة ـ مثلي بالضبط ـ ووضعتها أمامه. في النهاية تمكن محمد من دعوة نورجيهان إلى

الرقص، والتفتت إليّ سيبل فرحة، وغمزتني. بعد ذلك قالت بشكل لذيذ: «يكفي يا روحي، لا تشرب بعد هذا».

جرفتني هذه اللذة، وأنهضتُ سيبل إلى الرقص. فور دخولنا وسط الزحام الراقص، فهمت إلى أي مدى كنت مخطئًا بهذا الأمر. مقطوعة «ذكرى من ذلك الصيف» التي بدأت فرقة «الأوراق الفضية» تعزفها أثارت ذكرى حلوة قضيتها مع سيبل في الصيف الماضي. وكما أريد أن تثير الأشياء التي في متحفي ذكريات تتجلى بقوة، تأججت ذكرياتي، وعانقتني سيبل بعشق. أردت أن أعانق خطيبتي التي أدركت في تلك الليلة أنني سأمضي حياتي كلها معها بالصدق نفسه! ولكن عقلي تعلق بفسون. أحاول رؤيتها وسط زحام الراقصين، وأضغط على نفسي من أجل ألا ترى سعادتنا ـ سيبل وأنا ـ في آن واحد.

بدأتُ أمازح الراقصين وأضحكهم كمخرج لي من الأمر. وهم أيضًا يبتسمون لي كما هو مفروض أن يفعلوه مع رجل سكر في نهاية حفل خطوبته.

تلامس كتفي مع كتف كاتب الزاوية المحبوب في تلك الأيام، كان يرقص مع امرأة سمراء حلوة. قلت له: «سيد جلال، العشق لا يشبه عمود الجريدة، أليس كذلك؟». عندما اقتربت من نورجيهان ومحمد، تصرفت معهما كأنهما حبيبان منذ زمن طويل. وجهتُ للسيدة زمرد عبارتين بالفرنسية وهي التي كلما زارت والدتي تتحدث الفرنسية متذرعة بعدم رغبتها أن يفهمها الخدم، ولكن ليس مزاحي ما يضحك الناس، بل تقديمي تلك الممازحات وأنا سكران. تخلت سيبل عن أداء رقصة معي لا تنسى، وهمست لي بأنها تحبني كثيرًا، وأن سكري يجعلني محببًا جدًّا، وتعتذر إذا كانت قد عكرت مزاجي بعملية التوفيق بين اثنين، ولكنها تفعل هذا من أجل سعادة صديقينا، وأن زعيمًا غير الموثوق به الآن يعلق على قريبتي البعيدة بعد نورجيهان. قلت لها وأنا مقطب حاجبي إن زعيمًا إنسان

طيب جدًّا، وصديق موضع ثقة. وأضفت بأن زعيمًا يتوق لمعرفة سبب تصرفك معه بشكل سيئ.

قالت سيبل: «هل تحدثت مع زعيم حولي؟ ماذا قال؟». خلال صمت ما بين أغنيتين جاورت الصحفي جلال صاليك الذي مازحته قبل قليل. قال لي: «وجدت ما يوحّد بين الزاوية الجيدة والعشق يا سيد كمال». «ما هو؟». «العشق والزاوية يجب أن يسعدانا كما نحن الآن، ولكن مقياس جمالهما وقوتهما هو عدم خروجهما من عقلنا نهائيًّا». قلت: «رجائي أن تكتبوا هذا ذات يوم يا أستاذ». ولكنه كان يستمع للسمراء التي يراقصها، وليس لي. وفي اللحظة ذاتها رأيت زعيمًا وفسون بجوارنا. قربت فسون رأسها من رقبته كثيرًا، وهي تهمس له بأمور ما، وزعيم يبتسم بسعادة. لم ترنا فسون فقط عن قرب، بل وزعيم أيضًا، ولكنني شعرت بأنه التف على أنغام الموسيقى، وتظاهر بعدم رؤيته لنا.

جررت سيبل نحوهما من دون أن أخرب إيقاع رقصنا. وكما تصدم سفينة القراصنة سفينة تجارية من جنب، صدمنا فسون وزعيمًا بسرعة من جنب.

قلت: «آآ، عدم المؤاخذة. هه، هه، كيف حالكم؟». تعبير السعادة والتشويش على وجه فسون جلب عقلي إلى رأسي، وشعرت بأن السكر سيكون ذريعة جيدة. مع تركي يد سيبل، التفتنا معًا نحو زعيم. قلت: «ارقصا قليلًا!». سحب زعيم يده عن خصر فسون. قلت له: «أنت تعتقد أن سيبل تفهمك بشكل خاطئ. وأنتِ يجب أن يكون لديك ما تسألينه لزعيم». وكأنني أضحي من أجل أن أجعلهما صديقين، دفعتهما من ظهريهما بعضهما نحو بعض. عندما بدأت سيبل وزعيم بالرقص عابسين، التقى نظري بنظر فسون للحظة، ثم وضعتُ يدي على خصرها، ودرت بشكل خفيف وأنا أرقص، وابتعدت كأنني أخطف منهما فتاة.

كيف يجب شرح الطمأنينة التي شعرتُ بها فور أخذها بين ذراعي؟ كأن الضجيج الظالم الذي أعتقد أنه هدير الزحام الذي لا يعرف التوقف

في رأسي، وطنطنة الفرقة الموسيقية وأنين المدينة ليس سوى القلق الناجم عن ابتعادي عنها. ومثل الأطفال الذين لا يتوقف بكاؤهم إلا في حضن أحد معين، لفّني صمت سعادة عميق وناعم ومخملي. أدرك من نظرات فسون أنها تشعر بالسعادة نفسها، وأشعر بأن صمتنا هو السعادة التي يمنحها أحدنا للآخر، وأريد ألا تنتهي الرقصة نهائيًّا. ولكنني بعد قليل انتبهت إلى أن صمتها يحمل معنى مختلفًا تمامًا من زاويتها. صمت فسون يعني ضرورة إجابتي عن السؤال («ماذا سيحل بنا؟») الذي أحاول تجاوزه بالمزاح. قررت أنها جاءت إلى هنا من أجل معرفة هذا. اهتمام الشباب بها، والإعجاب الذي يظهر حتى بأعين الأولاد منحها ثقة بالنفس، وخفف من ألمها. يمكن أن تكون هي أيضًا تنظر إلي باعتباري «ملهاة عابرة». شعوري بانتهاء السهرة يتوحد بخوفي من فقدان فسون في عقلي السكران الذي يعمل بشكل جيد جدًّا.

انزلقت من لساني دون أي تحضير: «إذا أحب شخصان أحدهما الآخر مثلنا، لا أحد يستطيع الدخول بينهما، لا أحد». ودهشت من كلماتي. «لأن العشاق أمثالنا يعرفون بأن أي شيء لا يمكن أن ينهي عشقهم، ويحملون في داخلهم شعور السلوان في أسوإ أيامهم، وحتى في أثناء عملهم أشد الأعمال إيلامًا وخطأ بحق بعضهم بعضًا. ولكن عليك أن تثقي بأنني سأتوقف، وسأكون أفضل. هل تسمعينني؟».

«أسمعك».

عندما تأكدتُ من أن أحدًا من الزحام حولنا لا ينظر إلينا، قلت: «تقابلنا في زمن شؤم جدًّا. لم يكن بإمكاننا أن نتأكد إلى أي مدى سنعيش عشقًا حقيقيًّا. ولكنني بعد الآن سأرتب الأمور كلها. مشكلتنا الأولى الآن هي امتحان الغد. عليك ألا تشغلي بالك هذه الليلة بهذه الأمور».

«ماذا سيحدث بعد الآن، أخبرني بهذا».

«هل نلتقي غدًا كعادتنا (ارتجف صوتي للحظة) في الساعة الثانية بعد

خروجك من الامتحان؟ حينئذ سأتمكن من الشرح لك براحتي حول ما سيحدث. إذا لم تثقي بي، فإنك لن تستطيعي رؤيتي إلى نهاية حياتك».

«لا، سآتي إذا قلت لي الآن».

التفكير بعقل سكران أنها ستأتي إليّ في الثانية، ونمارس الحب كما نفعل دائمًا، وعدم انفصالي عنها إلى نهاية حياتي في أثناء لمسي كتفيها المذهلين وذراعيها العسليين، كان جميلًا جدًّا بحيث إنني يجب أن أفعل كل شيء من أجلها في تلك اللحظة.

قلت: «لن يكون هناك أحد بيننا بعد الآن».

«حسنٌ، غدًا سآتي بعد الامتحان، وأنت إن شاء الله لا تنكص بوعدك، فتشرح لي كيف سنفعل هذا».

ودون تخريب وقفتنا الشامخة، ضغطت بيدي على وسطها بعشق، وحاولت جذبها إلي بالتناغم مع الموسيقى. قاومتْ، ولم تستند إلي، وأثارتني أكثر. ولكنني عندما شعرت بأنها رأت جذبها إلي ناجم عن السكر أكثر مما هو ناجم عن العشق، استجمعتُ قواي العقلية.

قالت في اللحظة ذاتها: «يجب أن نجلس. أشعر بأنهم ينظرون إلينا». وخرجتْ من بين ذراعي. همستُ بأذنها: «اذهبي فورًا، ونامي. وفي الامتحان فكري بمحبتي الشديدة لك».

حين عدت إلى طاولتنا لم يكن هناك سوى برين وعثمان العابسين وهما يتجادلان. قالت برين: «هل أنت بخير؟».

قلت: «أنا جيد جدًّا». ونظرت إلى الطاولة الفوضوية تمامًا والكراسي الفارغة.

«تركت سيبل الرقص، واصطحبها السيد كنان إلى طاولة صاطصاط، وهناك يلعبون لعبة ما».

قال عثمان: «فعلت حسنًا بالرقص مع فسون. برودة والدتي معهم

أصبحت خطأ. يجب أن يرى الجميع أن العائلة مهتمة بفسون، وأنها نسيت مسابقة ملكة الجمال العبثية، ولكنها تحت نظرنا. أنا قلق على الفتاة. «She thinks she is too beautiful». ولباسها يكشفها كثيرًا. خرجت من الطفولة إلى الأنوثة خلال ستة أشهر، وتفتحت مثل زهرة اليقطين. إذا لم تتزوج من رجل معقول خلال فترة قصيرة، فستسقط على الألسن، ثم تصبح تعيسة. ماذا تقول؟».

«لديها غدًا امتحان الدخول إلى الجامعة».

«ومازالت ترقص، أليس كذلك؟ الساعة تجاوزت الثانية عشرة». رآها تسير نحو تلك الجهة. «أعجبتُ برجلك كنان هذا بجد. لتتزوجه».

قلت بصوت مرتفع من بعيد: «هل أقول لهما هذا؟» لأنني منذ طفولتي أفعل عكس ما يريده أخي. عندما يبدأ الكلام فلا أنتظر وأستمع بانتباه، وتقدمت نحو الطرف الآخر من الحديقة.

في أثناء سيري في تلك الساعة من الليل من طاولتنا إلى طاولة موظفي صاطصاط وفسون في الخلف كنت سعيدًا جدًّا، وتذكرت تلك السعادة على مدى سنوات. لقد رتبت كل شيء، وبعد ثلاث عشرة ساعة وخمس وأربعين دقيقة سألتقي بفسون في بناء مرحمة. كانت أمامي حياة براقة تعدني بالسعادة مثل البوسفور الذي يبرق أمامي. أمازح الفتيات الجميلات المتعبات من الرقص، والمفتوحة أثوابهن بشكل ممتع، والضيوف الباقين إلى نهاية السهرة، وزملاء طفولتي، والخالات الحنونات اللواتي أعرفهن منذ ثلاثين عامًا، وأضاحكهن... وهناك طرف من عقلي يفكر بنوع من الاحتياط أنني سأتزوج فسون وليس سيبل فيما لو وصل الأمر إلى هذه النقطة.

انضمت سيبل إلى طاولة موظفي صاطصاط الفوضوية كأنها ثملة تؤدي «دورًا» في «جلسة» استحضار أرواح، وليست محضرة أرواح حقيقية. وعندما لم تحضر «الأرواح المستحضرة» تفرقت الطاولة دون أخذ الموضوع مأخذ جد. انتقلت سيبل إلى الطاولة الخاوية جانبًا،

وجلست بجوار كنان وفسون. عندما فتح حديث بينهم، ذهبت إلى هناك فورًا. ولكن كنان عندما رآني مقتربًا، أراد أن يُنهض فسون إلى الرقص. ولكن فسون حين رأتني، رفضت الرقص بذريعة أن حذاءها أصاب قدمها. نهض كنان، وذهب ليؤدي إحدى الرقصات السريعة مع واحدة أخرى وكأن الموضوع هو الرقص وليس فسون. وهكذا بقي الكرسي الخالي بين سيبل وفسون بجوار طاولة صاطصاط لي. جلست هناك بين سيبل وفسون. كم أردت أن تلتقط لنا صورة في تلك اللحظة، وأن أعرضها في السنين اللاحقة!

فور جلوسي بينهما، انتبهت إلى أنهما كسيدتين نيشانيتين طاشيتين محترمتين، تعرف إحداهما الأخرى منذ سنين طويلة. وباحترام شديد ولغة شبه رسمية تتحدثان حول قضية استحضار الأرواح. قالت فسون التي كنت أعتقد بأن معلوماتها الدينية ضعيفة بأن الأرواح (كما جاء في ديننا) موجودة بالتأكيد، ولكن محاولتنا ـ نحن الذين نعيش في الدنيا ـ الحديث معها مخالف لديننا. كانت هذه فكرة والدها الجالس إلى طاولة مجاورة، وألقت نظرة نحوه.

قالت فسون: «لم أسمع كلام والدي، وذهبت إلى جلسة تحضير أرواح مع زميلاتي في الثانوية قبل ثلاث سنوات. كتبت اسم صديق من الطفولة فقدته، وأحبه كثيرًا على ورقة بشكل عفوي من دون أن أفكر... ولكن روح من كتبت اسمه دون إيمان، وحتى بشيء من السخرية جاءت، وندمتُ كثيرًا جدًّا».

«لماذا؟».

«فهمت من ارتجاف الفنجان فورًا أن صديقي نجدت المفقود قد عاني كثيرًا من الألم. مع ارتجاف الفنجان وحده كأنه يتخبط، كنت أشعر بأن نجدت يريد أن يخبرني بشيء ما. ثم خيم الصمت على الفنجان... قال الجميع إن ذلك الشخص قد مات في تلك اللحظة... من أين يعرفن؟».

قالت سيبل: «من أين يعرفن؟».

«في أثناء بحثي عن قفاز فقدته مساء اليوم نفسه، وجدت منديلًا أهداني إياه نجدت قبل سنين في قعر الدرج. لعلها المصادفة... ولكنني لم أفكر على هذا النحو. أنا أخذت درسًا من هذا. علينا ألا نتحرش بمن نحب بعد أن نفقدهم بكتابة أسمائهم في جلسات تحضير الأرواح... بدل أن نفعل هذا يمكن أن يكون شيء منهم ـ وليكن قرطًا على سبيل المثال ـ يسلينا عن فقدانهم لسنين طويلة».

نادت العمة نسيبة: «عزيزتي فسون، هيا لنذهب إلى بيتنا يا روحي. غدًا صباحًا لديك امتحان، وانظري، عيني والدك لا تتفتحان».

قالت فسون بحزم: «دقيقة يا أمي».

قالت سيبل: «أنا أيضًا لا أؤمن باستحضار الأرواح. ولكن إذا دعيت إلى ألعاب يلعبها الناس لرؤية ما يخافون منه، فلا أفوت الأمر».

سألت فسون: «ما الذي تختارينه إذا اشتقت كثيرًا لإنسان تحبينه؟ أن تجمعي أصدقاءك، وتستحضري روحه، أم أن تجدي شيئًا ما قديمًا له، مثلًا علبة سجائره؟».

أثناء بحث سيبل عن جواب لبق، نهضت فسون بحركة سريعة، ومدت يدها نحو الطاولة المجاورة، وتناولت حقيبة، ووضعتها أمامنا، وقالت: «هذه الحقيبة تذكرني بخجلي، وحيائي من بيعكم شيئًا مقلدًا».

لم أفهم أن تلك الحقيبة «هي» أم تلك التي رأيتها بذراع فسون حين رأيتها أول مرة. ولكنني ألم أشترِ تلك الحقيبة من السيدة شيناي في بوتيك شانزليزيه قبيل أسعد لحظة في حياتي بقليل، ووضعتها في شقة مرحمة بعد أن قابلت فسون مصادفة في الشارع؟ البارحة أيضًا كانت جيني كولون هناك. كيف حدث أن أصبحت هنا اليوم؟ تشوّش عقلي كأنني أمام لاعب خفة.

قالت سيبل: «لاقت بك هذه الحقيبة كثيرًا. لقد انسجمت بشكل جميل

مع ألوانك البرتقالية وقبعتك مما جعلني أغير فور رؤيتها. ندمت لأنني أعدتها. أنت جميلة جدًّا».

فهمت أن لدى السيدة شيناي كثيرًا من حقائب جيني كولون المزورة. يمكن أن تكون وضعت واحدة أخرى في الواجهة بعد أن باعتني تلك، ويمكن أن تكون قد أعطت فسون واحدة لتستخدمها هذه الليلة.

قالت فسون مبتسمة بشكل حلو لسيبل: «لم تأتِ نهائيًّا إلى شانزليزيه بعد ظهور أن الحقيبة مزورة. هذا أزعجني، ولكنك محقة بالطبع». فتحت الحقيبة، وعرضت داخلها. «معلمونا يقلدون البضاعة الأوربية بشكل جميل جدًّا بإذن الله، ولكن العين الخبيرة مثل عينك تدرك أنها ليست أصلية. ولكنني سأقول لك شيئًا الآن». ابتلعت ريقها للحظة، وصمتت، واعتقدت أنها ستبكي. ولكنها استجمعت قواها، وبدأت بإطلاق كلماتها التي أعتقد أنها حضرتها في البيت وهي مقطبة الحاجبين: «بالنسبة إلي ليس مهمًّا أن يكون الشيء أوربيًّا... وليس مهمًّا ما إن كان أصليًّا أم تقليدًا... برأيي أن الناس يرفضون استخدام البضاعة المقلدة لخشيتهم من الاعتقاد أنها اشتريت بسعر بخس، وليس لأنها مزورة. أما السيئ بالنسبة إليّ طبعًا ليس الشيء نفسه، بل إعطاء الأهمية لماركته. هناك أناس يعطون أهمية لما يقوله الآخرون، وليس لمشاعرهم الخاصة... (نظرت إلي لحظة). سأتذكر هذه السهرة لسنوات من هذه الحقيبة. أهنئكما، لقد كانت سهرة لا يمكن أن تُنسى». نهضت جميلتي، وأثناء مصافحتنا، بادلتنا القبل من خدودنا. لحظة مغادرتها وقع نظرها على زعيم المقترب من الطاولة الجانبية، فالتفتت نحو سيبل، وسألتها: «السيد زعيم وخطيبك صديقان مقربان، أليس كذلك؟».

قالت سيبل: «بلى، إنهما هكذا». أثناء تأبط فسون ذراع والدها، وذهابها، قالت: «لماذا سألتني هذا السؤال؟». ولكن لم يبدُ عليها استخفاف بفسون، ويمكن القول إنها تشعر نحوها بمحبة شديدة، وحتى بانفعال.

أثناء ذهابها وسط والدها ووالدتها ببطء، نظرت إلى فسون من الخلف بعشق وإعجاب.

جلس زعيم إلى طاولتنا بجانبي. قال: «طوال السهرة يسخر موظفو شركتك الذين على الطاولة الخلفية منك ومن سيبل. أريد أن أنبهك كصديق».

«لا تقلها يا هذا، أي سخرية هذه؟».

«حكى كنان لفسون. وهي حكت لي... قلب فسون مجروح. لأن الجميع في صاطصاط يعرفون أنك تمارس الحب مع سيبل على الأريكة في المكتب بعد ذهاب الموظفين... والسخريات كانت حول هذا الأمر».

التفتت سيبل نحونا، وقالت: «ماذا حدث أيضًا. ما الذي عكر مزاجك؟».

٢٥ ـ ألم الانتظار

لم أستطع النوم طوال الليل. كنت خائفًا من فقدان فسون. في الحقيقة أننا نادرًا ما تقابلنا ـ سيبل وأنا ـ في الأسابيع الأخيرة، ولكن هذا لم يعد له قيمة. غفوت قليلًا قرب الصباح. فور استيقاظي، حلقت ذقني، وخرجت إلى الشارع، ومشيت طويلًا. أطلت طريق عودتي، ومررت من أمام بناء طاش قشلة (الثكنة الحجرية) الممتد عمره إلى مائة وعشرة أعوام حيث الجامعة التقنية وامتحان فسون. حول الباب الذي كان الجنود العثمانيون يخرجون منه بالطرابيش والشوارب المدببة بعد التدريب، تجلس أمهات الممتحنين مغطيات الرءوس، وآباؤهم وهم يدخنون السجائر. بحثت عيناي عن العمة نسيبة بين الآباء والأمهات الذين يتبادلون الحديث، ويقرءون الجرائد، وينظرون شاردين إلى السماء. ما زالت ثقوب آثار الرصاص الذي أطلقه جنود «جيش الحركة» الذين أسقطوا عبد الحميد قبل ستة وستين عامًا بين

نوافذ البناء العالي. ركزت نظري على إحدى النوافذ العالية، وتوسلت إلى الله أن يساعد فسون بالإجابة عن الأسئلة، ويرسلها إلي متألقة بعد الامتحان.

ولكن فسون لم تأتِ في ذلك اليوم إلى بناء مرحمة. كنت أعتقد أنها غاضبة مني غضبًا مؤقتًا. عندما أدفأت شمس حزيران القوية المتسللة من بين الستائر الغرفة جيدًا، كانت ساعتان قد مرتا على موعد لقائنا المعتاد. النظر إلى السرير الفارغ يؤلمني. خرجت ثانية إلى الشارع، ومشيت. نظرتُ إلى الجنود الذين يقتلون الوقت في الحدائق بعد ظهر يوم الأحد، وسعادة العائلات التي يلقي أطفالها طعامًا للحمام، والعائلات الجالسة على المقاعد المطاولة على الشاطئ تشاهد السفن، وحاولت إقناع نفسي بأن فسون ستأتي غدًا بموعدها المعهود. ولكنها لم تأتِ في اليوم التالي، ولا في الأيام الأربعة التالية.

أذهب كل يوم إلى بناء مرحمة، وفي موعد لقائنا المعهود، وأبدأ الانتظار. عندما أدركت أن ذهابي باكرًا، وانتظاري لمدة أطول يزيد ألمي، قررت ألا أذهب قبل الثانية إلا خمس دقائق. كنت أدخل مرتجفًا نتيجة تململي، وفي عشر الدقائق أو ربع الساعة الأول يتداخل ألم عشقي وأملي، ويصطدم الألم بين بطني وقلبي بالانفعال الذي أشعر فيه برقبتي وجبهتي. أنظر إلى الزقاق من بين فرجة الستائر كل برهة، ويتعلق نظري بصدإ مصباح الشارع أمام الباب، وألملم الغرفة قليلًا، وأستمع لوقع أقدام المارة إلى الأسفل بطابق واحد، وأحيانًا أشبّه وقع كعبي حذاء امرأة مارة بحزم بوقع قدميها. ولكنني أدرك بألم أن وقع القدمين يمران دون أن يبطآ، وأن قرقعة إغلاق باب البناء ناجم عن خروج أحد من البناء.

لا يمكنني أن أشرح كيفية تمريري عشر الدقائق وربع الساعة التي أدرك فيها أن فسون لن تأتي في ذلك اليوم أيضًا إلا بهذه الساعة وأعواد الكبريت ورزمها التي أعرضها هنا. في أثناء تجوالي في الغرفة، أنظر من النافذة، وأحيانًا أتوقف هكذا دون حراك، وأستمعُ لتموّج الألم في

داخلي. في أثناء تكتكة الساعات في شقة البناء، يحاول عقلي اللعب مع الثواني والدقائق لتخفيف ألمي. في الدقائق المتدفقة نحو موعد لقائنا، كان شعور «نعم، ستأتي اليوم، والآن» يبرز في داخلي كما تتفتح زهرة ربيع فجأة. في تلك اللحظات أريد أن يمر الزمن بسرعة أكبر، وأن أحظى بجميلتي بأسرع ما يمكن. ولكن خمس الدقائق تلك لا تمر بأي شكل. في الحقيقة أنني أفكر بوضوح أيضًا بأنني لا أريد مرور تلك الدقائق، لأن فسون من الممكن ألا تأتي. عندما تشير الساعة إلى الثانية تمامًا، لا أدرك تمامًا ما إن كنت يجب أن أفرح لأن ساعة اللقاء بحبيبتي قد حلت، أم يجب أن أحزن لأن كل لحظة بعد هذا الوقت تعني تراجع احتمال مجيئها. ومثل المسافر الذي تبتعد سفينته عن الرصيف، أحاول إقناع نفسي بان الدقائق التي تمر ليست كثيرة، وأشكّل من الدقائق رُزمًا صغيرة لمعرفتي أن كل دقيقة تمر تبعدني في الحقيقة عن حبيبتي. في الحقيقة أنني يجب أن أحزن كل خمس دقائق، وليس كل ثانية ودقيقة! بهذا الأسلوب أؤجل ألم خمس دقائق مفردات إلى الدقيقة الأخيرة. وعندما يصبح إنكار مرور أول خمس دقائق مستحيلًا، أي عندما يصبح التأخر حقيقة، يُغرز الألم في قلبي كمسمار، وأفكر أن لقائي بفسون كان يتأخر دائمًا خمس أو عشر دقائق (لم أكن أستطيع استنتاج مدى صحة هذا الأمر حينئذ)، وأتألم أقل في الدقائق الأولى من رزمة الدقائق الخمس الأولى، وأفكر بأن الباب سيقرع بعد قليل، وسأجدها فجأة أمامي كما حدث في لقائنا الثاني. كنت أتخيل أنني سأغضب منها عندما تقرع الباب، أو سأسامحها فور رؤيتها. كانت الذكريات ترافق تلك الأحلام القصيرة الأمد، وكان هذا الفنجان الذي شربت فيه الشاي أول مرة، أو المزهرية التي أمسكتها وهي تذرع المكان دون هدف تذكرني بها. بعد مقاومتي يائسًا فكرة قبول عدم مجيء فسون في ذلك اليوم أيضًا عند مرور رزم الدقائق الخمس الرابعة والخامسة، يضطر منطقي لقبول هذا، ويزداد الألم في داخلي حينئذ إلى درجة أنني ألقي بنفسي على السرير كالمريض لكي أستطيع أن أتحمله.

٢٦ ـ التوزيع التشريحي لألم العشق

أشَّرت على ملصق مُسكِّن الألم «باراديسون» الذي لفت نظري إليه في واجهات صيدليات إسطنبول في تلك الأيام، ويظهر الأحشاء الداخلية، لكي أري زوار المتحف أمكنة ظهور ألم العشق وحدّته ومناطق انتشاره. أقول لقرائي الذين لم يروا المتحف إن نقطة بداية الألم الأشد هي أعلى يسار أسفل المعدة. عندما يشتد الألم، ينتشر في الفراغ بين صدري ومعدتي كما هو مبين بالشكل. حينئذ لا يبقى في الجانب الأيسر من الجسم، بل ينتقل إلى الجانب الأيمن أيضًا. أشعر بأن مفك براغي أو قضيبًا حديديًّا حاميًا قد أدخل، ويدور رأسه في الداخل. كأن السائل الحمضي المركز يتجمع في أحشائي كلها بدءًا من معدتي، وأن نجوم البحر اللزجة الحارقة تلتصق على أحشائي الداخلية. مع شدة الألم يتوسع الحيّز الذي يشغله، ويضرب جبهتي ورقبتي من الخلف وظهري وأحلامي وكل مكان مني، ويعصرها، ويخنقها. أحيانًا يتجمع سائل الحموضة المركزة في بطني ـ حول حفرة البطن تمامًا ـ على شكل نجمة، ثم يندفع إلى بلعومي، ويملأ فمي، ويخيفني كأنه سيخنقني، ويقتلني، ويبرق ألمًا في جسمي كله، ويجعلني أصدر أنينًا. كان ضرب الجدار بيدي، والقيام بحركات ليونة بدنية، والضغط على جذعي مثل رياضي ينسيني الألم، ولكنني في أضعف حالات الألم، كنت أشعر به كقطرات صنبور لم يغلق جيدًا، وتنتشر في الدم. أحيانًا يصعد الألم إلى بلعومي، ويُصعّب ابتلاعي، وأحيانًا ينتشر إلى ظهري وصدري وكتفي وذراعي. ولكن الألم الأساسي كان دائمًا في معدتي، وكأن المركز هناك.

على الرغم من خصوصية الألم الملموسة فأنا أعرف أنه يرتبط بعقلي وروحي، ولكنني لا أقوم بعملية تنظيف لعقلي من أجل التخلص منه. ولأنني لم أعش شيئًا كهذا من قبل، أنجر إلى تشويشٍ عقلي معقد مثل قائد

عسكري مغرور. فوق هذا هناك كثير من الأسباب والأحلام حول إمكانية مجيء فسون إلى بناء مرحمة، والأمل بهذا يجعلني أحتمل الألم.

في لحظات برودة الأعصاب أفكر بأنها قاطعتني بسبب إخفائي عنها لقائي بسيبل في المكتب، وتآمري عليها بدافع الغيرة لإبعادها عن كنان، وعدم حل مشكلة القرط بأي شكل، ولهذا فهي تعاقبني. ولكن افتقاد سعادة ممارسة الحب هو عقوبة لها بقدر ما هو عقوبة لي، وأشعر بأنها هي أيضًا لن تستطيع احتمال افتقادها. يجب علي أن أحتمل الألم الآن، وأوجه انتشاره في جسمي بالصبر، وأن أضغط على نفسي لكي تتقبل وضعي عندما نتقابل. فور تفكيري بهذا يسيطر عليّ الندم، وأتألم لأنني أرسلت لهم دعوة للخطوبة بسبب الغيرة، أو لأنني لم أجد القرط الضائع، وأعيده، أو لأنني لم أخصص لها وقتًا أطول من أجل تدريسها الرياضيات بشكل أكثر جدية، أو لأنني لم أستطع إعادة دراجة الطفولة إلى عائلتها بزيارة عشاء ذات مساء. ألم الندم كان موجهًا إلى الداخل، وهو ألم قصير، ويضرب القسم الخلفي من ساقي، وكبدي، وينهكني بشكل غريب. حينئذ لا أستطيع الوقوف على قدمي، وأريد أن ألقي بنفسي على السرير «بندم».

أحيانًا أفكر بأن المشكلة هي تقديم امتحانها بشكل سيئ. بعدئذ أتخيل أنني درّستها الرياضيات مدة طويلة، وحينئذ تخفف تلك الخيالات ألمي، وأحلم أنني سأمارس معها الحب في نهاية دروس الرياضيات تلك. ترافق تلك الصور التي في عقلي لحظات السعادة المذهلة التي قضيتها معها، وبعد ذلك مباشرة أتذكر وعدها لي؛ أي وعدها وأنا أراقصها بأن تأتي إلي بعد الامتحان مباشرة ولم تفِ به، وأبدأ بالغضب منها لأنها لم تقدم حتى مجرد ذريعة لعدم مجيئها. وتُضاف إلى غضبي ذنوبٌ صغيرة مثل استماعها سخريات موظفي صاطصاط حولي، ومحاولتها إثارة غيرتي في الخطوبة، وأحاول أن أستخدم هذه المشاعر من أجل الابتعاد عنها، ومواجهة رغبتها بمعاقبتي بصمت.

على الرغم من حالات الغضب البسيطة هذه، والآمال، والألاعيب التي لعبتها لخداع نفسي، سقطت مهزومًا عند اقتراب الساعة من الثانية والنصف يوم الجمعة ولم تأتِ. الألم الآن قاتل وظالم، وحيوان وحشي ينهشني من دون أن يعطي أي قيمة للضحية. أتمدد على السرير كالميت، وأشم رائحتها المتغلغلة بالملاءات، وأتذكر كيف مارستُ معها الحب بسعادة قبل ستة أيام، وأفكر كيف سأعيش من دونها، فيختلط شعور غيرة لم أستطع مقاومته مع غضبي الداخلي، ويبدأ بالتصاعد. كنت أعتقد أن فسون وجدت لنفسها حبيبًا آخر. يبدأ ألم الغيرة من عقلي، وبعد زمن قصير يحرض ألم معدتي، ويدفعني إلى نوع من الانهيار. خطر ببالي أن هذا التخيّل المخجل الذي يضعفني زمن آخر، ولكنني لا أستطيع إيقافه بأي شكل الآن، وأفكر بأنها وجدت أحد المعجبين بها مثل منافسي كنان أو السيد طورغاي وحتى زعيم. من تستمتع إلى هذه الدرجة بممارسة الحب، سترغب بممارسته مع رجل آخر بالتأكيد. غير هذا فإن غضبها مني سيدفعها إلى الانتقام. على الرغم من وجود زاوية في عقلي يمكنني أن أفكر فيها بمنطق، تعرّفني أن غيرتي هي مجرد غيرة، فقد استسلمت عن قصد لهذا الشعور المهين الذي يلف كل طرف من أطرافي بقوة تصل إلى العنف. شعرت بأنني سأجن من الغضب وحب الذات إذا لم أذهب إلى بوتيك شانزيليزية، وأراها فورًا، فخرجت من البيت راكضًا.

أذكر أنني كنت ماشيًا بخطى قريبة من الركض في شارع تشويكية بأمل يسرّع من خفقان قلبي. وقد استسلم عقلي لفكرة أنني سأراها بعد قليل إلى درجة أنني بدأت أفكر بما سأقوله لها. كنتُ أعرف أن ألمي سيهدأ ولو لفترة قصيرة فور رؤيتي لها. عليها أن تسمعني، لدي ما أقوله لها، وهل هذا ما اتفقنا عليه أثناء الرقص، علينا أن نذهب، ونجلس في محل معجنات، وأن نتكلم.

في أثناء قرع جرس باب بوتيك شانزليزيه انقبض قلبي فجأة. لم يكن

طائر الكناري مكانه. فهمت أن فسون ليست هناك منذ زمن طويل، ولكنني بسبب الخوف واليأس أقنعت نفسي بأنها مختبئة في الغرفة الخلفية.

قالت السيدة شيناي بابتسامة شيطانية: «تفضل سيد كمال».

همست: «أريد رؤية حقيبة السهرة المطرزة بالأبيض».

قالت: «آآ، قطعة جيدة. أنتم منتبهون جدًّا. كلما جاءت قطعة جيدة إلى الدكان، فأنتم أول من يراها، ويشتريها. جاءت حديثًا من باريس. لقفلها أحجار، وفيها جيب نقود معدنية ومرآة. وهي صناعة يدوية». تمتدح الحقيبة كثيرًا أثناء سيرها ببطء نحو الواجهة، وإخراجها.

ألقيت نظرة إلى الغرفة الداخلية المغلقة بالستائر. فسون ليست هناك. تظاهرت بأنني أدقق بالحقيبة التي جلبتها المرأة، ولم أناقشها برقم السعر المزلزل. في أثناء لف الجنيّة للحقيبة قالت لي بأن الجميع يتحدثون عن جمال حفل الخطوبة المذهل. ولمجرد أن أشتري شيئًا آخر غالي الثمن طلبت منها أن تلف زرّي أكمام قميص وقعا تحت نظري. عندما رأيت الفرح على وجه المرأة، تجرأت، وقلت: «ماذا حدث لقريبتنا، ليست هنا اليوم؟».

«آآ، ألا تعرفون؟ فسون تركت العمل فجأة».

«هكذا إذًا؟».

شعرتْ بأنني أبحث عن فسون، واستنتجتْ أننا لم نعد نلتقي، وبدأتْ تنظر إلي بانتباه لفهم ما حدث.

ضبطتُ نفسي، ولم أقل شيئًا. على الرغم من ألمي، مددت يدي إلى جيبي الأيمن ببرودة أعصاب لكي لا ترى أنني لا ألبس خاتم الخطوبة. أثناء دفعي النقود رأيت تعبير شفقة في نظرات المرأة: كأن قربًا حدث بيننا لأننا فقدنا فسون كلانا. ألقيت نظرة أخرى إلى الغرفة الصغيرة من دون أن أؤمن بعدم وجودها.

قالت المرأة: «هكذا إذًا. شباب اليوم لا يريدون كسب النقود من العمل،

بل بطرق سهلة». الجزء الأخير من الجملة زاد من ألم عشقي، ومن غيرتي إلى درجة لم تعد تُحتمل.

ولكنني تمكنت من إخفاء هذا عن سيبل. خطيبتي التي تنتبه لكل تعبير يظهر على وجهي، وكل حركة جديدة. لم تسألني عن أي شيء في الأيام الأولى، ولكن بعد الخطوبة بثلاثة أيام، وعلى العشاء فيما كنت أتلوى من الألم، نبهتني بأسلوب رقيق إلى أنني أشرب بسرعة، وسألتني: «ما الذي يحدث يا روحي؟». وقلت لها بأن صراع العمل مع أخي ينهكني. في أثناء فضولي لمعرفة ما تفعله فسون وأنا أشعر بالألم يصعد من بطني إلى رقبتي من الخلف، ومن رقبتي إلى ساقي بشكل متناظر، لفقت كثيرًا من التفصيلات حول خلافات العمل بيني وبين أخي (حكمة الله أن كل ما لفقته حدث بعد سنين) إزاء سؤال سيبل مرة أخرى. قالت سيبل باسمة: «لا تهتم. هل تريد أن أحدثك عن الألاعيب التي لعبها زعيم ومحمد من أجل أن يكونا قريبين من نورجيهان؟».

٢٧ ـ لا تتدلى، تسقط

أعرض سلة النزهة المستلهمة من مجلة الحديقة والبيت الفرنسية التي تقرؤها سيبل ونورجيهان، وتعكس مزاجهما، والحافظة المليئة بالشاي، ومحشو ورق العنب بزيت الزيتون في علبة بلاستيكية، والبيض، وزجاجات مياه ملتم الغازية، والملاءة الأنيقة الآيلة إلى زعيم من جدته لكي تمثل نزهة الأحد، ليتصور الزائر الجو الخانق داخل البيت وألمه. ولكن على زوار المتحف والقراء أن يحذروا من الاعتقاد بأنني نسيت ألمي ولو للحظة واحدة.

صباح الأحد، ذهبنا بداية إلى مصنع مياه ملتم الغازية على البوسفور في بيويوك درة. فيما كان زعيم يجولنا على أقسام الغسيل والتعبئة التي تعمل فيها

عامـلات بصدريات زرقـاء مغطيات الرأس صامتات ورؤسـاؤهن صاخبون مرحـون (لم يكـن يعمل في مصنـع ملتم للميـاه الغازية التي مـلأت دعاياته إسـطنبول كلها سوى اثنين وستين عاملًا فقط) في الأبنية المغطاة بصور إنغة الضخمة والشـعارات اليسـارية المطموسـة بالدهان. كنت أشعر بالضيق من زي نورجيهان وسـيبل المُغـرق بالفرنجة المؤلف من جزمـة جلدية، وحزام أنيـق وبنطال جينز، ومـن حركاتهما التي تظهران فيها حرتين أكثر من اللازم، وأحاول تهدئة قلبي وهو يخفق: «فسون، فسون، فسون».

صعدنـا من هناك بسـيارتين إلى غابـة بلغراد وبنتلر، ونزلنـا مقلدين نزهة الأوربييـن الخياليين في لوحة الرسـام الأوربي ميلينغ قبل مائة وسـتين عامًا علـى مرج أخضر مطل على بنتلر. أذكر أننـي تمددت على الأرض، ونظرت إلـى السـماء البراقـة، ودهشـت بجمال سـيبل وظرفهـا وهي تحـاول نصب أرجوحـة آيلة مـن حدائق العجـم القديمة بواسـطة حبال جديدة جـدًا. لعبنا نورجيهـان ومحمد وأنـا «المنقلة» فترة. أسـحب إلى داخلـي رائحة التراب العطـرة والنسـيم المنعش الذي يهب من البحيرة خلـف بنتلر محملًا بروائح الصنوبـر والـورد، وأفكر بأن الحيـاة المذهلة التي أمامي هـي لطف من الله، والخبـل الأكبـر أن أسـمم هـذا الجمـال الـذي وهبني إيـاه اللـه دون مقابل بألم العشـق المنتشـر من بطنـي إلى بقية أجزاء جسـمي كالمـوت. يخجلني الانسـحاق إلى هـذه الدرجة تحت الألم الناجم عن عدم رؤية فسـون، وهذا الخجل يُضعف ثقتي بنفسـي، وبسـبب هذا الضعف تسـيطر عليّ الغيرة. في أثناء تحضير محمد السـفرة بقميصه الأبيض وبنطاله ذي الحمالتين، شعرت بأننـي سـعيد من وجود زعيـم الذي ابتعد مـع نورجيهان بذريعـة جمع توت العليـق، لأنني اعتبرت هذا دليـلًا على عدم لقائه بفسـون. ولكن هذا بالطبع لا يعني أن فسـون لا تلتقي بكنان أو واحد آخر. اكتشفتُ أن لحظات حديثي مـع أصدقائي، ولعبي الكرة، وتأرجح سـيبل بالأرجوحـة كالأطفال، وجرح أصبعـي أثناء تجريبي فتاحة علب كونسـروة جرحًا عميقًا، وتبلل يدي بالدم، نجحـت بجعلي لا أفكر بهـا. لم يكن نزيف أصبعـي المجروحة يتوقف بأي

شكل. هل يمكن أن يكون السبب هو سم العشق الذي في داخلي؟ ركبت ذات لحظة بالأرجوحة ورأسي مصاب بالصرع بتأثير العشق، وبدأت أترجح بكل قوتي. في أثناء نزول الأرجوحة كأنها ستسقط، كان ألم بطني يهدأ قليلًا. كانت الأرجوحة تصرّ الحبال الطويلة، وأنا أرسم قوسًا كبيرًا في الهواء، عندما أرجع برأسي إلى الخلف، وأحنيه إلى الأمام يخف ألم عشقي قليلًا، ويتأجل.

صرخت سيبل: «ماذا تفعل يا كمال؟ قف، لا تتدل، ستسقط!».

في أثناء تسخين شمس الظهيرة حتى الظل تحت الشجرة، قلت لسيبل إن الدم لم ينقطع، ولا أشعر بأنني بخير، ويجب أن أذهب إلى المستشفى الأمريكي لأخيط جرحي. دُهشتْ. حملقت بقوة. ألا يمكنني أن أنتظر إلى المساء؟ حاولت جعلي آكل. سأعترف لكم أنتم أيها القراء: كنت أفتح الجرح سرًّا لكي لا ينقطع الدم. قلت: «لا، رجاء لا أريد أن أكون سبب تخريب هذه النزهة الجميلة، سيكون معيبًا جدًّا إذا ذهبت معي يا عزيزتي. هم يقلونك مساء إلى المدينة». في أثناء سيري نحو السيارة، رأيت عينيها المتفهمتين والمغرورقتين تسألان ذلك السؤال نفسه: «ما بك؟» وهي تشعر بأن المشكلة أكبر من الدم النازف. كم كنت أريد أن أعانقها، وأنسى ألمي وشغفي، أو على الأقل أن أشرح لها ما أشعر به! ولكنني ركبت السيارة وأنا أتمايل تحت تأثير خفقان قلبي من دون أن أقول لسيبل عبارتين حلوتين. شعر زعيم ونورجيهان وهما يجمعان توت العليق بأن شيئًا ما قد حدث، فاقتربا. كنت واثقًا بأن عيني إذا التقتا بعيني زعيم سيدرك إلى أين أنا ذاهب. لن أتحدث عن القلق والكدر الصادق الذي رأيته على وجه خطيبتي حين نظرت إليها بطرف عيني وأنا أدوّر السيارة لكي لا يعتقد القراء أن قلبي حجر.

قدت سيارتي بعد ظهر ذلك اليوم الصيفي البراق بجنون، وقطعت المسافة بين بنتلر ونيشان طاش بسبع وأربعين دقيقة بالضبط. لأنني كلما ضغطت على

البنزين أؤمن أكثر بأن فسون ستأتي أخيرًا اليوم إلى بناء مرحمة. ألم تأتِ إلى لقائنا الأول بعد عدة أيام؟ بعد أن ركنت السيارة، وفي أثناء ركضي إلى بناء مرحمة قبل الموعد بأربع عشرة دقيقة (جرحت يدي في الوقت المناسب بالضبط)، أوقفتني امرأة متوسطة العمر وهي تنادي:

«سيد كمال، سيد كمال، أنتم محظوظون جدًّا».

التفتُ، وقلتُ: «كيف؟». وأنا أحاول معرفة من تكون المرأة.

«جئتم في حفل الخطوبة إلى طاولتنا، ودخلنا برهان حول ما سيحدث في نهاية مسلسل الهارب... أنتم كسبتم يا سيد كمال. في النهاية أثبت الدكتور كامبل براءته!».

«آه، بحق؟».

«متى ستستلمون هديتكم؟».

قلت: «فيما بعد». وركضت.

بالطبع اعتبرت النهاية السعيدة التي تحدثت عنها المرأة إشارة حظ على مجيء فسون اليوم. آمنت بانفعال أنني سأمارس الحب بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة، وأخرجت المفتاح بيدين مرتجفتين، ودخلت الشقة.

٢٨ ـ سلوان الأشياء

مضت خمس وأربعون دقيقة ولم تأتِ فسون، وأنا متمدد كالميت على السرير، وأستشعر الألم المنتشر من بطني إلى جسمي كله كما يستمع حيوان لموته بانتباه ويأس. وصل الألم إلى عمقٍ وحدّةٍ لم أشعر بهما من قبل، وسيطر على جسمي كله. أشعر بأنني يجب أن أنهض من هذا السرير، وألهي نفسي بأمور أخرى، وأن أهرب من هذا الوضع، وعلى الأقل من هذه الغرفة ومن هذه الملاءات المفعمة برائحة فسون، ولكن لا حيلة لي.

الآن أنا نادم جدًّا لأنني لست وسط زحام النزهة. سيبل منتبهة قليلًا لغرابتي لأننا لم نمارس الحب منذ أسبوع، ولكنها لا تستطيع استنتاج مشكلتي، ولا سؤالي. مع أنني بحاجة حنان سيبل وتفهمها، وأتخيل بأن خطيبتي يمكن أن تسليني. ولكن لا قوة لدي تمكنني من النهوض عن السرير، وليس ركوب السيارة والعودة. لم تبق لدي قوة تمكنني من الهرب من ألمي المنطلق من معدتي وظهري وساقي ومختلف أطرافي، ويقطع أنفاسي. الانتباه إلى هذا يزيد شعور الهزيمة في داخلي، وحدّة هذا الشعور لا تقل عن حدة ألم العشق، وهو يحرض ألم الندم الداخلي. وبغريزة عجيبة أشعر بأنني أستطيع أن أقترب من فسون فيما لو عدت إلى داخل هذا الألم (كزهرة تغلق على نفسها)، وعشت الألم الذي يضغط عليّ، ويكاد يمزق قلبي. وأفكر بجانب من عقلي بأن هذا يمكن أن يكون مخاتلة، ولكنني لا أستطيع منع نفسي من الإيمان به (إذا غادرت البيت الآن، فلن تراني فيما لو أتت).

حين أغوص تمامًا في ألمي، أي حين تنفجر مضخات الحموضة الصغيرة داخل دمي وعظامي مثل المفرقعات، فإن كل واحدة من الذكريات الكثيرة تسليني لفترة قصيرة ـ أحيانًا عشر ثوانٍ أو خمس عشرة ثانية، وأحيانًا ثانية أو ثانيتين ـ ثم تترك مكانها لألم أشد، وتفلتني في فراغ الزمن الحاضر، وهذا الفراغ يقطع حيل ساقي بموجة ألم قوية إلى درجة مدهشة تجتاح ظهري وصدري. ومن أجل التخلص من موجة الألم الجديدة هذه أتناول بدافع غريزي شيئًا ما طافحا بذكرياتنا المشتركة، أو أدسها بفمي، وأتذوقها، وأكتشف بأن هذا يفيدني. على سبيل المثال عندما أضع في فمي المعمول الهلالي بالجوز والزبيب الخالي من العجوة المنتشر على نطاق واسع في محلات نيشان طاش للمعجنات في تلك الفترة، وكنتُ أجلبه لأضيّف فسون منه لأنها تحبه، يخطر ببالي ما كنا نتحدث به متضاحكين أثناء أكله (اعتقاد زوجة بواب بناء مرحمة السيدة حنيفة حتى الآن أن فسون تأتي إلى طبيب الأسنان الذي في الطابق الأعلى)، وهذا ما

يمتعني. تذكّرني المرآة الصغيرة القديمة التي خرجت من إحدى خزائن أمي بها وهي تمسكها كالميكريفون، وتقلد مواقف المغني (والمذيع) الشهير خاقان سرينقان؛ وتذكرني دمية «قطار أنقرة السريع» تقليدها للعبها بها حين كانت والدتي تعطيها إياها لتلعب بها عندما تأتي إلينا مع والدتها للخياطة؛ واللعبة الأخرى المسدس الفضائي بضحكنا فيما كنا نبحث عن مروحته التي تنطلق عند الضغط على زناده، فتضيع في إحدى زوايا الغرفة المبعثرة، وأشياء أخرى كلما وقعت بيدي تسليني. السكرية التي أعرضها هنا، تذكرني بإمساك فسون لها ذات فترة صمت تجلبها غيوم الحزن التي تقبض قلوبنا أحيانًا على الرغم من سعادتنا الشديدة، وسؤالها: «هل كنتَ تريد أن تعرفني قبل معرفتك الآنسة سيبل؟». عندما يزول سلوان كل ذاكرة من هذه الذكريات، ولمعرفتي بأن الألم الذي ينبعث من الخلف يمنعني من الوقوف على قدمي، لا أستطيع النهوض من السرير مع أحلامي، ومع تمددي على السرير، كل ما حولي يجعلني أحلم، وأستعيد ذكرياتنا واحدة تلو الأخرى.

الطاولة الصغيرة التي كانت تضع ساعتها عليها عندما كنا نمارس الحب في المرات الأولى هي بجانبي مباشرة. أنا منتبه إلى أن هناك عقب سيجارة ضغطته فسون في منفضة السجائر منذ أسبوع. تناولته ذات لحظة، وشممت رائحة العفن والحرق فيه، ووضعته بين شفتي، وكنت سأشعله، وأدخنه (ولعلي أفكر بعشق للحظة أنها هي)، ولكنني تراجعت لأن السيجارة ستنتهي. كممرضة حنونة تضمد جرحًا، لمست بطرفه الذي لامس شفتيها خديّ، وما تحت عيني، وجبيني، ورقبتي بنعومة. تجلت أمام عيني القارات البعيدة التي تعد بالسعادة، ومشاهد كأنها الجنة، وذكريات حنان والدتي من أيام طفولتي، وذهابي في حضن السيدة فاطمة إلى جامع تشويكية. ولكن بعد ذلك مباشرة يعود الألم ليبتلعني مثل بحر هائج.

في الساعة الخامسة، وأنا مازلت متمددًا على السرير تذكرت بأن جدتي لم تغيّر سرير جدي فقط بعد وفاته من أجل تحمل الألم، بل وغيّرت الغرفة

كلها. فكرت مستخدمًا إرادتي كلها بضرورة تخلصي من هذا السرير والغرفة، والأشياء التي توحي بالنقص وتفوح منها رائحة العشق السعيد وكل منها تنهار بشكل تلقائي. ولكن شعورًا داخليًّا يدفعني لعمل العكس، والتمسك بالأشياء، إما لأنني أكتشف سلوان الأشياء، وإما لأنني أضعف من جدتي بكثير. ربطني تصايح الأولاد المرحين الذين يلعبون كرة القدم وشتائمهم بالسرير حتى المساء. ولكنني بعد عودتي إلى البيت مساء، وشربي ثلاثة كئوس من العرق، واتصال سيبل وسؤالها عني، انتبهت إلى أن جرح أصبعي قد التأم منذ زمن.

وهكذا بقيت أذهب إلى شقة بناء مرحمة في الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم حتى منتصف تموز. كنت أعتقد أنني عوّدت نفسي على افتقاد فسون فيما أنتظر هدوء ألمي مع مرور الأيام بعد اقتناعي بأنها لن تأتي، ولكن هذا ليس صحيحًا نهائيًّا. لقد كنت أسلي نفسي بالسعادة التي تمنحها لي الأشياء فقط. كان ثمة جزء من عقلي ـ يكبر حينًا، ويصغر حينًا ـ متعلقًا بها بشكل دائم في نهاية أول أسبوع بعد الخطوبة، وإذا تحدثت بالحساب، فإن مجموع الألم لم ينقص نهائيًّا، بل ما زال يتزايد على عكس آمالي بالضبط. كنت أذهب إلى الشقة من أجل ألا أفقد اعتيادي وأملي برؤيتها.

كنت أقضي معظم الساعتين اللتين أقضيهما في الشقة متمددًا على سريرنا أحلم، وأتناول شيئًا يشع بذكريات سعادتنا البارقة، مثلًا كسارة الجوز هذه، الساعة القديمة ذات راقصة البالية التي كثيرًا ما حاولت فسون تشغيلها، وتحمل رائحة يدها، وأضعها على وجهي وجبهتي ورقبتي محاولًا تخفيف ألمي، وبعد ساعتين ـ أي وقت استيقاظنا من غفوة ما بعد ممارسة حب بنعومة المخمل ـ أحاول أن أعود إلى حياتي المعتادة وأنا مرهق من الحزن والألم.

هرب بريق حياتي. ترى سيبل التي لم أستطع ممارسة الحب معها (وجدت ذريعة أن موظفي صاطصاط يعرفون أننا نمارس الحب في

المكتب) أن مرضي الذي لا اسم له هو ارتباك الرجل قبل الزواج، ونوع من الحزن الخاص الذي لم يشخصه الطب بعد، وتعتبر هذا المرض رجاحة في العقل مثيرة للإعجاب، وحتى إنها تعاملني معاملة جيدة جدًّا نتيجة شعورها السري بالذنب لعدم استطاعتها إخراجي من هذه المشكلة. وأنا أعاملها بشكل جيد جدًّا، فأصطحبها إلى المطاعم التي لم نجد فرصة الذهاب إليها مع أصدقاء جدد تعرفت عليهم بتوتر، ومطاعم البوسفور التي تذهب إليها البورجوازية الإسطنبولية لتري بعضها بعضًا أنها سعيدة، والنوادي، ونلبي الدعوات، ونتحدث حول سعادة نورجيهان التي لم تحسم أمرها بالاختيار بين محمد وزعيم، ونضحك من هذا باحترام. خرجت السعادة من كونها هبة الله من الولادة، وخيارًا سلسًا كأنه حق لي، وتحولت إلى نعمة يحوزها المحظوظون والأذكياء والنبهاء، ويحافظون عليها بكدهم. بينما كنت أشرب نبيذ «غزل» وحدي (سيبل والآخرون يتضاحكون على الطاولة الأخرى) في بار «مهتاب» الذي يقف على بابه الحراس، ويجاور المرسى الممتد في البوسفور، تسرعت خفقات قلبي عندما التقت عيناي بعيني السيد طورغاي كأنني رأيت فسون، وطفح قلبي بغيرة مزلزلة.

٢٩ ـ لم تعد دقيقة تمر من دون أن أفكر فيها

إشاحة السيد طورغوت وجهه عني بدلًا من ابتسامته الراقية المهذبة، جرحتني بشكل لم أكن أتوقعه. أفكر بأن الرجل على حق من منطق أننا لم ندعه إلى حفل خطوبتي. ومن جهة أخرى فإن فكرة عودة فسون إليه من أجل الانتقام مني تفقدني توازني من الغضب. أردت أن أركض إليه، وأسأله عن سبب إشاحته بوجهه عني. لعله مارس الحب مع فسون اليوم بعد الظهر في شقته الخاصة الواقعة في شيشلي. شعرت بأن التفكير برؤيته لفسون، وحديثه معها كاف لإخراجي عن طوري. عشقه لفسون قبلي،

ومعاناتــه الألـم الذي أعاني منه ذات يوم بسـبب فسـون، لـم يخففا غضبي وشـعوري الداخلـي بالمهانة، بـل زاداه. شـربت كثيرًا على البـار. عانقتُ سـيبل التـي أصبحتْ أكثـر حنانًا مع الأيـام، ورقصتُ معهـا على مقطوعة «السوداوية» لبيبنو دي كابري.

ولكنني عندما رأيت أن غيرتي التي لم أسـتطع تهدئتها إلا بالمشروب قد عـادت صباح اليوم التالي برفقة الصداع، أدركت أن ألمي لم يخـف، ويأسـي يتزايـد باسـتمرار. فـي أثنـاء ذهابي في ذلـك الصبـاح إلى صاطصاط مشـيًا (مازالـت إنغـة تنظر إليّ بإغواء وهي تشـرب مياه ملتم الغازيـة)، ومحاولتي التلهي وسـط الملفات فـي المكتب، وتمرير اليوم، أضطـر للقبول بأن ألـمي ازداد قليلًا، وحوّل تفكيري بفسون إلى حال عقدية بدلًا من نسيانها.

لـم تضعـف ذكرياتي، أو تصبح ممكنة الاحتمال كما توسـلت إلى الله أن يحدث في الزمن الذي انقضى. كل يوم أبدؤه بأمل أن يكون أفضل من اليوم السـابق، وأن أنسـاها قليلًا، ولكنني أشـعر بأن الألم في بطني لم يتغير نهائيًّا، وبأنـه مسـتمر بتسـويد داخلي مثل مصباح يشـع سـوادًا باسـتمرار. كم كنت أريـد أن أؤمـن بأنني أصبحت أفكر فيها أقل، وسـأنجح بنسـيانها مع الزمن! أصبحت الدقائق التي تمر من دون أن أفكر فيها قليلة جدًّا، والأصح، ليسـت موجـودة نهائيًّا. يمكن أن تكون هناك لحظات عابرة، وهذا كل شـيء. وهذه اللحظات «السـعيدة» قصيرة جدًّا، وبعد ثانية أو ثانيتين من النسـيان، يشـعل مصباح داخلي الأسود مثل مصباح درج بناء أتوماتيكي تلقائيًّا، ويسمم بطني وحلقي ورئتي، ويخرب تنفسـي، ويحوّل الوجود إلـى صعوبة تحتاج كدحًا دائمًا.

في أسـوإ أوقاتي أريد أن أقدم على مبـادرة تخفف ألـمي، وأفضي همومي لأحد ما، وأجد فسون، وأتحدث معها، أو أتشاجر مع شخص أغير منه بغضب قاهر. كلما رأيت كنان في المكتب، يسـيطر علـيّ انهيار ناجم عن الغيرة على الرغم من محاولاتي الشديدة لضبط نفسي. وحتى لو أقرت بعدم وجود علاقة

بين فسون وكنان، فإن تعليقه عليها في حفل الخطوبة، واحتمال أن تكون فسون استمتعت بطعم هذا الاهتمام من أجل إثارة غيرتي كافيان لأن أكرهه. قرب الظهيرة قبضت على نفسي متلبسًا بالبحث عن ذريعة لأطرد كنانَ من العمل. نعم، إنه ماكر، وهذا واضح تمامًا. ارتحت في فرصة الظهيرة بتفكيري أنني سأذهب إلى بناء مرحمة، وأنتظر فسون ولو بأمل ضعيف. ولكنها عندما لم تأتِ بعد ظهر ذلك اليوم أيضًا، فهمت بخوف أن الانتظار لن يمكنني من احتمال الألم، ولن تأتي في اليوم التالي، وكل شيء سيكون أسوأ.

الفكرة المزلزلة الأخرى التي كانت تلح على عقلي في تلك الأثناء، هي عن تمكن فسون تحمّل كل هذا الألم، وحتى لو كان أقل منه. لا بد أنها وجدت شخصًا آخر، وإلا فإنها لن تستطيع الاحتمال. لا بد أن فسون تشارك أحدًا آخر بمتعة ممارسة الحب التي تعلمتها قبل أربعة وسبعين يومًا... أما أنا فأتمدد على السرير كل يوم كالموتى، وأنتظرها. لا، لست مخبولًا، لأنها خدعتني بوجود علاقة سعيدة جدًّا بيننا. وفي أثناء رقصنا بعشق على الرغم من توتر الوضع في الخطوبة، وفظاعته الشديدة وعدتني بالمجيء بعد خروجها من امتحان الدخول إلى الجامعة. إذا كانت غاضبة مني بسبب خطوبتي، وقررت الانفصال عني ـ وهي محقة بهذا ـ فلماذا كذبت عليّ إذًا؟ تحوّل ألمي الداخلي إلى جدل غاضب، والقول لها إنها مخطئة. وكما أفعل في كثير من المرات بشكل عُقَدي، أفكر بأنني أجادلها جدلًا خياليًّا، وأنها ستُدخل صور الجنة عبر مشاهد الأوقات السعيدة التي قضيناها معًا وسط الجدل، وتهدئني، ثم أعود ثانية للجدل معها مذكرًا بأطروحاتي كلها واحدة تلو الأخرى. كان عليها أن تقول لي بوجهي إنها تركتني. إذا كان امتحانها سيئًا فلستُ المسئول عن ذلك، وإذا كانت ستتركني فعلي أن أعرف هذا.. أما قالت لي بأنها ستبقى تراني إلى آخر عمرها؟ كان عليها أن تعطيني فرصة أخيرة، وسأجد قرطها، وأعيده بسرعة، هل تعتقد أن الرجال الآخرين يستطيعون حبها بقدر ما أحببتها؟ نهضتُ من السرير، وانطلقتُ إلى الشارع بطموح الحديث معها في كل شيء.

٣٠ - لم تعد فسون موجودة

كنت ذاهبًا إلى بيتهم بخطوات حثيثة. قبل وصولي إلى زاوية دكان علاء الدين، بدأت سعادة مفرطة تتصاعد في داخلي مما سأشعر به بعد قليل عندما أراها. في أثناء ابتسامي لقط يتناوم في ظل زاوية في حرارة تموز/ يوليو، سألت نفسي عن سبب عدم ذهابي مباشرة إلى بيتهم. هدأ الألم في أعلى يسار بطني منذ الآن، واختفى التردد من ساقي، وشعور التعب من ظهري. مع اقترابي من البيت يكبر خوفي من عدم إيجادها، ولهذا السبب تتسرع ضربات قلبي: ماذا سأقول لها؟ وإذا وجدت أمها أمامي ماذا سأقول لها؟ فكرتُ ذات لحظة بأن أعود إلى البيت، وأجلب دراجة طفولتي. ولكننا سندرك فور رؤية أحدنا الآخر أنه ليس هناك ضرورة لإيجاد ذريعة. دخلتُ برودة البناء الصغير في زقاق «بستان البئر» كشبح، وصعدتُ الطابق الثاني كما لو أنني أسير في نومي، وضغطت على الجرس. الرجاء من زوار المتحف الشغوفين أن يضغطوا على زر الجرس الذي أمامهم، وليتخيلوا أنني سمعت أيضًا تغريد الطائر الذي كان شائعًا جدًّا في إسطنبول حينئذ، وفي الوقت نفسه، انحشر قلبي في حلقي، وبدأ يخفق هناك كطائر.

فتحت الباب والدتها، ونظرتْ إلى الغريب المنهك الواقف بالباب في عتمة البناء رافعة أنفها كأنها تنظر إلى بائع طرق الباب بوقت غير مناسب. عرفتني بعدئذ، وأشرق وجهها. هذا ما أثار أملي، وخفف ألم معدتي قليلًا.

«آآ، تفضل سيد كمال!».

قلت مثل الشاب الشهم والجريء في مسرح الإذاعة: «كنت قريبًا، فعرجت. لاحظت في ذلك اليوم أن فسون تركت العمل في الدكان. انشغل بالي، لم تتصل بي، كيف كان امتحان جامعة ابنتنا؟».

«آه يا بني سيد كمال، تعال إلى الداخل لأفضفض لك بهمومي».

دون إدراك مـا توحي به عبارة «أفضفض بهمومـي»، دخلتُ إلى البيت الخفيـف الظلمة في الزقاق الخلفي الـذي أدخله للمرة الأولى على الرغم مـن علاقتها بالخياطة لوالدتي لمـدة طويلة وحقوق القرابة: أرائك مغطاة، طاولة، خزانة زجاجيات فيها سكرية وطقم فناجين كريستالية، وفوق التلفاز دمية كلب نائم... كانت هذه الأشـياء كلها جميلة لأنها سـاهمت بتشـكيل المذهلـة المدعوة فسـون. رأيتُ فـي الزاوية مقصّ خياطيـن، وقصاصات قماش، وخيوطًا بمختلف الألوان، ودبابيسَ، وقطعًا من ثوب يخاط. يبدو أن نسـيبة ما زالت تعمل بالخياطة. هل فسـون بالبيت؟ لم تكن هناك على الأغلب، ولكن حالة المرأة المنتظرة شـيئًا ما، والمساومة التي تحسب كل شيء كانت تعطيني أملًا.

قالـت: «اجلـس رجاء يا سـيد كمال. لأعـدَّ لك قهوة. وجهك شـاحب. ارتح قليلًا. هل تريد ماءً من الثلاجة؟».

قال الطائر النافد الصبر الذي في فمي: «أليست فسون هنا؟».

قالت المرأة: «نعم، ليست هنا». ولكنها قالتها بنبرة «يا لما جرى»، قالت: «قهوتكم كيف؟». وانتقلت من خطاب المفرد إلى خطاب التفخيم.

«وسط!».

الآن، وبعد مرور كل هذه السنين أدرك أن المرأة ذهبت إلى المطبخ لتعدّ الجـواب الذي سـتجيبني به أكثر مما تعـد القهوة. ولكنني لم أسـتطع حينئذ استنتاج هذه النتيجة لأن عقلي سكران برائحة فسون المتغلغلة بالبيت، وبأمل رؤيتهـا حتى لو كانـت مراكز التلقي لـدي كلها مفتوحة. خشخشـة الكناري ليمـون الصديق الذي أعرفه من بوتيك شـانزليزيه في قفصـه يأتي مثل مرهم على جرح عشـقي، ويشـتت تفكيري أكثر. على الطاولة الصغيرة التي أمامي مسطرة خشبية محلية الصنع حافتها رقيقة أهديتها إياها (في لقائنا السابع وفق حسـاباتي التي أجريتها لاحقًا) لتستخدمها في الهندسة. من الواضح أن الأم تستخدم أداة هندسة فسون في الخياطة. تناولت المسطرة، وقربتها من أنفي،

وتذكرت رائحة يد فسون، وتجلت أمام عيني. هل كانت عيناي ستدمعان؟ أثناء مجيء العمة نسيبة من المطبخ، دسست المسطرة بجيب سترتي الداخلي من دون أن أُشعرها.

وضعت القهوة أمامي، وجلستْ. أشعلتْ سيجارة بحركة تذكر أنها أم البنت، وقالت: «لم يكن امتحان فسون جيدًا يا سيد كمال». وقد قررت كيف ستخاطبني. «حزنت كثيرًا. وخرجت في منتصفه باكية، ولا ننتظر النتائج. اهتز كيانها. لن تستطيع ابنتي المسكينة الدراسة في الجامعة. وتركت عملها نتيجة حزنها. قالت إن دروس الرياضيات التي أعطيتموها إياها أنهكتها كثيرًا، وأنكم أحزنتموها. وحزنت كثيرًا ليلة الخطوبة. يجب أن تكونوا على علم بهذا... الأمور كلها أتت متلاحقة. لا تتحملون المسئولية وحدكم بالطبع... ولكنها طفلة صغيرة ورقيقة. دخلت الثامنة عشرة توًّا. جُرحت بعمق. أخذها والدها إلى مكان بعيـ...ـد، إلى مكان بعيد جدًّا جدًّا. انسوها أنتم بعد الآن. وهي ستنساكم».

فيما كنت متمددًا على السرير في بناء مرحمة شاعرًا بالمنحنى الذي ترسمه دموعي على خدي وأنا أنظر إلى السقف بعد عشرين دقيقة، خطرت المسطرة ببالي. نعم، في الحقيقة أن مسطرة المدرسة المتوسطة والثانوية التي استخدمتُ شبيهتها، ولعل هذا ما جعلني أهديها لفسون هي واحدة من أولى قطع متحفنا الحقيقية. إنها غرض يذكرني بها، وحصلت عليه من حياتها بالألم. دسست الطرف الذي يشير إلى الثلاثين سنتيمترًا بهدوء إلى فمي، كان فيه طعم مائل إلى المرارة، ولكنني أبقيته طويلًا. تمددت ساعتين في السرير وأنا ألعب به من أجل أن يذكرني بالأوقات التي استخدمتها فيها. وهذا ما حسّن حالي بحيث شعرت بأنني سعيد كأنني رأيت فسون.

٣١ - الأزقة التي تذكرني بها

أدركت أنني لن أستطيع العودة إلى أيامي السابقة إذا لم أعدّ خطة من أجل نسيانها. موظفو صاطصاط الأقل انتباهًا لاحظوا الحزن الأسود الذي خيّم على رب عملهم. تعتقد والدتي أن هناك مشكلة بيني وبين سيبل، وتستدرجني بالكلام، وتنبهني كما كانت تفعل مع والدي إلى عدم الشرب كثيرًا على موائد العشاء التي أصبحنا نادرًا ما نخرج معًا إليها. يزداد فضول سيبل وحزنها بالتوازي مع ألمي، وتقترب من نقطة انفجار أخاف منها. كنت خائفًا من فقدان دعم سيبل الضروري جدًّا، والتعرض لانهيار كامل.

منعتُ نفسي بكل إرادتي من الذهاب إلى بناء مرحمة، وانتظار فسون، وتناول الأشياء التي هناك، وتذكرها. ولأنني خرقت تلك المحظورات التي فرضتُها على نفسي وحاولت تطبيقها بخداع نفسي بمختلف الذرائع (مثل النظر إلى داخل محل شانزليزيه عندما أقول لنفسي لآخذ أزهارًا لسيبل)، قررت أن أتخذ سلسلة من الإجراءات، وأن أمحو من خريطة مخي بعض الأزقة والأماكن التي قضيت قسمًا كبيرًا من حياتي فيها.

أعرض هنا خريطة نيشان طاشِ الجديدة التي عملت بكل قوتي على تجسيدها وتبنيها. منعت نفسي منعًا باتًّا من الدخول إلى الأزقة والأمكنة الملونة بالأحمر. بوتيك شانزليزيه القريب من تقاطع شارعي قصر المحافظ وتشويكية، وشارع تشويكية الواقع عليه بناء مرحمة، وزاوية المخفر، ودكان علاء الدين لونها أحمر في عقلي كما هي في الخريطة. حظرت على نفسي زقاق إملاك الذي لم يكن اسمه عبدي إبكجي، وغيّر بعدئذ إلى اسم جلال صاليك، ويسميه أهالي نيشان طاش «زقاق المخفر»، كما حظرت زقاق بستان البئر الذي تسكن فيه فسون، وكل الأزقة الفرعية المؤدية إليه. يمكن أن أمر من الأماكن المشار إليها بالبرتقالي راكضًا إذا كان الأمر ضروريًّا جدًّا، ولست سكرانًا، ولا يستغرق مروري أكثر من

دقيقة في عبور مختصر على أن أغادرها فورًا. زقاق بيتنا وجامع تشويكية مثله مثل كثير من الأزقة الجانبية هي أزقة اللون البرتقالي التي سأتألم بألم العشق كثيرًا إذا لم أنتبه حين أمر منها. الطريق الذي أمشي فيه من صاطصاط إلى بناء مرحمة من أجل أن ألتقي بها كل يوم، والطريق الذي أسلكه من بوتيك شانزليزيه (كنت دائمًا أتخيل هذا الطريق) فهو مليء بالفخاخ والذكريات الخطيرة التي ستزيد من آلامي. كنت أستطيع الدخول بهذه الطرق، ولكنني يجب أن أنتبه. وأشرت إلى أماكن أخرى لها علاقة بعلاقتي القصيرة بفسون، مثلًا المقسم الذي شاهدنا فيه ذبح الأضحية عندما كنا صغارًا، وزاوية باحة الجامع التي وقفت فيها عند الجنازة. أحافظ على هذه الخريطة بشكل دائم، ولا أدخل الأزقة الملونة بالأحمر نهائيًّا، وأؤمن بأنني سأبرأ من مرضي تدريجيًّا بهذا الشكل.

٣٢ ـ الظلال والأشباح التي اعتقدتُ أنها فسون

تضييق الأزقة التي قضيت فيها حياتي كلها بالحظر، وابتعادي عن الأشياء التي تذكرني بها، لم ينسياني فسون للأسف؛ لأنني بدأت أرى خيالات تشبه فسون في زحام الشوارع والدعوات.

أول تلك اللقاءات المفقدة للتوازن حدث أثناء ذهابي في العبارة البحرية إلى مصيف سعادية التي انتقلت إليه والدتي قريب المساء في أواخر تموز. ما إن دورت محرك السيارة مثلي مثل بقية السائقين نافدي الصبر عند اقتراب العبارة من أسكودار، حتى رأيت فسون خارجة من الباب المخصص للركاب المشاة. لم يكن الباب المخصص لنزول السيارات قد فُتح بعد، ولا يمكنني أن ألحق بها إلا إذا نزلت من السيارة، وركضت، ولكنني حينئذ سأغلق باب خروج السيارات من العبارة. رميتُ بنفسي إلى الخارج وقلبي يخفق بسرعة. ما إن كنت سأناديها بكل قوتي، انتبهت إلى أن جسمها من الخصر

إلى الأسفل أكثر خشونة بكثير من جسم حبيبتي الجميلة، وتحول وجهها إلى وجه واحدة مختلفة تمامًا. ثماني أو عشر الثواني التي يتحول فيها ألمي إلى سعادة، عشته في الأيام التالية من جديد بالعرض البطيء، وأؤمن من كل قلبي بأنني سألتقي بها على هذا النحو.

ذهبتُ بعد عدة أيام إلى سينما قوناق لقتل بعض الوقت، وبينما كنتُ صاعدًا درج الخروج الطويل والعريض إلى سوية الشارع، رأيتها على مبعدة ثماني أو عشر درجات أمامي. شعرها الطويل المصبوغ بالأصفر، وجسمها النحيل حرّك قلبي بداية، ثم ساقي. أثناء اقترابي منها راكضًا، أردت أن أناديها، ولكن صوتي لم يخرج في اللحظة الأخيرة كما يحدث في الأحلام، لأنني انتبهت إلى أنها ليست هي.

في بيه أوغلو التي صرت أخرج إليها أكثر لأنها تذكرني بها أقل، سيطر عليّ الانفعال بسبب خيالها المنعكس على واجهة أحد المحلات. ركضت خلفها، ولكنني فقدتها قبل أن ألحق بها. ولأنني لم أستطع أن أجزم ما إن كانت رؤيتي لتلك الفتاة هي سراب قدمته لي آلامي أو حقيقة، ذرعت المكان بين جامع الآغا وسينما سراي في الأوقات نفسها لعدة أيام تلت، بعد ذلك جلست خلف واجهة مشرب بيرة، وشربت وأنا أراقب الشارع والمنظر والزحام.

لحظات اللقاء تلك التي تبدو خارجة من الجنة كانت قصيرة جدًّا أحيانًا. مثلًا صورة تريني ظلًّا أبيض لفسون في ساحة التقسيم هي وثيقة مخاتلة مدتها ثانية أو ثانيتان.

في الأيام نفسها لاحظت كم هناك فتيات ونساء شابات يقلدن شعر فسون، وطولها وقوامها، وكم هناك فتيات سمراوات يصبغن شعرهن بالأصفر. كانت أزقة إسطنبول مليئة بأشباح فسون التي تظهر لثانية أو ثانيتين ثم تغيب. ولكنني عندما أدقق بتلك الأشباح عن قرب، أرى أنها في الحقيقة لا تشبه فسون نهائيًّا. فيما كنت ألعب التنس مع زعيم في نادي رياضة الجبال،

رأيتهـا بين ثلاث فتيات جالسـات إلى إحدى الطـاولات جانبًا، ويتضاحكن وهن يشـربن مياه ملتم الغازية، ولكنني منذ اللحظة الأولى لم أدهش لرؤيتها هنـاك، بل لدخولها النادي. في مرة أخرى كان شـبحها وسـط الزحام النازل من سـفينة قاضي كوي صاعدًا نحو جسـر غلاطة تلوح بيدها لسـيارة خدمة. بعد فترة، اعتاد قلبي وعقلي على هذا السـراب. عندما رأيتها مع أختيها على مبعدة أربعة صفوف مقاعد في الشـرفة بين فيلمين في سـينما سـراي، يأكلن شـيكولاته مثلجة ماركة «بوظ سـراب» بمتعة، لم أفطن فورًا لأن فسون ليس لديها أخت، واسـتمتعت بطعم المخاتلة التي تهـدئ ألمي حتى النهاية، ولم أفكر نهائيًّا بأن هذه الفتاة ليست فسون، ولا تشبهها نهائيًّا.

رأيتهـا أمام برج السـاعة المجاور لقصر ضولمة بهتشـة، وبهيئة ربة منزل تحمل سـلة تسوق بيدها وسط سوق بشكطاش، والأكثر زلزلة هو رؤيتي لها تنظر إلى الشـارع من نافذة طابق ثالث فـي غومش صويو. عندما رأتني واقفًا علـى الرصيف أنظر إليها، بدأ شـبح فسـون الذي في النافذة ينظـر إلي أيضًا. لوحـت لها بيـدي حينئـذ، وردت عليّ. ولكننـي أدركت مـن تلويحها بيدها أنها ليسـت فسون، وابتعدت من هناك خجلًا. على الرغم من هذا تخيلت أن والدها زوَّجها لأحد ما لكي تنساني خلال فترة قصيرة، وهناك بدأ خيالٌ آخر يظهر، ولكنه يريد أن يراني.

خـارج ثانيـة اللقـاء الأول أو ثانيتيـه اللتين تمنحـان سـلوانًا حقيقيًّا، كان عقلـي دائمًـا منتبهًا إلى أن تلك ليسـت فسـون، بل مخاتلة روحـي الحزينة. ولكن رؤيتها أمامي يثير في داخلي شعورًا لذيذًا بحيث اعتدت على الذهاب إلـى الأماكن المزدحمة لمقابلة شـبحها، وكأنني قد أشـرت إلـى أماكن هذه المناطق المزدحمة على خريطة إسطنبول التي في عقلي. دائمًا أشعر بالرغبة للذهاب إلى المناطق التي أعتقد أن ظل فسـون سـيظهر فيها. حولت المدينة إلى عالم إشارات تذكر بها.

لأنني أقابل خيالها أثناء شـرودي، ونظري إلى البعيد، أسير شاردًا، وأنظر

إلـى البعيـد. عندما تكون سـيبل معـي، وأفرط بالشـرب في النـوادي الليلية والدعوات، أقابل فسون بأزياء مختلفة، ولكنني أسترجع وعيي بسرعة خشية انفضاح كل شيء فيما لو أبديت ردة فعل مبالغ بها على أنني خاطب، وأدرك فورًا أن تلك المرأة ليست فسون. أعرض مناظر شواطئ كيليوس وشيلة هذه لأنني كنت أراها على الأكثر بين النسـاء والفتيـات بلباس البحر الخجولات بعـد الظهر عندما يتخـدر عقلي وانتباهي بتأثير الحـرارة والتعب. كنت دائمًا أشـعر بالتشابه بين انكسار فسـون وخجل الأتراك الذين لم يتعلموا بعد لبس تبـان البحـر، والوقوف بعضهم أمـام بعض على الرغم من مـرور أربعين إلى خمسين عامًا على تأسيس الجمهورية وثورات أتاتورك.

في لحظات الشوق غير المحتملة، أترك زعيمًا وسيبل يلعبان كرة البحر، وأتمـدد على الرمل في مكان بعيد، وأدع جسـمي الفـظ المتصلب من افتقاد العشـق بأن يحترق بالشـمس، وأنظر إلى المرسـى بطرف عيني، وأعتقد أنها الفتـاة القادمـة نحوي ركضًا. لماذا لم نأتِ ولو مـرة إلى كيليوس على الرغم من رغبتها الشـديدة بالمجـيء! لماذا لم أعرف قيمة تلـك الهدية التي وهبها الله لـي! متى كنـت سـأراها؟ أريد أن أبكـي وأنا متمـدد علـى الرمل تحت الشـمس، ولكنني لا أسـتطيع فعل هـذا لمعرفتي أنني مذنب، وأدفن رأسـي بالرمل، وأشعر بالقهر.

٣٣ ـ تلهّي فظ

كأن الحيـاة ابتعـدت عني، وفقدت قوتها التي شعرت بهـا، ولونها الذي رأيتـه إلى ذلـك اليوم، وفقدت الأشـياءُ قوتها وحقيقتها التي شـعرت بها في زمن ما (وللأسـف أنني لم أنتبه إلى أنني شـعرت بها). عندما أعطيت نفسـي للكتـب بعـد أعوام، قرأت الأسـطر التي تعبـر أفضل تعبير عـن تفاهة الأمور وعاديتها في كتاب الشاعر الفرنسي جيرار دي نرفال. كتب الشاعر الذي شنق

نفسه في النهاية تحت تأثير ألم العشق في إحدى صفحات كتابه الموسوم «أوريليا»، بعد إدراكه أنه فقد عشق حياته: أن الحياة بعد ذلك لم تكن سوى «تلهي فظ». هذا ما أشعر به أنا أيضًا، ولا أتخلص من شعوري بأن كل ما فعلته حين كنت مع فسون كان فظًّا وتافهًا ولا معنى له، وأشعر بالغضب من الأشخاص والأشياء التي أدت إلى ما آلت إليه الأمور. ولكنني لم أفقد أملي قط بأنني سأجد فسون في النهاية، وأكلمها، وأعانقها، وهذا ما يربطني بالحياة بشكل ما من جهة، ويطيل ألمي كلما أفكر فيما بعد نادمًا.

في واحد من أسوإ تلك الأيام، وصباح يوم حار من تموز، اتصل أخي، وشرح لي بغضب محق أن السيد طورغاي الذي أنجزنا معه كثيرًا من الأعمال الناجحة غاضب جدًّا لأننا لم ندعه إلى حفل الخطوبة (عرف عثمان من أمي أنني محوت اسم شريكنا من قائمة المدعوين)، وحتى إنه يريد أن ينفصل من عمل تصدير كبير لملاءات، فهدّأته بأنني سأحل هذا الأمر بشكل جيد، وسأرضي السيد طورغاي.

اتصلتُ فورًا، وأخذت موعدًا من السيد طورغاي. في اليوم التالي، كنت في السيارة الذاهبة إلى مصنع السيد طورغاي الضخم في بهتشلي إفلر تحت قيظ حرارة الظهر أنظر إلى الأحياء المنفّرة التي تغطيها الأبنية الجديدة والمستودعات والمصانع والمزابل، وتجعل المدينة أقبح، لم يبد لي ألم العشق غير محتمل. من المؤكد أن السبب هو ذهابي للقاء شخص يمكن أن آخذ منه خبرًا عن فسون، أو أتحدث معه حولها. ولكنني كنت أخفي عن نفسي سبب الانفعال الممتع كما يحدث في حالات مماثلة (أثناء حديثي مع كنان أو عندما التقيت السيدة شيناي في تقسيم مصادفة)، وأحاول إقناع نفسي بأنني ذاهب إلى هناك بعمل فقط. لو لم أخدع نفسي إلى هذه الدرجة، لعل لقاء «العمل» مع السيد طورغاي سيكون أنجح.

مجيئي من إسطنبول من أجل الاعتذار داعب غرور السيد طورغاي، واكتفى بهذا التصرف، وعاملني معاملة جيدة. أراني ورشات النسيج التي

تعمـل فيها مئات الفتيات، والصبايا الجالسـات خلف أنوال النسـيج (شـبح فسـون الجالسـة خلف نول النسـيج وهي تدير ظهرها نحوي سـرّع خفقان قلبـي، وجهزني للموضوع الأساسـي)، وبناء الإدارة الجديـد و«الحديث»، والمقصـف «الصحي» بجو من الود يشـعرني بأن مـن مصلحتنا أيضًا العمل معـه، أكثر من أسـلوب الغرور. أراد السـيد طورغاي أن نتنـاول طعام الغداء فـي المقصـف مـع العمال كمـا يفعل عـادة، ولكنني أقنعت نفسـي بـأن هذا ليـس كافيًـا للاعتذار منه، وقلت له بأننا يجب أن نشـرب قليـلًا من أجل فتح «الموضوعات العميقة». لم يظهر على وجهه العادي ذي الشـاربين أي تعبير يشـي بإدراكه أنني أشير إلى فسـون. ولأنني لم أفتح حتى تلك اللحظة قضية دعوة الخطوبة، قال بغرور: «كثيرًا ما يحدث عدم انتباه، لننس الأمر». ولكنني تظاهـرت بعـدم الانتباه، وفرضت علـى الرجل المجدّ والمشـغول بعمله أن يدعونـي إلى أحد مطاعم السـمك في بكـر كوي. فور ركوبي سـيارته ماركة موسـتانغ خطر ببالي أنه بادل فسـون القبل مرات عديدة علـى هذه المقاعد، وقد انعكسـت ممارسـة الحب على لوحات المؤشرات والمرآة، وأنه ضغط عليها وهي لم تبلغ الثامنة عشـرة بعد، ودس يديه إلى كثير من أمكنتها. أفكر بأن فسـون عادت إليه، وعلى الرغم من خجلي نتيجة هذه الأحلام، وإرادتي التفكيـر بإمكانية ألا يكون لدى الرجل أي علم بأي شـيء، فإنني لم أسـتطع استجماع نفسي.

حين جلست مقابل السـيد طورغاي، بدونا كرجلين بائسين في المطعم، عندمـا رأيـت يديه المشـعرتين وهما تمـدان المنديل في حضنـه، وأنفه كبير المنخرين، وفمه الوقح عن قرب، شـعرت بأن كل شـيء سيسير إلى الأسوإ، وأن نفسـي ضاقت بالألم والغيرة، ولن أسـتطيع لملمة الأمـر. يقول للنادل: «انظـر إلـي!»، وبحـركات تقليد هوليود مسـح شـفتيه بالمنديـل بلطف كأنه يضمدهمـا. على الرغم من هذا ضبطت نفسي، وسايرت الوضع حتى منتصف الطعام. ولكن العرق الذي شـربته كي أتخلص من السـوء في داخلي، أخرج هذا السوء إلى الخارج. ما إن كان السيد طورغاي يقول بأسلوب لبق جدًّا إن

العثرة في قضية الملاءات قد حُلّت، ولم يعد هناك مشكلة بين الشركاء، وإن شغلنا سيسير جيدًا، حتى قلت: «ليس المهم أن تكون أعمالنا جيدة، بل أن نكون نحن جيدين».

في أثناء إلقائه نظرة إلى كأس العرق الذي بيدي: «سيد كمال، أنا أحترمكم وأحترم والدكم وعائلتكم كثيرًا. وكلنا مررنا بأيام صعبة. كوننا أغنياء في هذه الدولة الفقيرة والجميلة هو حظ لا يمنحه الله إلا لعباده الذين يحبهم كثيرًا، وعلينا أن نشكره. علينا ألا نصاب بالغرور، وأن ندعو، ولا يمكن أن نكون جيدين إلا بهذه الطريقة».

قلت ساخرًا: «لم أكن أعرف أنكم صوفيون إلى هذه الدرجة».

«يا عزيزي سيد كمال، ما هو ذنبي؟».

«سيد طورغاي، كويتم قلب فتاة صغيرة من عائلتي، وتصرفتم معها تصرفًا سيئًا، وحتى إنكم حاولتم الحصول عليها بالنقود. فسون التي تعمل في بوتيك شانزليزيه هي قريبة لي من طرف أمي».

شحب وجهه بشدة، ونظر أمامه. أدركت أنني أغير من السيد طورغاي ليس لأنه حبيب فسون قبلي، بل لأن آلام عشقه تلك خمدت، وتمكن من العودة بنجاح إلى حياته البورجوازية العادية.

قال بإرادة مدهشة: «لم أكن أعرف أنها قريبتكم. أنا خجل جدًّا الآن. إذا كنتم كعائلة لا ترغبون برؤيتي، وهذا سبب عدم دعوتي إلى الخطوبة فأنا أعطيكم الحق. والدكم وشقيقكم أيضًا يفكران على هذا النحو؟ ماذا نفعل، هل نفسخ الشراكة؟».

«لنفسخها» وقد ندمت فور قولي هذه الكلمة.

قال: «في هذه الحال تكونون أنتم من فسخ العقد». وأشعل سيجارة مارلبورو حمراء.

أضيف إلى ألم العشق خجل الخطأ الذي ارتكبته. على الرغم من كوني

سكرانًا، فقد قدت السيارة بنفسي في طريق العودة. المتعة والسعادة التي أشعر بها وأنا أقود السيارة في إسطنبول، وخصوصا في الطريق الساحلي على طول الأسوار تتحول الآن إلى تعذيب بسبب الشعور بالكارثة. كأن المدينة أيضًا فقدت جمالها، وكنت أضغط على البنزين من أجل أن أهرب منها. أثناء مروري من أمينونو تحت جسور المشاة أمام الجامع الجديد كدت أصدم أحد الماشين في الشارع.

عندما عدت إلى المكتب قررت أن أفضل ما يمكن عمله هو إقناع نفسي وعثمان بأن إنهاء الشراكة مع السيد طورغاي ليس سيئًا إلى هذه الدرجة. استدعيت كنان الذي يعرف موضوع هذا التعهد جيدًا، واستمع لما شرحته بفضول شديد. لخّصت ما حدث قائلًا: «السيد طورغاي يعاملنا بفظاظة لأسباب شخصية». وسألته عما إذا كنا نستطيع تأمين تعهد الملاءات وحدنا. قال إن هذا غير ممكن، وسأل عن أصل المشكلة. أعدت عليه بأننا اضطررنا لفصل طريقنا عن طريق السيد طورغاي.

قال كنان: «سيد كمال، علينا ألا نفعل هذا إن كان ممكنًا. هل تحدثتم مع شقيقكم؟ هذه لن تكون ضربة لصاطصاط فقط، بل لبقية الشركات أيضًا، وإذا لم تُنجز الملاءات في وقتها، فهناك مواد ثقيلة جدًّا في عقودنا ستتخذها محكمة نيويورك ضدنا». سأل من جديد: «هل شقيقكم على علم بالأمر؟». أعتقد أن من حقه القلق علي، وليس على الشركة فقط لأنه شم رائحة العرق القوية التي تفوح من فمي. قلت: «انفلت السهم من القوس. سنقوم بالعمل من دون السيد طورغاي. ما العمل؟». كنت أعرف أن هذا مستحيل وإن لم يقله كنان. ولكن جانبَ عقلي الواقعي قد توقف تمامًا، واستسلم لشيطان يريد أن يختلق مشكلة، وأن يشاجر.

لم أستطع أن أضرب رأس كنان بمنفضة السجائر والغرازة التي عليها شعار صاطصاط في ذلك الوقت بالطبع، ولكنني أردت أن أفعل هذا. أتذكر بأنني انتبهت باستغراب إلى أن ألوان ربطة عنقه وزخارفها التي اعتبرتها

مضحكة متطابقة مع التي على منفضة السجائر. صرخت به: «سيد كنان، أنت تعمل معي وليس في شركة أخي!».

قال بتحذلق: «سيد كمال، أرجوكم، أنا منتبه إلى هذا بالطبع. ولكن حضرتكم عرفتموني على شقيقكم في الخطوبة، ومنذ ذلك الوقت ألتقي به. إذا لم تبلغوه بهذا الموضوع المهم، فسيحزن كثيرًا. شقيقكم على علم بمشاكلكم التي تعانون منها في الأيام الأخيرة، ويريد أن يقف إلى جانبكم مثل الجميع».

ستفقدني عبارة «مثل الجميع» صوابي من الغضب. فكرت للحظة بطرده فورًا، ولكنني خفت من وقاحته. أشعر بجانب من عقلي أنني عميت تمامًا، وأنني لا أستطيع تقييم ما يحدث بشكل سليم بسبب العشق والغيرة. في أثناء شعوري بألم عميق مثل حيوان وقع في فخ، كنت منتبهًا إلى أن رؤية فسون فقط يمكن أن تحسّن حالتي. لم تكن الدنيا تهمني، لأن كل شيء فظ ولا ضرورة له.

٣٤ ـ مثل الكلب الذي في الفضاء

ولكنني رأيت سيبل بدلًا من فسون. ازداد ألمي بشدة، وتلبسني تمامًا بحيث شعرت بأن جلوسي وحيدًا في الشركة بعد ذهاب الجميع سيشعرني بوِحدة كلب مرسل إلى ظلمات الفضاء في سفينة فضائية صغيرة. اتصالي بسيبل بعد ذهاب الجميع، ودعوتي لها إلى المكتب أثار لديها انطباع أننا عدنا إلى «عاداتنا الجنسية قبل الخطوبة». خطيبتي طيبة النية تعطرت بعطر ماركة سيلفي الذي أعجب به دائمًا، وارتدت جوربًا شبكيًّا وحذاءً عالي الكعب تعرف جيدًا أنهما يثيرانني كثيرًا. لأنها جاءت بسعادة فائقة معتقدة أن أزمتي قد انتهت، لم أخبرها بأن وضعي على العكس تمامًا، وقد استدعيتها من أجل أن تنتشلني ولو قليلًا من الشعور بوقوع الكارثة، وتحتضنني كما

كانت والدتي تحتضنني في طفولتي. وهكذا أجلستني سيبل على الأريكة كما كانت تفعل بمتعة سابقًا، ثم خلعت ملابسها ببطء مؤدية دور سكرتيرة غبية خيالية، ثم جلست في حضني مبتسمة بشكل لذيذ. لن أشرح لكم مدى راحتي بشعرها ورقبتها ورائحتها التي تشعرني بنفسي، وقربها الذي يمنحني تلك الثقة المعروفة، لأن القارئ المعقول وزائر المتحف الفضولي يمكن أن يخيب أمله باعتقاد أننا صرنا نمارس الحب بسعادة بعد ذلك. سيبل أيضًا خاب أملها. أما أنا فقد شعرت بتحسن كبير إلى درجة أنني غططت في نوم مريح وسعيد، ورأيت فسون في حلمي.

عندما استيقظت وأنا أتصبب عرقًا، كنا متمددين متعانقين حتى تلك اللحظة. ارتدينا ألبستنا دون أن نتكلم في الظلمة الخفيفة وهي تفكر، وأنا أشعر بالذنب. مصابيح السيارات العابرة من الشارع، والشرر البنفسجي الذي يقدح من قرني الحافلات الكهربائية تنير المكتب كما في أيام سعادتنا.

ذهبنا إلى فوآية دون نقاش حول المكان الذي سنذهب إليه. وفيما كنا نجلس إلى طاولتنا المتلألئة وسط الزحام السعيد، فكرت مرة أخرى كم هي سيبل لذيذة وجميلة ومتفهمة. أتذكر أننا تحدثنا لساعة بموضوعات عامة متفرقة، وتضاحكنا مع أصدقائنا السكارى الذين كانوا يجلسون إلى طاولتنا، ويغادرون، وعرفنا من النادل أن نورجيهان ومحمد جاءا، وغادرا باكرًا. ولكن الصمت يظهر انشغال عقلينا بالموضوع الأساسي الذي لا يمكن الهرب منه بعد الآن. طلبت فتح زجاجة نبيذ «تشانقايا» ثانية. أصبحت سيبل أيضًا تشرب كثيرًا.

قالت في النهاية: «أصبح عليك أن تحكي، ما المشكلة؟ هيا..».

قلت: «ليتني أعرف. كأن جانبًا من عقلي لا يريد أن يعرف هذه القضية ويفهمها».

«أي أنك لا تعرف أيضًا، أليس كذلك؟».

«نعم، لا أعرف».

قالت سيبل باسمة: «برأي أنك تعرف أكثر مني».

«برأيك ما الذي أعرفه؟».

سألت: «هل تقلق من معرفة رأي بمشكلتك؟».

«أخاف من فقدانك لعدم تمكني من حل هذه المشكلة».

قالت: لا تخف. أنا صبورة، وأحبك كثيرًا. وإذا لم ترد أن تتكلم، فلا تتكلم. وليس لدي أفكار خاطئة حول القضية، فلا تقلق. لدينا الوقت».

«أفكار خاطئة مثل ماذا؟».

قالت لي باسمة وبرغبة إراحتي: «مثلًا لا أفكر بأنك من المثليين».

«سلمتِ، وغير ذلك؟».

«ولا أؤمن بإصابتك بمرض جنسي أو ألم طفولي عميق وما شابه ذلك. ولكنني أعتقد بأن الأفضل أن تذهب إلى طبيب نفسي. الذهاب إلى طبيب نفسي ليس معيبًا، والجميع يذهبون إليه في أوربا وأمريكا... وبالطبع يجب أن تشرح له ما لم تستطع شرحه لي... هيا يا روحي، اشرح لي، ولا تخف، سأسامحك».

قلت باسمًا: «أنا خائف. هل نرقص؟».

«في هذه الحال تقبل بوجود ما تعرفه أنت، ولا أعرفه أنا».

«الرجاء ألا ترفضي طلبي بالرقص معك يا متموزيل».

قالت: «آه يا مسيو، أنا مخطوبة لرجل مهموم».

أقدم تفاصيل الحوارات التي دارت بيننا في ليالي تموز/ يوليو الحارة تلك في النوادي الليلية والدعوات والمطاعم التي أعرض قوائم طعامها وكئوسها حيث شربت كثيرًا لتكون مثالًا على تطور تقارب غريب، ولغة خاصة ـ لا أدري إن كنت أستخدم الكلمة الصحيحة ـ وحب كثيف بيننا. لم يكن هذا الحب الذي يتغذى بحنان قوي، وليس بعشق جنسي، بعيدًا تمامًا عن

تجاذب بشرتينا وجسدينا الذي شهد عليه الغيورون أثناء رقصنا بعد منتصف الليل وسكرنا حتى الثمالة. في أثناء تجوال نغمات مقطوعة «الورد والشفاه» التي تعزفها الأوركسترا أو المقطوعات التي يختارها «فارس الأسطوانات» (كانت هذه المهنة جديدة في تركيا) بين أوراق الأشجار الصامتة والثابتة في ليالي الصيف الرطبة، أندس بين ذراعي حبيبتي خطيبتي كما أفعل عند تمددنا على الأريكة في المكتب بشعور الرغبة بالحماية، ومتعة المشاركة، وقوة المرافقة، وأسحب رائحة شعرها ورقبتها التي تمنحني طمأنينة إلى داخلي، وأدرك خطأ شعوري بالوحدة ككلب أرسل إلى الفضاء، وأن سيبل ستكون إلى جانبي دائمًا، وأندس بها بحالة سكر. وأترنح أحيانًا على منصة الرقص تحت أنظار الأزواج أمثالنا الشاعرية، وحتى نبدو أننا سنتدحرج نتيجة السكر. كانت حال شبه الغرابة وشبه السكر التي تبعدنا عن العالم العادي تمتع سيبل. يطلق الشيوعيون والقوميون النار بعضهم على بعض في أزقة إسطنبول، وتُسرق البنوك، وتُفجر، وتمشّط المقاهي بالأسلحة الرشاشة، وبسبب ألم عجيب ننسى الدنيا كلها، ويشعرني بالعمق نحو سيبل.

عندما أجلس إلى الطاولة فيما بعد، تعود سيبل وهي سكرانة تمامًا إلى الموضوع، وتفرض قبوله بدلًا من فهمه عبر الحديث. وهكذا فإن غرابتي وحزني وعدم ممارستي الحب معها خفضت جهود سيبل إلى ألم خفيف لامتحان الارتباط والحنان، ومأساة محدودة يمكن نسيانها بعد فترة. كأننا بفضل ألمي، ننأى بأنفسنا عن أصدقائنا الفظين والسطحيين في نزهات مراكب السرعة التي نخرج بها معًا. لم يكن من الضروري أن نخرج إلى مرسى الشاليه في نهاية دعوة لنشارك السكارى وهم يلقون بأنفسهم إلى البوسفور، لأننا أصبحنا «مختلفين» أصلًا بفضل ألمي. رؤية سيبل تتبنى ألمي وغرابتي بوقار مخلص يمنحني سعادة، ويربط أحدنا بالآخر أكثر. ولكنني عندما أسمع بوق أحد مراكب خطوط المدينة القديمة البعيدة الحزينة ذات لحظة من لحظات الليل وسط ذلك السكر الوقور، أو أعتقد أن إحداهن فسون في مكان غير متوقع وسط الزحام، فإن سيبل تنتبه بألم

إلـى التعبيـر الغريب الذي يظهر على وجهي، وتشـعر بـأن الخطر الغامض أكبر مما تعتقد.

وبسـبب هـذه الأحاسـيس حولت سـيبل قضيـة الطبيب النفسـي الذي اقترحتـه بحنان الصداقة إلى شـرط لا بد منه في نهايـات تموز/ يوليو، وأنا قبلت به لكي لا أفقد رفقتها وحنانها الرائعين. وكما سيذكر القراء المنتبهون الطبيبَ النفسي التركي الشهير من خلال درره حول العشق، فهو عائد حديثًا مـن أمريكا، ويحاول إثبات جدية مهنته في وسـط المجتمـع الراقي الضيق بربطة عنق فراشـة وغليـون. عندما ذهبت إليه في أثناء تأسـيس متحفنا بعد سنين من أجل سؤاله عما بقي في ذاكرته حول تلك الأيام، ورجائه أن يهب الغليون وربطة عنق الفراشـة للمتحف، أدركت أنه لا يذكر أي شـيء حول همومي في تلك الأيام، وحتى لا علم له بقصتي الحزينة التي بات المجتمع الإسـطنبولي الراقـي يعرفها جيـدًا. يتذكرني بوصفي أحـد الأصحاء الذين كثيـرًا ما طرقوا بابه لمجرد الفضول. أما أنا فلا أنسـى رغبة سـيبل بالذهاب معـي مثـل أم تصطحب ابنها إلـى الطبيب، وإصرارها علـى الأمر، وقولها: «أنـا أجلـس فـي غرفـة الانتظار يـا روحـي». ولكنني لـم أردهـا أن تذهب معي. كانت سـيبل ترى بأن علم النفس السـريري هو علـم اخترع من أجل الغـرب باعتباره «بوحا علميا بالسـر» لعـدم وجود عادة التضامن الأسـري والمشـاركة بالأسـرار الموجودة في دول خارج العالـم الغربي، وخصوصا لـدى البورجوازيـة في دول العالم الإسـلامي بدافع غريزي. عندما سـألني عن «مشـكلتي» بعد حديث عام، وملء اسـتمارة المعلومـات بعناية، خطر ببالـي أن أقول للطبيب إنني وحيد ككلب أرسـل إلـى الفضاء نتيجة فقداني حبيبتي. ولكنني قلت له إن مشكلتي هي عدم استطاعتي ممارسة الحب مع خطيبتي بعد إعلان الخطوبة. فسـألني عن سبب عدم رغبتي (مع أنني كنت أعتقد بأنه هو الذي سيقول لي السبب). مازلت إلى اليوم أبتسم عندما أذكر الجواب الذي خطر ببالي بإلهام من الله، وقلته له، وأجده صحيحًا إلى حد ما: «يبدو أنني أخاف من الحياة يا حضرة الطبيب».

قال لي طبيبي النفسي الذي لم أزره ثانية كعبارة أخيرة: «لا تخافوا من الحياة يا سيد كمال». وودعني.

٣٥ ـ البذرة الأولى لمجموعتي

خدعت نفسي بالجرأة التي منحني إياها طبيبي النفسي، وقررت بسذاجة أن مرضي قد خف، وسيطرت عليّ رغبة السير في الأزقة التي منعت نفسي من السير فيها مدة طويلة، وأشرت إليها بالأحمر. العبور من أمام دكان علاء الدين، وشم هواء الأزقة التي كنت أمر فيها، وأدخلها مع أمي عند الذهاب إلى التسوق حسّنت حالي كثيرًا خلال بضع الدقائق الأولى إلى درجة اعتقادي حقيقة بأنني غير خائف من الحياة، ومرضي قد تراجع فعلًا. بهذا التفاؤل وقعت بخطأ الإيمان بأن مروري من أمام بوتيك شانزليزيه دون شعور بأي ألم يعني عودة الأمور إلى طبيعتها. ولكن رؤيتي الدكان ولو من بعيد كفت لسلب عقلي من رأسي.

الألم المتوفز سوّد روحي بلحظة واحدة. فكرت باحتمال وجود فسون في الدكان على أمل إيجاد حل لمشكلتي، فتسرعت ضربات قلبي. حين تشوش عقلي، وتراجعت ثقتي بنفسي، مررت من الرصيف المقابل، ونظرت إلى داخل الدكان: كانت فسون هناك! للحظة شعرت بأنني سأفقد وعيي، فركضت نحو الباب. عندما كنت على وشك دخول الدكان، أدركت أنها ليست هي، بل شبحها. واحدة أخرى تعمل مكانها! للحظة شعرت بأنني لن أستطيع الوقوف على قدمي. تبدو لي الآن حياتي في النوادي الليلية وأثناء الرقص في الحفلات مزورة وبائسة إلى درجة مذهلة. هناك واحدة فقط في الحياة يجب أن أكون معها وأعانقها، ومركز حياتي الوحيد في مكان آخر، ولا جدوى من خداع نفسي بتلةٍ فظ، وهذا عدم احترام لنفسي ولها. وصل الشعور بالذنب الممزوج بالندم إلى أبعاد

لا تُحتمل. أنا خنت فسون! يجب ألا أفكر بغيرها. ويجب أن أصل إلى المكان الأقرب إليها.

بعد ثماني دقائق كنت متمددًا على سريري في بناء مرحمة أحاول إيجاد رائحة فسون المتغلغلة في الملاءات راغبًا بأن أشعر بجسدها، وأريد أن تكون هي. احتضنت الملاءة بكل قوتي. عندما أصبح الألم غير محتمل، وحملت قطعة الزجاج التزيينية التي على الطاولة وهي بثقل الورقة، تغلغلت رائحة يد فسون وبشرتها ورقبتها الخاصة بتلك القطعة بشكل خفيف، ومع استنشاقي لها تضرب بفمي وأنفي ورئتي بشكل ممتع. بقيت متمددًا على السرير فترة طويلة وأنا ألعب بتلك القطعة الزجاجية. وبحسب ما تذكرت، وحسبت فيما بعد فقد جلبتها في لقائنا المصادف في الثاني من حزيران/ يونيو، ومثلها مثل كثير من الهدايا التي جلبتها لها، لم تأخذها إلى البيت لكي لا تثير شكوك والدتها.

أخبرت سيبل بأن زيارتي للطبيب طالت كثيرًا، ولم أعترف له بأي شيء، وليس لدى الرجل ما يعطيني إياه، ولن أذهب إليه ثانية، ولكنني شعرت بأنني صرت أفضل قليلًا.

الذهاب إلى بناء مرحمة، والتمدد على السرير، واللعب بشيء ما حسّن حالتي. ولكن ألمي عاد إلى ما كان عليه سابقًا بعد يوم ونصف اليوم. بعد ثلاثة أيام ذهبت ثانية إلى هناك، وتمددت على السرير، وتناولت شيئًا آخر لمسته فسون، فرشاة ألوان زيتية جف عليها الطلاء، ووضعتها في فمي مثل طفل يحصل على شيء جديد، وتمسحت بها. ولكنها هدأتني لفترة فقط. وفي الوقت نفسه أيضًا كنت أفكر بأنني اعتدت على هذا الأمر، وأدمنت على الأشياء التي تمنحني سلوانًا لفترة محدودة كالإدمان على المخدرات، وأن هذا الإدمان لن يساعدني نهائيًا على نسيان فسون.

ولكنني لا أخفي ذهابي إلى بناء مرحمة عن سيبل فقط، بل عن نفسي أيضًا، ولأنني أتصرف كأنني لم أقم بهذه الزيارة التي أقوم بها لساعتين كل

يومين أو ثلاثة، أشعر بأن مرضي ينزل إلى مستوى إمكانية احتماله تدريجيًا. في البداية، لم تكن نظرتي إلى هذه الأشياء، والقبعات الآيلة من جدي، والطربوش الذي وضعته فسون على رأسها من باب التهريج، وأحذية والدتي القديمة (نمرة قدم أمي من القياس نفسه: ٣٨) نظرة هاوي المجموعات، بل نظرة المريض الذي ينظر إلى أدويته. أنا بحاجة للأشياء التي تذكرني بفسون من أجل تهدئة ألمي، وفي الوقت نفسه أريد أن أهرب من تلك الأشياء والبيت لأنها تذكرني بمرضي عندما يهدأ ألمي، وأفكر بتفاؤل أنني قد تحسنت. كان تفاؤلي هذا يمنحني جرأة، وأتخيل بفرح وألم أنني سأعود إلى حياتي السابقة، وسأبدأ قريبًا بممارسة الحب مع سيبل، ثم سأتزوجها، وسأبدأ حياة زوجية طبيعية وسعيدة.

ولكن لحظات التفاؤل الأولى هذه قصيرة، وقبل مرور يوم يتحول الشوق إلى ألم شديد، وعند مرور يومين يتحول إلى اضطراب، ويصبح من الضروري أن أذهب إلى بناء مرحمة ثانية. عندما أدخل إلى البناء، إما أن أتوجه إلى فنجان شاي أو ربطة شعر منسية، أو مسطرة أو مشط أو ممحاة أو قلم جاف تذكرني بمتعة جلوسنا متجاورين، وإما أن أبحث عما لمسته فسون من أشياء قديمة رمتها والدتي هنا لأنها لم تعد مفيدة، أو لعبت بها، وتغلغلت فيها رائحة يدها، وأجده، وتتجلى أمام عيني ذكرياتها واحدة تلو الأخرى، وبهذا أوسع مجموعتي.

٣٦ - من أجل أمل صغير يهدئ ألم عشقي

كتبت الرسالة التي أعرضها هنا في الأيام المهمة التي بدأت أميز فيها أولى قطع مجموعتي. سبب عدم وضع الرسالة في الظرف هو عدم إطالة قصتي، والخجل الذي بقيت أشعر به وأنا أؤسس المتحف بعد عشرين عامًا. لو تمكن قراء هذا الكتاب أو زوار المتحف من قراءة الرسالة، فسيرون أنني

أتوسـل لفسـون بكل معنى الكلمة. كتبت لها أنني مخطئ جدًّا، وأتألم كثيرًا، وأن العشـق شعور مقدس، وسـأترك سـيبل فيما لو عادت إلي. عندما كتبت العبارة الأخيرة ندمت أيضًا: كنت يجب أن أقول لها إنني انفصلت عن سيبل دون قيد أو شـرط، ولكن لم يكن أمامي في ذلك المسـاء سوى الشرب حتى الثمالة، واللجوء إلى سيبل، ولم تطاوعني يدي كتابة هذا الأمر. عندما وجدتُ الرسـالة التي تحمل أهميـة بذاتها أكثر من أهمية نصها في خزانة فسـون بعد عشـرة أعوام، رأيت بدهشـة المدى الذي وصلت إليه بخداع نفسـي. أحاول أن أخفي عن نفسـي قوة عشقي لفسون ويأسي من هذا العشق، وأجد رءوس خيـوط عبثيـة تافهة كأدلة على أنني سـأحظى بها قريبًا من جهة، ولا أسـتطيع التخلص من خيال حياة العائلة السـعيدة التي سأؤسسـها مع سـيبل قريبًا من جهة أخرى. هل أفعل هذه الأخيرة، أي أفسـخ خطوبتي من سـيبل، وأعرض الزواج على فسـون بواسـطة جيدا التي رأت هذه الرسـالة؟ لقـد تجلت هذه الفكرة التي أعتقد أنها لـم تخطر ولو بزاوية بعيدة من زوايا عقلي بكل حيويتها فجأة عندما التقيت بجيدا زميلة حبيبتي فسون من مسابقة الجمال.

أعـرض هنا قصاصـة جريدة جميلة لـرواد المتحف الذين سـئموا من حدة ألم العشق. صورة جيدا الملتقطة من مسابقة حبيبتي لملكة الجمال، ومقابلة تقول فيها إن هدفها من الحياة هو زواج سعيد من «رجل مثالي»... أقدم شكري للسيدة جيدا التي تعرف تفاصيل قصتي المؤلمة منذ بدايتها، واحترمت عشـقي، وتكرمتْ بإهـداء صورتها هذه لمتحفي. عندما قررت أن أرسل الرسالة التي كتبتُها بألم إلى فسون عن طريق جيدا، وليس بالبريد لكـي لا تقع بيد والدتها، بحثت عنها بواسـطة سـكرتيرتي السـيدة زينب، ووجدتها. عندما قلت لصديقة فسون التي أعلمتها بعلاقتها بي منذ البداية بأنني أريد أن ألتقي بها لأمر مهم، لم تتدلل نهائيًّا. عندما التقيت بجيدا في حي ماتشـكا، انتبهت مباشـرة إلى أنني لم أُحرج من فتح آلام عشـقي لها. لعل السـبب هو شـعوري بأنها تفهمت بنضج كل شيء، ولعل السبب هو أنني رأيت جيدا سعيدة جدًّا في تلك الأثناء. حملت، لذلك قرر ابن عائلة

سديرجي الغنية المحافظة أن يتزوجها. لم تخفِ عني هذا، كما قالت بأن عرسها قريب. هل يمكنني أن أقابل فسون هناك؟ أين كانت فسون؟ أعطت جيدا أجوبة غير واضحة على هذين السؤالين. يجب أن تكون فسون قد قرصتها من أذنها. أثناء سيرنا نحو حديقة «طاشلق» قالت كلمات عميقة وجدية حول عمق العشق وجديته. أثناء استماعي لها، كانت عيناي قد تعلقتا في البعيد، بجامع ضولمة بهتشة، وبمشهد كأنه آيل من طفولتي وخارجٌ من أحلامي.

لم أستطع الإلحاح، والسؤال حتى عن أحوال فسون. ومثلما شعرتُ بأن جيدا تتخيل بتفاؤل أنني سأنفصل عن سيبل بالنهاية، وأتزوج فسون، وهكذا سنلتقي عائليًّا، انتبهتُ إلى أنني شاركت بهذه الأحلام أيضًا. منظر حديقةِ طاشلق التي دخلناها بعد ظهر ذات يوم من تموز/ يوليو، وجمالُ مدخل البوسفور، وأشجارُ التوت التي أمامنا، والعشاق الجالسون حول طاولات مقهى الحديقة المكشوف وهم يشربون مياه ملتم الغازية، والأمهات القادمات مع عربات أطفالهن، وطلاب الجامعات الذين يأكلون البذر والحمص المحمص، وحمامة وسنونوتان تنقران قشر البذر، وهذا الزحام كله يذكرني بما أنساه وهو جمال الحياة العادية. لهذا السبب سيطر علي أمل حين قالت جيدا وهي تحملق بعينيها إنها ستعطي الرسالة لفسون، وهي مؤمنة بطيب نية أن فسون ستكتب جوابًا.

ولكن أي جواب لم يأتِ.

ذات صباح في مطلع شهر آب/ أغسطس اضطررت للقبول بأن ألمي لم يخف على الرغم من الإجراءات كلها، وأساليب السلوان التي اتبعتها، بل على العكس تمامًا فهو يزيد بشكل منتظم. أثناء عملي في المكتب، أو نقاشي مع أحدهم على الهاتف لا يستطيع عقلي أن ينتج فكرة حول فسون، ولكن الألم في بطني اتخذ شكلًا من أشكال التفكير، ويجول في عقلي بصمت مثل تيار كهربائي. مختلف الأشياء التي فعلتها في سبيل أمل ضعيف بتخفيف

ألم العشق منحتني نوعًا من الراحة في البداية، أو أنها ألهتني، ولكنها لم تفد بشيء على المدى الطويل.

تعلقت بالحظ والإشارات الغريبة وزوايا الأبراج. كنت أؤمن على الأكثر بزاوية «برجكم ويومكم» في جريدة صون بوسطة (البريد الأخير)، والمشاهدات في مجلة الحياة. الخبير الذكي يقول لنا نحن القراء، وخصوصا لي: «ستتلقون اليوم إشارة ممن تحبون». كثيرًا ما كانوا يكتبون هذا لمواليد الأبراج الأخرى أيضًا، ولكنهم كانوا محقين ومقنعين أكثر. كنت أقرأ بانتباه الأبراج والتنبؤات، ولكنني لا أؤمن بالفلك، ولا أتلهى بالأبراج لساعات كما تفعل ربات البيوت السائمات. مشكلتي مستعجلة. إذا فتح الباب، أقول لنفسي: «سأحظى بفسون في النهاية إذا كانت الداخلة امرأة، وسيكون الأمر سيئًا إذا كان الداخل رجلًا».

ينجرف الإنسان بالإشارات التي يرسلها الله لكي يستطيع النظر إلى تنجيم الدنيا والحياة وكل شيء. أقول: «إذا جاءت أول سيارة حمراء من يسار الشارع، سأتلقى خبرًا من فسون، وإذا أتت من اليمين، فسأنتظر». كنت أراقب السيارات التي تعبر الشارع من نافذة صاطصاط. أقول: «إذا كنت أول من يقفز من المركب إلى المرسى، سأرى فسون قريبًا». وأقفز إلى المرسى قبل أن يُربط الحبل». وكان رابطو الحبل يصرخون من خلفي: «حمار من يقفز أولًا!» فيما بعد أسمع صوت بوق مركب، وأعتبره شارة حظ، وأتخيل سفينة. كنت أقول: «إذا كان عدد درجات جسر المشاة مفردًا، فسأرى فسون قريبًا». وظهور أن عدد الدرجات مزدوجًا يزيد ألمي، وأما صدق توقعي فيريحني قليلًا.

الأسوأ هو الاستيقاظ في منتصف الليل نتيجة الألم، وعدم استطاعتي إكمال النوم. حينئذ أشرب عرقًا، وأقلب فوقه عددًا من كئوس الويسكي أو النبيذ راغبًا بإغلاق وعيي كما لو أنه مذياع يقلقني، ولا يسكت بأي شكل. استطلعت حظي بورق لعب والدتي عدة مرات بعد منتصف الليل

وأنـا أحمل كأس العرق. وألقيتُ نرد والـدي الذي نادرًا ما يلعب به ـ في كل مـرة أقـول إنهـا المرة الأخيـرة ـ في عدة ليـال آلاف المـرات. عندما أسـكر تمامًا، أشعر بمتعة غريبة بالألم، وأعتبر وضعي بغرور غبيًّا يناسب الأفلام والأوبريهات.

عندما أدركت قبيل الصباح بعدة سـاعات أنني لن أستطيع النوم ذات ليلة قضيتها في بيتنا الصيفي في سـعادية، خرجت بصمت إلى الشـرفة المكشوفة باتجاه البحر، وتمددت على كرسي بحر، وحاولت النوم وسط رائحة أشجار الصنوبر وأنا أنظر إلى أضواء الجزر المتلألئة.

همس والدي: «أنت أيضًا لا تسـتطيع النوم؟» لم أنتبه إلى أنه متمدد على كرسي البحر المجاور.

همسـت شاعرًا بالذنب: «لا أسـتطيع النوم في بعض الليالي خلال الفترة الأخيرة».

قال بحنان: «لا تقلق، سـتمضي. مازلت شابًّا. ما زال الوقت باكرًا للأرق بسبب الألم. ولكنك عندما تصل إلى عمري، وهناك ما تندم عليه في حياتك، فستنتظر إلى الصباح وأنت تعد النجوم. احذر من عمل ما تندم عليه».

همست قائلًا: «حسنٌ يا أبي». وفهمت أنني بعد قليل سأنسى ألمي قليلًا، وأنام. أعرض هنا ياقة المنامة التي لبسـها والدي في تلك الليلة، ونعله البيتي الذي طالما أجج حزني.

أخفيت عنكم أمرًا أو أمرين لأنني اعتبرتهما ليسا مهمين أو لكي لا يستخف بـي القـراء وزوار المتحف أكثر، ولكنني سـأعترف بأحدهمـا باختصار الآن لكي تفهم القصة بشـكل أفضل. عندما تخرج سـكرتيرتي زينب مع الآخرين في عطلة الظهر، أتصل ببيت فسـون. لم تكن فسـون ترد على الهاتف نهائيًّا، وهـذا يعني أنها لم تعد من حيث ذهبتْ، ولم يكن والدها يظهر في السـاحة. دائمًـا كانت العمة نسـيبة ترد على الهاتف، وهذا يعنـي أنها تخيط في البيت، وآمل بأن ترد فسون على الهاتف ذات يوم. كنت أنتظر على أمل أن ينزلق عن

لسـان نسـيبة ما له علاقة بفسـو ن. أو كنت أنتظر بصبر قول فسون شيئًا ما من بعيـد. كان عدم قول شـيء عند فتح الهاتف أسـهل، وعندما يطول الصمت، وتتكلـم العمـة نسـيبة يصعـب علـيّ ضبـط نفسـي. لأن العمة نسـيبة ترتبك بشـدة، وتُظهر خوفها وغضبها وارتباكها فورًا، وتتلوى بشـكل يمتع منحرفي الاتصالات الهاتفية كثيرًا: «ألو، ألو. من أنتم؟ من أنت، بمن تتصلون. احك كرمـى لله. ألـو، ألو. من أنت؟ لماذا تتصل؟». وتعيـد عبارات من هذا النوع بشـكل كبير جدًّا، وتظهر مؤشـرات الخوف والارتباك والغضب، ولا يخطر ببالهـا أن تغلـق الهاتف فورًا أو تغلقـه قبلي. مع مرور الزمن بدأت تشـعرني هواتف قريبتي البعيدة هذه شعور الأرنب الذي علق نظره بأنوار سيارة مارة، وتثير فيّ مشاعر اليأس والحزن، ونجحت بالإقلاع عن عادتي هذه.

لم يكن هناك أي إشارة من فسون.

٣٧ ـ البيت الفارغ

فـي نهاية آب/ أغسـطس، أي عند عودة اللقالق على شـكل أسـراب من أوربـا فوق البوسـفور ومصيف سـعادية والجزر متجهة نحو جنوب الشـرق وإفريقيـا، قررنـا أن نقيـم حفلًا في بيتنا الفارغ في شـارع تشـويكية قبل عودة والـديّ من المصيف بناء علـى رغبة أصدقائي، وكما اعتدت أن أفعل. وبدلًا من الذهاب إلى البيت لمساعدة سيبل بالمشتريات، وتغيير أمكنة الطاولات، وفتح السـجاد الملفـوف وفي داخله النفتالين من أجـل الصيف وهي الأمور التـي تقوم بها باندفاع، اتصلت ثانية بفسـون. كنت قلقًا لأن أحدًا لا يرد على الهاتـف على الرغـم من رنينه لمـدة طويلة. عندما سـمعت الرنيـن المتقطع الخـاص بانقطـاع الخطوط هـذه المرة، سيطر ألم معدتي على جسـمي كله وعقلي.

بعـد اثنتي عشـرة دقيقـة خرجت إلى الأزقـة التي نجحـت بالابتعاد عنها

فترة طويلة، وأشرت إليها باللون البرتقالي، واقتربت من بيت فسون الذي يبدو كظل في شمس الظهيرة في زقاق بستان البئر. عندما نظرت إلى نوافذه من بعيد، رأيت أنه دون ستائر. قرعت الباب، لم يفتح أحد. ضربت على الباب، ولكمته، وعندما لم يفتح أحد، شعرت بأنني سأموت. نادت البوابة العجوز من الشقة المظلمة الواقعة تحت الأرض: «من؟.. ها، هؤلاء، في الرقم ثلاثة، انتقلوا، وذهبوا».

ألقيت كذبة بأنني راغب بالاستئجار. فتحت المرأة الباب بالمفتاح الاحتياطي بعد أن دسست بيدها عشرين ليرة، ودخلت. يا إلهي! كيف أتحدث عن وحدة تلك الغرف المؤلمة، وتساقط بورسلان المطبخ المسحوق، وحوض الحمام المهلهل الذي اغتسلت فيه حبيبتي المفقودة طوال حياتها كلها، وعن سحر السخان الذي يخيفها، والمسامير المدقوقة بالجدران، وظلال الإطارات والمرايا على الجدران على مدى عشرين عامًا؟ أحفر في ذاكرتي بعشق رائحة فسون في الغرف، وظلها المنكمش في إحدى الزوايا، ومخطط هذا البيت الذي شكّلها وقضت حياتها كلها فيه، وجدرانه المتساقط طلاؤها في كثير من الأمكنة. ثمة ورق جدران، قطعت من طرفه قطعة كبيرة، وأخذتها معي. وسحبت مقبض باب الغرفة الصغيرة التي أعتقد أنها غرفة فسون، وقد لمست هذا المقبض على مدى ثمانية عشر عامًا، وأنزلته إلى جيبي. عندما لمست قطعة البورسلان في نهاية سلسال الطوافة التي في الحمام، بقيت بيدي.

ألقيت بجيبي ذراع دمية مكسورة لفسون، وكرة ميكا كبيرة، وملاقط شعر لا أشك بأنها لها وجدتها بين أوراق وأوساخ ملقاة في إحدى الزوايا. وفكرت بأنني سأسلي نفسي بها عندما أبقى على انفراد، وأرتاح، وسألت البوابة عن سبب خروج المستأجرين بعد أن قضوا كل هذه السنين. قالت إنهم مختلفون مع صاحب البيت منذ أعوام حول الإيجار. قلت: «كأن البيوت في الأحياء الأخرى أرخص!». وشرحت بأن النقود لم يعد لها قيمة، والغلاء يجرف كل شيء. «إلى أين انتقل المستأجرون السابقون؟». قالت

البوابة: «لا نعرف. ذهبوا مقاطعين صاحب البيت. خربت العلاقة بينهم بعد عشرين سنة». وكأن شعور اليأس في داخلي سيخنقني.

فهمت أنني كنت آمل دائمًا بأن آتي ذات يوم إلى هنا، وأقرع بابهم، وأدخل متوسلًا من أجل رؤية فسون. الآن فقدت إمكانية السلوان الأخيرة هذه، وحلمي برؤيتها، وسيكون من الصعب عليّ أن أحتمل.

بعد ثماني عشرة دقيقة كنت متمددًا على سريرنا في بناء مرحمة، وأحاول التخفيف من ألمي بالأشياء التي أخذتها من البيت. مع إمساكي بالأشياء التي لمستها فسون، وشكلتها، ومع مداعبتي لها، وفرجتي عليها، ومسحها برقبتي وكتفي وصدري العاري وبطني، تنفلت الذكريات المختزنة بتلك الأشياء إلى روحي بقوة السلوان.

٣٨ ـ حفل نهاية الصيف

بعد زمن طويل ذهبت إلى تحضيرات الحفل والبيت في تشويكية مباشرة من دون المرور على المكتب. قالت سيبل في البيت: «كنت سأسألك عن الشمبانيا، اتصلت عدة مرات بالمكتب، وفي كل مرة قالوا إنك لست موجودًا».

هربت إلى غرفتي من دون أن أعطيها أي جواب. أذكر أنني تمددت على سريري، وكنت تعيسًا جدًا، وتوقعت بأن تمضي السهرة بشكل سيئ جدًّا. تخيلي لفسون بألم، وسلواني عبر اللعب بالأشياء أسقطني بنظري، ولكنه فتح لي أبواب عالم آخر أريد أن أدخله أكثر. أشعر بأنني لن أستطيع أداء دور الغني والذكي والمرح والمستمتع بالحياة من أجل الحفل الذي تحضر له سيبل. غير هذا فأنا أعرف أيضًا أنني لن أستطيع التصرف بسلوك الشاب ابن العشرين عامًا العابس والمستخف بكل شيء في الحفل الذي أقيمه في بيتي. يمكن لسيبل التي تعرف بمرضي السري الذي لم نستطع

تحديد اسـمه أن تتسـامح معي، ولكن المدعوين القادمين باندفاع من أجل اللهو في حفل نهاية الصيف لن يسامحوا مثلها.

عندمـا جـاء أول الضيوف في السـابعة مسـاء أريتهـم البار المشـكل من أنواع المشـروبات الأجنبية المهربة التي تباع سـرًّا في بارات إسطنبول ولدى باعـة المقبـلات كمضيف جيد، وقدمت لهم مشـروبًا. أذكر أنني عبثت قليلًا بالأسـطوانات فتـرة، ودوّرت مقطوعـة لسـيرجنت ببيـر الـذي أحب غلاف أسطوانته، وسيمون وغارفونكر. رقصت مع سيبل ونورجيهان وأنا أضحك. ظهـر بأن نورجيهان اختارت محمدًا وليـس زعيمًا، ولكن لا يبدو على زعيم أنـه حزيـن لهذا الأمـر. عندما قالت لي سـيبل بأنهـا تعتقـد أن نورجيهان قد ضاجعـت زعيمًـا، لم أفهم سـبب حزن خطيبتـي من هذا الأمـر، ولـم أحاول تفهمهـا. العالـم مـكان جميـل على هـذا النحو، ريح الشـمال الشـرقي التي تهب من البوسـفور في المساء الصيفي تحف أشـجار الدلب في باحة جامع تشـويكية بصوت لطيف وممتـع كما أتذكر منذ طفولتـي، ومع هبوط الظلام تتطاير السنونو وهي تطلق صيحاتها فوق أسطح الأبنية الباقية منذ الثلاثينيات وفوق الجامع؛ ومع إظلام الجو تظهر أنوار تلفازات أهل نيشـان طاش الذين لم يسـتطيعوا الذهاب إلى مصايفهم بشكل أوضح؛ وتراقب صبية سائمة من إحدى الشرفات زحمة مواصلات الشارع الرئيس، وكذلك يفعل أب تعيس؛ أما أنا فأشاهد هذا المنظر كله كأنني أشاهد مشاعري، وأخاف ألا أنسى فسون نهائيًّا. وقد شربت حتى الثمالة في برودة شرفة بيتي وأنا جالس، وأستمع لمن جاء ليثرثر معي بشكل لذيذ.

جـاء زعيـم بصحبة فتـاة لذيذة تبدو سـعيدة لأنها حصلـت على درجات عاليـة جـدًّا في امتحان الدخول إلى الجامعة. كان اسـمها عائشـة، وتحدثت معهـا. شـربتُ مـع صديق خجـول لسـيبل يعمل باسـتيراد الجلد، ويشـرب العـرق بشـكل جيد. بعد أن أسـدل الجو سـتار ظـلام مخملي بكثيـر، قالت سـيبل: «تصرفـك معيب، ادخل قليـلًا». وتعانقنا بكل قوتنـا، ورقصنا رقصة يائسـة ولكنها شـاعرية. في البهو شبه المظلم بسـبب إطفاء بعض المصابيح

خيّم على الشقة التي قضيت فيها طفولتي وحياتي كلها جو مختلف وألوان مختلفة تماما، وهذا ينسجم مع شعوري بأن الدنيا قد سحبت من بين يدي بطريقة ما، وأعانق سيبل بكل قوتي وأنا أراقصها. ولأنني نقلت إليها في نهاية الصيف جزءًا من تعاستي التي عشتها طوال الصيف، واعتيادي على المشروب فقد كانت روحي خطيبتي تتمايل مثلي أيضًا.

إذا استخدمنا لغة كتاب زوايا الشائعات، فقد انفلت الحفل «في الساعات المتأخرة تحت تأثير المشروب». تكسرت الكئوس والزجاجات؛ وخربت أسطوانات الخمس والأربعين والثلاث والثلاثين دقيقة؛ وبمتعة الفضائحية أكثر... وتحت تأثير صفحات الفن والفضائح في المجلات الأوربية بدأ بعض الأزواج بتبادل القبل؛ وبعضهم تسللوا إلى غرفة أخي من أجل ممارسة الحب، ولكنهم غفوا في جو الحفل، وكان يبدو على مجموعة الأصدقاء أبناء الأغنياء ارتباك ناجم عن الشعور بانتهاء مرحلة الشباب والحياة العصرية. عندما بدأت أقيم حفلات نهاية الصيف هذه قبل تسعة أو عشرة أعوام قبل عودة والدي من المصيف كان جو اللهو يحمل غضبًا احتجاجيًّا على الأبوين، فيدخل أصدقائي إلى المطبخ، ويستعملون الآلات الغالية، ويكسرونها، ويخرجون القبعات القديمة من خزائن والدي، ومضخات العطر، وقوالب الأحذية الكهربائية، وربطات عنق الفراشة، والأطقم، ويريها بعضهم لبعض، ويضحكون وهم سكارى، ويريحون أنفسهم باقتناعهم أن غضبهم هذا سياسي.

في السنوات التالية لم يأخذ من ذلك الزخام السياسة على محمل الجد سوى شخصين فقط، أحدهما خضع للتعذيب على أيدي الشرطة إثر انقلاب عام ١٩٧١ العسكري، ونام في السجن حتى عفو عام ١٩٧٤، وابتعدا عن المجموعة لأنهما اعتبرانا «غير مبالين، مدللين وبورجوازيين».

أما الآن في ساعة قريبة من الصباح، فقد كانت نورجيهان تعبث بخزائن والدتي، ولكنها لا تفعل هذا بروح تخريبية غاضبة، بل بفضول نسائي

واحترام وعناية شديدة. قالت بموقف جدي جدًّا: «سنذهب إلى البحر في كيليوس. أنظرُ ما إذا كان لدى والدتك لباس بحر». تلبسني ألم عدم اصطحابي فسون إلى كيليوس على الرغم من رغبتها الشديدة، وندمت بشدة، واضطررت لإلقاء نفسي على سرير والديّ من أجل أن أحتمل. ومن حيث أضطجع أستطيع رؤية نورجيهان تعبث بجوارب والدتي المطرزة الباقية من الخمسينيات، ومشداتها الترابية اللون الظريفة ذات الحبال، وقبعاتها وإيشارباتها التي لم ترسلها إلى منفى بناء مرحمة بذريعة لباس البحر. قلّبت نورجيهان بصبر سندات تمليك بيوت ومقاسم وشقق تحفظها أمي بحقيبة في درج الجوارب النايلونية من الخلف لأنها لا تثق بخزينة البنك؛ ورزمة مفاتيح بيوت باعت بعضها وأجرت أخرى، ولم يعد لها أي فائدة؛ وقصاصة خبر عرسها مع والدي في عمود القيل والقال من جريدة صادرة قبل ستة وثلاثين عامًا، وقصاصة من عمود «المجتمع الراقي» لمجلة الحياة التي تحمل تاريخًا يعود لاثني عشر عامًا بعد تلك، وعدة صور تظهر فيها والدتي أنيقة جدًّا، ومباهية. قالت: «كانت والدتك امرأة محببة وغريبة». قلت لها من حيث أتمدد كالميت: «إنها على قيد الحياة». وفيما كنت أفكر كم سيكون مذهلًا أن أقضي حياتي كلها مع فسون في هذه الغرفة، أطلقت نورجيهان قهقهة سعيدة وحلوة، وأعتقد أن جاذبية الضحكة السكرى وسحرها سيطرت على سيبل بداية، ثم على محمد فدخلا إلى الغرفة. وبينما كانت سيبل تستعرض أغراض أمي مع نورجيهان بجدية السكر، جلس محمد على طرف السرير حيث يجلس والدي صباحًا قبل أن يلبس نعليه البيتيين، وينظر إلى أصابع قدميه، وراقب نورجيهان بعشق وإعجاب مدة طويلة. شعرت بأنه عشق لأول مرة بعد أعوام بشكل قوي جدًّا، وهو سعيد جدًّا لأنه تمكن من إيجاد حبيبة يستطيع الزواج منها، ومندهش من سعادته، وحتى إنه يخجل من سعادته إلى هذه الدرجة. ولم أغر منه، لأنني أشعر أيضًا بأنه خائف إلى أقصى الحدود من الخيانة الزوجية، والنهاية السيئة المهينة، والندم.

تري سيبل ونورجيهان ما تخرجانه من خزانة والدتي، وأعرضه هنا بانتباه

إحداهما للأخرى، وتتضاحكان، ثم تذكّر إحداهما الأخرى بأنهما يبحثان عن لباس بحر.

استمر البحث عن لباس بحر، وحديث الذهاب إلى البحر إلى ظهور خيوط النهار الأولى. أعرف أن ألم فسون مع تأثير المشروب والأرق لن يحتمل في شاطئ كيليوس، ولن أذهب. تباطأت بالأمر، وقلت إني سألحق بهم مع سيبل. ومع خيوط النهار خرجت إلى الشرفة التي تجلس فيها أمي لتشرب القهوة وتتفرج على الجنازات، ولوحت لأصدقائي في الأسفل، وصرخت. في الشارع كان زعيم وحبيبته الجديدة عائشة، ونورجيهان ومحمد، وعدة أشخاص يتحدثون صراخًا وهم سكارى، ويرمون بعضهم لبعض كرة مطاطية حمراء لامعة، وتسقط من أيديهم، ويهرعون خلفها، ويحدثون صخبًا يوقظ تشويكية كلها. عندما أغلق محمد أبواب سيارته، رأيت المسنين في باحة جامع تشويكية يسيرون ببطء من أجل اللحاق بصلاة الفجر. كان بينهم بواب البناء المقابل لنا الذي يرتدي لباس بابا نويل في رأس السنة، ويبيع اليانصيب القومي. فجأة وقفت سيارة محمد بفرملة قوية، وعادت باتجاه الخلف، وتوقفت، وفتح بابها، وخرجت نورجيهان، وصرخت بأعلى صوتها نحو الطابق السادس أنها نسيت فولارها الحريري. هرعت سيبل إلى الداخل، وجلبت الفولار، وألقته إلى الأسفل. أثناء هبوط الفولار البنفسجي إلى الأسفل ببطء، لا أنسى فرجتنا ـ سيبل وأنا ـ من شرفة والدتي على انفتاحه وانكماشه، وانتفاخه وارتخائه بدلال كطائرة ورقية في النسيم. هذه آخر ذكرى سعيدة لي مع خطيبتي.

٣٩ ـ الاعتراف

وصلنا إلى مشهد الاعتراف. في هذه النقطة من متحفنا، أردت بدافع غريزي أن يكون كل شيء من الإطارات إلى الخلفيات بلون أصفر بارد.

مـع أننـي بعد ذهاب أصدقائـي إلى البحر عـدت للتمدد على سـرير والديّ، وقد لوّنت الشـمس الضخمة المشـرقة من فوق سفوح أسـكودار غرفة النوم الواسـعة باللون البرتقالي. تناهى بروق سفينة ركاب ضخمة عابرة البوسفور مـن بعيد مع أصدائه. شـعرت سـيبل بعـدم رغبتـي، فقالت: «هيـا، علينا ألا نتأخـر، ولنلحـق بهـم». ولكنها عندمـا نظرت إلـى حالي متمـددا، لم تدرك أنني لن أذهب إلى البحر فحسـب (لم تفكر بأنني لن أسـتطيع قيادة السـيارة بحالة السـكر هذه)، بل وشـعرت بأننا وصلنا إلى نقطة لا يمكن العودة عنها بموضـوع مرضي السـري. أفهم من هربها بأعينها أنهـا لا تريد أن تبقى بعيدة عن الموضوع. وكما يفعل الذين يلاحقون مخاوفهم بطيش (وهذا ما يسـميه البعض جرأة)، كانت هي من فتح الموضوع أولًا.

سـألت: «حقًّـا، أين كنت بعـد الظهـر؟». ولكنها ندمت فـورًا، وأضافت بشكل لذيذ: «إذا كنت ستخجل، ولا تريد فلا تقل شيئًا».

تمـددت علـى السـرير بجانبي. اندسـت بي مثل قطـة، وعانقتنـي بحنان وخوف مما جعلني أشعر بأنني على وشك أن أفعل ما يكوي قلبها، فخجلت. ولكن مارد العشق خرج من مصباح علاء الدين، وبهزه جسدي بقوة، أشعرني بأن الأمر لن يبقى سري وحدي فقط.

بـدأتُ قصتي بانتباه: «هل تذكريـن ليلة ذهابنا إلى فوآية في بداية الربيع يا روحـي؟ رأيتِ حقيبة جيني كلون في واجهة محل، وأعجبتك، أثناء مرورنا، عدنا للحظة، ورأيناها».

عندما أدركت خطيبتـي العزيزة بأن الموضوع كبير وخطير يتجاوز حقيبة مـزورة، وحملقـت بعينيها، بـدأت بقص الحكايـة التي يعرفها القـراء وزوار المتحف منذ البدايـة. وبهدف تذكير زوار متحفي، أعرض صورًا صغيرة هنا لأهم الأشياء وأكثرها تميزًا.

حاولـت أن أشـرح كل شـيء لسـيبل بعناية وتسلسـل. في قصـة لقائي بفسـون المؤلمة والأحداث التالية شـعرت فورًا بندم وكفارة ما يشـبه وزر

حـادث مرور لا مفر منه وقع لنا قبل سـنين، أو ذنبًـا كبيرًا ارتكبناه. ولكنني يمكـن أن أكـون قد وضعت هـذه القصة من أجـل تخفيف ذنبـي العادي، والشعور بأنه بقي فـي الماضي البعيد، لأنني بالطبـع لا أتحدث نهائيًّا عن السـعادة الجنسـية باعتبارها جانبًا لا يمكن التخلي عنه بما عشته، وأحاول أن أقـدم الأمر كله على أنه مجرد شـطط عاشـه شـاب تركـي قبيل الزواج. عندمـا رأيت دموع سـيبل، تراجعت عـن رغبتي بقص قصتـي كما حدثت تمامًا، وندمت لأنني فتحت الموضوع.

قالت سيبل: «أنت مقرف جدًّا». وضربتني بحقيبة قديمة ذات أزهار وورد تضـع فيها أمي النقود المعدنية القديمة، وإحدى فردتي حذاء والدي الصيفي القديم الأسود والأبيض. لم يصبني أحد منهما. تناثرت قطع النقود المعدنية في الأطراف مثل زجاج محطم. كانت الدموع تنهمر من عيني سيبل.

قلت: «أنهيت هذه العلاقة منذ زمن طويل. ولكن ما فعلته أنهكني كثيرًا... القضية ليست تلك الفتاة أو غيرها».

قالت سيبل: «أليست الفتاة التي جلست إلى طاولتنا؟» من دون أن تجرؤ على ذكر اسمها.

«بائعة سافلة مقرفة! أمازلت تقابلها؟».

«لا بالطبع... تركتها عندما أعلنا خطوبتنا. وهي اختفت. تزوجت واحدًا آخـر (حتـى الآن أنا مندهش كيف ألقيـت هذه الكذبة). هذا هـو ترددي بعد الخطوبة، ولكن الأمر انتهى الآن».

عبّرت خطيبتي الذكية عن الحقيقة بشكل مختصر دفعة واحدة: «أي أنك لم تستطع إخراجها من داخلك؟».

أي رجل لديه قلب يمكنه أن يجيب عن هذا السؤال بـ «نعم»؟ قلت من دون رغبة: «لا، فهمتني خطأ. أتعبني عبء هذا الأمر، وإنهاك فتاة على هذا النحو، ومسئولية خيانتك، وتدنيس علاقتنا، وأفقدني متعتي بالحياة».

كلانا لم نصدق ما قلتُه.

«أين كنت بعد الظهر؟».

كانت لدي رغبة كبيرة بأن أقول لأي شخص وليس لسيبل بأنني وضعت الأشياء التي تذكرني بها في فمي، وتمسحت بها، وصببت دموعي وأنا أتخيلها فيما كنت أفعل ذلك. من جهة أخرى أشعر بأنني لن أستطيع الاستمرار بالحياة، وسأفقد صوابي فيما لو تركتني سيبل. في الحقيقة كان علي أن أقول لها: «لنتزوج فورًا». كثير من الزيجات السليمة التي تحافظ على مجتمعنا شامخًا أُقْدِم عليها من أجل نسيان عشق عاصف وتعيس على هذا النحو.

«أردت أن ألعب بألعاب طفولتي قبل الزواج. هناك مسدس فضائي مثلًا... ما زال يعمل... إنه شعور غريب بالحنين. لهذا السبب ذهبت إلى هناك».

قالت سيبل: «كان عليك ألا تذهب نهائيًا إلى تلك الشقة! هل التقيت بها كثيرًا هناك؟».

وبدأت تبكي دون أن تنتظر جوابي. احتضانها ومداعبتها زادا غزارة دموعها. عانقت خطيبتي بامتنان عميق، وبشعور صداقة أعمق من العشق. عندما غفت سيبل بين ذراعي بعد أن بكت طويلًا، غفوت أيضًا.

عندما استيقظتُ قريب الظهر كانت سيبل قد استيقظت منذ زمن، واغتسلت، وتزينت، وحضرت لي إفطارًا في المطبخ.

قالت ببرود: «اذهب واجلب خبزًا طازجًا من الدكان المقابل! ولكنني أقطّع الخبز البائت، وأحمّصه إذا لم يكن لديك رغبة، ولا حيل».

قلت: «لا، أذهب».

تناولنا الإفطار على الطاولة التي تناول والداي عليها الطعام متقابلين طوال ستة وثلاثين عامًا في البهو الذي تحول إلى ساحة حرب بعد الحفلة. أعرض هنا خبزة تشبه تمامًا تلك التي اشتريتها من البقال بمفهوم من يعمل فيلما وثائقيًا لتكون سلوانًا. أريد أن أشير إلى أن الحياة تعيد نفسها، ولكن

كل شـيء يُنسى فيما بعد، وأذكر بأن ملايين الناس أكلوا هذا الخبز إدامًا في إسـطنبول وإن اختلف وزنـه قليلًا. ولكن الحزم والقوة المدهشـة تبدو على وجه سيبل حتى في يوم كهذا.

قالت: «ما اعتقدت أنه عشـق هو مجرد نزوة عابرة. سـتتخلص منه قريبًا. سأحافظ عليك. سأسحبك من العبث الذي سيطر عليك، وأخرجك..».

دهنت كثيـرًا من البودرة من أجـل إخفاء انتفاخ تحـت عينيها من البكاء. رؤيتي أنها تتجنب اسـتخدام كلمات تجرحني على الرغم من ألمها الشديد، وإحساسي بحنانها، زادا من ثقتي بها إلى درجة أنني قدرت أن حزم سيبل هو الوحيد الذي سينقذني من ألمي، وقررت أن أنفِّذ كل ما تقوله بطاعة. وهكذا فـي أثناء تناول إفطارنا المؤلف من الخبز الطـازج والجبن والزيتون ومعقود الفراولـة، اتفقنا فورًا علـى خروجي من البيت، وعـدم تجوالي في المحيط، وابتعادي فترة عن أزقة نيشـان طاش. أعلنا الأزقة الحمراء والبرتقالية مناطق محظورة تمامًا.

كان والدا سـيبل قد عادا إلى بيتهما الأساسـي في أنقرة. كانت الشـاليه في منطقة السـور الأناضولي فارغة. قالت سيبل بأن والديها سيغضان الطرف عن إقامتنا في الشـاليه لأننا أعلنا خطوبتنا. سـأنتقل فورًا إلـى هناك، وأعيش معها، وسـتجعلني أقلـع عن عاداتي التـي تعيدني إلى نزوتي. ومثلما تُرسـل الفتيات الحالمـات إلـى أوربا مـن أجل التخلـص من ألم الحـب، أذكر أنني فـي أثناء ترتيب حقائبي بحزن وأمل بالشفاء قالت لي سيبل: «خذ هذه أيضًا» ووضعت جواربي الشتوية وهذا ما جعلني أفكر بأن فترة علاجي ستكون طويلة.

٤٠ ـ سلوان حياة الشاليه

سلوان حياة الشاليه الذي أحببته بانفعال البدء بحياة جديدة، أقنعني بأنني سأتخلص من مرضي بسرعة. عندما أعود مساء من لهو ما مهما تأخر الوقت،

وأكون سكرانًا، أنهض من السرير فور تراقص انعكاسات الضوء العجيب المتسلل من بين عوارض الشبّاك عن موج البوسفور على سقف الغرفة، وأدفع مصراعي الشبّاك برءوس أصابعي فأفتحهما، وأستغرب جمال المنظر الذي يدخل الغرفة فجأة كالانفجار. كانت دهشتي نتيجة انفعالي بإعادة اكتشاف جمال الحياة التي اعتقدت أنني نسيتها، أو هذا ما أردت أن أؤمن به. أحيانًا تشعر سيبل بما أشعر به برقة، فتأتي بثوب نومها الحريري وهي تصر خشب الأرض بشكل خفيف بقدميها الحافيين إلى جانبي، ونراقب معًا جمال البوسفور، ومرور زورق صياد أحمر بين الأمواج، والضباب فوق الأحراش المظلمة تحت الشمس على الشاطئ المقابل، وانجراف أول مركب ينقل الركاب إلى المدينة وهو ينفث الماء خلفه وسط صمت الصباح الشبحي مائلًا إلى جنب.

كانت سيبل - مثلي تمامًا - تتلقى متع حياة الشاليه بانفعال زائد كأنها علاج سيشفي مرضي: في أثناء تناولنا العشاء معًا في المشربية البارزة نحو البوسفور مثل زوجين سعيدين مكتفيين بعشقهما، كانت مراكب خطوط المدينة والسفن التي تبحر من مرسى سور الأناضول تمر من أمامنا تمامًا كأنها ستحتك بالشاليه؛ يستطيع القبطان ذا الشاربين والقبعة الممسك بالمقود رؤية سمك التن المقمّر وسلطة الباذنجان ومقليه، والجبن الأبيض، والبطيخ الأصفر والعرق من قمرته على طاولتنا، وينادي نحونا: «صحة وعافية»، وترى سيبل هذا نوعًا من المتعة الجديدة التي تشفيني. أُدرك من اندساس خطيبتي بجسدها ذي الرائحة الزكية بي ليلًا بأنها تؤمن بتفاؤل بأن قفزي إلى مياه البوسفور الباردة صباحًا فور استيقاظي، والذهاب إلى مقهى المرسى، وشرب الشاي مع الكعك وقراءة الجريدة، والانشغال بالطماطم والفلفل في الحديقة، والركض نحو صياد السمك ظهرًا لاختيار أنواع السمك الطازجة، والدخول إلى البحر المتلامع ونحن نخبط بأقدامنا في ليالي أيلول/ سبتمبر الحارة التي تلتقط فيها المصابيح الفراش الدقيق ولا تتحرك فيه ورقة شجر، تحسن حالتي. ولكنني عندما لم أستطع ممارسة الحب مع سيبل بسبب ألم

العشق الذي ما زال هلعًا في جانبي الأيسر، أقول محولًا الأمر إلى مزاح: «لم نتزوج بعد يا روحي!». خطيبتي روحي أيضًا تتناول الأمر بخفة، وتتظاهر بأنها تمازح بالأمر.

عندما أقبّل سيبل من وجنتيها مثل زوج شاب سعيد وأنا على وشك النوم على أحد مقاعد البحر التي على الرصيف، أو ألتهم كوز الذرة المسلوق الذي أشتريه من زورق أحد الباعة، أو قبل أن أركب السيارة صباحًا من أجل الذهاب إلى العمل، أقرأ في عينيها استخفافًا بي أو كرها لي بدأ ينتش في داخلها. بالتأكيد هذا بسبب عدم ممارستنا الحب نهائيًّا: ولكن السبب المخيف أكثر هو عدم تحقيق جهود سيبل التي تبذلها بإرادة خارقة وعشق «لشفائي» أي نتيجة، أو الأسوأ هي فكرة أنني سأتدبرها هي وفسون معًا في المستقبل «حتى وإن شفيت». كنت في أسوإ أوقاتي أريد أن أؤمن بهذا الاحتمال الثاني، وآخذ خبرًا من فسون ذات يوم، ونعود ذات لحظة إلى أيامنا السعيدة السابقة، ونلتقي ثانية كل يوم في بناء مرحمة، وهكذا سأستطيع ممارسة الحب مع سيبل بالطبع بعد أن أتخلص من ألم العشق، وأتزوجها، ونعيش حياة عائلية ذات أولاد سعيدة وعادية.

ولكنني لا أؤمن بهذه الأحلام إلا نادرًا عندما أكون مفرطًا بالمشروب، أو بتفاؤل منحني إياه صباح جميل. أغلب الوقت لا أستطيع نسيانها، ولم يعد غياب سيبل يحدد طبيعة ألمي، بل عدم ظهور نهاية لهذا الألم.

٤١ ـ السباحة على الظهر

اكتشفت أمرًا مهمًّا يجعل أيام أيلول/ سبتمبر المؤلمة ذات الجمال المظلم محتملة: السباحة على الظهر تخفف ألم بطني. ومن أجل هذا يجب أن أغط رأسي تمامًا في مياه الخليج وأنا أسبح على ظهري باتجاه الخلف، وأرى قاع البحر بشكل مقلوب، وأضرب بذراعي فترة دون أن آخذ نفسًا.

عندما أفتح عيني أثناء سيري إلى الخلف وسط التيار والأمواج، فإن ظلمة البوسفور الداكنة التي تغيّر لونها، وأراها بشكل مقلوب تثير لدي شعورًا مختلفًا برحابة غير محدودة لا يشبه الشعور بألم العشق نهائيًّا.

لأن المياه تصبح عميقة فجأة على الشاطئ، فقد كنت أرى القاع حينًا، ولا أراه حينًا، ولكن تكامل عالم اللون الكبير والعجيب الذي أنظر إليه بالمقلوب يملأ قلبي بفرح الحياة، وبتواضع الانتماء إلى شيء كبير. أحيانًا أرى علبَ كونسروة صدئة، وأغطية مياه غازية، ومحارًا أسود مفتوحًا، وحتى أشباح سفن آيلة من زمن ضارب بالقدم، فتذكرني برحابة التاريخ والزمن، وبتفاهتي أمامهما. في أوقات كهذه أنتبه أحيانًا إلى جانب حب المظاهر والاهتمام بعشقي، وأدرك أن ضعفي هذا يعمّق الألم الذي أسميه عشقًا، وأتطهر. المهم أن أكون جزءًا من العالم العجيب غير المتناهي المتموج تحتي، وليس الألم الذي أعاني منه. كنت أشعر بأن مياه البوسفور التي تملأ فمي وحلقي ومنخري وأذنيّ إلى النهاية تمتع جانب التوازن والسعادة داخلي. في أثناء ضربي بذراعي بشكل عكسي ومتواصل بنوع من السكر بالبحر، كان ألم بطني يزول تقريبًا، وحينئذ أنتبه إلى أنني أشعر بحنان عميق نحو فسون، وأتذكر بأن هناك كثيرًا من الغضب والحزن منها في ألمي.

ترانـي سيبل متجهًا بأقصى سرعة إلى تحت ناقلة نفط سوفيتية تطلق بوقها بارتباك أو أحد مراكب الخطوط الداخلية، فتقفز بكل قوتها على الرصيف، وتصرخ، ولكنني في أغلب الأحيان لم أكن أسمع ذلك الصراخ. كانت سيبل تريد أن تمنعني من القفز على رأسي نحو الماء أمام الشاليه، والسباحة على ظهري لأنني أقترب بشكل كبير وخطير جدًّا من مراكب خطوط المدينة الكثيرة، وناقلات النفط الدولية، ومراكب نقل الفحم، وزوارق نقل البيرة ومياه ملتم الغازية إلى مطاعم البوسفور، وزوارق الركاب وكأنني أتحداها، ولكنها لم تكن تلح كثيرًا لمعرفتها أنها تخفف ألمي. بناء على اقتراح سيبل كنت أذهب في بعض الأيام وحدي إلى الشواطئ الهادئة. وفي الأيام التي تكون فيها الريح ساكنة والموج هادئا

أذهب إلى البحر الأسود وشيلة، وأحيانًا نذهب معًا إلى أحد الشواطئ الفارغة بعد بويقوظ، وأسبح من دون أن أرفع رأسي من الماء وإلى نهاية ما تقودني إليه أفكاري. بعد ذلك أخرج إلى الشاطئ، وأغمض عيني، وأفكر بتفاؤل أن ما عشته هو في الحقيقة ما يحدث لكل شاب لديه كرامة ويعشق بشغف.

الغرابة الوحيدة هو عدم انقطاع ألمي كما يحدث مع الجميع. عدم هدوء ألمي «بشكل تدريجي» على عكس ما كنت أقوله لسيبل في منتصف الليالي الهادئة (صوت طبطبة مركب شحن صغير فقط يتناهى من بعيد)، كان يشعرنا باليأس. كنت أعتقد في بعض الأحيان بأنني سأتخلص من ألمي فيما لو قدَّرت أنه ناجم عن بنيتي العقلية أو نقصٍ نفسي. ولكنني نتيجة ضعفي الشديد بالتعلق بحنان المنقذة الأم والملاك والحبيبة، لم أكن أستطيع الذهاب بهذه الأفكار إلى النهاية، وأحاول أن أؤمن بأن سباحتي على ظهري تهدئ من ألمي من أجل أن أقع في حالة من اليأس. ولكنني أعرف جيدًا أنني أخدع نفسي.

في شهر أيلول/ سبتمبر ذهبت ثلاث مرات إلى بناء مرحمة، ولم أخف هذا عن سيبل فقط، بل وعن نفسي أيضًا، وتمددت على السرير، وأمسكت الأشياء التي لمستها فسون، وحاولت أن أسلي نفسي بالطريقة التي يعرفها القارئ. لم أكن أستطيع أن أنساها.

٤٢ ـ حزن الخريف

بعد عاصفة شمالية شرقية، وبرودة مياه البوسفور إلى درجة عدم إمكانية السباحة فيها، تكثف حزني إلى درجة لم أعد أستطيع إخفاءها. هبوط المساء باكرًا، وتساقط أوراق الخريف على الحديقة الخلفية والرصيف، وفراغ الشاليه المستخدم مصيفًا فقط، وسحب الزوارق إلى المراسي والأرصفة،

وانقلاب الدراجات الهوائية فجأة في الأزقة القفرة بعد يومين من المطر، منحنا حزنًا خريفيًّا نجد صعوبة بتحمله. بدأت أشعر بارتباك بأن سيبل لم تعد تحتمل جمودي وكدري اللذين لم أستطع إخفاءهما، وشربي حتى الثمالة كل ليلة.

في نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر سئمت سيبل من الصنابير الصدئة التي يسيل منها ماء صدئ، والمطبخ المهلهل الكئيب والبارد، والريح الشمالية الباردة التي تهب على داخلنا من شقوق الشاليه وثقوبها. لم يعد يعرّج أصدقاؤنا الذين كانوا يأتون فجأة دون خبر مسبق في ليالي أيلول الحارة، ويقفزون من الرصيف إلى البحر بعد أن يسكروا وهم يطلقون القهقهات في الليل، وهذا ما يشعرنا بأن هناك حياة أكثر لهوًا في المدينة. أعرض أحجار الحديقة الخلفية الرطبة المتشققة وعليها بزّاقات، وصديقتنا الحرباء الوحيدة التي تختفي عند هطول المطر لكي تشير إلى هروب الأغنياء الجدد من حياة الشاليه في الشتاء، وتشعر زوار المتحف بحزن الخريف.

في تلك الأيام انتابني شعور قوي بضرورة أن أثبت لسيبل جنسيًّا أنني نسيت فسون لكي لا أقضي الشتاء وحيدًا في الشاليه مما يجعل حياتنا في غرفة النوم المرتفعة السقف التي نحاول أن ندفئها بمدفأة كهربائية مع اشتداد برودة الجو أكثرَ انكماشًا ويأسًا. وقلّ عدد الليالي التي يستطيع أحدنا أن يحتضن الآخر فيها بصداقة وعطف كما كنا سابقًا. كنا ـ سيبل وأنا ـ نستخف بالجهلاء غير المبالين الذين يستخدمون المدفأة الكهربائية في الشاليهات الخشبية معرضين الأبنية التاريخية للخطر، وفي الوقت نفسه نصل المدفأة الكهربائية بالمأخذ القاتل كل ليلة عندما نشعر بالبرد. في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر أيام البدء بإشعال التدفئة المركزية بدأنا نوجد مختلف الذرائع للخروج إلى بيه أوغلو، وحتى إلى نيشان طاش حيث الأزقة المحظورة عليّ من أجل أن نكون قريبين من حفلات الخريف في المدينة، وافتتاح النوادي الليلية الجديدة، والزحام في مداخل السينمات.

ذات مساء التقينا في نيشان طاش بذريعة واهية، قلنا لنعرّج على فوآية. وأثناء قلب كأسي عرق بالثلج على معدتي الخاوية، تبادلنا المجاملات مع الندل الذين نعرفهم وكبيري الندل سعدي وحيدر، واشتكينا مثل الجميع من عصابات القوميين المتطرفين والمقاتلين اليساريين الذين يرمون القنابل هنا وهناك، ويجرون البلد إلى الكارثة. الندل المسنون كما هم عليه دائمًا أكثر حيطة منا في موضوع الحديث بالسياسة. سألتني سيبل بسخرية عن سبب تعكر مزاجي لأن الوجوه المعروفة لنا لا تقترب منا على الرغم من نظراتنا المرحبة بهم. وأنا شرحت لها دون مزيد من التفاصيل والانفعال بأن أخي اتفق مع السيد طورغاي، وجذبا إليهما كنان الذي أندم الآن لأنني لم أستطع طرده بأي شكل، وسيؤسسان شركة جديدة، وهكذا نبذوني بسبب تعهد ملاءات مربح جدًّا.

قالت سيبل: «كنان الذي تتحدث عنه هو ذاك الذي رقص في حفل خطوبتنا بشكل جميل جدًّا؟». بالتأكيد أن سيبل استخدمت عبارة «الذي رقص بشكل جميل» لكي تشير إليه من دون أن تذكر فسون. ما زلنا نتذكر تفاصيل حفل الخطوبة بألم، وصمتنا فترة لعدم إيجادنا ذريعة نغيّر بها الموضوع. مع أن سيبل في الأيام الأولى لظهور «مرضي» كانت تستطيع في أسوإ اللحظات أن تفتح موضوعات جديدة بقوة مليئة بالحيوية.

قالت سيبل بسخرية بدأت تعتاد عليها في الأيام الأخيرة: «هل سيصبح كنان هذا مدير الشركة الجديدة الناجح؟». فكرت وأنا أنظر إلى يدي سيبل المرتجفتين بشكل خفيف ووجهها ذي المساحيق الكثيفة بأنها تحولت من فتاة تركية سعيدة ومثقفة درست في فرنسا إلى ربة بيت تركية ساخرة ومهمومة لديها مشاكل خطيبة رجل غني معتادة على المشروب.

أيعقل أنها تخزني لمعرفتها أنني أغير على فسون من كنان؟ قبل شهر فقط لم يكن يخطر ببالي شكٌّ كهذا.

قلت: «إنهم يحيكون المؤامرات من أجل كسب بضعة قروش زيادة، لا تهتمي».

«المكسب هنا ليس بضعة قروش، وتعرف هذا، إنه مبلغ كبير. عليك ألّا تغض الطرف عن أكلهم حقك، وسحب لقمتك من أمامك باستبعادك».

«لا يهمني».

تابعت سيبل قائلة: «لا أحب حالك هذه. كأنك تترك كل شيء، وتنسحب من الحياة، وتحب الهزيمة. يجب أن تكون أقوى».

رفعت كأس العرق، وابتسمت، وقلت: «هل نطلب لكل منا كأسًا أخرى؟».

طلبنا لكل منا كأسًا، وصمتنا أثناء انتظار كأسينا. ظهر تجعّد يشبه إشارة الاستفهام تظهر عادة محشورة بين حاجبي سيبل عندما تغضب.

قلت: «اتصلي بنورجيهان. لعلهما يأتيان».

قالت سيبل بصوتها الغاضب: «نظرت قبل قليل، الهاتف في الداخل لا يعطي خطًّا، إنه معطل».

قلت: «إيه، ماذا فعلت؟ وماذا اشتريت؟ افتحي الصرر، لنلهو قليلًا».

ولكن سيبل لم تدخل متعة فتح الصرر نهائيًّا.

قالت فيما بعد بجو لم أتوقعه نهائيًّا: «بتُّ متأكدة أنك لم تعد تستطيع أن تعشقها كما كنت. مشكلتك ليس بعشق امرأة أخرى، بل بأنك لا تعشقني».

قلت وأنا ممسك بيدها: «لماذا ألتصق بك إلى هذه الدرجة إذًا؟ لماذا لا أريد أن أقضي يومًا من دونك، ومن دون أن أمسك بيدك؟».

ليست المرة الأولى التي نقول فيها هذه الكلمات، ولكنني رأيت في عيني سيبل هذه المرة بريقًا عجيبًا، وخفت أن تقول الآتي: «لأنك تعرف أنك لن تحتمل ألم فسون إذا بقيت وحدك، ولعلك تموت من الألم!»، ولكن الحمد لله أن سيبل لا ترى وضعي سيئًا إلى هذه الدرجة.

«إنك تتمسك بي من أجل أن تصدق أن كارثة وقعت لك، وليس لأنك تعشقني».

«لماذا أحتاج للكارثة؟».

«إنك تحب أن تكون رجلًا متألمًا يترفع إزاء كل شيء. ولكن أصبح عليك أن تضع عقلك برأسك يا روحي».

قلت لها بأن هذه الأيام ستمضي، وأريد منها صبيّين وثلاث بنات يشبهنها، ونريد أن تكون لنا عائلة كبيرة سعيدة، ونعيش سنين طويلة متضاحكين ومحبين للحياة. وشرحت لها أن رؤية وجهها المنور، والاستماع لعباراتها الذكية، وسماعي أنها تعمل شيئًا ما في المطبخ، تمنحني فرحًا غير محدود بالحياة. قلت: «رجاء لا تبكي!».

قالت سيبل: «بت أشعر بأن شيئًا من هذا لن يحدث». وبدأت دموعها تتدفق من عينيها بغزارة أكبر. تركت يدي، وأخرجت منديلها، ومسحت أنفها ووجهها، ثم أخرجت مسحوق التجميل، ودهنت وجهها وتحت عينيها بكثافة.

سألتُ: «لماذا تفقدين ثقتك بي؟».

قالت: «لعل السبب هو فقداني الثقة بنفسي. أصبحت أفكر أحيانًا بأنني لستُ جميلة».

أمسكتُ يدها بقوة، وما إن كنت أشرح لها كم هي جميلة، قال طيفون: «هيه أيها العاشقان الشاعريان. هل تعرفان أن الجميع يتحدثون عنكما؟ آآآ، ماذا حدث؟».

«ماذا يقول الجميع عنا؟».

كثيرًا ما جاء طيفون إلى الشاليه في أيلول/ سبتمبر. وتعكر مزاجه فورًا حين رأى سيبل قد بكت. كان يريد أن يهرب من الطاولة، ولكنه توقف عندما رأى تعبير وجه سيبل.

قالت سيبل: «ماتت قريبة لنا بحادث سيارة».

سألته ساخرًا: «ماذا يقول الجميع عنّا؟».

بعد أن قال طيفون: «البقية بحياتكم»، تلفت إلى يمينه وإلى يساره من أجل أن يهرب، فنادى أحدهم داخلًا من الباب بشكل مبالغ به. قبل أن يبتعد، قال: «عشقكما كبير إلى درجة أنكما لا تتزوجان خشية من قتل الزواج للعشق كما يفعل الأوربيون. برأيي تزوجا، لأن الجميع يغير منكما. وهناك من يقول إن ذلك الشاليه شؤم».

فور ذهابه، طلبنا من النادل الشاب المحبب كأسي عرق. تمكنت سيبل من التغطية بشكل جيد على نوبات تعاستي التي تستلفت نظر أصدقائنا باختراع مختلف الذرائع، ولكننا نعرف بأن كثيرًا من النميمة تدور من خلفنا لأننا نعيش معًا دون زواج، وبقيت في ذاكرتهم سخريات سيبل ووخزاتها حولي، وأن سباحتي على ظهري فترة طويلة ونوبات تعاستي هي موضوع سخريتهم.

«هل سنتصل بنورجيهان من أجل العشاء، أم نأكل نحن؟».

قالت سيبل بما يشبه الارتباك: «لننتظر قليلًا أيضًا. اتصل من الخارج، وحاول إيجادهما. هل لديك «قِطع الاتصال» بالهاتف؟».

أعرض هنا بعض تلك القطع المعدنية ذات الحواف المحنية التي تباع في أكشاك الصحف والسجائر لأنني لا أريد للسعداء الجدد المهتمين بعد خمسين عامًا من أحداث قصتي أن يقلبوا شفاههم ممتعضين من إسطنبول عام ١٩٧٥ التي تنقطع مياهها (لهذا السبب كانت تنقل مياه بشاحنات خاصة إلى الأحياء الغنية) ولا تعمل هواتفها. في الأعوام التي بدأت فيها قصتي كانت غالبية هواتف الأكشاك القليلة في أزقة إسطنبول إما مكسورة بهمجية وإما معطلة. لا أذكر أنني تمكنت من الاتصال بالهاتف من أي كشك يعود لمؤسسة البريد والبرق والهاتف في تلك السنين (يقوم بهذا العمل أبطال الأفلام المحلية فقط بنجاح تحت تأثير الأفلام الغربية). كنا نستطيع قضاء حاجتنا بحصالات تعمل بواسطة قطع معدنية خاصة يبيعها مبادرون في الدكاكين والبقاليات والمقاهي. أشرح لكم هذه التفاصيل لتفسير سبب

تجوالي على الدكاكين واحدًا واحدا في نيشان طاش. وجدت هاتفًا غير مشغول لدى محل مراهنات مباريات. كان هاتف نورجيهان مشغولًا، ولم يسمح لي الرجل باتصال ثانٍ، وبعد فترة اتصلت بمحمد من محل بيع زهر. قال إنه في البيت مع نورجيهان، وبعد نصف ساعة سيكونان في مطعم فوآية.

وصلت إلى قلب نيشان طاش وأنا أسأل الدكاكين عن هاتف. قلت لنفسي لعلني أتحسن فيما لو رأيت الأشياء في شقة بناء مرحمة بما أنني قريب جدًّا منه. كان المفتاح معي.

غسلت يدي ووجهي فور دخولي الشقة، وخلعت سترتي وقميصي كطبيب يستعد لعملية، وجلستُ على حافة السرير الذي مارست عليه الحب مع فسون في المرات الأربع والأربعين الأولى، وداعبت ثلاثة من الأشياء المفعمة بالذكريات من حولي، وأعرضها هنا، وسعدت على مدى ساعة ونصف الساعة.

عندما عدت كان زعيم أيضًا قد جاء إلى فوآية إضافة إلى محمد ونورجيهان. أذكر أنني كنت أنظر إلى الطاولة المكتظة بالزجاجات ومنفضات السجائر والأطباق والكئوس، وأستمع إلى صخب طبقة إسطنبول الراقية، وأفكر بأنني أحب الحياة.

قلت وأنا أحاول تحضير كذبة: «عدم المؤاخذة يا أصدقائي، تأخرت، ولكنكم لو تعرفون ما الذي حدث معي».

قال زعيم بشكل لذيذ: «لا تهتم، اجلس. انس كل شيء. واسعد معنا».

«أنا أصلًا سعيد».

حين التقت عيناي بعيني سيبل، رأيت أن خطيبتي السكرانة قد فهمت أين اختفيت، وقررت أنني لن أشفى نهائيًّا. كانت غاضبة جدًّا مني، ولكنها سكرانة إلى درجة عدم استطاعتها افتعال مشكلة. وعندما ستصحو، لن تفتعل

مشكلة لأنها تحبني كثيرًا، أو لأنها تعتبر بأن خسارتها لي أو فسخ الخطوبة تعني هزيمة فظيعة. ولهذا السبب، أو لأسباب أخرى لا أفهمها حتى الآن، أشعر بارتباط قوي بها. لعل ارتباطي هذا يمنح سيبل أملًا، فتعود إلى إيمانها بأنني سأبرأ من مرضي ذات يوم. ولكنني كنت أشعر في تلك الليلة بأن تفاؤلنا وصل إلى نهايته.

كنت أرقص ذات فترة مع نورجيهان.

قالت: «جرحت سيبل، وأغضبتها. لا تجعلها تنتظر وحدها في المطاعم. إنها تحبك كثيرًا. وهي حساسة جدًّا».

«لا يمكنك شم رائحة ورد العشق دون قليل من الأشواك. أنتما متى ستتزوجان؟».

قالت نورجيهان: «محمد يريد هذا فورًا. ولكنني أريد أن نعلن خطوبتنا فقط، وبعدها نعمل مثلكما، ونعيش عشقنا بكل ما أوتينا من قوة قبل الزواج».

«لا تتخذونا مثالًا إلى هذه الدرجة..».

قالت نورجيهان: «هل هناك ما لا نعرفه؟ وأرادت أن تخفي فضولها بابتسامة مصطنعة.

ولكن هذه العبارة لم تثر أي قلق لدي. العرق يحوّل شغفي من ألم مستمر وقوي إلى سراب يظهر تارة، ويختفي تارة. في أثناء رقصي مع سيبل في وقت ما من الليل، أذكر أنني جعلتها تقسم الأيمان ألا تتركني في أي وقت مثل العشاق طلاب الثانوية، وقد تأثرت بإلحاحي، وحاولت تهدئتي بكل صدق. كان كثير من المعارف يأتون، ويجلسون إلى طاولتنا، ويقولون لنذهب إلى مكان آخر بعد أن نخرج من هنا: ثمة مسنون قالوا لنذهب إلى البوسفور، ونجلس في سياراتنا، ونشرب شايًا، وهناك من قال لنذهب إلى بائع فتة الكوارع في قاسم باشا، وهناك من قال لنذهب إلى المقاصف،

ونستمع إلى بعض المقطوعات الموسيقية. أضحك الجميع محمد ونورجيهان أثناء عناقهما وتمايلهما بشكل مضحك مقلدين رقصنا ـ سيبل وأنا ـ بجو رومانسي. عندما خرجنا من فوآية وخيوط النور تظهر، قدت السيارة على الرغم من اعتراض الجميع. ونتيجة صراخ سيبل التي انتبهت إلى تمايل السيارة، عبرنا البوسفور بالعبارة. أثناء رسو العبارة في مرسى أسكودار مع ظهور الشفق، كنا قد غططنا بالنوم كلانا. أيقظنا عمال تنظيم نزول السيارات بالطرق على زجاج سيارتنا لأننا نسد طريق شاحنات المواد الغذائية والحافلات. عدنا إلى الشاليه ونحن ننزلق يمينًا ويسارًا تحت أوراق أشجار الدلب الحمراء المتساقطة الشبيهة بالأشباح على طريق الشاطئ دون حادث أو بلية، ونمنا متعانقين بقوة في نهاية ليلة مليئة بالمغامرات.

٤٣ ـ أيام الوحدة الباردة في تشرين الثاني/ نوفمبر

لم تسألني سيبل في الأيام التالية نهائيًّا عما فعلته في الساعة ونصف الساعة التي غبتها في نيشان طاش: ترسخ الشعور بعدم إمكانيتي التخلص من عقدتي بحيث لم يعد هناك مجال للشك. لقد ظهر بأن الحمية والمحظورات لا تفيد بأي شيء. من جهة أخرى فقد كنا مسرورين من الحياة في الشاليه الذي فقد أبهته. ثمة ما يربط أحدنا بالآخر، ويجمّل ألمنا ليجعله محتملًا في هذا البناء المهلهل مهما كان وضعنا ميئوسًا منه. حياة الشاليه تعمق حالة الهزيمة والحزن والصداقة في عشقنا الذي يبدو أن الحياة لن تدب فيه، وتضيف آخر آثار الثقافة العثمانية إلى حياة عاشقين سابقين، وخطيبين جديدين عمقًا إلى «نقصها»، وحتى إنها تنقذنا من ألم عدم ممارسة الحب.

إذا فتحنا طاولتنا مقابل البحر مساء على الشرفة، وأسندنا ذراعينا إلى الحامية الحديدية ونحن نجلس متقابلين، وانتشينا بشرب العرق، تشعرني

نظرات سيبل بأن الزواج هو الأمر الوحيد الذي يربطنا دون ممارسة الحب. أليس هناك كثير من الأزواج - في جيلنا وليس في جيل آبائنا وأمهاتنا فقط - يعيشون معًا بسعادة كبيرة متظاهرين بأن كل شيء «طبيعي» على الرغم من عدم وجود أي علاقة جنسية؟ بعد الكأس الثالث أو الرابع، نتبادل الأسئلة حول معارفنا البعيدين والقريبين، والشباب والمسنين ما إذا كانوا يمارسون الحب حتى الآن؟ ونطرح توقعاتنا بين الجد والمزاح. بالطبع فإننا مدانون بسخريتنا التي تبدو لي الآن مؤلمة جدًّا إلى عيشنا حياة جنسية سعيدة حتى فترة قريبة. أما الهدف السري من هذه الأحاديث التي تربط أحدنا بالآخر بحرمة وشراكة بالذنب فهو أن نشعر بإمكانية زواجنا ونحن بهذه الحال، والإيمان بشكل مستتر بأن حياتنا الجنسية ستعود ذات يوم، وتستمر. وعلى الأقل فإن سيبل تؤمن بهذا في أكثر أيامها تشاؤمًا تحت تأثير سخريتي وممازحتي والحنان الذي أشعر به ناحيتها، يسيطر عليها الأمل، وتشعر بالسعادة، وحتى إنها تجلس في حضني برغبة الانطلاق فورًا. في لحظات تفاؤلي، أشعر أنا أيضًا بما أعتقد أن سيبل تشعر به، وأفكر بأن أشرح لها ضرورة زواجنا فورًا، ولكنني كنت أخشى من رفضها عرضي، وهجري. لأنني كنت أشعر أيضًا بأن سيبل تتحين الفرصة لإنهاء علاقتنا بشكل تكسب فيه احترامها لنفسها. لم تستطع التحرك بأي شكل لأنها لا تتقبل بأي شكل خسارتها الحياة الزوجية السعيدة مع الأولاد والأصدقاء التي يغار منها الجميع، وكانت تبدو بمتناول يدنا قبل أربعة أشهر فقط. ثقل وضعنا يجعلنا نحاول تمرير حبنا وشغفنا الغريبين اللذين يكنهما كل منا للآخر، وعندما نستيقظ وسط نوم غططنا به بتأثير المشروب في منتصف الليل، نحاول أن ننسى ألمنا بالعناق.

عندما نستيقظ خشية التعاسة أو نتيجة العطش بتأثير الكحول في الأيام التي يتوقف فيها الهواء اعتبارًا من أواسط شهر تشرين الثاني / نوفمبر، نبدأ نسمع صيادًا في زورقه تحت شبابيكنا المغلقة تمامًا، يرمي شبكته إلى مياه البوسفور، ويتحرك. كان ثمة أب صياد خبير في المركب المندس قرب

شباك غرفة نومنا وابنه النحيل اللذيذ المطيع الملبي كل ما يطلبه والده. في أثناء سقوط الضوء الجميل من المصباح الذي يشعلانه في الزورق على سقف غرفتنا، نسمع صوت التجديف في الماء وسط صمت الليل، وقطرات الماء التي تقطر من الشِّباك المسحوبة، وسعال الأب والابن اللذين يعملان من دون أن يتكلما نهائيًّا. حين نتنبه إلى مجيئهما، ونستيقظ، نتعانق سيبل وأنا، ونستمع من سريرنا إلى السمّاكين الأب وابنه على مبعدة خمسة أو ستة أمتار منا ولا علم لهما بنا أثناء تجديفهما، وإلقائهما الأحجار إلى البحر لكي يتحرك السمك، ويقع في الشباك، وسحبهما الشباك، وتنفسهما، وحديثهما النادر. أحيانًا يقول صياد السمك: «امسك بقوة يا بني!» أو يقول: «ارفع السلة!». فيما بعد، وفي أعمق لحظات الصمت، يقول الولد بصوته الجميل: «يوجد هنا واحدة أخرى!». ويثار فضولنا ـ سيبل وأنا ـ لمعرفة ما يشير إليه الولد في أثناء عناقنا في السرير. لعلها سمكة، أو إبرة، أو أي كائن نحاول تخيله من سريرنا. في أثناء تخيلنا الصياد الأب وابنه بين النوم والصحو، إما أن نعود إلى نومنا ثانية، وإما أن نتنبه إلى أن زورقهما قد ابتعد. لا أذكر بأننا ـ سيبل وأنا ـ تحدثنا حول الصياد وابنه في النهار. ولكن عندما يأتي الزورق ليلًا أدرك من عناقها لي أنها تشعر بطمأنينة عميقة من سماع صياد السمك وابنه بين النوم والصحو مثلي، وأشعر بأنها تنتظرهما حتى وهي نائمة مثلي. كأن أحدنا لن ينفصل عن الآخر طالما سمعنا صياد السمك وابنه.

ولكنني أذكر أن سيبل مع مرور الأيام تغضب مني بعمق أكثر، ويزداد شكّها بجمالها شاعرة بألم أشد، وعيناها تدمعان ونتلاسن أكثر، وننجرّ نحو مشاجرات ومقاطعات. الوضع الأكثر مصادفة عدم إبدائي ردة فعل صادقة وأنا أحمل كأس عرق وأحلم بفسون إزاء عمل بذلت جهدًا فيه، مثلًا كعكة أعدتها، أو طاولة صغيرة جهدت بجلبها إلى البيت؛ وعدم اللحاق بها من أجل الاعتذار عندما تصفع الباب، وتخرج، على الرغم من أنني أكون في الغرفة الداخلية مقهورًا، ورؤيتها منغلقة على نفسها من الألم فيما لو ذهبت إليها.

إذا فسخنا الخطوبة، سيستخف المجتمع الراقي بسيبل فترة طويلة قائلًا: «عاشا معًا دون زواج». مهما رفعت سيبل رأسها، ومهما كان أصدقاؤها «متأوربين»، فهي تعرف جيدًا أن القضية تصبح قضية امرأة مُسَّ شرفها أكثر منها قصة عشق إذا لم نتزوج. بالطبع أننا لم نتحدث بهذا نهائيًّا، ولكن كل يوم يمر هو ليس لصالح سيبل.

لأنني حين أذهب أحيانًا إلى شقة بناء مرحمة، وألعب بأشياء فسون أشعر بأنني أفضل، ويخاتلني ألمي بأنه يخف، وأعتقد بأن هذا يبث الأمل بسيبل. أشعر بأن ذهابنا إلى ملاهي المدينة واجتماعات الأصدقاء والدعوات تريح سيبل قليلًا، ولكنها لم تكن تستطيع إخفاء تعاستها خارج ساعات سكرها الشديد، والدقائق التي نستمع فيها لصياد السمك وابنه. في تلك الأيام توسلت لجيدا التي على وشك أن تضع مولودها لمعرفة مكان فسون، وكيف هي، عرضت عليها رشوة، ولكنني أكثر ما عرفته أنها في مكان ما من إسطنبول. هل أمشط المدينة كلها سيرًا على الأقدام من زقاق إلى زقاق؟

في أحد أيام مطلع الشتاء الحادة والباردة قالت سيبل إنها تفكر بالذهاب إلى باريس مع نورجيهان. ستذهب نورجيهان في عيد الميلاد إلى باريس للتسوق قبل خطوبتها وزواجها من محمد، ولإنهاء بعض الأمور المعلقة. شجعتُ سيبل عندما قالت إنها تريد أن ترافقها. فكرت بالبحث عن فسون بكل قوتي عندما تذهب سيبل إلى باريس، وقلب إسطنبول رأسًا على عقب، وإذا لم أحصل على نتيجة، فسأتخلص من ندمي الذي يكسر إرادتي، ومن ألمي، وأتزوج سيبل عند عودتها. وحين شكّت سيبل بتشجيعي لها على الذهاب، شرحت لها بأن تغيير الجو والمكان سيكون جيدًا لكلينا، وأننا سنتابع من حيث توقفنا عند عودتها، واستخدمت كلمة الزواج مرة أو اثنتين دون أن أبرزها كثيرًا.

لقد فكرت بكل صدق بالزواج من سيبل التي ابتعدت آمالها عني

وعلقتها باستعادة صحتها بداية، وصحتي ثانيًا بعد عودتها من باريس. ذهبنا إلى المطار مع نورجيهان ومحمد، ولأننا وصلنا باكرًا، جلسنا حول طاولة صغيرة في الصالة الجديدة، وشربنا مياه ملتم الغازية التي تقترحها علينا إنغة من أحد الملصقات على الجدار. عندما رأيت الدموع بعيني سيبل وأنا أعانقها للمرة الأخيرة، خفت ألا نعود بعد ذلك إلى حياتنا السابقة، وألا أراها لفترة طويلة جدًّا، ثم فكرت بأن هذا مجرد مبالغة بالتشاؤم. في طريق العودة، وبعد صمت طويل قال لي محمد الذي يفارق نورجيهان لأول مرة بعد أشهر: «أخي، لم يعد الأمر ممكنًا دون فتيات».

بدا لي الشاليه خاويا وحزينا إلى درجة لا تُطاق. عندما بقيت وحيدًا انتبهت إلى أن البحر يهدر باستمرار في الشاليه الخاوي على مقامات متعددة غير صرير الأرضية الخشبية. تصفع الأمواج الرصيف الإسمنتي والصخور بصوت مختلف تمامًا، وهدير التيار أمام مرسى الزوارق يصدر صوتًا مختلفًا تمامًا. العاصفة الشمالية تصرّ كل طرف من أطراف الشاليه، وعندما دخلت السرير بحالة سكر تامة، انتبهت قريب الصباح إلى أنني لم أسمع أصوات صياد السمك وابنه لأول مرة. أصبحتُ مدركًا بجانب عقلي الذي يبقى دائمًا واقعيًّا وصادقًا بأن مرحلة من حياتي قد انتهت، ولكن جانبي الهلع الخائف من الوحدة يعيق تقبل هذه الحقيقة بشكل كامل.

٤٤ ـ فندق الفاتح

في اليوم التالي التقيت بجيدا. كانت توصل رسائلي، وأنا وظفت أحد أقربائها في صاطصاط. كنت أعتقد بأنني إذا ضغطت عليها، وقسوت قليلًا بطلب عنوان فسون فلن تقاوم. اتخذت جيدا موقفًا يوحي بوجود أسرار نتيجة إلحاحي. وأشارت إلى أنني لن أكون سعيدًا برؤية فسون، وأن الحياة والعشق والسعادة أمور صعبة جدًّا، وكل شخص يعمل ما بوسعه من أجل

حماية نفسه وسعادته في هذه الدنيا الفانية! كانت تمسك بطنها المنتفخ كثيرًا بسعادة أحيانًا وهي تتكلم، ولديها زوج لا يرفض لها طلب.

لم أُفْزع جيدا، وأضغط عليها أكثر. ولم أستطع أن أكلف أحدًا بملاحقتها لأن مكاتب التحقيق الخاصة كما في الأفلام الأمريكية لم تفتح بعد في إسطنبول (ستفتح بعد ثلاثين عامًا). إننا نحقق سرًّا بقضية سرقة فقط، وقد عاد حارس والدي الشخصي رامز (كان اسمه فدائي) الذي كان يقضي له بعض حاجياته الظلامية من عملية البحث عن فسون ووالدها والعمة نسيبة خاوي اليدين. وبعد بحث العم السيد سلامي المفتش المتقاعد الذي قضى عمره بملاحقة المجرمين، ويساعدنا بتذليل الصعوبات التي تعترضنا في الجمارك والمالية ـ بعد بحثه ـ في دوائر النفوس وفروع الأمن والمختارين، قال إنه من الصعب إيجاد الشخص ـ والد فسون ـ الذي أبحث عنه لعدم وجود سابقة جنائية له. وفشلت زيارتاي إلى ثانويتي وفا وحيدر باشا اللتين عمل فيها والد فسون مدرسًا للتاريخ قبل أن يحال إلى التقاعد متقمصًا شخصية الطالب الوفي الذي جاء يقبل أيادي مدرسه القديم. من طرق الوصول إلى والدتها معرفة السيدات اللواتي تأتي للخياطة لهن في نيشان طاش وشيشلي. وبالطبع لا يمكنني أن أسأل هذا لأمي. أما زعيم فقد عرف من والدته أن قليلًا جدًّا من النساء تطلب خياطة الآن. كلفتُ وسيطات لإيجاد الخياطة نسيبة، ولكنهن لم يجدنها. بوء أحلامي بالفشل زاد من ألمي. أعمل طوال اليوم في المكتب، وفي فرصة الظهر أذهب إلى بناء مرحمة، وأتمدد على السرير الذي ضاجعت فسون عليه، وألفّ الأشياء القديمة، وأحاول أن أكون سعيدًا، ومن هناك أعود إلى المكتب حينًا، وأركب السيارة، وأجوب في أزقة إسطنبول لا على التعيين علني أصادف فسون أحيانًا.

لم يخطر ببالي أن تلك الجولات التي استعرضت فيها أحياء إسطنبول حيًّا حيا، وأزقتها زقاقًا زقاقا ستكون ذكريات سعيدة بعد أعوام. ولأن شبح فسون صار يظهر أمامي في وفا وزيبق وفاتح وقوجا مصطفى باشا، أعبر إلى الطرف الآخر من الخليج، وأذهب إلى أحياء

المدينة القديمة. عندما يظهر شبح فسون في زاوية أثناء قيادتي السيارة في الأزقة الضيقة المبلطة بالحجر والمُحفّرة وبيدي سيجارة، أتوقف فورًا، وأركن السيارة، وأشعر بحب عميق لهذا الحي الجميل والفقير الذي تعيش فيه. كنت أقدس عشقي كله في أزقة الخالات المتعبات المغطيات رءوسهن، والشباب الطائشين الفتوة حاملي السكاكين يرمقون بدقة الغرباء ملاحقي الأشباح؛ والمقاهي التي يتسكع فيها العاطلون عن العمل، ويقرءون الجرائد، ويلتقط فيها المسنون أنفاسهم، وتعج برائحة دخان الفحم. عندما أجد أن الظل الذي ألاحقه من بعيد لا يشبه فسون، لا أترك الحي فورًا، وأقتنع بأن فسون هنا لأن خيالها ظهر هنا، وأتسكع في الأزقة. لم أكن أقلق نهائيًّا من رؤية السبيل الجاف الممتد عمره إلى مائتين وعشرين سنة في الساحة التي تلعق القطط فيها نفسها وقد غطيت سطوحه الرخامية كلها بشعارات الأحزاب السياسية اليمينية واليسارية، والمجموعات التي كانت تسمى في تلك الأيام «الفصائل»، وتهديدات القتل. إيماني من كل قلبي بأن فسون هنا في مكان ما، يجعل هذه الأزقة تمنحني هالة سعادة وحكائية، وأفكر بأنني يجب أن أمشي أكثر في هذه الأزقة التي يجوب فيها شبحها، وأن أشرب الشاي في مقاهيها، وأنظر من النافذة نحو الخارج منتظرًا مرورها، ويخطر ببالي أنني يجب أن أعيش مثلها ومثل عائلتها لكي أكون قريبًا منها.

انقطعت لفترة قصيرة عن ملاهي الطبقة الراقية التي نذهب إليها يوميًّا، والمطاعم الحديثة في نيشان طاش وببك. سئمت تمامًا من حديث محمد الذي اعتبر لقاءنا كل ليلة قدرنا حول مشتريات «فتاتينا» في باريس لساعات. إذا هربتُ من محمد، أجده في النادي الليلي الذي أذهب إليه، فيحدثني عن المكالمة الهاتفية الطويلة التي أجراها في ذلك اليوم مع نورجيهان وعيناه تقدحان شررًا، أما أنا فقد كنت أرتبك عندما أتصل بسيبل لأنني لا أجد ما أحدثها فيه. أنا أيضًا أريد أحيانًا أن أعانق سيبل، وأسلي نفسي، ولكن شعوري بالذنب إزاءها، وبالازدواجية نتيجة إساءتي لها، أتعبني كثيرًا إلى درجة أن

ابتعادها منحني طمأنينة. كنت مؤمنًا بأنني عدت إلى حالي الطبيعية السابقة بسبب تخلصي من التصنع الذي فرضه علي الوضع. هذه الحال الطبيعية تمنحني أملًا أثناء بحثي عن فسون في الأحياء البعيدة والنائية، وأغضب من نفسي لأنني لم آتِ إلى هذه الأزقة الجميلة والعزيزة على القلب من قبل. في أثناء سيري في الأزقة أتذكر أنني نادم لعدم تراجعي عن الخطبة في اللحظة الأخيرة، وعدم اتخاذي قرارًا بفسخ الخطوبة بأي شكل، ولأنني تأخرت بشكل مستمر.

بقي أسبوعان لعودة سيبل من باريس، رتبت حقائبي في أواسط كانون الثاني/ يناير، وغادرت الشاليه، ونزلت في فندق يقع بين حي الفاتح وقرة جمرك. دخلتُ الفندق الذي أعرض هنا مفتاحه ذا الشعار، وأوراقه ذات الترويسة، ولوحته الصغيرة التي حصلت عليها بعد سنين، مساء عندما هطل المطر بغزارة بعد أن بحثت عن فسون في الأحياء الواقعة أسفل الفاتح زقاقًا زقاقًا، ودكانًا دكانًا. كنت متعبًا تمامًا من مراقبة سعادة العائلات التي تعيش في أبنية حجرية مهملة آيلة من الروم، ودور خشبية غير مطلية تبدو على وشك الانهيار، وتعاستها وفقرها بعد ظهر ذلك اليوم من كانون الثاني/ يناير. حل المساء باكرًا، وصعدت الطلعة من أجل البدء بالشرب قبل العودة إلى الطرف الآخر من الخليج، ودخلت إلى مشرب بيرة قريب على الشارع الرئيس. وسكرت حتى الثمالة بشرب الفودكا المخلوطة بالبيرة وسط زحام رجال يشربون وهم يشاهدون التلفاز في وقت مبكر، قبل أن تشير الساعة إلى التاسعة. عندما خرجت، لم أتذكر أين وضعت سيارتي. أذكر أنني مشيت طويلًا في الأزقة وأنا أفكر بفسون وحياتي أكثر مما بحثت عن السيارة، وأنني سعدت بالتفكير بها حتى وإن كان بألم في تلك الأزقة المظلمة والطينية. دخلت فندق الفاتح الذي ظهر أمامي قريب منتصف الليل، وحجزت غرفة، ونمت.

إنها المرة الأولى التي نمت فيها دون أرق منذ أشهر. في الليالي التالية أيضًا نمت في الفندق نفسه بالطمأنينة نفسها. أنا أدهش من هذا. أحيانًا أحلم

قريب الصباح بذكرى سعيدة من طفولتي وأولى سنوات شبابي، وأستيقظ على رعشة كما كان يحدث حين أسمع صياد السمك وابنه، وأريد أن أعود إلى النوم في سرير الفندق من أجل متابعة الحلم السعيد.

ذهبتُ إلى الشاليه، وأخذت أغراضي وجواربي الصوفية، وثيابي، ولم آخذ حقائبي إلى البيت لتجنب نظرات أبي وأمي الفضولية وأسئلتهما، بل أخذتها إلى الفندق. أذهب كل يوم في الصباح الباكر إلى صاطصاط، وأخرج من المكتب باكرًا، وأركض نحو أزقة إسطنبول. أبحث عن حبيبتي بانفعال لا ينضب، وفي المساء أحاول نسيان تعب ساقي أثناء شربي في مشارب البيرة. وككثير من مراحل حياتي، اكتشفت بعد أعوام أن أيام فندق الفاتح التي اعتقدت أنها تؤلمني أثناء عيشي لها هي في الحقيقة فترة سعيدة جدًّا. أخرج كل يوم من المكتب في عطلة الظهيرة، وأذهب إلى بناء مرحمة، وأهدئ ألم عشقي باللعب بالأشياء التي تزايدت بتذكري قطعة جديدة، وإضافتها كل يوم، وفي المساء أشرب، وأمشي طويلًا جدًّا. أسير لساعات برأس مخمور في أزقة فاتح وقرة جمرك وبلاط الخلفية، وأتفرج على سعادة العائلات التي تتناول عشاءها عبر النوافذ المفتوحة، وكثيرًا ما يسيطر عليّ شعور: «فسون هنا في مكان ما»، وأشعر بتحسن حالتي.

أشعر أحيانًا بأن سبب تحسني إلى هذه الدرجة في تلك الأزقة ليس القرب من فسون، بل شيئًا آخر. أحيانًا أشعر بأنني استطعت رؤية جوهر الحياة برؤيتي أولادًا يلعبون كرة القدم بكرة مثقوبة في ضوء مصباح شارع بين العربات وصفائح الزبالة والأرصفة في زقاق طيني مبلط بالحجارة أو مقسم فارغ، في أحد الأحياء المتطرفة: كأن نمو أعمال والدي، ومصانعه، وغناه، والحياة «الأوربية» المحترمة المناسبة لهذا الغنى أبعدتني عن جوانب الحياة البسيطة والأساسية، وأنا أبحث عن مركز حياتي المفقودة هذه. وفي أثناء تقدمي دون هدف في الأزقة الضيقة والطلعات الطينية والطرق الملتوية التي تقطعها الأدراج برأس مخمور تمامًا بالعرق، أشعر بخوف فجأة بأن أحدًا لم يبق في الأزقة غير الكلاب، وأتفرج بإعجاب على صفرة المصابيح خلف

الستائر المسدلة، والدخان الأزرق الرفيع المتصاعد من المداخن، وأضواء التلفازات المنعكسة على الواجهات الزجاجية والنوافذ. مساء اليوم التالي، وفي أثناء تناول السمك والعرق في إحدى خمارات بشكطاش الواقعة داخل السوق مع زعيم يتجلى أحد مناظر تلك الأزقة الخلفية المظلمة أمام عيني، وكأنه يحميني من جاذبية العالم الذي يقص عليّ زعيم قصصه.

يحدثني زعيم عن آخر الدعوات، والرقص، ونميمة النوادي، ونجاح مياه ملتم الغازية ردًّا على أسئلتي، ويتذكر ما يدور في المجتمع الراقي من أحداث تستحق الذكر، ولكنه يمر عليها دون مزيد من التوقف. يعرف أنني خرجت من الشاليه ولا أقيم مع والدي ووالدتي في نيشان طاش، ولكنه لا يسألني عن فسون وألم عشقي، ولعل السبب هو عدم إزعاجي. أحيانًا أستدرجه بالحديث لمعرفة ما إن كان يعرف شيئًا حول ماضي فسون. أتقمص موقف رجل واثق بنفسه، يعي ما يفعله أحيانًا، وأشعره بأنني أذهب كل يوم إلى المكتب، وأعمل.

في أحد الأيام الأخيرة من كانون الثاني/ يناير اتصلت سيبل إلى المكتب من باريس، وقالت مرتبكة إنها عرفت من الجيران والبستاني بأنني غادرت الشاليه. لم نتحدث بالهاتف لفترة طويلة، وهذا بالتأكيد إشارة على البرودة والبعد بيننا، ولكن الاتصال الدولي في ذلك الوقت لم يكن سهلًا. يجب على الإنسان أن يمسك الهاتف، ويصرخ بكل قوته وسط هدير عجيب. كنت أؤجل الاتصال بسيبل حين أفكر بأن كل موظفي صاطصاط سيسمعون كلمات الغرام التي يجب أن أقولها (دون إيمان على الأغلب) بأعلى صوتي.

قالت: «خرجت من الشاليه، ولكنك لا تذهب مساءً إلى بيت والدك ووالدتك!».

«نعم».

لم أقل لها بأن عدم ذهابي إلى البيت والخروج إلى نيشان طاش قرارنا

المشترك لكي «لا يؤجج مرضي» بالذكريات. ولم أسألها ممن عرفت بعدم ذهابي مساء إلى البيت. قفزت سكرتيرتي السيدة زينب من مكانها، وغادرت، وأغلقت الباب خلفها لأتكلم براحتي مع خطيبتي، ولكنني يجب أن أتحدث صراخًا لكي تفهمني سيبل.

سألت: «ماذا تفعل؟ أين تقيم؟».

حينئذ تذكرت بأن أحدًا غير زعيم لا يعرف أنني مقيم في فندق الفاتح. ولم أرد أن أقول هذا صراخًا وموظفو الشركة كلهم يسمعونني.

قالت سيبل: «هل عدت إليها؟ قل هذا بصدق يا كمال».

قلت: «لا!» ولكنني لم أصرخ كما يجب.

قالت سيبل: «لم أسمع يا كمال، قلها مرة أخرى».

قلت ثانية: «لا». ولكنني لم أستطيع الصراخ ثانية. كان يصدر عن خطوط الاتصالات الدولية في تلك الأيام هدير قويّ يشبه الهدير الذي تصدره قواقع البحر عند وضعها على الأذن.

كانت سيبل تقول: «كمال، كمال... لا أسمع، رجاء..».

صرختُ بكل قوتي: «أنا معك!».

قالت: «قل لي بصدق».

قلت رافعًا صوتي أكثر قليلًا: «ليس هناك ما هو جديد لأقوله».

قالت سيبل: «مفهوم!».

اختنق الخط بهدير بحر عجيب، وصدر أزيز، وانقطع. فجأة سمعتُ صوت موظفة مقسم شركة الهاتف: «قُطع خط باريس يا سيدي، هل تريد أن أعيد الاتصال؟».

قلت: «لا يابنتي، أشكرك». خطاب الموظفات بكلمة «ابنتي» مهما كانت أعمارهن عادة والدي. دهشت من أخذي عادات والدي بهذه السرعة.

ودهشت لحزم سيبل... ولكنني لم أعد أريد أن أكذب. لم تتصل سيبل بي من باريس ثانية.

٤٥ ـ سياحة جبل أُولو

علمت بعودة سيبل إلى إسطنبول عند صعود العائلات إلى جبل أولو من أجل التزلج في شباط، في بداية عطلة منتصف العام البالغة خمسة عشر يومًا. كان زعيم سيذهب إلى الجبل مع أبناء أخوته، واتصل بالمكتب قبل ذهابه، والتقينا في مطعم فوآية على الغداء. في أثناء تناول حساء العدس ونحن متقابلان، ركز زعيم عينيه على عيني بنظرة مليئة بالحب:

«أرى أنك تهرب من الحياة، وتغدو كل يوم أكثر همًّا وحزنًا، وهذا ما يحزنني».

قلت: «لا تحزن... كل شيء على ما يرام..».

قال: لا تبدو سعيدًا. حاول أن تكون سعيدًا».

قلت: «بالنسبة إليّ فإن السعادة ليست هدف الحياة. لهذا السبب تعتقد أنني لست سعيدًا، وأهرب من الحياة... أنا على عتبة حياة أخرى تمنحني الطمأنينة..».

«حسنٌ... حدثنا عن تلك الحياة... حقيقة أثرت فضولنا».

«من أنتم؟».

قال: «لا تقل هذا يا كمال. ما ذنبي؟ ألستُ أعز أصدقائك؟».

«بلى».

«نحن... أنا، ومحمد، ونورجيهان، وسيبل... سنذهب إلى جبل أولو بعد ثلاثة أيام... تقول نورجيهان إنها ذاهبة لكي ترعى ابن أخيها، ونحن قررنا مرافقتها».

«هذا يعني أن سيبل عادت».

«جاءت يوم الاثنين الماضي قبل عشرة أيام. هي أيضًا تريدك أن تذهب إلى جبل أولو». ابتسم زعيم بنظرة مليئة بالطيبة. «ولكنها لا تريدك أن تعرف هذا... أنا أخبرك بهذا من دون علمها، احذر من ارتكاب خطأ في جبل أولو».

«لا، لن أذهب أساسًا».

«من الأفضل أن تذهب... لا يمكن أن يُنسى هذا الأمر».

«من يعرف؟.. هل يعرف محمد ونورجيهان؟».

قال زعيم: «بالطبع أن سيبل تعرف. تحدثنا معها في هذا الموضوع. سيبل تحبك كثيرًا يا كمال. وترى جيدًا أن إنسانيتك هي التي جرتك إلى هذا الوضع، وتفهم هذا، وتريد أن تخلصك من هذه الحال».

«هكذا إذًا؟».

«أنت ذاهب إلى مكان خاطئ يا كمال... كلنا نتعلق بمن لا يمكن أن تخطر ببال... والكل يعشقون، ولكن الكل يخرجون من الوضع الذي يسقطون فيه من دون أن يدمروا حياتهم».

«ما روايات العشق وأفلامه إذًا؟».

قال زعيم: «أحب أفلام العشق كثيرًا. ولكنني لم أر في أي منها ما يعطي الحق لأحد مثلك... قبل ستة أشهر أعلنت خطوبتك على سيبل وباستعراض كبير... ما أجمل تلك الليلة! وبدأتما العيش معًا في الشاليه دون زواج، ودعوتما لاحتفالات في بيتكما. اعتبر الجميع هذه التصرفات حضارية، وقابلوا الأمر بشكل جيد جدًّا لأنكما ستتزوجان، ولم يعب عليكما أحد. حتى سمعت أن البعض سيحذون حذوكما. ولكنك الآن تخرج وحدك من الشاليه. هل ستترك سيبل؟ لماذا تهرب منها؟ ومثل الأولاد لا تفسر أي شيء».

«سيبل تعرف..».

قال زعيم: «لا تعرف. لا تعرف كيف ستشرح هذا للآخرين، وماذا ستقول للناس. كيف ستنظر إلى وجوه الآخرين؟ هل ستقول إن خطيبي عشق بائعة، وانفصلنا؟ إنها حزينة وغاضبة منك كثيرًا... يجب أن تتحدثا. ستنسيان كل شيء في جبل أولو. أنا أضمن لك أن سيبل مستعدة للتصرف وكأن شيئًا لم يكن. ستنزل نورجيهان وسيبل في غرفة واحدة في الفندق الكبير. وحجزنا أنا ومحمد غرفة الزاوية في الطابق الثاني. هناك سرير ثالث في الغرفة يطل على القمة الضبابية، تعرف هذا. إذا ذهبت، فسنلهو حتى الصباح كما كنا نفعل أيام الصبا... محمد يشتعل بلهيب نورجيهان... ونسخر منه في هذا الموضوع».

قلت: «أنا من سيُسخر منه أساسًا. على الأقل فإن محمد ونورجيهان معًا».

قال زعيم ببراءة: «صدقني أنا لن أمزح نهائيًا، ولن أسمح لأحد بفعل هذا».

فهمت من كلماته هذه أن عقدتي صارت موضوع سخرية منذ الآن في أوساط المجتمع الراقي، أو على الأقل في أوساط أصدقائي. ولكنني كنت أتوقع هذا أصلًا.

أُعجبت بحساسية زعيم الذي اقترح سياحة جبل أولو لكي يساعدني. في فترة طفولتي وصباي كنا نذهب مثل زملاء والدي بالعمل والنادي وكثير من الأغنياء وأهالي نيشان طاش بسياحة التزلج إلى جبل أولو. كنت أحب أيام السياحة تلك التي يعرف فيها الجميع بعضهم بعضًا، وتُؤسس صداقات جديدة، وتُدبر زيجات، وترقص الفتيات الأكثر خجلًا إلى ساعات متأخرة ضاحكات إلى درجة أنني عندما تقع عيني على قفاز تزلج قديم لأبي أو نظارة ثلج استخدمتها بعد أن استخدمها أخي في زاوية من زوايا الخزانة، أرتعش، وكلما نظرت إلى بطاقات الفندق الكبير البريدية التي أرسلتها أمي إلى أمريكا

أشعر بأن موجة الشوق تعلو. شكرت زعيمًا، وقلت: «لن أستطيع الذهاب. يمكن أن يكون الأمر مؤلمًا جدًّا بالنسبة إليّ... ولكنك محق، يجب أن أتكلم مع سيبل».

قال زعيم: «إنها تقيم مع نورجيهان، وليس في الشاليه». والتفت نحو زحام مطعم فوآية الصاخب، والذي يغنى كل يوم أكثر، ونسي همومي، وابتسم.

٤٦ ـ أمِنَ الطبيعي أن يترك الإنسان خطيبته معلقة؟

لم أستطع الاتصال بسيبل حتى نهاية شباط/ فبراير بعد عودتها من جبل أولو. لم أكن أرغب بالحديث معها لخوفي من انتهاء الأمر بالزعل والغضب والدموع والندم، وأنتظر أن تجد ذريعة لإعادة خاتم الخطوبة. ذات يوم لم أحتمل فيه هذا التوتر اتصلت بها، ووجدتها في بيت نورجيهان، واتفقنا على اللقاء مساء في مطعم فوآية.

اعتقدتُ بأن الغضب والتمادي والعاطفة لن تسيطر علينا في مكان مليء بأصدقائنا. وهذا ما حدث في البداية. كان هناك حلمي اللقيط وزوجته الجديدة نسليهان، وغوفان مغرق السفين وعائلته، وطيفون وعدد كبير من أصدقائه إضافة إلى يشيم. جاء حلمي إلى طاولتنا من بعيد، وأبلغنا بسعادته لرؤيتنا.

فيما كنا نتناول المقبلات، ونشرب النبيذ ماركة ياقوت، حدثتني سيبل عن أيامها التي قضتها في باريس، وأصدقاء نورجيهان الفرنسيين، وجمال المدينة في عيد الميلاد.

سألتها: «كيف والدك ووالدتك؟».

قالت سيبل: «بخير. ليس لهما علم بعد بوضعنا».

قلت: «لا تهتمي، دعينا لا نخبر أحدًا».

قالت سيبل: «لا أخبر أحدًا» ورمقتني بنظرة تقول: «حسنٌ، ماذا سنفعل بعد الآن؟».

ومن أجل تغيير الموضوع، شرحت لها بأن والدي كل يوم ينسحب أكثر من الحياة. وحكت لي سيبل عن عقدة أمها الجديدة بالاحتفاظ بالألبسة القديمة. وأنا أخبرتها بأن والدتي تفعل العكس، فهي تنفي الأشياء القديمة كلها إلى بيت آخر. ولكن هذا موضوع خطير، لهذا صمتنا. كانت نظرات سيبل تشعرني بأنني أفتح هذه الموضوعات لمجرد الكلام. الأكثر من هذا فقد أدركت من هروبي من الموضوع الأساسي عدم وجود ما أقوله.

فتحت الموضوع قائلة: «أرى أنك قد اعتدت على مرضك».

«كيف؟».

«انتظرنا شفاءك أشهرًا طويلة. من المحزن جدًّا رؤية أنك لم تتحسن نهائيًّا، وحتى إنك ألفت مرضك يا كمال. دعوت في باريس أن تشفى من مرضك».

قلت: «أنا لست مريضًا». وأشرت نحو الزحام الصاخب المنتشي في مطعم فوآية: «يمكن لهؤلاء الناس أن يعتبروا حالتي مرضية... ولكنني لا أريدك أن تعتبريني هكذا».

قالت سيبل: «أما قررنا معًا في الشاليه أن هذا مرض؟».

«قررنا».

«ماذا حدث الآن؟ هل من الطبيعي أن يتركَ الإنسان خطيبته معلقة؟».

«كيف؟».

«مع بائعة..».

قلت: «لماذا تدخلين هذه الأمور؟... هذا لا علاقة له بمهنة البيع أو الغنى أو الفقر».

قالت سيبل، بحزم من توصلت إلى هذه النتيجة بعد تفكير طويل: «هذا هو الموضوع بالضبط. أقمت معها علاقة بهذه البساطة لأنها فقيرة وطموحة... لو لم تكن بائعة، لما خجلت من أحد، وتزوجتها... هذا ما يمرضك... عدم زواجك منها، وعدم جرأتك كفاية».

غضبت من سيبل لأنني أؤمن بأنها قالت هذا لكي تثير غضبي. وأغضب منها لأنني أشعر بطرف من عقلي بأن ما قالته صحيح.

«ليس من الطبيعي أن يقدم واحد مثلك على هذه الغرائب، ويعيش في فندق في الفاتح يا روحي... إذا أردت أن تشفى، فعليك أن تقبل هذا أولًا».

قلت: «بالطبع لست عاشقًا لتلك الفتاة كما تعتقدين... ولكنك تقولين هذا من أجل الدخول بجدل، ألا يمكن للإنسان أن يعشق واحدة أفقر منه؟ ألا يحدث عشق بين غني وفقيرة؟».

«العشق كما في علاقتنا هو فن إيجاد المتناسبين. هل رأيت خارج الأفلام التركية فتاة غنية عشقت البواب الوسيم أحمد أفندي، أو عامل البناء المعلم حسن، وتزوجا؟».

اقترب كبير ندل فوآية سعدي منا وعلى وجهه تعبير بالسرور لرؤيته لنا، ولكنه توقف حين رآنا مأخوذين بالحديث. أشرت لسعدي بيدي بما معناه «بعد قليل»، والتفت نحو سيبل.

قلت: «أنا أؤمن بالأفلام التركية».

«كمال، طوال هذه السنين لم أرك ولو مرة واحدة ذهبت إلى فيلم تركي. أنت لا تذهب إلى السينمات الصيفية مع أصدقائك حتى لمجرد السخرية».

قلت: «صدقيني أن الحياة في فندق الفاتح تشبه الأفلام التركية. أسير في تلك الأزقة الخاوية والنائية قبل النوم ليلًا. هذا ما يشعرني بأنني بخير».

قالت سيبل بحزم: «في البداية اعتقدت أن قصة البائعة كانت بسبب زعيم. اعتقدت أنك رغبت بحياة مع الراقصات والجليسات والعارضات الألمانيات وتقليد حياة المتعة. تحدثنا مع زعيم. الآن مشكلتك هي عقدة (كانت هذه الكلمة شائعة في تلك الفترة) الغنى في بلد فقير. وهذه مشكلة أعمق من نزوة مؤقتة مع بائعة».

قلت: «لعل الأمر هكذا..».

«الأغنياء في أوربا يتصرفون بلباقة كأنهم ليسوا أغنياء... هذه حضارة. برأيي أن المساواة والحرية ليستا الثقافة والحضارة، بل تظاهر الجميع بأنهم يتصرفون مع الآخرين بحرية وتساو. حينئذ لن يكون هناك ضرورة لشعور أحد بالذنب».

قلت: «همممممم... لم تقضِ هذا الزمن في السوربون من دون جدوى. هل نطلب السمك؟».

عندما اقترب سعدي من الطاولة، سألناه عن أحواله (الحمد لله!)، وأعماله (نحن عائلة يا سيد كمال، كل مساء نقوم بالعمل نفسه...)، والسوق (المواطن لا يخرج إلى الشارع بسبب إرهاب اليمين واليسار!)، والذين يترددون إلى المطعم (عاد الجميع من جبل أولو). أعرف سعدي من محل عبد الله أفندي في بيه أوغلو الذي كنت أرافق والدي إليه كثيرًا قبل افتتاح فوآية. رأى البحر أول مرة في حياته عندما جاء إلى إسطنبول وهو في التاسعة عشرة من عمره قبل ثلاثين عامًا، وتعلم تفاصيل اختيار السمك وتحضيره في الخمارات الرومية ومن الندل الروم المشاهير بفترة قصيرة في إسطنبول. وضع لنا في صينية سمك سلطان إبراهيم وسمكة زرقاء كبيرة مدهنة وسمكة قاروس اختارها بنفسه من سوق السمك صباحًا، وأرانا إياها. شممنا السمكات، ونظرنا إلى بريق عيونها وحمرة ما تحت زعانفها، ووافقناه على طزاجتها. ثم تحدثنا بشكوى عن تلوث بحر مرمرة. روى لنا سعدي بأن صهريجَ ماء تجلبه كل يوم شركة خاصة إلى

فوآية كإجراء احتياطي إزاء انقطاع المياه. لم يشتروا مولِّدًا من أجل انقطاع الكهرباء، ولكن الجو الذي ينجم عن إشعال الشموع ومصابيح الكيروسين يعجب الزبائن. جدد سعدي النبيذ في كأسينا، وذهب.

قلت: «هناك صياد السمك وابنه اللذين كنا نستمع إليهما في الشاليه. لقد اختفيا بعد ذهابك إلى باريس. حينئذ برد الشاليه أكثر، وأصبح مكانًا يُشعر بالوحدة أكثر».

اهتمت سيبل بجانب الاعتذار من هذه الكلمات. شرحتُ لها تفكيري الدائم بالصياد وابنه من أجل جر الحديث إلى مكان آخر (خطر ببالي القرطان اللذان أعطاني إياهما والدي). قلت: «لعل صياد السمك وابنه لحقا أسراب السمك الأزرق والبلميدا». وحكيت لها بأن موسم السمك الأزرق والبلميدا جيد هذا العام إلى درجة أنني رأيت الباعة الجوالين على عربات الخيل يبيعون البلميدا والقطط تلاحقهم في حي الفاتح. في أثناء تناولنا السمك، قال سعدي بأن أسعار سمك طربوت ارتفعت كثيرًا لأن الروس والبلغار يقبضون على الصيادين الأتراك الذين يلاحقون أسراب سمك الطربوت في مياههم الإقليمية. رأيت أن حديثنا هذا يزيد من تعكير مزاج سيبل. رأت سيبل أنه ليس لدي ما أقوله لها، أو أملًا أعطيها إياه، وأدركت أنني أفتح هذه الموضوعات لكي لا ندخل موضوعنا. كنت أريد أن أقول شيئًا حول وضعنا بجو من الراحة، ولكن أي شيء لا يخطر ببالي. عندما أنظر إلى وجهها الحزين، أدرك أنني لا أستطيع الكذب على سيبل، وأرتبك.

قلت: «انظري، عائلة حلمي ذاهبة. هل ندعوهم إلى طاولتنا قليلًا؟ تصرفوا معنا قبل قليل بحرارة». قبل أن تقول سيبل شيئًا لوّحت لحلمي وزوجته بيدي، ولكنهما لم يرياني.

قالت سيبل: «لا تنادهما..».

«لماذا؟ حلمي شاب جيد جدًّا. غير هذا فأنت تحبين زوجته ـ ماذا كان اسمها؟ـ، أليس كذلك؟».

«كيف سيكون وضعنا؟».

«لا أدري».

قالت سيبل: «تحدثت مع لوكليرك (بروفيسور الاقتصاد الذي تحبه سيبل)، وهو يدعمني بكتابة أطروحة».

«هل ستذهبين إلى باريس؟».

«هنا لستُ سعيدة».

قلت: «هل أذهب معك أيضًا؟ ولكن لدي كثير من الأعمال هنا».

لم تجب سيبل. شعرت بأنها أعطت قرارها ليس حول هذا اللقاء فقط، بل وحول موضوع مستقبلنا، ولكن هناك شيئًا أخيرًا في عقلها.

قلت متضايقًا من الموضوع: «أنت اذهبي إلى باريس... وأنا أرتب أعمالي هنا، وألحق بك».

«هناك شيء أخير ببالي... أنا آسفة لأنني فتحت هذا الموضوع... ولكن البكارة يا كمال... ليست قضية مهمة إلى درجة أن تجعلك محقًّا بتصرفاتك هذه».

«كيف؟».

«إذا كنا عصريين، وأوربيين فهذا الأمر ليس مهمًّا... أما إذا كنا مرتبطين بالتقاليد، وكنت تعطي أهمية لبكارة الفتاة، وهي قيمة تريد من الجميع أن يحترموها... فعليك أن تتصرف مع الجميع بالتساوي».

قطبتُ بحاجبي بداية لأنني لم أفهم ما رمت إليه سيبل. ثم تذكرت أنها لم تذهب «إلى النهاية» مع أحد غيري في حياتها. خطر ببالي أن أقول لها: «عبء هذا الأمر ليس متساويًا بينكما، أنت غنية وعصرية». ولكنني أطرقت بوجهي خجلًا، وصمت.

«لن أسامحك بهذا أيضًا قط يا كمال... بما أنك لن تستطيع الانفصال

عنها، فلماذا أعلنا خطوبتنا؟ ولماذا لم نفسخ خطوبتنا بعد ذلك مباشرة؟». كان ثمة غضب في صوتها يكاد يرجّفه. «إذا كانت هذه هي النتيجة، فلماذا انتقلنا إلى الشاليه؟ ولماذا دعينا لحفلات، وعشنا في هذا البلد مثل زوجين من دون أن نتزوج؟».

«الخصوصية والصدق والصداقة التي تشاركنا بها في الشاليه، لم أعشها مع أحد من قبل».

لاحظت أن سيبل غضبت كثيرًا من هذه الكلمات. الدموع على وشك الانهمار من عينيها بسبب الغضب والتعاسة.

قلت: «أنا آسف، أنا آسف جدًّا..».

خيم صمت فظيع. لم يكن طيفون وزوجته قد استطاعا الجلوس إلى طاولتهما بعد، فلوحت بيدي لهما لكي لا تبكي سيبل، ولا يستمر الأمر على هذا النحو. حين رأياني، جاءا بفرح، وجلسا إلى طاولتنا نتيجة إصراري.

قال طيفون: «هل تعرف، اشتقت إلى الشاليه منذ الآن!».

كانا قد أتيا كثيرًا إلى الشاليه في الصيف. وكان طيفون يتجول على الشاطئ وفي الشاليه كأنه بيته، ويفتح الثلاجة، ويحضر لنفسه وللآخرين مشروبًا وطعامًا، وأحيانًا ينفعل، ويطهو طعامًا في المطبخ لمدة طويلة، ويتحدث طويلًا حول خصوصيات السفن السوفيتية والرومانية التي تمر من البوسفور.

بدأ برواية قصة من الصيف الماضي قائلًا: «أما غططت بالنوم على الشاطئ، وانشغل بال الجميع..». احترمت سيبل بما يشبه الإعجاب لاستماعها طيفون دون أن تبدي أي ثغرة، وممازحتها، وقولها كلمات حلوة.

قالت فيغن زوجة طيفون: «إيه، متى ستتزوجان؟».

قالت سيبل: «في أيار/ مايو. في هيلتون أيضًا... ستعدوننا بلبس الأبيض كما في فيلم غاتسبي المذهل. هل رأيتما الفيلم؟» ونظرت فجأة إلى ساعتها،

وقالت: «آآ، سألتقي بوالدتي عند زاوية نيشان طاش بعد خمس دقائق». مع أن والدتها مع والدها في أنقرة.

تبادلت القبل من الخدين مع طيفون وفيغن بداية، ثم معي، وخرجت على عجل. بعد أن جلست مع طيفون وفيغن، خرجت من فوآية، وذهبت إلى بناء مرحمة، وحاولت أن أجد سلوانا بالأشياء الباقية من فسون. بعد أسبوع أرسلت سيبل خاتم الخطبة مع زعيم. على الرغم من تلقيّ أخبارها من هنا وهناك، لم أرها على مدى واحد وثلاثين عامًا.

٤٧ ـ وفاة والدي

سمعتُ من هنا وهناك إشاعات حول انتشار خبر فسخ خطوبتي، ومجيء عثمان إلى المكتب ذات يوم، وتأنيبي، وقوله إنه على استعداد للتوسط، وإقناع سيبل. ولم أبالِ كثيرًا للشائعات التي تقول إنني فقدت عقلي، وغطست بحياة الليل، وانتسبت لطريقة دينية سرية في منطقة الفاتح، وحتى إنني شيوعي، وأعيش في أحياء المخالفات مثل المقاتلين. على العكس، تخيلت بأن فسون ستظهر من حيث تختبئ عندما تسمع بفسخ خطوبتي، وترسل إلي خبرًا. وقد قطعت الأمل من الشفاء، وبدلًا من الشفاء، أريد أن أستمتع بطعم ألمي، وأجوب الأزقة البرتقالية في نيشان طاش دون اهتمام بأي شيء، وأذهب أربع أو خمس مرات إلى بناء مرحمة، وأجد الطمأنينة مع ذكريات فسون. ولأنني عدت لحياة العزوبية قبل سيبل، يمكنني أن أذهب إلى بيت نيشان طاش، والإقامة في غرفتي مع والدي ووالدتي، ولكن أمي لم تتقبل فسخ خطوبتي بأي شكل، وأخفت الخبر السيئ عن والدي «المنهك والضعيف»، ولأنها لم تتكلم معي بهذا الموضوع وكأنه من المقدسات، فقد كنت كثيرًا ما أذهب لرؤيتهما، وتناول الغداء معهما، وأجلس على المائدة صامتًا، ولكنني لا

أبقى هناك مساء. لأن لبيت نيشان طاش جانبا يزيد ألم بطني، لا أريد أن أبقى فيه ليلًا.

ولكنني عدت إلى البيت عندما توفي والدي في مطلع آذار/ مارس. أعطاني الخبر السيئ عثمان الذي ذهب إلى فندق الفاتح بسيارة والدي الشيفروليه. لم أرد أن يصعد أخي إلى غرفتي، ويرى فوضى الغرفة الصغيرة والأشياء الغريبة التي اشتريتها أثناء مسيري في الأحياء المتطرفة من محلات الأدوات المستعملة أو البقاليات أو القرطاسيات. ولكنه نظر إلي بحزن، ولم يستخف بي هذه المرة. على العكس تمامًا فقد عانقني بحب قلبي، وجمعت أغراضي خلال نصف ساعة، ودفعت الحساب، وغادرت فندق الفاتح. عندما رأيت عيني السائق تشتين أفندي المغرورقتين وحاله المنهكة، تذكرت بأن والدي أوصاني به وبالسيارة. كان يومًا شتويًّا مظلمًا، وبينما كانت السيارة التي يقودها تشتين تعبر الجسر أذكر أنني نظرت إلى الخليج، وأشعرتني مياهه الباردة ذات اللون الذي يمزج بين الأزرق والطيني بنوع من الوحدة.

توفي والدي في أثناء رفع أذان الفجر بعد الساعة السابعة بقليل بقصور قلبي وهو ما بين النوم والصحو، وعندما استيقظت والدتي، اعتقدت بأنه ما زال نائمًا، وحين أدركت الوضع فقدت صوابها، وأُعطيت باراديسون من أجل تهدئتها. والآن تجلس على مقعدها في البهو مقابل مقعد والدي الفارغ، وتبكي بين حين وحين وهي تشير إليه. دبت الحيوية فيها عندما رأتني. تعانقنا بقوة، ولم نتكلم نهائيًّا.

دخلت إلى الداخل لرؤية والدي. كان ممددًا على سرير الجوز الكبير الذي شارك فيه أمي ما يقارب الأربعين عامًا بمنامته وكأنه نائم، ولكن بشرته الشديدة الشحوب، وتعبير وجهه يبديانه قلقًا جدًّا أكثر مما هو نائم. كأنه رأى الموت أثناء نومه، وفتح عينيه المرتبكتين، واتخذ تعبير الدهشة والخوف من حادث مرور يقترب منه، وتجمد وهو بهذه

الحال. أعرف جيدًا رائحة كولونيا يديه المجعدتين الممسكتين اللحاف بقوة، وتجعيدهما وشعرهما. هاتان اليدان داعبتا شعري وظهري وذراعي آلاف المرات في طفولتي، وأسعدتاني. ولكن بشرتهما شحبت إلى درجة أخافتني، فلم أستطع تقبيلهما. أردت سحب اللحاف عنه، ورؤية جسمه بالمنامة الحريرية المخططة بالأزرق، ولكنه علق في مكان ما، ولم أستطع فعل هذا.

في أثناء الشد خرجت ساقه اليسرى خارج اللحاف. بدافع ما نظرت إلى أصبع قدمه الكبيرة بدقة. أصبع قدم والدي الكبيرة مطابقة تمامًا لأصبع قدمي الكبيرة، وكما يبدو في تفصيل هذه الصورة التي كبرتها من صورة قديمة بالأسود والأبيض فشكلها غريب لا يشبه أي أصبع. صديق والدي القديم جنيد يتذكر هذا التشابه الذي اكتشفه عندما كنا جالسين بتباني البحر، ويطلق القهقهة نفسها كلما رآنا معًا، ويسأل: «كيف حال الأصبعين الكبيرتين؟».

أقفلت الباب فترة، وفيما كنت أفكر بوالدي، استعديت للبكاء طويلًا على فسون، ولكنني لم أستطع البكاء. فجأة نظرت بعين مختلفة تمامًا إلى الغرفة التي قضى فيها والداي أعوام حياتهما، وإلى مركز حياتي الخاصة التي ما زالت تفوح برائحة الكولونيا والسجادة المغبرة، وطلاء خشب الأرضية، وعطر والدتي، ومقياس الضغط الذي كان والدي يضعني بحضنه، ويريني إياه، وإلى الستائر. كأن مركز حياتي قد تبعثر، وماضيّ دفن في الحياة. فتحت خزانة والدي، وأخذت بين يدي ربطات عنقه التي مضى طرازها، وأحزمته، وأحد أحذيته القديمة التي ما زال يلمعها على الرغم من عدم ارتدائه لها منذ سنين. عندما سمعت وقع أقدام في الممر، شعرت بالذنب الذي كنت أشعر به عندما أعبث بخزانة والدي وأنا طفل، وأغلقت باب الخزانة بسرعة مصدرًا صريرًا. على الكوميدينة بجانب رأس والدي هناك علب دواء، وقصاصات زوايا كلمات متقاطعة، وجرائد مطوية، وصورة من أيام الجندية قديمة يحبها كثيرًا وهو يشرب العرق مع الضباط، ونظارة القراءة، وطقم أسنانه في كأس

ماء. أخذت طقم أسنانه، ولففته بمنديل، ووضعته بجيبي، وجلست في البهو على مقعد والدي مقابل والدتي.

قلت: «أمي العزيزة، أنا أخذت طقم أسنان والدي، لا تشغلي بالك عليه».

هزت رأسها بمعنى: «حسنٌ، كما تريد». عند الظهر امتلأ البيت بزحام كبير من الأقرباء والمعارف والأصدقاء والجيران. الجميع يقبّلون يد والدتي، ويعانقونها. كان الباب مفتوحًا، والمصعد يتحرك بشكل دائم. بعد فترة اجتمع زحام يذكّر بزحام أعياد الأضحى، وطعام العيد. شعرت بأنني أحب هذا الزحام وصخب العائلة وحرارتها، وأنني سعيد بزحام أبناء العم والأقرباء الذين تتشابه جباههم وأنوفهم الشبيهة بالبطاطس. جلست مع برين فترة على الأريكة الطويلة، ونمّينا على أقربائنا كلهم فرادى. أعجبت بمتابعة برين الجميع عن قرب إلى هذه الدرجة، ومعرفتها العائلة أكثر مني. همست مع الجميع ممازحًا، وتحدثت عن مباراة كرة القدم التي تابعتها في بهو فندق الفاتح (فنار بهتشة: ٢، بلوس بور: ٠)، وجلست إلى المائدة التي أعدها بكر وهو يقلي ملفوف الرقائق بالمطبخ على الرغم من ألمه أحيانًا، وكثيرًا ما دخلت إلى الغرفة الخلفية، ونظرت بدقة إلى جسد والدي الممدد بالمنامة بالشكل نفسه. نعم، لم يكن يتحرك نهائيًّا. أفتح الخزائن والأدراج في الغرفة بين حين وحين، وألمس الأشياء التي يثير كل منها كثيرًا من ذكريات طفولتي. موت والدي حوَّل هذه الأشياء التي أعرف أغلبها جيدًا منذ طفولتي إلى أشياء قيّمة تحمل ماضيّ المفقود. فتحت درج الكوميدينة، وفيما كنت أشم رائحة شراب السعال المُحَلى الممزوجة برائحة الخشب، نظرتُ إلى فواتير الهاتف والبرقيات القديمة، وعلب الأسبرين وأدوية والدي مطولًا كمبا لو أنني أنظر إلى لوحة. أذكر أنني نظرت من الشرفة إلى شارع تشويكية طويلًا متذكرًا طفولتي قبل أن ينطلق تشتين بالطريق من أجل إجراءات الدفن. بموت والدي لم تتحول أشياء حياتي اليومية إلى ذكريات حياة تشكل ماضيا لا يمكن التخلي عنها

فقط، بل وتحولت إلى مناظر زقاق عادي للغاية. شعرت بسعادة لم أكن أستطيع إخفاءها لأن عودتي إلى البيت تعني العودة إلى مركز الحياة، وشعرت بالذنب أكثر بكثير مما يشعر به أي رجل يتوفى والده. وجدت في الثلاجة زجاجة عرق صغيرة شرب والدي نصفها الليلة التي سبقت وفاته، وشربتها حتى الثمالة بعد ذهاب الضيوف كلهم في أثناء جلوسي مع والدتي وأخي.

قالت أمي: «أرأيتم ما فعله والدكم معي؟ لم يخبرني حتى عندما مات».

بعد الظهر نُقل جثمان والدي إلى براد جامع سنان باشا في بشكطاش. طلبت أمي عدم تغيير الملاءات وبيوت المخدات لأنها أرادت أن تنام وهي تشم رائحة والدي. في وقت متأخر أعطينا ـ أخي وأنا ـ والدتي حبًّا منومًا، ونومناها. شمت والدتي رائحة والدي في الملاءات وبيوت المخدات، وبكت، وغفت. وبعد ذهاب عثمان، تمددت على سريري، وفكرت بأنني بقيت مع أمي وحدنا في هذا البيت كما حلمت في طفولتي.

ولكن ليس هذا ما يثير انفعال قلبي الذي لم أستطيع إخفاءه عن نفسي، بل احتمال أن تأتي فسون إلى الجنازة. لهذا السبب فقط أمليت أسماء ذلك الجناح البعيد من العائلة في إعلانات الوفاة في الجرائد. أفكر باستمرار بأن والد فسون ووالدتها سيقرآن أحد الإعلانات الصحفية في مكان ما من إسطنبول، ويأتيان إلى الجنازة. ترى أي جريدة تقرأ العائلة؟ بالطبع يمكن أن يصلهم خبر الوفاة من أقرباء آخرين أيضًا. قرأت أمي إعلانات الجرائد كلها على الإفطار صباحًا. كانت تتحدث أحيانًا:

«صِدّيقة وصفّت قريبتانا من طرفي وطرف المرحوم والدكما، لهذا السبب كان يجب وضعهما بالترتيب بعد بران وزوجها. ترتيب بنات شكرو باشا نيغان وتركان وشكران وارد خطأ... لم يكن هناك ضرورة لذكر مليكة العربية زوجة الصهر زكريا الأولى. أصلًا لم تبق تلك المرأة متزوجة من

صهركم سوى ثلاثة أشهر أو لم تكملها. اسم الطفلة المسكينة الميتة بعمر شهرين ابنة عمتكم نسيمة ليس غول... من سألتم لتكتبوا هذه الأسماء؟».

قال عثمان: «أمي العزيزة، إنها أخطاء مطبعية، أنت تعرفين جرائدنا». حاولنا إقناع والدتي بعدم الخروج في هذا الجو الشديد البرودة وهي تنظر بين حين وآخر إلى باحة جامع تشويكية لتقرر ما تلبسه. «ولكن لا يجوز أن ترتدي الفراء كأنك ذاهبة إلى حفل في الهيلتون».

قالت أمي: «أموت ولا أجلس في البيت أثناء جنازة والدكما».

بكت أمي كثيرًا وهي تراقب وضع تابوت والدي على حجر المصلى بعد جلبه بعربة الجنازة من براد الجامع، وفُهم أنها لن تستطيع نزول الدرج، وعبور الشارع، والمشاركة في الجنازة. بعدئذ على الرغم من كل المهدئات التي أخذتها، وضعت والدتي عليها فراء أستراخان، وخرجت إلى الشرفة متأبطًا بذراعيها بكري أفندي والسيدة فاطمة أثناء اجتماع الناس في باحة الجامع لأداء صلاة الجنازة، وقد فقدت وعيها عندما حمل الناس التابوت ووضعوه في سيارة الجنازة. قليل من الذين في باحة الجامع انتبهوا إلى أمي. بعد أن أدخل بكري وفاطمة والدتي من الشرفة، ركزت انتباهي على الزحام. هؤلاء هم الناس أنفسهم حضروا خطوبتنا ـ سيبل وأنا ـ في الهيلتون. وكما لاحظت في الشتاء دائمًا فإن الفتيات الجميلات اللواتي ألاحظهن في أزقة إسطنبول صيفًا يختفين من الوسط في الشتاء، وتصبح النساء أقبح، ويتخذ الرجال مواقف أكثر غموضًا وتهديدًا. صافحت مئات الأشخاص كما في الخطوبة، وعانقت كثيرين، وكلما قابلت شبحًا وسط الزحام، أتألم لأن ذلك الشبح ليس فسونَ بقدر ما أتألم على دفن والدي. عندما أدركت بأن فسون وأمها وأباها لم يأتوا إلى الجنازة والمقبرة، ولن يأتوا، شعرت بأنني أدفن تحت التربة الباردة مع تابوت والدي.

تقارب زحام العائلة فيما بينه في الجنازة بتأثير البرد، ولم يكن يريد الانفضاض بعد مراسم الجنازة، ولكنني هربت منه، وركبت سيارة أجرة،

وذهبت إلى بناء مرحمة. في أثناء استنشاق هواء الشقة التي تريحني حتى رائحتها، اخترت من بين الأشياء التي أعرف بالتجربة أنها أقوى سلوانًا قلم رصاص فسون وفنجان الشاي الذي لم أغسله نهائيًّا بعد اختفائها، وتمددت على السرير. لمس هذه الأشياء والتمسح بها خفف ألمي، وأراحني في فترة قصيرة.

من يسأل من القراء وزوار المتحف عما إذا كان سبب ألمي في ذلك اليوم وفاة والدي أم عدم مجيء فسون إلى الجنازة، أريد أن أجيبهم بأن ألم العشق متكامل. ألم العشق الحقيقي يرسخ في نقطة ارتكاز وجودنا الأساسية، ويقبض علينا من نقطتنا الأكثر ضعفًا، ويرتبط ببقية الآلام كلها بعمق، وينتشر على حياتنا بحيث لا يتوقف قط. إذا كنا عشاقًا يائسين، تغدو الآلام والهموم والمخاوف كلها من فقدان الأب إلى أبسط الأمور العادية مثل فقدان مفاتيحنا، محرضة لاضطرابنا الأساسي المستعد للبروز في كل لحظة. لأن واحدًا مثلي انقلبت حياته رأسًا على عقب بسبب العشق يعتقد بأن حل مشكلاته كلها يكون بانتهاء ألم العشق، فهو يعمق جرحه الداخلي من دون إرادة.

للأسف أنني لم أتصرف بما يناسب هذا الأفكار التي أدركتها بوضوح وأنا في سيارة الأجرة يوم دفن والدي. لأن اضطراب العشق يروض روحي، ويجعلني رجلًا أنضج من جانب، ولكنه من جانب آخر يسيطر على عقلي كاملًا، ولا يسمح لي إلا قليلًا جدًّا بأن أستخدم المنطق الذي يقدمه نضجي. واحد مثلي عشق مدة طويلة بشكل هدام، يستمر بمنطق أو سلوك يعرف أنه خاطئ ونتيجته الانهيار، ومع مرور الزمن يرى بوضوح أكبر أن ما يفعله خطأ. الأمر الغريب الذي لا يقف عنده ابن آدم في هذا الوضع هو عدم صمت منطقه حتى في أسوإ أيامه، وإذا لم يعارض قوة الشغف، فهو يهمس لنا بصدق ودون رحمة أن أكثر ما نفعله لا يفيد إلا بزيادة عشقنا وألمنا. في الأشهر التسعة بعد خسارتي فسون ازداد همسُ منطقي هذا تدريجيًّا، وسيطرَ على عقلي بالكامل، ومنحني أملًا بالتخلص من هذا الألم ذات يوم. ولأن

العشق مع الأمل (حتى لو أنه أمل بالتخلص من مرضنا ذات يوم) يمنحني قوة حياة مع الألم، فهو لا يؤدي إلا إلى زيادة فترة اضطرابي.

أحاول فهم سبب عدم مجيء فسون وعائلتها إلى الجنازة أثناء تخفيف آلامي (أصبح فقدان الأب مع فقدان الحبيبة ألمَ وحدةٍ وعدم حظوة بالحب) في سرير بناء مرحمة بأشياء فسون. ولكنني لا أتقبل بأي شكل أن عدم مجيء العمة نسيبة التي تراعي دائمًا علاقتها بالعائلة وبأمي مع زوجها إلى جنازة والدي بسببي. هذا يعني أن فسون وعائلتها ستهرب مني بشكل مستمر. في هذه الحال لن أستطيع رؤية فسون إلى آخر حياتي. هذه الفكرة غير محتملة إلى درجة أنني لا أفكر فيها كثيرًا، وأبدأ البحث عن أمل بإمكانية رؤيتي فسون.

٤٨ ـ السعادة أهم ما في الحياة

همس عثمان في أذني ذات مساء: «أنت تحمّل كنان مسئولية عدم توافق الحسابات في صاطصاط!». كان يأتي أحيانًا مع برين وولديه، وكثيرًا ما يأتي وحده لزيارة أمي، ونتناول العشاء نحن الثلاثة.

«من أين سمعت؟».

قال عثمان: «أنا أسمع». كانت أمي في الداخل، وألقى نظرة نحو تلك الجهة، وقال بلا شفقة: «بهدلت نفسك في المجتمع الراقي، فلا تُخجل نفسك أمام موظفي الشركة على الأقل». (مع أنه لم يكن يحب تعبير المجتمع الراقي) وأضاف: «فقدانك صفقة الملاءات هو ذنبك».

قالت أمي: «ماذا يحدث؟ بماذا تتكلمان؟ لا تتشاجرا ثانية!».

قال عثمان: «لا نتشاجر. أقول إن عودة كمال إلى البيت جيدة، أليس كذلك يا أمي؟».

«آه يا بني، جيدة جدًّا. ليقل من يشاء ما يشاء، السعادة أهم ما في الحياة. هذا ما كان المرحوم والدكم أيضًا يقوله. هذه المدينة مليئة بالبنات الجميلات، يمكننا أن نجد أجمل منها وأكثر حنانًا وتفهمًا. المرأة التي لا تحب القط، لا يمكن أن تسعد الرجل. يجب ألا يحزن أحد بعد الآن على هذا الأمر. عدني ألا تعود إلى غرف الفنادق مرة أخرى».

قلت: «بشرط!» مكررًا جملة قالتها فسون قبل تسعة أشهر مثل طفل. «ستبقى سيارة والدي وتشتين معي..».

قال عثمان: «حسنٌ. إذا وافق تشتين، فأنا موافق. ولكنك أنت أيضًا لا تتدخل بكنان والعمل الجديد، ولا تلطخ سمعة أحد».

قالت أمي: «احذروا من الشجار فيما بينكما أمام الآخرين!».

انفصالي عن سيبيل أدى إلى ابتعادي عن نورجيهان، وابتعادي عن نورجيهان أدى إلى ندرة لقائي بمحمد الذي يعشقها بجنون. ولأن زعيمًا يخرج معهما أكثر مع الأيام، فألتقي به بشكل منفصل، وبدأت أبتعد تدريجيًّا عن مجموعة الأصدقاء هذه. شاركت فترة بملاهي أمثال حلمي اللقيط وطيفون اللذين يشعران بالحاجة لحياة الليل غير مباليين بكونهما خاطبين أو متزوجين، ويترددان على أغلى بيوت الدعارة في إسطنبول، وصالات الفنادق حيث توجد فتيات يطلق عليهن اسم «جامعيات» بسخرية لأن لديهن بعض الثقافة والرقي على أمل أن يحسن هذا مرضي أكثر من المتعة، ولكن عشقي لفسون ينطلق من زاوية مظلمة في روحي، وينتشر إلى أجزاء جسمي كلها. وإذا كنت قد لهوت قليلًا مع أصدقائي، فإنني لم أصل إلى درجة نسيان همومي. في أغلب الأمسيّات لا أخرج من البيت، وأجلس بجوار أمي، وأشاهد ما تبثه قناة تلفاز الدولة الوحيدة وكأس العرق بيدي.

تنتقد أمي ما يظهر على الشاشة بحدة كما كان والدي يفعل في حياته، وتطلب مني مرة على الأقل في الليلة الواحدة ألا أشرب كثيرًا كما كان

والـدي ينصحنـي أيضًـا، وبعـد قليـل تغفـو علـى أريكتهـا. حينئـذ نتهامس ـ السـيدة فاطمـة وأنـا ـ حـول التلفاز. لم يكن فـي غرفة السـيدة فاطمة تلفاز كمـا في غرف خادمـات العائلات الغنيـة التي نراها في الأفـلام الغربية. منذ أربع سـنوات عندما بدأ البث المرئي، وجلبنا تلفازًا إلى بيتنا، والسيدة فاطمة تجلس على كرسـي البار ـ أصبح «كرسـيها» ـ بشكل معوج في أبعد نقطة من البهو، وتنفعل بالمشاهد العاطفية، وتلعب بعقدة غطاء رأسها أثناء مشاهدتها التلفاز، وتشـارك بالحديـث أحيانًا. أصبح صوت أمي يرتفـع أكثر بعد أن آل إليها من والدي إثر وفاته عملية الرد على المنولوج الطويل.

بعـد أن غطـت والدتـي بالنوم ذات ليلـة، وأثناء مشـاهدة السـيدة فاطمة الفتيات النرويجيات والسـوفيتيات الطويلات السيقان في مسابقات الرقص علـى الجليد المنقولة على الهواء مباشـرة دون معرفة قواعد اللعبة مثل تركيا كلها، فتحت الحديث حول وضع والدتي، ودفء الجو، والجرائم السياسـية في الشـارع، وسـوء أنواع السياسة كلها، وابنها الذي هاجر إلى ألمانيا بعد أن عمل مع والدي، وفتح في دويسـبورغ محل شاورمة، وأن الحياة في الحقيقة جميلة، وجلبت الحديث حولي.

«لم تعد جواربك تثقب يا أظفر حفار، أحسنت... نظرت في ذلك اليوم، فرأيت أنك تقص أظافر قدميك بشـكل جيد. لهذا السـبب سـأقدم لك هدية جميلة».

«قصاصة أظافر؟».

«لا، ما شاء الله، لديك قصاصتا أظافر. وهناك الباقية من والدك، صارت ثلاثا. هذه غير...».

«ماذا؟».

قالت السيدة فاطمة: «ادخل إلى الداخل».

شـعرت مـن انفعالها بأن الموضوع خـاص، فتبعتها. دخلـتْ إلى غرفتها

الصغيرة، وجلبت شيئًا، ثم دخلت إلى غرفتي، وأشعلت المصباح، وفتحت كفها كما لو أنها تلاعب طفلًا، وابتسمت لي.

قلت بداية: «ما هذا؟» ثم بدأ قلبي يقرع كالطبل.

قالت: «أليس هذا القرط لك؟ هل هو حرف مع الفراشة؟ غريب جدًّا».

«لي..».

«وجدته قبل أشهر في جيب سترتك. ووضعته جانبًا لكي أعطيك إياه. ولكن والدتك رأته، وأخذته. يبدو أنها اعتقدت بأن المرحوم والدك سيعطيه لواحدة أخرى، فلم يعجبها الأمر. لديها كيس مخملي سري تضع فيه ما تخفيه عن والدك ـ ابتسمت ـ أو تسرقه منه، وضعته فيه. بعد وفاة والدك، صفّت ما في الكيس على الطاولة، فرأيته حينئذ، وأخذته فورًا لمعرفتي أنه لك. وهناك هذه الصورة التي خرجت من سترة والدك، خذها قبل أن تراها والدتك. هل فعلت جيدًا؟

قلت: «فعلت ما هو جيد جدًّا يا سيدة فاطمة. أنت ذكية جدًّا، ولماحة جدًّا، ومذهلة جدًّا».

أعطتني القرط والصورة وهي تبتسم بسعادة. الصورة هي لحبيبة والدي المتوفاة التي أراني إياها أثناء تناولنا الطعام في مطعم عبد الله. فجأة رأيت في تلك الفتاة الحزينة، والسفن والبحر الذي خلفها ما يذكرني بفسون.

في اليوم التالي، اتصلت بجيدا. بعد يومين التقينا في ماتشكا، وسرنا في حديقة طاشلق. شعرها ملفوف ومعقود، وهي أنيقة تبدو عليها سعادة متألقة خاصة بالنساء اللواتي أصبحن أمهات حديثًا، ورأيت فيها ثقة بالنفس ناجمة عن النضج خلال فترة قصيرة. كتبتُ لفسون أربع أو خمس رسائل دون أي صعوبة في اليومين، ووضعت أكثرها معقولية وهدوءًا في ظرف صاطصاط أصفر. وكما خططت بشكل مسبق، قطبت حاجبي،

وقلت لجيدا بأن هناك تطورا مهما جدًّا، ويجب أن توصل الرسالة لفسون، وأعطيتها إياها. وعدم الحديث عن مضمون الرسالة، وإعطائي الأمر جوًّا من السرية كان من أجل أن تدرك جيدا خطورة الأمر، وتوصل الرسالة إلى فسون. ولكن كان هناك تعبير نضج على وجه جيدا يقابل كل شيء بشكل معقول وطبيعي، فلم أستطع ضبط نفسي، وشرحت لجيدا بانفعال أن القضية التي أدت إلى مقاطعة فسون لي قد حلت، وعندما تسمع فسون بهذا الخبر ستفرح مثلي، ولن يبقى لدينا مشكلة سوى الحزن على الزمن الضائع. في أثناء وداعي جيدا التي هرعت من أجل إرضاع ابنها، قلت لها بأننا سننجب ولدًا فور زواجنا ـ فسون وأنا ـ، وسيكون طفلانا صديقين، ولن تكون أيامنا المثقلة بالهموم هذه سوى ذكريات أحلى من العسل، وسنتذكرها متضاحكين. سألتها عن اسم ابنها.

قالت جيدا: «عمر». ونظرت إلى ابنها بفخر، وأضافت: «ولكن الحياة لا تسير دائمًا كما نريد يا سيد كمال».

كثيرًا ما تذكرتُ عبارة جيدا هذه عندما لم يأتِ خبر من فسون. ولكنني كنت واثقًا هذه المرة بأن فسون سترد على رسالتي. أكدت جيدا على معرفة فسون بفسخ خطوبتي. كتبت لفسون في الرسالة بأن قرطها المفقود خرج من صندوق لوالدي، وسأعطيها معه قرطيْ والدي مع الدراجة الهوائية ذات العجلات الثلاث. وكما خططنا سابقًا فقد حل وقت تناولي العشاء مع والدها ووالدتها كلنا معًا.

ذات يوم من أواسط أيار/ مايو، ووسط عمل كثيف، وبينما كنت أقرأ رسائل أغلبها من وكلاء المدن النائية، كتبتْ باليد تعبر عن الصداقة والشكر، ومنها تحمل شكوى، ومنها استرضاء، ومنها تهديد ـ مستصعبًا قراءة بعضها لعدم فكي الحروف ـ قرأت رسالة قصيرة على نَفَسٍ واحد، وما كُتب سرع ضربات قلبي:

الأخ كمال؛

نحـن أيضًا نرغب باللقاء كثيرًا. نحن ننتظرك بالتأكيد على العشـاء مسـاء ١٩ أيار/ مايو.

لـم يُوصـل هاتفنا بعد. إذا لـم تسـتطع المجيء، فأرسـل خبرًا مع تشـتين أفندي.

مع محبتي واحترامي.

فسون.

العنوان: دخلة ضالغتش، رقم ٢٤، تشوقور جمعة.

لم يكن هناك تاريخ على الرسـالة، ولكننـي عرفت من الخاتم فوق طابع الرسـالة المرسـلة من مركز غلاطة سـراي للبريد بأنها مرسـلة في ١٠ أيار/ مايـو. كان هنـاك أكثر مـن يومين للدعـوة، فخطر ببالـي أن أذهب فـورًا إلى عنوانها في تشـوقور جمعة، ولكنني ضبطت نفسـي. فكـرت بأنني إذا أردت أن أتـزوج فسـون في النهاية، وأربطها بي دون رجعـة، فعلي ألا أبدي انفعالًا كبيرًا.

٤٩ ـ كنت سأعرض عليها الزواج

في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الأربعاء ١٩ أيار/ مايو ١٩٧٦ انطلقت مع تشتين أفندي من أجل الذهاب إلى بيت فسون في تشوقور جمعة. قلت لتشـتين أفندي إننا سـنذهب لإعادة دراجة هوائية لبيت العمة نسـيبة في تشـوقور جمعـة، وأعطيته العنـوان، وارتخيت متكئًا على مسـند مقعدي وأنا أراقـب الأزقة تحت المطر الذي يهطل كالمزاريب من السـماء. لم يكن ثمة مطـر خفيف أو غزير جدًّا كهـذا في خيالي لآلاف اللقـاءات معها على مدى عام.

وقفنـا أمـام بناء مرحمة، وتبللـت تمامًا وأنا آخذ الدراجـة وقرطي اللؤلؤ

اللذيـن أعطانـي إياهمـا والدي فـي علبة. أما الأمر الأساسـي الـذي يعاكس توقعي فهو شعور الطمأنينة العميق في قلبي. كأنني نسيت الآلام التي عانيت منها على مدى ٣٣٩ يومًا منذ رؤيتي الأخيرة لها في فندق هيلتون إلى اليوم. الأكثـر مـن هذا، أذكر أنني شـعرت بالامتنـان للألم الذي أوصلنـي إلى هذه النهاية السعيدة، ولم ألقِ اللوم على أحد أو على أي شيء.

الآن أفكـر بـأن أمامي حياة كاملة الجمال كما في بداية قصتي. في شـارع سراسلفيلر أوقفت السيارة، وطلبتُ من بائع أزهار أن يعد لي باقة ورد أحمر كبيـرة جميلة جمال الحياة التي أمامي. شـربت نصـف كأس من العرق قبيل خروجي من البيت من أجل أن أهدأ. هل كان علي أن أشرب كأسًا في إحدى الخمارات الواقعة في الأزقة المؤدية إلى بيه أوغلو؟ ولكن نفاد الصبر جذبني إلـى داخلـه مثلـه مثل ألـم العشـق. في الوقت نفسـه قال لي صـوت حذر من داخلي: «انتبه! لا ترتكب خطأ هذه المرّة!». أثناء مرور حمام تشوقور جمعة كظـل غيـر واضح من أمامي تحت المطر، أدركـت أول مرة أن ما عانيته على مـدى ٣٣٩ يومًا هـو درس جيد لقنتني إياه فسـون: هي انتصـرت. أصبحتُ جاهزًا لعمل أي شـيء من أجل ألا أعاقب بعدم رؤيتها ثانية. كنت سـأعرض على فسون الزواج بعد رؤيتها وارتياحي بقليل، وإيماني بأنها أمامي حقيقة.

بينما كان تشـتين أفندي يحاول قراءة أرقـام الأبواب تحت المطر، تجلى مشـهد عـرض الزواج عليها الـذي تخيلته فـي زمن ما، وأخفيته عن نفسـي: بعـد دخولي، وتقديمي الدراجة مع المـزاح، والجلوس، والهدوء (هل كنت أسـتطيع فعـل هـذا؟) بقليل، وأثناء شـربنا القهـوة التي تجلبها فسـون، كنتُ سـأنظر إلى عينـي والدها بجرأة، وأقول له إنني قادم إلـى هنا طالبًا موافقتكم على زواجي من فسون. كانت دراجة الطفولة ذريعة. سأفعل هذا ونتضاحك لكي لا نفتح المجال للحديث عن الألـم الذي عانينا منه، واستعراض أحزاننا. عندمـا نجلس في البهو، وأثناء شـرب العرق الذي سـيقدمه والدها، سـأنظر إلى عيني فسـون بسعادة إعطائي هذا القرار، وأنظر إليها بارتواء. وسنتحدث بتفاصيل الخطبة وغيرها في زيارتي الثانية.

وقفت السيارة أمام بناء قديم لم أنتبه لطرازه المعماري. قرعت الباب وقلبي يتسارع بخفقانه. بعد قليل فتحت العمة نسيبة الباب، وأذكر أنها تأثرت بتشتين أفندي الذي يرفع الشمسية خلفي وهو يحمل الدراجة، وبالورد الذي بيدي. يبدو القلق على وجه المرأة، ولكنني لم أتوقف عند هذا الأمر، لأنني كنت أقترب من فسون على الدرج درجة تلو درجة.

استقبلني والدها عند فسحة الدرج قائلًا: «أهلًا وسهلًا سيد كمال». نسيت أن آخر مرة رأيت فيها السيد طارق كانت في خطوبتي قبل عام، واعتقدت أنني لم أره منذ ولائم عيد الأضحى القديمة. شعرت بأن تقدمه بالسن قد مسح ملامحه أكثر مما بشَّعَه.

بعدئذ اعتقدت أن لفسون أختًا أكبر لأنني رأيت عند عتبة الباب خلف الأب فتاة سمراء جميلة تشبهها، ولكنها واحدة أخرى. ولكن ما إن فكرت بهذا حتى أدركت بأن تلك الفتاة هي فسون. الأمر مزلزل. شعر فسون أسود داكن. قلت محاولًا تهدئة نفسي: «طبعًا إنه لونه الأساسي!». دخلت. ما كدت أقدم لها الورد، وأعانقها غير مبالٍ بوالديها، حتى أدركت من نظراتها، وارتباكها ووضعية جسمها بأنها لا تريد عناقي.

تصافحنا.

قالت: «آه، ما أجمل هذا الورد!». ولكنها لم تأخذه من يدي.

نعم، بالطبع إنها جميلة جدًّا، فقد نضجت. أدركت أنني قلق من حدوث ما يخالف خيالي حول اللقاء.

أشارت بعينيها لرجل آخر في الغرفة والورد الذي في حضني، وقالت: «أليس كذلك؟».

التقت عيناي بعيني الشخص الذي أشارت له. كان جارًا شابًّا بدينًا ومحببا، وسرعان ما فكرت: «أما وجدوا يومًا آخر يدعونه على العشاء!». ولكن ما إن فكرت بالأمر حتى أدركت بأنها فكرة أخرى خاطئة.

قالـت كأنهـا تذكّـر بتفصيـل غيـر مهـم: «أخ كمـال، لأعرفـك بزوجـي فريدون».

نظرت إلى فريدون وكأنني أنظر إلى ذكرى وليس إلى شخص حقيقي.

قالت فسـون رافعـة حاجبيهـا متوقعة تفهمًـا: «نحن تزوجنا قبل خمسـة أشهر».

فهمتُ من نظرات الصهر السـمين جدًّا الذي صافحني بأنه لا يعلم شيئًا. قلت له: «أوه، تشـرفت كثيرًا جدًّا بمعرفتك!». ونظرت إلى فسـون المختبئة خلـف زوجهـا، وقلت باسـمًا: «أنتم محظوظون جدًّا يا سـيد فريـدون. فقد تزوجتم فتاة رائعة، ولديها دراجة طفولة رائعة».

قالت أمها: «سـيد كمال، كنا نريد أن ندعوكم إلى العرس، ولكننا سـمعنا بمـرض والدكـم. يابنتي، بدل مـن اختبائك خلف زوجك، خـذي الورد من السيد كمال».

فـي أثنـاء أخذ حبيبة روحـي التي لم تخـرج من أحلامي علـى مدى عام باقة الورد من يدي بحركة ظريفة، قرّبت خديها الورديين، وشفتيها الشهيتين، وبشـرتها المخملية، ورقبتها التي أعرف بألم أنني أغامر بكل شـيء من أجل أن أكون قريبًا منها، وثدييها، وقسمها العلوي العَطِر، وأبعَدَتهُ. نظرت بدهشة من كونها حقيقة، ومن وجود العالم.

قالت والدتها: «ضعي الورد في المزهرية يا روحي».

قال والدها: «تشربون العرق، أليس كذلك يا سيد كمال؟».

غرد الكناري خاصتها.

«آ، طبعًا، طبعًا. أشرب، أشرب العرق..».

شـربت على معدة خاوية كأسـي عرق لكي يلطشـانني بسرعة. أذكر أنني تحدثـت عـن ذكريـات الطفولـة والدراجـة التي جلبتهـا قبـل أن نجلس إلى

المائدة. ولكن ذهني ما زال بحالة صحو إلى درجة إدراكي أن مشاعر الأخوة الطفولية التي تمثلها الدراجة قد زالت.

جلست فسون إلى المائدة مقابلي مشعرةً بأن الأمر مصادفة (سألت والدتها أين ستجلس)، ولكنها كانت تهرب بعينيها مني. في الدقائق الأولى كنت مندهشًا إلى درجة التفكير بأنها لم تهتم بي. وأنا أحاول التظاهر بأنني لا أهتم بها، وأريد أن أتصرف كغني طيب القلب يقدم هدية زواج لقريبته الفقيرة، وعقله مشغول بأمور مهمة جدًّا.

قلت بهذا الجو: «إيه، متى الطفل؟». ونظرت بداية إلى عيني الصهر، ولكنني لم أستطع النظر بالنظرة نفسها إلى فسون.

قال السيد فريدون: «لا نفكر حاليًا. من الممكن أن يحدث بعد الانتقال إلى بيت آخر..».

قالت العمة نسيبة: «فريدون صغير جدًّا، ولكنه اليوم من أكثر كتاب السيناريو طلبًا. هو الذي كتب «الخالة بائعة الكعك»».

وجد عقلي صعوبة طوال السهرة من أجل عمل ما يسمى بين الناس: «تقبل الواقع». طوال السهرة تخيلت بأمل أنهم بعد قليل سيعترفون بأن قصة الزواج هي مزاح ثقيل، وأنهم جلبوا ابن الجيران السمين ليلبسوه شخصية عاشق فسون منذ الطفولة وزوجها. مع معرفتي بعض الأمور حول الزوجين، أتقبل الزواج، ولكنني في الوقت نفسه أجد ما أعرف به مزلزلًا لا يمكن قبوله: صهر البيت السيد فريدون في الثانية والعشرين من عمره، ويحب السينما والأدب، لم يكسب كثيرًا من النقود بعد، ولكنه يكتب الشعر إضافة إلى السيناريوهات لصالح قطاع السينما التركية. عرفت أنه قريب فسون من طرف والدها، وقد كان يلعب معها في طفولتها، حتى إنه ركب مع فسون على الدراجة التي أعدتها عندما كان طفلًا. مع معرفتي بهذه الأمور تصبح روحي كأنها تنكمش في داخلي بمساعدة العرق الذي يصبه السيد طارق بمحبة. عندما أدخل إلى بيت جديد، يبقى عقلي قلقًا حتى أجد أجوبة عن

أسئلة «كم غرفة أخرى في البيت؟»، و«الشرفة الخلفية على أي زقاق تطل؟» وفهم المكان، وكان عقلي هذه المرة قلقًا لأنه لا يهتم بهذه الأسئلة.

سلواي الوحيدة أنني أجلس أمامها، وأتمكن من النظر إليها مليًّا كأنني أنظر إلى لوحة. يداها لا تتوقفان عن الحركة كما كانتا. ولأنها ما زالت لا تدخن أمام والدها على الرغم من زواجها، لم أر حركات يديها الظريفة في أثناء إشعال السيجارة للأسف. ولكنها عبثت بشعرها مرتين كما كانت تفعل سابقًا، ورفعت كتفيها قليلًا وسحبت نفسها إلى داخلها، وانتظرت ـ كما كانت تفعل دائمًا أثناء جدالنا ـ استعدادًا للدخول بالحديث ثلاث مرات. ما زالت ضحكتها تتفتح في داخلي كزهرة دوار الشمس بقوة السعادة والتفاؤل نفسهما. ثمة نور ينبعث من جمالها وحركاتها التي أشعر بقربها الشديد مني، وبشرتها تذكرني بأن مركز العالم الذي يجب أن أذهب إليه هو بجانبها. ما تبقى من أمكنة وأشخاص ومشاغل ليست سوى «ملاه فظة». ولأن جسمي أيضًا يعرف هذا، وليس عقلي فقط، أريد أن أنهض من مكاني، وأمسكها من ذراعيها، وأعانقها. ولكنني عندما أفكر بالوضع الذي وقعتُ فيه، وما سيحدث بعد ذلك، أشعر بألم شديد في قلبي بحيث لا أستطيع متابعة التفكير، وأبدأ بالتمثيل على نفسي وليس على الجالسين إلى المائدة فقط تمثيل دور القريب الذي جاء ليبارك للعريسين الشابين. على الرغم من ندرة التقاء أعيننا، فإن فسون تشعر بموقفي هذا المتكلف فورًا، وتتصرف كما يجب أن تتصرف المرأة الشابة المتزوجة حديثًا والسعيدة جدًّا مع قريب بعيد جاء مع سائقه الخاص، وتمازح زوجها، وتعطيه ملعقة إضافية من الفول. وهذا كله يعمق الصمت الغريب داخل عقلي.

لم يهدأ المطر الغزير الذي كان يهطل في طريق المجيء. شرح لي السيد طارق مع بداية العشاء بأن الحي منخفض وهو اسم على مسمى تشوقور جمعة (حفرة جمعة)، وأنهم اشتروه في الصيف الماضي، وعرفوا أن السيل كثيرًا ما يضربه. ونهضت معه عن الأريكة، ونظرنا إلى الماء المتدفق من الأعلى عبر نافذة المشربية. كان أبناء الحي قد شمروا عن سيقانهم وهم

حفاة يحملون بأيديهم دلاء صفيح وطسوت غسيل بلاستيكية يحاولون تفريغ المياه من البيوت التي دخلت إليها، وتحويل مجرى المياه عن أبوابهم بواسطة كومات الحجارة والأقمشة. وبينما كان رجلان يحاولان فتح مصفاة مجرور بقضيب حديدي، تصرخ امرأتان واحدة بغطاء رأس أخضر، والأخرى بغطاء رأس بنفسجي وهما تشيران إلى شيء في الماء. قال السيد طارق بجو مفعم بالسرية بأن المجارير آيلة من العهد العثماني، وطاقتها دون الحاجة. وكلما ازدادت شدة المطر يصرخ أحدهم عبارة مثل: «ثقبت السماء»، «طوفان نوح»، «الله يحمينا». وينهض من البهو، وينظر إلى الحي وسيل المياه من النافذة المطلة على الطلعة تحت ضوء الشارع الشاحب. كان علي أن أنهض، وأذهب إلى جوارهم، ومشاركتهم الخوف من السيل، ولكنني أخشى من عدم استطاعتي الوقوف، ومن قلب الأرائك والطاولات الصغيرة.

قالت العمة نسيبة وهي تنظر من النافذة: «ترى ماذا يفعل السائق في هذا المطر؟».

قال السيد الصهر: «ألا نعطيه شيئًا ما يأكله؟».

قالت فسون: «أنا أنزل إلى أسفل».

ولكن العمة نسيبة شعرت بأن الأمر يمكن ألا يعجبني، فغيرت الموضوع. فجأة شعرت بأنني رجل وحيد سكران ترمقه العائلة كلها من المشربية. أنا أيضًا التفتُّ، وابتسمت لهم. في هذه الأثناء بالضبط سُمع صوت برميل انقلب في الزقاق، وصوت: «آآه». التقت عيناي بعيني فسون. ولكنها هربت فورًا بعينيها.

كيف تستطيع التصرف دون مبالاة إلى هذه الدرجة؟ كنت أريد أن أسألها هذا. ولكنني لا أسألها هذا السؤال لأنني لا أريد أن أكون كالعشاق المخبولين المهجورين القائلين: «سأسألها عن شيء، ولهذا أبحث عنها!». حسنٌ، لا أسألها هكذا.

لماذا لا تأتي إلى جواري على الرغم من أنها تراني جالسًا وحدي؟ ولماذا لا تستغل هذه الفرصة لتشرح لي كل شيء؟ التقت نظراتنا ثانية، ومرة أخرى هربت بعينيها.

قلت بصوت متفائل: «ستأتي فسون الآن إلى الطاولة». وإذا أتت، فهذه إشارة تعني أنها ستتراجع عن هذا الزواج ذات يوم، وتنفصل عن زوجها، وتكون لي.

أرعدت السماء. انسحبت فسون من أمام النافذة، وخطت خمس خطوات خفيفة كالريش، وجلست أمامي.

قالت بصوت هامس حفر في قلبي: «أرجوك أن تسامحني. لم أستطع الذهاب إلى جنازة والدك».

ضوء برق أزرق ارتجف بيننا كقماش حريري في الريح.

قلت: «انتظرتك طويلًا».

قالت: «توقعت، ولكنني لم أكن أستطيع الذهاب».

قال زوجها فريدون وهو قادم إلى الطاولة: «انقلبت سقيفة دكان البقال المخالفة، هل رأيتموها؟».

قلت: «رأيناها، وحزنا».

قال حموه العائد من النافذة: «ليس هناك ما يدعو للحزن كثيرًا».

رأى ابنته تغطي وجهها بيديها كأنها تبكي، ونظر بقلق إلى صهره بداية، ثم إلي.

قالت فسون ضاغطة على صوتها المرتجف: «حزنت كثيرًا لعدم ذهابي إلى جنازة العم ممتاز. كنت أحبه كثيرًا، وساءت حالتي كثيرًا».

قال السيد طارق: «كانت فسون تحب والدكم كثيرًا». وقبّل شعر ابنته حقيقة، وجلس على الأريكة الطويلة، ورفع حاجبه، وصب لي كأسَ عرق أخرى وهو يبتسم، وقدم لي كرزًا بيده.

كنت أتخيل بعقلي السكران أنني أخرجتُ قرطي اللؤلؤ اللذين أعطاني إياهما والدي بعلبة مخملية وقرط فسون من جيبي، وقدمتهما لفسون، ولكنني لم أكن أستطيع تحقيق هذا بأي شكل. وهذا ما ضغط علي بشدة، فنهضت. ولكنني لا أنهض من أجل تقديم الأقراط، بل على العكس يجب ألا أنهض من أجل هذا. أدركت من تبادل النظر بين البنت ووالدها بأنهم ينتظرون مني شيئًا. لعلهم يريدونني أن أنهض، وأذهب، ولكن لا، هناك انتظار عميق في الغرفة. ولكنني لم أستطع بأي شكل إخراج الأقراط على الرغم من تخيلي هذه العملية كثيرًا. كانت فسون في تلك الأحلام عازبة، وليست متزوجة، وقبل أن أقدمها لها، كنت أطلبها من والدها ووالدتها... والآن لا أستطيع أن أعطي أي قرار حول ما سأعمله بالأقراط.

فكرت بأنني لا أستطيع إخراج الأقراط لأن يدي ملوثة بالكرز. قلت: «هل يمكنني أن أغسل يدي؟». لم تعد فسون تستطيع تجاهل العواصف التي تهب في داخلي. نهضت مرتبكة لأنها شعرت بعيني والدها تقول: «دلي الضيف على الطريق يابنتي!». عندما رأيتها واقفة أمامي، دبت الحياة بكل قوتها بذكرياتنا قبل عام. أردت أن أعانقها.

نعرف جميعًا بأن عقولنا تعمل على خطين في لحظات سكرنا الشديد: في الخط الأول أعانق فسون كأننا نلتقي في مكان خارج الزمان والمكان من خيالنا. أما في الخط الثاني، فقد كنا حول الطاولة في هذا البيت من تشوقور جمعة، وهناك صوت ينطلق من داخلي يقول بأن علي ألا أعانقها، وستكون فضيحة إذا ما أقدمت عليها. ولكن الصوت الثاني كان خافتًا بسبب المشرب، ولا يخرج في الوقت نفسه مع لحظة العناق، بل بعد عدة ثوانٍ. كنت في الثواني الأربع أو الخمس تلك حزينًا، ولكنني لست مرتبكًا لأنني حر، وسرت بجانبها، وصعدت الدرج من خلفها.

كأن قرب جسمها مني، وصعودنا الدرج معًا يخرجان من الأحلام، وهذا ما بقي في ذاكرتي أعوامًا طويلة. كنت أرى التفهم والقلق معًا في نظرتها،

وأشكرها لأنها تعبّر عن مشاعرها بنظراتها: لقد تبيّن مرة أخرى أن فسون وأنا خلق أحدنا للآخر؛ ولمعرفتي هذا تحملت كل ذلك العذاب، وليس مهمًّا أنها متزوجة، وأنا جاهز لتحمل عذاب أكبر في سبيل أن أحظى بسعادة صعود الدرج معها كما أفعل الآن. أقول لمن يسمون «واقعيين» من زوار المتحف، وقد انتبهوا إلى صغر بيت تشوقور جمعة، وأن المسافة بين غرفة الطعام والحمام الذي في الأعلى أربع خطوات ونصف الخطوة، وسبع عشرة درجة، وابتسموا، بأنني مستعد لتقديم حياتي كلها من أجل السعادة التي شعرتُ بها في ذلك الزمن القصير.

دخلت إلى الحمام في الطابق العلوي، وأغلقتُ الباب، واستنتجت أن حياتي خرجت من يدي، وأنني تحوّلت إلى أداة تتشكل خارج إرادتي بسبب ارتباطي بفسون. ولكنني سأكون سعيدًا، وأحتمل الحياة فيما لو آمنت بهذا. على الرف الصغير أمام المرآة رأيتُ حمرة شفاه فسون بين فراشي أسنانها، وتلك التي للسيد طارق، والعمة نسيبة، وصابون الحلاقة وآلات الحلاقة. تناولته، وشممته، وألقيته بجيبي. شممت على عجل المناشف المعلقة محاولًا استذكار رائحة فسون، ولكنني لم أشعر بشيء: بُدلت كلها بمناسبة مجيئي، فهي نظيفة. وبينما كنت أجوب بنظري على الحمام الصغير باحثًا عن شيء يمكن أن يسليني في الأيام الصعبة القادمة، رأيتُ نفسي في المرآة، واستنتجت من تعبير وجهي الهوة المزلزلة بين روحي وجسمي. كان ثمة عالم مختلف تمامًا في عقلي بينما يظهر على وجهي التعب بتأثير الهزيمة والدهشة: أصبحت مدركًا أن الحقيقة الأساسية في الحياة هي أنني هنا، وأنه ثمة قلب ومعنى في جسدي، وأن كل شيء تشكل من رغبةٍ ولمسٍ وعشقٍ، وهذا ما يسبب لي الألم. وسط هدير المطر، وقرقعة المزاريب تناهت إلى أذني أغنية تركية قديمة كنت أشعر بالسعادة في طفولتي عندما أسمعها من جدتي. يجب أن يكون هناك مذياع مفتوح في مكان قريب. وبين أنين العود الناعس، ونقرات القانون المرحة، يتناهى إلى أذني من نافذة الحمام المواربة صوت امرأة متعب ولكنه متأمل، يقول: «العشق،

العشق هو سبب كل ما في العالم». بمساعدة هذه الأغنية الحزينة، ومقابل المرآة في الحمام عشتُ أعمق اللحظات الروحية في حياتي، وأدركتُ بأن كل ما في العالم متكامل. ليست أشياء هذا المكان من فراشي الأسنان التي أمامي إلى صحن الكرز الذي في البهو، ومن ملقط شعر فسون الذي انتبهتُ إليه في تلك اللحظة، وألقيته في جيبي إلى مزلاج باب الحمام الذي أعرضه هنا فقط، بل كل الناس. معنى الحياة التي نعيشها ليس سوى الشعور بهذه الوحدة بواسطة قوة العشق.

بهذا التفاؤل أخرجت قرط فسون من جيبي بداية، ووضعته مكان حمرة الشفاه. قبل إخراج قرطي والدي اللؤلؤ كانت الموسيقى نفسها تذكرني بأزقة إسطنبول القديمة، وعواصف الحب التي يرويها الأزواج الذي هرموا وهم يستمعون للمذياع في بيوتهم الخشبية، والعشاق الحمقى الذين محقوا حياتهم كلها بسبب العشق. وبالإلهام الذي منحه لي صوت المرأة الصادر عن الإذاعة أدرك بأن فسون محقة، وبما أنني دخلت مرحلة الزواج من فتاة أخرى، فلم يبق أمامها سوى الزواج من رجل آخر لحماية نفسها. في أثناء تفكيري بهذا، وجدت نفسي أنظر إلى المرآة، وأكلم نفسي. عندما كنت أجرب التقليد أمام المرآة في طفولتي كان يبدو علي التمثيل والبراءة، والآن بتقليدي فسون أشعر بدهشة أنني أنفصل عن نفسي، وأحس بما تحس به في قلبها، وأفكر بما تفكر به في عقلها بقوة عشقي لها، وأستطيع التكلم بلسانها، وأدرك بما تشعر به منذ لحظة شعورها، ويمكنني أن أكون «هي».

بدهشة اكتشافي يبدو أنني بقيت طويلًا في الحمام. يبدو أن أحدهم قد كح بشكل مقصود أمام الباب. أو أنه قرع الباب، لأنني لم أعد أتذكر، فقد «انقطع الفيلم». كنا نستخدم هذا التعبير عن الزمن الذي يتبع مرحلة إفراطنا بالشرب، ونسياننا ما بعد ذلك. لأنني لا أذكر كيف خرجتُ من الحمام بعد ذلك، وكيف جلستُ في البهو، وبأي ذريعة صعد تشتين أفندي، وأخذني من الباب (لأنني لا أؤمن بأنني أستطيع نزول الدرج

وحدي)، وركّبني السيارة، وأقلني إلى البيت. خيّم الصمت بعد ذلك على البهو، هذا ما أذكره. ولكنني لا أدري إن كان الصمت بسبب هدوء المطر أم لأنهم لم يعودوا يستطيعون التظاهر بعدم رؤيتهم خجلي الذي لم أعد أستطيع إخفاءه، وشعور الهزيمة الذي أنهكني تمامًا، وألمي الذي يكاد يظهر للعيان بجلاء.

وبدلًا من شك السيد الصهر بهذا الصمت، فقد اندفع بحديث السينما بما يناسب عبارة «انقطع الفيلم» الرائجة، وروى بحب وكره في آن واحد بأن السينما التركية، وأفلام قطاع السينما سيئة جدًّا، ولكن الشعب التركي يدوخ إعجابًا بالسينما. كانت هذه في تلك الأيام أحاديث عادية. يجب أن يكون السيد فريدون قد قال في تلك الأثناء بأنه من الممكن إنتاج أفلام سينمائية ممتازة جدًّا فيما لو وجد رأسمال جدي وجريء وغير جشع، وأنه كتب سيناريو تمثل فيه فسون دور البطولة، ولكنه للأسف لم يجد أي دعم مادي. بهذه الكلمات شغل بالي بأن فسون ستكون في المستقبل «نجمة سينما تركية» شهيرة، وأنه بحاجة للنقود، ويطرح هذا الأمر بصراحة.

في أثناء جلوسي على مقعد السيارة الخلفي شبه فاقد الوعي في طريق العودة، أذكر أنني تصورت فسون نجمة شهيرة. مهما كنا سكارى، فإن غيوم آلامنا وتشوشَ عقولنا الرمادية تتبدد ذات لحظة، ونرى الحقيقة التي يعرفها الجميع، أو نعتقد أن الجميع يعرفها: أثناء فرجتي على شوارع المدينة تحت المياه والسيول من المقعد الخلفي للسيارة التي يقودها تشتين أفندي، أبرق ذهني، وتوصلتُ إلى نتيجة مفادها أن فسون وزوجها دعواني إلى العشاء باعتباري قريبًا غنيًّا يمكن أن يدعم حلمها بإنتاج فيلم. ولكن هذا لا يثير غضبي بتأثير العرق التفاؤلي، على العكس بدأت أحلم بأن فسون ستكون ممثلة شهيرة جدًّا معبودة الجماهير، وتتجلى أمام عيني باعتبارها نجمة سينما تركية جذابة: وفي حفل افتتاح فيلمها الأول في سينما سراي، ستصعد فسون إلى الخشبة متأبطة بذراعي. كانت السيارة تمر من بيه أوغلو، ومن أمام سينما سراي بالضبط!

٥٠ ـ هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها

صباحًا رأيت الحقيقة. ديست كرامتي، وسُخِر مني، وحتى استخف بي مساء. وقد استنتجت بأن سكري إلى درجة عدم استطاعتي الوقوف على رجلي أدى دورًا بمشاركة أهل البيت بالاستخفاف بي. استنتجت أيضًا بأن والدي فسون وافقا على هذا الموقف المهين بغضهما الطرف عن دعوتي إلى بيتهما من أجل إرضاء غرور صهرهما الطفولي والساذج بالسينما على الرغم من معرفتهما مدى غرامي بابنتهما. لن ألتقي بهؤلاء الناس بعد الآن. فرحت حين رأيت القرطين اللذين أعطاني إياهما والدي في جيبي. أعدت قرط فسون، ولكنني لم أخسر القرطين القيمين اللذين أعطاني إياهما والدي لهؤلاء الناس الذين دعوني من أجل النقود. كانت رؤيتي لفسون بعد أن عانيت عامًا كاملًا أمرًا جيدًا: لم أعشق فسون لجمالها أو شخصيتها، بل ردة فعل لاواعية على زواجي من سيبل فقط. أتذكر بأنني استخدمت كلمة «لاوعي» كثيرًا في تلك الفترة من حياتي على الرغم من عدم قراءتي فرويد، وقد سمعت بهذا الاصطلاح هنا وهناك، وقرأته في الجرائد. وكما كان هناك جان يتلبسون أجدادنا، ويجعلونهم يقدمون على أفعال لا يريدونها، لدي «لاوعي» جعلني أقدم على أفعال مخجلة لا تليق بي، هذا غير الألم الذي تسببه. كان عليّ ألا أخدع بها، وأفتح صفحة جديدة في حياتي، وأنسى كل ما له علاقة بفسون.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، أخرجت رسالة الدعوة التي أرسلتها فسون من جيب سترتي الداخلي، ومزقتها مزقًا صغيرة مع ظرفها. تمددت على السرير حتى ظهر اليوم التالي، وقررتُ أنني يجب أن أبتعد «من الآن» عن هذه العقدة التي جرني إليها «لاوعيي». تفسير ألمي ومهانتي بكلمة جديدة، كان يمنحني قوة جديدة من أجل ممارسة الحب معها. رأت أمي أنني بقيت متمددًا من المساء، ولا أريد النهوض من السرير، فأرسلت

السيدة فاطمة إلى بنغالطِ لتشتري قريدس، وطلبت منها أن تحضره مع الأنغينار بزيت الزيتون وكثير من الليمون والثوم كما أحبه. وبالراحة التي شعرت بها نتيجة قراري بعدم رؤية عائلة فسون، تناولت الغداء ببطء مستمتعًا بالطعام، وشرب كل منا ـ أمي وأنا ـ كأس نبيذ أبيض، وأخبرتني والدتي بأن ابنة عائلة ضاغ دلان (الغنية من مد سكك الحديد) الصغرى «بلور» قد أنهت الثانوية في سويسرا، ودخلت عامها الثامن عشر في الشهر الماضي. وضع العائلة التي ما زالت تعمل بالتعهد صعب؛ لأنها لم تستطع تسديد قروضها المصرفية التي حصلت عليها بالوسائط والرشا. وأضافت أنها سمعت أنهم يريدون تزويج الفتاة قبل انكشاف مصاعب العائلة (يتوقع إفلاسهم). ثم أضافت بطريقة مفعمة بالأسرار: «يقولون إن الفتاة جميلة جدًّا! أذهبُ، وأراها من أجلك إن شئت. قلبي لا يتقبل شربك كل مساء هكذا مع أصدقائك الرجال كضباط الريف».

قلت من دون ابتسام: «اذهبي، وانظري. لم يتم الأمر مع فتاة معاصرة وجدتها بنفسي، وقابلتها، وتعرفت عليها. لنجرب طريقة الخاطبة أيضًا».

قالت أمي: «آه يا بني لو تعرف كم أفرحني قرارك هذا. بالطبع ستتعرف عليها قليلًا في البداية، وتخرجان معًا... أمامنا صيف جميل، وما أجملكما من شباب. انظر إلي، عاملها بشكل جيد.. هل أخبرك لماذا لم يتم الأمر مع سيبل؟».

أدركت في تلك اللحظة أن أمي تعرف قصة فسون جيدًا، ولكنها تريد أن تجد سببًا آخر تمامًا مثل جانّ أجدادنا، وشعرت تجاهها بشكر عميق.

قالت أمي وهي تنظر إلى عيني: «إنها طموحة جدًّا، ومغرورة ومتكبرة». ثم أضافت كأنها تعطيني سرًّا: «أصلًا شككت بالأمر عندما عرفت أنها لا تحب القطط».

لم أتذكر نهائيًّا عداوة سيبل للقطط، ولكن والدتي ذكرت هذا المدخل للمرة الثانية لكي تذم سيبل، فغيّرتُ الموضوع. شربنا قهوتنا على الشرفة

ونحن نتفرج على الجنازة الصغيرة. وإذا كانت قد قالت: «آه لوالدك المسكين!»، وذرفت عدة دمعات، فإن صحتها ومعنوياتها وانتباهها على ما يرام. قالت لي إن الذي في التابوت على حجر المصلى هو أحد أصحاب بناء بركة. وحين قالت لي أثناء تعريفها بمكان البناء، إنه البناء الثاني اللصيق بسينما أطلس، وجدت نفسي أتخيل افتتاح فيلم بطلته فسون. بعد الطعام، خرجتُ من البيت، وذهبت إلى صاطصاط، وانخرطت بالعمل مقنعًا نفسي بأنني عدت إلى حياتي التي كانت قبل سيبل وفسون.

رؤية فسون بددت قسمًا كبيرًا من ألم دام أشهرًا. أثناء عملي في المكتب، أفكر بجانب من عقلي بصدق أنني تخلصت من مرض العشق، وأرتاح. عندما أتفقد نفسي وسط العمل، أنتبه بفرح إلى عدم بقاء أي رغبة لدي برؤيتها. لم يعد من الممكن أن أذهب إلى ذلك البيت السيئ جحر الفئران وسط السيل والطين. يستمد اهتمامي بالموضوع قوته من غضبي من العائلة والولد المسمى صهرًا أكثر من عشقي لفسون. ولأنني أجد غضبي من الصهر الذي ما زال ولدًا عبثًا، أغضب من نفسي، ومن قلة عقلي لأنني بددت عامًا كاملًا من عمري بعذاب العشق. ولكن ما أشعر به نحو ذاتي لم يكن غضبًا حقيقيًّا: أريد أن أقنع نفسي بأنني بدأت حياة جديدة، وأن ألم عشقي قد انتهى، وأرى أن مشاعري الجديدة والقوية هذه دليل على تغيير حياتي. لهذا السبب قررت العودة لرؤية أصدقائي القدماء الذين أهملتهم، واللهو معهم، والذهاب إلى حفلاتهم (ولكنني بقيت بعيدًا عن زعيم ومحمد فترة لأنهما يؤججان ذكرياتي حول سيبل وفسون). بعد الإفراط بالشرب في الملاهي الليلية والحفلات، وبعد منتصف الليل أدرك بأن غضبي المكبوت ليس موجهًا لمهازل المجتمع الراقي وسأمه، ولا لنفسي بسبب عقدي، بل موجهًا لفسون، وأقبض على نفسي متلبسًا بالتفكير بخوف في زاوية مضغوطة بقوة من عقلي بأنني أشاجرها باستمرار، وأن عدم مشاركتها حياة اللهو هذه التي أعيشها، وعيشها في جحر الفئران وسط السيول هو خيارها وذنبها، وأنني لن آخذ على محمل الجد فتاة تُقدم على زواج عبثي كهذا باعتباره انتحارًا.

أرسل إلي صديقي في الجندية عبد الكريم ابن غني ملاك كبير من قيصري بعد تسريحه بطاقات معايدة وتهنئة برأس السنة مذيلة بتوقيعه المزركش، وأنا منحته وكالة صاطصاط في قيصري. لم أكن أهتم بعبد الكريم أثناء زياراته إلى إسطنبول لشعوري بأن سيبل تجده «تركيًا أكثر من اللزوم»، ولكنني بعد زيارتي لبيت فسون بأربعة أيام اصطحبته إلى مطعم «كراج» المفتوح حديثًا، وأعجب بالطبقة الراقية بسرعة. ولكي أشعر بنفسي جيدًا، نظرت إلى حياتي بعينيه، ورويت له قصصًا حول المترددين على المطعم، والقادمين إلى طاولتنا لمصافحتنا. ولكنني خلال فترة قصيرة أدركت أن توقفه عند حياة أغنياء إسطنبول الجنسية، وسفالاتهم، واهتمامه بما داخل البيوت، ومضاجعة الفتيات دون زواج ـ وحتى دون خطوبة ـ أكثر من اهتمامه بالجوانب الإنسانية لنقط ضعف هذه القصص وألمها وبعض فظاظتها، لم يعجبني. لعل هذا ما دفعني بشكل غريب بالاتجاه العكسي قرب منتصف الليل، ورويت لعبد الكريم قصة عشقي لفسون، كأنها قصة غني طائش آخر. أثناء رواية قصة عشق الشاب الغني المعروف والمحبوب في المجتمع الراقي «للبائعة» التي تزوجت أخيرًا من رجل آخر، أشرت إلى أحد الشبان الجالسين إلى إحدى الطاولات البعيدة على أنه «هو» المقصود بالقصة لكي لا يشك بأنني «هو».

قال عبد الكريم: «المهم أن الفتاة الطماعة تزوجت، ونجا الرجل».

قلت: «في الحقيقة أنني أحترم هذا الرجل لأنه غامر بالتضحية في سبيل عشقه. فسخ خطوبته من أجل الفتاة».

فجأة ظهر تعبير تفهم وانفراج على وجه عبد الكريم، ولكنه بعد ذلك مباشرة بدأ يراقب سير تاجر التبغ السيد هجري وزوجته وابنتيه الجميلتين نحو الباب بمتعة. سألني من دون أن ينظر إليّ: «من هؤلاء؟». صبغت ابنة السيد هجري الصغرى الطويلة السمراء (اسمها نسليهان على الأغلب) شعرها، وأصبحت شقراء. لم تعجبني نظرات عبد الكريم وهو ملتفت نصف التفاتة نحوهم بمزيج من السخرية والانفعال.

قلت: «تأخر الوقت، هل نذهب؟».

طلب الحساب. خرجنا إلى الشارع، ولم نتكلم بشيء فيما بيننا إلى أن افترقنا.

لم أمش إلى البيت باتجاه نيشان طاشِ، بل باتجاه التقسيم. أعدت لفسون قرطها، ولكنني لم أفعل هذا بشكل صريح، بل تظاهرت بنسيانه في الحمام وأنا سكران. وهذا أمر مهين لهم ولي في آن واحد. من أجل إنقاذ كرامتي عليّ أن أشعرها بأن الأمر لم يحدث بالخطأ، بل بناء على نية مسبقة. ثم سأعتذر من فسون، وبراحة تأكدي من عدم اللقاء بها إلى آخر عمري، سأبتسم لها، وأقول: «أستودعك الله!». لعل فسون سترتبك عند خروجي من الباب لأنها ستشعر بأن هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها، ولكنني سأدفنها بصمت عميق من النوع الذي أذاقتني إياه طوال عام. أو أنني لن أذكر لها بأننا لن نلتقي ثانية، ولكنني سأبلغها بأمنياتي بالسعادة بطريقة تجعلها تشعر بأن هذا اللقاء هو الأخير، وترتبك.

في أثناء نزولي نحو تشوقور جمعة من أحد أزقة بيه أوغلو الخلفية، خطر ببالي إمكانية أن يكون عدم ارتباك فسون بسبب سعادتها مع زوجها في البيت. إذا كان الأمر على هذا النحو، أي إذا كانت تحب زوجها العادي واختارت العيش معه في ذلك البيت المهلهل، فإنني لن أرغب برؤيتها بعد ذلك المساء. في أثناء مسيري في الأزقة الضيقة على أرصفة وعرة وأدراج، كنت أرى من فُرَجِ الستائر التي لم تسدل جيدًا عائلات أغلقت تلفازاتها، وتستعد للنوم، وأزواجًا مسنين فقراء يدخنون آخر سجائرهم قبل النوم، وأؤمن بأن الناس الذين يعيشون في الأحياء الصامتة والنائية تحت ضوء مصابيح الشوارع الشاحبة سعداء.

قرعت جرس الباب. فُتحت نافذة مشربية الطابق الثاني. نادى والد فسون نحو الظلام: «من؟».

«أنا».

«من؟».

ما إن خطر ببالي الهرب من هناك وأنا واقف، وإذ بوالدتها تفتح الباب.

«عمة نسيبة، لم أكن أرغب بإزعاجكم في هذه الساعة من الليل».

«خير يا سيد كمال؟ تفضل».

أثناء صعودنا الدرج هي في المقدمة، وأنا خلفها كما حدث عند زيارتي الأولى، قلت لنفسي: «لا تخجل، وتنكمش! هذه المرة الأخيرة التي ترى فيها فسون!». بعدئذ دخلت شاعرًا بالراحة نتيجة إعطائي قرارًا بألا أعرّض نفسي لمهانة مرة أخرى، ولكن قلبي بدأ يخفق بسرعة إلى درجة أنه أخجلني فور رؤيتي لها. كانت جالسة إلى جانب والدها تشاهد التلفاز. عندما رأياني، نهضا بخجل ودهشة، ولكنهما حين انتبها إلى حالتي المثقلة بالهموم ورائحة المشروب التي تفوح من فمي، تصرفا كأنهما يعتذران. في أربع أو خمس الدقائق الأولى التي لا أريد تذكرها الآن قلت بصعوبة بأنني عرجت في طريقي، وأعتذر عن الإزعاج، وقد تعلق شيء بعقلي، وأريد أن أتكلم به. عرفت بأن زوجها ليس بالبيت (ذهب فريدون مع أصدقائه السينمائيين). ولكنني لم أستطع فتح الموضوع بأي شكل. ذهبت أمها إلى المطبخ لتحضير الشاي. عندما نهض والدها دون ذريعة، بقينا على انفراد.

قلتُ ونحن ننظر إلى التلفاز: «أنا آسف جدًّا. لم أضع قرطك على الرف بين فُرش الأسنان بنية سيئة في ذلك اليوم، بل نتيجة السكر، وكنت أريد أن أقدمه لك بشكل طبيعي».

قالت مقطبة حاجبيها: «لم يكن قرطي بين فرش الأسنان».

أثناء تبادلنا النظر محاولين فهم الوضع، جلب والدها من الداخل حلوى السميد بالفواكه في زبدية قائلًا إنها خاصة من أجلي. ابتلعت اللقمة الأولى، وامتدحت الحلوى طويلًا. صمتنا لحظة كأنني جئت في

منتصف الليل من أجل تناول هذه الحلوى فقط. أدركت حتى وأنا في حالة السكر بأن القرط ذريعة، وأنني بالطبع ذهبت إلى هناك لرؤية فسون. الآن هي تعذبني بقولها إنها لم تر القرط. أثناء ذلك الصمت، ذكرت نفسي بسرعة بأن ألم عدم رؤية فسون قاهر أكثر بكثير من هذا الخجل الذي أحتمله من أجل رؤيتها. وأصبحت أعرف بأنني على استعداد للدخول بمواقف مخجلة أكثر في سبيل عدم معاناتي من ألم عدم رؤيتها. ولكنني أعزل تمامًا أمام الخجل. ولم أعرف ما سأفعله بين الخوف من المهانة وألم عدم رؤية فسون، ونهضت.

رأيت صديقي القديم الكناري أمامي. خطوت خطوة باتجاه القفص. صرت وجهًا لوجه مع الطائر. نهضت معي فسون ووالداها (على الأغلب براحة لأنني سأذهب). أدركت بوضوح أنني لن أستطيع إقناع فسون التي أصحبت متزوجة، وتهتم بي من أجل نقودي حتى وإن لم آتِ إلى هنا ثانية. قلت لنفسي: «هذه المرة الأخيرة التي أراها فيها!». لن أعتب هذا المكان ثانية.

في تلك الأثناء بالضبط رن جرس الباب. هذه اللوحة الزيتية التي تجسّد ذلك المشهد ـ أي تبادلي النظر مع الكناري، وفسون ووالداها خلفي ينظران إلينا، والتفتنا إلى الباب عند قرع الجرس ـ طلبت من رسام رسمها بعد سنوات. لأن الصورة التي أجدها تعبر عن تلك اللحظة بشكل غريب مرسومة من زاوية رؤية الكناري ليمون، فلا تُرى وجوهنا جميعًا. لأقل بفخر إن مشهد عشق حياتي من الخلف الذي تغرورق عيناي كلما نظرت إليه، والليل الذي يظهر من النافذة المواربة ستارتها، وحي تشوقور جمعة، وما داخل الغرفة رسمه الرسام كما تذكرته، وشرحت له بالكلمة.

في تلك الأثناء بالضبط ألقى والد فسون نظرة على المرآة التي في الواجهة عبر نافذة المشربية، وأعلن بأن طارق الباب هو أحد أولاد الجيران، ونزل لفتح الباب الخارجي. بدأ صمت. سرت نحو الباب. كنت أنظر أمامي بصمت وأنا ألبس معطفي. فتحت الباب، وسيطر عليّ خيال إمكانية أن يكون

ذلك المشهد مشهد «انتقام» فكرت فيه على مدى عام بالسر حتى عن نفسي. قلت: «أستودعكم الله».

قالت العمة نسيبة: «سيد كمال، حقيقة لا يمكن أن تتصور مدى سعادتنا بطرقكم بابنا». وألقت نظرة إلى فسون. «لا تنظروا إلى عبوس وجهها، فهي تخاف من والدها، ولكن فرحتها برؤيتكم لا تقل عن فرحتنا».

قالت جميلتي: «رحماك أمي، رجاء..».

وإذا كانت قد خطرت ببالي أثناء مراسم الوداع عبارة من قبيل: «لم أكن أستطيع تحمل سمرتها أكثر من ذلك» فأنا أعرف بأن هذه العبارة ليست صحيحة، ويمكنني أن أحتمل آلام العالم كله من أجلها، وأن هذا ما سيقضي عليّ.

قلت: «لا، لا. أرى أن فسون جيدة جدًّا». ونظرتُ إلى عينيها بدقة: «رؤيتي أنك سعيدة جدًّا منحتني السعادة التي أريدها».

قالت العمة نسيبة: «رؤيتكم أيضًا أسعدتنا. اعتادت قدماكم، نحن بالانتظار دائمًا».

قلت: «عمة نسيبة، هذه هي المرة الأخيرة التي آتي فيها».

«لماذا؟ هذا يعني أنكم لم تحبوا حينا؟».

قلت بجو من المزاح المفتعل: «صار الدور عليكم. لأخبر والدتي لكي تدعوكم». وكان ثمة لامبالاة بنزولي الدرج من دون أن ألتفت للمرة الأخيرة، وأنظر.

قال السيد طارق الذي التقيت به عند الباب: «مع السلامة يا بني». أعطاه الولد صرة، وقال: «أرسلتها أمي».

أثناء منح الهواء النظيف في الخارج لوجهي برودة منعشة، مررت من عقلي أنني لن أرى فسون بعد الآن إلى آخر يوم من حياتي، وآمنت بأن أمامي

حياة سعيدة دون هموم أو مشاكل. تصورت بأن بلور ابنة عائلة ضاغ دلان التي ستذهب والدتي لرؤيتها من أجلي فتاة جميلة. ولكنني أشعر بأنني أبتعد عن فسون في كل خطوة أخطوها، وأن قطعة من قلبي قد انفصلت عنه. في أثناء صعودي الطريق من تشوقور جمعة، أشعر بأن روحي تتخبط داخل عظامي من أجل أن أعود إلى المكان الذي غادرته، ولكنني كنت أفكر بأنني سأتحمل هذا العذاب، وأنهي هذا الأمر.

قطعت طريقًا طويلا. ما يجب أن أفعله الآن هو إيجاد ما ألهي نفسي به، وأن أكون قويًّا. دخلت إحدى الخمارات التي على وشك الإغلاق، وشربت كأسي عرق مع حَزٍّ بطيخ أصفر وسط دخان سجائر ثقيل شديد الزرقة. عندما خرجت، كانت روحي تشعرني بأن جسدي لم يبتعد عن بيت فسون. في هذه الأثناء ضيّعت طريقي على الأغلب. قابلت ظلًّا يبدو أنني أعرفه في زقاق ضيق، وفجأة لمعت الكهرباء في داخلي.

قال: «أوه، مرحبا!» كان السيد فريدون زوج فسون.

قلت: «ما هذه المصادفة، أنا عائد من عندكم».

«هكذا إذًا؟».

دهشت ثانية لفتوة (هل يجب أن أقول يفاعة؟) الزوج الشاب.

قلت: «أنا أفكر بقضية الفيلم منذ زياتي تلك. الحق معكم. يجب أن تنتج أفلام فنية كتلك التي تُنتج في أوربا... لم أفتح هذا الموضوع اليوم مع فسون لأنكم غير موجودين. هل نتكلم بهذا ذات مساء؟».

رأيت أن عقله الذي لا يقل عن عقلي سكرًا قد تشوش إزاء هذا المقترح.

قلت: «هل آتي مساء يوم الثلاثاء في الساعة السابعة، وآخذكم من الباب؟».

«لتأتِ فسون أيضًا، أليس كذلك؟».

«طبعًـا، نحـن ننـوي تصوير فيلم كمـا في أوربـا، وأن تلعب فسـون دور البطولة».

للحظة تبادلنا الابتسام كصديقين قديمين، وقد ظهر أمامه حلم الغنى بعد معاناة من أصدقاء الدراسـة والجندية على مدى سـنوات طويلة. نظرت بدقة إلى عيني السـيد فريـدون الطفوليتين بقدر ما استطعت رؤيتهما تحت ضوء مصباح الشارع، وافترقنا بصمت.

٥١ ـ السعادة هي القرب من الحبيب فقط

أذكـر أننـي عندما خرجـت إلى بيه أوغلـو، وجدت واجهـات المحلات متلألئـة، واسـتمتعت بالسـير وسـط الزحام الخارج مـن السـينما. لف قلبي فرح بالحياة وسـعادة لم أسـتطع أن أخفيها عن نفسـي. بعد تخيلي أن فسون وزوجها دعواني إلى بيتهما من أجل أن أدفع نقودًا لفيلم حلمهما السـخيف، لعلنـي يجـب أن أرى وضعي مهينًا ومخجلًا، ولكن سـعادة قلبـي قوية جدًّا إلـى درجة أننـي لا أهتم بخجلي نهائيًّـا. تعلّق عقلي في تلك الليلة بمشـهد: ليلة العرض الافتتاحي لفيلمنا، تحمل فسـون مايكريفون على خشـبة سـينما سراي ـ أم أن ملك الجديدة أفضل؟ ـ وتخاطب معجبيها، وتشكرني أكثر من الجميـع. وعندما صعدتُ إلى الخشـبة باعتباري المنتج الغنـي للفيلم الفني همس النمامون الذين يعرفون بالخبر أن نجمة الفيلم الشـابة عشـقت المنتج أثناء التصوير، وانفصلت عن زوجها، وستنشر الجرائد كلها صورتنا الملتقطة أثناء تقبيل فسون لي من خدي.

لا ضـرورة لشـرح المزيد عن هـذه الأحلام التي يفرزهـا عقلي تلقائيًّا باسـتمرار مثل أزهار صافية نادرة تفرز سـائلًا محملًا بالأفيون لنفسها كي تغط بالنوم. لأنني أنا أيضًا مثل الرجال الأتراك الذين يعيشـون في العالـم، ووقعوا وقعتي، أتخيل الفتاة التي أعشقها بجنون فقط بدلًا من التفكير بما

تفكـر فيه، وبأحلامها. عند أخذهما من أمام الباب بالشـفروليه التي قادها تشـتين أفندي بعد يومين، والتقت عيناي بعيني فسـون، شعرت فورًا بأنها لن تشـبه أيًّا من هذه الأحـلام التي يفرزها عقلي باسـتمرار، ولكن رؤيتها تسعدني إلى درجة أن متعتي لم تتعكر.

قدمت المقعد الخلفي للزوجين الشابين، وجلست في المقعد الأمامي بجوار تشتين، وأثناء مرورنا من أزقة المدينة وسط الظلال، ومن ساحاتها المغبـرة والمبعثرة، كنت ألتفت بين حين وآخر إلـى الخلف، وأمازحهما محاولًا بث الحرارة في الجو. ارتدت فسـون ثوبًـا بلون البرتقال الدموي واللهـب. لـم تـزر الأزرار الثلاثـة العليـا مـن أجل فتـح صدرها للنسـيم المحمل برائحة مذهلة والذي يهب من البوسـفور. أذكر أنني كلّما التفتّ إلى الخلف لكي أقول شـيئًا ما أثناء تقدّم السـيارة وهـي تتقافز على طرق البوسفور المبلطة بالحجارة، تتأجج السعادة في داخلي. في الليلة الأولى التـي ذهبنـا فيهـا إلى مطعـم أنضون في بيويـوك درة ـ وكما سـيحدث في لقاءاتنـا الأخرى من أجل نقاش مشـروع الفيلم ـ أدركـت في فترة قصيرة أنني الأكثر انفعالًا.

فـور اختيـار المقبلات التـي جلبها الندل الـروم في صينية، بـدأ العريس السـيد فريـدون الحديث قائلًا: «بالنسـبة إلي فإن السـينما هـي الحياة كلها يا سـيد كمال». وأغبطه على ثقته بنفسه. «أقول هذا لكي لا تنظروا إلى عمري، ولا تثقوا بي. أنا في قلب قطاع السينما منذ ثلاث سنوات بالضبط، ومحظوظ جـدًّا. عرفت الجميع. عملت عامل موقع تصويـر، وحملت البرجوكتورات والديكورات، وعملت مساعد مخرج. وكتبت أحد عشر سيناريو».

قالت فسون: «صُورت كلها، وحظيت برواج جيد».

«كنت أريد رؤية هذه الأفلام يا سيد فريدون».

«بالطبـع نذهب يا سـيد كمال. أغلبهـا تعرض في السـينمات الصيفية، وبعضهـا مـا زال يعـرض في بيـه أوغلـو. ولكنني لسـت راضيًـا عن تلك

الأفلام. يقول لي جماعة قوناق للسينما بأنني يمكن أن أبدأ الإخراج فيما لو قبلت بتصوير ما يشبهها. ولكنني لا أريد تصوير أفلام من هذا النوع».

«كيف هي تلك الأفلام؟».

«تجارية، وميلودرامية، أعمال سوقية. هل تشاهدون الأفلام التركية؟».

«قليل جدًّا».

«أغنياؤنا الذين ذهبوا إلى أوربا، يشاهدون الأفلام التركية كي يسخروا منها. وأنا أيضًا فعلت هذا عندما كنت في العشرين من عمري. ولكنني الآن لا أستخف بالأفلام التركية. وفسون أيضًا أصبحت تحب الأفلام التركية كثيرًا».

قلت: «كرمى لله علموني هذا أيضًا، أريد أن أحبها».

قال السيد العريس بابتسامة صادقة: «أعلمكم. ولكن الفيلم الذي سنصوره بفضلكم لن يكون مثلها، فلا تشغلوا بالكم. على سبيل المثال، لن ننتج فيلما تنزل فيه فسون من القرية إلى المدينة، وبفضل مربية فرنسية تصبح سيدة محترمة في ثلاثة أيام».

قالت فسون: «أصلًا أنا أتشاجر مع المربية فورًا».

تابع فريدون قائلًا: «ولن يكون في فيلمنا سندريلا المهانة من قبل أقربائها الأغنياء لأنها فقيرة».

قالت فسون: «في الحقيقة أنني أريد أن أمثل دور القريبة الفقيرة المهانة».

كنت أشعر بخفة وسعادة تثير الألم أكثر من السخرية في كلماتها الموجهة إلي. ووسط هذا الجو المزيح تحدثنا عن ذكريات العائلة المشتركة، ونزهتنا الإسطنبولية في الشفروليه التي يقودها تشتين أفندي قبل سنين، وأقربائنا الساكنين في الأزقة الضيقة من الأحياء النائية وبعضهم ماتوا، وبعضهم على وشك. وانتهى جدل طريقة تحضير محشو المحار بمجيء طباخ رومي

بشرته شديدة البياض قال باسمًا بأن القرفة توضع له. بدأت أحب براءة السيد العريس وتفاؤله، ولم يصر على رواية السيناريو الذي يحلم به. عندما كنت أقلهما إلى بيتهما، اتفقنا على اللقاء بعد أربعة أيام.

طوال صيف عام ١٩٧٦ ذهبنا لنتعشى في كثير من مطاعم البوسفور من أجل الحديث في موضوع الفيلم. حتى بعد سنوات كلما نظرت من نوافذ تلك المطاعم المطلة على البحر، أبقى متخبطًا بين سعادتي بالجلوس أمام فسون، وبرودة أعصابي اللازمة من أجل الحصول عليها من جديد، ويتشوش عقلي ثانية. على الطعام أستمع لرؤى زوجها حول موضوع الفيلم وأحلامه، وتحليله لبنية المتفرج التركي وقطاع السينما باحترام مخبئًا شكوكي لنفسي. ولأن همي لم يكن «إهداء المتفرج التركي فيلمًا فنيًّا بالمعنى الغربي»، أضع أمام الأمر صعوبات، على سبيل المثال أطلب قراءة السيناريو، ولكنني أبدي اهتمامًا بموضوع آخر قبل أن يأتي السيناريو إلى أمامي.

بعد أن تحدثت حول كلفة فيلم تركي «بمستوى جيد» مع فريدون الذي اكتشفت أنه أذكى من أكثر موظفي صاطصاط، وأمهر منهم، استنتجت بأن صناعة نجمة من فسون لا يكلف أكثر من ثمن نصف شقة صغيرة في أحد أزقة نيشان طاش الخلفية، ولكن سبب عدم دخولي بهذا العمل بأي شكل لم يكن كبر المبلغ أو صغره، بل إدراكي بأن لقائي بفسون مرتين في الأسبوع بذريعة الفيلم يخفف آلامي. قررت بأن هذا يكفيني بعد تلك الآلام. وكنت خائفًا من الطلب أكثر. كأنني يجب أن أرتاح قليلًا بعد عذاب العشق ذاك كله.

كان الذهاب إلى إستنية بالسيارة التي يقودها تشتين بعد العشاء، وتناول المهلبية بكثير من القرفة، أو تناول المثلجات ونحن نتضاحك، ونتحادث، ونسير على شاطئ البوسفور، وننظر إلى المياه المظلمة، يبدو لي أنه أعمق ما يمكن أن يجده الإنسان من سعادة في هذه الدنيا. عندما هدأ جني العشق في داخلي نتيجة الطمأنينة التي شعرت بها أثناء جلوسي

مقابل فسون في محل ياني ذات مساء، اكتشفت وصفة السعادة البسيطة جدًّا والتي يجب أن يعرفها الجميع، وأذكر أنني تمتمت بها لنفسي: السعادة هي القرب من الحبيب فقط (ليس بالضرورة أن تحظى بها). قبل أن تخطر ببالي هذه الوصفة السحرية بقليل، نظرت إلى الطرف الآخر من البوسفور عبر نافذة المطعم، وحين رأيت أضواء الشاليه الذي قضينا فيه الخريف الماضي تتراقص على المياه، انتبهت إلى أن ألم العشق الفظيع الذي في بطني قد زال.

عندما أجلس إلى طاولة واحدة مع فسون، لا يذهب ألم العشق ذاك فورًا فقط، بل وأنسى أن تلك الآلام دفعتني للتفكير بالانتحار حتى وقت قريب. وهكذا عندما تهدأ الآلام قرب فسون، أنسى أن تلك الآلام قد أنهكتني كثيرًا، وأعتقد بأنني عدت إلى زمني «الطبيعي» السابق، ويسيطر عليّ شعور مخاتل بأنني قوي وحازم، وحتى حر. بعد ثلاثة لقاءات رأيت فيها أن الصعود والنزول يتبع أحدهما الآخر بشكل متناغم، بدأت آخذ بعض الأشياء من فوق الطاولة، وأخبئها لكي تذكرني بسعادتي أثناء جلوسي مقابلها، وتمنحني قوة في الأيام التالية عندما أفكر بالألم الذي سأعاني منه في لحظات وحدتي. مثلًا ملعقة الصفيح الصغيرة هذه، وضعتها فسون في فمها، وتلهّت بها طويلًا أثناء خوضي مع زوجها بحديث صغير حول كرة القدم (كان تشجيعنا معًا لفنار بهتشة لا يسمح حتى بصدام سطحي، وهذا جيد) في محل أليكو في يني كوي. حين شرعت باستخدام هذه المملحة، أمسكتها فترة طويلة وهي تراقب مرور سفينة سوفيتية صدئة من أمام النافذة مباشرة وقد رجّف دوران مروحتها الكئوس والزجاجات على الطاولة. في لقائنا الرابع رمت فسون مخروط المثلجات الذي اشتريناه من عند زينل في إستنية لأن طرفه قد ترطب، وبلمح البصر التقطتُه من خلفها، وألقيته بجيبي. عندما أعود إلى البيت، أنظر إلى هذه الأشياء بعقل سكران، وبعد يوم أو يومين آخذها إلى بناء مرحمة لكي لا تلفت نظر أمي إليها، وأضعها بجانب الأشياء القيّمة الشبيهة، وأحاول تهدئة ألمي المتصاعد تدريجيًّا بواسطتها.

في ذلك الربيع والصيف شعرت بتقارب بيني وبين أمي لم أشعر به من قبل. من المؤكد أن سبب هذا هو فقدانها والدي، وفقداني فسون. أنضجتنا هذه الخسارة، وجعلتنا أكثر تسامحًا. ولكن ما مدى معرفة والدتي بخسارتي؟ ماذا ستقول لو وجدت مخروطات المثلجات والملاعق التي أجلبها إلى البيت؟ ما الذي عرفته من استدراج تشتين بالكلام حول الأمكنة التي أذهب إليها؟ أحيانًا يثار فضولي لمعرفة هذه الأمور في لحظات تعاستي، ولا أريدها أن تحزن من أجلي، أو تفكر بأنني أقدمت على «أعمال أندم عليها طوال عمري» بحسب تعبيرها بسبب عقدة لدي.

أحيانًا أظهر لها أنني أسعد مما أنا عليه، ودون أن أقول لها بأن الزواج عن طريق خاطبة عبثي، حتى ولو كان بطريق المزاح. أستمع لصفات البنات اللواتي تراهن من أجلي، وقصصهن. ذهبت أمي لرؤية بلور الابنة الصغرى لآل ضاغ دلان من أجلي، ورأت أن العائلة تعيش «حياة إسراف كبيرة» وهناك طباخون وخدم على الرغم من إفلاسها، ووجه البنت حقيقة جميل، وهي توافق على هذا، ولكنها قصيرة القامة، وأنني لا أستطيع الزواج من قزمة، وأغلقت الموضوع (كانت والدتي تقول في بدايات شبابنا: «لا أريد لأحدكما أن يتزوج فتاة يقل طولها عن ١٦٥ سم، واحذرا من الزواج بفتاة قزمة!»). وقررت أمي أن ابنة عائلة منغرلي الوسطى التي تعرفت عليها في النادي الكبير في الجزيرة الكبيرة في مطلع الصيف الماضي مع زعيم وسيبل لا تناسبني أيضًا: عرفت حديثًا أن ابن عائلة أونيدوق الكبير تركها بشكل سيئ جدًّا بعد أن عاشت معه حالة حب جنونية، واعتقدت أنها ستتزوجه، وتحدثت عنها كثيرًا الطبقة الراقية. طوال الصيف دعمت والدتي بحثها لأنني آمنت أحيانًا بأن هذا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة تسعدني، ويخرجها من العزلة التي اختارتها بعد وفاة والدي. أحيانًا تتصل بي والدتي على المكتب من بيت سعادية بعد الظهر، وتشرح لي بدقة صياد قروي يشرح أين يحط الحجل أن هناك فتاة تريدني بشدة أن أراها، وهي تأتي بمركب السرعة إلى مرسى جارنا السيد أسعد، ويمكنني

أن أنزل إلى المرسى لرؤية الفتاة إذا عدتُ باكرًا قبل أن يظلم الجو، وأن أتعرف عليها إن أردت.

كانت والدتي تتصل بي في المكتب مرتين على الأقل كل يوم بمختلف الذرائع، وبعد أن تشرح لي بأنها وجدت في قعر الخزانة غرضًا قديمًا لوالدي في بيت سعادية، مثلًا فردة الحذاء الصيفي الأبيض والأسود هذه التي أعرضها باحترام، تقول: «رجاء لا تتركني وحدي!»، وتطلب مني ألا أبقى وحدي في نيشان طاشِ، والوحدة ليست جيدة لي، وتنتظرني بالتأكيد على العشاء في سعادية.

كان أخي وزوجته وولداه يأتون إلى تلك الأعشية أحيانًا. وبينما تتحدث أمي وبرين عن الأولاد والأقرباء والعادات القديمة، والأسعار التي ترتفع باستمرار، والدكاكين الجديدة، والأزياء، وآخر الشائعات بعد العشاء، أجلس مع عثمان تحت شجرة النخيل حيث كان والدي يتمدد على كرسي البحر وهو يفكر بحبيبته السرية وينظر إلى الجزر المقابلة والنجوم، ونتحدث حول الشركات والأعمال المتبقية من زمن والدي. كان أخي يطلب مني دون إصرار أن أشارك في الشركة التي أسسها مع السيد طورغاي في تلك الأيام، ويعيد ثانية أنه فعل جيدًا بتعيين كنان على رأس تلك الشركة، وأنني مخطئ بعدم معاملة كنان معاملة جيدة، وعدم دخولي بهذه الشركة. ويضيف بشكل سطحي أن هذه هي الفرصة الأخيرة، وأنني سأندم فيما بعد. ويقول كأنني لا أهرب من حياة الأعمال فقط، بل أهرب من حياة المجتمع، ومنه، ومن أصدقائنا المشتركين، والنجاح، والسعادة، ويسأل رافعًا حاجبيه: «ماذا يوجد؟».

وأنا أقول له إنني تعبت من موت والدي، وفسخ خطوبتي من سيبل، ولهذا انكمشت على نفسي قليلًا. وقلت له ذات مساء من شهر تموز/ يونيو بأنني أشعر بضيق شديد، وأرغب بالبقاء وحدي، وفهمت من تعبير وجهه بأن هذا رسم في عقل عثمان شرخًا في عقلي. وأشعر أيضًا بأن عمق الشرخ الذي تصوره أخي في عقله مقبول حاليًا، ولكننا سنعاني من خجل

كلام الناس بحقنا، ويتردد فيما إذا كان سيستمتع باستغلال جنوني في العمل فيما لو تعمقت غرابتي أكثر. كنت أفكر بهذا المنطق في الأيام التي تلي رؤيتي فسون، وشعوري بتحسن حالتي، ولكنني عندما أشتاق لفسون بألم، فإن عيني لا ترى غيرها. أما أمي فقد كانت تشعر بالظلمة التي في داخلي، وتتوق لمعرفتها، ولا تريد أن تعرفها في الوقت نفسه. وأنا أيضًا مثلها تمامًا أتوق لمعرفة ما تعرفه، ولكنني لا أريدها أن تعرف أكثر مما أتوقعه حول عشقي لفسون إذا كانت تعرف. وكما أريد أن أقنع نفسي بسذاجة بعد لقائي بفسون بأن عشقي لها لم يعد مهمًّا جدًّا، أحاول إقناع أمي دون كلام بأن عقدتي ليست مهمة. وفي سبيل هذا الهدف، ولأثبت لأمي بأنني «لست معقدًا» من هذا الموضوع، أقول لها ـ وسط الحديث ـ إنني دعوت ابنة العمة نسيبة وزوجها إلى عشاء على البوسفور، وتحت إصرار الصهر الشاب ذهبنا لمشاهدة أحد الأفلام التي كتب لها سيناريو.

قالت أمي: «ليكونا جيدين، ولا أريد شيئًا. سمعتُ بأن البنت تنام وتقعد مع السينمائيين، وحزنت. ما الذي تتوقعه من بنت دخلت مسابقة ملكة جمال. إذا كان رأيك أنهما جيدين..».

«يبدو أنه شاب راجح العقل..».

«هل تذهب معهما إلى السينما؟ عليك أن تنتبه. نسيبة طيبة القلب جدًّا، وهي مرحة، ولكنها ماكرة جدًّا أيضًا. اسمع ما سأقوله لك. هناك حفل في مرسى السيد أسعد، أرسلوا أحدهم، ودعانا. أنت اذهب، وأنا أجعلهم يضعون أريكتي تحت شجرة التين، وأتفرج عليكم من بعيد».

٥٢ ـ يجب أن يكون الفيلم حول الحياة والآلام صادقًا

من أواسط حزيران/ يوليو إلى مطلع تشرين الأول/ أكتوبر شاهدت أكثر من خمسين فيلمًا في السينمات الصيفية أعرض هنا بطاقات دخولها، وصور بواباتها التي بحثت عنها لدى أصحاب المجموعات، ووجدتها، وإعلاناتها التي توزع باليد. أذهب بالسيارة التي يقودها تشتين إلى بيت تشوقور جمعة لآخذ فسون وزوجها في ساعة من المساء قبل أن يظلم الجو كما نفعل عند ذهابنا إلى خمارات البوسفور، ونحاول إيجاد طريقنا بدلالة فريدون الذي يكتب على ورقة اسم المنطقة والحي الذي تقع فيه السينما التي تعرض الفيلم الذي سنشاهده، وأستعلم عنه من معارفه في شركات التوزيع والتشغيل. لقد كبرت إسطنبول في الأعوام العشرة الأخيرة، وغيّرتها الحرائق وأعمال البناء الحديثة، وازدحمت الأزقة بالهجرات الجديدة إلى درجة أننا كثيرًا ما نضيّع طريقنا، ولا نجد العنوان إلا بالسؤال، ونلحق الفيلم في اللحظات الأخيرة، وأحيانًا ندخل الحديقة في الظلام، ولا نعرف المكان الذي نحن فيه إلا بعد خمس دقائق عند إنارة الإضاءة.

كان زحام حدائق السينمات يدهشني في كل مرة، وقد قطعت أشجار التوت والدلب منها بعد سنين وأنشئ مكانها أبنية أو تحولت إلى مواقف سيارات أو فرشت بسجاد بلاستيكي أخضر لتصبح ساحات كرة قدم صغيرة محاطة بجدران مطلية بالكلس، وورش، ودور خشبية آيلة إلى السقوط، وأبنية مؤلفة من طابقين أو ثلاثة. في أغلب الأحيان تتداخل في عقلي حيوية حياة آلاف الناس الذين يشاهدون الفيلم الميلودرامي معنا وهم يأكلون البذر على كراسيهم، وإنسانية العائلات والأمهات المغطيات الرءوس والآباء الذين يدخنون باستمرار والأولاد والشباب العزاب الذين يشربون المياه الغازية مع ما يرويه الفيلم.

ظهـر أمامي أورهان غنجباي ملكُ الأفلام المحلية الذي دخل حياة الأمة التركيـة كلها في تلك الأيـام بأغانيه وأفلامه وأسـطواناته وملصقاته أول مرة على شاشـة سينما مقهى مكشوفة كبيرة جدًّا كهذه. كنا على سفح تل في حي مخالفـات جديد بين بنـدك وقرطل، يطل على بحر مرمـرة والجزر المتلألئة وجـدران ورش ومصانـع كتـب عليهـا مختلـف شـعارات اليمين واليسـار. الدخـان الأبيـض كالقطـن المتصاعـد مـن مدخنـة مصنع يونس للأسـمنت المحاط بأسوار مطلية بكلس شديد البياض، يغدو في ظلمة الليل أكثر بياضًا، وينثر فوق المتفرجين قطع كلس بيضاء كالثلج ليبدو المشهد كأنه في حلم.

يجسّـد أورهان غنجيباي شخصية صياد سمك شاب فقير اسمه أورهان. هناك رجل سيئ غني يرعاه، ويرتبط به بوفاء. لهذا الغني ولد أسوأ منه ومدلل يكشف مع أصدقائه جسم موجدة آر التي تمثل أولى أفلامها لكي نراها جيدًا، ويغتصبونها طويلًا، وفي هذه الأثناء يخيّم صمت مطبق على السينما. يضطر أورهـان بأمر راعيه، ولأنـه وفي له للتغطية على القضية، ويتزوج موجدة. في هـذه الأثناء يقـول غنجيباي: «لتغر هذه الدنيا!». ويغنـي الأغنية التي مطلعها هذه الجملة، والمشهورة في تركيا كلها بألم وغضب.

كنـا في لحظات شـديدة العاطفة نسـمع حفيف قصقصـة آلاف الناس البـذر على كراسـيهم (اعتقدت للوهلـة الأولى أنها هديـر مصنع قريب)، وكأننـا في مواجهـة آلامنـا المتراكمة منذ زمـن طويل. ولكن جـو الفيلم، وململة الزحام القادم للهو، وممازحات الأجوبة السـريعة البديهة للشباب الجالسين في مقدمة قسم الرجال، وما لا يمكن تصديقه في القصة، تمنعني مـن الانسـجام، والاسـتمتاع بمخاوفي المكبوتـة. ولكنني كنت مسـرورًا جدًّا من الجلوس بجانب فسـون في السـينما بين الأشـجار والنجوم حين غضـب أورهان غنجيباي، وقال: «كل شـيء مظلم، أين الإنسـانية!». أثناء متابعتي الشاشـة بإحدى عيني، كنت أسـتمتع بالنظر إلى ململة فسون على الكرسـي الخشبي الضيق بين مشهد ومشهد، وتنفسها، وإلقائها رجلا على رجل ببنطال الجينز عندما قال أورهان غنجيباي: «أسـفي على قدر كهذا!»،

وتدخينها السيجارة، وأتوقع مدى اندماجها بالعاطفة التي على الشاشة. عندما أدى أورهان أغنيته بجو من الغضب والتمرد بعد أن اضطر للزواج من موجدة، التفتُّ ذات لحظة إلى فسون، ونظرتُ نظرة تمزج بين العاطفة والسخرية، وابتسمت. كانت منهمكة بالفيلم إلى درجة أنها لم تلتفت، وتنظر إلي.

لم يكن صياد السمك أورهان يمارس الحب مع زوجته المغتصبة، ويبقى بعيدًا عنها. حاولت موجدة الانتحار عندما أدركت أن زواجها من أورهان لم يهدئ آلامها، فأسعفها إلى المستشفى، وأنقذها. حين طلب من زوجته في طريق عودتهما من المستشفى أن تتأبط ذراعه، سألته موجدة في أكثر لحظات الفيلم تأثيرًا: «هل تخجل مني؟».. حينئذ شعرت أخيرًا بتململ الألم المخبوء داخلي. صمتَ زحام السينما كله، وأدركَ فورًا أن هذا خجل الاغتصاب، وفقدانها بكارتها.

أنا أيضًا شعرتُ في داخلي بالخجل، وحتى بالغضب. هل كان هذا خجلًا من الحديث عن البكارة والشرف بهذا الوضوح، أم خجلًا من مشاهدة هذا مع فسون؟ أفكر بهذا، وأشعر بتململ فسون الجالسة بجانبي على الكرسي في آن واحد. عندما نام الأطفال الذين يشاهدون الفيلم في أحضان أمهاتهم فيما بعد، وخيّم الصمت على الجالسين في الصفوف الأولى الذين يعلقون على أبطال الفيلم باستمرار، أردت أن أمسك ذراع فسون الذي ألقته على مسند كرسيها.

حوّل الفيلم الثاني خجلي الداخلي إلى ألم عشق هو مشكلة البلد كله والنجوم في السماء. كانت هذه المرة بريهان صاواش السمراء الجميلة أمام أورهان غنجيباي. لا يغضب غنجيباي إزاء الآلام الشديدة، ويتمسك بكرامة بسلاح أثر فينا جميعًا هو التواضع والتصلب، ويلخص موقفه والفيلم بأغنية يستمع إليها محبو الموسيقى بحب:

«كنتِ حبيبتي في زمن ما/ كنتِ شوقي حتى وأنت بجانبي/ الآن وجدتِ

عشقًا آخر/ لتكن السعادة حليفتك/ الهموم لي، والعذاب لي/ والحياة لك، ولتكن لك».

ترى هل كنا نشاهد الفيلم بصمت أكبر لأن الوقت قد تأخر، ونام الأولاد في الأحضان، وتعب الذين يشربون المياه الغازية، ويتقاتلون بالحمص المحمص، وصمت الساخرون في الصفوف الأولى؟ أم لأنهم احترموا ألم أورهان غنجيباي، وتحوله إلى تضحية؟ هل يمكنني أن أفعل الشيء نفسه، وأعيش طالبًا سعادة فسون فقط من دون أن أبهدل نفسي وأتعسها أكثر؟

لم يعد ذراع فسون قريبًا مني. إزاء قول أورهان غنجيباي لحبيبته: «لتكن السعادة لك، والذكريات لي!» صرخ أحد الجالسين في الصفوف الأمامية: «مخبول!»، ولكن قليلًا جدًّا من الأشخاص ضحكوا مؤيدين له. كنا جميعنا صامتين. في تلك الأثناء فكرت بأن قبول الهزيمة بلباقة هي أكثر حكمة ومهارة تعلمتهما الأمة كلها، وأرادت أن تتعلمهما. لعل تصوير الفيلم في شاليه على البوسفور ذكّرني بذكريات الصيف والخريف الماضيين، مما جعل بلعومي ينسد. سفينة بيضاء مشعة في مياه دراغوس تتقدم ببطء نحو أضواء الناس السعداء المتلألئة الذين يقضون صيفهم في الجزر. أشعلت سيجارة، وألقيت رِجلًا على رجل، ونظرت إلى النجوم مندهشًا بجمال العالم. شعرتُ بأن صمت المتفرجين في هذه الساعة المتأخرة من الليل هو ما يمنح العاطفة لهذا الفيلم على الرغم من فظاظته كله. لا يمكن أن يؤثر هذا الفيلم عليّ حين أشاهده وحدي في البيت، ولا يمكن أيضًا أن أتابعه أنا وأمي إلى نهايته. أدرك بأن هناك شعورًا بالأخوة بيني وبين المتفرجين أثناء جلوسي بجوار فسون.

عندما انتهى الفيلم، وأنيرت الأضواء، شاركنا بصمتِ الأمهات اللواتي يحملن أولادهن النائمين في أحضانهن والآباء، ولم نخربه حتى في طريق العودة. عندما أسندت فسون رأسها على صدر زوجها، وغطت بالنوم شاهدت عبر النافذة وأنا أدخن سيجارة الأزقة المظلمة المتدفقة، والمعامل،

وبيوت المخالفات، والشباب الذين يكتبون شعارات اليسار على الجدران، والأشجار التي تبدو هرمة أكثر في الظلام، وعصابات الكلاب الشاردة، وحدائق مشارب الشاي التي تُغلق، ولم ألتفت نهائيًّا نحو فريدون الذي يشرح بما يُشبه الهمس النقط الأساسية للفيلم الذي رأيناه بتفاؤل تام.

ذات ليلة حارة شاهدنا تحت أشجار التوت في سينما إيبك الجديدة المحشورة في الحديقة الطويلة والضيقة بين أزقة نيشان طاش الخلفية وبيوت المخالفات القريبة من قصر الزيزفون فيلمي الميلودراما «عذاب العشق ينتهي بالموت» والذي تمثل فيه النجمة الطفلة نرجس و«اسمعوا صراخ قلبي». أثناء شربنا زجاجات المياه الغازية بين الفيلمين، عندما قال فريدون إن الجريء ذا الشاربين الرفيعين الذي أدى دور المحاسب عديم الشرف صديقه، وإنه مستعد للعب دور كهذا في الفيلم الذي سنصوره، أدركت مدى صعوبة دخولي عالم الإنتاج السينمائي لمجرد أن أكون قرب فسون.

في اللحظة نفسها عرفت من الستارة السوداء لأحد أبواب الشرفات المطلة على حديقة السينما أن ذلك البيت الخشبي القديم هو واحد من بيتي دعارة فخمين في أزقة نيشان طاش الخلفية. اختلاط صيحات عشق الأغنياء الذين يمارسون الجنس مع الفتيات في الداخل في ليالي الصيف مع موسيقى الفيلم، وقرقعة السيوف، والممثلون العميان الذين يصرخون «أرى، أرى» حين تتفتح أعينهم في الميلودراما، يصبح موضوعًا للسخرية بين الفتيات. عندما تمل الفتيات المرحات المرتديات تنورات قصيرة من انتظار الزبائن في بهو البيت الذي كان لتاجر يهودي غني، يصعدن إلى الأعلى، ويشاهدن الفيلم من إحدى شرفات غرف الطابق العلوي الفارغة.

كانت الشرفات المطلة من الجهات الثلاث على سينما حديقة يلضظ الصغيرة في شِهزادة باشِ مثل أجنحة «لا سكالا» تغص بالناس، وهي قريبة جدًّا منا نحن المتفرجين، وبعد أن أنّب الأب الغني ابنه في فيلم «عشقي وكرامتي» العائلي («إذا تزوجت البائعة تلك، فسأحرمك من الميراث،

وأرفض بنوتك!») اختلط ضجيج الشجار الناشب على إحدى الشرفات مع شجار الذين في الفيلم. أما في سينما «تشتشك» الصيفية الملاصقة لسينما تشتشك الشتوية في قرة جمرك، فقد شاهدنا فيلم «الخالة بائعة الكعك» الذي كتب السيناريو له الصهر السيد فريدون، وهو إعداد جديد لرواية بائعة الخبز لكزافييه دومونتبان. ولم تؤدِّ دور البطولة في هذا الفيلم توركان شوراي، بل فاطمة غريك، ولم يسر هذا الوضع أبدًا الرجل البدين بالقميص الداخلي الذي فتح مائدة عرق على الشرفة التي فوقنا مباشرة مع عائلته، وبين حين وحين يقول: «هل تمثل توركان هكذا؟ دعك من هذا، دعك يا أخي، لم تنجح نهائيًّا!». ولأن والد الشرفة قد شاهد الفيلم في الليلة الماضية، يعلن بشكل مهين على كل من في السينما ما سيحدث، وقد أهين الفيلم أكثر بتدخل المتفرجين القائلين: «هس، اسكت لنشاهد الفيلم»، ودخولهم معه بشجار كلامي. حين اندست فسون بفريدون لاعتقادها أن هذا يحزنه، اكتوى قلبي.

لم أكن أريد أن تقع عيني عليها عندما تسند رأسها إلى كتف زوجها أو بطنه، أو تمسك يده وهو يغفو في المقعد الخلفي أو يتدخل في الحديث. وأثناء تقدم السيارة التي يقودها تشتين دائمًا بدقة وهدوء في ليلة صيفية رطبة تُسمع فيها الجداجد، أتفرج على الظلام وأنا أسحب إلى داخلي رائحة زهر العسل والصدإ والغبار للأزقة الخلفية التي تدخل من النافذة المفتوحة. ولكنني عندما أشعر بأن الزوجين قد اندس أحدهما بالآخر، كما حدث ونحن نشاهد فيلمين بوليسيين مستلهمين من الأفلام الأمريكية وأزقة إسطنبول في سينما إنجيرلي في بكر كوي على سبيل المثال، ينقبض قلبي فورًا. أحيانًا السكين لا تفتح فمي مثل بطل فيلم «بين نارين» الحاد الذي يكبت همومه في قلبه. أحيانًا أفكر بأن فسون تسند رأسها على كتف زوجها كي تثير غيرتي، وأدخل في خيالي بصراع غيرة معها. حينئذ أتظاهر بأنني غير منتبه نهائيًّا لتهامس الزوجين الشابين، وأنكفئ بالفرجة على الفيلم كأنني مستمتع جدًّا، ولإثبات هذا أقهقه لشيء يضحك له أكثر المتفرجين حمقًا.

أو أنتبه لتفصيل لم ينتبه إليه أحد على طريقة المثقفين الذين يذهبون إلى الأفلام التركية، ويشعرون بالقلق من الذهاب إليها، وأضحك بصوت خفيف متظاهرًا بأنني لم أستطع ضبط نفسي مستخفًّا بتلك العبثية. ولكنني لم أكن أحب حالتي الساخرة تلك. لم يكن يزعجني وضع فريدون ذراعه على كتفي فسون في لحظة عاطفية ـ وقليلًا ما يفعلها أصلًا ـ ولكن إسناد فسون رأسها على كتف زوجها في تلك اللحظة يقبض قلبي، وأجبر نفسي على التفكير بأنها تفعل هذا من أجل أن تحزنني، وأنها قاسية القلب، وأغضب.

في أحد أيام آب/ أغسطس الخفيفة البرودة والماطرة بعد مرور أولى قوافل اللقالق (لم يخطر ببالي أننا ـ سيبل وأنا ـ عملنا حفل نهاية الصيف في هذه الأيام من السنة الماضية) فوق إسطنبول ذاهبة من البلقان إلى الجنوب نحو إفريقيا، وأثناء مشاهدتنا فيلم «أحببت فتاة فقيرة» في الحديقة الكبيرة المعروفة باسم محل الأحدب (مصيف سينما يومورجوك) داخل سوق بشكطاش، شعرت بأن الزوجين أمسكا بأيدي بعضهما بعضًا من تحت الكنزة التي كانت في حضن فريدون. بعد أن اعتقدت أنني نسيت الموضوع تمامًا، ألقيت رجلًا على رجل كما أفعل في زمن آخر، وفي سينمات أخرى عندما تسيطر علي الغيرة، وألقيت نظرة إليهما بذريعة إشعال سيجارة، وحاولت معرفة ما إذا كان أحدهما ممسكًا بيد الآخر تحت الكنزة. لماذا يفعلان هذا الآن أمامي على الرغم من أنهما يتشاركان بالسرير نفسه، ولديهما فرص كثيرة لملامسة أحدهما الآخر؟

عندما يتعكر مزاجي نتيجة الغيرة، تبدو لي الأفلام التي شاهدناها على مدى أسابيع، وليس هذا الفيلم فقط، سيئة بعيدة عن الأخلاق، وسطحية بخبل، ومنفصلة عن الواقع إلى درجة الشفقة. سئمت من أولئك العشاق الذين يغنون بين حين وحين، والفتيات القرويات المحجبات ولكن شفاههن مصبوغة ويصبحن مغنيات خلال يومين. ولم يعجبني فيلم «الجاويش الصديق» الذي قال فريدون باسمًا إنه مسروق من فيلم فرنسي مقتبس عن الفرسان الثلاثة لدوماس، وأخوة الدم بأنواعهم جميعهًا

الذين يتحرشون كلاميًّا بالفتيات بشكل فظ. شاهدنا «ثلاثي من قاسم باشا»، و«الفدائيون الثلاثة الجريئون» الذين يرتدون قمصانًا سوداء في سينما أرظو في فريكوي التي تعرض ثلاثة أفلام معًا، ولكثرة القص منها لتقصيرها بسبب المنافسة أصبحت مقطعة لا يُفهم منها شيء. وقد تعبت من تلك التضحيات (قالت «هوليا كوتش ييت» في فيلم «تحت الأكاسيا» الذي لم نكمله بسبب المطر: «انتظروا، انتظروا، طانجو بريء، أنا المذنبة التي تبحثون عنها!»)، وتضحية الأم التي تعمل أي شيء من أجل عملية ابنها الأعمى (فيلم «القلب الجريح» الذي شاهدناه في سينما حديقة الشعب في أسكودار، والتي تقدم عرض لاعبي جمباز بين الفيلمين)، والصديقين اللذين يقول أحدهما: «أنت اهرب يا سبعي، أنا أناورهم!» (إرول طاش الذي ادعى فريدون أنه وعده بالتمثيل في فيلمنا)، وأبناء الحي الذين يشيحون بوجوههم عن السعادة بقولهم: «ولكنك عشق صديقي!».. حتى إن الفتيات يقلن في لحظات الحزن واليأس: «أنا بائعة فقيرة، أما أنت ابن صناعي غني!». ومن الرجال الحزانى الذين يدفنون ألم عشقهم في قلوبهم، ويركبون السيارة التي يقودها سائق خاص لرؤية حبيبتهم بذريعة زيارة الأقرباء البعيدين لم تؤثر بي.

حلقات سعادتي المؤقتة بمتعة الجلوس بجوار فسون المنعكسة على فيلم الشاشة وعلى الزحام الذي في السينما، يمكن أن تتحول بحزن شديد السواد فورًا إلى لعنة للعالم كله بتأثير رياح الغيرة. ولكن عالمي كله يمكن أن يتلألأ في لحظة سحرية أحيانًا. أثناء غطس روحي في ظلمة عالم البطل الأعمى البائس، لمست بشرةُ ذراعي ذات لحظة بشرةَ ذراعها المخملية، ولا أحرك ذراعي لكي لا أفقد ذلك الطعم المذهل نتيجة التصادم، وفيما أشاهد الفيلم من دون أن أفهم شيئًا، أشعر بأنها لم تحرك ذراعها أيضًا، وتركتها ملامسة لذراعي، فأعتقد أنني سأفقد وعيي من فرط السعادة. في أثناء متابعتنا مغامرات السائق الذي يحاول أن يجلب فتاة مدللة غنية إلى الطريق الصواب في فيلم «السيدة الصغيرة» في سينما حديقة الصنوبر في

أرنـاءوط كوي، تلامسـت ذراعانـا، والتصقتا على هذا النحـو مرة أخرى. وحين أجج لهيبُ بشـرتها اللهيبَ في بشـرتي، أبدى جسـمي ردة فعل غير متوقعة. وتركت نفسي لطعم ملامسة بشرتها المغيِّبة للوعي من دون مبالاة بقلة أدب جسـمي، فأنيرت الأضواء فجأة، وبدأت اسـتراحة مدتها خمس دقائق. ولأخفي انفعالي المخجل، وضعت كنزتي الكحلية في حضني.

قالت فسـون: «هل نشـتري مياهًا غازية؟». في أغلب الأحيان تذهب مع زوجها لشراء المياه الغازية أو البذر في استراحة الفيلم.

قلت: «ممكن، ولكن انتظري دقيقة. أنا أفكر بشيء».

فكرت بموت جدتي كما كنت أفعل أيام الثانوية لإخفاء قلة أدب جسمي عن زملائي، وجلبت إلى أمام عيني بسرعة مراسم جنازات طفولتي الحقيقية والخياليـة، وتأنيـب والـدي لـي، وجنازتـي، وظلمـة قبـري، وامتـلاء عيني بالتراب.

عندمـا أصبحت في وضع يمكنني من النهوض بعـد نصف دقيقة، قلت: «حسنٌ، لنذهب».

كأنها المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى طول قامتها، وانتصابها أثناء مسيرنا معًا. ما أجمل السـير معها دون خجل وسـط العائلات والكراسـي والأولاد المتراكضيـن وتحـت أنظار الآخريـن... أجد متعة بنظر زحام السـينما إليها، وأسعد بخيال اعتقادهم أننا زوج وزوجة. لهذا السبب قررت في تلك الأثناء، وفي تلك اللحظة السعيدة فورًا أن ذلك المسير القصير يعادل كل الآلام التي عانيت منها، وأنه أحد لحظات حياتي السعيدة والخارقة والخاصة.

لـم يكن هنـاك دور أمـام بائع الميـاه الغازية كمـا جرت العـادة، وتجمع الرجال والشـباب الذيـن يريدون مياهًا غازية كلهم أمامـه. ونحن بدأنا ننتظر من خلفهم.

فيما بعد سألتْ فسون: «ما الأمر الجدي الذي كنت تفكر فيه؟».

قلت: «أحببت الفيلم. كنت أفكر بسبب محبتي لهذه الأفلام التي كنت أضحك منها، ولا أهتم بها قديمًا. كأنني كنت سأجيب عن هذا السؤال لو استجمعت أفكاري في تلك اللحظة».

«هل تعجبك هذه الأفلام حقيقة؟ أم أنك تقول هذا من أجل المجيء معنا إلى السينما؟».

«الأمر ليس كذلك بالتأكيد. أنا سعيد جدًّا. في غالبية الأفلام التي رأيتها هذا الصيف ثمة جانب أثّر في قلبي، وسلوان مناسب تمامًا لآلامي».

قالت فسون كأنها حزينة لحالي الحالمة: «في الحقيقة أن الحياة ليست بسيطة كما في هذه الأفلام. ولكنني ألهو. ومسرورة من مجيئك معنا».

صمتنا لحظة. كنت أود القول: «يكفيني الجلوس بجانبك». هل هي مصادفة استناد ذراعينا أحدهما إلى الآخر فترة طويلة؟ شعرت بألم أن الكلمات المخبوءة في داخلي تريد أن تخرج، ولكن زحام السينما، والعالم الذي نعيشه لا يسمح بهذا. سمعنا من مكبرات الصوت المعلقة على الأشجار أغنية أورهان غنجيباي التي سمعناها قبل شهرين في السينما الواقعة على سفوح بندك ذات الإطلالة الجميلة. جمعتْ كلمات وألحان أغنية: «كنت حبيبتي في زمن ما..». ذكريات الصيف كلها، ومررتها من أمام عيني كصور. دبت الحياة في كل اللحظات الفريدة التي قضيتها في خمارات البوسفور برأس سكران وأنا أنظر إلى فسون والبحر ذي البدر.

قلت: «كنت سعيدًا جدًّا في هذا الصيف. هذبتني هذه الأفلام. في الحقيقة أن المهم في الحياة ليس أن يكون الإنسان غنيًّا... للأسف إنها الآلام... والعذاب... أليس كذلك؟».

قالت جميلتي التي رأيت غمامة على وجهها: «فيلم حول الحياة والآلام... يجب أن يكون صادقًا».

حين اندفع أحد الأولاد الذين يفورون المياه الغازية بعضهم على بعض

نحو فسون بحركة قاسية، أمسكت فسون من خصرها، وسحبتها نحوي. فار عليها قليل من المياه الغازية.

قال رجل متوسط العمر: «حمير أولاد حمير!» ونزل بصفعة على رقبة أحد الأولاد من الخلف. التفت ناحيتنا طالبًا موافقتنا على الأمر، ووقعت عينه على يدي فوق خصر فسون.

لم نكن في حديقة السينما قريبين بعضنا من بعض جسديًّا فقط، بل وروحيًّا أيضًا! خافت فسون من نظراتي، فابتعدت، ودخلت بين الأولاد، ومدت نفسها إلى الطست الموضوعة فيه زجاجات المياه الغازية، وجرحت قلبي.

طلبت فسون فتح اثنتين، وقالت: «لنشتر واحدة لتشتين أفندي أيضًا».

دفعت النقود، وأخذت زجاجة مياه غازية لتشتين الذي لا يجلس معنا في قسم العائلات، بل في قسم الرجال.

قال مبتسمًا: «عذبتم أنفسكم سيد كمال».

حين عدت، وجدت ولدًا ينظر بإعجاب إلى فسون وهي تشرب المياه الغازية من الزجاجة. اقترب الولد منا بجرأة.

«أختي، هل أنت فنانة؟».

«لا».

لأذكّر بأن هذا السؤال كان يطرح في تلك السنوات على فتاة وجهها مزين ومعتنية بنفسها وتلبس ألبسة كاشفة قليلًا، ولا تنتمي إلى الطبقة العليا بمعنى: «أنت جميلة جدًّا» وهو رائج بين محبي النساء، وقد نسي اليوم. ولكن سؤال ولد بعمر عشر سنوات لم يكن بهذا المعنى. ألح:

«ولكنني رأيتك في أحد الأفلام».

قالت فسون: «في أي منها؟».

«ارتديت هذا الثوب في فيلم «فراشات الخريف»..».

قالت فسون مسرورة من الخيال وهي تبتسم: «في أي دور كنت؟».

ولكن الولد أدرك أنه مخطئ، فصمت.

«لأسأل زوجي الآن، فهو يعرف كل الأفلام».

أحزنني قولها: «زوجي»، وبحثها عنه وسط الزحام الجالس على الكراسي، وإيجادها له. وفهم الولد أنني لست زوج فسون، ولا بد أنكم فهمتم هذا. ولكنني على الرغم من هذا كبتُّ حزني، وقلت بسعادة قربي منها، وشربي معها المياه الغازية: «فهم الولد على الأغلب أننا سنصور فيلمًا قريبًا، وستكونين نجمة..».

«أي أنك ستدفع نقودًا أخيرًا، وسيصور هذا الفيلم؟ عدم المؤاخذة أخي، أصبح فريدون يخجل، فلا يفتح الموضوع، ولكننا تعبنا من مماطلتك».

قلت: «بجد؟» وتسمّرت.

٥٣ - لا فائدة لأحد من ألم قلب مكسور وقطيعة

السكين لم تفتح فمي حتى نهاية السهرة. لأن ما عشته في تلك الأثناء يسمى في كثير من اللغات «كسر القلب» فقد عرضت قلبًا خزفيًّا مكسورًا في المتحف ليعبر للزوار عن حالتي بشكل أفضل كما أعتقد. لم أعد أعيش ألم العشق على شكل ارتباك ويأس وغضب كما كنت أعيشه في الصيف الماضي. أصبح الألم يسيل في دمي بلزوجة أكثف، لأن رؤيتي لفسون كل يوم أو يومين خففت من اضطرابي، وعودتني على عادات جديدة من أجل التعايش مع الألم الجديد، ورسخت هذه العادات الجديدة في روحي طوال الصيف، وحولتني إلى إنسان آخر. أقضي غالبية أيامي بكبت الألم، أو التغطية عليه، أو التظاهر بعدم وجوده، وليس بمحاربته.

مع هدوء ألمي حل محله شيء آخر هو ألم المهانة. كانت فسون حريصة على ألا أتحمل هذا الألم، وكنت أعتقد أنها تبتعد عن الموضوعات الخطيرة التي تجرح كرامتي. ولكنني فهمت أنني لن أستطيع التصرف كما لو أن شيئًا لم يحدث بعد كلماتها الفظة الأخيرة.

نجحت بداية باعتبار أن فسون لم تقل تلك الكلمات (كأنني أصم) التي تتردد في عقلي دون توقف («ستدفع النقود أخيرًا... ولكننا تعبنا»). ولكن الكلمة التي أتمتم بها: («بجد؟») دليل على سماعي تلك العبارة. لهذا السبب لم أكن أستطيع التصرف كما لو أن شيئًا لم يكن. أساسًا يفهم فورًا من وجهي العابس أنني انزعجت (هذا يعني أنني منتبه إلى مهانتي). أثناء تكرار الجملة المهينة في عقلي، عدت إلى كرسيي وبيدي زجاجة المياه الغازية وكأن شيئًا لم يكن. لم يكن الانتباه إلى العبارة المهينة هو المهم، بل ما هو مهين أكثر انتباه فسون إلى أنها مهينة، وانتباهها إلى أنني حزنت.

من أجل التصرف كأن شيئًا لم يكن، ضغطت على نفسي بكل قوتي لكي أفكر بأشياء عادية. وكما كنت أفعل في طفولتي ويفاعتي حين تسيطر عليّ موضوعات ميتافيزيقية، وأكاد أنفجر من الضجر، أذكر أنني أطرح على نفسي السؤال الآتي: «بماذا أفكر الآن؟ وأفكر بما أفكر فيه!». بعد أن كررت هذه الكلمات كثيرًا في عقلي، التفتُّ إلى فسون، وقلت: «يريدون الفوارغ». وأخذت الزجاجة الفارغة من يدها، ونهضت لأعيدها. كانت الزجاجة الأخرى بيدي الثانية. لم يكن هناك أحد يرى أنني أفرغت مياه زجاجتي الغازية بزجاجة فسون الفارغة، وأعدت زجاجتي الفارغة إلى بائع المياه الغازية، وعدت حاملًا زجاجة فسون التي أعرضها هنا، وجلست.

كانت فسون تتحدث مع زوجها، فلم ينتبها. وأنا لم أنتبه إلى الفيلم على الشاشة حتى النهاية. لأنني أحمل بيدي المرتجفتين الآن الزجاجة التي لمست شفتي فسون. لا أريد أن أفكر بشيء آخر، وأريد أن أعود إلى أشيائي.

حافظت على هذه الزجاجة أعوامًا بجانب سرير شقة بناء مرحمة. سيتذكر زوار المتحف النابهون من شكل الزجاجة أنها زجاجة مياه ملتم الغازية التي طرحت في الأسواق مع بداية قصتنا، ولكن ما بداخلها ليس مياه ملتم الغازية التي يباهي بطعمها زعيم. لقد ظهر كثير من التقليد السيئ لأول مياه غازية وطنية توزع على نصف تركيا. يجمع قراصنة إنتاج المياه الغازية زجاجات ملتم الفارغة من البقاليات، ويملئونها بمياه غازية ذات صباغ رخيص في ورش صغيرة ومحلية تحت الأرض، ويطرحونها في الأسواق. في طريق العودة رآها السيد الصهر فريدون الذي لا علم له بما جرى بيني وبين فسون: «أخي، مياه ملتم الغازية هذه جيدة جدًّا، أليس كذلك؟». شرحت له أن هذه المياه ليست «أصلية»، وفهم الوضع فورًا.

«توجد ورشة تعبئة سرية خلف بكر كوي. تُملأ هناك جرر آي غاز بغاز رخيص. نحن اشترينا منها مرة. صدقني يا أخي كمال إنها تشعل أفضل من الأصلية».

لمست الزجاجة بشفتي بانتباه، وقلت: «وهذه طعمها أفضل أيضًا».

أثناء تقدم السيارة مهتزة في أزقة خلفية صامتة مرصوفة بالحجارة تنيرها مصابيح شاحبة، كانت ظلال الأشجار والأوراق على الزجاج الأمامي تتحرك ببطء كما في الأحلام. أنا أجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق تشتين، وأنتبه إلى أن ألم جرح قلبي قد رسخ في داخلي، ولا ألتفت لأنظر إلى الخلف نهائيًّا. بدأنا نتحدث عن الأفلام كما في كل مرة. فتح تشتين أفندي الموضوع، ولعل السبب هو عدم حبه للصمت، وقال إن بعض أجزاء الفيلم غير مقنعة نهائيًّا. لا يمكن لسائق خاص إسطنبولي أن يؤنب سيدته ربة عمله حتى بطريقة مهذبة.

قال الصهر فريدون: «ولكن هذا ليس سائقًا، إنه الممثل الشهير آيهان إشق.».

قال تشتين: «حسن يا سيدي، وهذا ما يجعلني أعجب به كثيرًا. لأن فيه

جانبا تعليميا... أنا أحببت هذه الأفلام لأنها جعلتني ألهو في هذا الصيف، إضافة إلى أنها أعطتني دروسًا في الحياة».

كنا ـ فسون وأنا ـ صامتين. ما زاد ألمي عبارة تشتين أفندي «هذا الصيف». ذكرتني هذه العبارة بانتهاء ليالي الصيف الجميلة، ومشاهدة الأفلام ـ فسون وأنا ـ في سينمات الحدائق، والسعادة بالجلوس متجاورين تحت النجوم. كنت أريد أن أتحدث حديثًا عفويًّا لكي لا أُشعر فسون بألمي، ولكن السكين لا تفتح فمي، وأشعر بأنني دخلت مرحلة قطيعة ستستمر طويلًا جدًّا.

لم أعد أريد رؤية فسون. ولا أجد في نفسي رغبة برؤية من تريد أن أدعم زوجها بالفيلم الذي سيصوره، أي رؤية من تصاحبني من أجل النقود. فوق هذا لم تعد تخفي عني أنها تقابلني من أجل النقود. كنت أشعر بأنني أستطيع الانفصال عنها بسهولة، لأن واحدة من هذا النوع لا تجذبني.

بعد أن أقليتهما إلى بيتهما بالسيارة، لم أبذل جهدًا من أجل موعد السينما في الليلة التالية. ولم أتصل بهما على مدى ثلاثة أيام. في هذه الأثناء بدأتُ أُظهر في جزء من عقلي ـ يكبر باستمرار ـ نوعًا مختلفًا من القطيعة. تعتمد هذه القطيعة التي أسميها «قطيعة دبلوماسية» على الاضطرار أكثر من الاعتماد على جرح القلب: يجب أن نعاقب من يتصرف معنا تصرفًا خاطئًا من أجل أن نحمي كرامتنا لكي لا يعيد الأمر مرة أخرى. «العقوبة» التي عاقبت بها فسون هي بالتأكيد عدم دفع نقود الفيلم لزوجها، وبالتالي تبديد أحلامها بأن تكون نجمة سينمائية. كنت أقول لنفسي: «ليفكر بما يحدث إذا لم يُصور الفيلم!»... وهكذا عشت قطيعتي داخليًّا في البداية، ولكنني بدأت أتخيل كيف تكوي العقوبة قلبها بالتفصيل. وعلى الرغم من تخيلي بشكل جيد جدًّا أن نتيجة عدم لقائي بهم مادية، كنت أتخيل بأن فسون حزينة لأنها لن تراني، وليس لأن الفيلم لن يُصور. ولعل هذه هي الحقيقة وليست خديعة.

اعتبارًا من اليوم التالي بدأت متعة تخيل فسون نادمة تتقدم على القطيعة الحقيقية. أثناء تناولي العشاء مع والدتي في سعادية مساء اليوم التالي، شعرت بأنني مشتاق لفسون، وأن قطيعتي الداخلية قد انتهت منذ فترة، وأن قطيعتي لا تحزن سوى فسون، وستكون عقوبة لها، ولهذا ستستمر. عندما حاولت أن أضع نفسي مكان فسون أثناء تناولي الطعام مع والدتي، بدأت أسوق منطقًا واقعيًّا جدًّا وظالمًا مكانها. أحاول استنتاج أنني لو كنت فتاة جميلة وشابة مثلها، فإن كسر قلب المنتج الغني بعبارة سخيفة لحظة اقتناص فرصة النجومية في الفيلم الذي سيصوره زوجي، سيجعلني نادمة جدًّا، وأتألم بشدة. ولكن أسئلة أمي («لماذا لم تنه اللحمة، وتركتها؟ هل ستخرج مساء؟ لم يبق للصيف متعة، لنعد إلى نيشان طاش غدًا دون انتظار آخر الصيف. كم كأسًا صارت بهذه؟») تعيق وضع نفسي مكان فسون.

أثناء محاولة استنتاج ما تفكر فيه فسون برأس سكران، اكتشفت شيئًا آخر: في الحقيقة أنني منذ سماعي عبارتها البشعة (ستدفع النقود أخيرًا...)، كانت قطيعتي لها «دبلوماسية» بهدف الانتقام. أريد أن أنتقم من فسون لما فعلاه معي، ولأنني خفت وخجلت من هذه القطيعة، أقنعت نفسي بأنني «لا أريد أن أراها». هذه الذريعة مشرّفة أكثر، وتمنحني فرصة تبرئة نفسي أثناء انتقامي. قطيعتي الداخلية في الحقيقة لم تكن داخلية وحقيقية، وكنت أبالغ بجرح القلب من أجل منح انتقامي عمقًا بريئًا. حين فهمت هذا، قررت أن أعفو عن فسون، وأن أراها. وعندما قررت أن أراها، بدأت أرى كل شيء إيجابيًّا. ولكنني يجب أن أفكر كثيرًا، وأخدع نفسي من أجل أن أذهب إليهما ثانية.

بعد طعام العشاء خرجت إلى شارع بغداد الذي كنت أذرعه رواحًا ومجيئًا مع أصدقائي قبل عشرة أعوام، وسرت على رصيف الشارع العريض، وحاولت بكل قوتي أن أضع نفسي مكان فسون من أجل تفسير ما يعنيه لها تراجعي عن معاقبتها. بعد قليل قدح برق في عقلي: واحدة ذكية وجميلة وتعرف ما تريد، يمكنها إذا بذلت قليلًا من الجهد أن تجد لزوجها منتجًا

آخر يدعمه. مر في داخلي ألم غيرة وندم حارق. في اليوم التالي أرسلت تشتين إلى بشكطاش ليعرف ما يعرض في سينماتها الصيفية، وعندما قررت أن هناك «فيلمًا مهمًّا علينا أن نشاهده»، اتصلت بهما. عندما سمعت رنين هاتف بيت فسون من سماعة الهاتف التي وضعتها على أذني في غرفتي في صاطصاط، تسرعت ضربات قلبي، وفهمت أنني لن أستطيع التكلم بشكل طبيعي كائن من كان الذي يرد على الهاتف.

ظهر هذا التصنع نتيجة حشري بين مقاطعتي الداخلية التي ما زلت أخبئها في مكان ما من روحي من جهة، والمقاطعة «الدبلوماسية» التي أشعر بأنني مضطر إليها طالما أن فسون لم تعتذر من جهة أخرى. وهكذا أمضيت آخر أمسيّات الصيف في سينمات الحدائق مع فسون وزوجها دون مزيد من اللهو والكلام، وأنا أقلّد المُقاطِع. عبوسي انتقل إلى فريدون بالطبع. أغضب من فسون لأنها أجبرتني على تقليد المُقاطِع حتى في الأوقات التي لا أرغب أن أبدو فيها مقاطعًا، وحينئذ أبدو مقاطعًا من كل قلبي. بعد فترة بدأت شخصيتي الثانية هذه التي اخترتها عندما أكون مع فسون تحل محل شخصيتي الأساسية تدريجيًّا. يجب أن أكون في تلك الفترة قد شعرت بأن الحياة بالنسبة إلى غالبية الناس ليست عيش السعادة بصدق، بل تمثيل الأدوار بشكل مستمر في ساحة ضيقة بنيت على الضغوط والعقوبات والكذب الذي يجب أن يُصدق.

ولكن الأفلام التركية التي ذهبنا إليها كلها تشير إلى أن الخروج من «الدنيا الكاذبة» ممكن بأن يكون الإنسان على «طبيعته». ولكنني لا أؤمن بالأفلام التي نشاهدها في الحدائق التي خف روادها، ولا أستطيع أن أعطي نفسي لذلك العالم العاطفي. كانت سينما يلضظ في بشكطاش خاوية تقريبًا في آخر الصيف، تركت بيني وبين فسون كرسيًّا فارغًا لأن جلوسي بجانبها سيبدو غريبًا، وتمثيلي القطيعة مع الريح الباردة، يتحول في داخلي إلى ندم كالجليد. حين رأينا أولادًا عابسين بألبسة الختان على الأسرَّة، وبجوارهم خالات محجبات في سينما كلوب في فريكوي

التي ذهبنا إليها بعد أربعة أيام، أدركنا أن البلدية نظمت فيها حفل ختان للأولاد الفقراء بمشاركة لاعبي اللياقة البدنية والخفة والراقصات، وفرحنا. ولكننا لم نلبِّ دعوة رئيس البلدية البدين بالشاربين الشبيهين بالفرشاة حين رآنا فرحين لمجرد أننا ـ فسون وأنا ـ لم نستطع الخروج من حالة تقليد المقاطعين. كان ردها بتقليد المقاطعة على مقاطعتي، وقيامها بهذا بحيث لا ينتبه زوجها يخرجني عن طوري.

نجحت بعدم الاتصال بهما لستة أيام. لا أغضب من عدم اتصال فسون، ولكنني أغضب من عدم اتصال زوجها. إذا كان الفيلم لن ينتج، فبأي ذريعة سأتصل بهما؟ إذا أردت رؤيتهما، فعليّ أن أدفع لهما، وأنا أرى هذه الحقيقة التي لا تحتمل، ولا أستطيع تقبلها.

أخيرًا ذهبنا إلى سينما حديقة ماجستيك في بنغالطِ في مطلع تشرين الأول/ أكتوبر. كان الجو حارًّا، والسينما ليست خاوية. كنت آمل بأن تمر أمسية الصيف الأخيرة هذه بشكل جميل، وتنتهي قطيعتنا. ولكن أمرًا حدث قبل أن نجلس على كراسينا: قابلت والدة صديق طفولتي السيدة جميلة. إنها في الوقت نفسه صديقة والدتي بلعب الورق، ويبدو أنها فقرت مع تقدمها بالسن. ومثل الأغنياء السابقين الذين يشعرون بالخجل والذنب لأنهم فقروا، تبادلنا النظر بمعنى: «ما عملك هنا!».

قالت السيدة جميلة بنبرة الاعتراف: «أردت رؤية بيت السيدة مُكَرَّم، فأتيت».

لم أفهم شيئًا كثيرًا. فكرت بأن هناك واحدة تدعى السيدة مكرم تعيش في إحدى الدور القديمة التي في الأسفل، وتطل على الحديقة، وجلست بجانب السيدة جميلة من أجل رؤية هذا البيت. جلست فسون وزوجها أمامنا على مبعدة ستة أو سبعة صفوف. فهمت بعدما بدأ الفيلم أن بيت السيدة مُكرّم هو البيت الذي في الفيلم. كان هذا قصرا شهيرا لعائلة باشا في إرَنكوي، كنت أمر في طفولتي من أمامه. ولأن أصحاب القصر الخشبي القديم سقطوا

فقراء، بدءوا يؤجرونه لقطاع السينما كموقع تصوير كما يفعل عدد من أبناء الباشاوات القدماء الذين تعرفهم أمي. لم تكن نية السيدة جميلة مشاهدة فيلم «أشد إيلامًا من العشق أيضًا»، والبكاء، بل رؤية غرف دار الباشا القديمة الخشبية وحفرها البارز الذي يؤدي الأغنياء الجدد ذوو الأرواح الشريرة دورًا فيه. صار عليّ أن أنهض من جوار السيدة جميلة، وأجلس بجوار فسون. ولكنني لم أكن أستطيع فعل هذا، فأنا أعاني من خجل غريب. لا أريد أن أعرف سبب خجلي مثل شاب لا يريد أن يجلس مع والده ووالدته، بل في مكان منفصل عنهما.

تدخّل هذا الخجل الذي لم أرد معرفة سببه حتى بعد سنوات مع مقاطعتي. بعد انتهاء الفيلم، اندسست بفسون وزوجها اللذين رمقتهما السيدة جميلة بدقة. كانت فسون عابسة أكثر من أي وقت آخر، وأنا أيضًا لم يكن لدي ما أعمله سوى تقليد المقاطعة. في طريق العودة، فكرت بأن أمازح مزاحًا عبثيًّا، وأن أطلق قهقهة جنونية، وأن أسكر لكي أخرج من دور المقاطع هذا، ولكنني لم أستطع فعل أي منها.

لم أتصل بهما لخمسة أيام. ضبطت نفسي وأنا أتخيل بمتعة ولمدة طويلة أن فسون نادمة جدًّا، وهي على وشك التوسل إليّ. كنت أجيب على كلمات فسون المتوسلة، وقولها إنها المذنبة في كل شيء، ولا أصدق ذنوبها التي تعددها لي واحدا تلو الآخر، وكثيرًا ما يسيطر علي غضب من تعرضي للظلم.

الأيام التي تمر دون رؤيتها تغدو أصعب علي بالتدريج. بدأت روحي تشعر ثانية بلون ظلام الاضطراب الهدام والعميق الذي اضطررت لتحمله على مدى سنة ونصف السنة، وقوامه. كنت أخشى بشدة ارتكاب خطأ، واحتمال عقوبتي بعدم رؤية فسون نهائيًّا. علي أن أخفي عن فسون قطيعتي هذه لمجرد هذا الاحتمال فقط. وهذا ما يحول قطيعتي إلى عقوبة وتعذيب وانطوائية، وأعاقب نفسي فقط. لا فائدة لأحد من قطيعتي وجرح قلبي.

ذات مساء أسير فيه وحيدًا تحت أوراق الخريف الصفراء المتساقطة في نيشان طاش، أدركت أن الحل الأسعد وبالتالي الأكثر أملًا هو رؤية فسون ثلاث أو أربع مرات (مرتين على الأقل) في الأسبوع. لا يمكنني أن أعود إلى حياتي العادية إلا بعدم تأجيج اضطراب الحب الهدام في داخلي. أصبحتُ أعرف أن الألم الناجم عن عدم رؤيتي فسون نتيجة عقوبتها لي، أو بسبب العقوبة التي أعاقبها لها نتيجة مقاطعتي لم يعد يُحتمل. إذا كنت لا أريد أن أعيش ما عشته في السنة الماضية، فعلي أن أقدّم لفسون قرطي والدي اللؤلؤ كما وعدتها في إحدى الرسائل التي أرسلتها لها مع جيدا.

عندما خرجت في اليوم التالي إلى الغداء في بيه أوغلو، كان قرطا اللؤلؤ بالعلبة المخملية في جيبي. كان يوم الثلاثاء ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر في إسطنبول يومًا مشمسًا لذيذًا متلألئًا. الواجهات التي تضج بالألوان محاطة بالضوء. أثناء تناولي الغداء عند الحاج صالح، كنت صادقًا مع نفسي: لم أخفِ عن نفسي أنني أستطيع النزول من هنا إذا «خطر ببالي» إلى تشوقور جمعة، ولقائي بالعمة نسيبة. هناك بين الطاولة التي أجلس إليها وتشوقور جمعة ست أو سبع دقائق. ألقيتُ نظرة أثناء مروري، هناك عرض جديد في سينما سراي في الساعة ٤٥, ١٣. إذا دخلتُ إلى السينما، وجلستُ، سأنسى كل شيء في الظلمة التي تفوح برائحة العفن والرطوبة، أو على الأقل أدخل إلى عالم مختلف تمامًا لمدة، وأرتاح. ولكنني في الساعة ٤٠, ١٣ كنت قد دفعت الحساب، ونهضت، ونزلت إلى تشوقور جمعة. كان طعام الغداء في معدتي، والشمس على رقبتي من الخلف، والغرام في عقلي، والارتباك في روحي، والألم في معدتي.

نزلت العمة نسيبة إلى الأسفل، وفتحت الباب.

قلت: «لا، لن أصعد إلى الأعلى عمة نسيبة». أخرجت من جيبي علبة قرطي اللؤلؤ. «هذان لفسون... إنهما هدية والدي... قلت أوصلهما أثناء مروري».

«لأعد لك قهوة بسرعة يا سيد كمال، لدي ما أقوله لك قبل أن تأتي فسون».

قالت هذا بجو مفعم بالأسرار جعلني أصعد خلفها بسرعة من دون دلال. كان البيت مضيئًا، والكناري ليمون ينقر في القفص مسرورًا في ضوء الشمس. رأيت أدوات الخياطة العائدة للعمة نسيبة والمقصات وقطع القماش منثورة على البهو كله.

«لا أذهب في هذه الفترة إلى البيوت للخياطة، ولكنهم ألحوا علي كثيرًا لأنجز ثوب السهرة هذا. وفسون تساعدني، وستأتي بعد قليل».

دخلت الموضوع أثناء تقديم القهوة فورًا، وقالت: «أعرف أن هناك قطيعةً وكسر قلب. سيد كمال، ابنتي عانت كثيرًا من الألم، وجُرحت كثيرًا، ستصبر على طباعها، وتراضيها..».

قلت بجو العارف جدًّا: «طبعًا، طبعًا..».

«أنتم تعرفون كيف تفعلون هذا أفضل مني... أرضوها، وافعلوا ما تريده، ولتخرج من هذا الطريق الخاطئ بأسرع ما يمكن».

نظرت نظرة متسائلة حول الطريق الخاطئ الذي دخلته فسون، ورفعت حاجبي.

قالت: «عانت لأشهر قبل خطوبتكم، ويوم الخطوبة، وخصوصا بعد الخطوبة، وبكت كثيرًا. انقطعت عن الطعام والشراب، وعن المشي، وعن كل شيء. وكان هذا الولد يأتي كل يوم، ويخفف عنها».

«فريدون؟».

«نعم، ولكن لا تشغل بالك، لا يعرف عنك شيئًا».

قالت إن فسون لم تعِ ما تفعله نتيجة الألم والحزن، وإن السيد طارق هو الذي طرح فكرة تزويجها، وفي النهاية وافق «هذا الولد» على الزواج منها. فريدون يعرف فسون منذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها. وكان عاشقًا

بقوة لفسون، ولكن فسون لم تبالِ به، وحتى إنها عذبته كثيرًا بعدم اهتمامها. الآن لم يعد فريدون عاشقًا لفسون إلى هذه الدرجة (رفعت حاجبيها بشكل خفيف كأنها تقول: «هذا خبر جيد بالنسبة إليك».). وفريدون لا يجلس في البيت مساء، وعقله مشغول بأصدقائه السينمائيين. كأنه لم يترك بيت الطلبة في قادرغة من أجل أن يتزوج فسون، بل من أن يكون قريبًا من مقاهي السينمائيين في بيه أوغلو. بالطبع أنهما اندمجا بشكل جيد مثل كل الشباب الأصحاء المتزوجين وفق أسلوب الخاطبة، ولكن عليّ ألا آخذ أمرهما مأخذ الجد. بعد ما حصل لها، فكروا بأن الصواب هو تزويجها، وليسوا نادمين...

ودون أن أتردد حول «ما حصل لها» إن كان عشق فسون لي، أو سوء امتحان الدخول إلى الجامعة، أشعرتني بنظراتها بشكل لا يدع مجالًا للشك، وبشيء من متعة العقوبة أن الأمر يتعلق بمضاجعتها لي قبل الزواج. إذا تزوجت فسون من أحد، فستتخلص من هذا العيب، وبالطبع أنا مسئول عن هذا الوضع!

قالت العمة نسيبة: «فريدون يعرف، كما نعرف جميعًا أنه لا يفيد بشيء، ولن يستطيع تقديم حياة جيدة لها. ولكنه زوج فسون. إنه ولد صادق وحسن النية يريد أن يصنع من زوجته نجمة سينما! إذا كنت تحب ابنتي، فادعمها. فكرنا أن الأفضل هو تزويج فسون لفريدون وليس لغني مسن يهينها لأنها معيبة. أنت أيضًا احمها يا كمال!».

«بالطبع يا عمة نسيبة».

قالت إن فسون «ستعاقبنا معًا عقوبات كبيرة» (ابتسمت لي بشكل خفيف) فيما لو عرفت أنها باحت لي بأسرار العائلة. «بالطبع أن فسون تأثرت بفسخ خطوبتك على الآنسة سيبل، وحزنك الكبير عليها يا كمال. هذا الولد السينمائي قلبه ذهب، ولكن فسون ستدرك قريبًا أنه فاشل جدًّا، وتتركه... بالطبع إذا وقفت دائمًا بجانبها، تمنحها ثقة..».

قلت: «ما أريده هو تعويض الأذى الذي تسبّبت به، وعلاج القلب الذي كسرته يا عمة نسيبة. رجائي أن تساعديني بكسب حب فسون مرة أخرى».
وأخرجت علبة قرطي والدي، وأعطيتها لها، وقلت: «هذان لفسون».

أخذت العلبة، وقالت: «شكرًا..».

«عمة نسيبة... عندما جئت إلى هنا أول مرة، جلبتُ لها قرطها... ولكنه لم يقع بيدها... هل لديك علم به؟».

«ليس لدي علم نهائيًّا. أنت قدم لها هديتها إن أردت».

«لا، لا... أصلًا لم يكن ذلك القرط هدية، إنه لها».

قالت العمة نسيبة: «أي قرط؟». وحين رأت أنني متردد قليلًا، قالت: «ليت كل شيء يحل بقرطين... أثناء مرض فسون، جاء فريدون إلينا. وتأبط ابنتي من ذراعها عندما لم يكن لديها حال للمشي، واصطحبها إلى السينما في بيه أوغلو. جلس معنا كل مساء، وتناول العشاء، وشاهد التلفاز، واهتم بفسون قبل أن يذهب إلى أصدقائه السينمائيين والمقاهي..».

«أنا يمكنني أن أفعل أكثر من هذا كله يا عمة نسيبة».

«إن شاء الله يا سيد كمال. ننتظرك في الأمسيّة، سلم على والدتك، ولكن لا تحزنها».

عندما ألقت نظرة نحو الباب بإيماء ضرورة ذهابي قبل أن تلتقطني فسون، خرجت من البيت بطمأنينة، وأثناء مسيري في الطلعة من تشوقور جمعة إلى بيه أوغلو، أدركت بسعادة أن قطيعتي قد انتهت تمامًا.

٥٤ ـ الزمن

ذهبت إلى تشوقور جمعة لرؤية فسون، وتناول العشاء على مدى سبعة أعوام وعشرة أشهر. بما أنني ذهبت أول مرة بعد قول العمة نسيبة: «ننتظرك

في الأمسيّة» بأحد عشر يومًا، يوم السبت في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٦، وكان آخر عشاء تناولناه ـ فسون والعمة نسيبة وأنا ـ في تشوقور جمعة يوم الأحد في ٢٦ آب/ أغسطس ١٩٨٤، فقد مر ٢٨٦٤ يومًا. في الأربعمائة وتسعة أسابيع التي سأروي قصتها، تناولتُ عندهم ١٥٩٣ عشاء بحسب مدونة ملاحظاتي. هذا يعني أن المعدل الأسبوعي أربع مرات، ولكن يجب ألا يُعتقد بأنني ذهبت في أربعة أيام من كل أسبوع إلى تشوقور جمعة دون أي خلل.

في بعض المراحل كنت أراهم كل يوم، وفي مراحل أخرى، سيطرت علي القطعية والغضب، أو اعتقدت بأنني أستطيع نسيان فسون، فتصبح زياراتي متباعدة. ولكنني لم أقض شريحة زمنية من دون فسون (أقصد من دون رؤية فسون) زادت على عشرة أيام. ولأن ألمي يصعد إلى حالة اضطراب لا تحتمل كما في خريف ١٩٧٥ بعد عشرة أيام، يمكنني القول إنني كنت أرى عائلة فسون (أريد أن أذكر العائلة بكنيتها: «كسكين») بشكل منتظم على مدى سبعة الأعوام ونيف هذه. وهي كانت تنتظرني بشكل منتظم على العشاء، ودائمًا تتوقع مجيئي بشكل صحيح. وخلال فترة قصيرة اعتاد كل منا بشكل ما على وقت زيارتي للعشاء، وانتظارهم لي.

لم يكن آل كسكين يدعونني إلى العشاء، لأنهم يعدّون مكاني على الطاولة بشكل مستمر. وهذا ما كان يقودني كل مساء إلى إجراء محاسبة داخلية حول رؤيتي أو عدم رؤيتي لهم. أحيانًا أفكر ما إذا كنت سأزعجهم أكثر فيما لو ذهبت إليهم، وإذا لم أذهب يشغل بالي بأن يكون تصرفي «عدم لباقة»، أو تفسير غيابي بشكل سلبي، هذا غير ألمي نتيجة حرماني من رؤية فسون في ذلك المساء.

زياراتي الأولى لبيت تشوقور جمعة مرت بهذه الهموم، ومحاولاتي الاعتياد على جو البيت، وتقابل عيني بعيني فسون، والانسجام مع الجو داخل البيت. أريد أن أقول لفسون بنظراتي عندما تلتقي بنظراتها: «ها أنا

ذا هنا». كان هذا هو الشعور الأطغى على زياراتي الأولى. في بضع الدقائق الأولى أهنئ نفسي بمجيئي وتغلبي على القلق والخجل في عقلي. إذا كان وجودي بجانب فسون يسعدني كل هذه السعادة، فلماذا أوجد لنفسي كل هذه الهموم؟ ها هي ذي فسون تنظر بشكل لذيذ كأنها مسرورة جدًّا من مجيئي، وكل شيء طبيعي.

في زياراتي الأولى نادرًا ما بقينا وحدنا للأسف. على الرغم من هذا، في كل مرة كنت أجد الفرصة للهمس لها: «اشتقت لك كثيرًا!»، «ما أشد شوقي لك!»، وترد فسون بعينيها بشكل يظهر امتنانها من عبارتي هذه. لم يكن هناك وسطٌ يسمح بتأسيس قرب أكبر.

أود أن أشرح للقراء المستغربين من زياراتي على مدى ثمانية أعوام لعائلة فسون (لا أستطيع قول عائلة كسكين بأي شكل)، والمندهشين من ذكري هذه الشريحة الزمنية الكبيرة وآلاف الأيام براحة شديدة، كم أن الزمن قضية مخاتلة، وأن أريهم أنّ هناك زمننا الخاص، وزمنًا «رسميًّا» نتشارك فيه مع الجميع. وهذا مهم من أجل كسب احترام القراء الذين سيعتبرونني غريبًا ومعقدًا وشخصًا يخشى منه لأنني طرقت باب فسون على مدى ثمانية أعوام في سبيل عشقي لها، ومن أجل فهم الحياة في بيت عائلة فسون.

لأبدأ من الساعة الجدارية الألمانية الصنع الكبيرة ذات الصندوق الخشبي الظريف والبندول والغطاء الزجاجي، وتصدر دقات. لم تكن وظيفة هذه الساعة المعلقة بجانب باب بيت عائلة فسون مباشرة قياس الزمن، بل إشعار العائلة باستمرارية البيت والحياة، والتذكير بالعالم «الرسمي» الذي في الخارج. لم يبق للساعة أهمية مثل مئات آلاف الساعات الجدارية الأخرى التي في المدينة، لأن التلفاز يقوم بمهمة الإشارة إلى الزمن بشكل أكثر متعة حتى من الإذاعة.

الساعات الأفخم من هذه، والأكبر والأكثر تفرعات وأثقالا وبندولات كانت طرازًا شائعًا في دور الباشاوات المغربين والأغنياء غير المسلمين في

إسطنبول في أواخر القرن التاسع عشر. وقد انتشرت بسرعة في بيوت طبقة المدينة الوسطى ضمن جهود التغريب في مطلع القرن العشرين والسنوات الأولى للجمهورية. في طفولتي كانت هناك ساعات تشبهها أو أثقل منها وخشبها أكثر حفرًا في بيتنا وكثير من بيوت معارفنا، وكانت تعلق على جدار الموزع الذي يفتح عليه الباب الخارجي أو جدار الممر أو الدهليز، ولكن أصبح من النادر ما يُنظر إليها، وهي على وشك النسيان. لأن «الجميع» في الخمسينيات بمن في ذلك الأولاد باتوا لديهم ساعات يد، ومذاييع مفتوحة باستمرار. واستمرت الساعات الجدارية هذه تتكتك وتدق في البيوت بحكم العادة على الرغم من ندرة النظر إليها حتى غيرت شاشات التلفاز عادات أصوات البيت الداخلية والطعام والشراب والجلوس، أي حتى أواسط السبعينيات عند بدء قصتنا. لم تكن ساعة بيتنا تزعج أحدًا، لأن تكتكتها ودقاتها التي تشير إلى الساعات وأنصافها لا تسمع من غرف النوم والبهو. لهذا السبب لم يخطر ببال أحد إيقاف الساعة على مدى أعوام طويلة، ويُصعد على الكرسي لربطها طوال أعوام أيضًا! كنت أستيقظ تعيسًا في بعض الليالي التي أفرط فيها بالشرب متذكرًا غرام فسون، فأستمتع بسماع دقاتها على رأس الساعة أثناء عبوري من الغرفة إلى البهو من أجل تدخين سيجارة.

انتبهت منذ الشهر الأول إلى أن ساعة بيت عائلة فسون تعمل حينًا، وتتوقف حينًا، واعتدت على الوضع فورًا. في ساعة متأخرة من الليل، وفيما نشاهد جميعنا فيلمًا تركيًّا يعرضه التلفاز، أو مطربة تصدح بصوت فرح بأغنية قديمة، أو أثناء غوصنا بأحلامنا الخاصة ونحن نتابع فيلمًا تاريخيًّا عن روما فيه أسود ومصارعون حتى الموت لا نفهم منه إلا القليل بسبب سوء ترجمته ودوبلاجه، وبدئنا بمشاهدته من منتصفه لأننا كنا نتحادث ونتضاحك فيما بيننا، فيخيم على الشاشة فجأة صمتٌ سحري، وتبدأ الساعة المعلقة بجوار الباب تدق من دون أن تخطر ببال أحد. أحدنا ـ وهذه على الأغلب العمة نسيبة، وأحيانًا فسون ـ يلتفت نحو الساعة، وينظر نظرة ذات معنى، ويقول السيد طارق: «من ربطها ثانية يا ترى؟».

تُربط الساعة حينًا، وتُنسى أحيانًا. حتى عندما تُربط، وتعمل بشكل منتظم، لا تدق لأشهر أحيانًا، وتدق دقة واحدة عند أنصاف الساعات أحيانًا، وتشارك أهل البيت صمتهم، فتصمت لأسابيع في أحايين. عندما لا يكون هناك أحد في البيت، أشعرُ بمدى الخوف الذي يخيّم على كل شيء في البيت. لا أحد ينظر إلى الساعة لمعرفة الوقت إن تكتكت فقط، أو دقت مشيرة إلى أرباع الساعات فقط، ولكن موضوع ربطها أو تحريك بندولها كثيرًا ما يكون مطروحًا للنقاش. أحيانًا يقول السيد طارق لزوجته: «دعيها تتكتك، فليس فيها ضرر لأحد. إنها تذكر بأن البيت بيت». أعتقد أنني أوافق على هذا الرأي مع فسون وفريدون، وحتى الضيوف القادمين إلى البيت. لهذا السبب فإن الساعة الجدارية لا تذكر بالزمن، أي بتغير الأشياء، بل على العكس تمامًا، فهي تشعر بعدم تغير شيء، وتساعد على الإيمان بهذا.

في الأشهر الأولى، لم أكن أتخيل مجرد خيال بأن شيئًا لم يتغير، ولن يتغير، وأنني سأمضي ثمانية أعوام وأنا أجلس إلى المائدة في بيت تشوقور جمعة، وأنظر إلى التلفاز، وأشاركُ بالحديث. في زياراتي الأولى كان يبدو لي كل كلمة تقولها فسون، وكل تغيير يظهر على وجهها، وكل حركة من حركاتهم رواحًا ومجيئًا في البيت، وكل شيءٍ جديدًا وتغييرًا، ولا أولي أهمية للساعة تكتكت أم لم تتكتك. المهم هو الجلوس معها إلى المائدة نفسها، ورؤيتها، والسعادة بخروج شبحي من داخلي، وتقبيلها دون أن أتحرك.

عندما تتكتك الساعة بالطريقة نفسها، وإن لم ننتبه إلى التكتكة، تشعرنا نحن الجالسين إلى مائدة الطعام بأن أغراض البيت لم تتغير، وبأننا بقينا كما نحن، وهذا ما يمنحنا طمأنينة. إلى جانب وظيفة الساعة هذه التي تجعلنا ننسى الزمن، كان لها وظيفة أخرى تذكرنا بالآن وبعلاقتنا مع الآخرين، وهذا موضوع حرب باردة تتأجج أحيانًا بين السيد طارق والعمة نسيبة على مدى ثمانية أعوام. كانت العمة نسيبة تقول عندما تنتبه إلى أن الساعة تعمل من جديد وسط إحدى فترات الصمت: «من ربط هذه الساعة لتؤرقنا في منتصف الليل!». قال السيد طارق ذات مساء من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩:

«عندما لا تتكتك يغدو كأن هناك نقصا أو فراغا في البيت..». وأضاف: «كانت تدق في البيت الآخر أيضًا». قالت العمة نسيبة بشفقة أكبر من اللازم: «آآ، ألم تعتد على تشوقور جمعة حتى الآن يا سيد طارق؟» (كانت تخاطب زوجها «السيد طارق» أحيانًا).

كانت تكتكة الساعة أو دقاتها التي ننتبه إليها فجأة بشكل غير متوقع تؤجج الوخز المستمر سنوات بين الزوجين، ودس العبارات ذات المعنى المختلف، والتسديد في المكان المناسب. كانت العمة نسيبة تقول: «أنت ربطت الساعة لكي تؤرقني في الليل يا سيد طارق. فسون، رجاء أوقفيها يا روحي». إذا أُوقف البندول في الوسط بواسطة الأصابع، فتتوقف مهما كانت مربوطة، ولكن فسون تنظر إلى والدها باسمة في البداية، وأحيانًا يرمقها السيد طارق بنظرة بمعنى: «حسنٌ، أوقفيها!». وأحيانًا يعاند. كان يقول: «أنا لم ألمسها. الساعة عملت وحدها. دعوها تتوقف وحدها». عندما يريان أن بعض الضيوف أو أبناء الجيران الذين نادرًا ما يزورونهم قد تأثروا بهذه الكلمات، يدخل السيد طارق والعمة نسيبة بجدل مستخدمين عبارات مزدوجة المعاني. كانت العمة نسيبة تقول: «شغَّلَ الجانُّ ـ جعلهم الله في ساعتهم الجيدة ـ ساعتنا ثانية». ويقول السيد طارق مقطبًا حاجبيه بنبرة تهديد: «لا تلمسوها، تُمسخون. فيها جان». «لن نقول شيئًا عن حفيف الجان، ولكن لا أريدها أن تدق في رأسي مثل جرس الشماس في الكنيسة بعد منتصف الليل». يقول السيد طارق: «لا تدق في رأسك، لا تدق، أنت إذا نسيت الزمن ترتاحين». يستخدم «الزمن» هنا بمعنى «الحياة المعاصرة» أو «العصر الذي نعيشه». هذا «الزمن» متغير دائمًا، ونحن نعمل على البقاء بعيدًا عن هذا التغيير بواسطة تكتكة الساعة الجدارية المستمرة.

الأداة الأساسية التي تعرف عائلة كسكين بالزمن هو التلفاز المفتوح دائمًا كما كان مذياع بيتنا في الخمسينيات والستينيات. في تلك الأثناء كان يصدر على رأس الساعة، وأنصاف الساعات صوت «طن» وسط برامج الإذاعة

أو الموسيقى أو الحوار أو درس الرياضيات أو أي شيء لمن يريد معرفة الوقت. لم يكن ثمة ضرورة لشيء من هذا عندما نتابع التلفاز مساء، لأن الناس عمومًا يريدون معرفة الساعة لمعرفة ما يُبث في التلفاز.

ساعة يد فسون وساعة جيب السيد طارق الذي رأيته على مدى ثمانية أعوام يستخدم عددًا من أنواعها اللتين أعرضهما هنا، كانا ينظران إليهما مرة على الأقل في اليوم من أجل ضبطهما، أو التأكد من صحة ضبطهما. كانا يفعلان هذا وهما ينظران إلى الساعة الكبيرة التي تظهر على شاشة القناة الوحيدة لمؤسسة الإذاعة والتلفاز التركية قبل دقيقة من الساعة السابعة مساء موعد الأخبار. أستمتع بالفرجة على فسون على مائدة العشاء وهي تنظر إلى الساعة الكبيرة التي تظهر على الشاشة، وتقطب حاجبيها، وتسند لسانها بشكل خفيف على طرف حنكها وهي تضبط الساعة كالأطفال مقلدة والدها بجدية. انتبهت فسون إلى متعتي هذه منذ زيارتي الأولى. تعرف أنني أتفرج عليها وهي تضبط ساعتها بعشق، وعندما تضبطها، تنظر إليّ، وتبتسم. حينئذ أقول لها: «هل ضبطتها تمامًا؟» وهي كانت ترد عليّ بابتسامة أكثر دفئًا: «نعم، ضبطتها تمامًا!».

سأدرك تدريجيًا أنني لم أكن أذهب إلى بيت عائلة كسكين طوال الأعوام الثمانية تلك من أجل رؤية فسون فقط، بل ومن أجل أن أعيش فترة في العالم الذي تستنشق هواءه أيضًا. خصوصية هذا العالم الأساسية وجوده «خارج الزمن». هذا ما يقصده السيد طارق عندما يقول لزوجته: «انسي الزمن!». أريد من الفضوليين الذين يزورون متحفنا عندما ينظرون إلى أغراض عائلة كسكين القديمة، وساعاتهم المنبهة وساعات أيديهم الخربة الصدئة التي لا تعمل منذ سنوات طويلة أن ينتبهوا إلى غرابة «خارج الزمن» هذه أو الزمن الخاص الذي تشكله هذه الأغراض فيما بينها. هذا الزمن الخاص هو الروح التي استنشقتُها فترة طويلة في بيت عائلة فسون.

كان ثمة «زمن» خارج هذه الروح الخاصة نعرفه في الخارج بواسطة

الإذاعة والتلفاز والأذان، ومعرفة الوقت تعني تنظيم علاقتنا مع العالم الذي في الخارج، وهذا ما أشعر به.

يبدو لي أن فسون لا تضبط ساعتها بدقة كبيرة لأنها تعيش حياة تتطلب ساعة دقيقة، أو لأنها مضطرة للحاق بأعمال ومواعيد، بل لأنها تشعر شعور والدها الموظف المتقاعد بسبب الاحترام الذي تكنُّه للإشارة القادمة من الدولة، من أنقرة. نظرتنا إلى الساعة التي تظهر على الشاشة، تشبه نظرتنا إلى العَلم الذي يظهر مع نشيد الاستقلال عند ساعة إغلاق التلفاز: عندما نبدأ عشاءنا في زاويتنا الخاصة، أو لحظة إغلاق التلفاز ونهاية المساء نشعر بوجود ملايين العائلات تفعل الأمر نفسه، وبالزحام المسمى أمة، وبالقوة المسماة دولة، وبضآلتنا. وفي أثناء مشاهدتنا الساعات القومية (كانت الإذاعة تقول بين حين وآخر: «ضبط ساعة البلد».)، والأعلام، والبرامج المتعلقة بأتاتورك نشعر بأن الحياة الفوضوية غير المنضبطة التي نعيشها داخل البيوت هي خارج رسمية الدولة.

يميز أرسطو في فيزيائه بين الزمن واللحظات المفردة التي يسميها «الآن». اللحظات فرادى مثل ذرات أرسطو لا تقبل التجزئة. أما الزمن فهو الخط الذي يوحد تلك اللحظات التي لا تقبل التجزئة، وعدا المجانين وفاقدي الذاكرة، لا يمكن نسيانه تمامًا كما ينصح السيد طارق بقوله: «انسَ». لا يمكن للإنسان سوى أن يحاول تحقيق السعادة ونسيان الزمن كما يفعل أغلبنا. الرجاء من القراء الذين يقلبون شفاههم لملاحظاتي المعتمدة على ما علمني إياه عشقي لفسون، وما عشته في بيت تشوقور جمعة طوال ثمانية أعوام ألا يخلطوا بين نسيان الزمن ونسيان الساعة والتقويم. الساعات والتقويمات لم تصنع من أجل تذكيرنا بالزمن الذي نسيناه، بل من أجل تنظيم علاقاتنا مع الآخرين، وفي الحقيقة مع المجتمع كله، وتستخدم لهذا الهدف. أثناء النظر إلى الساعة على الشاشة بالأبيض والأسود كل مساء قبيل الأخبار لا نتذكر الزمن، بل نتذكر أشخاصًا آخرين، ولقاءاتنا بهم، والساعات التي تنظم هذه الأمور. لم تكن فسون تبتسم بسعادة عندما تنظر إلى الساعة التي تظهر على

شاشة التلفاز لأنها تذكرها بالزمن، بل يمكن لأن ساعتها مضبوطة بالثانية أو لأنها ضبطتها «بشكل صحيح تمامًا» أو لمعرفتها أنني أنظر إليها بعشق.

الحياة التي نعيشها تعلمني الزمن، أي ما يبعث على الألم كثيرًا لدى أغلبنا من تذكر الخط الذي يوحد اللحظات التي يسميها أرسطو «الآن». تحزننا محاولة تصور الخط الذي يوحّد اللحظات أو محاولة توحيد الأشياء التي تحمل اللحظات داخلها كما في متحفنا، لأنها تذكّر بالموت الذي لا مفر منه من جهة، أو تجعلنا ندرك أن الخط ذاته ـ كما نشعر في أغلب الأحيان ـ لا معنى له مع عيشنا. مع أن اللحظات التي نسميها «الآن» يمكن أن تمنحنا سعادة تكفينا قرنًا كما كان قد حدث في زياراتي الأولى لبيت تشوقور جمعة عندما تبتسم فسون. أدركت منذ البداية أنني أذهب إلى بيت عائلة كسكين للحصول على سعادة تكفيني فيما تبقّى من حياتي، وكنت آخذ الأشياء الصغيرة والكبيرة التي تلمسها فسون من أجل الاحتفاظ بتلك اللحظات السعيدة.

في العام الثاني من تلك الأعوام الثمانية، جلسنا حتى ساعة متأخرة ذات مساء، وبعد انتهاء برامج التلفاز، استمعت من السيد طارق لذكرياته في ثانوية قارص. سبب شعور السيد طارق بالسعادة من ذكريات تلك الأعوام التعيسة (خط سيئ: زمان) التي مرت براتب معلم محدود، وصراع كثير من الثقافات هو تذكّر اللحظات الجيدة فقط (نقط الآن)، ورواياتها، وليس لأن مرور الأعوام يجعل حتى الذكريات التعيسة تبدو جيدة كما يعتقد كثيرون. وبعد أن لفت النظر إلى هذه الازدواجية، أراني ساعة شرقية غربية ذات ميناءين أحدها بالأحرف العربية والآخر بالأحرف اللاتينية.

ولأضرب أنا أيضًا مثالًا من نفسي: فور رؤيتي الساعة الناعمة ماركة بورين التي بدأت فسون تلبسها اعتبارًا من نيسان/ إبريل ١٩٨٢، يتجلى أمام عيني تقديمي إياها هدية بمناسبة عيد ميلادها الخامس والعشرين. وبعد إخراجي الساعة من علبتها المفقودة الآن، وتقبيلها لي من خديّ في لحظة

لا يراهـا فيها والداها (لم يكن زوجها فريدون في البيت) خلف باب المطبخ المفتـوح، وعرضها السـاعة بسـعادة على أبيهـا وأمها عندما جلسـنا كلنا معًا إلى المائدة، وشـكر والدتهـا ووالدها لي كل على حدة وقـد تقبلاني كعضو غريب في العائلة. السـعادة بالنسـبة إلي هي عيش لحظة لا تنسـى كهذه. إذا تعلمنـا التفكيـر بحياتنا باعتبارها لحظـات متفرقة كثيفة كهـذه، وليس كخط زمـن أرسـطو، لا يُنظر إلـى الجلوس على مائـدة حبيبتنا طـوال ثمانية أعوام على أنه عقدة شاذة أو غرابة، بل تبدو ١٥٩٣ سهرة سعيدة قضيت على مائدة فسون كما أفكر الآن بعد أعوام. كل مرة ذهبت فيها إلى بيت تشوقور جمعة ـ حتى تلك الأصعب، والأكثر يأسًـا وجرحًا للكرامة ـ أتذكرها اليوم باعتبارها سعادة كبرى.

٥٥ ـ تعالوا غدًا أيضًا، ولنجلس ثانية

كان تشـتين أفندي يقلني إلى بيت عائلة فسون بسيارة والدي الشيفروليه. لـم أخرق هذه القاعدة طـوال ثمانية أعوام ما عدا حـالات مؤقتة مثل إغلاق الطرق بالثلج أو السـيل، ومرض تشتين أفندي وعطلته، وتعطل السيارة. بعد بضعة الأشهر الأولى اتخذ تشتين أفندي لنفسه أصدقاء في المقاهي ومشارب الشـاي المجاورة. لم يكن يركن السـيارة أمام الباب مباشـرة، بل قرب أمكنة تحمل أسـماء مثل مقهى البحر الأسود، ومشرب شاي المساء، ويتابع برامج التلفاز التي نتابعها في بيت عائلة فسـون، ويقـرأ الجرائد، ويدخل بأحاديث، ويلعـب أحيانًا الطاولـة، أو يتفرج على لاعبي الكونكان. بعد بضعة الأشـهر الأولـى عـرف أهل الحي مـن يكون، ومن أكـون، وإذا كان تشـتين أفندي لا يروي لي بمبالغة، فقد اعتبرني أهل الحي وفيًّا ومتواضعًا يزور أقرباءه الفقراء البعيدين بشعور الصداقة.

مـن المؤكـد ظهور من يدعي أن لي نية سـيئة وأعمـالًا ظلامية على مدى

هـذه الأعـوام الثمانية. من الشـائعات التي لا يمكن أخذهـا مأخذ الجد أنني أريد شراء البيوت القديمة المهلهلة بسعر بخس، وأنشئ مكانها أبنية طابقية، وأنني أبحث عن عمال غير مختصين لأشـغّلهم فـي مصانعي بأجور متدنية، أو أننـي هـارب مـن الجندية، أو أنني ابن غير شـرعي للسـيد طـارق (أي أخ فسـون الأكبـر). غالبية أهـل الحـي المعقولين عرفـوا من المعلومـات التي سـربتها العمة نسيبة ـ خاطئة كانت أم صحيحة ـ بأنني قريب فسون من بعيد، وأتحـدث مـع زوجها «السـينمائي» بموضوع إنتـاج فيلم لنجعل من فسـون نجمة سـينمائية. وفهمت مما نقله لي تشـتين على مدى سـنوات بأن وضعي هذا يقابل بشـكل معقول، وإن لم يكن أهل تشـوقور جمعة يحبونني بشـكل خاص، فهم إيجابيون نحوي. أصلًا بدأت أُعتبر من سـكان الحي تقريبًا بدءًا من العام التالي لزياراتي.

كان أهل الحي متنوعين: عمال في ميناء غلاطة، ندل ومسـتثمرو دكاكين صغيـرة أو مطاعـم في أزقة بيـه أوغلو الفرعيـة، عائلات غجريـة جاءت من نواحـي طوبهانة، عائلات كرديـة من طونجلي. أبناء وأحفـاد عائلات كتاب شارع المصارف الرومية والإيطالية والشامية المسيحية بعد أن فقروا، وعمال مسـتودعات وأفـران، وسـائقو سـيارات أجرة، وسـعاة، وبقالـون، وطلاب الجامعـات الفقـراء... لا يتحرك هذا الزحام بحس جماعـي كما في الأحياء الإسـلامية التقليدية مثل الفاتح ووفا وقوجا مصطفى باشـا. ولكنني أدركت مـن خلال إظهـار الحماية لي، واهتمام الشـباب بالسـيارة الخاصـة الفخمة التي تتردد إلى المكان، وانتشـار الأخبار والشـائعات بسرعة أن هناك نوعًا من التضامن والتعاضد والتوحد الداخلي بين أهل الحي على الأقل.

يقع بيت عائلة فسـون (كسـكين) على زاوية تقاطع شـارع (يسميه الناس «طلعة») تشـوقور جمعـة وزقاق ضالغتش الضيق. وكـما يبـدو في الخريطة، يمكـن الوصـول إلى بيـه أوغلو، وشـارع الاسـتقلال عبر الطلعـة المتعرجة بعشـر دقائق. في بعض الأمسـيات يخرج تشـين من هذه الأزقة الفرعية عبر المنعطفـات إلـى بيـه أوغلـو، وأنا أتفـرج من المقعـد الخلفي علـى مداخل

البيوت، والدكاكين والناس الذين في الأزقة فيما أدخن. في تلك الأزقة الضيقة المبلطة بالحجر كانت البيوت الخشبية المهلهلة المحنية نحو الأرصفة كأنها ستنهار، والأبنية الخاوية التي تركها آخر الروم المهاجرين إلى اليونان، وأسطوانات المدافئ التي يمدها الفقراء الأكراد النازلون بشكل غير قانوني في تلك الأبنية الخاوية إلى الخارج عبر النوافذ تمنح الليل منظرًا مخيفًا. أمكنة اللهو المظلمة الصغيرة في نواحي بيه أوغلو، والخمارات، والنوادي الليلية التي تسمي نفسها «مقاصف مشروبات روحية»، والبوفيهات، والبقاليات التي تبيع السندوتش، وباعة اللوتو، ودكاكين التبغ التي يمكن أن يوجد فيها مخدرات وسجائر أمريكية وويسكي مهربة، وحتى باعة الأسطوانات وأشرطة التسجيل، تبقى مفتوحة حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل. وعلى الرغم من الحالة الحزينة لتلك الأمكنة، تبدو لي حيوية تضج بالحياة. بالطبع أنني أشعر بها على هذا النحو فيما لو خرجت من بيت عائلة فسون مطمئنًا. في كثير من الليالي أخرج من بيت عائلة كسكين معتقدًا بأنني لن أعود إلى هناك ثانية، ويجب أن تكون هذه هي المرة الأخيرة، وأضطجع شبه فاقد الوعي على المقعد الخلفي من السيارة التي يقودها تشتين نتيجة التعاسة. ليالي التعاسة هذه كانت في الأعوام الأولى على الأغلب.

كان تشتين يأخذني من نيشان طاش حوالي السابعة مساء، ونعلق بزحمة المواصلات قليلًا في حربية وتقسيم وسيراسلفيلر، وننعطف من جيهان غير وأزقة فيروز آغا الفرعية، وننزل إلى الأسفل من أمام حمام تشوقور جمعة التاريخية. أُوقف السيارة أمام أحد الدكاكين في الطريق، وأشتري لفة مأكولات أو باقة زهر. وليس في كل زيارة، بل بمعدل كل زيارتين كنت آخذ هدية صغيرة لفسون، كلِبانٍ من أجل الممازحة، أو دبوس صدر بشكل فراشة وجدته في بيه أوغلو أو السوق المسقوف، أو قطعة حلي، وأقدمها لها دون مراسم.

في بعض الأمسيات التي تكون فيها الطرق شديدة الازدحام، ننعطف إلى الأسفل نحو ضولمة بهتشة وطوبهانة، وندخل من شارع بوغاظ كَسَان. على مدى الأعوام الثمانية هذه، كلما انعطفت السيارة إلى زقاق عائلة كسكين،

يتسـرع خفقـان قلبي كما يحدث أيام المدرسـة الابتدائيـة عندما أنعطف إلى زقاق المدرسة، وأشعر بقلق يمزج بين السعادة والانفعال.

اشـترى السـيد طارق هـذا البناء في تشـوقور جمعة بنقـوده المدخرة في المصرف لأنه سئم من دفع الإيجار لشـقة نيشـان طاش. مدخل شـقة عائلة كسـكين فـي الطابـق الثاني. مـرت بالطابق السـفلي الذي هـو ملكهم طوال الأعـوام الثمانية كثير من العائلات المسـتأجرة التي لم تدخل قصتنا، وتظهر وتختفي كالأشباح. فيما بعد، احترق مدخل هذه الشقة الصغيرة التي ستغدو فيمـا بعـد متحـف البـراءة، ولـم أكـن أقابل مـن هناك لأنـه مطل علـى زقاق ضالغتش. سمعت بأن فسون صادقت فتاة تدعى آيلا سكنت فترة مع والدتها في الطابق السفلي، وخطيبها في الجندية، وكانتا تخرجان معًا إلى السينما في بيه أوغلو، ولكن فسون كانت تخفي عني صديقاتها من الحي.

عندمـا أقرع جـرس الباب الخارجـي المطل على طلعة تشـوقور جمعة، كانـت العمـة نسـيبة دائمًا تفتح لي في الأعـوام الأولـى. وكان عليها أن تنزل درجًـا من الأعلـى. عندما يقرع الجـرس ليلًا في الحالات المشـابهة، كانت فسـون تُرسل إلى الأسـفل لفتح الباب دائمًا. وهذا فقط أشعرني بأن الجميع هناك يعرف سـبب زياراتي لهـم منذ الأيام الأولى. ولكنني أشـعر أحيانًا بأن زوج فسـون فريدون لا يشك بأي شـيء حقيقة. ولأن السيد طارق يعيش في عالم آخر، فنادرًا ما كان يزعجني.

العمة نسيبة التي أشعر بأنها دائما تعرف كل شيء، كانت دائمًا تحرص علـى قـول شـيء لكسـر الصمـت الغريب الـذي يخيـم بعـد أن تفتح لي البـاب. كانـت تلك الجمل الافتتاحيـة حول أخبار التلفـاز على الأغلب، مثـل: «خطفت طائرة، هل سـمعت بالخبر؟»، «يعرضـون حادث الحافلة كمـا هـو..».، «نتابع زيارة رئيـس الحكومة إلى مصـر». وإذا وصلت قبل الأخبـار، هنـاك جملة تكررها العمة نسـيبة فـي كل مرة بالإصرار نفسـه: «رحماك، جئت في الوقت المناسب تمامًا، ستبدأ الأخبار الآن!». وتقول

أحيانًا: «يوجد رقائق ملفوفة من التي تحبها»، أو «لففت مع فسون ورق عنب لذيذا جدًّا هذا الصباح، ستأكل أصابعك وراءه». وإذ اعتقدتُ أنها تقول الجملة من أجل التغطية على غرابة الوضع، أصمت بخجل. في أغلب الأحيان أرد عليها قائلًا: «بجد؟». أو «يا إلهي، جئت في الوقت المناسب». وأصعد إلى الطابق العلوي، وأدخل إلى البيت، وأرى فسون، وفي تلك اللحظة كنت أعيد جملتي بانفعال مبالغ فيه من أجل التغطية على سعادتي وخجلي.

قلت ذات مرة: «يا إلهي، دعوني أرى حادث الطائرة أنا أيضًا».

أجابت فسون: «حادث الطائرة وقع البارحة يا أخ كمال».

أثناء خلعي معطفي في الشتاء، كنت أتمكن من القول: «أف، ما أبرد هذا الجو!» أو «يوجد حساء عدس، جيد جدًّا..». بعد شباط/ فبراير عام ١٩٧٧، كان علي أن أطلق الجملة الافتتاحية بعد صعودي إلى الأعلى، ودخولي البيت لأن جهاز فتح آلي رُكب للباب، وهذا أصعب. كانت العمة نسيبة الرقيقة والحنونة أكثر مما تبدو عليه تهرع لمساعدتي فورًا حين تشعر بأنني أجد صعوبة بقول الجملة الافتتاحية، فتقول عبارة من قبيل: «أرجوك، اجلس يا سيد كمال قبل أن تبرد رقائقكم»، أو «رش الرجل المقهى ببندقية آلية، وشرح العمل بوقاحة».

كنت أجلس فورًا إلى المائدة مقطب الحاجبين. الهدايا التي أجلبها معي تساعدني على تجاوز لحظات الضيق عند دخولي البيت. في البداية كانت تلك الهدايا بقلاوة بالفستق من النوع الذي تحبه فسون، ورقائق عجين من عند محل لطيف الشهير في نيشان طاشِ، وسمك مقدد، بيض سمك. أقدم الصرر للعمة نسيبة دون اهتمام بها، ولكنني أقول شيئًا ما. كانت العمة نسيبة تقول: «آه، لماذا أتعبت نفسك؟». في تلك الأثناء أعطي فسون هديتها دون اهتمام، أو عندما تلتقي أعيننا أضعها جانبًا في مكان تراه، وفي الوقت نفسه، أجيب العمة نسيبة، فأقول: «فاحت رائحة رقائق لذيذة جدًّا أثناء مروري

من أمام المحل، فلم أحتمل!». وأقول جملتين أو ثلاثا حول بائع الرقائق في نيشان طاش. في هذه الأثناء أجلس مكاني بسرعة مثل طالب دخل إلى الصف متأخرًا يحاول أن يختفي، وأشعر بنفسي جيدًا جدًّا. بعد جلوسي إلى الطاولة بفترة، تلتقي عيناي بعيني فسون فجأة. هذه لحظات سعادة خارقة.

اللحظة التي يلتقي فيها نظرنا بعد الجلوس إلى الطاولة، وليس بعد دخولي البيت مباشرة تكون لحظة سعيدة جدًّا بالنسبة إليّ من جهة، وهي التي تشعرني كيف ستمضي سهرتنا من جهة أخرى. إذا رأيت في نظرة فسون سعادة وراحة - حتى وإن كان حاجباها مقطبين - فهكذا ستمضي السهرة. وإذا كانت تعيسة وقلقة، ولا تبتسم، فأنا أيضًا لا أبتسم كثيرًا، ولا أحاول أن أضحكها، وأجلس هناك فقط من دون أن أشعر كثيرًا بوجودي في الأشهر الأولى.

مكاني على المائدة بين السيد طارق وفسون على الطرف الطويل المواجه للتلفاز مقابل العمة نسيبة. إذا كان فريدون في البيت، فيجلس بجانبي، وإذا لم يكن، فيجلس أحد الضيوف الذين نادرًا ما يأتون بجانبي. من أجل أن تكون العمة نسيبة قريبة من المطبخ، تجلس وظهرها باتجاه التلفاز، وفي وسط الطعام عندما يقل عملها في المطبخ، تنهض، وتجلس على يساري بيني وبين فسون، وهكذا تشاهد التلفاز براحة. جلستُ ومرفقي بجوار مرفق العمة نسيبة هنا ثمانية أعوام. عندما تجلس العمة نسيبة بجانبي، يبقى جانب الطاولة الطويل الآخر فارغًا. يجلس في هذا المكان الفارغ فريدون أحيانًا عندما يعود في وقت متأخر. حينئذ تنتقل فسون إلى جانب زوجها، وتنتقل العمة نسيبة إلى مكان فسون. في هذه الحال من الصعب مشاهدة التلفاز، ولكن في ذلك الوقت تكون البرامج قد انتهت، وتوقف البث.

إذا كان هناك طعام على الموقد لم ينضج بعد وسط برامج تلفاز مهمة، ويجب أن تتردد على المطبخ، تحيل العمة نسيبة هذا العمل أحيانًا إلى فسون. في أثناء ترددها على المطبخ المجاور حاملة الأطباق والقدور، تروح

وتجـيء بينـي وبين التلفاز. في أثناء غوص والدهـا ووالدتها في الفيلم الذي على الشاشة، أو مسابقة المعلومات، أو النشرة الجوية، أو الخطاب الغاضب لباشانا الذي نفذ الانقلاب، أو بطولة البلقان بالمصارعة، أو مهرجان معجون المسير في مانيسـا، أو مراسـم الذكرى الستين لتحرير آقشـهير مـن العدو، أتفـرج على جميلتي وهـي تذهب إلى اليمين وإلى اليسـار أمامي وكأنها هي الموضـوع الأساسـي، وليس كما ينظر إليها والداهـا باعتبارها العنصر الذين يدخل بينهما وبين الموضوع الأساسي.

أمضيت معظم وقت السهرات الألف وخمسمائة وثلاث وتسعين في بيت عائلة كسـكين جالسًـا إلى الجانب الطويل من الطاولة وأنا أنظر إلى التلفاز. ولكننـي لا أسـتطيع أن أقول كم من الوقـت بقيت هناك فـي كل مرة بالراحة التـي قلت فيها كم مـرة ذهبت في ثمانية أعوام. لأن هذا الموضوع يخجلني، أقنـع نفسـي دائمًا بأن سـاعة خروجي مـن البيت أبكر بكثير من السـاعة التي خرجـت فيها. من المؤكد أن سـاعة نهايـة البث التلفزيونـي تخبرنا بالوقت. في مراسـم نهايـة بث «TRT» التي تُشـاهد في صالات ميسـر تركيا ومقاهيها كلها وتسـتغرق أربع دقائق، يسـير جنود بخطوات منتظمـة، ويرفعون العلم، وفي هذه الأثناء يُسمع نشيد الاستقلال في الخلفية. إذا فرضنا أنني أذهب في كل زيارة حوالي الساعة السابعة وسطيًّا، وأخرج حوالي الساعة الثانية عشرة عندما يرفع العلم، ينتج بأنني جلسـت في كل سـهرة خمس ساعات في بيت عائلة فسون، ولكنني كنت أبقى أطول من ذلك.

بعـد أربعة أعـوام من بدء زياراتي، نُفذ انقلاب عسـكري آخر في أيلول/ سـبتمبر ١٩٨٠، وأعلنـت حالـة الطوارئ، وفـرض حظر تجوال فـي الليل. بسبب هذا الحظر الذي يبدأ الساعة العاشرة مساء، بقيت فترة أضطر للخروج من بيت عائلة كسكين في العاشرة إلا ربعًا من دون أن أشبع من رؤية فسون. كنت أشـعر بألـم عدم رؤيتي فسـون كفاية في طريق العودة أثناء تقدم السيارة التي يقودها تشـتين في أزقة المدينة المظلمة التي تفرغ قبيل دقائق من موعد الحظـر فـي تلك الليالـي. والآن بعد سـنين كلمـا قرأت فـي الصحف حول

امتعاض العسكر من وضع البلد، وإمكانية تنفيذ انقلاب عسكري جديد، يخطر ببالي أن من مساوئ الانقلاب العسكري هي عودتي إلى البيت دون أن أشبع من فسون.

بالطبع أن علاقتي بعائلة كسكين مرت بمراحل مختلفة طوال هذه الأعوام. كأن حديثنا وتوقعاتنا ومعنى صمتنا وما نفعله هناك يتغير في عقولنا باستمرار. الشيء الوحيد الذي لم يتغير بالنسبة إلي هو سبب ذهابي إلى هناك: أنا ذاهب لرؤية فسون بالتأكيد. أفترض أنهم مع فسون مسرورون من هذا. ولأن عائلة فسون لن تقبل بصراحة أنني ذاهب إلى هناك من أجل رؤية فسون، كان لدينا سبب مشترك مقبول آخر. أنا ذاهب إلى هناك «ضيفًا» على عائلة فسون. ولكن لأن هذه الكلمة الغامضة غير مقنعة، كنا نفضل استخدام كلمة أخرى أقل إقلاقًا لنا. أنا ذاهب «للجلوس» في بيت عائلة كسكين أربع مرات في الأسبوع.

تعبير «الجلوس» يعرفه القراء الأتراك جيدًا، وسيدرك الزوار الأجانب فورًا معناه الذي لا تبرزه القواميس كثيرًا، ولكنه يستخدم على نطاق واسع، وتستخدمه العمة نسيبة بشكل خاص: «الذهاب ضيفًا»، «التعريج في الطريق»، «قضاء وقت معًا». عندما أغادر البيت مساء، تقول لي العمة نسيبة دائمًا بلباقة:

«سيد كمال، تعالوا غدًا أيضًا، ونجلس ثانية».

هذه العبارات لا تعني أننا لا نفعل شيئًا غير الجلوس إلى المائدة. كنا نشاهد التلفاز، ونصمت طويلًا حينًا، وندخل بأحاديث ممتعة جدًّا أحيانًا، وبالطبع نتناول الطعام، ونشرب العرق أيضًا. كانت العمة نسيبة تذكرني بهذه النشاطات في الأعوام الأولى لكي تقول لي إنهم ينتظرونني في الأمسيّة. كانت تقول: «غدًا ننتظركم أيضًا يا سيد كمال، «نأكل» محشو الكوسة الذي تحبه!». أو «غدًا «نشاهد» مسابقة التزلج على الجليد، ستبث على الهواء مباشرة!». أثناء قولها هذا لي، ألقي نظرة إلى فسون، وأريد أن أرى على

وجههـا تعبير موافقـة، أو ابتسـامة. إذا قالت العمة نسـيبة: «تعالوا لنجلس»، ووافقت فسون على هذا، أفكر بأن الكلمات لا تخدعني، وأن ما نفعله أساسًا هـو وجودنا معًـا في مكان واحد، نعم، إنه الجلوس معًا. ولأنها تمس سـبب وجودي الأساسـي وهو وجودي مع فسـون في مكان واحد بأبسـط أشكاله، فإن كلمة «الجلوس» في محلها. ولا أفكر بأن الملايين في تركيا يستخدمون عبارة «الجلوس معًا» ليبرزوا أنهم لا يفعلون شيئًا مثل المثقفين الذين امتهنوا الاسـتخفاف بالناس، بل تجلب هذه العبارة إلى بالي العكس تمامًا، وهي أن «الجلوس معًا» حاجة ليترابط الناس بالمحبة والصداقة وحتى بدوافع عميقة لا يعرفون ماهيتها.

في هذه النقطة من متحفنا أعرض مجسـمًا للطابـق الأول من البناء الذي تسـكن فـي طابقـه الثاني عائلة فسـون باعتباره إشـارةً لمدخل تلـك الأعوام الثمانيـة واحترامًا لها. في الطابق الثاني هناك غرفتا نوم العمة نسـيبة والسـيد طارق، وفسون وزوجها، وبينهما الحمام.

عندما ينظر زائر المتحف إلى المجسم بانتباه، يرى فورًا مكاني على زاوية طاولـة السـفرة الطويلة. لأشـرح لمن لـم يسـتطيع زيارة متحفنـا: كان التلفاز مقابلـي إلى اليسـار قليلًا؛ أما المطبـخ فهو مقابلي إلى اليميـن. خلفي كانت هنـاك خزانة أواني مليئة، عندما أسـتند أحيانًا إلى قائمتي كرسـيّ الخلفيتين، أصطدم بالخزانة. كانت الكئوس الكريستالية والسكريات الفضية والخزفية، وأطقـم العنبرية، وفناجين القهوة غير المسـتخدمة نهائيًّا، ومزهرية ذات بلبل تعرض في بيوت الطبقة الوسـطى الإسـطنبولية كلها، وساعة قديمة، وقداحة فضية لا تعمل وبقية الأشياء التافهة في الخزانة ترتجف مع الرفوف فجأة.

جلسـت إلـى المائدة كالجميع على مدى سـنوات، وشـاهدت التلفاز، ولكنني عندما أزيح نظري بشـكل خفيف إلى يسـاري أسـتطيع رؤية فسون براحة. لهذا السـبب لم يكن هناك ضرورة لتدوير رأسـي أو لتحريك نفسي مـن أجـل رؤيتها. وهـذا يمنحني إمكانيـة النظر طويلًا إلى فسـون بتحريك

عيني فقط أثناء مشاهدتي التلفاز دون أن ينتبه أحد. فعلت هذا كثيرًا، وتمرست به.

في اللحظات العاطفية أو المثيرة لفيلم نشاهده، أو لحظة ظهور خبر يثيرنا جميعًا على الشاشة، أستمتع كثيرًا بالفرجة على تعبير وجه فسون، وفي الأيام التالية، أتذكر تلك اللحظة الشاعرية من الفيلم مع تعبير وجهها. أحيانًا يتجلى تعبير وجه فسون أمام عيني قبيل مشهد الفيلم المثير للعواطف (هذا يعني أنني مشتاق لفسون، ويجب أن أذهب في ذلك المساء إلى العشاء)، ثم يخطر ببالي ذلك المشهد من الفيلم. اللحظات الأكثر جاذبية وتأثيرًا في الأفلام التي شاهدناها على مدى ثمانية أعوام في بيت عائلة كسكين، حُفرت في ذاكرتي مع تعبير وجه فسون المرافق لتلك اللحظات. لقد عرفت معنى نظرة فسون، وأي تعبير يرافق أي مشاهد عاطفية من الفيلم، بحيث إنني أستنتج أحداث الفيلم عندما أنظر بطرف عيني إلى تعبير وجهها. عندما يقاطع أحدنا الآخر ـ فسون وأنا ـ بسبب الإفراط بالمشروب أو زحمة الشغل، أفهم من نظرات فسون أن هناك ما هو مهم على شاشة التلفاز.

بجانب المكان الذي ستجلس فيه العمة نسيبة فيما بعد، ثمة مصباح عمود رأسه دائمًا مائل، وبجانبه أريكة جلوس على شكل حرف «L». عندما نتعب كثيرًا في بعض الليالي من الأكل والشرب والضحك والحديث، تقول العمة نسيبة: «هيا، لنجلس قليلًا على الأريكة»، أو «سأقدم لكم قهوتكم عندما تنهضون عن الطاولة!». حينئذ أجلس أنا على طرف الأريكة من ناحية خزانة المواعين، وتجلس العمة نسيبة على الطرف الآخر، بينما يجلس السيد طارق على الأريكة المزدوجة عند طرف المشربية مقابل الطلعة. كان علينا أن نغيّر وضع التلفاز من أجل أن نرى الشاشة بشكل جيد من مكاننا الجديد، وتقوم بهذا فسون التي لا تغيّر مكانها على طرف الطاولة. أحيانًا تجلس فسون بجانب أمها على الطرف الآخر من الأريكة بعد أن تضبط زاوية رؤية التلفاز، وتشاهد البنت وأمها التلفاز وكل منهما تستند إلى الأخرى.

أحيانًا تداعب العمة نسيبة شعر ابنتها وظهرها أثناء مشاهدتها التلفاز، وأنا أستمتع بشكل خاص برؤية هذا التقارب السعيد بين الأم وابنتها بطرف عيني مثل ليمون الذي ينظر إلينا باهتمام.

عندما أرتخي تمامًا على المخدات فوق الأريكة التي بشكل حرف «L»، أشعر بالنعاس بتأثير العرق الذي شربته مع السيد طارق مع مرور الوقت، وبينما أشاهد بإحدى عيني برنامج التلفاز، كأنني أشاهد بعيني الأخرى أعماق روحي، فأنهض من مكاني بغضب خجلًا من غرابة المكان الذي قادتني إليه الأقدار، وأريد الخروج من البيت. كنت أشعر بأن تلك ليالي سيئة مظلمة لم أسرُّ فيها من نظرات فسون، وأنها لم تعطني أملًا، وقابلت مصادفة ملامسة يدي أو ذراعي أو جسمي ببرود.

في تلك اللحظات أنهض من مكاني، وأرفع ستارة المشربية الوسطى أو اليمنى بشكل خفيف، وأراقب طلعة تشوقور جمعة. في الأيام الرطبة والماطرة تلمع أضواء مصابيح الشارع على بلاط الزقاق. أحيانًا أهتم بليمون المتقدم في السن في قفصه وسط المشربية. وبينما تكون أعين السيد طارق والعمة نسيبة لا تزيحان عن شاشة التلفاز، أقول عبارات ما حول ليمون: «هل أكلت طعامك؟»، «هل نغير ماءك؟»، «اليوم منزعج على الأغلب».

ثمة غرفة لها شرفة خلفية في الطابق. تستخدم هذه خلال النهار على الأكثر، وفيها تخيط العمة نسيبة خياطتها، ويقرأ السيد طارق جريدته أيضًا إذا كان موجودًا. عندما كنت أنهض عن المائدة مسيطرًا عليّ القلق في الأشهر الستة الأولى، وأشعر بالحاجة للسير رواحًا ومجيئًا، كثيرًا ما أدخل إلى هذه الغرفة إذا كان مصباحها منارًا، وأنظر من نافذة الشرفة. وأذكر أنني أستمتع بالوقوف بين أدوات الخياطة، والجرائد والمجلات القديمة، والخزائن المفتوحة، وزحام الأشياء التافهة، وإنزال شيء ما يخفف شوقي لفسون بلمح البصر إلى جيبي.

عنـد نظري من نافذة شـرفة هذه الغرفة أرى عبر انعـكاس الزجاج الغرفة الداخليـة التي نتناول فيها الطعام، وما داخـل البيوت الفقيرة المصفوفة على طرفـي الزقـاق الضيق. راقبتُ مـرات عديدة، ولمدة طويلة امـرأة بدينة قليلًا تلبـس ثوب نـوم صوفي، ورأيتها تفتح علبة دواء قبل النوم، وتخرج منه حبة، وتقـرأ الورقة التـي بداخله بدقة. فهمت من كلمات فسـون التـي جاءت إلى جانبـي ذات مـرة أن المرأة هي زوجة رحمي أفندي ذي اليد الصناعية والذي عمل سنوات طويلة في مصنع والدي.

قالت لي فسـون همسًـا بأنها أتت إلى الغرفة الخلفية لأن الفضول دفعها لمعرفة ما أفعله فيها. وقفت بجانبها في الظلام أمام النافذة، وراقبنا المشـهد فتـرة. سأشـرح بالتفصيل القضيـة الكامنة في عمـق زياراتي المسـائية لعائلة كسـكين المسـتمرة على مدى ثمانية أعـوام، وبرأيي أنها القضيـة الكامنة في قلبينا كوننا رجلا وامرأة في هذه الزاوية من العالـم:

برأيي أن فسون نهضت عن المائدة في تلك الليلة، وأتت إلى جانبي لكي تبدي قربًا مني. وقوفها بجانبي صامتة، وفرجتها على المنظر تشـير إلى هذا. في أثناء فرجتي على سقوف القرميد والصفيح، والمداخن التي يتصاعد منها دخـان خفيـف، وحركة العائـلات خلف النوافذ المنارة التـي تبدو لي مذهلة وشاعرية بشكل يفوق التصور لمجرد أن فسون بجانبي، شعرت بدافع لوضع يدي على كتف فسون، وعناقها، ولمسها.

ولكـن تجربتـي المحدودة في الأسـابيع الأولـى في بيت تشـوقور جمعة تقـول لي إنني إذا فعلت هذا، فستتصرف معي فسـون ببرود وحـدة (كأنها قد تعرضت للتحرش)، وسـتدفعني، أو تدير ظهرهـا فورًا، وتذهـب، وأن حركتها هذه ستؤلمني ألمًا لا يطاق، وسنمثل فترة دور المقاطعين (اللعبة التي أصبحنا خبراء فيها تدريجيًا)، ولعلي لا أذهب فترة إلى العشاء لدى عائلة كسكين. على الرغم من معرفتي هذه، ثمة ما يدفعني من أعماق روحي لألمسها، وأقبّلها، أو أسـتند إليها على الأقل. للعرق الذي شـربته أيضًا تأثير بهذا. ولكنني سأشـعر بهذه الازدواجية بقوة وألم حتى وإن لم أشرب.

إذا نجحت بضبط نفسي، ولم ألمسها ـ وكنت أتعلم هذا بسرعة ـ فإن فسون ستقترب مني أكثر، ولعلها تلمسني بشكل خفيف أو «بالخطأ»، ولعلها تقول كلمتين حلوتين. أو أنها ستقول كما قالت قبل يومين: «هل حدث ما يضايقك؟». قالت فسون في تلك الأثناء: «أحب صمت الليل هذا، والقطط التي تجوب على الأسطح». وشعرت بالازدواجية نفسها بشعور قريب من الألم. هل يمكنني الآن أن ألمسها، أو أمسكها وأقبلها؟ كنت أريد هذا بشدة. لعلها لم تبدِ لي أي دعوة في الأسابيع الأولى والأشهر الأولى ـ كما سأفكر في الأعوام اللاحقة ـ، ولم تكن تقول سوى ما يجب أن تقوله فتاة راقية وذكية أنهت الثانوية بلباقة ورقي لقريبها البعيد العاشق والغني.

فكرت بهذه الازدواجية كثيرًا طوال ثمانية أعوام، وشعرت بالقهر كثيرًا. نظرنا إلى المنظر الليلي الذي أعرض رسمًا له هنا من النافذة مدة دقيقتين أو دقيقتين ونصف الدقيقة على الأكثر. أرجو أن يشعر زوار المعرض بالازدواجية التي شعرت بها عندما ينظرون إلى هذا المنظر، وألا ينسوا أن فسون تصرفت في هذا الموضوع برقة وظرافة.

في النهاية قلت: «هذا المنظر جميل إلى هذه الدرجة لأنك بجانبي».

قالت فسون: «هيا، سينشغل بال والدي».

قلت: «طالما أنك بجانبي، يمكنني أن أنظر إلى هذا المنظر لسنوات».

قالت فسون: «طعامك يبرد!». وعادت إلى المائدة.

كانت منتبهة إلى برودة العبارة التي قالتها. وبعد أن عدتُ إلى الطاولة، وجلستُ مكاني، تركتْ فسون العبوس. على العكس تمامًا، فقد ضحكت بظرافة وصدق مرتين، وفيما بعد لامست أصابعها يدي جيدًا وهي تقدم لي المملحة التي أعرضها هنا، وانتهى كل شيء على ما يرام.

٥٦ ـ ليمون للسينما ش. ت. م.

قلب السيد طارق الدنيا عندما علم أن ابنته قبل ثلاثة أعوام شاركت بمسابقة ملكة الجمال بدعم من والدتها، ولكنه لم يحتمل توسل فسون وبكاءها لأنه يحبها، وعندما سمع ردود الأفعال فيما بعد، ندم على تسامحه بهذه السفالة. هو يرى أن مسابقات ملكات الجمال التي نُظمت في الأعوام الأولى لتأسيس الجمهورية في عهد أتاتورك، ولبست فيها الفتيات مايوهات سوداء، وصعدن إلى منصة العرض، وأثبتن للعالم كله اهتمامهن بالثقافة التركية وتاريخها، وكم هن متحضرات، كانت شيئًا جيدًا. ولكن المسابقات التي نُظمت بعد عام ١٩٧٠، وشاركت فيها فتيات عاديات مرشحات مغنيات وعارضات أزياء ليس لديهن ثقافة أو تربية مختلفة تمامًا. كان مقدمو الحفل في المسابقات القديمة يسألون الفتاة بأسلوب مهذب عن رجل أحلامهن الذي يردن الزواج منه، ويوحي بشكل مهذب أيضًا أنهن بُكور. أما الآن فعندما يسألونهن عما يطلبنه في الرجال (الجواب الصحيح: الشخصية) فيضحكون بشطط مثل هاقان سرينقان. وقد قال السيد طارق لصهره السينمائي المقيم معه في البيت عدة مرات، وبوضوح إنه لا يريد لابنته أن تدخل بمغامرات كهذه مرة أخرى.

ولأن فسون تخشى معارضة والدها بأن تصبح نجمة سينمائية، ووضعه معوقات سرية أو واضحة أمامها، فقد كانت تتحدث عن الفيلم الفني الذي ينوي زوجها تصويره بحيث لا يسمع السيد طارق، أو تهمس متظاهرة بفعل هذا. برأيي أن السيد طارق كان يتظاهر بعدم السماع نتيجة اهتمامه بأسرته، وسروره من الشرب والحديث معي مساء. موضوع «الفيلم الفني» كان في السنوات الأولى ذريعة مقنعة لذهابي أربع مرات بالأسبوع إلى بيت عائلة كسكين، والتغطية على سبب ذهابي الحقيقي الذي تعرفه العمة نسيبة جيدًا. على الرغم من اعتقادي بأن الصهر فريدون لا يعرف شيئًا كلما نظرت إلى

وجهه الطيب والمحبب في الأشهر الأولى، فإنني فيما بعد بدأت أفكر بأنه يعرف كل شيء، ولكنه يثق بزوجته، وحتى لا يأخذني مأخذ الجد، ويسخر مني خلف ظهري، وبالطبع فإنه بحاجة ماسة لدعمي من أجل تصويره الفيلم.

وفي أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، أعطى فريدون السيناريو شكله الأخير بتوجيه فسون، وسلمني إياه ذات مساء بعد العشاء بجو رسمي باعتباري مرشح المنتج من أجل إعطاء قراري تحت نظرات فسون العابسة، في فسحة الدرج.

قالت فسون: «كمال، أريدك أن تقرأه بتفهم وانتباه. أنا مؤمنة بهذا السيناريو، وأثق بك. لا تخيبني».

«لا أخيبك نهائيًّا يا عزيزتي. هل هذا (أشرت إلى الملف الذي بيدي) مهم لأنك ستصبحين ممثلة، أم لأن الفيلم سيكون «فيلمًا فنيًّا» (اصطلاح خاص أنتج في تركيا في فترة السبعينيات)؟».

«كلاهما معًا».

«في هذه الحال، اعتبري أن الفيلم قد صُور».

لم يكن في السيناريو المعنون «مطر أزرق» ضوء جديد ينير فسون أو عشقنا أو قصتنا: فريدون الذي احترمت ذكاءه وتحليلاته المنطقية في هذا الصيف، وقد وصل إلى سوية معينة من الثقافة والتعليم، ويتوق حقيقة لعمل «فيلم فني» مثل الغربيين، لماذا ارتكب كل أخطاء السينمائيين الأتراك (التقليد، التصنع، الأخلاقية، الفظاظة، الميلودرامية، الشعبية التجارية، إلخ.) التي عددها لي واحدة واحدة؟ أثناء قراءة السيناريو الممل اعتقدت بأن هوس الفن مرض مثل العشق يعمي بصيرتنا، وينسينا ما نعرفه، ويخفي عنّا الحقائق. كانت مشاهد تعري فسون التي وضعها فريدون بهاجس تجاري (مرة أثناء ممارسة الحب، ومرة وهي تدخن سيجارة في حوض الحمام تحت الرغوة بالأسلوب الفرنسي «جائحة جديدة»، ومرة وهي تتنزه في روض من رياض الجنة في الحلم) قبيحة وخالية من المتعة!

صرت معارضًا تامًّا لمشروع هذا الفيلم الذي لم أكن أثق به سابقًا بسبب هذه المشاهد. موقفي الغاضب في هذا الموضوع يمكن أن يكون أكثر حزمًا من موقف السيد طارق. وهكذا بعد أن جزمت أمري بضرورة وضع عراقيل أمام الفيلم، قلت لفسون وزوجها بأن السيناريو جيد جدًّا، وهنأت فريدون، وأبلغتهما بأنني قررت التحرك، وأنا كمنتج (هنا اتخذت موقف المنتج ساخرًا من أخذي الموضوع مأخذ الجد) مستعد لمقابلة الفريق التقني ومرشحي الممثلين كما اقترح فريدون.

وهكذا بدأنا اعتبارًا من مطلع الشتاء نحن الثلاثة بمشاركة فريدون بالتردد على «النوادي»، ومكاتب المنتجين، والمقاهي التي يتردد عليها ممثلو الدرجة الثانية، ومرشحو النجوم المندفعون، والكومبارس، وعمال مواقع التصوير ويلعبون فيها الدومينو، والبارات التي يقصدها على الأكثر المنتجون والمخرجون والممثلون المعروفون من المساء إلى ساعات متأخرة، ويشربون فيها، وهذه تقع في الأزقة الخلفية لبيه أوغلو. كانت هذه الأماكن التي قصدناها بين فترة وأخرى تبعد عشر دقائق مسير في الطلعة من بيت عائلة كسكين، وذكرني هذا الطريق بكلام العمة نسيبة بأن سبب زواج فريدون من فسون هو سكنه في مكان يمكّنه من الذهاب إلى هذه الأمكنة سيرًا على الأقدام. كنت أصطحبهما أحيانًا من أمام الباب، ونخرج نحن الثلاثة إلى بيه أوغلو إذ تتأبط فسون ذراع فريدون وأسير معهما أحيانًا بعد أن نتناول العشاء.

كان الأغنياء الذين يريدون مقابلة نجمات السينما والطامحات للنجومية، وأولاد ملاكي الأراضي الريفيين الذين دخلوا حياة العمل في إسطنبول، ويسعون للهو، والصحفيون قليلو الشهرة، ونقاد السينما، وكتاب الشائعات يترددون على بار بلور الذي نذهب إليه على الأكثر. تعرفنا طوال الشتاء على كثير من الممثلين الذين أدوا أدوارًا ثانوية في الأفلام التي شاهدناها صيفًا (ومنهم صديق فريدون الذي أدى دور المحاسب السافل وله شاربان رفيعان)، وصرنا جزءًا من مجموعة المحببين والمتوترين وغير المستنفدين

آمالهم بعد، وينمون بعضهم على بعض بقسوة، ويروون للجميع قصص حياتهم ومشاريع أفلامهم، ولا يتحملون عدم لقائهم كل يوم.

لأن فريدون المحبوب كثيرًا ما يذهب إلى طاولات المعجب بهم، والذين ساعدهم، والذين يريد أن يحافظ على علاقة جيدة معهم، ويجلس معهم ساعات، كثيرًا ما كنا ـ فسون وأنا ـ نبقى على انفراد، ولكن لم تكن هذه أوقاتا خاصة يمكن أن تسعدني. نادرًا ما كانت فسون تترك شخصية البريئة والمتصنعة ولغتها بخطاب «الأخ كمال» بوجود فريدون معنا، وإذا تحدثت معي بصدق، فيكون الحديث تحذيرًا حول ما يجب أن أنتبه إليه مع الرجال الذين يجلسون إلى طاولتنا، ويذهبون، وما يتعلق بحياتي السينمائية المستقبلية.

ذات مساء أفرطت فيه بشرب العرق، وبقينا على انفراد، شعرت بأن فسون ضاقت ذرعًا بأحلام الفيلم والحسابات الصغيرة، واعتقدتُ أنني وجدت حقيقة فرصة التأثير عليها، وإقناعها بما سأقوله. قلت: «تأبطي ذراعي يا عزيزتي، ولنخرج فورًا من هذا المكان السيئ. لنذهب إلى باريس، أو إلى باتاجونيا في الطرف الآخر من العالم. ولننس كل هؤلاء الناس، ونعش سعداء إلى ما لانهاية».

قالت فسون: «وهل هذا ممكن يا أخ كمال؟ حياة كل منا دخلت في طريق مختلف».

زحام السكارى المترددين يوميًّا على البار والقائلين عن أنفسهم «نحن جزء من المحل» اعتبروا فسون خلال بضعة أشهر العروس الشابة والجميلة، واعتبروني بشك وسخرية «المليونير الطيب والمخبول» الذي يريد أن يصور فيلمًا فنيًّا. أما الذين لا يعرفوننا، والسكارى الذين يعلقون مرة على فسون، ويجربون حظهم مرة أخرى، والذين يتجولون على البارات، ويرونها من بعيد، والراغبون بشكل عقدي معرفة الآخرين قصة حياتهم (وهذه المجموعة كبيرة جدًّا)، لا يتركوننا على انفراد إلا لوقت قصير جدًّا. كنت

أستمتع باعتقاد الذين يحملون كئوس العرق بأيديهم من الغرباء، ويجلسون على طاولتنا، ويعتقدون أنني زوج فسون. وفي كل مرة تجرح فسون قلبي، وتقول باسمة إن زوجها ذاك السمين الذي يجلس إلى تلك الطاولة، وهذا يؤدي إلى عدم اعتبار هؤلاء الضيوف لي رجلًا، ويبدءون بإغوائها بيأس.

كلٌّ منهم يجرب إغواءها بطريقة مختلفة. منهم يقول إنه يبحث عن «سمراء جميلة بشخصية تركية ذات وجه بريء» مثلها من أجل رواية مصورة؛ ومنهم يعرض عليها فورًا دور البطولة في فيلم سيدنا إبراهيم الذي سيبدأ تصويره بعد فترة قصيرة؛ ومنهم من ينظر إلى عينيها طويلًا من دون أن يتكلم بشيء، ومنهم من يفتح الحديث عن الجمال والرقة التي لا أحد ينتبه إليها في عالم تحول فيه كل شيء إلى مادة ونقود؛ ومنهم من يلقي عليها شعر الغرام والشوق والوطن لشعراء معذبين سقطوا في السجون، وهناك من يدفع حسابنا من إحدى الطاولات البعيدة، أو يرسل لنا طبق فواكه. كنا نلتقي في محلات بيه أوغلو التي أصبحنا نادرًا ما نتردد عليها في نهاية الشتاء نتيجة وضعي العراقيل وعدم رغبتي. امرأة ضخمة تلعب دور السجانة الظالمة أو نديمة المرأة الشريرة في السينما دعت فسون إلى حفلات راقصة تقيمها في بيتها، وتشارك فيها «فتيات متعلمات ومثقفات مثل فسون»، وناقد مسن يرتدي بنطالًا بحمالتين وله بطن كبيرة، ويربط ربطة عنق فراشة، وضع يده الشبيهة بالعقرب على كف فسون، وقال لها «إن شهرة كبيرة جدًّا تنتظرها»، ولعلها ستكون أول نجمة سينما تركية ذات شهرة عالمية، ونصحها بأن تنتبه لخطواتها.

تستمع فسون بجد لعروض التمثيل والروايات المصورة وعروض الأزياء كلها الصحيحة والخاطئة، والجدية والعبثية، وتحفظ بعقلها أسماء الجميع، وتغرق ممثلي السينما الذين تعرفهم المشاهير منهم والمغمورين بمديح فظ ومبالغ به أعتقد أنها تعلمته من عملها كبائعة، وتحاول مجاملة الجميع من جهة، وتعمل العكس تمامًا من جهة أخرى، وتحاول أن تبدو بعين الجميع مدهشة، وتريد أن نتردد أكثر على هذه المحلات. عندما قلت لها مرّة بألا

تعطي رقم هاتفها لكل من يقدم لها عرض عمل لأن والدها إذا سمع بهذا سيقلق كثيرًا، قالت لي بأنها تعرف ما تفعله. وفيما إذا ظهر عائق في فيلم فريدون، ولم يُصور، فهي تفكر بالتمثيل في فيلم آخر. بعد أن ذهبتُ إلى طاولة أخرى حزينًا بقليل، جلبت فريدون، وجاءت إلى طاولتي، وقالت: «لنذهب إلى مطعم نحن الثلاثة كما كنا نفعل في الصيف الماضي».

اتخذت لنفسي صديقين من مجموعة السينما والبار هذه التي اعتدت تدريجيًّا أن أكون جزءًا منها بقليل من الخجل، وكنت أحصل منهما على الشائعات. الأولى، الممثلة المتوسطة العمر سوهانداني يلضظ التي تفتت أنفها في إحدى أولى عمليات التجميل في تركيا، فأصبح شكلها غريبًا ومنفرًا، ولكن هذا أكسبها شهرة بدور «المرأة الشريرة». والآخر صالح صارلي «ممثل كركتر» اشتهر بدور الضابط والشرطي السلطوي، ولكنه الآن يعمل بدوبلاج أفلام شبه إباحية من أجل تحصيل لقمة العيش، ويروي لي بصوته المختلط بالضحك والسعال الأحداث الطريفة التي وقعت له.

خلال عدة أعوام عرفت بدهشة من يعرف أن غالبية أصدقائه أعضاء في منظمة سرية، وأن غالبية الذين تعرفت عليهم في بار بلور يعملون في قطاع السينما الإباحية، وليس صالح صارلي فقط. الممثلات المتوسطات العمر ذات المواقف المحترمة مثلهن مثل السيد صالح وبقية ممثلي الكركتر يعملن بدوبلاج الأفلام الإباحية القادمة من الخارج التي لا تحوي قلة أدب كبيرة من أجل لقمة العيش، ويصدرن أصوات ممارسة حب مبالغا بها، ويطلقن الصيحات في المشاهد التي لا تعرض بشكل كامل. تقول غالبية الممثلات المعروفات بجدهن والمتزوجات ولهن أولاد إنهن عملن بهذا العمل في فترات أزماتهن الاقتصادية لكي «لا ينقطعن عن عالم السينما»، ولكنهن يخفين هذا الأمر عن الجميع، وفي المقدمة عائلاتهن. على الرغم من هذا، فإن المعجبين، وخصوصا في المناطق الريفية، يعرفونهن من أصواتهن، ويرسلون لهن رسائل مجاملة أو كره. الممثلون والمنتجون الأكثر جرأة وطمعًا، وأغلبهم يداومون على بار بلور، صوروا في تلك الأثناء

أولى الأفلام التي يجب أن تدخل التاريخ باعتبارها «أولى الأفلام الإباحية الإسلامية». مشاهد ممارسة الجنس في هذه الأفلام التي تمزج بين الإثارة الجنسية والسخرية قالبية، تطلق فيها الصيحات المبالغة نفسها، وتقلد فيها أيضًا وضعيات ممارسة الجنس التي في الكتب القادمة تهريبًا من أوربا، ولكن الممثلين والممثلات جميعًا لا يخلعون سراويلهم الداخلية نهائيًّا مثل البنات البكر المنتبهات والحذرات.

عندما نخرج معًا إلى أحد المحلات التي يتردد عليها السينمائيون، وعلى الأغلب إلى بلور في بيه أوغلو، وأثناء تجوال فسون وفريدون على الطاولات للتعرف على أناس جدد، ومعرفة أوضاع السوق، أجلس مع هذين الصديقين الجديدين المتوسطي العمر، وخصوصا مع السيدة سوهانداان المهذبة، وأستمع لكل التنبيهات التي يجب أن «أنتبه إليها». مثلًا علي أن أمنع فسون حتى من الحديث مع المنتج الذي يبدو راقيًا ويربط ربطة عنق صفراء، ويلبس قميصًا مكويًّا كالقالب، وله شاربان كاللوزتين، لأن هذا المنتج الشهير عندما يبقى مع أي امرأة يقل عمرها عن ثلاثين عامًا في مكتبه الشهير فوق سينما أطلس، يقفل الباب فورًا، ويغتصب المرأة، ثم يعرض عليها وهي تبكي دور البطولة في أفلامه، وعندما يبدأ بتصوير الفيلم، يظهر أن دور البطولة الموعود هو دور من الدرجة الثالثة (دور مربية ألمانية تحيك المقالب في بيت غني تركي طيب القلب، وتوقع كل من هناك فيما بينهم). أو أنني يجب أن أنتبه إلى المنتج مظفر رب عمل فريدون السابق، ويقترب منه فريدون بين حين وحين، ويمازحه، ويضحك كلما قال له ممازحًا بأنه سيقدم دعمًا تقنيًّا في «فيلمه الفني»، أو أن أحذر فريدون منه على الأقل. لأن هذا السافل، قبل فترة قصيرة، أسبوعين فقط، في بار بلور، وعلى الطاولة نفسها، دخل بمراهنة على زجاجة شمبانيا فرنسية مهربة مع صاحبي شركتين سينمائيتين متوسطتين منافستين بأنه سيحصل على فسون خلال شهر. (كانت الشمبانيا باعتبارها مادة غربية ومسيحية فخمة جدًّا كثيرًا ما تستخدم في الأفلام التركية وكأنها

ذات قداسة). أثناء شرح النجمة الشهيرة التي تؤدي دور المرأة الشريرة العادية (ليست شيطانية)، وتعرف بها صحافة المنوعات للأمة التركية باسم «سوهانداn الغدارة» هذه الأمور، كانت تحبك كنزة صوفية شتوية بثلاثة ألوان بصنارتين طويلتين لحفيدها البالغ الثالثة من عمره، وأرتني نموذجها في مجلة «بوردا»، وترد على الساخرين منها لأنها تجلس في زاوية البار وفي حضنها ثلاث شلل صوف حمراء وخضراء وبنفسجية: «أنا لا أجلس عاطلة مثلكم أنتم السكارى أثناء انتظاري عملًا». وتتخلى للحظة عن لباقتها براحة، وتطلق شتيمة من العيار الثقيل.

رأى صديقي الناضج صالح صارلي أنني أمتعض من الفظاظة التي لا مفر منها عندما يسكر المثقفون والسينمائيون والنجوم المقاطعون كلهم بعد الساعة الثامنة مساء في أمكنة مثل بلور، فهرب بعينيه مني بشخصية رومانسية تذكر بدور الشرطي العادل والمثالي الذي أداه سنين طويلة، وركزهما على فسون الجالسة إلى إحدى الطاولات البعيدة وهي تضحك، وقال لي إنه لو كان رجلَ أعمال غني مثلي، لما جلب قريبتي الجميلة إلى هذه المحلات ـ يقصد بار بلور الذي نجلس، ونشرب فيه ـ من أجل أن تصبح فنانة. وبالطبع فإن هذا جرح قلبي. إثر هذا أضفت إلى قائمة «الذين ينظرون نظرة سيئة لفسون» التي في عقلي اسم صديقي الممثل والعامل في الدوبلاج. قالت سوهانداn الغدارة أيضًا عبارة لم أنسها نهائيًا: قريبتي فسون الجميلة طيبة وناعمة ولذيذة جدًّا، وهي بعمر يؤهلها لتكون أمًّا جيدة جدًّا مثل ابنتها التي ولدت حفيدها الذي تحبك له الكنزة الحمراء والخضراء والبنفسجية. ما عملنا هنا؟

ولأن هذه المخاوف بدأت تسيطر عليّ مع مرور الأيام، أشعرت فريدون في مطلع عام ١٩٧٧ بأنه يجب أن يقر الفريق التقني. كانت فسون تحظى بأصدقاء جدد كل أسبوع في بارات بيه أوغلو ومحلاتها التي يتردد عليها السينمائيون، ويجلب لها هؤلاء الأصدقاء عروض عمل جديدة، ومقترحات تصوير روايات مصورة وإعلانات. مع أنني كل يوم أفكر بجو واقعي أن فسون

ستنفصل عن فريدون، وأشعر بأن هذا اليوم قريب جدًّا من خلال ابتساماتها الحلوة والودودة، ولمسي، وانحنائها على أذني، وهمسها بقصص مرحة. وأقول لنفسي بأنه من الجيد ألا تدخل فسون هذا العالم، بعد أن تنفصل عن فريدون، وأتزوجها. ونصنع من فسون نجمة دون أن تقضي وقتها مع هؤلاء الناس. وفي تلك الأيام قررنا بأن إدارة هذه الأمور يجب أن تكون في مكتب، وليس في بار بلور. فقد تقدمت اللقاءات الأولية كثيرًا، وسنؤسس شركة من أجل الأفلام التي سيصورها فريدون.

بناء على اقتراح فسون، أسمينا شركتنا باسم الكناري ليمون ونحن نضحك. وكما يُفهم من بطاقة التعريف الصغيرة التي طبعنا عليها صورة ليمون، فإن مكتب ليمون للسينما ملاصق لسينما ملك الجديدة.

أمرت بإيداع ١٢٠٠ ليرة شهريًّا بحساب ليمون للسينما من حسابي الخاص في فرع بيه أوغلو لبنك الزراعة. هذا المبلغ أكثر بقليل مما يتقاضاه مديران يحصلان على أعلى راتب في صاطصاط، وسيقبض نصفه فريدون باعتباره مديرًا للشركة، والباقي يدفع منه إيجار المكتب، ونفقات الفيلم.

٥٧ ـ النهوض وعدم الذهاب

ارتاح قلبي بدفع نقود لفريدون عبر شركة ليمون للسينما قبل تصوير الفيلم الذي صرت أؤمن كل يوم بعدم ضرورة العجلة به. أصبحت أقل خجلًا عندما أذهب إلى بيت فسون. أو الأصح عند شعوري برغبة واندفاع لا يمكن كبحهما للذهاب من أجل رؤية فسون في بعض الأمسيات، ويظهر خجل بالقوة نفسها في داخلي، أقول لنفسي يجب ألا أخجل منهم لأنني أعطيهم نقودًا. رغبتي برؤية فسون أعمت بصيرتي إلى درجة أنني لم أكن أسأل نفسي إلى أي مدى تخفف النقودُ التي أدفعها خجلي. في ربيع ١٩٧٧، وقريب من وقت العشاء في نيشان طاش، وأثناء مشاهدتي التلفاز مع أمي،

أذكر أنني تأرجحت بين ثنائية الرغبة والخجل ذاتها، وتحجرت على الأريكة (أريكة والدي)، وبقيت نصف ساعة دون أن أتحرك.

قالت لي أمي ما تقوله لي دائمًا عندما تراني باقيًا في البيت قريب المساء: «اجلس ذات مساء، ولنتناول العشاء معًا».

«لا، سأخرج يا أمي العزيزة».

«الرحمة، ما أكثر اللهو في هذه المدينة. أنت تجد لهوا كل مساء».

«رجوني أصدقائي كثيرًا يا أمي العزيزة».

«كنت يجب أن أكون صديقتك، وليس أمك. بقيتُ وحيدة في الحياة... اسمع ما سأقوله لك... ليذهب بكري فورًا، ويجلب لك أضلاع خروف، ويشويها. واجلس معي على العشاء. كلْ الأضلاعَ، ثم اذهب إلى أصدقائك.».

رد بكري أفندي الذي سمع أمي من المطبخ: «أنزلُ فورًا إلى القصاب».

لفّقت قائلًا: «لا يا أمي، هذه حفلة مهمة لابن آل قراخان».

قالت أمي بشك محقة فيه: «لماذا لا علم لي بها؟». إلى أي مدى تعرف أمي ويعرف عثمان أنني أذهب إلى بيت فسون؟ لا أريد التفكير بهذا. لكي لا تشك أمي في الأمسيّة التي أذهب فيها إلى بيت فسون، أجلس معها في البيت أحيانًا، وأتناول عشائي، ثم آكل هناك. تفهم العمة نسيبة أنني أشبع فورًا، فتقول: «كمال، شهيتك مسدودة هذا المساء، أما أحببت مشكّلة الخضار؟».

أتناول العشاء مع أمي في البيت أحيانًا، وإذا تجاوزتُ ساعات شوقي الأشد لفسون، أعتقدُ أنني أستطيع ضبط نفسي، والبقاء في البيت في ذلك المساء، ولكن بعد ساعة من العشاء، وكأسي عرق، يزداد شوقي إلى درجة تجعل حتى أمي تنتبه لهذا.

كانت تقول: «بدأت تهز بساقيك ثانية، اخرج إلى الزقاق، وامش قليلًا، وتعال إذا أردت. أرجوك، لا تذهب بعيدًا، أصبحت الأزقة خطيرة».

لا أريـد أن أطيـل قصتـي بشـرح القتـال بين عناصـر المنظمـات القومية العقائديين، وعناصر المنظمات الشـيوعية العقائديين في شـوارع إسـطنبول كامتداد للحرب الباردة. في تلك الأعوام كانت هناك جرائم ترتكب باستمرار في الشـوارع، وتُـرشّ المقاهي بالأسـلحة الآلية في منتصف الليل، وتشـهد الجامعـاتُ كل يوميـن تمـردًا أو إضرابًا، وتنفجر القنابـل، وينهب المقاتلون المصـارف. كانـت جدران المدينة كلها ملونة بشـعارات كتبـت بعضها فوق بعض. أنا لا أهتم بالسياسـة مثل الغالبية العظمى من الإسـطنبوليين، وأعتقد بأن قتل الناس بعضهم بعضًا في الشـوارع لا يفيد أحدًا، وأشـعر بأن السياسة هـي مهنة بعض الناس الحادين الخاصين الذين يتحركون كمجموعات، ولا يشـبهوننا نهائيًّـا. عندما أقول لتشـتين الـذي ينتظرني في الخارج قدْ السيارة بانتبـاه، أحدّثه عن السياسـة كأنهـا كارثة طبيعيـة كالزلزال أو السـيل، وليس للناس العاديين أمثالنا سوى الابتعاد عنها.

كل مسـاء لا أسـتطيع البقـاء فيـه بالبيـت ـ مع أن الأمسـيّة كلهـا هكذا ـ لـم يكن من الضـروري أن أذهب إلى بيت كسـكين. أذهـب إلى الحفلات حقيقـة حينًـا، وأخرج على أمـل أن أتعرف على فتاة ممتعة تنسـيني فسـون أحيانًا، وأسـعد بالشـرب والثرثرة مع أصدقائي في أحايين. عندما أصادف نورجيهـان ومحمد في بيت يصطحبني إليـه زعيم لحضور حفل يقيمه أحد أقربائه البعيدين وقد دخل المجتمع الراقي حديثًا، أو عندما أقابل أصدقائي القدامى في أحد النوادي الليلية التي يجرني إليها طيفون بعد منتصف الليل أثناء استماعهم أغنيات تركية خفيفة أكثرها مسروق من الأغنيات الإيطالية والفرنسية، ونفتح زجاجة ويسكي جديدة، أنجرف وراء أفكار خاطئة بأنني أعود تدريجيًّا إلى حياتي الصحية السابقة.

لا أدرك خطورة مشكلتي وعمقها قبيل ذهابي إلى بيت فسون وأنا متردد وخجل، بل أدركها على الأغلب في لحظات التردد والجمود بعد أن أجلس معهـم إلى الطاولة الطويلة، وأتناول العشـاء، وأشـاهد التلفـاز، ويحل وقت العـودة إلـى البيت. غيـر الخجل العام الذي يجب أن أشـعر به وهو مناسـب

لوضعي على مدى الأعوام الثمانية، وشعرت به بكل أحاسيسي، هناك خجل خاص أيضًا اضطررت لمواجهته: هذا الخجل من نهوضي في بيت تشوقور جمعة، وعدم تمكني من الذهاب بأي شكل.

عندما ينتهي بث التلفاز كل يوم بمشهد العلم وقبر أتاتورك والجنود الأتراك ما بين الحادية عشرة والنصف والثانية عشرة، وظهور المشهد الضبابي ـ كأنه يمكن أن يظهر برنامج آخر بالخطأ ـ، ومشاهدتنا له مدة، يقول السيد طارق: «ابنتي فسون، أغلقي هذا!»، أو أن فسون تغلق التلفاز تلقائيًّا بلمسة منها. في تلك اللحظة يبدأ اضطرابي الخاص الذي أريد أن أحلله. كان هذا شعورا بأنهم سينزعجون إذا لم أنهض، وأذهب. لم أكن أستطيع معرفة ما إن كنت محقًّا بهذا الشعور أم لا. أقول لنفسي فورًا: «بعد قليل أنهض». لأنني سمعت كثيرًا من الوخز الكلامي بحق الجيران الذين يجلسون، وينهضون عند انتهاء برامج التلفاز، ويذهبون دون أن يقولوا: «تصبحون على خير» وكأنهم جاءوا لمشاهدة التلفاز فقط. لا أريد أن أكون منهم.

يعرفون بالتأكيد أنني لم آتِ لمشاهدة التلفاز، بل لأكون قريبًا من فسون، ولكن بما أنني أتصل أحيانًا لأعطي ذهابي طابعًا رسميًّا، وأقول للعمة نسيبة: «لآتي، ونشاهد التلفاز معًا مساء، هناك برنامج صفحات من التاريخ!»، فإنني يجب أن أنهض، وأذهب عندما تنتهي برامج التلفاز. لهذا السبب أبدأ التركيز على التفكير بأنني يجب أن أجلس قليلًا، ثم أنهض، ولكنني لم أكن أستطيع فعل هذا بأي شكل. أجلس في مكاني إلى الطاولة، أو في زاويتي على الأريكة التي بشكل «L» دون أن أتحرك، كأنني ملتصق، وفي إحدى «اللحظات» التي أتغرّق فيها بشكل خفيف، أفكر بدقات الساعة الجدارية التي تقلقني، وأعيذ على نفسي أربعين مرة: «يجب أن أنهض الآن!»، ولكنني على الرغم من هذا لا أتحرك، وأجلس في مكاني دون أن أتحرك.

ولم أستطع إيجاد تفسير مقنع لانكماشي حتى بعد سنين طويلة ـ مثل

الغرام الذي عشته ـ ويخطر ببالي أن ما يكسر إرادتي في تلك الأثناء ما أورده مرقمًا أدناه:

١ ـ بعد كل قول لي: «لأنهض الآن يا سيدي!»، من المؤكد أن يقول لي السيد طارق أو العمة نسيبة: «آآ، انتظروا سيد كمال، ما أجمل جلستنا!»، ويمسكان بي.

٢ ـ إذا لم يقولا هما هذا، تبتسم فسون بشكل لذيذ، وتنظر نظرة مفعمة بالأسرار، فتشوش عقلي أكثر.

٣ ـ فجأة يبدأ أحدهم قصة جديدة، أو يفتح موضوعًا جديدًا. ولأنه من المعيب أن أنهض قبل انتهاء القصة، أجلس ثلث ساعة قلقًا.

٤ ـ عندما تلتقي عيناي بعيني فسون، أنسى الزمن، وعندما ألقي نظرة على ساعتي من دون أن أُشعر أحدًا، أرى بارتباك أن ثلث ساعة قد مرت، فأقول ثانية: «أنا ناهض يا سيدي!»، ولكنني لا أستطيع النهوض ثانية. وعندما لا أستطيع النهوض، أغضب من ضعفي، وعدم حركتي، وأشعر بخجل عميق بحيث تبدو لي اللحظة التي أعيشها ثقيلة لا يمكن تحملها.

٥ ـ يبحث عقلي حينئذ عن ذريعة للبقاء فترة أخرى، وأعطي لنفسي مهلة أخرى.

٦ ـ يحدث أن يأخذ السيد طارق لنفسه كأس عرق، ولعلني يجب أن أنضم إليه.

٧ ـ أنتظر الساعة الثانية عشرة، وإذا قلت: «صارت الثانية عشرة، لأنهض إذًا!» فهذا يسهّل خروجي.

٨ ـ لعل تشتين في المقهى الآن وسط حديث، يمكنني أن أنتظر قليلًا.

٩ ـ هناك شبّان من أبناء الحي يجلسون بجانب الباب، ويدخنون، ويتحدثون فيما بينهم، إذا خرجت الآن، لا بد أن يروجوا عني بعض الشائعات

(أقلقني الصمت الذي يخيّم على شباب الحي الذين أقابلهم أثناء ترددي على بيت عائلة كسكين، ولكن رؤيتهم علاقتي الجيدة مع فريدون، تجعلهم لا يستطيعون قول: «شرف الحي»).

وجود فريدون، أو غيابه يزيد قلقي. أصلًا أنا أفهم صعوبة وضعي من نظرات فسون. الأصعب أن تعطيني فسون أملًا بنظراتها، وتطيل أمد ألمي. عندما أفكر بأن فريدون يثق كثيرًا بزوجته، أستنتج أنهما يعيشان زواجًا سعيدًا، فأتألم أكثر.

الأفضل أن أفسر عدم اهتمام فريدون بالمقدسات والتقاليد. في الحقيقة أنني أجد تفكير فريدون معقولًا بأنني لا يمكن أن أفكر بمحاولة التقرب من فسون وأنا أشاهد التلفاز كل مساء وسط جو سعادة أسرية في بلد يمكن أن يؤدي التحرش الكلامي بامرأة متزوجة أمام أبيها وأمها إلى القتل. أحيط عشقي ومائدة العائلة التي أجلس إليها بلباقة ومحظورات بحيث حتى لو فهم من كل حركة لي بأنني غارق بعشقي لفسون، فقد كنا مكلفين جميعًا «بالتظاهر» بعدم وجود شيء كهذا. وكنا واثقين من عدم تخريب هذه المهمة المكلفين بها. عندما أنتبه إلى هذا الأمر أدرك أنني بفضل هذا أستطيع رؤية فسون كثيرًا، وليس بفضل القوانين الحساسة والتقاليد.

لكي ألفت الانتباه إلى هذه النقطة المهمة جدًّا، لأشرح الأمر نفسه بمثال آخر: إذا ذهبت إلى بيت عائلة كسكين أربع مرات أسبوعيًّا في مجتمع غربي حديث تكون فيه العلاقات بين الرجال والنساء أكثر راحة، ولا يوجد خباء وموانع، سيضطر الجميع هناك لقبول أنني أذهب لرؤية فسون. وسيضطر الزوج الغيور لإيقافي. لهذا السبب، في دولة كتلك لا أستطيع رؤيتهم على هذا النحو، ولا يمكن أن يغدو غرامي لفسون بالشكل الذي عشته.

إذا كان فريدون في البيت في تلك الليلة، فلن يكون صعبًا عليّ النهوض، والذهاب. وإذا خرج فريدون مع أصدقائه السينمائيين، بعد إغلاق التلفاز، كنت أجلسُ دون تفكير من باب المجاملة عندما يقال لي: «اشربوا كأس

شـاي آخر!» أو «اجلسـوا يا سـيد كمال رجاء!» وكنت أقول لنفسـي لأضبط ذهابـي على مجيء فريدون. ولكنني لم أقرّر بالضبط على مدى ثمانية أعوام ما إذا كنت سأنهض قبل مجيء فريدون أم بعده.

في الأشهر الأولى، والأعوام الأولى كنت أعتقد بأن نهوضي، ومغادرتي قبـل مجيء فريدون أفضل. لأنني أشـعر بأنني بحالة سـيئة جدًّا عندما يدخل فريـدون، وتلتقي أعيينا في اللحظات الأولى. فـي تلك الليالي، كان علي أن أشـرب ثلاث كئوس من العرق لكي أسـتطيع النوم بعد عودتي إلى البيت في نيشـان طـاش. غير هذا فإن نهوضـي فور دخول فريدون يعنـي أنني لا أحبه، وأنني آتي لرؤية فسـون. لهذا السبب عليّ أن أجلس نصف ساعة على الأقل بعد مجيئه، وهذا يُربِّط يدي ورجلي أكثر، ويزيد خجلي الداخلي. أما المغادرة قبـل مجيء فريدون، فهي تعني قبـول ذنبي وخجلي، والهرب منه بكل معنى الكلمة. ولا أجد هذا مناسبًا. لا يمكنني أن أتصرّف كملاحقي النساء عديمي الشـرف الذين يحاولون إغواء الكونتيسة بشكل مباشر، ويهربون قبل وصول الكونت في الروايات الأجنبية! هذا يعني أنه يجب أن يكون هناك زمنٌ طويل بيـن ذهابـي ومجيئه. وهـذا يعني خروجي مـن بيت عائلة كسـكين في وقت مبكر. لم أكن أسـتطيع فعل هذا. لا أسـتطيع النهوض في سـاعة متأخرة، ولا أستطيع النهوض نهائيًّا في ساعة مبكرة.

أجلـس علـى أريكتـي دون أن أنهـض مثل سـفينة غارقـة، أو كوم فشـلٍ وخجـل. كنـت أعمل على أن تلتقـي عيناي بعيني فسـون، وأن أحس بحالي أفضل. عندما أدرك في لحظة صفاء ذهني أنني لن أستطيع النهوض والمغادرة بعد فترة قصيرة كما اعتقدت، كنت أجد ذريعة أخرى لجمودي.

١١ ـ أقول لنفسـي لأنتظر فريدون، وأسأله السـؤال الفلاني حول السيناريو. وحاولـت عمل هـذا، والحديث مع فريـدون عدة مرات بعـد عودته إلى البيت.

قلت ذات مرة: «يقال إن هناك طريقة لأخذ خبر سـريع من لجنة الرقابة يا

فريدون. هل سمعت بهذا؟». إن لم أكن قد قلت هذه الجملة بحرفيتها، فقد قلت ما يشبهها، وخيّم صمت كالجليد على الطاولة.

قال فريدون: «هناك اجتماع لسينمائي شركة إرلر في مقهى بانايوت».

بعدئذ قبّل فسون بحركة تمزج بين الصدق والتصنع كما في الأفلام الأمريكية عندما يعود الزوج من العمل إلى البيت. أحيانًا أشعر من عناق فسون له بأن هذه القبلات حقيقية، وتخرب معنوياتي بشكل سيئ.

في أغلب الأحيان يذهب فريدون إلى المقاهي مع كتاب الوسط السينمائي ورساميه وعمال مواقع تصوير ومصورين إلى المقاهي، ويذهب إلى اللقاءات في البيوت، ويشارك أناسًا متخاصمين متشاجرين صاخبين لأسباب عديدة ونمامين مهمومين بحياتهم. يعطي فريدون لحياة هؤلاء الناس الذين يأكل ويشرب معهم باستمرار، وشجارهم وأحلامهم أهمية كبرى، ومثلما يفرح بسهولة لفرح زملائه السينمائيين المؤقت، يحزن بشدة فورًا لحزنهم. عندما أرى أن فسون لم تستطع الخروج للهو في الليالي التي أذهب إليهم فيها، أقرر بأنني حزنت دون سبب. أساسًا في الليلة أو الليلتين اللتين لا أذهب فيهما، تلبس فسون أحد قمصانها الأنيقة، وتعلق أحد الدبابيس ذات شكل الفراشة التي جلبتها لها، وتخرج مع زوجها إلى بيَه أوغلو، ويجلسان لساعات في مكان مثل بلور أو ستارة. فيما بعد أعرف من فريدون ما فعلاه في تلك السهرة بالتفصيل.

فريدون وأنا والعمة نسيبة نعرف جيدًا أن فسون تريد أن تدخل بعمل السينما في أسرع وقت ممكن. من جهة أخرى كنا منتبهين إلى أنه من غير المناسب أن نناقش هذا الموضوع أمام السيد طارق. كان السيد طارق «يؤيدنا» بصمت، ولكننا يجب ألا ندخله بهذه القصص. على الرغم من هذا، أريد أن يعرف بأنني أدعم فريدون. بعد تأسيس ليمون بسنة حتى عرفت من فريدون بأن حماه منتبه إلى الدعم الذي أقدمه لصهره.

في العام الذي مرّ، أسست زمالة عمل، وحتى صداقة شخصية مع فريدون

خارج بيت عائلة كسكين. كان فريدون شخصًا صادقًا جدًّا وعقلانيًّا وصديقًا. نلتقي أحيانًا في مكتب ليمون للسينما، ونتحدث حول السيناريو، والمصاعب التي تضعها لجنة الرقابة، والمرشحين لتمثيل دور البطولة أمام فسون.

منذ الآن هناك ممثلان وسيمان ومشهوران جدًّا قالا لفريدون بأنهما مستعدان للتمثيل أمام فسون في الفيلم الفني، ولكننا ـ فريدون وأنا ـ ننظر إليهما بشك. لا نثق بإنسانية هذين المحتالين اللذين يقتلان الكهنة البيزنطيين في الأفلام التاريخية، ويسقطان أربعين لصًّا بصفعة واحدة، ونعرف أنهما سيحاولان إغواء فسون فورًا. ومن مهارات هذين الممثلين المدللين بالشاربين الأسودين المهنية المهمة تقديمهما تصريحات توحي بأنهما ضاجعا الممثلة التي مثلت أمامهما حتى لو لم تكن قد بلغت الثامنة عشرة. ولأن عناوين الصحف من قبيل: «القبلات في الفيلم كانت حقيقية»، أو «العشق المحرم المتطور في موقع التصوير» تشهر نجوم الفيلم، وتجذب الناس إلى السينما فهي جزء مهم من العمل السينمائي، ولكنني كنت مع فريدون ننوي إبعاد فسون عن قباحة من هذا النوع. عندما أعطينا قرارًا بحماية فسون، وضعنا بعين الاعتبار النقود التي سيفقدها فريدون، فأرسلت من صاطصاط مزيدًا من النقود لميزانية الفيلم.

أقدمت فسون على تصرف في تلك الأيام أقلقني كثيرًا. عندما ذهبت إلى بيت تشوقور جمعة ذات مساء، قالت لي العمة نسيبة بلهجة الاعتذار بأن فسون خرجت مع فريدون إلى بيه أوغلو. ومن دون أن أبدي أي امتعاض، ألقيت همي بقلبي، وجلست مع السيد طارق والعمة نسيبة، وشاهدت التلفاز. عندما رأيت أن فسون قد ذهبت مع زوجها مرة ثانية ذات ليلة أخرى بعد أسبوعين، دعوت فريدون على الغداء، وشرحت له بأنه ليس من الجيد أن تقضي فسون كثيرًا من الوقت مع زحام السينمائيين السكارى، وهذا ليس جيدًا من أجل فيلمنا الفني. كان على فريدون أن يطلب من فسون أن تبقى في البيت بذريعة مجيئي. وشرحت مطولًا بأن هذا أفضل بالنسبة لكل من العائلة والفيلم الذي سنصوره.

كان يقلقني كثيرًا عدم التزامه بتنبيهاتي بشكل كافٍ. عندما ذهبت ذات ليلة إلى البيت، ولم أجد فسون وفريدون، فهمت أنهما مستمران بالسهر معًا في بلور والأمكنة المشابهة وإن لم يكن كثيرًا كما في السابق. في تلك الليلة أيضًا جلست مع السيد طارق والعمة نسيبة، وشاهدت التلفاز بصمت. جلست مع السيد طارق والعمة نسيبة حتى عودة فسون وفريدون في الثانية بعد منتصف الليل، وحدثتهما عن أمريكا وأوضاعها من سنوات دراستي فيها: الأمريكان مجدون جدًّا، وفي الوقت نفسه سذّج وطيبو القلوب؛ ينامون باكرًا؛ ابن أكبر الأغنياء، يركب دراجة هوائية صباحًا تحت ضغط والده، ويدور على الأبواب بابًا بابًا، ويوزع الجرائد أو الحليب. سمعاني بفضول، ولكنهما كانا يبتسمان كأنني أمزح. فيما بعد سأل السيد طارق عن أمر يتوق كثيرًا لمعرفته: صوت جرس الهاتف في الأفلام الأمريكية مختلف تمامًا عما لدينا. هل ترن الهواتف كلها في أمريكا بتلك الرنة، أم أنها خاصة بالأفلام فقط؟ فجأة تشوش عقلي، وانتبهت إلى أنني نسيت كيف كان صوت رنين الهواتف في أمريكا. وهذا ما أعطاني انطباعًا بعد منتصف الليل بكثير أنني تجاوزت شبابي والحرية التي عشتها في أمريكا بمسافة طويلة. قلد السيد طارق صوت الهاتف في الأفلام الأمريكية. وحتى إن الصوت يصدر بحدة أكبر عندما يكون الفيلم بوليسيًّا. وقلد هذا أيضًا. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية، وكنا نشرب الشاي وندخن السجائر، ونتضاحك.

لا أستطيع حتى اليوم أن أقول ما إن كنت قد بقيت إلى تلك الساعة لكي لا تخرج فسون عندما آتي، أم لأنني سأكون تعيسًا جدًّا فيما لو لم أرها. ولكن فسون لم تعد تخرج مع فريدون في الأمسيات التي آتي فيها بعد أن فتحت هذا الموضوع معه بشكل جاد، وقلت بإصرار إننا يجب أن نحميها معًا من زحام السينمائيين السكارى.

في تلك الفترة بدأنا ـ فريدون وأنا ـ بالحديث عن إمكانية إنتاج فيلم تجاري لدعم الفيلم الفني الذي ستمثل فيه فسون. يمكن أن تكون فكرة الفيلم هذا الذي لن تُمثل فيه فسون أقنعتها بالبقاء في البيت. وكانتقام، بدأت

فسـون تتركنـا ليلًا، وتصعد لتنام قبـل أن أذهب. وكنت أسـتنتج من هذا أنها مقاطعة لي. ولكنها لا تفقد أملها بأن تكون نجمة سـينمائية، فتعاملني بدفء أكثر من أي مرة سـبقت، وتسـأل عن أمي دون مناسـبة، وتضع ملعقة أرز في صحني تلقائيًّا، وهكذا لا أستطيع بأي شكل أن أنهض، وأذهب.

صداقتـي المتطورة تدريجيًّا مع فريدون، لـم تمنعني من الشـعور بنوبات عـدم تمكنـي من النهـوض قبل مجيئـه. فور دخول فريدون، أشـعر بنفسـي «زائـدًا» هناك. كأنني لا أنتمي إلى ذلك العالم الذي أراه في حلمي، ولكنني أصر على الانتماء إليه. بعد أن عرضت الأخبار الأخيرة في إحدى ليالي آذار/ مارس ١٩٧٧ الاجتماعات السياسـية والمقاهي، والسياسـيين المعارضين المطلق عليهم الرصاص، وفي ساعة متأخرة جدًّا (لم أعد أستطيع النظر إلى السـاعة نتيجة خجلي)، لا أنسـى التعبير الذي ظهر على وجه فريدون عندما رآني في البيت. كانت نظرة إنسـان طيب مهمـوم من أجلي ـ ولكن من جهة أخـرى ـ كان علـى وجهه تعبير بريء مليء بالطيب والتفاؤل والاسـتخفاف ومقابلة كل شيء بشكل طبيعي.

بعـد انقـلاب ١٢ أيلـول ١٩٨٠ العسـكري، وفـرض حظـر تجـول بعد السـاعة العاشـرة، وُضع حد لمرحلة همي بعدم اسـتطاعتي النهوض. ولكن همـي لـم ينته مع حالة الطـوارئ. كأن الفتـرة ضُغطت في فتـرة زمنية قصيرة فقط. أزمة نهوضي من مكاني في ليالي حالة الطوارئ تحل بثقلها اعتبارًا من الساعة التاسعة والنصف، وعلى الرغم من قولي لنفسي في كل لحظة: «الآن أنهض!»، لم أكن أستطيع النهوض. ولأن الزمن الذي يضيق باستمرار لا يدع لي مجالًا للراحة، يصبح ارتباكي غير محتمل في العاشرة إلا ثلثا.

وعندما ألقي بنفسي في النهاية إلى الشارع، وسيارة الشيفروليه، يسيطر علي مع تشـتين ارتباك «هل نصل إلى البيت قبل سـاعة الحظر؟» وفي كل مـرة نتأخـر أربع أو خمـس دقائق. كان الجنود بعد السـاعة العاشـرة (فيما بعد مددت إلى الحادية عشـرة) لا يوقفون السـيارات التي تسير في الشارع

بأقصى سرعة في الدقائق الأولى من الحظر. كنا في طريق العودة نتفرج على حوادث السير التي يعملها السائقون قبيل ساعة الحظر في ساحة تقسيم وحربية وضولمة بهتشة، ونزولهم من السيارات، ودخولهم شجارًا بالأيدي والأرجل. أذكر أننا رأينا خلف قصر ضولمة بهتشة سيارة خاصة ماركة بلايموث وسط دخان أزرق يخرج منها سيد محترم معه كلب. كان ظلام الأزقة المقشعر للأبدان، وخواء الشوارع الخفيفة الظلمة تخيفنا في طريق العودة. وعندما أعود إلى البيت في النهاية، وأشرب كأسًا أخيرة قبل النوم، أذكر أنني توسلت إلى الله أن يعيدني إلى الحياة. ولكن هل كان هذا نتيجة الرغبة بالتخلص من العشق وعقدتي إزاء فسون؟ الآن بعد سنين طويلة لا أعرف هذا بالضبط.

أي كلمة طيبة أسمعها قبيل خروجي، وذهابي، عدة كلمات حلوة ومتفائلة حتى وإن كانت غامضة يقولها أهل البيت عني، تمنحي أملًا، وتشعرني بأنني سأكسب فسون ثانية، وأن زياراتي هذه ليست سدى، وهكذا يمكنني النهوض، والعودة إلى بيتي دون مواجهة صعوبة كبرى.

عبارة ممتعة تقولها لي فسون في لحظة غير متوقعة نهائيًّا على المائدة مثل: «ذهبت إلى الحلاق، قصره كثيرًا، ولكنه لائق بك!» (١٦ أيار/ مايو ١٩٧٧)، أو قول والدها عني بحنان: «يحب الكفتة مثل اليافعين، أليس كذلك؟» (١٧ شباط/ فبراير ١٩٨٠) أو قولها في ليلة مثلجة فور دخولي: «لم نجلس إلى المائدة لأننا ننتظرك يا كمال، كنا نقول سيأتي هذا المساء إن شاء الله». كانت تسعدني إلى درجة أنني مهما كنت متشائمًا في ذلك المساء أثناء المجيء إلى البيت، ومهما كانت إشارات الشؤم التي أتلقاها أثناء مشاهدة التلفاز، أنهض من مكاني بشكل حازم عندما يحل الوقت المناسب، وألتقط المعطف المعلق على العلّاقة الصغيرة بجانب الباب بحركة واحدة، وأخرج من دون أي تأخير. المسير نحو الباب، وارتداء المعطف منذ البداية، والقول بعدئذ: «عن إذنكم، أنا ذاهب!» تسهّل علي الخروج والمغادرة. وإذا خرجت من البيت باكرًا، أشعر بنفسي في السيارة

التي يقودها تشتين في طريق العودة أنني بحال جيدة، وأفكر بأعمال اليوم التالي، وليس بفسون.

عندما أذهب إلى العشاء لديهم بعد يومين إثر كل هذا الضجيج والصخب، وأرى فسون فور دخولي من الباب، أفهم فورًا الأمرين اللذين يشدانني إلى هناك:

١ ـ إذا كنت بعيدًا عن فسون، فإن الدنيا تبدو لي مثل أحجية غاية في التعقيد. عندما أرى فسون، أشعر بأن الأحجية حلت، وكل شيء اتخذ مكانه فجأة، وأتذكر بأن العالم مكان له معنى وجميل، وأرتاح.

٢ ـ كلما ذهبت إليهم مساء، والتقت عيناي بعينيها، يتصاعد في داخلي شعورٌ بالنصر. كان هذا نصرًا بذهابي إلى هناك على الرغم من مؤشرات الشؤم وجرح الكرامة وكل شيء، وعلى الأغلب أرى شعاع هذه السعادة في عيني فسون أيضًا. أو أنني أعتقد هذا، وأشعر بأن عنادي وحزمي قد أثرا عليها، وأؤمن بجمال الحياة التي أعيشها.

٥٨ ـ طومبالا

قضيت ليلة رأس السنة التي تربط بين عامي ١٩٧٦ و١٩٧٧ في بيت عائلة كسكين بلعب الطومبالا. لعلني تذكرت بسبب ذكري «جماليات الحياة» قبل قليل. ولكن ذهابي إلى بيت عائلة كسكين من أجل متعة رأس السنة مهم، لأنه يشير إلى تغيّري الذي لا يمكن إنكاره. انفصلت عن سيبل، واضطررت للابتعاد عن محيط أصدقائي، وتغير كثير من عاداتي بالذهاب أربع أو خمس مرات إلى بيت عائلة كسكين. ولكنني حتى ذلك الوقت كنت أقنع نفسي ومن حولي بأنني ما زلت أستطيع العودة إلى حياتي.

كنت آخذ من زعيم أخبار معارفي الذين ابتعدت عنهم كي أتخلص من مشكلة الابتعاد عن سيبل، وعدم جرح قلب أحد بالذكريات السيئة، وتفسير

سبب عدم ظهوري باستمرار لمن حولي. ألتقي بزعيم في فوآية أو كراج أو أي مطعم من مطاعم الطبقة الراقية المفتوحة حديثًا، وكصديقين يتحدثان عن العمل بشغف، نتحدث مطولًا بمتعة عما يفعله كل شخص، وعن الحياة.

لم يعد زعيم مسرورًا من حبيبته الشابة التي بعمر فسون. يقول إنه يجدها طفلة، ولا يستطيع مشاركتها همومه ومشاكله، ولم تستطع التواؤم مع مجموعتنا بأي شكل. وإثر سؤالي، أصر على عدم وجود حبيبة أو مرشحة حبيبة لديه. أفهم مما رواه زعيم أن علاقته بعائشة لم تتجاوز القبل، وأن الفتاة حذرة ومحتاطة، وستحافظ على نفسها طالما لم تثق بزعيم.

في أثناء حديثنا بهذا الأمر، قال زعيم: «لماذا تضحك؟».

«لا أضحك».

قال زعيم: «لا، إنك تضحك، ولكنني لا أهتم. لأقل لك شيئًا يضحكك أكثر. نورجيهان ومحمد يلتقيان في أيام الأسبوع السبعة تقريبًا، ويجوبان على المطاعم والنوادي. محمد يصطحب نورجيهان إلى النوادي، ويسمعها الأغاني ومعزوفات التخت الموسيقي القديمة. يجدان المطربين الذين بلغوا السبعين أو الثمانين، وغنوا في زمن ما في الإذاعة، ويصاحبانهم».

«لا تقلها يا هذا... لم أكن أعرف أن نورجيهان لديها هواية قوية كهذه..».

عشقها لمحمد جعلها هكذا. في الحقيقة أن محمدًا لا يعرف الأغاني القديمة كثيرًا. إنه يتعلمها بانفعال ليؤثر على نورجيهان. يذهبان معًا إلى الصحّافين، ويشتريان الكتب، وإلى سوق الأشياء المستعملة لإيجاد الأسطوانات القديمة... وفي المساء يذهبان إلى مكسيم أو مقصف ببك ويستمعان إلى مزيّن شنر... ولكنهما لا يذهبان للاستماع للأسطوانات معًا».

«كيف؟».

قال زعيم بانتباه: «يخرجان كل مساء، ويذهبان إلى المقاصف، ولكنهما لا يبقيان على انفراد ولو مرة ليمارسا الحب».

«كيف تعرف؟».

قال زعيم: «أين سيلتقيان؟ ما زال محمد يسكن مع والده ووالدته».

«كان لديه مكان يصطحب إليه النساء في النواحي الخلفية لماتشكا..».

قال زعيم: «أخذني إلى هناك لشرب الويسكي. ذاك المكان يناسب خليلة تمامًا. إذا كانت نورجيهان ذكية، لا يمكن أن تعتب ذلك المكان السيئ، وإذا عتبته، فستدرك أن محمد لن يتزوجها. حتى أنا شعرتُ بغرابة: الجيران ينظرون من ثقب الأبواب ليروا ما إن كان هذا الرجل قد جلب معه عاهرة هذا المساء».

«ماذا يفعل محمد إذًا؟ وهل من السهل أن يستأجر عازب شقة في هذه المدينة؟».

قال زعيم: «ليذهبا إلى الهيلتون، أو ليشتر لنفسه شقة في حي جيد».

«محمد يدوخ إعجابًا بحياة العائلة مع والده ووالدته».

قال زعيم: «وأنت معجب بها أيضًا. هل أقول لك أمرًا بصدق؟ ولكن عدني ألا تغضب».

«لن أغضب».

«لو أنك أخذت سيبل إلى بناء مرحمة الذي أخذت إليه فسون بدلًا من لقائك بها سرًّا في المكتب كأنك تفعل شيئًا محظورًا، صدقني لكنتما الآن معًا».

«هل قالت لك سيبل هذا؟».

قال زعيم: «لا يا عزيزي، سيبل لا تحدث أحدًا بأمور من هذا النوع. لا تشغل بالك».

صمتنا قليلًا. تعكر صفوي من وصول حديثنا الممتع إلى همومي، وذكر ما عشته كأنه كارثة وقعت لي. لأن زعيمًا انتبه إلى هذا، حكى لي عن لقائهم جميعًا ـ محمد، نورجيهان، طيفون وفاروق الفأر ـ عند بائع حساء الكوارع في بيه أوغلو. بعدئذ ذهبوا بنزهة إلى البوسفور في سيارتين. وذات أمسية أخرى، بينما كان مع عائشة في السيارة يشربان الشاي، ويستمعان للموسيقى في أميرغان، صادفا حلمي اللقيط والآخرين، وخرجا معهم، وذهبوا بأربع سيارات إلى باريزيان المفتوح حديثًا في ببك، ومن هناك إلى النادي الليلي الذي تعزف فيه فرقة الأوراق الفضية.

لم أكن أهتم كثيرًا بتفاصيل المتع وملاهي حياة الليل التي يرويها زعيم بشيء من التشويق والتزويق من أجل جذبي إلى حياتي السابقة، ولكنني أقبض على نفسي بعد ذلك مساء في بيت عائلة كسكين وأنا أتخيل تلك الملاهي. ولكن يجب ألا يُعتقد بأنني أشعر بالقهر لعدم تمكني من الاستمرار مع أصدقائي السابقين ومتعي السابقة. عندما أكون على مائدة عائلة كسكين، يسيطر عليّ أحيانًا شعور بأنه ليس ثمة شيء في العالم، وإن حدث شيء، فهو في مكان بعيد جدًّا عنا، وهذا كل شيء.

يجب أن يكون شعور كهذا سيطر علي ليلة رأس سنة ١٩٧٧، مما جعلني أتوقف لحظة وسط اللهو كما أذكر، وأتخيل ما يفعله زعيم وسيبل ومحمد وطيفون وفاروق الفأر، وبقية الأصدقاء (وضع زعيم في البيت الصيفي مدافئ كهربائية، وأرسل البواب لإشعال الشومينة، وأقام حفلة مزدحمة «للجميع»).

قالت فسون: «انظر يا كمال، سحب رقم ٢٧، وهي معك!». وعندما رأت أنني غير منتبه إلى اللعبة، وضعت بيدها حبة فاصولياء جافة، وغطت الرقم ٢٧، وابتسمت، وقالت: «لا تسخر!». ونظرت للحظة بانتباه وقلق وحتى بحنان إلى عيني.

من المؤكد أنني كنت أذهب إلى بيت عائلة كسكين من أجل اهتمام

فسون هذا. سعدت بشكل مذهل. ولكنني لم أحصل على هذه السعادة بسهولة. تناولت الطعام بداية مع والدتي وأسرة شقيقي في بيتنا من أجل إخفاء أنني سأقضي رأس السنة في بيت عائلة كسكين لكي لا يحزنا. فيما بعد، عندما قال ابنا أخي عثمان: «هيا يا جدتي، لنبدأ لعب الطومبالا!»، لعبت معهم دورًا. وأذكر أننا أثناء لعبنا الطومبالا كعائلة، التقت عيناي بعيني برين، وشكّت بمشهد العائلة السعيد المصطنع هذا، ورفعت حاجبيها كأنها تقول: «خير!».

همست لبرين: «لا شيء، ها نحن أولاء نلهو!».

فيما بعد، قلت إنني يجب أن أذهب إلى الحفل الذي يقيمه زعيم، وقبيل خروجي راكضًا من البيت، قابلت عيني برين اللتين لم تنطل عليها الذريعة، ولكنني لم أبدِ أي تعبير.

كنت مرتبكًا ولكنني سعيد في أثناء الذهاب إلى بيت عائلة كسكين بالسيارة التي يقودها تشتين بسرعة. لا بد أنهم ينتظرونني على العشاء. أنا أول من فتح أمر رغبتي بقضاء رأس السنة عندهم للعمة نسيبة، وعندما كنا على انفراد خلف الباب أكدت أنني سآتي. هذا كان يعني: «رجائي ألا تخرج فسون في تلك الليلة مع زوجها للهو مع أصدقائهما!». لأنني أدعم أحلامهما بالفيلم بنية طيبة على هذا النحو، فإن خروج فسون من البيت فيما أشعر بنفسي قريبًا جدًّا من العائلة إلى هذه الدرجة، معيب جدًّا، وتصرف طفولي بالنسبة إلى العمة نسيبة. قالت العمة نسيبة أيضًا إنها تعتبر خروج فريدون في الليالي التي آتي فيها «تصرفًا طفوليًّا». ولأن أحدًا لا يشكو من هذا الأمر، فهذه طفولة نسايرها جميعنا: أما كانت العمة نسيبة تقول عن فريدون عندما لا يكون في البيت «الولد»؟

قبل خروجي من البيت، أخذت مجموعة من الهدايا التي حضرتها والدتي من أجل الرابحين في لعبة الطومبالا. عندما ذهبت إلى بيت عائلة كسكين، وصعدت الدرج راكضًا، وفور دخولي ـ طبعًا بعد أن سعدت بالتقاء

عيني بعيني فسون ـ أخرجت هدايا والدتي من كيس النايلون، وصففتها على طرف الطاولة بمـرح، وقلت: «من أجل الرابحيـن بالطومبالا!». وكما تفعل أمـي في كل رأس سـنة منـذ طفولتنا، حضرت العمة نسـيبة مختلـف الهدايا الصغيـرة للرابحيـن. خلطنا هداياها مع هدايا والدتي. وقد سـعدنا كثيرًا أثناء لعبنـا الطومبـالا في تلك الليلة إلـى درجة أن لعب الطومبـالا في ليالي رأس السنة التالية وخلط الهدايا التي أجلبها مع هدايا العمة نسيبة أصحبت عادة لا يمكـن التخلي عنها. أعرض مجموعـة الطومبالا التي لعبنا بها في بيت عائلة فسـون في ثمانـي ليالي رأس سـنة... وجعلتنا أمي نلهـو بمجموعة طومبالا مثـل هـذه في بيتنا طـوال أربعين سـنة منـذ أواخر الخمسـينيات إلـى أواخر التسـعينيات مع أخـي وأقربائنـا بداية، ثم مـع أحفادها في السـنوات التالية. وفي نهاية ليلة رأس السـنة، عندما تنتهي اللعبة، وتُوزع الهدايا، ويبدأ الأولاد والجيران بالتثاؤب والنـوم، تجمع مجموعة الطومبالا بعناية مثل أمي، وتعد القطع الخشبية التي نسحبها من الكيس المخملي واحدة تلو أخرى (تسعون قطعـة)، وتطبـق بطاقات اللعب بعضها فوق بعض، وتربطها بشـريط، وتضع حبات الفاصولياء التي نسـتخدمها للتأشير على البطاقات الرقمية في كيسها، وتخبئها في إحدى الزوايا حتى ليلة رأس السنة القادمة.

والآن في أثناء بذلي الجهد لشـرح عشـقي الذي عشـته بعد أعوام طويلة بـكل صدق وبكل تفاصيله، أشـعر بأنني أشـير بعمق إلـى روح تلك الأعوام الغريبة والسـحرية للعبنا الطومبالا في رأس السـنة. انتشـرت لعبة الطومبالا الخاصة بنابولي وتجتمع العائلات الإيطالية، وتلعب بها ليلة الميلاد مع كثير من عادات رأس السـنة في إسـطنبول عن طريق العائلات الشـامية المسيحية والإيطاليـة بعـد إصلاح أتاتـورك للتقويم، وغـدت خلال فترة قصيـرة جزءًا مـن لهو رأس السـنة الذي لا يسـتغنى عنـه. فـي الثمانينيات كانـت الجرائد تهـدي لقرائها مجموعات طومبالا من ورق مقـوى رخيص، وأحـجار رقمية بلاستيكية. في تلك السنوات ظهر آلاف ملعبي الطومبالا في شوارع إسطنبول يحملون أكياسًا سوداء، ويعطون للرابحين سجائر أمريكية مهربة أو ويسكي.

ملعبو الطومبالا في الشارع هؤلاء كانوا يسحبون النقود من يد المواطنين المستعدين دائمًا لتجريب حظهم بما يسمى «ميني طومبالا» بواسطة أكياس مغشوشة. تسمى اللعبة بالتركية «طومبالا» وهي تعني «القرعة والحظ»، ولعبتُها عدة مرات في أسبوع أثناء ذهابي إلى بيت فسون.

أستعرض النماذج التي اخترتها بعناية من الهدايا التي تحضرها والدتي والعمة نسيبة من أجل الرابحين بانفعال المتحفي ومن يشرح قصته باعتبارها قصة الأشياء.

كانت العمة نسيبة تضع منديلًا صغيرًا بناتيًّا أو صبيانيًّا بين هدايا الطومبالا كل رأس سنة بالتأكيد، وأمي تفعل الشيء نفسه. هل كان هذا يعني «لعل للطومبالا في رأس السنة سعادة خاصة بالبنات الصغار، ولكننا نحن الكبار أيضًا نسعد في تلك الليلة مثل الأطفال»؟ في أثناء لعب الطومبالا في رأس السنة في بيتنا عندما كنت طفلًا، وكسب أحد الضيوف الكبار بالسن إحدى الهدايا المخصصة للصغار، يقول: «آآ، كنت بحاجة لمنديل كهذا بالضبط». بعد هذه العبارة، يتبادل والدي وأصدقاؤه عبارات تحمل معانيَ مزدوجة، ويتبادلون إشارات بالعيون والحواجب. عندما أرى تلك الإشارات، أشعر بأن الكبار يلعبون الطومبالا بسخرية أو كما كان الأولون يقولون: «باستهزاء»، وأقلق. بعد سنين، في رأس سنة ١٩٨٠، أكملت حروف الصف الأول من بطاقة الطومبالا قبل الجميع في بيت عائلة كسكين، وعندما صرخت مثل الأطفال: «تشينكو»، قالت لي العمة نسيبة: «مبروك يا سيد كمال!» وأعطتني هذا المنديل. وأنا قلت حينئذ: «كنت بحاجة لمنديل كهذا بالضبط».

قالت العمة نسيبة بكل جديتها: «منديل فسون في طفولتها».

حينئذ أدركت أنني لعبت الطومبالا في ذلك المساء في بيت عائلة كسكين بكل براءتي من دون أي سخرية أو «استهزاء» مثلما لعب أبناء الجيران. كان يبدو على فسون والعمة نسيبة وحتى السيد طارق سخرية و»تصنع» ولو بشكل خفيف، ولكنني لعبت حتى النهاية بكل صدق. من ينظر إلى سخريتي

واستهزائي برواية ما فعله بي عشقي لفسون في بعض الأحيان من القراء وزوار المتحف، رجائي أن يتذكروا بأنني كنت صادقًا تمامًا وبريئًا على الدوام أثناء عيشي ما حدث.

وضع والدتي عدة جوارب أطفال بين هدايا سحب اليانصيب في كل سنة، يمنحنا شعورًا بأن الهدايا هي الأشياء التي يحتاجها البيت أصلًا. هذا الشعور يقلل بُعد الهدية، ولكنه يجعلنا ننظر إلى الجوارب والمناديل والهاون الذي نطحن فيه الجوز في المطبخ، والمشط الرخيص الذي نشتريه من دكان علاء الدين، كأنها أشياء قيّمة ولو لفترة قصيرة. أما في بيت عائلة كسكين، فيفرح الجميع وحتى الأولاد في نهاية اللعبة ليس على الجورب، بل لأنه كسب اللعبة. أفكر الآن بعد أعوام بسبب هذا الأمر، وأجد أن الأشياء التي توزع كأنها للبيت كله، وليس للأفراد فرادى كهذا الجورب مثلًا، ولكن هذا ليس صحيحًا بالضبط: أشعر بأن هناك غرفة في الطابق الأعلى تتشارك فيها فسون مع زوجها، وخزانة، وأغراضا خاصة بها، وكثيرًا ما أفكر بألم بتلك الغرفة، والأغراض التي داخلها، وألبسة فسون. ولكننا كنا نلعب الطومبالا في رأس السنة لكي لا أفكر بهذا. أحيانًا أثناء الجلوس إلى الطاولة في بيت عائلة كسكين، وبعد شرب كأسين من العرق، أشعر بأننا نشاهد التلفاز (ما نشعر به أثناء لعب الطومبالا أيضًا) بشعور البراءة.

عندما أنزل في جيبي أحد أغراض عائلة كسكين (ملعقة تحمل رائحة يد فسون ووصل عددها بعد أعوام إلى رقم كبير) أثناء لعب الطومبالا أو مشاهدة التلفاز في مساء عادي، يختفي شعور البراءة الطفولي الذي في داخلي فترة، وأشعر حينئذ بالحرية، وأدرك أنني أستطيع أن أنهض من هناك، وأغادر عندما أريد.

في لقائنا الأخير يوم خطوبتي أخذت القدح القديم الذي شربنا فيه ويسكي فسون وأنا (ذكرى جدي أدهم كمال) هدية لعبة الطومبالا المفاجئة في رأس سنة ١٩٨٠. لأن إنزال الأشياء من بيت كسكين في جيبي، وأخذها،

وجلب هدايا أغلى منها بكثير، مثل عشقي لفسون قضية مقبولة، ولكن لا يحكى فيها طوال أعوام لم يستهجن دخول هذا القدح الباهظ الثمن من النوع الذي يباع في دكان رافي برتقال للأشياء الأثرية بين الهدايا الصغيرة كالقلم والجورب والصابون. ما جرح قلبي هو إخراج العمة نسيبة الهدية عندما ربح السيد طارق السحب، وعدم انتباهها لهذا القدح الذي يحمل آثار أغلى يوم من أيام عشقنا فسون وأنا. أم أنها انتبهت، وغضبت من فجاجتي (قضى فريدون معنا رأس السنة تلك)، فتجاهلت الأمر؟

في الأعوام الثلاثة ونصف العام التالية كلما تناول السيد طارق الكأس لشرب العرق، أريد أن أتذكر آخر مرة مارسنا فيها الحب فسون وأنا، ولكنني لا أستطيع التفكير بهذا الموضوع كما يجب أثناء جلوس السيد طارق إلى طاولة عائلة كسكين مثل طفل.

قوة الأشياء مثلها مثل ما تختزنه من ذكريات ترتبط بالتأكيد بتجلي قوة خيالنا وذكرياتنا. صابون أدرنة هذا، والعنب والإجاص والمشمش والفراولة المصنوعة من الصابون في السلة لن أهتم بها في زمن آخر، ولعلني أجدها عادية جدًّا، ولأنها هدية الطومبالا في رأس السنة، تذكرني بشعور الطمأنينة والسعادة العميق الذي شعرت به في ليالي رأس السنة، وأن الأوقات السحرية التي قضيتها على مائدة عائلة كسكين هي أسعد أوقات حياتي، وبموسيقى التواضع التي تتدفق في داخلي. ولكنني أؤمن بصدق وبراءة أن تلك المشاعر ليست خاصة بي فقط، بل سيشعر بها زوار المتحف عندما يرونها بعد سنين أيضًا.

وكمثال على إيماني هذا أعرض بطاقات اليانصيب القومي لرأس السنة في تلك المرحلة. تشتري العمة نسيبة مثل أمي ورقة للسحب الكبير الذي يجري في الحادي والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر، وتضعه بين هدايا سحب الطومبالا. يقول الجالسون حول الطاولة لمن يكسب بطاقة اليانصيب في الطومبالا في بيتنا أو بيت عائلة كسكين معًا الأمر نفسه:

«أوه، ما شاء الله، هذه الليلة أنت محظوظ... انظر، سترى، لا بد أن تكسب في سحب اليانصيب أيضًا».

في ليالي رأس السنة بين عامي ١٩٧٧ و١٩٨٤ كسبت فسون الطومبالا في بيت عائلة كسكين بشكل غريب بطاقة اليانصيب القومي ست مرات. ولكن بالنتيجة، وبمصادفة غريبة أيضًا لم تكسب في أي سحب لليانصيب القومي الذي يبث من التلفاز والإذاعة أيًّا من الجوائز، ولا حتى ثمن البطاقة في المرات الست.

حول الطاولة في بيتنا وبيت عائلة كسكين كان هناك حِكَم حول القمار والحظ والحياة (خاصة أثناء لعب السيد طارق مع ضيوفه الورق). وكانت هذه طريقة لسلوان الخاسرين، وممازحتهم بالتعليق عليهم.

«خسرت في القمار، هذا يعني أنك ستكسب في الحب».

قلت هذه العبارة التي يقولها الجميع في كل فرصة مناسبة لفسون بحماقة وسكر ليلة رأس سنة ١٩٨٢ بعد سحب اليانصيب القومي الذي بث مباشرة بحضور كاتب العدل الأول في أنقرة عندما لم تكسب شيئًا.

قلت مقلدًا أبطال الأفلام الإنكليزية المهذبين الذين نراهم في أفلام التلفاز: «بما أنك خسرت بالقمار يا سيدة فسون، ستكسبين بالحب».

قالت فسون مثل بطلة ذكية راقية بشكل يناسب تلك الأفلام دون تلكؤ: «لاشك لدي نهائيًّا بهذا يا سيد كمال!».

في نهاية عام ١٩٨١ فكرت بأن هذه مزحة ممتعة لأنني كنت مؤمنًا بأنني تجاوزت نصف العوائق التي أمام غرامنا تقريبًا، ولكنني عندما صحوت تمامًا من السكر صباح اليوم التالي، أي في اليوم الأول من عام ١٩٨٢، وأثناء تناولي الإفطار مع والدتي تلبسني الخوف نتيجة تفكيري بإمكانية أن تكون فسون قالت تلك العبارة بمعنى مزدوج: فهمت بألم أن القصد من عبارة «الكسب في الحب!» التي تشير إلى السعادة ليست السعادة التي سنعيشها - فسون وأنا - في المستقبل بعد أن تنفصل عن زوجها.

فيمـا بعد، قـررت بأنني فكرت بأمـور خاطئة تحت تأثير أوهـام مخاتلة. ما قاد فسـون (وقادني) إلى هذا الكلام الخفيض المسـتوى المزدوج المعنى بالتأكيـد، تلـك العبارة المكـررة كثيرًا وتربـط القمار بالحب. لعـب الورق، وسـحب اليانصيـب القومـي، والطومبـالا، والإعلانات الضخمـة للمطاعم وأمكنة اللهو حولت رأس السـنة إلى ليلة سـفاهة يلعب فيها القمار وتشـرب المشـروبات الروحية فقـط، وكانت جرائد مثل مللـي، وترجمان، وهِر غون (كل يـوم) تنشـر مقـالات غاضبة حول هـذا الموضـوع. أذكر أن أمـي أيضًا كانت تنزعج من بعض عائلات شيشـلي ونيشان طاشِ وببك المسلمة الغنية التـي تأخذ غصن صنوبر، وتزينه كما يفعل المسـيحيون قبيل عيد الميلاد في الأفـلام، ومن عرضها في الشـوارع، وإذا لـم تقل عن العائـلات التي تربطنا بهـا صداقـة وتزين أغصـان الصنوبر «عديمـة الأصل» أو «كافـرة» كما تقول الصحافـة الدينيـة، فقد كانت تقـول عنها «مخبولة». قالت أمـي على المائدة ذات ليلـة رأس سـنة لابـن عثمـان الصغير الـذي يحرص علـى تزيين غصن صنوبـر: «ليـس لدينا غابـات ومسـاحات خضراء زيـادة أساسًـا... علينا ألا نخرب غابات الصنوبر لدينا!».

بعض الباعة الذين ينتشـر منهم عشـرات الآلاف في أزقة إسـطنبول لبيع بطاقـات سـحب اليانصيـب القومي لـرأس السـنة، يلبسـون زيّ بابـا نويل، ويذهبون إلى الأحياء الغنية. بينما كنت أختار هدايا الطومبالا التي سـآخذها إلى بيت عائلة فسـون ذات مسـاء من شـهر كانون الأول/ ديسـمبر ١٩٨٠، رأيت بعض طلاب وطالبات الثانوية العائدين من المدرسة يسخرون من بابا نويل يبيع اليانصيب القومي مقابل بيتنا، ويشدون لحيته المصنوعة من القطن. عندمـا اقتربت، عرفت أن بائـع اليانصيب القومي هو بواب البناء المقابل لنا: كان حيدر أفندي مطرقًا بصمت أثناء شـد شـاربيه القطنيين وإهانته. بعد عدة سـنوات، عندما انفجرت قنبلة وضعها الإسـلاميون في جناح بيع المعجنات التابـع لفنـدق مرمرة في تقسـيم الذي وضعت فيه شـجرة صنوبـر مزينة، برز غضب المحافظين من ملاهي رأس السنة ذات المشروبات الروحية والقمار.

أذكر بأن موضوع القنبلة هذا لاقى اهتمامًا مساويًا للاهتمام بالراقصة التي ستظهر في تلفاز الدولة على مائدة عائلة كسكين. عندما ظهرت الراقصة الشهيرة سرتاب على شاشة التلفاز في رأس سنة عام ١٩٨١ على الرغم من نقد الصحافة المحافظة، دهشنا نحن الذين كنا نجلس حول طاولة عائلة كسكين كما دهشت تركيا كلها. لأن إداريي «TRT» ألبسوا سرتاب ذات الجسم الجميل واللين ألبسة ثقيلة تسترها إلى درجة أننا لم نر حتى ساقيها وليس صدرها وخصرها «المشهورين عالميًّا».

قال السيد طارق: «لو أخرجتم الفتاة بالملاءة أيها السفلة!». في الحقيقة أنه نادرًا ما يغضب عندما ينظر إلى التلفاز، ومهما شرب، لا يتوتر ممن يظهرون على الشاشة، ولا يطلق بحقهم الكلام.

في بعض الأعوام أخذت إلى بيت العمة نسيبة تقويم المعارف المؤقت الذي أشتريه من دكان علاء الدين. ليلة رأس سنة ١٩٨١ كسبت فسون التقويم، وعلقته نتيجة إلحاحي على مسمار بين المطبخ والتلفاز، ولكن أحدًا لم يكن يهتم بأوراق التقويم عندما لا أكون هناك. مع أنه يُنشر على كل صفحة من صفحاته شعر اليوم، وأهمية اليوم في التاريخ، وأوقات الصلوات، ويرسم ساعات بحيث يفهم الأوقات من لا يعرف القراءة والكتابة، ووصفات مختلف أنواع الأطعمة المتقرحة لذلك اليوم، وقصص تاريخية، ونكات، وحكم حول الحياة.

قلت في نهاية السهرة: «عمة نسيبة، نسيتم مرة أخرى قطع أوراق التقويم». انتهى آخر برنامج في التلفاز، وخطا الجنود خطوات الإوز، ورفعوا العلم، وشربت كثيرًا من العرق.

كان السيد طارق يقول: «مر يوم آخر. الحمد لله أننا لسنا جوعانين أو مشردين، بطوننا ممتلئة، ولدينا بيت دافئ... ما الذي يريده الإنسان أكثر من هذا في الحياة!».

لسبب أجهله كانت كلمات السيد طارق هذه في نهاية السهرة تعجبني

إلى درجة أنني أؤجل قطع ورقة التقويم إلى نهاية السهرة على الرغم من انتباهي إليها.

كانت العمة نسيبة تضيف: «فوق هذا نحن معًا، وبجانبنا من نحب». وفور قولها هذا، تمد نفسها، وتقبل فسون، وإذا لم تكن فسون هناك، تناديها، وتقول: «تعالي إلى هنا يا بنتي المشاكسة، تعالي لتقبلك أمك، وتحنو عليك قليلًا».

تتخذ فسون أحيانًا تعبير الفتاة الصغيرة، وتجلس في حضن أمها، وتداعبها العمة نسيبة طويلًا، وتلمس ذراعيها ورقبتها، وتقبلها. مهما كانت العلاقة بين الأم وابنتها، لم يتخليا عن مراسم الحب هذه التي تؤثر بي كثيرًا على مدى ثمانية أعوام. تعرف فسون جيدًا أن عيني متعلقتان بهما أثناء تبادلهما القبل وتضاحكهما، ولكنها لا تنظر باتجاهي نهائيًّا. أثناء فرجتي على حالتهما السعيدة تلك، كنت أشعر بنفسي جيدًا بشكل خاص، وأنهض، وأغادر دون معاناة مزيد من الصعوبة.

إثر كلمات «أحبائنا»، بدل أن تجلس فسون في حضن أمها، يجلس علي ابن الجيران الذي يكبر كثيرًا في حضن فسون، وبعد أن تقبله فسون، وتداعبه، تقول له: «هيا اذهب، سيغضب والداك على أننا نمسك بك». أحيانًا تكون فسون متوترة لأنها تجادلت مع والدتها صباحًا، وإثر قول العمة نسيبة: «تعالي يا بنتي إلى جانبي!» ترد عليها: «أرجوك أمي!». حينئذ تقول العمة نسيبة: «هيا اقطعي ورقة التقويم إذًا لكي لا نتوه بالأيام».

عند ذلك تمرح فسون فجأة، وبعد أن تنهض، وتقطع ورقة تقويم المعارف المؤقت، وتقرأ الشعر أو طبق اليوم بصوت مرتفع وهي باسمة، تقول العمة نسيبة: «يا، صحيح، لنعمل خشاف الزبيب والفواكه، لم نعمله منذ فترة طويلة». أو تقول: «نعم، نزل الخرشوف، ولكن الخرشوف الصغير بحجم راحة اليد لا يصلح للطبخ». أحيانًا تطرح سؤالًا يقلقني:

«هل تأكلون رقائق بالسبانخ إذا حضرناها؟».

إذا لم يكن السيد طارق قد سمع السؤال، وإذا كان مهمومًا، فلا يجيب، وحينئذ تنظر إلي فسون بانتباه دون أن تقول شيئًا. وأعرف أنها تفعل هذا بحدة وفضول، وتفكر بأنني لن أقول للعمة نسيبة ما يطبخ باعتباري جزءًا من عائلة كسكين.

أنقذ نفسي من الوضع الصعب بالقول: «فسون تحب الرقائق كثيرًا يا عمة نسيبة، حضروها بالتأكيد!».

أحيانًا يطلب السيد طارق من ابنته أن تقطع ورقة التقويم، وتقرأ ما حدث في مثل هذا اليوم في التاريخ، وتقرأ فسون:

«في مثل هذا اليوم ٣ أيلول/ سبتمبر ١٦٥٨، بدأ الجيش العثماني بحصار قلعة دوبيو». أو «في مثل هذا اليوم ٢٦ آب/ أغسطس ١٠٧١ فتحت أبواب الأناضول للأتراك بعد معركة ملازكرت».

كان السيد طارق يقول: «هممم، هات هذه لنرى... كتبوا دوبيو بشكل خاطئ. خذي اقرئي لنا الآن حكمة اليوم لنرى..».

قرأت فسون: «بيت الإنسان حيث يشبع بطنه، ويملأ قلبه». أثناء قراءتها بمرح وسخرية، فجأة التقت أعيننا، واتخذت حالة الجد.

نصمت جميعًا حينئذ وكأننا نفكر بعمقِ معنى هذه العبارة. شهدت كثيرًا من فترات الصمت على مائدة عائلة كسكين، وخطر ببالي كثيرٌ من الأفكار التي لا تخطر في أمكنة أخرى حول معنى الحياة، وأبعاد وجودنا في هذه الحياة، ولماذا نعيش أثناء مشاهدتهم التلفاز بشرود، ونظري بطرف عيني إلى فسون، والحديث مع السيد طارق حديثًا عامًّا من هنا وهناك. أحب حالات الصمت السحري تلك، وأدرك مع مرور الأشهر والسنين أن تلك اللحظات التي تشعرنا بأسرار الحياة التي نعيشها، عميقة إلى هذه الدرجة بسبب حبي لفسون، وأخبئ الأشياء التي تذكرني بها بعناية. أتناول ورقة تقويم ذلك اليوم التي قرأتها فسون، وتركتها جانبًا بذريعة قراءتها مرة أخرى، وأدسها بجيبي دون أن أشعر أحدًا، وأخبئها.

بالطبع لم أكن مرتاحًا في كل مرة على هذا النحو. لا أريد أن أطيل قصتي وأجعلها مضحكة بعرض الصعوبات التي واجهتني أثناء أخذي كثير من الأشياء الكبيرة والصغيرة، المهمة والتافهة، ولكنني سأروي حدثًا صغيرًا وقع لي ليلة رأس سنة ١٩٨٢: قبيل خروجي من البيت بالمنديل الذي كسبته من الطومبالا، اقترب مني ابن الجيران علي الذي يزداد إعجابه بفسون يومًا بعد يوم، واتخذ موقفًا مختلفًا تمامًا عن موقفه المشاكس الذي يتخذه بشكل مستمر:

«سيد كمال، هناك المنديل الذي كسبته من الطومبالا قبل قليل..».

«نعم».

«هذا منديل فسون عندما كانت طفلة. هل يمكنني أن أنظر إليه مرة أخرى؟».

«عزيزي علي، لا أعرف أين وضعته».

قال الولد: «أنا أعرف. وضعتموه في جيبكم هذا، يجب أن يكون هناك».

وكاد يدس يده بجيبي. تراجعت خطوة إلى الخلف. كان ثمة مطر غزير في الخارج، وتجمع الجميع أمام النافذة، ولم ينتبهوا إلى سؤال الولد.

قلت: «عزيزي علي، تأخر الوقت طويلًا، ولكنك ما زلت هنا. سيغضب والداك منا».

«سأذهب يا سيد كمال. ألن تعطيني منديل فسون؟».

همست له مقطبًا بحاجبي: «لا، إنه يلزمني».

٥٩ ـ تمرير السيناريو من الرقابة

أتعبنا كثيرًا الحصول على موافقة لجنة الرقابة لكي نتمكن من تصوير فيلم فريدون. أعرف منذ سنوات من خلال الأخبار التي تنشرها الجرائد

والقصص التي تروى بأن الفيلم المحلي أو الأجنبي يجب أن يمر من الرقابة لكي يعرض في دور السينما. ولكنني لم أنتبه إلى أن الرقابة جزء كبير من الفيلم حتى أسسنا ليمون للسينما. تكتب الجرائد عن قرارات لجنة الرقابة، ولا تذكر الفيلم إلا إذا كان مهمًّا جدًّا في الغرب، ووصل خبره إلى تركيا، ومُنع. مثلًا منع فيلم «لورانس العرب» كاملًا بسبب تضمنه إهانة للأتراك، وحذفت مشاهد الإثارة كلها من فيلم «التانغو الأخير في باريس»، وتحول إلى فيلم «فني وممل» أكثر من الأصلي.

قال لنا السيد حياتي الخيال الذي عمل في لجنة الرقابة أعوامًا طويلة، وأحد شركاء بار بلور، وأحد ضيوف طاولتنا الدائمين إنه مؤمن بحرية الفكر والديمقراطية أكثر من الأوربيين، ولكنه لم يسمح قط (ولن يسمح) لمن يريد أن يخدع أمتنا البريئة والطيبة النية باستخدام السينما التركية. كان حياتي الخيال مخرجًا ومنتجًا ومثل كثير من المداومين على بلور، ويقول إنه قبل عضوية لجنة الرقابة كي «يجنن الآخرين!». ثم عندما يمازح، يغمز فسون كما يفعل الآخرون. في غمزته هذه كأنه عمٌّ يقول لابنة أخيه: «أمزح معك يا عزيزتي!»، وهناك استفزاز خفيف أيضًا. حياتي الخيال يعرف أن فسون «قريبتي من بعيد»، ويغويها بشكل خفيف يتقبله من يكون بوضعي. أطلق عليه رواد بلور هذا اللقب من استخدامه هذه الكلمة في حديثه عن الأفلام التي سيصورها في المستقبل (إما أن يفعل هذا حين يتجول على الطاولات، وإما أن يجمع الشائعات). كلما أتى، يجلس إلى طاولة فسون، وينظر إلى عينيها، ويروي لها ما يتخيله حول الفيلم الذي سيصوره، وينهي الموضوع بالطلب منها أن تقول «فورًا ومن قلبها» ما إذا كان الموضوع قد أعجبها أم لا «دون أن تفكر تجاريًّا».

كانت فسون في كل مرة تقول: «موضوع جميل جدًّا».

وحياتي الخيال يقول أيضًا في كل مرة: «في الحقيقة أنك ستقبلين التمثيل فيه بالتأكيد». كان يتخذ موقف من يفعل هذا بدافع غريزي ومن القلب.

ويضيـف فيما بعد: «في الحقيقة أنـي رجل واقعي». إذا نظر إلى عيني أحيانًا وهو يجلس إلى طاولتنا، أشعر بأنه يفعل هذا لمعرفته بأن نظره بشكل مستمر إلى عيني فسون معيب، وأبتسم له محاولًا أن أبدي الصداقة. كنا ـ فسون وأنا ـ نكتشف بأن البدء بتصوير فيلمنا سيأخذ وقتًا طويلًا.

بحسـب رأي حياتي الخيال فإن السينما التركية حرة ما عدا الموضوعات التي تقدم رؤى غير مقبولة حول الإسلام، وأتاتورك، والجيش التركي، ورجال الديـن، ورئيس الجمهورية، والأكراد، والأرمن، واليهود، والروم، ومشـاهد الحـب غير المؤدبة. ولكنه يعرف أيضًا بأن هـذا غير صحيح، فيضحك وهو يقول هذا. لأن لجنة الرقابة على مدى نصف قرن لم تمنع الموضوعات التي تريـد الدولة منعها، وما يقلق المتنفذين فقط، بل منعت بمختلف الذرائع كل ما وجدته حادًّا بحسب تفكيرها، وهي مثل حياتي الخيال تستخدم هذه القوة بشكل عشوائي بمتعة وسخرية.

يروي السـيد حياتي الرجل المرح كيف منع الأفلام في أعوام عمله في لجنـة الرقابـة بمتعة الصياد الذي يـروي كيف يوقع الدببة فـي الفخاخ وهو يضحـك. مثلًا، يتحدث بسـخرية عن منعـه فيلمًا يتنـاول مغامرات حارس في مصنع بذريعة «إهانة الحراس الأتراك»، ومنعه فيلمًا يتحدث عن عشـق امرأة متزوجة لها أولاد لرجل آخر بذريعة «عدم احترام مؤسسـة الأمومة»، وفيلمًـا يتنـاول سـعادة ولد يهرب مـن المدرسـة لأنه «يبرد علاقـة الأولاد بالمدارس». وإذا كنا نحب السـينما، ونهتم بالوصول إلى المتفرج التركي، فعلينـا أن نتعلم كيف نحسّـن علاقتنـا بأعضاء لجنة الرقابـة الذين يترددون علـى بلور، وهـم جميعًا أصدقاؤه. وفهمت من نظرتـه إلى عيني وهو يقول لي هذا أنه يريد أن يؤثر على فسون.

ولكننـا لـم نكن نعرف إلـى أي مدى يمكـن الاعتماد على السـيد حياتي بالحصـول علـى موافقة الرقابة. لأن أول فيلم صـوره حياتي خيال بعد انتهاء فترته في لجنة الرقابة، وخروجه، مُنع بسـبب «عقد شـخصية للأسـف». كان

السيد حياتي يتوتر عندما يُفتح هذا الموضوع. الفيلم الذي صوره، وأنفق عليه، مُنع كله لوجود مشهد يفرط فيه رب الأسرة قليلًا بالمشروب، فيصرخ على زوجته وأولاده لعدم وجود خلّ في السلطة بذريعة «حماية مؤسسة الأسرة باعتبارها أساس المجتمع».

روى حياتي الخيال بنبرة المظلوم أنه أخذ هذا المشهد وحالتي شجار أسري أغضبا لجنة الرقابة من حياته بصدق، وقد غضب بشدة من زملائه السابقين في اللجنة الذين منعوا الفيلم. شرب معهم ذات ليلة حتى الثمالة، وإذا كان ما يروى صحيحًا، فإنه بذريعة فتاة، شاجر بالصفع والركل أقدم زميل له في لجنة الرقابة في أحد الأزقة الخلفية قريب الصباح. حملتهما شرطة مخفر بيه أوغلو من الزقاق الطيني الذي سقطا فيه، ولم يدَّعِ الصديقان بعضهما على بعض، وبتشجيع الشرطة، تعانقا، وتصالحا. لكي يعرض حياتي الخيال فيلمه في دور السينما، ويُنقذ نفسه من الإفلاس، قص شجارات العائلة كلها بعناية، وأخرجها من الفيلم، ولم يبق فيه سوى مشاهد ضرب الأخ الضخم المتدين أخاه الأصغر بتحريض أمه المتدينة بموافقة لجنة الرقابة.

وهكذا برر لنا حياتي الخيال منع المشاهد التي تجدها الدولة حرجة، وقصها «بأن هذا جيد». لأن الفيلم الذي يمكن عرضه في السينما، ويبقى مفهومًا بعد القص منه، يمكن أن يستعيد رأسماله. أكبر الكوارث هي منع الفيلم بشكل كامل. وإزاء هذا الأمر، وبموجب اقتراح المنتجين السينمائيين الأتراك الأذكياء الذين أشعر بالفخر من دخولي بينهم، قسمت الدولة عملية الرقابة إلى مرحلتين.

بداية يُرسل سيناريو الفيلم إلى لجنة الرقابة، ويحصل على الموافقة على الموضوع والمشاهد. وكما يحصل المواطن على «إذن» في أي عمل يريد أن يقوم به في تركيا، تطور هنا أيضًا نظام بيروقراطية ورشوة، ونشأت شركات ومؤسسات وسيطة من أجل المرور من هذه البيروقراطية، والحصول على

«الإذن». أذكر أنني في ربيع عام ١٩٧٧ كثيرًا ما جلست مع فريدون في مكتب ليمون للسينما، ودخنّا السجائر متقابلين، وناقشنا طويلًا أي وسيط سنستخدمه من أجل تمرير فيلم «المطر الأزرق» من الرقابة.

هناك رومي مجدّ ومحبوب جدًّا يدعى باسم مستعار «دمير الآلة الكاتبة». له أسلوب كتابة لا يصطدم بعائق الرقابة، ويعيد كتابة كل سيناريو بأسلوبه على آلته الكاتبة الشهيرة. هذا الرجل الضخم الملاكم الهاوي السابق (ارتدى قميص نادي قورطولوش) ظريف الروح ورقيق. يدوّر الزوايا الحادة للسيناريو الذي يقبله، ويليّن الصراع بين الغني والفقير، والعامل ورب العمل، والمغتصب والضحية، والطيب والشرير، ويجعله أكثر براءة. وهو أنجح من الجميع بإضافة كلمات حلوة فيها علم ووطن وأتاتورك واسم الله توازن الكلمات الحادة الناقدة التي يقولها بطل الفيلم، وتعجب المشاهدين، ويتوقف عندها الرقيب. مهارته الأساسية هي تخفيف كل نقطة فظة ومتطرفة في السيناريو، وتناولها بشكل لذيذ وحكائي وكأنها تفصيل حياتي صغير. حتى شركات الإنتاج الكبرى التي تدفع رشًا بشكل منتظم للجنة الرقابة تعطي سيناريوهاتها لدمير الآلة الكاتبة لمجرد أن يضع فيها لمسته الحلوة الساحرة الطفولية.

عندما عرفتُ أننا مدانون لدمير الآلة الكاتبة الفريد بتلك الحكائية التي أثرت بقلوبنا في ليالي الصيف، ذهبنا نحن الثلاثة ـ مع فسون ـ بناء على اقتراح فريدون إلى بيت «طبيب السيناريو» في قورطولوش. رأينا آلة كاتبة قديمة ماركة ريمنغتون منحته اسمه الأسطوري حيث تتكتك ساعة جدارية ضخمة، وشعرنا بذلك الجو السحري الخاص بالأفلام. عاملنا السيد دمير بلباقة كبيرة، وطلب منا ترك السيناريو، وإذا أعجبه سيعيد كتابته على الآلة الكاتبة بحيث يمر من الرقابة. ولكن هذا يستغرق وقتًا، وأن لديه عملًا كثيرًا وأشار إلى كوم الملفات بين أطباق الكباب والفواكه، وامتدح ابنتيه التوءمين اللتين في العشرينيات من عمريهما تضعان نظارات مكبرة تشبه عيني البوم، وتجلسان إلى طرف طاولة طعام ضخمة، تدخلان السيناريوهات التي لم

يستطع والدهما إنجازها بحيث تمر من الرقابة بقوله: «إنهما تعملان هذا العمل أفضل مني». الطويلة المكتنزة قليلًا من التوءمين أسعدت فسون بتذكر أنها إحدى الباقيات إلى نهائي مسابقة جريدة ملييت لملكة الجمال قبل أربع سنوات. للأسف فإن قليلًا جدًّا من الناس يتذكرون هذا.

ولكن الفتاة نفسها لم تستطع إنهاء إعادة كتابة السيناريو وصقله بشكل خاص ليناسب فسون برفقة كلمات المديح والإعجاب الخاصة نفسها (قالت: «والدي فنان سينما أوربي بكل معنى الكلمة») إلا بعد ثلاثة أشهر. أفهم من عبوس فسون، وكلماتها الغاضبة بين حين وآخر أنها ممتعضة من هذا البطء، وأحاول أن أشرح لها بأن زوجها أيضًا بطيء.

عندما أذهب في الزيارات المسائية إلى بيت تشوقور جمعة، كانت فرصنا محدودة للنهوض ـ فسون وأنا ـ عن المائدة، والكلام فيما بيننا. بعد العشاء كنا نذهب إلى قفص الكناري الذي يمتعنا النظر إلى أكله وشربه، ونقره عظم سمكة الحبار (أنا كنت أشتريها من سوق مصر). ولكن هذا المكان قريب جدًّا من الطاولة، ومن الصعب جدًّا أن يكون لدينا أمور خاصة. وهذا ما يحتاج إلى همس أو جرأة طائشة.

الطريق الأسهل فتح تلقائيًّا مع الزمن: كانت فسون في الوقت المتبقي لها من اللهو والذهاب إلى السينما أحيانًا مع صديقاتها بنات الحي اللواتي تخفيهن عني (أغلبهن عازبات أو متزوجات حديثًا)، والتردد إلى الأمكنة التي يتردد عليها السينمائيون مع فريدون، والقيام بأعمال البيت، ومساعدة والدتها ببعض أعمال الخياطة التي مازالت تقبلها، ترسم «لنفسها» طيورًا. كلمة «لنفسها» هي تعبيرها. ولكنني أشعر بالشغف الكامن وراء الهواية، وأحبها أكثر بسبب هذه الرسوم.

بدأت هذه الهواية حين حط غراب على حامية شرفة الغرفة الخلفية في الطابق الأول كما في بناء مرحمة تمامًا، وعدم طيرانه وهروبه على الرغم من اقتراب فسون منه. جاء الغراب في مرات أخرى، وبينما كان

يراقب فسون بعينه البراقة المخيفة من جنب، لم يهرب، وحتى إن فسون خافت منه. ذات يوم التقط فريدون صورة للغراب، وفسون كبرت صورته بالأسود والأبيض التي أعرضها هنا، ولونت الرسم الذي أحبه كثيرًا بالألوان المائية. فيما بعد تابعت برسم حمامة وقفت على حامية الشرفة الحديدية نفسها، وبعدها بعصفور دوري.

في الأمسيات التي لا يأتي فيها فريدون إلى البيت، قبل العشاء أو عند الفواصل الإعلانية الطويلة، كنت أسأل فسون: «كيف وضع الرسم؟».

تكون أحيانًا منتشية، فتقول: «تعال لنراها معًا!» ونذهب إلى الغرفة الخلفية، وتحت ضوء ثريا صغيرة شاحب ننظر معًا إلى الرسوم في الغرفة التي تبدو مبعثرة بأدوات العمة حسيبة للخياطة والمقصات وقصاصات الأقمشة.

كنت أقول بصدق: «جميلة جدًّا، حقيقة إنها جميلة جدًّا». وفي الوقت نفسه أشعر بدافع لا يحتمل للمس ظهرها أو يدها. كنت أشتري لها من محلات القرطاسية المستوردة في سيركجي ورق رسم ودفاتر وألوانا مائية جميلة «أوربية».

كانت فسون تقول: «سأرسم طيورَ إسطنبول كلها. التقط فريدون صورة عصفور دوري. الآن دوره. إنني أسلي نفسي. برأيك هل يحط بوما على حامية النافذة؟

قلت مرة: «لنفتح معرضًا ذات يوم».

قالت فسون: «في الحقيقة أنني أريد أن أذهب إلى باريس، وأرى اللوحات هناك».

أحيانًا تكون متوترة، ومنزعجة، فتقول: «لم أستطع الرسم في الأيام الأخيرة يا كمال».

من المؤكد أنني مدرك سبب توترها، وهو أن سيناريو الفيلم الذي

ستمثله لم يصبح بحال يمكن أن يصور، فمتى سيبدأ التصوير؟ أحيانًا كانت فسون تذهب إلى الغرفة الخلفية على الرغم من عدم إضافتها أشياء كثيرة على الرسم من أجل أن تفتح معي قضية الفيلم فقط.

قالت لي ذات مرة: «قال فريدون إنه لم يحب تعديلات دمير الآلة الكاتبة، إنه يعيد كتابته... أنا قلت له، وأرجو أن تقول له أنت أيضًا ألا يطيل الأمر. يجب أن أبدأ بالفيلم».

«أقول له».

ذهبنا إلى الغرفة الخلفية ثانية بعد ثلاثة أسابيع. أنهت فسون رسم الغراب، والآن ترسم ببطء عصفورًا.

بعد أن نظرتُ إلى الرسم طويلًا، قلت: «حقيقة إنه جميل جدًّا».

قالت فسون: «كمال، أنا فهمت. أمامنا أشهر لتصوير فيلم فريدون الفني. أمور كهذه لا تسمح بها الرقابة بسهولة. أنا أشك بالأمر. في ذلك اليوم جاء السيد مظفر إلى طاولتنا في بلور، وعرض عليّ دورًا. هل أخبرك فريدون؟».

«لا. هل خرجتما إلى بلور؟ انتبهي يا فسون، أولئك الرجال جميعًا ذئاب».

«لا تشغل بالك، فريدون وأنا منتبهان بشدة. معك حق، ولكن هذا عرض جدي جدًّا».

«هل قرأت السيناريو؟ هل تريدين هذا؟».

«بالطبع لم أقرأ السيناريو. إذا وافقت، سيطلبون كتابة سيناريو. يريدون اللقاء بي».

«ما الموضوع؟».

«ما أهمية الموضوع يا كمال؟ فيلم حب وميلودراما على طريقة السيد مظفر. أنا أفكر بالموافقة».

«لا تستعجلي. هؤلاء أناس سيئون. ليتكلم معهم فريدون بالنيابة عنك. يمكن أن تكون نيتهم سيئة».

قالت فسون: «كيف سيئة؟».

ولكنني عدت بسرعة إلى الطاولة متضايقًا دون إطالة الأمر.

أستطيع أن أتخيل بسهولة أن مخرجًا شاطرًا مثل السيد مظفر يشهر فسون في فيلم ميلودرامي في تركيا كلها من أدرنة إلى ديار بكر. من المؤكد أن زحام السينمات الخانقة الرديئة الرائحة والمدفّأة بمدافئ الفحم، والهاربين من المدارس، والعاطلين عن العمل، وربات البيوت الحالمات، والرجال الغاضبين المحرومين من النساء، سيسحرون بجمال فسون وإنسانيتها. بعدئذ أقبض على نفسي متلبسًا بالتفكير في أن فسون بعد أن تصبح مشهورة كما تريد، لن تتصرف معي فقط بسوء، بل مع فريدون أيضًا، وحتى يمكن أن تتركنا. من المؤكد أنني لا أفكر بأن فسون من النوع الذي يمكن أن يقدم كل شيء من أجل الشهرة والنقود، ويقيم علاقات «خذ وهات» مع كتاب زوايا المنوعات، ولكنني أفهم من نظرات القادمين إلى بار بلور أنهم مستعدون لعمل أي شيء من أجل فصلها عني (أستخدم هذه العبارة لأنها أول ما جاء على لساني). إذا أصبحت فسون نجمة شهيرة فسأعشقها أكثر للأسف، وسيكون خوفي من فقدانها أكبر.

أذكر أنني كلما رأيت نظرات فسون الغاضبة حتى نهاية العشاء في ذلك المساء، أدرك من جديد أن عقلها غير معلق بي أو بزوجها، بل بأحلام النجومية السينمائية، ويسيطر عليّ القلق وحتى الخوف. أدرك ومنذ زمن أن الألم الذي سأعاني منه فيما لو هربت فسون مع أحد المنتجين أو الممثلين المشاهير الذين لا يبرحون هذه الخمارات، وتركتني ـ وتركت زوجها ـ هكذا على مرأى من الأعين، سيكون أضعاف الألم الذي عانيته في صيف عام ١٩٧٥.

إلى أي مدى يعلم فريدون بهذه المخاطر التي تواجهنا؟ كان منتبهًا إلى

حد ما أن المنتجين التجاريين يرغبون بسحب زوجته منه، وجرها إلى عالم سيئ، ولكنني في كل فرصة كنت أنبهه ـ بشكل موارب ـ إلى هذه المخاطر، وأوحي لفريدون بأن فسون إذا بدأت بتمثيل أفلام الميلودراما السيئة تلك، فإن الفيلم الفني الذي سيصوره فريدون لن يحمل بالنسبة إلي أي معنى. وفيما بعد، عندما أجلس بعد منتصف الليل على أريكة والدي، وأشرب العرق وحدي، أشكو مما إذا كنتُ قد تماديت بالصراحة مع فريدون.

مع اقتراب موسم تصوير الأفلام في مطلع أيار/ مايو، جاء إلى ليمون للسينما حياتي الخيال، وأخبرنا بأن ممثلة متوسطة الشهرة قد نقلت إلى المستشفى نتيجة ضرب حبيبها الغيور لها، وسيكون جيدًا لو أخذت فسون دورها، وأن هذه فرصة عظيمة لفتاة جميلة ومثقفة مثلها، ورفض فريدون العرض بلباقة لمعرفته بمخاوفي جيدًا، وأعتقد أنه لم يفتح الموضوع لزوجته...

٦٠ ـ سهرات البوسفور في مطعم الطمأنينة

ما نفعله من أجل إبعاد الرجال الذئاب الجائعين المتطايرين حول رأس فسون كلما ذهبنا إلى بار بلور، يضحكنا أحيانًا وحتى يسعدنا بدلًا من أن يحزننا. عرفت أن كاتب الشائعات القرنفلة البيضاء الذي يذكره قرائي من حفل خطوبتي في الهيلتون يريد أن يكتب مادة بعنوان «هناك نجمة تولد»، وبينت لفسون أنه لا يمكن الوثوق بهذا الرجل. بعدئذ بدأت أهرب منه كأننا نلعب «الركض وعدم اللمس». المنديل الذي كتب عليه الصحفي الشاعر أبيات الغزل التي ألهمت له عندما جلس إلى طاولة فسون، مع الإهداء الشاعري، ألقي إلى الزبالة على يد نادل بلور الهرم طيار بجهدي الخاص قبل أن يقع بيد أي قارئ. فيما بعد عندما نجلس نحن الثلاثة ـ فسون وفريدون وأنا ـ نروي بعض هذه القصص (ليس كلها)، ونضحك.

عندما تشرب فسون كأسين تمرح، وتغدو كالطفلة، وتغرد مثل فتاة خفيفة على طاولات الخمارة، على عكس غالبية السينمائيين والصحفيين والفنانين في بار بلور أو الخمارات الشبيهة إذ تتأجج همومهم، ويبدءون بالبكاء. وأشعر أحيانًا أن فسون تفرح، وتمرح لأننا نذهب نحن الثلاثة ـ هي وزوجها وأنا ـ إلى السينمات الصيفية ومطاعم البوسفور. أصبحت قليلًا ما أذهب إلى بلور لأنني تعبت من النميمة والكلام الواخز.. وعندما أذهب، أراقب الذين حول فسون، وفي أغلب الأحيان أقنع فسون وزوجها قبل نهاية السهرة، وأصطحبهما بالسيارة التي يقودها تشتين إلى العشاء في أحد مطاعم البوسفور. كانت فسون تقلب وجهها بسبب خروجها من بلور باكرًا، ولكنها تسعد كثيرًا عندما نتبادل الحديث في السيارة مع تشتين إلى درجة تفكري بأننا يجب أن نذهب أكثر إلى مطاعم البوسفور؛ مثلما فعلنا في صيف ١٨٧٦؛ لأننا ـ فسون وأنا ـ لا نستطيع الذهاب إلى أي مطعم كحبيبين وحدنا. لأن انتزاع فريدون عن أصدقائه السينمائيين صعب، أقنعت مرة العمة نسيبة، ثم ذهبنا مع فسون وزوجها إلى مطعم أورجان في صارير لتناول السمك المياس.

في صيف ١٩٧٧، ودون وضع السيد طارق عراقيل زائدة، وحتى برغبة بالمشاركة، بدأت مجوعتنا التي تجلس أمام التلفاز في بيت عائلة كسكين تذهب بالسيارة التي يقودها تشتين إلى مطاعم البوسفور. سأدخل بتفاصيل نزهاتنا هذه، والأعشية لأنني أريد لكل زوار متحفنا أن يتذكروا السعادة التي أتذكرها بها. أليس هدفنا من الرواية والمتحف أن نروي ذكرياتنا بصدق، وجعل سعادتنا كأنها سعادة الآخرين؟ خلال فترة قصيرة في ذلك الصيف أصبح ذهابنا إلى خمارة على البوسفور، وتناول العشاء هناك عادة ممتعة. في السنوات اللاحقة، أصبحنا كثيرًا ـ مرة في الشهر ـ ما نركب السيارة، وننطلق بالطريق متضاحكين مبتهجين كأننا ذاهبون إلى عرس، ونذهب إلى مطعم على البوسفور، أو مقصف شهير كبير لنسمع الأغاني القديمة التي يحبها السيد طارق. أما في أوقات أخرى، يُنسينا التوتر

بيني وبين فسون، والغموض، وهموم عدم التمكن من البدء بالتصوير بأي شكل هذه المتعة، ولكننا عندما نركب جميعًا السيارة بعد أشهر من الكدر، أنتبه إلى أي مدى في الحقيقة نحن نستطيع اللهو والضحك عندما نجتمع، وإلى أي مدى اعتدنا بعضنا على بعض، ونتحابب.

كانت طرابية من أكثر الأمكنة جذبًا للإسطنبوليين حيث تفيض طاولات خماراتها المتراصة إحداها بجانب الأخرى على الرصيف، ويجوب بين تلك الطاولات ملعبو الطومبالا، وباعة المحار واللوز، والمصورون الذين يلتقطون الصورة، ويظهّرونها، ويطبعونها خلال ساعة، وباعة المثلجات، وفي أغلبها تخت شرقي صغير (لم يكن هناك في تلك السنوات سائح واحد). وأذكر أن العمة نسيبة في كل مرة تضحك بدهشة من سرعة الندل بالركض لتلبية الطلبات، وجرأتهم وهم يسيرون حاملين الصواني المليئة بأطباق المقبلات بين السيارات التي تعبر في الطريق الضيق بين المطعم والطاولات.

كنا نذهب إلى مطعم غير بارز كثيرًا يدعى «طمأنينة». دخلنا هذا المطعم لأننا وجدنا فيه مكانًا فارغًا عندما جئنا أول مرة، وفرح السيد طارق لأنه يسمع الموسيقى التركية والأغاني القديمة من مقصف مجوهر الفخم المجاوز «مجانًا» من بعيد. عندما قلت في ذهابنا الثاني إننا نستمع للمغنين القدماء بشكل أفضل إذا ذهبنا إلى «مجوهر»، قال السيد طارق: «أرجوك سيد كمال، دعنا لا ندفع نقودًا لتلك النساء بهندامهن السيئ وأصواتهن الشبيهة بنعيق الغربان!». ولكنه طوال فترة الطعام استمع للموسيقى القادمة من جنبه بانتباه ومتعة وغضب. «يصحح أخطاء المغنين الذين صوتهم خرب، وآذانهم خربة» بصوت مرتفع، ويرينا بأنه يعرف كلمات الأغاني كلها بذكرها قبل أن تؤديها الفرقة، وبعد كأس العرق الثالثة، يغمض عينيه بتفكير وشعور روحي عميق، ويميل برأسه مع الإيقاع.

أثناء انطلاقنا من بيت تشوقور جمعة بالسيارة في نزهة البوسفور، نبدو

كأننا تركنا خلفنا الأدوار التي نؤديها عندما نكون في البيت ولو قليلًا. وكنت أفرح في مطاعم البوسفور ونزهاته لأن فسون تجلس بجانبي على عكس ما تفعل في البيت. لا أحد يرى بين زحام الطاولات ذراعها تستند إلى ذارعي، وفيما يستمع والدها للموسيقى، وتراقب أمها تراقص الأضواء على مياه البوسفور والظلام الضبابي، نتهامس مثل شاب وفتاة خجولين متأوربين يتعلمان الصداقة حديثًا وسط الضجيج بدقة حول الطقس، وما أكلناه، وجمال المساء، وكم والدها محبب. وتشرع فسون السيجارة في خمارات البوسفور مثل امرأة متأوربة قوية تكسب لقمتها بنفسها، وتنفخها، في حين أنها دائمًا تجد صعوبة بالتدخين أمام والدها في أوقات أخرى. أذكر أننا جربنا حظنا بسحب الطومبالا من بائع يتشبه بالفتوة يضع نظارة سوداء، وعندما خسرنا، تبادلنا النظر، وقلنا: «خسرنا بالقمار»، ثم خجلنا، ثم شعرنا بالسعادة.

سعادة الخروج من البيت، والنبيذ في الشعر الكلاسيكي التركي، والجلوس بجانب الحبيبة، لا تقل عن سعادة الوجود وسط الزحام في الشارع. عندما يزدحم طريق البوسفور بين المطاعم والطاولات، يشتعل الشجار بين من في السيارات ومن على الطاولات عبر عبارات: «لماذا نظرت بسوء إلى الفتاة؟»، «لماذا رميت سيجارتك فوقي؟». ومع تأخر الوقت في الليل، تدب الحيوية بغناء السكارى، والتصفيق بين طاولة وأخرى، وتسميع العبارات، والرد عليها. وعندما يعكس خرز لباس الراقصة «الشرقية» التي تركض من خمارة إلى أخرى لتقديم عرضها، وبشرتها المحترقة بأشعة الشمس أضواء السيارات، تبدأ هذه السيارات بإطلاق مزاميرها بصدق كما تطلق مراكب البوسفور أبواقها في ذكرى وفاة أتاتورك. بعد ذلك، وفي منتصف الليل الحار تغيّر الريح اتجاهها فجأة، فتتطاير قشور البندق والبذر وقشور البطيخ والذرة، وقطع الأوراق والجرائد، وأغطية زجاجات المياه الغازية الملقاة على المرسى المبلط بالحجارة، وروث النوارس والحمام، والرمل الناعم والقذر على أكياس

النايلون، ويسمع فجأة حفيف الأشجار على الطرف الآخر من الطريق، وتقول العمة نسيبة: «الرحمة يا أولاد، انتبهوا إلى الطعام، تأجج الغبار!»، وتحاول تغطية أطباق الطعام بيديها. بعد ذلك يغير الريح اتجاهه مرة أخرى فجأة، وتجلب الرياح الشمالية برودة منعشة محملة برائحة اليود من البحر المتوسط.

مع الاقتراب من نهاية السهرة، وفي أثناء نشوب شجارات: «لماذا هذا الحساب كبير كل هذا؟»، تتصاعد الأغاني من الطاولات، وتتلامس أيدينا وأذرعنا وسيقاننا ـ فسون وأنا ـ أكثر، وتتداخل فيما بينها إلى درجة اعتقادي بأنني سأدوخ من الفرح. أحيانًا أسعد كثيرًا، فأنادي المصور الذي يمر قربنا، وأطلب منه أن يصورنا، وأوقف الغجرية، وأطلب منها أن تقرأ لنا كفوفنا جميعًا. أشعر أحيانًا بأنني أتعرف عليها لأول مرة. عندما تلامس ذراعي ذراعها، ويدي يدها هناك، فأفكر أنني سأتزوجها، وأشرد بأحلام السعادة وأنا أنظر إلى البدر، وفجأة أشرب كأس عرق آخر بالثلج، ثم أنتبه بأنها نهضت بسرعة مخيفة كما في الأحلام، ولكنني لا أرتبك بالحركة، وأشعر بأننا دخلنا بحالة نفسية كأجدادنا في الجنة مطهرة من الذنوب، وأدع نفسي للحلم، والمتعة، وسعادة الجلوس بجانب فسون.

لا أدري لماذا نستطيع أن يقترب أحدنا من الآخر خارج البيت وسط الزحام، وتحت أعين والديها بشكل لا نستطيع أن نتقارب مثله في بيت تشقور جمعة. ولكنني في تلك السهرات أدرك أننا في المستقبل يمكن أن نكون زوجين سعيدين منسجمين «يليق أحدنا بالآخر» بحسب وصف صفحات المنوعات في المجلات، وحتى إننا نشعر بهذا كلانا. أذكر بأننا أثناء حديثنا من هنا وهناك بشكل لذيذ، وإثر قولها: «هل تريد أن تتذوقها؟»، تناولت بسعادة كبرى قطعة من الكفتة السمراء التي في طبقها، وفي مرة أخرى، تناولت حبات زيتون من طرف طبقها بنفسي بشوكتي نتيجة تشجيعها، وأعرض هنا بذورها. وفي سهرة أخرى، دوّرنا كرسيينا نحو زوجين يشبهاننا (الرجل حنطي في الثلاثينيات من عمره، والفتاة في

العشرينيات سمراء وجهها كاشف)، يجلسان إلى طاولة مجاورة، ودخلنا معهما في حديث طويل.

في نهاية السهرة نفسها التقينا بنورجيهان ومحمد أثناء خروجهما من مقصف مجوهر، ودخلنا بنقاش جدي حول أفضل محل مثلجات على البوسفور في تلك الساعة على الماشي، دون أن نتحدث عن أصدقائنا المشتركين. أشرت إلى والد فسون وأمها اللذين صعدا معها إلى السيارة التي فتح بابها لهم تشتين، وقلت إنني أخرجت أقربائي في نزهة إلى البوسفور قبيل انفصالي عنهما. أريد أن أذكّر زوار متحفي الفضوليين بعد أعوام بأن السيارات الخاصة كانت قليلة جدًّا في إسطنبول في الخمسينيات والستينيات، وأن الأغنياء الذين يجلبون سيارات من أمريكا أو أوربا يخرجون أقرباءهم وأصدقاءهم بنزهات في المدينة (عندما كنت طفلًا كثيرًا ما سمعت والدتي تسأل والدي: «طلبت السيدة سعادة وزوجها أن ننزههما بالسيارة مع الأولاد، هل تأتي معنا، أم أنزههم أنا مع تشتين ـ أحيانًا تقول «السائق» فقط ـ ؟». فيرد والدي: «أرجوك، نزهيهما أنت، فأنا مشغول».).

كنا نغني معًا في طريق العودة من نزهة البوسفور بالسيارة. دائمًا كان السيد طارق يبدأ الأغنية. بداية يتمتم محاولًا تذكر كلمات ولحن قديم، ثم يطلب منا فتح المذياع، والبحث عن أغنية قديمة، وبينما نقلب موجات الإذاعة، يبدأ بترديد أغنية سمعناها في «مجوهر». أحيانًا تتدخل لغات غريبة لبلدان أجنبية بعيدة أثناء تقليب الموجات، فنصمت لحظة. يقول السيد طارق بنبرة مفعمة بالأسرار: «إذاعة موسكو». ثم يدخل الجو تدريجيًّا، على سبيل المثال يؤدي مطلع أغنية، ثم تشاركه العمة نسيبة وفسون. أثناء استماعنا لحفل من الأغاني القديمة في السيارة في طريق العودة إلى البيت من طريق البوسفور تحت أشجار الدلب العالية والظلال المظلمة، ألتفت إليهم من المقعد الأمامي حيث أجلس، وأحاول مشاركتهم بأغنية «الأصدقاء القدامى» لغولتكين تشكي وأنا خجل من عدم حفظي كلماتها.

أثناء غنائنا معًا في السيارة، وتناولنا الطعام ونحن نتحدث ونضحك، تكون فسون في الحقيقة أسعدنا. على الرغم من هذا فإن فسون عندما تستطيع الخروج من البيت، تسرُّ من وجودها بين السينمائيين في بار بلور. لهذا السبب عندما أريد أن نخرج بنزهة البوسفور، أقنع العمة نسيبة أولًا. لم تكن العمة نسيبة تريد تفويت فرصة جلوسي إلى جانب فسون. الطريقة الأخرى هي إقناع فريدون. في سبيل هذا اضطررنا لاصطحاب صديق فريدون المصور السينمائي ياني معنا إلى البوسفور. يصور فريدون بإمكانيات ليمون للسينما مع ياني أفلامًا دعائية، وأنا لا أتدخل بهما، وأقابل كسبها مزيدًا من النقود بود. أحيانًا أسأل نفسي كيف يمكن لي أن أرى فسون فيما لو كسب فريدون مزيدًا من النقود، وانتقل مع زوجته من عند حميه وحماته. أشعر بخجل أن هذا ما يجعلني أحافظ على علاقة جيدة مع فريدون.

لم نستمع في تلك السهرة للأغاني التي تأتي من الخمارة المجاورة في طرابية، ولا غنينا أغنيات معًا في طريق العودة لعدم وجود السيد طارق والعمة نسيبة معنا. جلست فسون بجوار زوجها، وليس بجواري، وغاصا معًا بشائعات الوسط السينمائي.

ولأنني لم أستمتع في تلك السهرة، عندما طلب صديق فريدون الذهاب معنا ذات مرة بعد خروجنا من بلور مع فريدون وفسون، قلت له لا يوجد مكان في السيارة لأننا سنعرج على والد فسون ووالدتها بعد قليل، ونذهب إلى البوسفور. قلت هذا بفظاظة على الأغلب. حملق الرجل ذو الجبهة العريضة الجميلة بعينيه الخضراوين الداكنتين بدهشة، وحتى بغضب، ولكنني أخرجته من عقلي. فيما بعد، ذهبت إلى تشوقور جمعة، وأقنعت العمة نسيبة والسيد طارق بالكلام الحلو ومساعدة فسون، وذهبنا كلنا معًا إلى مطعم الطمأنينة في طرابية.

أذكر أنني كنت قلقًا بعد جلوسنا، وبدأنا الشرب، وفهمت خلال لحظة من حالة فسون المنقبضة والمتوترة أنها غير مستمتعة بالسهرة. ما إن التفتُّ إلى

الخلف لأبحث عن مُلعب طومبالا أو بائع جوز طازج مقشور يمتعنا، حتى رأيت ذا العينين الخضراوين الداكنتين على بعد طاولتين منا. كان جالسًا مع صديق، ويشربان، ويراقباننا. انتبه فريدون إلى أنني رأيتهما.

قلت: «صديقك ركب سيارة، وتعقبنا».

قال فريدون: «طاهر طان ليس صديقي».

«أليس هذا هو الرجل الذي أراد أن يأتي معنا عندما خرجنا من بلور؟».

«بلى، ولكنه ليس صديقي. إنه يمثل في الروايات المصورة المحلية، وأفلام الضرب والقتل. لا أحبه».

«لماذا لحقوا بنا؟».

صمتنا لحظة. سمعت فسون الجالسة بجانب فريدون، فتوترت. كان السيد طارق يستمع للموسيقى، ولكن العمة نسيبة أصغت إلينا. بعد ذلك مباشرة، فهمت من نظرات فسون وفريدون أن الرجل يقترب منا، فالتفت إلى الخلف.

قال لي طاهر طان: «عدم المؤاخذة سيد كمال، لم يكن قصدي إزعاجكم، أنا أريد أن أتحدث إلى والد فسون ووالدتها».

حل على وجهه تعبير الشاب المتقمص قواعد اللباقة والرقي التي توصف في أعمدة الصحف لمن يطلب الإذن من والد فتاة ووالدتها لدعوتها للرقص في عرس ضابط.

قال مقتربًا من السيد طارق: «عدمَ المؤاخذة يا سيدي، أريد أن أفتح معكم موضوعًا. فيلم فسون..».

قالت العمة نسيبة: «انظر يا طارق، الرجل يقول لك شيئًا».

«وأقوله لكم يا سيدتي، حضرتك والدة فسون، أليس كذلك؟ وحضرتكم والدها يا سيدي. هل لديكم عِلم؟ سيدي، منتجان بارزان في السينما التركية

هما السيد مظفر وحياتي الخيال عرضا على ابنتكم أدوارًا مهمة. ولكنكما رفضتما العروض لأن هناك مشاهد قبل».

قال فريدون ببرود: «ليس هناك شيء كهذا».

كان ثمة ازدحام وضجيج في طرابية كما في كل وقت. إما أن السيد طارق لم يسمع، وإما أنه تظاهر بعدم السمع مثلما يفعل كثير من الآباء الأتراك.

قال طاهر طان بنبرة الفتوة: «ماذا لا يوجد؟».

فهمنا جميعنا أنه أفرط بالشرب، ويريد أن يدخل شجارًا.

قال فريدون بانتباه: «سيد طاهر. نحن نجلس كعائلة هذا المساء، ولا نريد أن نتحدث بأعمال الأفلام».

«ولكنني أريد... سيدة فسون، لماذا تخافين؟ قولي إنك تريدين التمثيل في الفيلم».

هربت فسون بعينيها. كانت تدخن بهدوء وحركات بطيئة. نهضتُ على قدمي. ونهض فريدون في اللحظة نفسها. دخلنا مع الرجل بين الطاولتين. التفتت الرءوس إلينا من الطاولات الأخرى. يجب أن نكون قد اتخذنا وضع الديكة المصارعة التي يتخذها الرجال الأتراك قبيل الشجار. المتفرجون الذين لا يريدون تفويت الفرصة، والسكارى الذين يريدون اللهو يقتربون منا، ويستعدون للفرجة. صديق طاهر أيضًا نهض عن الطاولة، واقترب.

نادل خبير هرم يعرف شجار الخمارات دخل بيننا بسرعة، وقال: «هيا يا شباب، علينا ألا نتجمع، لنفترق. كلنا شربنا، يحدث سوء تفاهم كهذا أحيانًا. سيد كمال، سنجلب لطاولتكم محار مقلي وسمك مقدد».

أريد أن أذكّر زوار متحفنا بعد قرون، والناس السعداء من الأجيال القادمة أن الرجال الأتراك كانوا يتعاركون بالصفع والركل في المقاهي، وطوابير المستشفيات، وعند انسداد المرور، وفي مباريات كرة القدم، وفي كل مكان ولأتفه سبب، ويعتبر الخوف من العراك والتقهقر قلة شرف كبرى.

وضع صديق طارق القادم من الخلف يده على كتفه، وأبعده بموقف «كن أنت الكبير». وأمسكني فريدون من كتفي، وأجلسني على الطاولة بتعبير «وهل هذا يستحق؟» وشعرت بالامتنان له لأنه عمل هذا.

أثناء تجول ضوء بروجكتر سفينة على المياه التي تماوجها الرياح الشمالية، كانت فسون تدخن وكأن شيئًا لم يكن. نظرت إلى عينيها مطولًا، هي أيضًا لم تهرب بعينيها مني. أثناء نظرها بتكبر وما يشبه التحدي، أشعرتني بأن ما عاشته في العامين الأخيرين، وما تطمح إليه في الحياة أكبر بكثير من القضية التي افتعلها هذا الممثل السكران، وأخطر بكثير.

بعد ذلك، رفع السيد طارق كأسه، وحركه مع رأسه بحركة بطيئة جدًّا مع أغنية «كيف أحببت هذه المرأة الظالمة؟» لصلاح الدين بنار المتناهية من مقصف مجوهر. وأدركنا أن الأفضل المشاركة بحزن الأغنية، فشاركنا. بعد وقت طويل، وفي منتصف الليل، وأثناء غنائنا في السيارة، بدا أننا نسينا حدث بداية السهرة تمامًا.

٦١ ـ النظر

ولكنني لم أنس خيانة فسون نهائيًّا. من الواضح أن طاهر طان قد وقع بغرام فسون في بلور، وأمّن لها عروضَ أدوار من حياتي الخيال والسيد مظفر. أو الأقرب إلى المنطق، أن حياتي الخيال والسيد مظفر لاحظا اهتمام طاهر طان بفسون، فعرضا عليها أدوارًا. وفهمتُ من تحول فسون إلى قطة سفحت الحليب بعد ذهاب طاهر طان أنها شجعتهم.

فهمت من نظرات فسون المقاطعة والغاضبة في أول زيارة لي إلى بيت عائلة كسكين بعد سهرة مطعم الطمأنينة في طرابية صيف ١٩٧٧، أنها مُنِعت من الذهاب إلى المحلات التي يجتمع فيها السينمائيون وبخاصة بلور في بيه أوغلو. حكى لي فيما بعد فريدون في ليمون للسينما بأن العمة نسيبة والسيد

طارق ارتبكا من تلك الحادثة. من الصعب جدًّا ذهاب فسون إلى بلور في هذه الأثناء. وقد وُضع لها حد حتى بمقابلة صديقاتها في الحي. كان عليها أن تحصل على إذنٍ من أمها قبل خروجها من البيت مثل البنت العازبة. أذكر أن هذه الإجراءات القاسية التي لم تستمر طويلًا قد أتعست فسون كثيرًا. وكان فريدون أيضًا يقول بكلمات مزركشة إنه لن يذهب إلى بلور ليسلّي فسون. نعرف جيدًا أننا يجب أن نبدأ بتصوير فيلم فريدون الفني، ولا يمكن أن نُسعد فسون إلا على هذا النحو.

ولكنني أشعر بأن سيناريو الفيلم لن يمر من الرقابة، ولا فريدون يمكن أن ينجز الأمر بوقت قريب. وتفهم هذا فسون بوضوح شديد من خلال حديثنا ونحن ننظر إلى رسم النورس الذي ترسمه في الغرفة الخلفية الصغيرة وتتألم، وتحزن. ولأنني لا أتحمل أسئلة فسون الغاضبة، وأسرّ من الشهادة على تمردها، قللت من قولي لها: «كيف الرسم الجديد؟»، ولا أسألها هذا السؤال إلا عندما تكون مسرورة، وسنتحدث حقيقة عن رسم النورس.

في أغلب الأحيان أرى فسون مكدرة، فلا أسألها: «كيف رسم النورس؟»، وأشعر بغضبها من نظراتها. عندما أشعر بأنها تتواصل معي بعمق بنظراتها، تنظر إلي فسون نظرة أكثر خصوصية. إذا دخلنا لكي ننظر إلى الرسم أربع أو خمس دقائق فقط، نقضي الليل كله ونحن نحاول إعطاء معنى لهذه النظرات. أقضي غالبية وقت العشاء في تشوقور جمعة بمحاولة قراءة نظرات فسون لمعرفة ما تفكر فيه نحوي، ونحو حياتها، ومشاعرها. أعطيت نفسي جيدًا لنظرية التواصل بالنظر التي كنت أترفع عنها، وكسبتُ خبرةً في هذا المجال بسرعة.

عندما كنّا نذهب إلى السينما مع الأصدقاء أيام الشباب، أو عندما نجلس جميعًا في مطعم، أو نذهب بالمركب في نزهة ربيعية إلى الجزر، ونكون في الصالة العليا للمركب، ويقول أحدنا: «يا شباب، تلك الفتيات ينظرن إلينا!» وينفعل بعضنا، كنت أشك دائمًا بهذه العبارة. لأن البنات في الأمكنة

المزدحمة نادرًا ما ينظرن إلى الرجال من حولهن، وإذا نظرن، والتقت نظراتهن مع نظرات الرجال، يهربن بنظرهن بسرعة وخوف كأنهن واجهن نارًا، ولا يلتفتن إلى تلك الجهة مرة أخرى. في الأشهر الأولى لذهابي إلى العشاء في بيت عائلة كسكين، حين تلتقي أعيننا ـ فسون وأنا ـ بشكل غير متوقع أثناء مشاهدة التلفاز أو الجلوس إلى مائدة الطعام، كانت فسون تهرب على هذا النحو مني كأنها قابلت نارًا. كنت أشعر بأن هذا سلوك الفتاة التركية عندما تلتقي عيناها بعيني غريب في الشارع، ولا أمتعض من هذا. ولكنني فيما بعد بدأت أفكر أن فسون تريد أن تثيرني بسلوكها هذا. كنت أتعلم فن تبادل النظر حديثًا.

عندما كنت أسير في أزقة إسطنبول، وأجوب في الأسواق قديمًا، دعكم من تبادل نظر النساء مع الرجال، قليلًا ما شهدتُ نساءً مكشوفاتِ الرءوس أو محجبات ينظرن إليهم، حتى في بيه أوغلو. من جهة أخرى، ما عدا الغالبية المتزوجة بطريقة الخاطبة، فإنني سمعت كثيرًا من الذين تزوجوا بعد تعارف واختيار ورؤية، يقولون: «تفاهمنا بداية بالنظر». يدّعي حتى الذين تزوجوا بواسطة الخاطبة مثل والدي ووالدتي، أن أحدهما رأى الآخر من بعيد في حفل راقص حضره أتاتورك، وأعجب به، وتفاهم معه بتبادل النظر من دون أن يقول أي كلمة. أما والدي، فعلى الرغم من عدم اعتراضه على كلام والدتي نهائيًّا، حكى لي مرة أنهما وُجدا في حفل راقص حضره أتاتورك فعلًا، ولكنه لم ير أمي البالغة السادسة عشرة بألبستها الأنيقة وقفازيها الأبيضين، ولم يتذكرها نهائيًّا.

في عالم كعالمنا لا يتعرف فيه الرجل على المرأة، ويراها خارج العائلة، تعرفت على معنى التقاء النظر ـ لعل السبب أنني قضيت قسمًا من شبابي في أمريكا ـ في وقت متأخر، بعد الثلاثين من عمري، وبفضل فسون... ولكنني عرفت قيمة ما فهمته جيدًا جدًّا، وشعرت بقيمته دائمًا بقلبي. كانت فسون تنظر إلي مثلما تنظر النساء في المنمنمات الإيرانية القديمة، أو مثل النساء اللواتي في مشاهد الروايات المصورة والسينما. ما علي عمله أثناء جلوسي

مقابلها على المائدة بشكل قطري، ليس النظر بنظرات فارغة إلى التلفاز، بل قراءة نظرات جميلتي. لعل فسون بعد فترة اكتشفت متعتي هذه، لذلك بدأت تهرب بعينيها للحظة عندما تتقاطع نظراتنا مثل البنات الخجولات.

في البداية كنت أعتبرها محقة مفكرًا أنها لا تريد أن تُذكِّر أو تتذكر ما عشناه معًا، فوق هذا فهي تغضب لأننا لم نجعل منها نجمة سينمائية. ولكن تهربها من التواصل معي حتى بالنظر، وتصرفها كعذراء خجولة التقت نظراتها بنظرات رجل غريب لا تعرفه بعد ممارستنا السعيدة تلك للحب، أصبح يغضبني بعد فترة. عندما يكون الجميع غير مهمتين بنا، أو أثناء تناولنا العشاء ومشاهدتنا التلفاز شاردين، أو على العكس تمامًا عندما تكون دموعنا على وشك أن تذرف في مشهد فراق مؤثر من مسلسل عاطفي، فإن التقاء نظراتنا يسعدني كثيرًا، وأدرك بفرح أنني ذهبت في تلك الليلة من أجل لقاء العيون ذاك. ولكن فسون تتصرف وكأنها لم تشعر بسعادة تلك اللحظة نهائيًّا، وتهرب بنظراتها، وهذا ما يجرح قلبي.

ألا تعرف أنني هناك لأنني لم أستطع نسيان كم كنا سعيدين في زمن ما؟ كنت أشعر من نظراتي التالية بأنني أغضب نتيجة هذه الأفكار، أو أنني كنت أحلم فقط.

حدث الاكتشاف الكبير الثاني في هذا العالم الغامض بين الشعور والحلم في أثناء تعلمي فن النظر تدريجيًّا بفضل فسون. من المؤكد أن تبادل النظر طريقة للتعبير عن أنفسنا لمن أمامنا دون استخدام أي كلمة. ولكن المشروح والمفهوم يحمل في الحقيقة غموضًا عميقًا يعجبنا. لا أفهم ما تريد فسون التعبير عنه بالضبط، وبعد فترة أدرك أن ما عبرت عنه هو النظرة ذاتها. أشعر بغضب فسون وحزمها والعواصف التي تهبّ داخلها من نظراتها الطافحة بالمعاني المكثفة، وإن كان هذا نادرًا ما يحدث في البداية، ويشوش عقلي كأنني أتوتر مقابلها. عندما يظهر على الشاشة ما يشير إلى ذكرياتنا السعيدة المشتركة، أي عند ظهور اثنين يتبادلان القبل مثلنا على سبيل المثال، فإن

هربهـا بعينيهـا دون أي تنازل عندما أريـد أن نتبادل النظر، وحتى اسـتدارتها جانبًا، يجعلني أتمرد. في هذه الأثناء تطورت عادتي بالنظر إليها بحزم وعناد دون أن أهرب بعيني.

كنـت أركّز نظراتـي على بؤبؤي عينيهـا، وأنظر إليها بانتبـاه لمدة طويلة. مـن الطبيعـي ألا تتجـاوز النظرة علـى مائدة العائلة عشـر الثوانـي أو الاثنتي عشـرة ثانية، وأطولها، وأكثرها فظاظة تصل إلى نصف دقيقة. يمكن لأجيال المسـتقبل الحداثييـن الأحـرار أن يعتبروا مـا قمت به نوعًا مـن «التحرش». لأننـي بنظراتي الملحة تلك أنقل إلى مائدة العائلة ما هو خاص بيننا وأرادت فسـون إخفـاءه، وحتى نسـيانه. بالطبـع لا يمكن أن يكون وجود المشـروب على المائدة، أو كوني سكرانًا عذرًا. ولكنني أستطيع أن أدافع عن نفسي الآن بأننـي لا بـد أن أجن إذا لـم أفعل هذا على الأقل، ولما وجدت القوة بنفسـي التي تمكنني من الذهاب إلى بيت عائلة كسكين.

عندمـا أدرك مـن أول لقاء لنظرنا من نظراتي الملحـة والفظة في غالبية السهرات أن فسون في سهرة غاضبة ومعقدة، لا ترتبك، وتجلس أمامي من دون أن تنظـر إلي نهائيًا مثل كل النسـاء التركيات اللواتي يتجاهلن نظرات الرجـال المتحرشـة والوقحة، ويجعلن من مسـايرة الوضع مهـارة. حينئذ أكاد أن أجن، وأغضب منها أكثر، وأركز نظراتي على عينيها أكثر. نبّه كاتب جريدة ملييت الشـهير جلال صاليك في زاويتـه الرجال الأتراك الغاضبين الذين يسـيرون في الشـوارع، وكتب في العديد مـن المرات: «عندما ترون امرأة جميلة، لا تنظروا إلى عينيها بشـكل مباشر كأنكم ستقتلونها». تفسير فسـون لنظراتي المتلاحقة وكأنني واحد من أولئـك الرجال الذين تحدث عنهم جلال صاليك يفقدني صوابي.

كثيرًا ما حكت لي فسـون عن «التحرش» الكبير بنظر أولئك الذين يأتون من المناطق النائية إلى إسـطنبول، وينظرون بحدة وإعجاب إلى امرأة جميلة مكشوفة الرأس مزينة وتضع أحمر شفاه. وكما يحدث كثيرًا في المدينة، فإن

بعض هؤلاء الرجال، يلحقون النساء اللواتي ينظرون إليهن طويلًا، ومنهم من يُشعر بوجوده إذ «يبدو متحرشًا»، ومنهم من يراقب المرأة بصمت ساعات وأياما، وحتى أشهرا كشبح لا يشعر به أحد.

ذات ليلة من شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٧، صعد السيد طارق قبلنا جميعًا للنوم «لأنه شعر بفقدان حيله». كانت فسون والعمة نسيبة تتبادلان الحديث بشكل ممتع، وكنت أنظر إليهما شاردًا، أو أعتقد هذا، فجأة التقت نظراتي بنظرات فسون. نظرت إليها بانتباه كما كنت أفعل على الأغلب في تلك الأيام.

قالت فسون: «لا تفعل هكذا!».

زُلزلت فجأة. قلدت فسون نظرتي بشكل جيد جدًّا. لم أتقبل وضعي بداية نتيجة خجلي.

تمتمت: «ماذا تقصدين؟».

قالت فسون: «لا تفعل هكذا!». وقلدت نظرتي بمبالغة أكبر. ومن هذا التقليد فهمت أنني أنظر مثل أبطال الروايات المصورة.

حتى العمة نسيبة ابتسمت لهذا. بعدئذ خافت مني، وقالت: «لا تقلّدي الجميع، والتصرفات كلها كالأطفال يا بنتي! لستِ طفلة».

استجمعتُ قوتي كلها، وقلت: «لا يا عمة نسيبة، أنا أفهم فسون جيدًا».

هل أفهم فسون حقيقة؟ من المؤكد أن فهم من نعشقه هو المهم. وإذا كنا لا نستطيع عمل هذا، فإن الاعتقاد بأننا نفهمه أمر جيد. لأعترف أنني نادرًا ما تذوقت طعم الحالة الثانية التي تمنح شعور الارتياح على مدى الأعوام الثمانية.

سيطرت علي حال القطيعة كما يتوقع القارئ. ولكنها لم تستمر طويلًا. بعد عشرة أيام، طرقت باب عائلة كسكين كأن شيئًا لم يكن. فور دخولي والتقاء نظري بنظرها، فهمت من بريق عينيها أنها سعدت برؤيتي. في اللحظة

ذاتها، شعرتُ أيضًا بأنني أسعد إنسان في الدنيا. بعدئذ، جلسنا إلى الطاولة ثانية، وتابعنا تبادل النظر.

مع مرور الزمن، وتدفق الأشهر والسنين كنت أستمتع بشكل لا مثيل له بالجلوس إلى طاولة عائلة كسكين، وتبادل الحديث، وبالحديث مع السيد طارق والعمة نسيبة ـ وتشارك فسون من حيث تجلس جانبًا في أغلب الأحيان ـ ونحن نشاهد التلفاز حتى مراسم رفع العلم. يمكنني أن أسمي هذا الأمر حصولي على عائلة جديدة. كان شعور خفة وتفاؤل بالحياة نتيجة مشاركتي عائلة كسكين الحديث، وليس نتيجة جلوسي مقابل فسون فقط، وكأني أنسى سبب ذهابي إلى هناك.

حين تلتقي نظرتي بنظرة فسون ذات لحظة عادية من وسط الليل أثناء شعوري بهذه المشاعر، كأنني أتذكر فجأة عشقي الذي لا ينضب لفسون، وأنه السبب الأساسي الذي أخذني إلى هناك، فأنهض فجأة كأنني كنت نائمًا، وأنفعل، وتدب بي الحيوية. كنت أريد أن تشعر فسون بالانفعال نفسه. لو استيقظت من هذا الحلم البريء ذات لحظة، فستتذكر العالم الأعمق والأكثر حقيقة الذي عشناه في زمن ما، وتترك زوجها خلال فترة قصيرة، وتتزوجني. ولكنني لم أكن أرى «تذكرًا» أو «استيقاظًا» كهذا في نظرات فسون، وأشعر بجرح قلب يصل إلى درجة عدم استطاعتي النهوض في النهاية.

في تلك الفترة التي لم تصل فيها أعمال الفيلم إلى نتيجة بأي شكل، لم تكن تنظر إلي نهائيًا تقريبًا بطريقة تريني أنها تتذكر سعادتنا الكبرى التي عشناها ذات يوم. على العكس تمامًا، كانت نظراتها تتخذ حالًا تفتقر فيها للكثافة والعمق، وتستمر بالنظر إلى ما نراه حينئذ في التلفاز، أو تظهر كأنها مهتمة جدًّا بنميمة ما تتعلق بالجيران، وتتصرف كأن معنى الحياة وهدفها الحقيقي هو الجلوس على مائدة والدها ووالدتها، وتبادل الحديث، والضحك. يسيطر عليّ حينئذ شعور بالفراغ وخواء المعنى كأنه ليس لي

مستقبل نهائيًّا مع فسون، وليس هناك أي احتمال بانفصالها عن زوجها، وعيشها معي.

بعد هذه الأحداث بسنين، شبّهت نظرات فسون المقاطعة في تلك الأشهر، ونظراتها الأخرى ذات الإيحاءات بنظرات الممثلات في الأفلام التركية. ولكن هنا لا يوجد تقليد، لأن فسون لا تستطيع أن تعبر عما تريد أمام والدها ووالدتها والرجال الآخرين مثل بطلات الأفلام التركية، وتعبر عن غضبها ورغباتها ومشاعرها بنظراتها.

٦٢ ـ لكي يمضي الوقت

رؤيتي فسون بشكل منتظم، نظمت حياتي بالعمل. لأنني أشبع بالنوم. أذهب إلى المكتب باكرًا كل صباح (مازالت إنغة ذات الضحكة الممتعة على الجدار الجانبي للبناء في حربية تشرب مياه ملتم الغازية، ولكنني بحسب ما سمعت من زعيم، فإن هذا لم يعد يساعد بالبيع). ولأن عقلي لا ينشغل بفسون، فأنا أعمل جيدًا، وأرى ما يحاك من حولي، وأستطيع اتخاذ القرار.

أصبحت شركة «تك ياي» التي أوكل عثمان إدارتها لكنان منافسة لصاطصاط في وقت قصير. ولكن هذا لم يكن بسبب نجاح أخي وكنان بالإدارة. صانع النسيج السيد طورغاي الذي أتكدر كلما تذكرت سيارته الموستانغ ومصنعه بسبب عشقه لفسون ـ لا أدري لماذا لم أعد أغار منه نهائيًّا ـ أحال توزيع جزء من إنتاجه إلى تك ياي، وهذا هو السبب. ومثلما نسي السيد طورغاي عدم دعوته إلى الخطوبة بلباقته المعهودة، فقد بدأ صداقة عائلية مع عثمان الآن. يذهبون معًا إلى جبل أولو للتزلج على الجليد، ويسافرون إلى باريس ولندن للتسوق، ويشتركون بالمجلات السياحية نفسها.

أدهش من عدوانية تك ياي المتصاعدة باستمرار، ولكنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا. أخذ كنان بشكل فج المديرين الشباب المجدين الذين وظفتهم

في شركتي، والمديرين متوسطي العمر اللذين شكلا بجدهما وإخلاصهما عمود الشركة الفقري بعرض راتب كبير.

حدثت والدتي عدة مرات على العشاء حول متعة أخي بعرقلة أعمالي، وعمله ضد الشركة التي أسسها والدي بسبب طمعه، وشكوت من هذا. ولكن والدتي لم تساعدني بذريعة «لا أريد أن أتدخل بينكما يا بني». أعتقد بأنها توصلت إلى قرار بأنني لن أستطيع إدارة الأعمال التي تركها والدي نتيجة نصائح عثمان لها، وانفصالي عن سيبل، والغرابة في حياتي الخاصة، وذهابي إلى عائلة كسكين التي أعتقد أنها تنتبه إليها قليلًا.

في السنتين ونصف السنة تلك، دخلت زياراتي لعائلة كسكين، والتقاء نظري بنظر فسون، وأعشيتنا، وأحاديثنا، ونزهاتنا إلى البوسفور التي أصبحنا نخرجها شتاء أيضًا نوعًا من الرتابة (والجمال)، تعاقبًا متوازنًا. لم نكن نستطيع البدء بفيلم فريدون الفني بأي شكل، ولكننا دائمًا نستعد وكأن التصوير سيبدأ بعد عدة أشهر.

أدركت فسون أن الفيلم الفني سيستغرق مزيدًا من الوقت، وقررت أن الأفلام التجارية ستضعها وحيدة في أزقة خطيرة، أو تظاهرت بأنها قررت هذا. لم ينته غضبها الذي تظهره تمامًا. عندما تتقاطع نظراتنا أثناء جلوسنا على المائدة في بيت تشوقور جمعة، لا تهرب بعينيها بأداء الصبية الصغيرة الخجولة، وتنظر إلى عيني بحدة شديدة كأنها تذكرني بكل عيوبي. حينئذ تحزن لأنها عبرت عن غضبها الذي كبتته في داخلها، ولكنني أشعر بالسعادة لإدراكي أنها تشعر بنفسها أقرب إلي.

بدأت أسألها في نهاية العشاء من جديد: «كيف يسير الرسم يا فسون؟». وأسأل هذا ولو كان فريدون في البيت، على المائدة (بات خروج فريدون أقل بعد تلك السهرة في مطعم الطمأنينة، ويتناول العشاء معنا. وكان وضع صناعة السينما صعبا). أذكر مرة أننا نحن الثلاثة نهضنا عن المائدة، ونظرنا طويلًا إلى رسم الحمامة التي ترسمها فسون، وتكلمنا.

قلتُ كأنني أهمس: «أحب عملك على هذا النحو ببطء وصبر يا فسون».

قال فريدون بجو الهمس نفسه: «وأنا أقول هذا، لتفتح معرضًا! ولكنها تخجل..».

قالت فسون: «أنا أرسم هذا كي أمرر الوقت. أصعب شيء إظهار بريق ريش رأس الحمامة. هل ترونها؟».

قلت: «نعم، نراها».

خيّم صمت طويل. أعتقد أن فريدون بقي في البيت في ذلك المساء كي يشاهد «ساعة الرياضة». عندما سمع صوت هدف من التلفاز، خرج راكضًا. لم نتكلم ـ فسون وأنا ـ نهائيًّا. يا إلهي كم يسعدني النظر إلى الرسم الذي ترسمه.

«فسون، لنذهب ذات يوم إلى باريس، ونرى هناك كل اللوحات والمتاحف، أريد هذا بشدة».

كانت هذه الفجاجة ذنبًا يقابله عبوس وتقطيب حاجبين وحتى عدم كلام معي، ومقاطعة لعدة زيارات، ولكن فسون قابلت الأمر بشكل طبيعي جدًّا.

«وأنا أريد أن أذهب يا كمال».

أحببت الرسم، ورسمت «لنفسي» رسومًا في شقة بناء مرحمة في المرحلتين المتوسطة والثانوية، وحلمت بأن أكون رسامًا في أعوام المدرسة مثل كثير من الأولاد. في تلك الفترة كنت أحلم حلمًا طفوليًّا بالذهاب إلى باريس ذات يوم، ورؤية اللوحات كلها. في الخمسينيات ومطلع الستينيات لم يكن ثمة متحف رسم يمكن زيارته أو كتب لنسخ لوحات يمكن تصفحها بطفولة في تركيا. ولكننا لم نكن ـ فسون وأنا ـ وسط ما يجري في عالم الرسم. تسعدنا متعة تكبير الطائر المصور بالأسود والأبيض، وتلوينه.

كما ازدادت متع السعادة الغريبة الطفولية التي أستمتع بها أكثر تدريجيًّا في

بيت عائلة كسكين. بدا لي العالم خارج البيت، وأزقة إسطنبول أكثر وحشية. النظر مع فسون إلى رسوم الطيور التي ترسمها، ومتابعة تطور الرسوم بشكل بطيء، والحديث أربع أو خمس دقائق في الغرفة الخلفية مرة بالأسبوع ما إذا كان الطائر الذي سترسمه بعد قُمْريًّا، أو حدأة، أو سنونو من طيور إسطنبول التي صورها فريدون، كانت تسعدني بشكل مذهل.

ولكن «السعادة» كلمة غير كافية هنا. سأحاول شرح الشاعرية التي عشتها في الغرفة الخلفية تلك، والشبع العميق الذي تمنحه لي الدقائق الأربع أو الخمس تلك: كان هذا شعورا بتوقف الزمن، وبقاء كل شيء كما هو إلى ما لانهاية. إلى جانب هذا الشعور مباشرة، أستمتع بالحماية والاستمرار والبقاء في البيت. من جهة أخرى ثمة إيمان يجعل قلبي خفيفًا بأن العالم والحياة أبسط وأفضل، وإذا قلتها بكلمة أكثر تزيينًا، فثمة رؤية للحياة. من المؤكد أن الشعور بالطمأنينة هذا يتغذى بوجه فسون، وجمالها الظريف، وعشقي لها. الحديث معها أربع أو خمس دقائق في الغرفة الخلفية وحده سعادة. ولكن هذه السعادة تأتي إلى حد ما نتيجة المكان أو الغرفة التي نحن فيها (لو تناولت العشاء معها في فوآية، لسعدت جدًّا أيضًا، ولكن هذه السعادة مختلفة). الطمأنينة العميقة المرتبطة بالمكان، والحالة النفسية، تتداخل مع ما أراه في المحيط، والرسم الذي ترسمه فسون ببطء، واللون القرميدي في السجادة الأوشاقية الممدودة على الأرض، وقطع القماش، والأزرار، والجرائد القديمة، ونظارة السيد طارق للقراءة، ومنفضات السجائر، ومجموعات العمة نسيبة للحبكة. أسحب رائحة الغرفة أيضًا إلى داخلي، وقبل أن أخرج من الغرفة ألقي إلى جيبي كشتبانًا أو زرًّا أو بكرة، وفيما بعد تذكرني هذه كلها بغرفة شقة مرحمة، وتطيل سعادتي.

في نهاية كل عشاء، وبعد أن ترفع العمة نسيبة القدور وأطباق الطعام الكبيرة، وتضع الطعام الذي لم يؤكل في الثلاجة (على زوار المتحف أن يولوا أهمية خاصة لثلاجة عائلة كسكين التي بدت لي دائمًا ذات سحر خاص)، تتناول «مجموعة الحبكة» التي في كيسٍ نايلوني كبير قديم، أو تطلب من

فسون جلبها. ولأن هذا في الوقت نفسه يأتي مع موعد دخولنا إلى الغرفة الخلفية، كانت تقول لفسون: «اجلبي لي مجموعة الحبك عندما تعودين!». لأنها كانت تستمتع بالحبك وهي تشاهد التلفاز، وتخوض بالحديث. أعتقد بأن العمة نسيبة ليس لديها اعتراض على بقائنا معًا لبضع دقائق، تلحق بنا لكي لا نبقى على انفراد خوفًا من السيد طارق، وتقول: «لآخذ حبكي، سيبدأ مسلسل «رياح الخريف»، ألن تشاهداه؟».

كنا نشاهده. لعلني شاهدت مئات المسلسلات والأفلام لدى عائلة فسون في ثمانية الأعوام، ولكنني أنسى تمامًا المسلسلات والأفلام، ومئات وآلاف برامج الحوار التي تقدم في الأعياد القومية (مثل «مكانة فتح إسطنبول في التاريخ العالمي»، «ما هو الشعور التركي؟ وكيف يجب أن يكون؟»، «كيف نفهم أتاتورك بشكل أفضل؟») في فترة قصيرة على الرغم من تذكري كل ما يتعلق ببيت عائلة كسكين حتى أدنى تفصيل، وأتفه شيء.

كنت أتذكر بعض اللحظات فقط مما نشاهده في التلفاز (ما يعجب أرسطو المنظّر حول الزمن). ترتبط تلك «اللحظة» بمشهد، وتبقى في ذهني بحيث لا تُمحى. نصف الصورة التي لا تنسى في عقلي هي مشهد التلفاز أو حتى جزء منه. مثلًا حركة حذاء محقق أمريكي ونهايتا كمي بنطاله وهو يصعد الدرج راكضًا؛ مدخنة بناء قديم لم تهتم بها الكاميرا في الحقيقة، ولكنها دخلت إطار المشهد؛ شعر امرأة في مشهد تبادل قبل (كان يخيم الصمت على المائدة)، أو أذناها؛ فتاة خائفة (يبدو أنها لم تُؤمن لدى أحد في البيت) مندسة بوالدها بين آلاف المتفرجين لمباراة كرة القدم؛ القدم القريبة اللابسة الجورب بين الساجدين معًا في ليالي الاحتفالات الدينية؛ سفينة البوسفور في خلفية مشهد فيلم تركي؛ علبة كونسروة المحشو التي يتناولها الرجل الشرير، وكثير من الأشياء الأخرى ترتبط بتفصيل من وجه فسون الذي أنظر إليه بشكل جانبي وهي تنظر إلى ذلك المشهد، مثلًا طرف شفتها، حاجباها المرفوعان، إمساكها يدها، وضعها الشوكة التي بيدها على طرف الطبق بعفوية أو تقطيب حاجبيها، أو طريقة ضغطها على عقب سيجارتها

لإطفائها، وتتردد هذه المشاهد في بعض الأحيان على ذاكرتي مثل الأحلام التي أتذكرها تمامًا. من أجلِ أن أعرض هذه الأحلام التي تأخذ حال الأسئلة والمشاهد في متحف البراءة شرحتها بالتفصيل للرسامين، ولكنني لم أجد جوابًا شافيًا لأسئلتي في أي وقت. ما الذي جعلها تنشدّ إلى القصة بكل هذه القوة وهي تشاهد فيلم الشاشة؟ كنت أريد أن أسألها هذه الأسئلة كلها، ولكن الحديث الذي يدور لدى عائلة كسكين بعد الفيلم يرتبط بنتائجه الأخلاقية أكثر من ارتباطه بتأثيره عليهم.

تقول العمة نسيبة على سبيل المثال: «نال السافل عقوبته، ولكنني تألمت على الولد».

يقول السيد طارق: «دعك من هذا، لم يتذكروا الولد. النقود هي دين هؤلاء وإيمانهم. أغلقي هذا يا فسون».

بضغط فسون على الزر يختفي هؤلاء ـ الأوربيون الغرباء، القتلة الأمريكيون، العائلة العجيبة وغير المؤدبة في الفيلم، وحتى كاتب السيناريو والمخرج السافلان اللذان فكرا بهذا الفيلم ـ في ظلام لانهائي، مثل الأوساخ التي تتدفق إلى خرطوم من ثقب حوض الحمام، ويختفون داخل الشاشة.

فور إغلاق التلفاز، يقول السيد طارق: «أوه، حسنٌ، تخلصنا من هؤلاء».

يمكن أن يكون «هؤلاء» فيلمًا أجنبيًّا أو محليًّا، أو جلسة حوار، أو مقدمَ مسابقة معلومات متحذلقا ومتسابقين أغبياء مما يعرضه التلفاز! كانت هذه العبارة تزيد طمأنينتي الداخلية، وتشعرني بأن الأهم هنا هو وجودي مع فسون وعائلتها وحدنا، وهم منتبهون إلى هذا. حينئذٍ أريد أن أبقى هناك مدة أطول، وهذا ليس من أجل المتعة بوجودي في غرفة واحدة، وإلى الطاولة نفسها مع فسون، بل لوجودي مع عائلة كسكين كلها في هذا البيت والبناء («هناك» هو المكان السحري الذي يجوبه رواد المتحف كأنهم يجوبون داخل «الزمن»).

أريد لزوار المتحف أن يبقوا في زاوية من عقولهم أن عشقي لفسون ينتشر تدريجيًّا على عالمها كله، وكل ما يتعلق بها، وكل لحظاتها وأغراضها.

شعوري بأنني خارج «الزمن» وأنا أشاهد التلفاز، وبالطمأنينة العميقة هو الذي جعل زياراتي لعائلة كسكين وعشقي لفسون ممكنًا طوال ثمانية أعوام، لا يخرب إلا عند مشاهدة الأخبار. كان البلد يُجر إلى حرب أهلية.

بدأت القنابل تنفجر في حينا أيضًا عام ١٩٧٨. كانت الأزقة الممتدة إلى طوبخانة ونواحي قرة كوي تحت سيطرة القوميين المثاليين، وتكتب الجرائد أن كثيرًا من خطط الجرائم رُسمت في مقاهي هذه الأماكن. تضم الأزقة المبلطة بالحجارة الصاعدة المتعرجة من تشوقور جمعة إلى «جيهان غير» أكرادًا وعلويين وموظفين صغارا متنوعين قريبين من التيارات اليسارية. وهؤلاء أيضًا كانوا يحبون استخدام السلاح. كان فتوات هاتين المجموعتين يدخلون بصراعات مسلحة من أجل السيطرة على زقاق أو مقهى أو ساحة صغيرة، وعندما يفجّر بعض المجرمين الذين توجههم المخابرات السرية والدولة من بعيد، يدخل الطرفان بحرب ميدان. عانى تشتين أفندي كثيرًا في هذه المرحلة لوقوعه بين نارين، وعدم معرفته أين سيركن الشيفروليه، وفي أي مقهى سينتظرني، ولكنني عندما قلت عدة مرات بأنني أستطيع الذهاب وحدي إلى عائلة كسكين، أجابني بأنه لا يسمح بهذا مطلقًا. لم تكن أزقة تشوقر جمعة وطوبخانة وجيهان غير آمنة في ساعة خروجي من بيت عائلة كسكين. أثناء عودتنا بالسيارة إلى بيتنا، كنا نرى من يلصق ملصقات أو بيانات، أو يكتب شعارات على الجدران، وننظر إليهم بخوف.

لأن أخبار المساء في التلفاز تتحدث عن تفاصيل تفجيرات وقتل ومجازر من هذا النوع بشكل دائم، كانت عائلة كسكين تشعر بالطمأنينة لأنها في بيتها «والحمد لله»، ويسيطر عليها القلق خوفًا من المستقبل في الوقت نفسه. لأن الأخبار سيئة إلى درجة عدم احتمالها، كنا جميعًا نحب المذيعة الجميلة آي

تـاج قاردوز وتعبيـرات وجهها وحركاتهـا أكثر من الأخبار ذاتهـا. كانت آي تـاج قاردوز لا تتحرك، ولا تبتسـم ولو مرة واحـدة، وتقرأ الأخبار من الورقة التي بيدها بسـرعة وجمود وكأنها من شمع، على عكس المذيعات الغربيات اللواتي يتمتعن بالحرية والراحة.

كان السيد طارق يقول بين حين وحين: «اهدئي يا بنتي، ستختنقين».

علـى الرغم من ممازحته هذه مئات المرات، كنا نضحك وكأننا نسـمعها للمـرة الأولـى. لأن المذيعـة التي تبـدو أنهـا انضباطية جـدًّا، وتحب عملها كثيـرًا، وتخـاف من الوقوع بالخطـأ، لا تتوقف أحيانًا لأخـذ نفس حتى تنهي الجملـة، وإذا طالـت الجملة، فهي تسـرع بها لكي لا تختنـق، وحينئذ يمتقع وجهها بالحمرة.

كان السيد طارق يقول: «واه، بدأت تحمرّ ثانية».

كانت العمة نسيبة تقول: «يا بنتي، انتظري قليلًا، وابتلعي ريقك..».

كأن آي تـاج قـاردوز تسـمع العمة نسـيبة، فترفـع عينيها عـن الورقة التي بيدهـا، وتلقـي نظرة إلينا نحن الذيـن ننظر إليها من حـول الطاولة بمزيج من الارتبـاك والمـرح، وتبلع ريقها بجهـد وصعوبة كبيرين مثـل ولد خضع قبل فترة قريبة لعملية استئصال اللوزتين.

كانت العمة نسيبة تقول: «أحسنت يا بنتي!».

سـمعنا من فم هذه المذيعة خبر موت ألفس بريسلي في بيته في ممفيس؛ وخطـف الألويـة الحمراء لرئيـس وزراء إيطاليا السـابق ألدو مـورو، وقتله؛ وإطلاق النار على الصحفي جلال صاليك مع صديقته أمام دكان علاء الدين في نيشان طاش، وقتلهما.

الطريقـة الأخـرى التي تمنحني طمأنينة هي وضع عائلة كسـكين مسـافة بينهـم وبيـن العالـم أثنـاء مشـاهدة التلفـاز هي تشـبيههم الأشـخاص الذين

يظهرون على الشاشة بأشخاص من محيطهم القريب، ونقاشهم طويلًا أثناء تناول الطعام مدى صحة هذه التشبيهات.

أثناء متابعتنا مشاهد احتلال السوفيت لأفغانستان في نهاية عام ١٩٧٩، أذكر أننا ناقشنا طويلًا الشبه بين رئيس الدولة الأفغاني الجديد بابراك كارمال وعامل في فرن حينا إلى درجة يبدو كأنه أخوه. فتحت الموضوع العمة نسيبة التي تستمتع بعمل هذه التشبيهات بما لا يقل عن السيد طارق. بداية، لم نفهم المقصود في الفرن. لأنني أركض إلى الفرن، وأشتري خبزًا طازجًا للعشاء عندما يوقف تشتين أفندي السيارة أمامه، فوجوه عمال الفرن مألوفة بالنسبة إليّ. لهذا السبب وافقت العمة نسيبة. أما فسون والسيد طارق فقد جادلا بأن الرجل الجالس على الحساب لا يشبه رئيس الدولة الأفغاني الجديد.

كان عناد فسون يبدو لي أحيانًا أنه مجرد معارضة لي. عندما قلتُ إن بائع الصحف على زاوية طلعة تشوقور جمعة وشارع بوغاظ كسان يشبه تمامًا رئيس الدولة المصري الذي قتله الإسلاميون أثناء استعراضه العرض العسكري من مدرج الشرف في الملعب ـ كما يفعل كبار ضباطنا ـ عارضتني فسون لأنني أنا طرحت الفكرة. ولأن خبر اغتيال السادات شغل شاشة التلفاز والأخبار لعدة أيام، تحول هذا النقاش بيني وبين فسون إلى نوع من حرب الأعصاب.

إذا حظي تشبيه بموافقة كافية على مائدة عائلة كسكين، فإن الشخص الذي يظهر على الشاشة لا يُذكر باسمه، أي لا يقال أنور السادات، بل البقال بحري أفندي. عندما دخل العام الخامس لعشائي لدى عائلة كسكين، أيدت تشبيه ممثل الكركتر الشهير جان غابين (شاهدنا كثيرًا من أفلامه) بمنجد اللحف نظيف أفندي؛ وتشبيه آيلا الساكنة مع والدتها في الأسفل، وتخفي عني فسون صداقتها بها بالمذيعة المتوجسة التي تقدم النشرة الجوية كل مساء؛ والمرحوم رحمي أفندي برئيس الحزب الإسلامي الهرم الذي يقدم

كل يوم للتلفاز تصريحات حادة؛ والكهربائي إفة بالكاتب الرياضي الشهير الذي يقدم أهداف الأسبوع مساء كل أحد؛ وتشتين أفندي (بسبب حاجبيه بشكل خاص) بالرئيس الأمريكي الجديد ريغان.

عندما يظهر هؤلاء المشاهير على الشاشة، تولد في أنفسنا جميعًا رغبة بالمزاح. كان العمة نسيبة تقول: «اركضوا يا أولاد، انظروا إلى زوجة بحري أفندي الأمريكية، ما أجملها!».

أحيانًا نحاول استنتاج الشبه بين مشهور يظهر على الشاشة وأحد ما. مثلًا، تقول العمة نسيبة عن الأمين العام للأمم المتحدة كورد فالدهايم الذي يحاول إيجاد حل للقضية الفلسطينية، وكثيرًا ما يظهر على شاشة التلفاز: «اعرفوا من يشبه هذا الرجل؟» ويخيم صمت طويل على المائدة أثناء بحثنا جميعنا عن جواب لهذا السؤال. وتستمر فترات الصمت هذه إلى ما بعد اختفاء الشخص المشهور عن الشاشة، وظهور أخبار وإعلانات ومشاهد أخرى.

فجأة يُسمع بوق سفينة قادمة من جهة طوبخانة وقرة كوي، ونتذكر ضجيج المدينة وزحامها، وأثناء تصورنا السفن الراسية في الميناء، أنتبه إلى أي درجة دخلتُ حياة عائلة كسكين، وكم من الوقت قضيته على هذه المائدة، وتدفقت الأشهر والسنوات وسط الصفارات القوية دون أن أنتبه.

٦٣ - عمود الشائعات

جُرّ البلد إلى حرب أهلية، والقنابل المنفجرة، والمواجهات في الأزقة، قللت عدد الذاهبين إلى السينما مساء، وهذا ما زعزع «الصناعة السينمائية». بار بلور وخمارات السينمائيين الأخرى مزدحمة كما هي عليه دائمًا، ولكن لعدم استطاعة العائلات الخروج ليلًا، فهم يسعون بكل ما أوتوا لإيجاد فرصة عمل في الدعايات أو أفلام الضرب والقتل التي يُنتج كل يوم واحد منها. لأن

المنتجين الكبار لم يعودوا يستثمرون بأفلام من النوع الذي شاهدناه قبل صيفين، شعرت بأن أهميتي ازدادت بين مجموعة السينمائيين في بار بلور باعتباري غنيًّا محبًّا للسينما أدعم شركة ليمون للإنتاج. عندما ذهبت ذات مساء إلى بار بلور بعد انقطاع طويل نتيجة إلحاح فريدون، رأيت فيه زحامًا أكبر من كل مرة، ثم عرفت من السكارى أن البطالة فادت بارات السينمائيين، وأن «كل قطاع السينما يشرب».

شربت في ذلك اليوم مع السينمائيين التعساء حتى الصباح. وأذكر أنني في نهاية السهرة دخلت بحوار حلو مع طاهر طان الذي أبدى اهتمامًا بفسون في مطعم الطمأنينة. في نهاية تلك السهرة أيضًا صرت أنا والممثلة المحببة الشابة الجميلة نرجس «صديقين» بحسب تعبيرها. كانت قبل أعوام تمثل في الأفلام العائلية بدور بائعة الكعك التي ترعى والدتها الكفيفة، أو البنت البريئة التي تعاني من ظلم خالتها زوجة أبيها التي جسدت شخصيتها سوهاندان الغدارة، والآن تشكو كالجميع من عدم تحقيق أحلامها، ومن البطالة، وعمل الدوبلاج للأفلام الإباحية المحلية. وهي بحاجة إلى دعمي من أجل تصوير سيناريو جذب اهتمام فريدون أيضًا. انتبهت كالخيال نتيجة سكري بأن فريدون يهتم بها، وهناك «تقارب عاطفي» بينهما بحسب تعبير كتاب منوعات السينما، والأكثر من هذا رأيت باستغراب أن فريدون يغار على نرجس مني. خرجنا نحن الثلاثة من بلور قريب الصباح، ومشينا باتجاه جيهان غير حيث البيت الذي تعيش فيه مع أمها التي تغني في الملاهي الرخيصة من الأزقة الخلفية المظلمة بين الجدران المظلمة التي يبول عليها السكارى، وكتب عليها الشباب شعارات متطرفة. في أثناء ملاحقة الكلاب المهددة لنا في الأزقة، تركت لفريدون مهمة إيصال نرجس إلى بيتها، وعدت إلى بيتي الذي أعيش فيه مع أمي بطمأنينة.

في ليالي سكري تلك كنت أفكر بحزن وأنا ما بين الصحو والنوم بأن شبابي قد انتهى منذ زمن، وأن حياتي اتخذت شكلها وأنا في الخامسة والثلاثين من عمري مثل كل الشباب الأتراك، ولم يعد فيما تبقى من حياتي

سعادة. أشعر بأن السبب الذي يجعل حياتي يومًا بعد يوم أضيق وأشد ظلمة على الرغم من كل هذا العشق والرغبة بالحب التي أحملها في داخلي هو مخاتلة ناجمة عن الجرائم السياسية، والصراع الذي لا ينتهي، والغلاء، وأخبار الإفلاس، وأجد لنفسي سلوانًا.

ذهابي إلى تشوقور جمعة، ورؤيتي فسون، والتقاء أعيننا، والحديث بيننا، وسرقتي بعض الأشياء من طاولة عائلة كسكين وبيتهم لتذكرني بها فيما بعد، وأخذها إلى نيشان طاشِ، وسلواني بتلك الأشياء، يشعرني أحيانًا بأنني لن أكون تعيسًا. كنت أنظر إلى الشوكات والملاعق التي آخذها من بيت عائلة كسكين، وقد استعملتها فسون كما أنظر إلى لوحة أو ذكرى.

أحيانًا يسيطر علي شعور قوي بأن هناك حياة أفضل في مكان آخر، فأحاول أن أفكر بشيء آخر، وأجد ذرائع لكي لا أشعر بالألم. ألتقي بزعيم، وبعد معرفة آخر إشاعات الطبقة الراقية، أقرر أن الابتعاد عن حياة أصدقائي الأغنياء ليست خسارة كبرى.

بعد ثلاثة أعوام، يرى زعيم أن محمدًا ونورجيهان لم يمارسا الحب. ولكنهما يقولان إنهما قررا الزواج. هذا أكبر خبر. يرى زعيم أن محمدًا قرر ألا يمارس الحب مع نورجيهان حتى العرس على الرغم من معرفة الجميع ـ بمن فيهم محمد ـ أنها عشقت شبابًا فرنسيين في باريس، ومارست معهم الحب. وتمازح نورجيهان بهذا الأمر، وتقول إن الشرط الأول لزواج حقيقي سعيد باعث على الطمأنينة يستمر أعوامًا طويلة في دولة مسلمة ليس الغنى، بل عدم ممارسة الحب قبل الزواج. وتحظى هذه الممازحات بإعجاب محمد، ويتحدثان معًا عن حكمة أجدادنا، وجمال الموسيقى القديمة، وقناعة الأساتذة الكبار القدماء الذين تشبه طبيعتهم طبيعة الدراويش. يرى زعيم أن تعلق نورجيهان ومحمد بالعثمانيين وأجدادنا ومزاحهما حولهم لا يصل نهائيًا إلى درجة رؤية الطبقة الراقية لهما صوفيين أو رجعيين. وسبب هذا بحسب زعيم هو إفراطهما بالشرب في الحفلات. ويروي زعيم باحترام

أنهما لا يفقدان أي شيء من تهذيبهما ورقتهما على الرغم من سكرهما حتى الثمالة. عندما يشرب محمد النبيذ، يدافع عن أن كلمة «مي» و«خمر» في الشعر الكلاسيكي ليست مجازية، بل حقيقية، ويلقي أبياتا لنديم وفضولي لا أحد يعرف ما إن كان يلقيها بشكل صحيح أم لا، وينظر بانتباه إلى عيني نورجيهان، ويرفع الكأس التي بيده عشقًا لله. وبحسب زعيم أيضًا بأن أحد أسباب قبول هذه الممازحات في أوساط المجتمع الراقي من دون أي مساءلة، وحتى باحترام هو هبوب رياح الهلع القوية في أوساط الفتيات بعد فسخ خطوبتي على سيبل. يبدو أن قضيتنا أصبحت في السبعينيات إنذارًا قويًّا لفتيات مجتمع إسطنبول الراقي بألا يثقن كثيرًا بالشباب قبل الزواج. بحسب ما يُروى إن كان صحيحًا، كانت الأمهات اللواتي لديهن بنات سيزوجنهن تنبهنهن لكي يكن حذرات جدًّا، وتنصحهن بارتباك بسببنا. ولكن عليّ ألا أعطي نفسي أهمية كبرى. المجتمع الإسطنبولي الراقي وسط صغير وهش إلى درجة أنه لا يشعر بالخجل كثيرًا كما لو أن الحدث وقع بين أفراد أسرة صغيرة.

فوق هذا فقد اعتدت جيدًا على راحة حياتي الجديدة التي أسستها بين البيت والمكتب وبيت عائلة فسون وبناء مرحمة بعد عام ١٩٧٩، ومعنوياتها. أذهب إلى شقة بناء مرحمة، وأثناء شرودي بالأحلام وأنا أفكر بالساعات السعيدة التي عشتها مع فسون، أنظر باستغراب ممزوج بالإعجاب إلى «مجموعتي» التي تكبر باستمرار. تتحول هذه الأشياء التي تتراكم دون انقطاع تدريجيًّا إلى إشارات على شدة عشقنا. أحيانًا لا أنظر إليها باعتبارها أشياء تسليني لأنها تذكرني بالساعات السعيدة التي عشتها مع فسون، بل أنظر إليها باعتبارها امتدادات ملموسة لعاصفة تهب في روحي. وأحيانًا أخجل من الأشياء التي أجمعها، ولا أريد للآخرين أن يروها نهائيًّا، وأن هذه الأشياء ستملأ غرف شقة بناء مرحمة إلى آخرها خلال عدة أعوام، وأخاف. لم أكن أجلب هذه الأشياء من بيت عائلة كسكين اعتمادًا على حسابات المستقبل، بل لأنها تذكرني بالماضي. لم

يكن يخطر ببالي أنني سأزيدها، وأملأ بها غرفًا وبيوتًا. لأنني قضيت جزءًا كبيرًا من تلك الأعوام الثمانية بحلم أنني سأقنع فسون خلال عدة أشهر - ستة على الأكثر - وأتزوجها.

نشر يوم الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩ خبر في عمود الشائعات المعنون «المجتمع»، وأقدم قصاصته هنا:

السينما والمجتمع الراقي

كلنا يُسر من كون تركيا ثالث دولة في العالم بتصوير الأفلام بعد هوليود والهند. ولكن الوضع للأسف يتغير: إرهاب اليمين واليسار الذي يخيف مواطنينا من الخروج مساء إلى الشارع، وأفلام الإثارة الجنسية تبعد عائلاتنا عن السينما. لم يعد السينمائيون الأتراك القديرون يجدون مُشاهدًا يصورون له أفلامًا، ورأسمالًا يدعم هذا التصوير. لهذا السبب فإننا اليوم بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى رجال أعمالنا الأغنياء الذين يذهبون إلى زقاق يشيل تشام مركز الإنتاج السينمائي، ويرغبون بتصوير «فيلم فني». قديمًا كان محبو الفن السينمائي يظهرون بين الأغنياء الجدد الريفيين الذين يريدون التعرف على الفتيات الفنانات الجميلات. كثير من «الأفلام الفنية» التي أغرقها نقادنا بالمديح، على عكس ما يُدعى، لم يُستطَع عرضها على المثقفين في السينما الغربية، ولم تحظ ولو بجائزة تشجيعية في مهرجانات البلدات الأوربية الفقيرة، ولكنها كانت وسيلة لتعارف كثير من أغنيائنا على فتياتنا «الفنانات»، وعيشهم حالة عشق جميلة. ولكن هذا كان قديمًا. الآن يبدأ طراز جديد... لم يعد محبو الفن يأتون إلى قطاع السينما من أجل أن يعشقوا فنانة جميلة، بل يأتون من أجل جعل الفتاة التي يعشقونها فنانة. آخر هؤلاء السيد ك. (لنتحفّظ على الاسم) ابن عائلة إسطنبولية غنية جدًا عازب يحظى بإعجاب المجتمع الراقي كله، وقد عشق الفتاة المتزوجة التي يقول إنها «قريبته من بعيد»، ويغار عليها إلى درجة أنه لا يقبل بتصوير «الفيلم الفني» التي طلب كتابة السيناريو له بنفسه. وبحسب

الادعاءات فإنه يقول: «لا أتحمل تبادلها القبل مع رجل آخر!». وفي الوقت نفسه لا يبرح المرأة الشابة وزوجها المخرج كظلهما، ويتمرغ في بارات الوسط السينمائي، وخمارات البوسفور حاملًا كأس العرق، ويغار حتى من خروج مرشحة الفنانة الجميلة المتزوجة من البيت. وبحفل مذهل أقيم في الهيلتون قبل عدة سنوات وبمشاركة المجتمع الإسطنبولي الراقي أعلن خطوبته على فتاة مهذبة جدًّا ابنة أحد دبلوماسيينا المتقاعدين، وتحدثنا عنه في عمودنا. وبحسب الادعاءات أيضًا فإنه فسخ خطوبته تلك دون مسئولية بسبب الفتاة التي يقول لها: «سأجعلك نجمة!». نحن لا نقبل بأن يسوّد ابن العائلة الغنية هذا مستقبل مرشحة الفنانة «ف» الجميلة التي تسيل لعاب السادة، وخصوصا ملاحقي النساء منهم، بعد أن سوّد حياة ابنة الدبلوماسي المحترمة التي درست في السوربون. لهذا السبب نعتذر من قرائنا السائمين من الخطابات التربوية، وسننصح السيد ك من المجتمع الراقي: يا حضرة السيد، لم يعد ممكنًا إنتاج «فيلم فني» دون قبل في عالم حديث صعد فيه الأمريكان إلى القمر! عليكم أن تقرروا أولًا، إما أن تتزوجوا فتاة قروية محجبة، وتنسوا الأفلام والفنون الغربية، وإما أن تتخلوا عن رغبتكم بجعل الفتاة الجميلة التي تغارون حتى من نظرات الآخرين إليها فنانة. بالطبع إذا كانت نيتكم «عمل فنانة»...ق ب.

قرأت الخبر صباحَ نشره في جريدة أقشام (المساء) على الطاولة أثناء تناولي الإفطار مع والدتي. تقرأ أمي الجريدتين اللتين تُجلبان إلى البيت كل يوم من أولهما إلى آخرهما، وبخاصة إشاعات المجتمع الراقي، فهي لا تفوتها قط. عندما ذهبت إلى المطبخ، قطعت صفحة الجريدة، وطويتها، ودسستها بجيبي. قالت لي أمي في أثناء خروجي من البيت: «ما بك ثانية؟ أنت منزعج جدًّا!» حاولت أن أتصرف في المكتب بمرح أكثر من أي وقت آخر. رويت للسيدة زينب طرفة ممتعة، وسرت في الممرات وأنا أطلق الصفير، ومازحت موظفي صاطصاط المسنين الذين يزيد كدرهم تدريجيًّا، ويحلون كلمات جريدة أقشام المتقاطعة من قلة العمل.

ولكنني بعد فرصة الظهر، فهمت من تعابير وجوههم، ونظرات سكرتيرتي السيدة زينب المبالغة بالحنان ـ والخائفة قليلًا ـ بأن موظفي صاطصاط كلهم قد قرءوا الخبر. فيما بعد قلت لنفسي لعلني مخطئ. اتصلت والدتي بعد الغداء، وقالت إنها انتظرتني على الغداء، وحزنت لعدم مجيئي. سألت بصوتها المألوف: «كيف حالك يا روحي؟»، ولكن بحنان أكبر من أي مرة أخرى. فهمت بأن الخبر وصل إلى أذنها، ووجدت الجريدة، وقرأتها، وأنها بكت (كان ثمة عمق ما بعد البكاء في صوتها)، وعرفت من تمزيقي الصفحة أنني قرأتها أيضًا. قالت أمي: «الدنيا مليئة بأناس أرواحهم أرواح وحوش. عليك ألا تبالي بأي شيء».

قلت: «عن ماذا تتحدثين يا أمي؟ لم أفهم أبدًا».

قالت أمي: «لا شيء يا بني».

لو فضفضت لها في تلك اللحظة، وتصرفت معها بما يمليه علي قلبي، فأنا متأكد أنها بعد تفهمهما ومحبتها، ستحاول أن تشرح لي بأنني مذنب، وترغب برواية تفاصيل قصة فسون. ولعلها ستقول لي بأن سحرًا عُمل لي، وتبكي. يمكن أن تقول أيضًا: «هناك حرز قُرئ عليه، ونُفخ يجعلك تعشقها مخبوء في إحدى زوايا البيت، أو داخل مطربانات الأرز أو الطحين، أو في قعر الأدراج». ولكنني شعرت بأنها انزعجت لأنني لم أشاركها بهمومي، والأهم من ذلك لأنني لم أفتح الموضوع. ولكنها كانت تحترم وضعي. ترى هل هذا مؤشر على خطورة وضعي؟

إلى أي مدى يستخف بي قراء جريدة أقشام، ويضحكون من خبلي وطموحي بالعشق، ويصدقون تفاصيل الخبر؟ لا يبارح هذا عقلي، ومن جهة أخرى أفكر بمدى حزن فسون عندما تقرأ الخبر. بعد هاتف أمي، فكرت أن أتصل بفريدون، وأطلب منه إبعاد فسون وجماعتنا عن جريدة أقشام. ولكنني لم أستطع فعل هذا. السبب الأول هو خوفي من عدم استطاعتي إقناع فريدون. السبب الثاني والأعمق هو سروري من الخبر على

الرغـم من اسـتخفافه بي، واعتبـاري مخبولًا. كنت أخفي سـروري هذا عن نفســي، ولكنني الآن بعد أعوام طويلة، أراه بوضوح: علاقتي بفسون، وقربي منهـا ـ مهمًّـا كان ـ وصـل إلى الجرائد فـي النهاية، بمعنى مـن المعاني، قبله المجتمـع! يحكى بكل ما يكتـب في عمود «المجتمع» الذي يتابعه المجتمع الراقي الإسطنبولي كله ـ خصوصا إذا كان خبر سفالة بلغة حادة وساخرة مثل هذا الخبر ـ على مدى شهور. حاولت أن أؤمن بأن هذه النميمة ستكون بداية لتأبـط فسـون ذراعي في زمن قريب، وعودتي إلى حيـاة المجتمع الراقي، أو على الأقل تمكني من تخيل حل سعيد كهذا.

ولكن هذه كانت أحلام سلوان تم تخيلها بيأس. أشعر يأنني تحولت إلى رجـل آخر تدريجيًّا بشـائعات المجتمع الراقـي وأخباره الكاذبـة والخاطئة. أذكر أنني لم أشـعر بأنني الرجل الذي أصبحت حياته غريبة بقراراته وشغفه، بل إنه نُبِذ خارج المجتمع بسبب هذا الخبر.

مـن المؤكـد أن حرفـي ق ب تحت الخبـر همـا القرنفلة البيضـاء. كنت غاضبًا من أمي لأنها دعته إلى الخطوبة، وأغضب من طاهر طان الذي أعتقد أنـه حمل الخبـر النميمة («لا أحتمـل تبادلها القبل!»). كم أريـد أن أتفق مع فسـون على انفراد، ونوجـه اللعنات على أعدائنا، وسـلوانها، وسـلواني. ما يجب عمله فورًا هو ذهابي مع فسـون إلى بار بلور، واسـتعراضنا هناك كأننا نتحدى. ويجب أن يذهب معنا فريدون أيضًا! لا يمكننا إثبات أن الخبر كذب سـافل إلا بهذه الطريقة، وهكذا لا نسـد أفواه السينمائيين السكارى فقط، بل نسد أفواه أصدقائنا من المجتمع الراقي الذين يقرءون الخبر بمتعة كبرى.

ولكنني لم أسـتطع الذهاب إلى عائلة كسـكين مسـاء نشـر الخبر على الرغم من اسـتجماعي إرادتي كلها. كنت واثقًا بأن العمة نسيبة ستتصرف معـي بحيـث تريحني، وأن السـيد طارق سـيتظاهر بعدم علمه بأي شـيء، ولكنني لم أستطع تحديد ما سيحدث عندما تلتقي عيناى بعيني فسون. من المؤكد أننا سنشـعر بعواصف سببها الخبر في كل من روحها وروحي فور

التقاء نظراتنا. هذا كان لسبب ما مخيفًا. وفهمت هذا أيضًا: في الحقيقة أن ما سنفهمه فور التقاء العين بالعين هو أن الخبر الكاذب في الحقيقة «صحيح»، وليست العواصف التي في روحينا.

نعم، كثير من تفاصيل الخبر كما يعرف القارئ هي خاطئة، أنا لم أفسخ خطوبتي على سيبل كي أجعل من فسون نجمة سينمائية... ولم أطلب من فريدون كتابة السيناريو. ولكن هذه تفاصيل. ما سيفهمه قارئ الجريدة وكل من يعمل النميمة هو هذه الحقيقة البسيطة: أنا بُهدلت بسبب عشقي لفسون! الجميع يسخر مني، ويضحك عليّ، وأطيبهم نية يشفق عليّ. صغر الوسط الراقي الإسطنبولي، ومعرفة الجميع بعضهم بعضًا، وعدم وجود ثروات وشركات كبرى لديهم، مثل عدم وجود مبادئ ومُثُلٍ لا يمكن التخلي عنها لا يخفف خجلي، بل على العكس تمامًا يزيد فشلي وخبلي. الولادة لأسرة غنية هي منحة الله التي نادرًا ما يمنحها لمن يعيش في هذه الزاوية من العالم، وقد فوّت فرصة عيشي بشكل جيد ومعقول بسبب قلة عقلي! أدرك بأنني يجب أن أتزوج فسون، وأصحح وضعي في عالم الأعمال، وأكسب نقودًا أكبر والعودة إلى المجتمع الراقي للخروج من هذا الوضع، ولكنني لا أجد في نفسي القوة التي تمكنني من تحقيق هذا، وأصبحت أكره ذلك الوسط الذي أسميه «المجتمع الراقي». فوق هذا، أعرف بأن الجو المخيم على بيت عائلة كسكين بعد خبر الجريدة لا ينسجم مع أحلامي نهائيًّا.

لم أكن سوى منكمش أكثر، وصامت أكثر في المكان الذي أوصلني إليه عشقي وخجلي. بقيت أذهب إلى السينما كل مساء وحدي، وشاهدت أفلامًا أمريكية في سينمات قوناق، وسيته، وكنت. يجب أن تخلق السينما عالمًا جديدًا يسلي أمثالنا الذين يعيشون في عالم التعاسة ويسعدهم بدلًا من تقديمها صورة الحقيقة والتعاسة بشكل صحيح. أثناء مشاهدتي فيلمًا، وخصوصا إذا تمكنت من وضع نفسي مكان أحد أبطال الفيلم، أفكر بأنني أبالغ بهمومي. كان يخطر ببالي أيضًا أن خبر الجريدة البائس مبالغ به، وأن قليلًا جدًّا من الناس يعرفون بأنني المقصود بالخبر، وأن الأمر سرعان

مـا سينسـى، وأرتاح. ولكـن تخلصي من عقدة تصحيح كثيـر من الأخطاء التـي في الخبر كانت أصعب، لأنني «أضعف» عندما أفكر بها، وأتخيل أن الوسـط الراقي كله يلهو وهو يتحدث بهذا الأمر، وأن البعض يتخذ موقف الحزين، ويزين كذب الخبر لمن لا يعرفه بشكل أكبر، ويزداد حزني. كنت أتوقـع أن الجميـع يقتنع برغبة وابتسـام بهـذا الكذب، على سـبيل المثال، يقتنع الجميع بأنني فسخت خطوبتي على سيبل بقولي لفسون: «سأجعلك فنانـة». فـي تلك اللحظات أدين نفسـي لأننـي مخبول إلـى درجة وقوعي بموقف الذي يسخر منه في زوايا الشائعات، وبدأت أصدق بعض الكذب الذي ورد في الخبر.

أكثر ما شكل لي عقدة في الخبر قوله إنني قلت لفسون: «لا أحتمل تبادلك القبـل مع شـخص آخر في الفيلم!». وعندما تنهـار معنوياتي أفكر بأن هذا ما يضحـك الجميع أكثر، وأريد أن أصححه. والادعاء بأنني ابن عائلة غنية غير مسـئول فسـخت الخطوبة يوتر أعصابـي، ولكنني أفكر بـأن الذين يعرفونني لا يصدقـون هـذا. ولكنهم يمكن أن يصدقوا أنني «لا أقبـل بتبادلها القبل مع شخص آخر»، لأن لدي جانب كهذا على الرغم من إظهاري الأوربة، وحتى إنني أفكر بإمكانية قولي هذا لفسـون ممازحًا أو نتيجة السـكر. لأنني لا أريد أن تبادل فسون أحدًا القبل من أجل الفن أو العمل.

٦٤ ـ حريق في البوسفور

استـيقظنا ـ أمـي وأنا ـ علـى صوت انفجار قـوي قريب الصبـاح في ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٩، وقفزنا من أسرتنا خائفين، وتعانقنا في الممر. اهتز البناء إلى اليمين وإلى اليسـار كأنه تعرض لزلزال قوي. ما إن اعتقدنا أن إحدى القنابل التي تلقى على المقاهي والمكتبات والساحات في تلك الأيام قد ألقيت في مكان قريب من شارع تشويكية، حتى رأينا اللهب المتصاعد من

نواحي أسكودار. بعد أن تفرجنا على الحريق البعيد جدًّا والسماء المحمرّة فترة، عدنا إلى النوم لأننا اعتدنا على العنف السياسي والقنابل.

اصطدمت ناقلة نفط رومانية بسفينة يونانية صغيرة، وبدأت الناقلة والنفط المسفوح على مياه البوسفور بالاحتراق. في اليوم التالي كانت الصحف التي أصدرت طبعة جديدة والمدينة كلها تتحدث بالأمر، والجميع يقولون إن البوسفور يحترق، ويشيرون إلى الغمامة السوداء المعلّقة فوق إسطنبول مثل شمسية. شعرت بداخلي طوال اليوم مع الموظفين المسنين والمدراء السائمين بوجود الحريق، وعملت على إقناع نفسي بأن هذه ذريعة جيدة من أجل الذهاب إلى العشاء لدى عائلة كسكين. يمكنني الجلوس إلى مائدة عائلة كسكين والحديث عن الحريق باستمرار دون ذكر خبر «الشائعات». ولكن حريق البوسفور ارتبط مع كوارث محزنة مثل الجرائم السياسية التي أفكر فيها، والتضخم الكبير، والطوابير، وحالة البلد البائسة والفقيرة مثلي مثل الإسطنبوليين جميعًا، وأصبحت نوعًا من الصور والإشارات. أثناء قراءتي خبر الحريق في الجرائد التي أصدرت طبعة ثانية شعرت بأنني في كارثة حياتي الشخصية حقيقة، وحتى إن هذا هو سبب اهتمامي الكبير بالحريق.

خرجت مساء إلى بيه أوغلو، وسرت طويلًا وأنا مندهش من خواء شارع الاستقلال. لم يكن هناك سوى رجل أو اثنين قلقين أمام السينمات الكبرى التي تعرض أفلامًا إباحية رخيصة مثل سراي وفيتاش. عندما كنت في ساحة غلاطة سراي خطر ببالي أنني قريب جدًّا من بيت عائلة فسون. يمكن أن يكونوا قد خرجوا كعائلة لتناول المثلجات كما يفعلون في بعض ليالي الصيف. يمكن أن ألتقي بهم. ولكنني لم أر امرأة أو عائلة في الشارع. وحين وصلت إلى منطقة النفق، سرت بالاتجاه العكسي خشية الاقتراب من بيت عائلة فسون، وسيطرة جاذبيته عليّ. مررت بجوار برج غلاطة، ونزلت نحو الأسفل عبر «يوكسك قالضرم». كان ثمة زحام رجال تعساء معهود في النقطة التي تفصل بين زقاق بيوت الدعارة ويوكسك قالضدرم. وهؤلاء أيضًا

مثل الجميع في المدينة ينظرون إلى الغمامة السوداء والضوء البرتقالي التي يسقط عليها في الأعلى.

قطعت جسر قرة كوي مع الزحام الذي يتفرج على الحريق البعيد. تعلقت أعين صيادي سمك التن بخيط الصِنارة الطويل فوق الجسر، تعلقت بالحريق. قادتني قدماي مع الجميع إلى حديقة غولهانة. غالبية مصابيح الحديقة مثل مصابيح شوارع إسطنبول إما أنها مكسورة بالحجارة التي تقذف إليها، وإما أنها غير منارة بسبب انقطاع الكهرباء، ولكن ليست الحديقة فقط، بل قصر طوب قاب الذي كانت الحديقة تابعة له في زمن ما، ومدخل البوسفور وأسكدار وصالاجق وبرج البنت وكل الأمكنة منارة كالنهار بلهب ناقلة النفط. كان هناك زحام كبير يتفرج على الحريق، ويسقط الضوء على الحديقة مباشرة، وعلى الغيوم التي في الأعلى في الوقت نفسه، وينشر ضوءًا خفيضًا جميلًا كما لو أنه ضوء «نجفة» في غرفة جلوس أوربية، وهذا ما يُظهر الزحام أكثر سعادة وطمأنينة. أو أن متعة الفرجة أسعدت الجميع. كان هذا زحامَ أغنياء وفقراء وفضوليين وشغوفين جاءوا من نواحي المدينة كلها بسياراتهم أو بالحافلات أو سيرًا على الأقدام. قابلت هناك جدات محجبات، وأمهات صبايا يحاولن تنويم أولادهن، ويلفهن أزواجهن، وعاطلين عن العمل فقراء كأنهم مسحورون، وأولادًا يتراكضون، ومستمعين للموسيقى في سياراتهم وشاحناتهم وهم يتفرجون على اللهب، وباعة كعك وحلاوة رقيقة ومحشو محار وكبد مقلي ولحم بالعجين وشاي يتراكضون جاءوا من كل أطراف المدينة. باعة سندوتش الكفتة والسجق حول تمثال أتاتورك أشعلوا مواقد الفحم في عرباتهم ذات الأقفاص الزجاجية، وينشرون دخان شواء اللحم ذي الرائحة الممتعة فيما حولهم. الأولاد الذين يبيعون اللبن الرائب والمياه الغازية (لم يكن هناك ملتم) وهم يصرخون حولوا الحديقة إلى ما يشبه السوق الأسبوعي. اشتريت كأس شاي من أحد الباعة، وعند فراغ أحد المقاعد فجأة، جلست، وسعدت بالفرجة على اللهب مع المسن الفقير الذي لا يوجد أسنان في فمه.

ذهبت إلى الحديقة كل مساء طوال أسبوع حتى هدأت النار. تخمد النار كثيرًا، ثم تتأجج بموجة جديدة كما كانت في اليوم الأول، حينئذ تجوب ظلال برتقالية على الوجوه التي تتفرج بدهشة وخوف، ولا ينار مدخل البوسفور بنور برتقالي حينًا ونجميّ حينًا فقط، بل وتنار محطة حيدر باشا للقطارات وثكنة السليمية وخليج قاضي كوي أيضًا. كنت أتفرج على المنظر حينئذ مع الزحام مسحورًا دون أن أتحرك. بعد قليل يُسمع انفجار، ويسقط جمر، أو يفقد اللهب قوته بصمت. حينئذ يبدأ المتفرجون بالأكل والشرب والحديث متراخين.

صادفت ذات ليلة نورجيهان ومحمدًا في حديقة غولهانة، ولكنني هربت منهما دون أن أريهما نفسي. أدركت عندما رأيت ظلال ثلاثة أشخاص مثل عائلة فسون أنني أريد أن أرى فسون ووالديها هناك، ولعلني لهذا أذهب كل يوم إلى وسط ذلك الزحام. وكما قضيت صيف ١٩٧٥ ـ مضت أربعة أعوام ـ وقلبي يخفق بالغرام كلما شبهت إحداهن بفسون، خفق قلبي بالغرام ثانية. كنت أؤمن أن عائلة كسكين تشعر بقلوبها أن الكارثة تربط بيننا بعمق. يجب أن أذهب إلى بيتهم قبل أن تخمد نار ناقلة إندبندنت للنفط الرومانية، وأن ننسى مساوئ الماضي بالمشاركة بشعور الكارثة والجماعة. هل يمكن أن يكون هذا الحريق بداية حياة جديدة بالنسبة إليّ؟

أثناء بحثي عن مكان أجلس فيه وسط ظلال زحام الحديقة، قابلت طيفون وفيغن. لم أستطع الهرب منهما لأننا تواجهنا فجأة. عدم حديثهما عن خبر جريدة أقشام أو عما يجري في أوساط المجتمع الراقي، والأهم من هذا عدم انتباههما للشائعة أسعدني كثيرًا إلى درجة خروجي معهما من الحديقة ـ بدأ اللهب يخمد ـ، وركوبي سيارتهما، وذهبنا إلى باز مفتوح حديثًا في أحد الأزقة الخلفية للتقسيم، وشربت حتى الصباح.

في اليوم التالي، مساء الأحد ذهبت إلى بيت عائلة كسكين. تمددت طوال اليوم، وتناولت الغداء في البيت مع والدتي. كنت متفائلًا مرحًا متأملًا،

وحتى سعيدًا مساء. ولكن أحلامي كلها انهارت حين التقت عيناي بعيني فسون: مكتئبة، يائسة، حزينة.

قالت مقلدة سيدة محترمة ناجحة سعيدة في خيالها: «ما الأخبار ياكمال؟». ولكن جميلتي لم تؤمن بهذا حتى وهي تقوم بالتقليد.

قلت بخمول: «لا شيء والله. العمل والمصنع والشركة جيدة جدًّا إلى درجة عدم استطاعتي المجيء».

عندما يحدث تقارب بين البطل والبطلة في الأفلام التركية، ألا تلقي خالةٌ سعيدة نظرة تَفَهّم لكي يفهم أقل المشاهدين انتباهًا، وينفعل... هكذا نظرت العمة نسيبة إليّ وإلى فسون. ولكنها عندما هربت بعينيها بعد ذلك مباشرة، فهمت أن كثيرًا من الآلام شهدها البيت بعد خبر عمود الشائعات كما حدث في نيشان طاش تمامًا، وأن فسون بكت طوال أيام.

قال السيد طارق: «يا بنتي، قدمي للضيف عرقه».

طالما احترمت السيد طارق لأنه تظاهر بعدم معرفته بشيء مما يجري وجرى طوال ثلاثة أعوام، واستقبلني بصدق ومحبة كقريب قادم للزيارة. ولكنني الآن أغضب من عدم مبالاته بالألم الذي تشعر به ابنته بعمق، ومن يأسي، والنقطة التي قادتنا إليها الحياة. لأعبر الآن عن رؤيتي الظالمة التي أفكر فيها سرًا، وأخفيها حتى عن نفسي: هناك احتمال كبير بأن السيد طارق يشعر بسبب ذهابي إليهم، ولكنه قرر تحت ضغط زوجته بأن تجاهله الأمر أفضل «للعائلة».

قلت بجو شبه مصطنع مثل والدها: «نعم يا سيدة فسون. أعطني عرقي كالعادة لأعيش سعادة العودة إلى البيت أخيرًا».

لا أستطيع إلى اليوم البوح بسبب قولي هذه العبارة، وما عنيته منها، وما قصدته. لأقل إن تعاستي ضربت لساني. ولكن فسون أدركت الشعور الكامن خلف العبارة. شعرتُ فجأة بأن الدموع ستذرف من عينيها. انتبهت

إلى كنارينا الذي في القفص. تذكرت الماضي، وحياتي، وتدفق الزمن، والأعوام التي مرت.

أسوأ اللحظات عشناها في تلك الأشهر والأعوام. فسون لا تستطيع أن تكون نجمة سينمائية، وأنا لا أستطيع الاقتراب منها أكثر. وفي هذا المأزق تعرضنا للتوبيخ والمهانة. أدركُ أن وضعي يشبه «عدم استطاعتي النهوض» في الأمسيّة، ولا أستطيع النهوض، والخروج بأي شكل. من غير الممكن أن نؤسس أنا أو فسون حياة أخرى طالما أراها أربع أو خمس مرات في الأسبوع، وكلانا نشعر بهذا.

في نهاية ذلك العشاء، قلت باعتياد، ولكن بصدق: «فسون، مضى زمن طويل، ما وضع رسم القمري، أتوق لمعرفة هذا».

قالت: «انتهى منذ وقت طويل. وجد فريدون صورة سنونو جميلة جدًّا. بدأت برسمها الآن».

دخلنا. سنونو ظريفة. ومثلما وضعت طيور إسطنبول الأخرى على حامية الشرفة الحديدية وحواف النوافذ، والمداخن، وضعته بنجاح في زاوية أخرى من زوايا البيت، أمام نافذة المشربية المطلة على الطلعة من غرفة طعامنا. تظهر في الخلفية طلعة تشوقور جمعة المغطاة بالبلاط الحجري بمنظور طفولي وغريب.

قلت: «أنا أفخر بك». كان ثمة شعور عميق بالهزيمة على الرغم من صدقي كله. قلت: «يجب أن ترى باريس كلها هذه الرسوم ذات يوم». في الحقيقة أنني أردت أن أقول لها: «يا روحي، أنا أحبك كثيرًا، واشتقت إليك كثيرًا، ما أسعدني برؤيتك!»، كما أردت أن أقول لها دائمًا. في الحقيقة كأن النقص الذي في الرسم غدا النقص الذي في حياتنا، وأرى هذا أثناء مشاهدتي خفة رسم السنونو وبساطته وصفاءه.

قلت بانتباه وأنا أشعر بألم عميق بداخلي: «صار جميلًا جدًّا يا فسون».

إذا قلت كان في الرسم أثر المنمنمات الهندية المرسومة تحت تأثير الرسم الإنكليزي، وما يذكر برسوم الطيور اليابانية والصينية، ودقة الرسام أودوبون، وسلسلة رسوم الطيور التي تخرج من البسكويت المغطس المباع في دكاكين إسطنبول، فرجائي أن يبقى بالبال أنني عاشق.

نظرنا إلى منظر المدينة في خلفية الرسوم التي ترسمها فسون لطيور إسطنبول. كانت تثير فيّ الكدر، وليس الفرح. كنا نحب هذا العالم كثيرًا، وننتمي إليه، ولهذا السبب كأننا بقينا في براءة تلك الرسوم.

«ارسمي المدينة والبيوت التي في الخلفية بألوان أكثر حيوية ذات مرة..».

قالت فسون: «مهما يكن يا عزيزي، أنا أمضي الوقت».

وضعت جانبًا الرسم الذي رفعته كي ترينا إياه. نظرت إلى مجموعات الألوان والفرش والزجاجات والخرق الملونة التي تجذبني كثيرًا. كل شيء مرتب مثل رسوم الطيور. على مبعدة هناك أقمشة العمة نسيبة وكشاتبينها. ألقيت إلى جيبي كشتبانًا خزفيًّا ملونًا وقلم باستيل برتقاليا صغيرا كانت فسون تلعب به بعصبية قبل قليل. الأشهر الأسوأ والأشد ظلمة التي عشناها في أواخر عام ١٩٧٩ هي الفترة التي سرقت فيها أشياء أكثر من بيت عائلة كسكين. أصبحت هذه الأشياء إشارة لما عشناه، وتعد جزءًا من تلك اللحظة أكثر مما تذكرني بجمال اللحظة. علب الثقاب التي أعرضها في متحف البراءة مثلًا... كل واحدة من علب الثقاب هذه لمستها يد فسون، وتغلغلت فيها رائحة يدها، ورائحة ماء ورد غير واضحة تمامًا. ومثل بقية الأشياء التي أعرضها في متحفي، تناولت كل واحدة من علب الكبريت، وعشت متعة الجلوس مع فسون إلى المائدة، والتقاء نظرينا ثانية. ولكن ثمة جانبا آخر للسعادة التي أشعر بها عندما أتناول علبة الكبريت عن المائدة، وأضعها بجيبي كأنني غير منتبه: كانت تلك سعادة اقتطاع قطعة ولو صغيرة ممن أحببت بشغف، ولكنني «لم أستطع الحصول عليها».

ما أشير إليه بكلمة اقتطاع بالطبع جزء من جسدها الذي أحبه إلى درجة العبادة. على مدى ثلاثة أعوام يغدو والداها، ومائدة عشائنا، والمدفأة، ودلو الفحم، ودمية الكلب النائم فوق التلفاز، وزجاجات الكولونيا، والسجائر، وكئوس العرق، والسكريات، وكل ما في بيت تشوقور جمعة، جزءًا من فسون التي في عقلي. بقدر ما أنا سعيد لرؤيتي فسون ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع، أشعر بنشوة النصر لأخذ (كلمة سرقة خاطئة) ثلاثة أو أربعة أشياء، وأحيانًا أكثر، ستة أو سبعة أشياء، أو حتى عشرة أو خمسة عشر شيئًا كما يحدث في أوقات التعاسة من بيت عائلة كسكين، أي من حياة فسون. إنزالي إلى جيبي شيئًا لفسون، مثلًا مملحة أمسكتها بظرافة وهي تشاهد التلفاز شاردة، ومعرفة أن المملحة أصبحت في جيبي، «وامتلكتها» وأنا أبادلهم الحديث، وأرتشف العرق، يمنحني سعادة إلى درجة أنني أستطيع النهوض عن أريكتي في نهاية السهرة دون صعوبة كبرى. وجود الأشياء التي آخذها معي خففت أزمة نهوضي عن الأريكة إلى حد ما بعد صيف عام ١٩٧٩.

لم تكن تلك الأعوام أتعس أعوام فسون فقط، بل أتعس أعوامي أيضًا. بعد أعوام عندما جمعتني الحياة بأصحاب المجموعات الإسطنبوليين التعساء والغرباء والمعقدين؛ وزرتهم في بيوتهم المليئة إلى نهايتها بالأوراق والزبالة والصناديق والصور؛ ومع محاولة فهمي ما كان أخوتي هؤلاء يشعرون به عندما يحصلون على قطعة جديدة وهم يجمعون أغطية زجاجات المياه الغازية أو صور الفنانين، أتذكر ما شعرت به أثناء أخذي من بيت عائلة كسكين الأشياء.

٦٥ ـ الكلاب

بعد سنين من القصة التي أرويها لكم، وفي أثناء سفري لرؤية متاحف العالم كلها، وبعد فرجتي طوال اليوم على المجموعات وعشرات آلاف

الأشياء الصغيرة المعروضة في متاحف البيرو والهند وألمانيا ومصر وكثير من الدول، أشرب مساء كأسًا أو كأسين، وأسير في الأزقة وحدي. في كثير من المدن مثل ليما وكالكوتا وهامبورغ والقاهرة وغيرها أنظر من النوافذ المفتوحة إلى الناس كيف يشاهدون التلفاز وهم يتناولون عشاءهم، وكيف يتضاحكون وهم يتبادلون الحديث، وأدخل إلى مختلف البيوت بمختلف الذرائع، وحتى ألتقط صورًا مع أصحاب البيوت. وهكذا انتبهت إلى أن الناس يضعون دمية كلب فوق التلفاز الذي يشاهدونه مساء في غالبية بيوت العالم. لماذا تجد ملايين العائلات، وفي كل مناطق العالم، ضرورة لوضع دمية كلب فوق التلفازات؟

سألت نفسي هذا السؤال على نطاق أضيق في بيت عائلة كسكين. الكلب الخزفي الذي انتبهت إليه حين دخلت أول مرة إلى بيت فسون في زقاق بستان البئر في نيشان طاش كما علمت فيما بعد أنه كان يوضع على المذياع الذي يستمع إليه أفراد عائلة كسكين معًا مساء. وهناك غطاء أشغال يدوية يوضع بين الكلب والتلفاز في بيت عائلة كسكين كما رأيت ذلك في كثير من بيوت تبريز وطهران ومدن البلقان، ومدن الشرق، ولاهور وحتى في بومباي. أحيانًا تكون هناك مزهرية صغيرة بجانب الكلب، أو قوقعة بحرية (أسندتها فسون مرة على أذني، وأسمعتني هدير المحيطات المحبوس داخل القوقعة وهي تبتسم)، أو أن الكلب يستند إلى حمالة سجائر يحرسها. تُضبط وقفة الكلب أو الكلاب على الطاولات بحسب منفضات السجائر أو حمالتها. كنت أعتقد أن العمة نسيبة تضبط رأس الكلب العجيب بحيث يثير إحساسًا بأنه يهز رأسه أو ينقض على منفضة السجائر، ولكنني شهدت ذات مساء من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ على تغيير فسون وضعية الكلب فيما كنت أنظر إليه بإعجاب. قامت بهذا فسون بنوع من نفاد الصبر فيما لم يكن هناك ما يلفت النظر إلى الكلب أو التلفاز، أثناء انتظارنا الطعام الذي حضرته والدتها حول المائدة. ولكن هذا لا يفسر سبب وضع الكلاب هناك. في السنوات التالية

وُضع كلب آخر يدعم وجود حمالة السجائر. في تلك المرحلة ظهر كلبان بلاستيكيان يهزان برأسيهما حقيقة من النوع الذي انتشر خلف سيارات الأجرة والخدمة، واختفيا. حركة الكلاب هذه التي قليلًا ما نتحدث بها هي بسبب اهتمامي الواضح بالأشياء التي في بيت عائلة كسكين. في تلك الفترة التي تغيرت فيها وضعيات الكلاب بسرعة، كانت العمة نسيبة وفسون تشعران، أو تعرفان أنني «آخذها» مثلما آخذ بقية الأشياء.

في الحقيقة أنني لم أكن أريد أن يعرف أحد «مجموعتي» أو عادتي بأخذ الأشياء، وأخجل مما أفعله. بعد الأشياء الأولى التي يسهل جمعها، ولا تلفت النظر مثل علب الثقاب، وأعقاب سجائر فسون، والمملحات، وفناجين القهوة، وملاقط الشعر وربطاته، أصبحت أجلب بدل الأشياء التي تلفت النظر مثل منفضة سجائر وفنجان ونعل بيتي حين بدأت بأخذها.

«كنا نتحدث في ذلك اليوم عن الجرو الذي على التلفاز! بقي معي. كسرته السيدة فاطمة عندما قالت لأضعه جانبًا. جلبت مكانه هذا يا عمة نسيبة. أثناء شرائي طعام طير وبذور شمندر لليمون من سوق مصر، رأيته في أحد الدكاكين هناك».

قالت العمة نسيبة: «آ، عنّاق هذا جميل جدًّا. إنه كلب شارع بالضبط... آه منك يا عناق! اجلس لنرى. إنه يمنح الطمأنينة للإنسان، يابني المسكين..».

أخذت الكلب من يدي، ووضعته فوق التلفاز. وضعُ بعض الكلاب فوق التلفاز يمنحنا الطمأنينة مثل تكتكة الساعة الجدارية. بعضها مهدِّد، وبعضها قبيح ومنفر، ولكن لعلنا نشعر بالحماية عندما نجلس في مكان تحرسه الكلاب. أصبحت أصوات أسلحة المجموعات السياسية ترد أصداءها في الحي، ويبدو لنا العالم خارجنا غير آمن نهائيًّا. كلب الشارع العناق أحب الكلاب بين العشرات التي تبدلت فوق التلفاز في بيت عائلة كسكين.

نُفذ انقلاب عسكري جديد في ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٠. استيقظت صباحًا بدافع غريزي قبل الجميع، ورأيت أزقة شارع تشويكية خاوية

تمامًا، ففهمت الوضع فورًا لأنني أشهد انقلابًا عسكريًّا كل عشرة أعوام منذ طفولتي. كانت شاحنات عسكرية يردد فيها الجنود الأناشيد تمر من هناك. فتحت التلفاز فورًا، ورأيت مشاهد العلم والعروض العسكرية، وكلمات الباشاوات الذين وضعوا يدهم على السلطة، وخرجتُ إلى الشرفة. أعجبني خواء شارع تشويكية، وصمت المدينة، وحفيف أوراق أشجار الكستناء في باحة الجامع بالريح الخفيفة. قبل خمسة أعوام بالضبط، وبعد حفل نهاية الصيف الذي أقمته مع سيبل، وفي مثل هذه الساعة من الصباح، نظرت إلى المنظر نفسه.

قالت أمي وهي تستمع لأغاني البطولة والفخر التي يؤديها مطرب كث الشاربين: «الرحمة، هذا جيد، كان البلد على عتبة الكارثة. ولكن لماذا يخرجون هذا الرجل القبيح الفظ على التلفاز! لا يستطيع بكري المجيء اليوم، أنت حضري الطعام يا فاطمة، ماذا يوجد في الثلاجة؟».

استمر حظر التجول طوال اليوم. أنظر أحيانًا إلى الشاحنات العسكرية التي تمر من الشارع مسرعة، وأدرك أن كثيرًا من السياسيين والصحفيين والأشخاص يؤخذون من بيوتهم، ونحمد الله لأننا لا نتدخل بأمور كهذه. طبعت الجرائد كلها طبعة ثانية، واحتفت بالانقلاب. جلستُ في البيت حتى المساء أشاهد مع أمي تصريحات الباشاوات حول الانقلاب العسكري المعادة، ومشاهد أتاتورك القديمة، ونقرأ الجرائد، ونتفرج على جمال الأزقة الخاوية من الشرفة. كنت أتوق لمعرفة وضع فسون، وجو تشوقور جمعة. كانت ثمة شائعات بأن بيوت بعض الأحياء تفتش بيتًا بيتا كما جرى في انقلاب عام ١٩٧١.

قالت أمي: «صار يمكننا أن نخرج براحتنا إلى الشارع!».

أفقد الانقلاب العسكري طعم الأعشية في بيت فسون بسبب حظر التجول اعتبارًا من الساعة العاشرة. في وقت أخبار التلفاز الوحيد الذي يشاهده البلد كله لا يؤنب الباشاوات السياسيين فقط، بل والشعب كله بسبب عاداته السابقة

كل مساء. أُعدم كثير من الأشخاص لعلاقتهم بالإرهاب ليكونوا عبرة. كنا نصمت جميعًا عندما نتابع أخبار الإعدام هذه من حول طاولة عائلة كسكين. كنت أشعر حينئذ بقرب أكبر من فسون، وأنني جزء من العائلة. لم يسجنوا السياسيين والمثقفين المعارضين فقط، بل وسجنوا المحتالين، وخارقي قواعد المرور، وكتاب الشعارات على الجدران، ومستثمري بيوت الدعارة، ومصوري الأفلام الإباحية وعارضيها، وملعبي الطومبالا الذين يبيعون سجائر أجنبية مهربة. لم يكن العسكر يجمعون الشباب الذين شعرهم طويل «كالهبيين» من الشوارع، ويحلقون لهم شعرهم كما فعلوا في الانقلابات السابقة، ولكنهم طردوا كثيرًا من أساتذة الجامعات. بار بلور أيضًا أصبح خاويًا. وأنا قررت بعد الانقلاب العسكري أن أنظّم حياتي، وأقلل الشرب والإساءة لنفسي في سبيل العشق، وأن أضع حدًا لعادة جمع الأشياء على الأقل.

بعد شهرين من الانقلاب العسكري، وجدت نفسي على انفراد مع العمة نسيبة في المطبخ قبل العشاء. كنت أذهب إليهم في المساء باكرًا لكي أرى فسون أكثر.

قالت: «ابني سيد كمال، فُقد ثانية كلب الشارع العنّاق الذي جلبته... اعتادت أعيننا عليه، الإنسان ينتبه لفقدانه فورًا. صار ما صار، لا ينشغل بالي عليه نهائيًّا، لعل الحيوان أراد أن يخرج وحده». وأطلقت قهقهة خفيفة محببة، ولكنها حين رأت التعبير الحاد على وجهي، عادت إلى الجد، وسألت: «ماذا نفعل؟ السيد طارق يلح على سؤال: «ماذا جرى للكلب»؟».

«أنا أحل الأمر».

السكين لم تفتح فمي مساء. ولكنني لا أستطيع النهوض والذهاب على الرغم من صمتي، ولعل السبب هو الصمت. قرب موعد حظر التجول عانيت من «أزمة عدم التمكن من النهوض». أعتقد بأن فسون والعمة نسيبة انتبهتا إلى شدة الأزمة. اضطرت العمة نسيبة للقول عدة مرات: «رحماك، أرجوك لا تتأخر!» استطعت الخروج من البيت في العاشرة وخمس دقائق.

لم يوقفنا أحد في طريق العودة لأننا خرجنا في ساعة الحظر. فكرت طويلًا في البيت بمعنى الكلاب، وجلبي لها بداية، ثم أخذها. لم ينتبهوا لفقدان الكلب إلا بعد أحد عشر شهرًا حين بدأنا بإعادة ترتيب أنفسنا، ولكن العمة نسيبة تعتقد أنهم انتبهوا إليه «فورًا». لعل كل الكلاب الجالسة والنائمة فوق غطاء الأشغال اليدوية باقية من عهد المذياع. أثناء الاستماع إلى الإذاعة، تلتفت الرءوس تلقائيًّا نحو المذياع، وحينئذ تبحث العين عما يلهيها ويشغلها. عندما أزيحت المذاييع جانبًا، وأصبح التلفاز محراب مائدة العائلة، رقّيت الكلاب إلى فوق التلفاز، ولكن أحدًا لا ينتبه إلى تلك الحيوانات الصغيرة لأن الأعين تكون معلقة بالشاشة. كنت أستطيع أخذها كما أريد.

بعد يومين من تلك السهرة، جلبت كلبين خزفيين لعائلة كسكين.

قلت: «رأيتهما في واجهة السوق الياباني أثناء مسيري اليوم في بيه أوغلو. كأنهما صنعا خصيصًا ليوضعا فوق تلفازنا».

قالت العمة نسيبة: «آآ، هذان حلوان جدًّا. لماذا عذبتم أنفسكم يا سيد كمال؟».

قلت: «حزنت لفقدان كلب العناق. في الحقيقة أنني كنت أحزن على وحدته فوق التلفاز. عندما رأيت هذين الاثنين كصديقين مستمتعين، قلت لنفسي من الأفضل أن يكون كلبان سعيدان مرحان فوق التلفاز».

قالت العمة نسيبة: «هل وحدة الكلب تحزنكم حقيقة يا سيد كمال؟ الحقيقة أنكم بمنتهى الغرابة، ولكننا نحبكم لأنكم على هذا النحو».

كانت فسون تبتسم لي بحلاوة.

قلت: «تحزنني كثيرًا الأشياء التي ترمى جانبًا، وتنسى. يؤمن الصينيون بأن للأشياء روحًا».

قالت العمة نسيبة: «نحن الأتراك قبل مجيئنا من آسيا الوسطى عاشرنا

الصينيين كثيرًا. قال هذا التلفاز، لم تكونوا هنا في ذلك المساء، ما اسم ذلك البرنامج يا فسون؟ آآآ، وضعتم الكلبين بشكل جميل جدًّا هناك. ولكنني لا أستطيع أن أقرر الآن ما إذا كان كل منها ينظر إلى الآخر هكذا، أم يلتفتان نحونا».

قال السيد طارق فجأة: «ليلتفت الذي على اليسار نحونا، وليجلس الآخر ناظرًا إليه».

أحيانًا يتدخل السيد طارق بالموضوع فجأة في أغرب مكان من الحديث، وفي لحظة نعتقد أنه لا يستمع إلينا، ويقول ما يحمل حكمة تفيد أنه مدرك أفضل منا للأمر.

تابع قائلًا: «حينئذ تنشأ صداقة بينهما، فلا يملان، ويلتفتان نحونا، ليغدوا جزءًا من العائلة».

لم ألمس ذينك الكلبين مدة عام على الرغم من رغبتي الشديدة. عندما أخذتهما في عام ١٩٨٢، أصبحت أترك في زاوية ما نقودًا، أو أجلب شيئًا غاليًا جدًّا بدلًا من الشيء الذي آخذه في اليوم التالي مباشرة. وفي هذه الفترة مر على التلفاز أمور غريبة مثل حمالة إبر وكلب، أو كلب و»متر قماشي».

٦٦ ـ ما هذه؟

بعد مرور أربعة أشهر على الانقلاب العسكري، وفيما كنا عائدين من بيت عائلة كسكين قبل موعد الحظر بربع ساعة، أوقفنا جنود يفتشون الهويات في شارع سراسلفيلر. كنتُ جالسًا بارتخاء في المقعد الخلفي، وليس لدي نقص يخيفني. ولكنني قلقت حين تعلقت عين الجندي الذي يدقق هويتي بمبشرة السفرجل التي بجانبي.

أخذت المبشرة من بيت عائلة كسكين عندما ذهبت إليهم مساء ذات

لحظة لم يكن هناك من ينظر إلي. وقد أسعدني هذا إلى درجة أنني خرجت من البيت باكرًا دون صعوبة، وبشعور صياد يريد أن يلقي نظرة مباهاة بين حين وآخر إلى ديك غاب اصطاده قبل قليل، أخرجت المبشرة من جيبي، ووضعتها بجانبي.

عندما أتيت مساء إلى بيت عائلة كسكين، سحبت إلى داخلي رائحة معقود سفرجل لذيذة في البيت، وعرفتها فورًا. أثناء الحديث من هنا وهناك، حكت لي العمة نسيبة أنها غلت معقودًا بعد الظهر على نار هادئة مع فسون. تبادلت الأم وابنتها الحديث بشكل جميل. واستنتجتُ من حديثهما أن فسون حركت المعقود بالملعقة الخشبية بشكل بطيء عندما انشغلت والدتها بأمور أخرى، وتخيلتها بشكل جميل.

كان الجنود يتركون السيارات والركاب بعد النظر إلى هوياتهم. وأحيانًا يُنزلون الركاب جميعًا، ويفتشونهم ويفتشون السيارة بشكل دقيق. طلبوا منا أن ننزل.

نزلنا ـ تشتين وأنا ـ من السيارة. دققوا بهوياتنا. نفذنا الأمر، وفتحنا أذرعنا إلى الطرفين كما يفعل المجرمون في الأفلام، ووضعناها على الشيفروليه. كان هناك جنديان يفتشان الدُرج الأمامي، وتحت المقاعد، وكل نقطة من السيارة. أذكر أن أرصفة شارع سراسلفيلر الضيق المحشور بين الأبنية العالية كانت رطبة، وعدة الأشخاص العابرين يلقون نظرة إلينا وإلى الدورية. كان موعد الحظر يقترب، وليس ثمة أحد على الأرصفة. بيت الدعارة الشهير «ستة وستون» (كان هذا رقم باب البناء) الواقع إلى الأمام قليلًا، وزاره كل صفنا تقريبًا في الثالث ثانوي، وعرف فيه محمد كثيرًا من الفتيات كانت نوافذه كلها مظلمة.

قال أحد الجنود: «لمن هذه الأداة؟».

«لي..».

«ما هذه؟».

شعرت للحظة أنني لن أستطيع القول له إنها مبشرة سفرجل. كنت أعتقد أنني إذا قلت هذا سيكشف شغفي بفسون، وذهابي أربع أو خمس مرات في الأسبوع إلى بيت المرأة المتزوجة التي تعيش مع عائلتها لرؤيتها، وسفالة وضعي، ويأسي، وأبدو إنسانًا سيئًا بكل معنى الكلمة. كان عقلي ثملًا بالعرق الذي شربته وأنا أقرع الكئوس مع السيد طارق، ولكنني حتى الآن بعد كل هذه الأعوام لا أعتقد أنني قيّمت الأمر بشكل خاطئ. كنت أستهجن وضع المبشرة بيد صف الضابط الطرابزوني ـ كما أعتقد ـ الطيب القلب بعد أن كانت قبل قليل في مطبخ فسون، ولكن القضية كانت أعمق من هذا، إنها تتعلق بالكينونة إنسانًا، والعيش في هذه الدنيا.

«هل هذه لكم يا حضرة السيد؟».

«نعم».

«ما هذه يا أخي؟».

دفنت في الصمت من جديد. يلفني تمامًا الآن ببطء شعور بالاستسلام واليأس يشبه عدم استطاعة النهوض، وأريد لأخي الجندي أن يفهم الأمر دون أن أتكلم، ولكن هذا لا يحدث.

كان لدينا زميل عجيب وقليل الذكاء في المدرسة الابتدائية. عندما يخرجه المعلم إلى السبورة، ويسأله عما إذا كان قد حل وظيفة الرياضيات أم لا، يلتف بالصمت الذي التففت به، ولا يجيب بنعم أو لا، وبشعور الذنب وعدم الكفاية، يغير موقفه بالاستناد إلى قدمه اليمنى ثم اليسرى إلى أن يخرج المعلم الذي أمامنا عن طوره. لم أكن أثناء نظري إليه بدهشة في الصف أستطيع إدراك أن الإنسان إذا التف بالصمت مرة، لم يعد بإمكانه أن يفتح فمه ثانية، وحتى إنه يصمت أعوامًا وقرونًا. كنت سعيدًا وحرًّا في طفولتي. ولكنني بعد أعوام طويلة أدركت ما يعنيه عدم الكلام هناك في شارع سراسلفيلر. شعرت بنوع من الخيال أن عشقي لفسون هو نوع من العناد، وقصة انطوائية. لا أستطيع إيجاد طريقة للبوح بعشقي لها، أو عقدتي،

أو مهما كان الاسم لشخص آخر بحرية في هذا العالم. أدركت منذ البداية وبأعماق روحي أن هذا لن يحصل في العالم الذي أتحدث عنه، وانكفأت على نفسي، وسلكت طريق البحث عن فسون في داخلي. وبرأيي أن فسون فهمت أنني سأجدها في داخلي. سيكون كل شي جيدا في النهاية.

قال تشتين أفندي: «سيدي هذه مبشرة. مبشرة السفرجل المعروفة».

كيف عرف تشتين المبشرة فورًا؟

«إيه، لماذا لا يقول هذا إذًا؟» والتفت نحوي: «انظر، هناك حالة طوارئ... هل أنت أصم؟».

«سيدي، السيد كمال حزين جدًّا حاليًا».

قال قائد الدورية: «لماذا؟». ودون أن يفسح في المجال لأي شفقة، قال بحدة: «اركبوا السيارة لأرى!» ابتعد حاملًا مبشرة السفرجل وهوياتنا.

في أضواء سيارة تقف خلفنا، رأيت المبشرة قد لمعت فجأة، ثم أُلقيت إلى سيارة عسكرية ـ شاحنة صغيرة ـ على مبعدة.

بدأنا ـ تشتين وأنا ـ ننتظر في الشيفروليه. أسرعت السيارات في الشارع مع اقتراب موعد حظر التجول. كنا نرى السيارات تدور بعيدًا في ساحة تقسيم. كان ثمة صمت محمل بالخوف والشعور بالذنب كذاك الذي يخيم على المواطنين يخيم عند تفتيش الشرطة. كنا نسمع تكتكة ساعة السيارة، ولا نتحرك من مكاننا لكي لا نصدر صوتًا.

أفكر بمبشرة السفرجل بين يدي نقيب داخل السيارة العسكرية، وأقلق. أثناء انتظاري بصمت، أشعر بأن قلقي سيتصاعد تدريجيًّا وأتألم كثيرًا فيما لو صادر الجنود مبشرة السفرجل، وتذكرت الأمر بعد أعوام طويلة بسبب شدة قلقي. فتح تشتين المذياع. كانت مختلف بيانات القادة العسكريين تقرأ. قائمة المطلوبين، والمحظورات، والمقبوض عليهم... طلبت من تشتين الانتقال إلى محطة أخرى. بعد قليل من الأزيز سمعنا من بلد بعيد ما

يناسب حالتي النفسية. أثناء استماعي بمتعة بدأت قطرات مطر خفيفة ترطّب الزجاج الأمامي.

جاء أحد الجنود بعد عشرين دقيقة من بدء حظر التجول. أعطانا هوياتنا.

قال: «حسنٌ، يمكنكما الذهاب».

قال تشتين: «يخشى أن يوقفونا ثانية لأننا نتجول أثناء الحظر».

قال الجندي: «قولوا لهم إننا نحن أوقفناكم».

دوّر تشتين المحرك. فتح لنا الجندي الطريق. ولكنني نزلت من السيارة، واندسست بالقائد العسكري.

«يا سيدي، يبدو أن مبشرة والدتي للسفرجل قد بقيت لديكم..».

«انظر، لست أصم أبكم، وها أنت ذا تعرف كيف تتكلم بشكل جميل».

قال العسكري الآخر: «يا حضرة السيد، هذه أداة جارحة خارقة، ممنوع حملها!». رتبة هذا أعلى. «ولكن خذها لنرى، ولا تحملها ثانية. ماذا تعمل أنت؟».

«رجل أعمال».

«هل تدفع ضريبة جيدة؟».

«أدفع».

لم يقولوا شيئًا آخر. جرح قلبي قليلًا، ولكنني سعيد لاستعادتي المبشرة. أثناء قيادة تشتين السيارة بدقة وهدوء في طريق العودة أدركت أنني سعيد. أزقة إسطنبول القفرة والمظلمة التي تستسلم لعصابات الكلاب، وشوارعها المحاطة بأبنية الإسمنت المسلح التي تخرب معنوياتي بقبحها وتصدعها في النهار بدت لي حينئذ شاعرية ومفعمة بالأسرار.

٦٧ ـ كولونيا

تناولتُ مع فريدون غداء سمك وعرق طويلًا في أحد أيام كانون الثاني/ يناير ١٩٨١ في مطعم ريجنس، وتحدثنا بأعمال السينما. فريدون يصوّر مع المصور ياني الذي يعرفه من بلور أفلامًا دعائية. أنا لم يكن لدي اعتراض على هذا الأمر، ولكنه يقول: «نعمل هذا من أجل النقود!». وإنه يشعر بالقلق من هذا الأمر. يمكنني ألا أتفهم شعور فريدون بالألم لهذا النوع من القضايا الأخلاقية وهو الذي يبدو مرتاحًا دائمًا، وخبيرًا بالحصول على متع الحياة بأسهل الطرق وما زال في ريعان الشباب، ولكن ما عشته في الحياة أنضجني في سن مبكرة، وتعلمت أن أغلب الناس على غير ما يظهرون.

قال فريدون: «هناك سيناريو جاهز. إذا كنت سأعمل شيئًا من أجل النقود، فمن الأفضل أن أصوّره. سوية الفيلم واطئة، ولكنه فرصة جيدة».

«جاهز» أو «جاهز بكل ما فيه» اصطلاحان سمعتهما في بار بلور، ويعنيان أن السيناريو قد مر من الرقابة، وحصل على الأُذن اللازمة من الدولة. في الفترة التي قليلا جدًّا ما يمر فيها سيناريو يعجب الجمهور من الرقابة، فإن المنتجين والمخرجين الذين يجب أن يصوروا فيلمًا أو فيلمين في السنة على الأقل، يصورون فيلمًا جاهزًا مر من الرقابة دون تفكير لكي لا يبقوا دون عمل. عدم معرفة الموضوع لا يشكل مشكلة بالنسبة لغالبية المنتجين لأن لجنة الرقابة جعلت الأفلام متشابهة بتدوير زوايا كل فكرة غريبة ومختلفة، وتشذبها على مدى أعوام طويلة.

سألت فريدون: «هل هو مناسب لفسون؟».

«لا أبدًا. إنه مناسب لنرجس، لأن الدور خفيف جدًّا. يجب أن تتعرى البطلة قليلًا. ويجب أن يكون البطل طاهر طان».

«طاهر طان غير ممكن».

دخلنا بنقاش طويل حول طاهر طان وكأن موضوعنا الأساسي ليس لعب نرجس الدور مكان فسون في أول فيلم لنا. قال فريدون إن علينا أن ننسى المشكلة التي افتعلها طاهر طان في مطعم الطمأنينة، وقال: «علينا ألا نكون عاطفيين!». فجأة التقت أعيننا. إلى أي مدى كان يفكر بفسون؟ سألته عن موضوع الفيلم.

«رجل غني، يغوي قريبة بعيدة له، ويتركها. الفتاة التي فقدت بكارتها تعمل مغنية من أجل أن تنتقم... الأغنيات كتبت لنرجس أساسًا... سيخرج الفيلم حياتي الخيال، ولكنه غضب وترك؛ لأن نرجس ترفض أن تكون أَمَة له. وهي فرصة جيدة بالنسبة إلينا».

السيناريو والأغاني والفيلم كله سيئ بالنسبة إلى فريدون، فكيف بالنسبة إلى فسون؟ جميلتي تنظر إلي على العشاء وعيونها تقدح شررًا، وتقلب وجهها، لذلك وجدت أنني يجب أن أرضي فريدون على الأقل، وبتشجيع العرق الذي شربته على الغداء، وافقت على تمويل الفيلم.

في شهر أيار/ مايو من عام ١٩٨١ بدأ فريدون بتصوير «السيناريو الجاهز». سمي الفيلم باسم رواية خالد ضيا «حيوات مكسرة» التي تتناول موضوع الحب والعائلة وعمرها ثمانون عامًا، ولكن ليس ثمة تشابه بين الرواية التي تجري أحداثها بين النخبة العثمانية المغرِّبة والبورجوازية في القصور العثمانية في مراحلها الأخيرة، والسيناريو الذي تدور أحداثه في الأزقة الخلفية الطينية ومقاصف الغناء والطرب في السبعينيات. الفتاة التي فقدت بكارتها وتغني أغاني الحب، وتغدو مشهورة تستعد على مدى أعوام طويلة بصبر وحزم من أجل الانتقام، وهي حزينة إلى هذه الدرجة لأنها غير متزوجة، وتؤدي الدور نرجس برغبة، على عكس فتاة الرواية التي كانت حزينة لأنها متزوجة.

بدأ تصوير الفيلم في سينما بري التي كانت تُصور فيها مشاهد الأغاني في كل الأفلام. أخرجت مقاعد السينما، ووضع مكانها طاولات،

وأعطيت جو المقصف. خشبة السينما واسعة جدًّا وإن لم تبلغ مستوى مقصف مكسيم أكبر المقاصف، أو خشبة تشاقل التي أسست في خيمة كبرى في يني قابِ. نموذج الكباريه الفرنسي حيث يتناول الزبائن طعامهم ويشربون، ويقدم المغنون والمذيعون المرحون، ولاعبو اللياقة البدنية، ولاعبو الخفة أُعد على الطريقة الإسطنبولية في مقاصف الموسيقى، وقدمت فيها موسيقى تركية وإفرنجية معدة محليًّا اعتبارًا من الخمسينيات حتى نهاية السبعينيات، وصورت لها أفلام استعراضية. يعبر أبطال الفيلم في السينما التركية ذات مشاهد المقاصف عن أنفسهم وآلامهم بلغة مزركشة، ثم يعودون ثانية إلى المقصف منتصرين في الحياة، ويعبر الزبائن فيه عن هذا بالتصفيق الحاد.

حكى لي فريدون عن مختلف الأساليب التي يطرقها منتجو قطاع السينما من أجل تأمين الكومبارس الذين يلعبون دور الأغنياء المصفقين بصدق للشباب الفقراء الذين يعبرون عن أنفسهم بأقل التكاليف: قديمًا كانوا يُدخلون كل من يلبس سترة ويضع ربطة عنق، ويجلس بأدبه في حفلات مطربين مثل زكي موران وأمل صاين من الفنانين الحقيقيين الذي يمثلون الدور بأنفسهم. يملأ الطاولات من يريد مشاهدة نجوم حقيقيين، وهكذا تُحل قضية الكومبارس دون دفع أي تكاليف. في السنوات الأخيرة صار يُكلف ممثلون أقل شهرة مكان المغنين المشاهير في الأفلام الاستعراضية (من تمثل دور المشهورة جدًّا أكثر مما هي عليه في حياتها الحقيقية، تسد الفرق بين شهرة الفيلم والحياة بعد فيلم أو فيلمين، وحينئذ تؤدي دور المطربة الفقيرة الأقل شهرة عما هي عليه في الحياة. قال لي ذات مرة السيد مظفر بأن المشاهد التركي يمل من واحد مشهور في السينما والحياة معًا. القوة السرية للفيلم تنبع من الفرق بين وضع النجم في الحياة ووضعه في الفيلم. وقصة الفيلم أساسًا هي إغلاق لهذا الفرق). ولأن أحدًا لا يأتي إلى سينما بري ذات الستائر المغبرة بهندام جيد للاستماع لمطرب غير مهم، وغير شهير، فيقدم للرجال الذين يأتون بأطقم وربطات عنق، والنساء السافرات كباب

بالمجان. كان طيفون الذي يستمتع بالسخرية من مشاهد الأفلام التركية التي يراها في السينمات الصيفية بين أصدقائه في اجتماعاتهم المسائية، وبعد أن يقلد حركات الفقراء بالأطقم وربطات العنق المصطنعة التي يؤدونها مقابل ملء بطونهم، وبغضب من تعرض لظلم حقيقي، يكرر بحدة أن الأغنياء الأتراك ليسوا على هذا النحو.

استنتجت مما رواه لي فريدون بالأمثلة من أيام عمله مساعدًا قبل بدئه التصوير أن الكومبارس الرخيص يتسبب بمشاكل أكبر من تقديمه الأغنياء بشكل خاطئ. بعض الكومبارس يريدون أن يخرجوا عند انتهاء تناولهم الكباب، وقبل الانتهاء من التصوير، منهم من يقرأ جريدة على الطاولة، وبعضهم يتحدث مع الكومبارس الجالسين معه، ويتضاحكون في أكثر لحظات الأغنية شاعرية (في الحقيقة أن هذا مطابق لما في الحياة)، بعضهم يملون من الانتظار، فينامون على الطاولة.

عندما ذهبت أول مرة إلى تصوير «حيوات مكسرة»، رأيت «مساعد المخرج» بوجه ممتقع بالحمرة غضبًا يؤنب أحد الكومبارس وهو ينظر إلى الكاميرا. راقبت قليلًا من بعيد وبصمت مثل رب عمل ومنتج سينما حقيقي. فجأة سُمع صوت فريدون، وخيم على كل شيء جو يمزج بين السحرية والسوقية الخاص بالأفلام التركية، وبدأت نرجس تسير على الجسر الممتد بين المتفرجين حاملة المايكريفون.

نرجس التي شاهدتها مع فسون وفريدون في سينما صيفية قرب قصر الزيزفون بدور فتاة صغيرة ذكية حاذقة طيبة القلب تصالح والدها ووالدتها بعد أن انفصلا نتيجة سوء تفاهم، تحولت الآن (بسرعة تشير إلى قدر الأطفال الأتراك جميعًا) إلى ضحية متعبة من الحياة تتخبط بالألم والقهر. شخصية المرأة التعيسة التي قُدّر لها الموت وفقدت مأساتها وبراءاتها كأنها ثوب مفصل لنرجس. أثناء تذكري طفولة نرجس وحالتها البريئة تلك أفهم حالتها الحالية، وأرى في غضبها وتعبها على الخشبة طفولتها البريئة. برفقة

فرقة موسيقية غير موجودة ـ سيسد فريدون هذا النقص بمقاطع من منتجين آخرين ـ تسير على الممشى مثل عارضات الأزياء، وبتمرد يائس تقترب من عصيان الله، وتحزننا برغبة انتقام وألم عانت منه. أثناء تصوير هذا المشهد هناك بحضور الجميع، شعرنا بوجود جوهرة في نرجس وإن كانت بمستوى واطئ. دبت الحيوية بالكومبارس الناعسين، وعندما بدأ التصوير، بدأ الندل الذين يوزعون الكباب على الطاولات بالفرجة عليها.

كانت نرجس ممسكة بالمايكريفون كأنها تمسك ملقط حواجب. ابتكرت نرجس طريقة جديدة تمامًا بإمساك المايكريفون إذ كان لكل من النجوم في تلك الفترة طريقة خاصة بإمساك المايكريفون تعكس شخصيته. وبحسب رؤية صحفي تعرفت عليه في بلور، فهذا دليل على أنها ستكون نجمة كبيرة بعد فترة قصيرة. في تلك الأعوام تم الانتقال في المقاصف من المايكريفون المثبت على عمود له قاعدة بثلاثة قوائم، إلى المايكريفون ذي الشريط الطويل، وهذا أعطى المغنين إمكانية الدخول بين الجمهور. المشكلة التي برزت مع هذا الوضع الجديد هي أن المطربة التي ستؤدي أحاسيس الندم والغضب في الأغاني مضطرة لإدارة الشريط الطويل، وتحريكه مثل ربة البيت بحيث لا يعلق بقوائم الطاولات أو الزوايا مثل شريط المكنسة الكهربائية. على الرغم من أن نرجس لم تكن تغني في الحقيقة، وهي تعمل «بلاي باك»، والشريط غير مربوط بأي مكان، ولا يعلق بأي مكان، فإنها تتصرف وكأنه يعلق، وتحل هذه المشكلة بحركات ظريفة وناعمة جدًّا. قال لي الصحفي نفسه فيما بعد إن هذه الحركة تشبه حركة فتاة صغيرة تدور الحبل من أجل أن تقفز صديقتها.

عندما توقف التصوير المستمر بسرعة لاستراحة، هنّأت نرجس وفريدون، وقلت لهما بأن كل شيء يسير بشكل جيد. فور خروج هذه الكلمات من فمي تشبهتُ بالمنتجين الذين يظهرون على صفحات المنوعات في الجرائد. لعل السبب هو أن الصحفيين يدونون ملاحظات! ولكن فريدون دخل شخصية المخرجين الذين يظهرون على صفحات الجرائد بالضبط: سرعة التصوير،

ولبكتها أودت بحالته الطفولية، وكأنه كبر عشر سنوات في شهرين. حل عليه موقف الرجل الذي ينهي ما بدأه، والحازم، والقوي، والحاد قليلًا.

في ذلك اليوم شعرت بأن هناك غرامًا بين نرجس وفريدون، أو على الأقل علاقة جدية. ولكنني لم أتأكد تمامًا. كل النجمات والنجيمات يوحين بوجود علاقة غرام سرية عند وجود صحفيين حولهن. أو أن صحفيي المنوعات والسينما ينظرون نظرات محرمة تفوح برائحة الذنب، فيرتكب الممثلون والفنيون هذه الذنوب. وقفت بعيدًا عن الكاميرات أثناء التقاط الصور. كانت فسون تجد من مكان ما مجلات سَس (الصوت)، وهفطا صونو (نهاية الأسبوع) التي تنشر كثيرًا من أخبار السينما كل أسبوع، وتقرؤها. أشعر بأنها ستقرأ عما يجري بين فريدون ونرجس في هذه المجلات. يمكن الإيحاء بوجود عشق بين نرجس والبطل طاهر طان، وحتى بينها وبيني «المنتج!». ولكن في الحقيقة ليس ثمة ضرورة لإيحاء أحد. بعد أن يقرر معدو صفحات المنوعات والسينما الخبر الذي يبيع أكثر، يلفقونه، ويزينونه، ويكتبونه بعناية ومرح. بعض الأخبار الكاذبة يفاتح بها الممثلون بصدق، ويساعدون بالأمر، ويقفون أمام الكاميرا لالتقاط اللقطات الحميمة اللازمة.

أفرح لبقاء فسون بعيدة عن هذه الحياة وهؤلاء الناس، وأحزن من أجلها لأنها لم تعش هذا الصخب واللهو هنا. في الحقيقة أن أي ممثلة تؤدي دور امرأة ساقطة في السينما أو الحياة ـ الحالتان بنظر المشاهد هما نفسهما ـ بعد أن تمر من نوائب الدهر، وتصبح مشهورة جدًّا، تتلبس فجأة شخصية امرأة العائلة الرصينة، وتتابع حياتها السينمائية باعتبارها سيدة محترمة. أممكن أن تكون فسون تحلم بهذا أيضًا؟ عليها أن تجد لنفسها «عرّابًا» من عالم الخفاء، أو غنيًّا جريئًا فتوة لديه هذا النوع من العلاقات من أجل أن تحقق هذا. فور إقامة هؤلاء الفتوات علاقة مع النجمة، يمنعونهن من كشف جسدهن، والقبل. المقصود من كشف الجسد هنا ـ لكي لا يُخدع القراء وزوار المتحف في القرن القادم ـ هو ظهور القسم السفلي من الفخذين

والكتـف، وليس أكثر من هذا. عندما تدخل نجمة تحت جناح عراب، يُمنع الكتابة عنها بمهانة وسخرية وقلة أدب فورًا. أطلقت النار على ساقيْ مراسل شـاب لا علـم له بالمنـع كتب عن نجمة كبيـرة الثديين تحـت حماية عراب مشـهور أنهـا كانت راقصـة عندما كانت فـي المرحلة الثانويـة، وفي الوقت نفسه خليلة صناعي شهير.

أسـتمتع أثنـاء متابعـة تصويـر الفيلم، وفي الوقت نفسـه أفكر بأن فسـون جالسة دون عمل أي شيء في بيت تشوقور جمعة على بعد مسير عشر دقائق من سـينما بري. يسـتمر تصوير الفيلم إلى سـاعة متأخرة من الليل وقت بدء حظر التجول. خطر ببالي أن فسون ستفكر بأنني فضلت تصوير الفيلم عليها إذا بقـي مكاني خاويا على العشـاء عند عائلة كسـكين، فارتبكت. كنت أنزل من سـينما بري إلى بيت عائلة كسـكين من النزلة المرصوفة بالحجر شـاعرًا بالذنب وبأمل السـعادة. سـتكون فسـون في النهاية لي. فعلت جيدًا بإبعادها عن الأفلام.

أدرك أنني ارتبطت بها بشـعور رفيق الطريق والهزيمة، وهذا ما يسـعدني أكثر من الغرام أحيانًا. عندما أشـعر بهذا تسـعدني الشمس الساقطة على أزقة المدينـة، والغبار الرطـب ورائحة العتق المنبعثة من الأبنيـة الرومية القديمة، وباعـة الأرز بالحمـص والكبد المقلي، وكـرة القدم التي يلعـب بها الأولاد وتأتي متقافزة، والتصفيق السـاخر الذي يتصاعد عندما أركل تلك الكرة وأنا في طريقي إلى بيت عائلة كسكين، وكل شيء.

الموضـوع الوحيد الذي كان يحكى في تلك الأيام بدءًا من موقع تصوير الفيلم إلى ردهات صاطصاط، ومن المقاهي إلى بيت عائلة كسكين هو الفائدة الكبيرة التي يدفعها جامعو الأموال في أحياء المخالفات. لأن التضخم يصل إلـى مائـة بالمائة، فقد كان الجميع يبحث عن مكان يسـتثمر فيـه نقوده. كان هذا الموضوع يُفتح قبل الجلوس إلى مائدة العشاء عند عائلة كسكين. يقول لي السـيد طـارق بأن البعـض في المقهى الـذي يذهب إليه بيـن حين وحين

يشترون ذهبًا من السوق المسقوف لكي يحافظوا على نقودهم، وبعضهم أودعوها عند جامعي الأموال بفائدة تقارب المائة وخمسين بالمائة، ولكن الجميع بدلوا الذهب المدخر لديهم، وأغلقوا حساباتهم المصرفية، ويطلب نصيحتي بوصفي رجل أعمال، ويستدرجني بالحديث وهو منكمش.

بذريعة تصوير الفيلم ومنع التجول أصبح فريدون قليلًا ما يأتي إلى البيت، ولا يعطي أي شيء من النقود التي أحولها إلى ليمون للسينما. في هذه الفترة بدأتُ أضع نقودًا مكان الشيء الذي آخذه بدلًا من جلب شيء آخر مكانه. حدث هذا قبل شهر بعد أن أخذتُ مجموعة ورق اللعب القديمة دون حاجة كبيرة لإخفائها.

أعرف أن فسون تفتح الفأل بالورق من أجل تمضية الوقت. عندما يلعب السيد طارق مع العمة نسيبة الورق، يلعبان بمجموعة أخرى. لم تكن العمة نسيبة تُخرج هذه المجموعة عندما تريد أن تلعب (بوكر على فاصولياء، أو باصرة) مع ضيفة عندها. حواف المجموعة التي «سرقتها» تالفة، وقفاها مبقع، وعدد من أوراقها مكسرة. قالت فسون ذات مرة وهي تضحك إنها تعرف الأوراق من بقعها وكسورها، لذلك يفتح معها الفأل دائمًا. شممت المجموعة بانتباه، وسحبت إضافة إلى الرائحة الخاصة بالورق والرطوبة والغبار رائحة يد فسون إلى داخلي. دوختني مجموعة ورق اللعب ورائحتها، ولأن العمة نسيبة انتبهت إلى اهتمامي، ألقيتها إلى جيبي على مرأى منها.

قلت: «أمي أيضًا ترى الفأل، ولكنه لا يفتح معها نهائيًّا. من يرى الفأل بهذه المجموعة يفتح حظه. بعد أن تعرف والدتي كسورها وبقعها يفتح حظها قليلًا. إنها تشعر بالضيق في هذه الأيام».

قالت العمة نسيبة: «سلم على الأخت وجيهة».

عندما قلت إنني سأشتري مجموعة جديدة من دكان علاء الدين في نيشان طاش، قالت العمة نسيبة، وكررت كثيرًا: «لا تعذب نفسك». ألححت. حينئذ ذكرتْ مجموعة جديدة رأتها في بيه أوغلو.

كانت فسون في الغرفة الخلفية. أخرجت من جيبي لفة نقود، وتركتها جانبًا بخجل.

«عمة نسيبة، ممكن أن تشتري من مجموعة الأوراق الجديدة واحدة لكم، وواحدة لأمي؟ مجموعة الأوراق القادمة من هذا البيت تفرح أمي».

قالت العمة نسيبة: «طبعًا».

بعد عشرة أيام وضعت بخجل غريب رزمة نقود مكان زجاجة الكولونيا بي ري جا. كنت واثقًا من عدم علم فسون بهذا التبديل بين الأشياء والنقود.

كنت أمسح يدي وجبهتي وخدي بهذه الكولونيا التي تُضيف بعد الطعام برغبة وحتى بأمل كأنني أندهن بسائل مقدس. وكنت أراقب حركات فسون ووالديها أثناء تقديم الكولونيا وأنا مسحور... يدوّر السيد طارق غطاء زجاجة كولونيا بي ري جا الكبير ببطء، وأثناء مشاهدتنا أول فاصل إعلاني، يعطيها لفسون، ويقول لها: «اسألي لنرى هل هناك من يريد كولونيا؟» فسون تصب بداية لوالدها، ويدهن السيد طارق رسغيه كأنه يتلقى مساعدة طبية، وأثناء شمه لها يسحب نَفَسه بعمق وكأنه يتغلب على ضيق النفس، ثم يشم رءوس أصابعه مطولًا. كانت العمة نسيبة قليلًا ما تأخذ الكولونيا، وبحركة ظريفة رأيتها لدى أمي تفرك يديها كأنها ترغي صابونًا. وكان السيد طارق يأخذ الكمية الأكبر عندما تُقدِّم الكولونيا زوجته، فيفتح يديه مثل ظمآن سيموت من العطش، ويفرك وجهه بيديه كأنه سيشربها بنهم. كنت أشعر بأن لهذه الحركات معنى مختلفًا تمامًا عن الرائحة الممتعة، وشعور البرودة الخفيفة التي تمنحها (لأن المراسم نفسها كانت تقام في ليالي الشتاء الباردة أيضًا).

وكما يقدم معاون الحافلة للركاب في بداية السفر الكولونيا للركاب جميعًا، فإن الكولونيا تشعرنا نحن المجتمعين أمام التلفاز كل مساء بأننا جماعة، ونتشارك القدر نفسه (شعور تبرزه الأخبار في التلفاز)، وأن الحياة مغامرةٌ، وجمالُ عملِ شيء مشترك على الرغم من مشاهدتنا التلفاز في البيت نفسه كل مساء.

أثناء انتظار دوري، وفتح يدي بنفاد صبر لتصب فسون كولونيا، كانت أعيننا تتقابل فجأة. حينئذ نتبادل النظر في البداية بعمق كعاشقين. أثناء شم الكولونيا المصبوبة على يدي، لا أنظر إلى راحتيّ، ولا أُبعد عيني عن عيني فسون. أحيانًا التركيز والحزم والعشق في نظرتي يجعلها تبتسم. ولا يضيع أثر الابتسامة الخفيف على طرف شفتيها لمدة طويلة. كنت أرى في تلك الابتسامة شفقة وسخرية من حالي العاشقة، وذهابي كل مساء إلى هناك، والحياة، ولكنها لا تجرح قلبي. على العكس تمامًا، أعشقها أكثر، وأريد أن آخذ زجاجة الكولونيا «النقطة الذهبية» إلى بيتي، وفي إحدى زياراتي اللاحقة، أدس الزجاجة التي على وشك أن تفرغ بجيب المعطف المعلق بلمح البصر.

أيام تصوير «حيوات مكسرة»، وفيما كنتُ أسير من سينما بري التي أخرج منها في الساعة السابعة مساء قبل أن يظلم الجو إلى تشوقور جمعة، يسيطر عليّ أحيانًا شعور بأنني عشت هذه اللحظة من الحياة قبل هذا. لم أكن في تلك الحياة الأولى التي تطابق حياتي هذه تعاسة كبرى، ولا سعادة كبرى أيضًا. ولكن كان ثمة كدر في حياتي الأولى تلك ثقيل علي، ويقبض قلبي... لأنني رأيت نهاية قصتي، وعرفت أنه ليس هناك انتصارات كبرى ولا سعادة كبرى تنتظرني على الأغلب. في نهاية الأعوام الستة التي عشقت فيها فسون تحولتُ من رجل يفكر بأن الحياة مغامرة مفتوحة ومسلية إلى رجل انطوائي وحزين مقاطع للحياة. بدأ يحل علي ببطء شعور بأن أي شيء لن يحدث في حياتي.

كنت أقول في أمسيات ذلك الربيع: «هل ننظر إلى اللقلق يا فسون؟».

كانت فسون تقول بانزعاج: «لا، لم أضف شيئًا».

تدخلت العمة نسيبة بحديثنا مرة: «آآ، لماذا تتكلمين هكذا؟.. طار اللقلق من مدخنتنا، وحلق يا سيد كمال، تُرى إسطنبول كلها من حيث أقلع».

«أتوق كثيرًا لرؤيته».

كانت فسون تقول أحيانًا بصدق: «هذا المساء مزاجي معكر..».

أرى حينئذ أن قلب السيد طارق يرتجف، ويريد أن يحمي ابنته بحنان، وحزن. ويحزنني الشعور بأن عبارة فسون هذه لا تعبر عن ذلك المساء فقط، بل عن مأزق الحياة، وأقرر أنني لن أذهب بعد الآن إلى تصوير «حيوات مكسرة» (نفذت هذا القرار خلال فترة قصيرة). وهناك جانب من المساء يذكرني بأن جواب فسون هذا جزء من الحرب التي تخوضها ضدي طيلة أعوام. كنت أشعر من نظرات العمة نسيبة أنها حزينة من موقفي ومن موقف فسون. وفور شعوري بأن صعوبات الحياة، وهمومها تسوّد قلوبنا كما تسوّد الغيوم الداكنة المحملة بالمطر السماء فوق طوبخانة، يخيم عليّ الصمت، ونفعل ثلاثة أشياء كما نفعل دائمًا:

١. ننظر إلى التلفاز.

٢. نصب عرقًا في أقداحنا.

٣. يشعل كل منا سيجارة.

٦٨ ـ ٤٢١٣ عقب سيجارة

طوال ثمانية الأعوام التي ذهبت فيها إلى بيت عائلة كسكين، وجلست إلى مائدتها، خبأت ٤٢١٣ عقب سيجارة من سجائر فسون، وجمعتها. كل عقب من أعقاب السجائر هذه التي مس طرفها شفتي فسون الورديتين، ودخل فمها، وأشعر بأن لسانها قد لمس بعضها ورطبها، وغالبيتها ملونة بلون أحمر خفيف من حمرة شفتيها، شيء خاص له حرمة يحمل ذكرى اللحظات السعيدة والآلام العميقة. دخنت فسون سجائر صمصون طوال تسعة أعوام. بعد بدئي بالذهاب إلى العشاء لدى عائلة كسكين مباشرة. أنا أيضًا تركت المارلبورو، وانتقلت إلى الصمصون بتأثير فسون. كنت أشتري المارلبورو لايت من باعة السجائر المهربة، وملعبي الطومبالا. أذكر أننا تحدثنا ذات

مساء حول ثقل سجائر المارلبورو والصمصون. قالت فسون إن الصمصون تثير السعال أكثر، وأنا شرحت بأن الأمريكيين يضعون سمومًا وموادَّ كيميائية لا أحد يعلم بها لجعلها مضرة جدًّا. لم يكن السيد طارق قد جلس إلى المائدة بعد، فقدم كل منا للآخر من علبته سيجارة وكل منا ينظر إلى عيني الآخر. طوال ثمانية الأعوام هذه أنا أيضًا دخنت كالمدخنة سجائر صمصون، ولكن لكي لا يكون هذا مثالًا سيئًا للأجيال القادمة، سأعرج باختصار على التدخين الذي كان تفصيلًا محببًا جدًّا في الأفلام والروايات القديمة.

المارلبورو المزور المصنوع في جمهورية بلغاريا الاشتراكية، والمهرّب إلى تركيا بالسفن ومراكب الصيادين، مثله مثل المارلبورو الأصلي الأمريكي، إذا أشعلت السيجارة مرة تستمر بالاحتراق إلى نهايتها. أما الصمصون فلا تحترق وحدها. تبغها رطب وخشن. لأن قطعًا شبيهة بالخشب لم تطحن جيدًا، وعروقَ ورقة التبغ الغليظة، وأوراق تبغ رطبة تخرج من السيجارة، تضغط فسون على السيجارة بين أصابعها قبل أن تشعلها من أجل أن تليّنها. تعلمتُ هذه الحركة منها، وقبل أن أشعل السيجارة، تمتد أصابعي تلقائيًّا، وتدورها وهي تضغط عليها. إذا كانت فسون تفعل الأمر نفسه في تلك الأثناء، فكنت أسرُّ جدًّا من التقاء نظرنا.

في الأعوام الأولى لذهابي إلى عائلة كسكين، كانت فسون تدخن متظاهرة أمام والدها بأنها لا تدخن. كانت تمسك السيجارة، وتقلبها باتجاه راحة يدها لتخبئها، ولا تنفض رمادها في منفضة خزفية إنتاج كوتاهية كالتي أستخدمها أو يستخدمها والدها، بل تنفضها في صحن فنجان القهوة «دون أن تري هذا لأحد». كنا ـ والدها والعمة نسيبة وأنا ـ نطلق الدخان كيفما شئنا، أما فسون فقد كانت تلتفت إلى اليمين فجأة كأنها ستهمس لزميلتها في الصف شيئًا سريًّا، وتنفخ الدخان الأزرق الذي في رئتيها بعجلة وسرية نحو نقطة بعيدة عن الطاولة. أحب تعبير تقليد الخجل والهلع والشعور بالذنب الذي يظهر على وجهها عندما تؤدي هذه الحركة التي تذكرني بدروس الرياضيات، وأفكر بأنني سأعشقها إلى نهاية حياتي.

حركات «الاحترام» التي تُنفّذ خشية خرق قواعد العائلة التقليدية كعدم التدخين والشرب أمام الأب، أو عدم الجلوس بارتخاء وإلقاء رجل على رجل، ضاعت تدريجيًّا مع مرور الأعوام. من المؤكد أن السيد طارق كان يرى ابنته تدخن، ولكنه لا يبدي ردة الفعل التي يجب على الأب التقليدي أن يبديها، ويريح نفسه بحركات الاحترام التي تؤديها فسون. كنتُ أشعر بالسعادة أثناء مراقبتي لطقوس «التظاهر» هذه، وتصرفات اللباقة المعقدة التي لم يجد لها علماء الإنسان أي تفسير في أغلب الأحيان. لم أعتبر «التظاهر» ازدواجية قط، وأثناء مراقبتي حركات فسون المحببة والجذابة، أذكّر نفسي بأنني بفضل حركات «التظاهر» هذه أستطيع رؤية عائلة كسكين كل مساء. لم أكن أجلس هناك كعاشق كما أنا في الحقيقة. أستطيع رؤية فسون بالتظاهر أنني قريبهم البعيد القادم للزيارة.

عندما لا أكون في البيت تُدخن فسون السيجارة إلى نهايتها تقريبًا. كنت أدرك هذا من أعقاب السجائر التي عُفست في منفضات السجائر قبل مجيئي. كنت أستطيع تمييز السيجارة التي دخنتها فسون، وعفستها في المنفضة عن الأخريات فورًا. وهذا الأمر يرتبط بشكل عفس فسون السيجارة في المنفضة وعواطفها أكثر مما له علاقة بماركة السيجارة. أما في السهرات التي آتي فيها، فلا تُدخن فسون سيجارة الصمصون إلى قرب المصفاة، بل إلى منتصفها تقريبًا كما تدخن سيبل وصديقاتها السجائر الأمريكية الطويلة والرفيعة «ألترا لايت» الراقية.

كانت تعفس سيجارتها في المنفضة بحركة عصبية. أحيانًا لا تكون هذه الحركة حركة عصبية، بل حركة نفاد صبر. وكثرًا ما رأيتها تعفس السيجارة في المنفضة بنوع من الغضب، وكنت أقلق من هذا. في بعض الأيام كانت تُطفئ سيجارتها بحركات خفيفة ملحّة بضربها المتكرر على أرض المنفضة. أحيانًا تعفس السيجارة على المنفضة بقوة كبرى وهدوء كأنها تعفس رأس أفعى عندما لا يكون هناك من ينظر إليها. كنت أفكر حينئذ أنها تفرغ بعقب السيجارة كل غضبها من الحياة. أثناء فرجتها على التلفاز، واستماعها إلى

الحديث في البهو، يحدث أنها تعفس السيجارة بشرود من دون أن تنظر إلى تلك الجهة. وكثيرًا ما رأيتها تطفئها على عجل قبل أن تتناول ملعقة أو إبريقا كبيرا. وعندما تكون مرحة وسعيدة تطفئ السيجارة بضغطة واحدة من رأس إبهامها فوق السيجارة على المنفضة وكأنها تقتل حيوانًا دون أن تؤلمه. أثناء عملها في المطبخ، تطفئ السيجارة التي في فمها بلمسها لحظة بماء الصنبور، وإلقائها إلى الزبالة كما تفعل العمة نسيبة.

هذه الأساليب المختلفة وغيرها تعطي لكل عقب سيجارة يخرج من يد فسون شكلًا وروحًا خاصين. أخرجها من جيبي في بناء مرحمة، وأدقق بها، وأشبّه كلا منها تشبيهًا مختلفًا، مثلًا بأناس سود الوجوه صغار مسحوقة رءوسهم ورقابهم، وبرزت حدباتهم، وتعرضوا للظلم. أحيانًا أشبه أعقاب السجائر بمداخن سفن خطوط المدينة، وحشرات البحر. أحيانًا أراها إشارة تعجب تحذرني، أو أولى مؤشرات خطر قادم في المستقبل، أو زبالة قذرة الرائحة، أو ما يعبر عن حالة فسون النفسية، وحتى جزء من نفسها، وأتذوق بشكل خفيف أثر حمرة الشفاه على رأس العقب، وأغوص بأفكار عميقة حول فسون والحياة.

على القراء زوار متحفي ألا ينظروا إلى الملاحظة المتعلقة بالتاريخ الذي أخذت فيه كل عقب سيجارة من الأعقاب أربعة الآلاف ومائتين وثلاثة عشر، ويعتقدوا بأنني ملأت الواجهات بمعلومات غير ضرورية: شكل كل عقب سيجارة هو تعبير عن شدة شعور فسون عند إطفائه. مثلًا حال هذه الأعقاب الثلاثة المنغلقة على ذاتها والملوية بحدة إلى الداخل التي أخذتها من منفضة فسون يوم ١٧ أيار/ مايو ١٩٨١ تاريخ البدء بتصوير «حيوات مكسرة» لا تذكرني بتلك الأشهر السيئة فقط، بل وبصمت فسون في ذلك اليوم، وابتعادها عن الموضوع، وتصرفها وكأن شيئًا لم يكن.

أحد هذين العقبين أطفأته فسون إثر قول أكرم (أكرم غوتشلو الشهير الذي أدى دور سيدنا إبراهيم في زمن ما) بطل فيلم «سعادة كاذبة» صديقنا

من بلور الذي كنا نشاهده من التلفاز في ذلك اليوم: «أكبر خطأ في الحياة هو طلب المزيد في محاولة للحصول على السعادة يا نورتن!»، وصمتُ حبيبته الفقيرة نورتن وهي مطرقة أمامها. أما الثاني فقد عفسته بعد اثنتي عشرة دقيقة بالضبط من ذلك المشهد (كانت فسون تدخن سيجارة صمصون بمعدل تسع دقائق).

أذكر أن البقع التي على الأعقاب الأخرى المنتظمة نجمت من تناول فسون مثلجات بالكرز الحامض ذات مساء صيفي حار. كان كامل أفندي يبيع المثلجات في أمسيات الصيف على عربة بثلاث عجلات في أزقة طوبخانة وتشوقور جمعة المبلطة بالحجارة وهو ينادي: «قشدة!»، ويهز بجرس يحمله، ويبيع على العربة نفسها في الشتاء الحلاوة. روت لي فسون ذات مرة أن كامل أفندي يصلّح عربته هذه لدى مصلح الدراجات بشير الذي صلحت لديه دراجتها في طفولتها.

أذكر من عقبي سيجارتين أخريين وتاريخهما المدون تحتهما أننا تناولتنا باذنجانًا مقليًّا مع لبن الزبادي في سهرة صيف حارة، ونظرتُ مع فسون إلى الخارج من النافذة المفتوحة. في أوقات كهذه تمسك فسون بيدها منفضة سجائر صغيرة، وتنفض سيجارة الصمصون التي بيدها الأخرى بشكل متلاحق في تلك المنفضة. أتخيلها حينئذ امرأة ذهبت إلى حفلة راقية، أو أن فسون تقلد واحدة من هذا النوع أثناء إطلالتها معي من النافذة. يمكنها أن تنفض رماد السيجارة من النافذة نحو الأسفل مثلي ومثل الرجال الأتراك جميعًا، ويمكنها أن تعفس السيجارة على حافة النافذة، وترميها إلى الأسفل، أو يمكنها أن تقذف السيجارة بحركة أصبعها وهي مشتعلة، وتراقبها وهي تدور وسط الظلام أثناء سقوطها. ولكن لا، لم تكن فسون تعمل أيًّا من حركات السجائر هذه التي يعملها الجميع، وتقدم لي نموذجًا يُحتذى برقتها ولباقتها. من يرانا من بعيد، يمكن أن يعتقد أننا في حفل في إحدى الدول الغربية التي لا يوجد فيها فصل بين الرجال والنساء، انزوينا إلى إحدى الزوايا، ونتكلم بشكل مهذب من أجل أن نتعارف أكثر. أثناء

النظر إلى الخارج عبر النافذة المفتوحة نتحدث متضاحكين من دون أن يلتقي نظرنا حول نهاية الفيلم الذي شاهدناه قبل قليل بالتلفاز، وثقل حر الصيف، والأولاد الذين يلعبون الطميمة في الزقاق. وفجأة تهب نسمة من جهة البوسفور، وتحمل لي رائحة شعر فسون وبشرتها مع رائحة طحالب البحر وعبق زهر العسل المدوّخ، ثم رائحة دخان هذه السيجارة.

أحيانًا تلتقي نظراتنا بشكل غير متوقع لحظة إطفاء فسون سيجارتها. كانت فسون تطفئ سيجارتها دون اهتمام بالدخان الذي يعلوها أثناء مشاهدتنا فيلمًا حزينًا، أو تحت تأثير موسيقى أحداث فيلم وثائقي ثقيلة ومزلزلة حول تاريخ الحرب العالمية الثانية. إذا تقابلت نظراتنا كما في هذا المثال يحدث ماسٌّ كهربائي فجأة بيننا، ونتذكر كلانا سبب وجودي هناك بحوار الطاولة، وتأخذ السيجارة شكلًا غريبًا حين تُطفأ بحيث تعكس هذا التشويش العقلي الخاص جدًّا. ثم أسمع بوق سفينة ضخمة وبعيدة يتناهى من الأعماق، وأفكر بالعالم والحياة من زاوية تلك السفينة.

عندما أتناول أعقاب السجائر التي آخذ واحدًا منها في بعض السهرات، وآخذ بضعة منها في سهرات أخرى إلى بناء مرحمة، أتذكر بُعْدَ «اللحظات» المتبقية في الماضي. في الحقيقة أن السجائر تجعلني أدرك أن الأشياء توازن لحظات أرسطو واحدةً واحدة.

قبل أن أتناول الأشياء التي أجمعها في بناء مرحمة، أتذكر من نظرة واحدة إليها ماضيّ مع فسون، وجلساتنا إلى المائدة مساء. كأن اللحظات التي أجمعها واحدةً واحدة مع الأشياء كمملحة خزفية، أو مقياس خياطة قماشي بشكل كلب، أو فتاحة علبة طعام محفوظ مخيفة، أو زجاجة زيت عباد الشمس ماركة باطانيا التي لا تغيب عن مطبخ عائلة فسون، تنتشر على زمن واسع في ذاكرتي مع توالي الأعوام. عندما أنظر إلى الأشياء المتراكمة في بناء مرحمة كما أنظر إلى أعقاب السجائر بالضبط، أتذكر كل ما فعلناه حول المائدة في بيت عائلة فسون بالتفصيل.

٦٩ ـ أحيانًا

أحيانًا لا نفعل شيئًا نهائيًّا، ونجلس بصمت. أحيانًا يمل السيد طارق من البرنامج المعروض في التلفاز مثلنا جميعًا، ويقرأ جريدته بطرف عينه. أحيانًا تنزل سيارة النزلة بصخب وهي تطلق مزمارها، ونصمت حينئذ جميعنا، ونصغي لمرور السيارة. أحيانًا تمطر، ونستمع لنقر قطرات الماء على الزجاج. أحيانًا، نقول: «ما أشد الحر!» أحيانًا تنسى العمة نسيبة سيجارتها على المنفضة، فتذهب إلى المطبخ، وتشعل واحدة أخرى من التي هناك. أحيانًا أنظر إلى يد فسون خمس عشرة ثانية أو عشرين من دون أن ينتبه أحد، وأعجب بها مرة أخرى. أحيانًا تظهر امرأة في دعاية التلفاز تعرّف بشيء نأكله على المائدة. أحيانًا يتناهى صوت انفجار من بعيد. أحيانًا تنهض العمة نسيبة، أو فسون عن المائدة، وتلقي إلى المدفأة قطعة فحم أو قطعتين. أحيانًا أفكر بأن أجلب لفسون في زيارتي القادمة سوارًا وليس ملقط شعر. أحيانًا أنسى موضوع فيلم نشاهده جميعًا وأنا ما زلت أشاهده، وأستذكر أيام ذهابي إلى المدرسة الابتدائية في نيشان طاشِ. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «هيا لأغلي لكم زيزفون!». أحيانًا تتثاءب فسون بشكل جميل فأفكر أنها نسيت الحياة كلها، وسحبت من أعماق روحها حياة أكثر طمأنينة كما تسحب دلو ماء من بئر بارد في يوم صيفي حار. أحيانًا أقول لنفسي عليّ ألا أجلس أكثر، ولأنهض. أحيانًا يتردد وسط صمت الليل صخب إنزال باب الحلاق الذي يعمل إلى ساعة متأخرة في الطابق السفلي للبناء المقابل بعد أن ينصرف آخر زبائنه. أحيانًا تنقطع المياه، ولا تأتي بيومين. أحيانًا نشعر بحركة أخرى غير حركة اللهب في مدفأة الفحم. أحيانًا أذهب إليهم في اليوم التالي لمجرد قول العمة نسيبة: «أحببتم الفاصولياء بزيت الزيتون، تعالوا غدًا مساء قبل أن تنتهي!». أحيانًا نتحدث في موضوعات الصراع الأمريكي الروسي، والحرب الباردة، والسفن الحربية السوفيتية العابرة للبوسفور، والغواصات الأمريكية التي

في بحر مرمرة. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «الحر شديد جدًّا هذا المساء!». أحيانًا أفهم من وجه فسون أنها شردت بالأحلام، وأريد أن أذهب إلى البلد الذي تحلم به، ولكنني أجد نفسي وحياتي وثقلي وجلوسي إلى الطاولة تعيسًا جدًّا. أحيانًا تبدو لي الأشياء على المائدة جبالًا ووديانًا وتلالًا وهضابًا وحفرًا. أحيانًا كنا نضحك كلنا لشيء مضحك ظهر على شاشة التلفاز. أحيانًا يبدو لي تركيزنا جميعنا في الوقت نفسه على شيء واحد في التلفاز كأنه استخفاف بنا. أحيانًا يوتر أعصابي تسلق ابن الجيران علي إلى حضن فسون، واندساسه بها. أحيانًا نتحدث ـ السيد طارق وأنا ـ رجلًا لرجل بصوت خفيض حول نقط الاقتصاد المفصلية كأننا نمكر ونتآمر ونحتال. أحيانًا تصعد فسون إلى الطابق العلوي، ولا تنزل فترة، وهذا يتعسني. أحيانًا يرن الهاتف، ويظهر أن الرقم خاطئ. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «سأعد لكم الثلاثاء القادم معقود اليقطين!». أحيانًا تنزل مجموعة تتألف من ثلاثة أو أربعة شبان النزلة وهي تردد أغنيات كرة القدم، وتذهب باتجاه طوبخانة. أحيانًا أساعد فسون بإلقاء الفحم إلى المدفأة. أحيانًا أرى صرصارًا يركض هلِعًا على أرض المطبخ. أحيانًا أشعر بأن فسون خلعت نعلها البيتي تحت الطاولة. أحيانًا يُطلق الحارس صفارته أمام بابنا بالضبط. أحيانًا أنهض، أو تنهض فسون، وننزع أوراق تقويم المعارف المؤقّت المنسية ورقةً ورقة. أحيانًا أتناول ملعقة إضافية من حلوى السميد التي على المائدة في وقت لا أحد ينظر إلى هناك. أحيانًا تفقد صورة التلفاز صفاءها، فيقول السيد طارق: «يا بنتي، انظري إلى هذا!»، وتعبث فسون في أحد الأزرار من الخلف، وأنا أراقب. أحيانًا أقول: «لأدخن سيجارة أخرى، ثم أذهب». أحيانًا أنسى الزمن تمامًا، وأتمدد في «الآن» كأنني أتمدد على فراش ناعم. أحيانًا أعتقد بأنني انتبهت إلى الميكروبات والحشرات والجراثيم التي في السجادة. أحيانًا تُخرج فسون ماء باردًا من الثلاجة بين برنامجين، ويذهب السيد طارق إلى المرحاض الذي في الأعلى. أحيانًا يُطبخ في القدر محشو الكوسا

والطماطم والباذنجان والفلفل، ويؤكل على مدى يومين. أحيانًا تنهض فسون عن الطاولة، وتذهب إلى قفص ليمون، وتتحدث معه كأنه صديق، وأعتقد بأنها تحدثني. أحيانًا تدخل فراشة صغيرة من نافذة المشربية، وتدور بسرعة جنونية حول المصباح. أحيانًا تفتح العمة نسيبة شائعة حي قديمة سمعت بها حديثًا، مثلًا تروي بأن والد الكهربائي إفة كان مجرمًا شهيرًا. أحيانًا أنسى أنني هناك، وأفقد وعيي كأننا على انفراد، وأعبّر لفسون عن عشقي كله وأنا أنظر إليها طويلًا جدًّا. أحيانًا تمر سيارة من الزقاق بصمت فلا نشعر بها إلا من ارتجاف الزجاج. أحيانًا يتناهى صوت الأذان من جامع فيروز آغا. أحيانًا تنهض فسون فجأة عن المائدة، وتنظر طويلًا عبر نافذة المشربية المطلة على الطلعة كأنها تنتظر أحدًا بشوق عميق، وهذا ما يجرح قلبي. أحيانًا أفكر بأمور مختلفة تمامًا أثناء مشاهدتنا التلفاز، مثلًا أتخيل أننا التقينا في مطعم سفينة. أحيانًا ترش قليلًا من مبيد الحشرات في الأسفل حيث غرفة الطعام بمرش ماركة «تميز إش» (عمل نظيف) الذي رشت منه في الغرف العلوية في أمسيات الصيف، ويموت الذباب. أحيانًا تتحدث العمة نسيبة عن ملكة إيران السابقة ثريا، وألمها لانفصالها عن زوجها لأنها لم تلد له ولدًا، وحياتها في الوسط الأوربي الراقي. أحيانًا يقول السيد طارق وهو ينظر إلى التلفاز: «عرضوا هذا السافل ثانية على الشاشة يا ناس!». أحيانًا تلبس فسون اللباس نفسه ليومين متتالين، ولكنها على الرغم من هذا تبدو لي مختلفة. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «من يريد مثلجات؟» أحيانًا أرى أحد سكان البناء المقابل وقد خرج إلى النافذة ليدخن سيجارة. أحيانًا نأكل سمكَ أنشوجة مقلي. أحيانًا أرى بصدق أن هناك عدالة في عالم عائلة كسكين، وأن المذنبين سيلقون العقاب بالتأكيد في هذه الدنيا أو تلك. أحيانًا نصمت فترة طويلة جدًّا. أحيانًا كأن الصمت لا يلفنا وحدنا، بل يلف المدينة كلها. أحيانًا تقول فسون: «بابا، رجاء لا تأكل من الوسط!»، فأشعر بأنهم لا يرتاحون حتى على المائدة بسببي. أحيانًا أفكر العكس تمامًا، فأنتبه إلى أن الجميع

مرتاحون جدًّا. أحيانًا تنسى العمة نسيبة إطفاء عود الثقاب الذي أشعلت به سيجارتها، فيبقى مشتعلًا إلى أن يحرق أصابعها. أحيانًا كنا نأكل معكرونة بالفرن. أحيانًا تمر من فوقنا بصخب شديد طائرة تنخفض لتحط في مطار يشيل كوي. أحيانًا ترتدي فسون قميصًا يكشف عنقها الطويل وأعلى ثدييها، وأثناء مشاهدة التلفاز أحرص على ألا تعلق عيني ببياض عنقها الجميل. أحيانًا أقول لفسون: «كيف يسير الرسم؟». أحيانًا يقول التلفاز بأن الثلج سيهطل، ولكنه لا يهطل. أحيانًا يُسمع بوق ناقلة نفط هلع بشكل مؤلم. أحيانًا تتناهى أصوات إطلاق نار من بعيد. أحيانًا يصفع ابن الجيران الباب الخارجي بقوة، فترتجف الفناجين في الخزانة خلفي. أحيانًا يرن الهاتف، فيبدأ ليمون بالتغريد بانفعال معتقدًا أن المكالمة من أنثى كناري، فنضحك جميعًا. أحيانًا يأتي زوجان ضيفان، فأخجل قليلًا. أحيانًا يشارك السيد طارق جوقة النساء لجمعية أسكودار الموسيقية وهي تغني أغنية قديمة في التلفاز من حيث يجلس. أحيانًا تلتقي سيارتان وجهًا لوجه في الزقاق الضيق، ويعاند كلٌّ من السائقين بعدم إفساح الطريق للآخر، ويدخلان بشجار كلامي، ويتبادلان الشتائم، ويخرجان من سيارتيهما ليتصارعا. أحيانًا يخيّم صمت سحري على البيت والزقاق والحي كله. أحيانًا أجلب لهم سمكًا مقددًا ومحفوظًا غير رقائق العجين. أحيانًا نقول: «ما أبرد الجو اليوم، أليس كذلك؟». أحيانًا يقدم لنا السيد طارق باسمًا سكاكر النعناع التي يخرجها من جيبه بعد الطعام. أحيانًا تموء قطتان أمام الباب بعنترية، ثم تتصارعان وهما تطلقان الصيحات. أحيانًا تلبس فسون القرطين أو دبوس الصدر الذي أجلبه في ذلك اليوم فورًا، وأقول لها على المائدة بهدوء إنه يليق جدًّا بها. أحيانًا يؤثر بنا مشهد اللقاء في فيلم الغرام والقبل، ونغدو كأننا نسينا أين نحن. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «وضعت قليلًا من الملح للطعام، من يريد ليضع المزيد!». أحيانًا يقدح برق بعيدًا، وترعد السماء. أحيانًا صوت صفارة إحدى سفن البوسفور القديمة الناعم يحفر في قلوبنا بحزن. أحيانًا يظهر ممثل عرفناه

من بلور ومازحناه قليلًا في فيلم أو مسلسل أو دعاية يعرضها التلفاز، وأرغب حينئذ بأن تلتقي عيناي بعيني فسون، ولكنها كانت تهرب بعينيها. أحيانًا تنقطع الكهرباء، ونرى رءوس سجائرنا الحمراء في الظلام. أحيانًا يمر أحدهم من أمام الباب وهو يعزف بالصفير أغنية. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «أي، دخنت كثيرًا هذا المساء!». أحيانًا تعلق عيناي بعنق فسون، وأضبط نفسي دون ضغط شديد لكي لا أنظر أكثر إلى هناك طوال الليل. أحيانًا يخيّم صمت عميق للحظة، وتقول العمة نسيبة: «مات أحدهم في مكان ما». أحيانًا لا تشتعل إحدى قداحات السيد طارق التي اشتراها حديثًا، فأفكر بأنه الوقت المناسب لإهدائه قداحة جديدة. أحيانًا تجلب العمة نسيبة شيئًا من الثلاجة، وتسألنا عما حدث في الفيلم أثناء غيابها. أحيانًا ينشب شجار جديد بين زوجين، ويُسمع صراخ المرأة الذي يحفر في قلوبنا أثناء ضرب زوجها لها. أحيانًا يُقرع جرس بائع شراب الذرة، ويمر من أمام الباب وهو يصرخ: «بوظة وفا!» أحيانًا تقول لي العمة نسيبة: «اليوم أنتم مرحون جدًّا!». أحيانًا أضبط نفسي بصعوبة لكي لا أمد يدي، وألمس فسون. أحيانًا تهب ريح خاصة في أمسيّة الصيف، وتصفع الأبواب. أحيانًا أفكر بزعيم وسيبل وأصدقائي القدامى. أحيانًا يبدأ الذباب يحط على أطباق الطعام، فتتوتر العمة نسيبة. أحيانًا تُخرج العمة نسيبة ماء معدنيًّا من الثلاجة للسيد طارق، وتسأل: «هل تريدون؟». أحيانًا يطلق الحارس صفارته قبل الساعة الحادية عشرة وهو يمر من أمام الباب. أحيانًا أشعر برغبة لا تقاوم بأن أقول لها: «أنا أحبك!»، ولكنني أشعل سيجارتي بقداحتي فقط. أحيانًا أنتبه إلى وجود زهر البنفسج الذي جلبته قبل ليلتين في المزهرية. أحيانًا يخيّم صمت آخر، وتفتح إحدى نوافذ الجيران، ويلقي أحدهم زبالة إلى الأسفل. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «من سيأكل آخر قطعة كفتة لنرى؟». أحيانًا أتذكر أيام خدمتي الجندية عند مشاهدتي كبار الضباط على شاشة التلفاز. أحيانًا أشعر بتفاهتنا جميعًا، وليس بتفاهتي وحدي. أحيانًا تسأل العمة نسيبة: «اعرفوا ما الحلوى التي

لدينا اليوم؟». أحيانًا تلتقط السيد طارق نوبة سعال، فتنهض فسون من مكانها، وتقدم لوالدها كأسًا من الماء. أحيانًا تضع فسون دبوسًا جلبته لها قبل أعوام. أحيانًا أبدأ بالاعتقاد أن التلفاز يتحدث عن شيء مختلف تمامًا عما يعرضه. أحيانًا تسألني فسون سؤالًا حول ممثل مسرحي أو أديب أو بروفيسور يظهر على شاشة التلفاز. أحيانًا أنا أيضًا أحمل الأطباق الوسخة من المائدة إلى المطبخ. أحيانًا يخيم صمت على المائدة لأن أفواهنا مليئة. أحيانًا يتثاءب أحدنا، ويراه الآخرون، فيبدءون بالتثاؤب، وعندما ننتبه إلى هذا، نتحدث فيه، ونتضاحك. أحيانًا تعطي فسون نفسها للفيلم المعروض على الشاشة، وتشرد فيه إلى درجة رغبتي بأن أكون بطل ذلك الفيلم. أحيانًا تبقى رائحة شواء اللحم حتى نهاية السهرة. أحيانًا أفكر بأنني سعيد جدًّا لمجرد جلوسي بجوار فسون. أحيانًا أفتح موضوعًا بقول: «لنذهب ذات مساء، ونتناول العشاء على البوسفور!». أحيانًا يسيطر عليّ شعور بأن الحياة هناك، حول الطاولة تحديدًا، وليس في مكان آخر. أحيانًا ندخل نقاشًا في موضوعات لا نعرفها نهائيًّا لمجرد أن التلفاز ذكرها، مثل المقابر الملكية المفقودة في الأرجنتين، الجاذبية في المريخ، والمدة التي يستطيع الإنسان البقاء فيها تحت الماء دون أن يتنفس، وسبب خطورة الدراجة النارية في إسطنبول، وتشكّل مداخن الجنيات في أورغوب. أحيانًا تهب ريح حادة، فتصدر النوافذ هديرًا، ويصدر صوت غريب من أسطوانات المدفأة أيضًا. أحيانًا يذكر السيد طارق بأن الفاتح قبل خمسة قرون مرر السفن من شارع «بوغاظ كسان» على مبعدة خمسين مترًا، وأنزلها إلى الخليج، ويقول: «كان الرجل في التاسعة عشرة من عمره عندما فعل هذا!» أحيانًا تنهض فسون عن المائدة بعد الطعام، وتذهب إلى قفص ليمون، وبعد قليل أذهب إلى جوارها. أحيانًا أقول لنفسي: «حسن أنني أتيت هذا المساء!». أحيانًا يرسل السيد طارق فسون إلى الأعلى لكي تجلب نظارته التي نسيها أو جريدته أو ورقة اليانصيب، حينئذ تنادي العمة نسيبة من الطاولة نحو الأعلى: «لا تنسي أن

تطفئي النور!». أحيانًا تقول العمة نسيبة إننا نستطيع أن نلحق بعرس أقربائنا البعيدين الذين في باريس. أحيانًا يصرخ السيد طارق: «اصمتوا!». ويشير بعينيه نحو السقف لكي نستطيع سماع الخشخشة في البيت، وحينئذ ننصت إلى الصوت الذي لا نعرف للوهلة الأولى ما إن كان يصدر عن لص أو فأر. أحيانًا تقول العمة نسيبة لزوجها: «هل صوت التلفاز جيد يا عزيزي؟». لأن سماع السيد طارق يغدو أثقل مع تقدمه بالعمر. أحيانًا يخيّم بيننا صمت طويل جدًّا. أحيانًا يهطل ثلج كثيف، فيتراكم على حواف النوافذ والأرصفة. أحيانًا تُطلق مفرقعات، فننهض جميعًا عن المائدة، ونتفرج على الألوان في السماء بقدر ما نستطيع الرؤية، بعدئذ نشم رائحة البارود التي تدخل من النافذة المفتوحة. أحيانًا تقول العمة نسيبة: «هل أملأ قدحكم يا سيد كمال؟». أحيانًا أقول: «ممكن أن أنظر إلى رسمك يا فسون؟» وننظر أحيانًا، وأثناء النظر إلى الرسم الذي رسمته فسون، أدرك أنني دائمًا سعيد مع فسون.

٧٠ ـ حيوات مكسرة

بعد أسبوع من تأخير حظر التجول، جاء فريدون ذات مساء إلى البيت قبل نصف ساعة من بدء الحظر. منذ فترة طويلة لم يأت إلى البيت بذريعة الفيلم، ويقول إنه ينام في موقع التصوير. عندما دخل إلى البيت كان سكرانًا حتى الثمالة، ومن الواضح أنه تعيس ويتألم. عندما رآنا جالسين إلى الطاولة، ضغط على نفسه، وقال كلمات مهذبة، ولكن هذا لم يستمر طويلًا. عندما التقت عيناه بعيني فسون، صعد إلى غرفته في الأعلى دون أن يتكلم شيئًا مثل جندي عاد من حملة عسكرية مهزومًا. كان على فسون أن تنهض عن الطاولة فورًا، وتصعد خلف زوجها، ولكنها لم تفعل.

ركزت عيني على عينيها، وكنت أراقب كل شيء بدقة. هي أيضًا كانت

منتبهة إلى أنني أراقبها. أشعلتْ سيجارة، ودخنت ببطء كأن شيئًا لم يكن (لم تعد تنفخ دخانها جانبًا كأنها خجلة من السيد طارق). أطفأت السيجارة دون التوقف عندها. أنا أيضًا عانيت من أزمة عدم استطاعة النهوض. نكس المرض بشدة بعد ما اعتقدت أنني تجاوزته.

في الساعة الحادية عشرة إلا تسع دقائق، وضعتْ سيجارة صمصون جديدة على شفتيها ـ بحركات بطيئة قليلًا ـ وهي تنظر إلي بإمعان. في لحظة تكلمت نظراتنا بأمور كثيرة إلى درجة شعوري بأننا تكلمنا طوال السهرة ولساعات طويلة. وهكذا امتدت يدي تلقائيًّا إلى قداحتي، وأشعلت بها السيجارة التي بين شفتي فسون. أمسكت فسون اليد بطريقة لا يراها الرجال الأتراك إلا في الأفلام الأجنبية.

أنا أيضًا أشعلت سيجارة. دخنتها ببطء كأنه لم يكن ما هو غير عادي. كنت أشعر بكل لحظة اقتراب موعد حظر التجول. كانت العمة نسيبة منتبهة إلى الوضع، ولكنها خافت من خطورة الأمر، فلا تنبس. أما السيد طارق فمن المؤكد أنه انتبه إلى وجود وضع غريب، ولكنه لم يستطع إدراك ما يجب أن يتجاهله. خرجت من البيت في الحادية عشرة وعشر دقائق. أعتقد أنني في تلك الليلة أدركت أنني سأتزوج فسون. بسبب فهمي أن فسون في النهاية ستختارني فقد كنت سعيدًا إلى درجة أنني نسيت خروجي في ساعة الحظر، ورمي نفسي مع السائق تشتين أفندي إلى الخطر وليس وحدي. بعد أن ينزلني تشتين أمام البيت في تشويكية، يضع السيارة في مرآب في شارع الشاعرة نيغار، ويذهب إلى بيته الواقع في حي مخالفات قريب من الأزقة الخلفية من دون أن يراه أحد. لم أستطع النوم في تلك الليلة كالأولاد.

بعد سبعة أسابيع، ومساء الحفل الافتتاحي لفيلم «حيوات مكسرة» في سينما سراي في بيه أوغلو، كنت مع عائلة كسكين في تشوقور جمعة. في الحقيقة، من المفروض أن تحضر فسون العرض الافتتاحي باعتبارها زوجة المخرج، وأنا باعتباري المنتج (أنا كنت صاحب أكثر من نصف

ليمون للإنتاج)، ولكننا لم نذهب. لم تكن فسون بحاجة لذريعة، فقد كانت مختلفة مع فريدون. قليل جدًّا ما عرج زوجها على البيت في الصيف. هناك احتمال كبير أنه يعيش مع نرجس. كان يمر مرة كل أسبوعين على بيت تشوقور جمعة، ويأخذ غرضًا أو غرضين، وقميصًا، وبعض الكتب من غرفته في الأعلى. كنت أعلم بتلك الزيارات من خلال تسميع العمة نسيبة بعض العبارات، وتظاهرها بأن بعض الكلمات تنفلت من لسانها. وعلى الرغم من فضولي الشديد، لم أكن أدخل بهذه الموضوعات «المحظورة». كنت أعرف من نظرات فسون ومواقفها أنها منعت الحديث بهذه الموضوعات بوجودي. ولكنني عرفت من العمة نسيبة أن فسون تشاجرت مع فريدون في إحدى زياراته.

كنت أتوقع أنني إذا ذهبت إلى الحفل الافتتاحي، ستعلم فسون بهذا من الجرائد، وتحزن كثيرًا، وتعاقبني بالتأكيد. من جهة أخرى كان علي أن أذهب إلى الحفل الافتتاحي باعتباري منتج الفيلم. طلبت من سكرتيرتي بعد الغداء أن تتصل بليمون للسينما، وتقول إن والدتي مريضة جدًّا، ولا أستطيع الخروج من البيت في ذلك اليوم.

عندما كان فيلم «حيوات مكسرة» سيعرض على عشاق السينما الإسطنبوليين، والصحفيين لأول مرة كان المطر يهطل. طلبت من تشتين أن يقلّني من بيتي في تشويكية إلى بيت عائلة كسكين من تقسيم وغلاطة سراي، وليس من طريق طوبخانة. أثناء مروري من أمام سينما سراي في بيه أوغلو، رأيت عدة أشخاص أنيقين يحملون شمسيات، وملصقًا أو اثنين مزركشين أعدا بنقود ليمون للسينما، ولكن هذا لا يشبه أبدًا الافتتاح الذي تخيلته لفيلم فسون قبل أعوام في سينما سراي.

لم يُفتح هذا الموضوع على مائدة عائلة كسكين نهائيًّا. كلنا ـ السيد طارق والعمة نسيبة وفسون وأنا ـ دخنّا باستمرار، وأكلنا معكرونة باللحم المفروم، ولبنًا رائبًا بالخيار، وسلطة الطماطم، وجبنًا أبيض، ومثلجات

«عُمْـر» التي جلبتها من نيشـان طـاش، ووضعتها في الثلاجـة فور دخولي، وكثيـرًا مـا نهضنا مـن أمكنتنـا، ونظرنا إلى المطر والسـيل النـازل من طلعة تشـوقور جمعة. فكرت عدة مرات خلال السهرة أن أسأل فسون كيف يسير رسم الطيور، ولكن حاجبيها المعقودين، ووجهها العابس أشعراني بأن هذا ليس الوقت المناسب.

حظي فيلم «حيوات مكسرة» باهتمام المشاهدين في إسطنبول والمناطق النائية، وكسـر رقمًا قياسيًّا ببيع التذاكر على الرغـم من كلمات النقاد الساخرة والمسـتخفة حولـه. في المشـاهد الأخيـرة التي تتضمـن أغنيتيـن غاضبتين وحزينتيـن تكتوي فيهما نرجس من سـوء حظها، تبكي النسـاء خصوصا في المناطق الريفية، وكثير من الشباب والمسنين يخرجون من السينمات الرطبة والخانقـة منتفخي العيون من البكاء. المشـهد الأخيـر الذي تقتل فيه نرجس الغنـي الـذي خدعها وأوقع بها ودنس شـرفها وهي ما زالـت طفلة، وجعلته يتوسل إليها قوبل بانفعال شديد. كان هذا المشهد مؤثرًا جدًّا واشتهر في فترة قصيرة إلى درجة أن صديقنا من بلور السيد أكرم الذي أدى دور الغني الشرير (كان يـؤدي دور الكاهـن البيزنطـي، ورئيـس العصابـة الأرمنيـة) وقد خدع نرجس، وسلبها بكارتها، صار المواطنون يبصقون بوجهه في الطريق، وحتى هنـاك مـن حاول صفعه علـى وجهه، لذلك لـم يخرج من بيتـه فترة. وحظي الفيلم بالتقدير لأنه تمكن من جذب الجماهير إلى الصالات بعد أن هجرتها في المرحلة التي سبقت الانقلاب العسكري والتي تسمى «أعوام الإرهاب». لم تدب الحيوية في السـينمات فقط، بل في بار بلور أيضًا. بدأ السـينمائيون الذين رأوا سـوق السـينما قد تحرك يعرجون على بلور الـذي يعتبر نوعًا من السوق لهذا القطاع برغبة إظهار أنفسهم.

ذات ليلـة عاصفـة وماطرة من ليالـي نهاية تشـرين الأول/ أكتوبر، وقبل سـاعتين من موعد الحظر، ذهبت إلى بلـور نتيجة إلحاح فريدون، فرأيت أن مكانتـي هناك قد ارتفعت كثيرًا، وبحسـب تعبير تلـك الأيام فقد كان وضعي في الجو. نجاح حيوات مكسرة التجاري جعلني منتجًا ناجحًا ـ وحتى ماكرًا

ـ وهـذا مـا جعل عدد الذين يريدون الجلوس إلـى طاولتي، ويقيمون صداقة معي من مصورين ومشاهير الممثلين يزداد بنسبة كبيرة.

أذكر بأن رأسي في نهاية السهرة كان ثملًا تمامًا من المجاملات والاهتمام والعـرق.. وكنـا علـى الطاولـة ذاتها ذات مـرة: حياتـي الخيـال، وفريدون، ونرجس وطاهـر طان وأنا. السـيد أكرم السـكران بمـا لا يقل عنـي، وكثيرًا ما نشـرت صوره في الصحف، اسـتعاد تذكر مشـهد الاعتداء على الشـرف، ومـازح نرجـس ممازحـات ثقيلـة. ونرجس تقـول له إنهـا لا تأخـذ الرجال «الفقـراء» و«الذيـن انتهوا» علـى محمل الجد، وتضحـك. حرضت نرجس ذات فترة فريدون على الناقد «المتحذلق» الذي سـخر من «حيوات مكسرة» باسـتخدام عبارة «ميلودراما بكل معنى الكلمة» ليعرفه بحدوده، وحتى يلقنه درسًا بضربه، ولكن الأمر نسي بعد فترة.

حكـى السـيد أكرم بأنه بـدأ يتلقى عـروضَ تمثيل في دعايـات جامعي الأمـوال أكثـر من السـابق، مـع أن الرجـل الشـرير لا يجد عـادة عملًا في الدعايات، ولم يجد تفسـيرًا لهذا الأمر. كان جامعو الأموال يقابلون بحب في أوسـاط السـينما لأنهم يستخدمون مشـاهير قطاع السينما في إعلانات الجرائد والتلفـاز. عندما يفتح المداومون على بار بلور هذه الموضوعات أمامـي باعتباري رجـل أعمال ناجحا وحداثويا (قـال حياتي خيال: «رجل الأعمـال المحب للثقافة حداثوي») ألتـف بالصمت، وفي أغلب الأحيان يريـدون أخـذ رأيي. بعد نجاح شـباك التذاكر لفيلم حيوات مكسـرة، تقرر أننـي صاحـب نظرة بعيـدة، و«رأسـمالي لا يرحـم»، ونسـيت الأعوام التي كنت آتي فيها مع فسون من أجل صنع نجمة منها. عندما يخطر ببالي سرعة نسـيانهم فسون، يكوي عشـقها قلبي، وتتأجج النار فيه، وأريد أن أراها في أقرب فرصة، وأشـعر بأنني عشـقتها أكثر لأنها لم تُلوث كثيرًا بهذا الوسط البائـس والسـافل، وأؤمن من جديـد أنني فعلت جيـدًا بإبعادها عن هؤلاء الناس سيئي النوايا.

الأغاني التي أدتها نرجس في الفيلم، هي بصوت صديقة أمها، المطربة العجوز التي لم تشتهر كثيرًا. وإثر نجاح الفيلم، ستؤدي نرجس الأغاني نفسها، وتُصدر أسطوانة. في تلك السهرة قررنا دعم هذه المبادرة، وتصوير جزء جديد من حيوات مكسرة. لم يكن الفيلم الثاني قرارنا، بل قرار سينمات الأناضول والموزعين على الأكثر. كان هناك إلحاح على تصوير جزء جديد بحيث يعتبر الرفض حسب قول فريدون «مخالفا لطبيعية الأشياء» (كانت هذه العبارة من القوالب الشائعة في تلك الفترة). في نهاية الفيلم ماتت نرجس من دون أن تحظى بحياة أسرية سعيدة مثلها مثل كل الفتيات اللواتي يفقدن بكارتهن طيبات كن أو سيئات النية. وكحل لهذا الأمر، قررنا أنها في الحقيقة لم تمت، وأصابتها الرصاصات بجروح فقط، ولكنها تظاهرت بالموت من أجل الاختباء من الأشرار. سيفتتح الفيلم الثاني في المستشفى.

أعلنت نرجس على الرأي العام بعد ثلاثة أيام أن الفيلم الثاني سيصور من خلال لقاء معها أجرته جريدة ملييت. في الأيام الأولى لعرض الفيلم أوحت الجرائد إلى وجود عشق حقيقي وسري بين نرجس وطاهر طان، ولكن هذا الموضوع انتهى، وتنفي نرجس الأمر. في تلك الأيام اتصل بي فريدون، وأبلغني بأن مشاهير الممثلين يريدون التمثيل مقابل نرجس، وأن طاهر طان بات ضعيفًا أمامها. وكانت نرجس قد بدأت تقول في اللقاءات الصحفية بأنها لم تقم علاقات مع الرجال تتجاوز تبادل القبل. أكبر ذكرياتها التي لا تنساها هو تبادلها القبل لأول مرة مع شاب هو عشق صباها في بستان تطن فيه النحل ذات يوم صيفي. وللأسف فإن ذلك الشاب استشهد في القتال ضد اليونانيين في قبرص. وبعد هذا الشاب لم تقترب من أي شاب آخر، ولا يمكن أن يُنسيها عشقها الأول إلا ملازم آخر. وعندما قال فريدون إنه لا يحب هذا الكذب في هذا النوع من اللقاءات، ردت عليه نرجس بأنها تعمل هذا من أجل تسهيل مرور السيناريو من الرقابة. لم يكن فريدون يخفي عني علاقته بنرجس. كنت أغبطه في داخلي على تصالحه

مع الحياة والجميع، وعدم تعلقه بالأحداث لإتعاس نفسه، وبقائه بريئًا وصادقًا بشكل دائم.

صدرت أسطوانة حيوات مكسرة لنرجس مدتها خمس وأربعون دقيقة في الأسبوع الأول من كانون الثاني/ يناير ١٩٨٢، وقد حظيت بإعجاب كبير وإن لم يكن بمستوى الفيلم. ألصقت إعلانات صغيرة على جدران المدينة المطلية بالكلس بعد الانقلاب العسكري، وأعطيت إعلانات للجرائد وإن كانت صغيرة. وجدت هيئة الرقابة (كان اسمها أخف: لجنة الإشراف على الموسيقى) لتلفاز الدولة «TRT» وهو القناة الوحيدة في تركيا الأسطوانة خفيفة، ولم يذع صوت نرجس في الإذاعة أو التلفاز. فتحت الأسطوانة المجال أمام نرجس لإجرائها عددًا من اللقاءات الصحفية، والصراعات التي نصفها حقيقية ونصفها متفق عليها. ما يحكى في اللقاءات، والردود منحتها شهرة أكبر. تدخل بمناقشات ما إذا كانت «الفتاة الأتاتوركية المعاصرة تعطي الأولوية لزوجها أم لعملها؟»، وتصرح بأنها للأسف لم تتعرف بعد على رجل أحلامها. وهي تمسك دمية دب أمام مرآة في غرفة النوم (اشترت فرش غرفة جاهزا يجمع بين الشعبية والطراز التركي). وفي أثناء إعدادها رقائق العجين بالسبانخ متقمصة شخصية ربة البيت الماهرة (مجموعة قدور المينا نفسها موجودة في مطبخ عائلة فسون) تؤكد على أنها أصفى من ليرزان بطلة حيوات مكسرة الغاضبة والمجروحة وأنظف منها وأسعد (وقالت أيضًا: «كل منا ليرزان بالتأكيد!»). قال لي فريدون ذات مرة بكبرياء إن نرجس في الحقيقة أكثر احترافية، وإنه لا يأخذ مأخذ الجد أيًّا من هذه اللقاءات والأخبار التي تنشر في الجرائد. ونرجس مثل النجمات والنجيمات اللواتي عرفناهن من بلور، ولم يخرجن من كونهن هاويات، لا تشكو من تعريف جرائد المنوعات لها بشكل خاطئ وكاذب، وهي مسيطرة على الوضع بتلفيق كذبتها الخاصة منذ البداية.

٧١ ـ ما عدتم تأتون نهائيًا يا سيد كمال

دخلت بآخر صدام مع أوساط أصدقائي القدماء الذين ابتعدت عنهم من دون أن أقاطعهم عندما تقرر استخدام نرجس في حملة إعلانات مياه ملتم الغازية الوطنية لعدم تمكنها من منافسة الشركات الأجنبية الكبرى مثل كوكاكولا وشبيهاتها في مطلع الصيف. فريدون سيخرج الفيلم الدعائي أيضًا.

من المؤكد أن زعيمًا يعرف ارتباط نرجس بشركة ليمون. تناولت معه غداء طويلًا في مطعم فوآية من أجل أن نتحدث بهذا الموضوع كصديقين.

قال زعيم: «لا نستطيع منافسة كوكاكولا لأنها تبيع للوكلاء بالدين، وتعطيهم لوحات بلكسي جلاس مجانية، وتوزع هدايا وتقويمات. عندما يرى الشباب الكوكاكولا بيد ماردونا شبيه القرد (نجم كرة القدم في تلك المرحلة)، لا يردون على رخص ملتم وسلامتها صحيًّا ومحليتها، ولابد أن يشربوا تلك».

«لا تغضب، ولكنني إذا أردت أن أشرب مياها غازية مرة كل فترة، فأنا أيضًا أشرب كوكاكولا».

قال زعيم: «وأنا أيضًا... دعك مما نشربه... نرجس تقوينا أكثر في الريف. ولكن كيف هي؟.. هل يمكننا أن نثق بها؟».

«لا أدري. إنها فتاة فقيرة طموحة. أمها مطربة ملهى متقاعدة... ليس هناك أب في الوسط. ما الذي تتوق لمعرفته؟».

«سندفع مبلغًا كبيرًا. إذا ذهبتْ بعد هذا، ورقصت في فيلم إباحي، أو لا أدري، إذا قبض عليها مع رجل متزوج... الريف لا يحتمل هذا. يقال إنها تعيش مع زوج فتاتك فسون».

لم يعجبني حديثه عن فسون بقوله «فتاتك»، وتعبيره بمعنى «أصبحت

تعرف هؤلاء الناس عن قرب». سألته: «هل مياه ملتم الغازية مرغوبة أكثر في الريف؟». طرح زعيم مياه ملتم الغازية بادعاء التغريب والحداثة مع إنغة وشركات الإعلان الغربية، وأقلقه الآن عدم رواجها بين أغنياء إسطنبول وفي المدن الكبرى.

قال زعيم: «نعم، نحن محبوبون في الريف أكثر. لأن الإنسان الريفي هو الذي لم تخرب ذائقته بعد، وهو تركي أصفى، وهذا هو السبب! ولكن لا تغضب، وتُسمعني كلامًا... أنا أفهم شعورك ناحية فسون بشكل جيد جدًّا. العشق الذي تعيشه في هذا العصر ولأعوام طويلة أمر يستحق الاحترام، وليقل من يقول ما يشاء».

«من يقول؟ وماذا يقول؟».

قال زعيم بانتباه: «لا أحد يقول شيئًا».

هذه العبارة تعني أن الأوساط الراقية نَستك. كلانا قلقنا من هذا. كنت أحب زعيمًا لأنه يقول لي الحقيقة، ولا يريد أن يجرحني بأي شكل.

رأى زعيم الحب الذي في عيني. ابتسم بصداقة وجو يمنح الثقة، وسأل وهو يرفع حاجبيه: «ماذا يحدث؟».

كنت أستطيع أن أتملص من الموضوع. كان زعيم يفهمني جيدًا. ولكن نسياني بين أصدقائي القدامى ما زال يكوي قلبي، ولا أدري لماذا.

قلت: «العمل يسير جيدًا. سأتزوج فسون. وسأعود معها إلى الوسط الراقي... بالطبع إذا تمكنت من مسامحة النمامين السيئين».

قال زعيم: «دعك منهم يا عزيزي. كل شيء يُنسى في ثلاثة أيام. واضح من مزاجك ووجهك أنك بحال جيدة. عندما سمعتُ بقصة فريدون، أدركت أن فسون ستضع عقلها برأسها».

«من أين سمعت بقصة فريدون؟».

قال زعيم: «لا تهتم».

غيّرت الموضوع قائلًا: «إيه، أليس هناك زواج في الأفق؟ هل هناك واحدة جديدة؟».

قال زعيم وهو ينظر إلى الداخلين من الباب: «حلمي اللقيط، وزوجته نسليهان..».

اقترب حلمي من طاولتنا وهو يقول: «أوه، من هنا يا ناس!» نسليهان أيضًا كانت أنيقة جدًّا. حلمي اللقيط لا يثق بخياطي بيه أوغلو، دائمًا يلبس من إيطاليا، ويهتم بهندامه. أعجبتني ملامح الغنى والأناقة عليهما. ولكنني أدركت أنني لن أستطيع تناول كل شيء بسخرية ومزاح، وأن أبتسم كما يريدون. بدت لي نظرات نسليهان متوجسة قليلًا. صافحتهما، ولكنني كنت باردًا إزاءهما، الأكثر من هذا أنني شغلت بالي بهما، وحزنت فترة. لم يكن جميلًا استخدامي اصطلاح «المجتمع الراقي» الغريب تحت تأثير مجلات المنوعات التي تقرؤها أمي، وقولي لزعيم بثقة قبل قليل إنني سأعود إلى هناك، خجلت حينئذ. أردت الذهاب إلى العالم الذي أعيش فيه مع فسون، إلى تشوقور جمعة. كان مطعم فوآية مزدحمًا أيضًا، نظرت إلى أصيص أذن الجمل والجدران الفارغة والمصابيح الأنيقة بمتعة كأنني أنظر إلى ذكرى حلوة. ولكن فوآية بنظري عَتِق، ولستُ أدري لماذا أصبح قديمًا فورًا. هل سنجلس ـ فسون وأنا ـ على هذه الطاولات من دون أن نهتم لشيء، بسعادة الحياة والعيش معًا فقط؟ فكرت لنفسي: «هناك احتمال كبير».

قال زعيم: «شردت بالأحلام السعيدة».

«لا، أفكر بنرجس من أجلك».

«بما أنها ستمثل دعاية ملتم، وتغدو وجه ملتم لهذا الصيف، فهذا يفرض مشاركتها باجتماعاتنا، ما رأيك؟».

«ما الذي تسأل عنه؟».

«هل تكون جيدة، ومقبولة، وتتصرف بشكل مناسب؟».

«لِمَ لا تتصرف بشكل مناسب؟ إنها ممثلة. وهي نجمة أيضًا».

«هـذا ما أقوله... هناك من يمثل دور الأغنياء بشـكل مصطنع في الأفلام التركية... علينا ألا نكون مثلهم».

قال زعيم بالتربية التي تلقاها من أمه: «لئلا نكون!». ولكن قصده بالتأكيد «لئـلا تكون! هـو لا ينظر إلى نرجس فقط هذه النظرة، بـل إلى كل من ينتمي إلـى طبقـة أدنى. ولكـن عقلي كان برأسـي إلى درجـة إمكانيتـي التفكير بأن الغضب من ضيق رؤية زعيم، وتعكير مزاجي تصرّف أحمق.

سـألت سعدي كبير الندل في المطعم منذ أعوام طويلة عن السمك الذي يقترحه علينا.

«ما عدتم تأتون يا سـيد كمال نهائيًا. والسـيدة المحترمة والدتكم أيضًا ما عادت تأتي».

«بعـد وفاة والدي، فقدت والدتي متعة الخـروج من البيت لتناول الطعام في المطاعم».

«رجاء اجلبوا السيدة المحترمة يا سيد كمال، نحن نبسطها. عندما توفي والـد أبناء قـرة خان، جلبوا والدتهـم ثلاث مرات في الأسـبوع إلى الغداء هنا، وأجلسوها إلى تلك الطاولة المجاورة للنافذة. تأكل السيدة المحترمة شريحة اللحم، وتراقب المارة من الشارع، وتسلي نفسها».

قال زعيم: «تلك المرأة خرجت من الحرم... شركسية، خضراء العينين، وما زالت جميلة على الرغم من بلوغها السبعين. أي سمك ستقدم لنا؟».

أحيانًـا يتخـذ سـعدي موقـف المتـردد، وأثنـاء تعـداده أنـواع السـمك: «الحدوق، والدنيس، والسـردين، والسيف، وموسى». يتحدث عن طزاجتها ولذتها وهو يرفع بحاجبيه ويرجف بشاربيه. أحيانًا، ينهي الأمر بقوله:

«سأقدم لكم اليوم قاروس مقلي يا سيد زعيم. لا أنصحكم اليوم بغيره».

«ماذا تضع معه؟».

«بطاطس مسلوقة، جرجير، وما تريدون».

«وماذا ستقدمون مقبلات؟».

«يوجد سمك مقدد من هذا العام».

قال زعيم من دون أن يرفع رأسه عن قائمة الطعام: «اجلب بصلًا أحمر أيضًا». وفتح الصفحة الأخيرة المكتوب عليها المشروبات. وخزه بالكلام قائلًا: «ما شاء الله يوجد ببسي، ومياه أنقرة الغازية، وإلوان، ولكن لا يوجد ملتم!».

«سيد زعيم، جماعتكم يجلسون مرة، ولا يعودون. الزجاجات الفارغة في الخلف تنتظر منذ أسابيع».

قال زعيم: «معك حق، توزيعنا في إسطنبول سيئ». والتفت نحوي: «أنت تعرف بهذه الأمور، كيف تسير أمور صاطصاط؟ كيف يمكننا إصلاح التوزيع؟».

قلت: «دعك من صاطصاط. أسس عثمان شركة جديدة مع طورغاي، ومحقنا. بعد وفاة والدي، سيطر الطمع على عثمان».

لم يستسغ زعيم سماعَ سعدي فشلنا الخاص، فقال: «أفضل شيء اجلب لنا كأسي عرق كلوب وثلج». بعد ذهاب سعدي، قطب حاجبيه منتظرًا جوابًا: «أخوك الحبيب يريد أن يعمل معنا أيضًا».

قلت: «أنا لا أتدخل نهائيًّا. ولن أغضب منك بسبب عملك مع عثمان. اعمل ما تريد. ما الأخبار الأخرى؟».

فهم زعيم فورًا أنني أقصد الوسط الراقي بكلمة «الأخبار»، وحكى لي بعض القصص الممتعة برغبة بث السرور في نفسي. أغرق «واثق مغرّق السفن» سفينة شحن صدئة في الساحل بين طوظلا وبيرم أوغلو هذه المرّة. يشتري واثق من الخارج سفنًا مهترئة صدئة منعت من السفر وتسمم البيئة

بسعر الحديد الخردة، وبألعاب البيروقراطية وأوراقها يقدم هذه السفن على أنها حقيقية وغالية، وبفضل معارفه في الحكومة والدولة والرشا يحصل على قرض دون فائدة من «صندوق تطوير البحرية التركي»، ثم يُغرق السفينة، ويحصل على مبلغ كبير من شركة التأمين التابعة للدولة، ويبيع السفينة الغارقة لأصدقائه تجار الحديد، ويكسب مبالغ ضخمة من دون أن يبرح طاولته. بعد أن يشرب واثق كأسين في النوادي، يباهي بالقول: «أنا صاحب أسطول لم يركب في حياته سفينة».

«بالطبع لم تكن الفضيحة بعملية الاحتيال، بل بإغراقه السفينة قرب المصيف الذي اشتراه لخليلته لكي لا تبعد السفينة. عندما أغرق واثق السفينة بين حدائق البيوت الصيفية وشواطئ السباحة، اشتكى الجميع من تلوث البحر. وصارت عينا خليلته مزرابين محتقنتين من البكاء».

«غيره؟».

«أودع آل أونضوق وآل منغرلي أموالهما لدى جامع الأموال دنيز، وفقدتاها. وقال إن هذا سبب سحب عائلة أونضوق ابنتها من مدرسة نوتردام دي سيون، وتزويجها».

قلت: «تلك الفتاة قبيحة، لا تساوى شيئًا. غير هذا، هل يمكن الوثوق بجامع الأموال دنيز؟ لا بد أنه الأكثر دناءة بين جامعي الأموال جميعًا... لم أسمع حتى باسمه».

قال زعيم: «وهل لدى جامع الأموال أموال؟ هل تثق بجامع أموال شهير سمعت باسمه؟».

كنا نعرف أن بعضهم أتوا إلى استثمار الأموال من مهنة الكباب وبيع عجلات السيارات وحتى من بيع أوراق اليانصيب القومي، وأنهم لن يحتملوا دفع كل هذه الفوائد المرتفعة. ولكن الذين يعملون دعايات كثيرة، ويكبرون بسرعة، يمكنهم أن يستمروا فترة قبل أن يفلسوا. يقال حتى أساتذة الاقتصاد الذين ينتقدونهم بسخرية في الصحف، ويقلبون شفاههم

إزاء هـؤلاء المحتالين، تجذبهم الفوائد الضخمـة، ويودعون أموالهم لديهم قائلين: «لشهرين أو ثلاثة فقط».

قلـت: «ليس لـدى أي منهم أمـوال. وليس لشـركاتنا نقود لـدى جامعي الأموال».

«إنهـم يدفعـون فوائد كبيرة إلى درجة أن العمـل أصبح خبلًا. لو أودعت النقـود التـي استثمرتها في ميـاه ملتـم الغازية لدى كاسـتللي، لبلغـت اليوم ضعفين».

أذكر أنني شـعرت حينئذ بفراغ الحياة وخوائها من المعنى الذي أشـعر به الآن بعـد أعـوام وأنا أتذكر حديثنـا ذاك والزحام الذي فـي فوآية. ولكنني لم أكن أفسـر هذا حينئذ كما أفسـره الآن بخبل كل هؤلاء الناس، أو بعبارة أكثر تهذيبًا «عدم منطقيتهم»، ولا أهتم، وحتى إنني أتناوله بتكبر وأنا أضحك».

«ألا تحقق ملتم أرباحًا حقيقة؟».

قلت هذا بعبثية، ولكن زعيمًا غضب.

قـال: «معتمـدون على نرجس، مـاذا نفعل؟ أتمنى ألا تخيّـب أملنا. أريد أن تغنـي الأوراق الفضيـة مـع نرجـس أغنيـة دعايـة ملتـم في عـرس محمد ونورجيهان. سيكون الإعلام كله هناك، في الهيلتون».

صمـتُّ قليلًا. لم يكن لدي علم بزواج محمـد ونورجيهان في الهيلتون. غضبتُ قليلًا.

قال زعيم: «أعرف أنهما لم يدعواك. كنت أعتقد أنك سمعت بالأمر».

«لماذا لا أدعى؟».

«دار حديـث طويـل حول هـذا الموضوع، ونوقـش كثيرًا. وكمـا تتوقع، فـإن سـيبل لا تريد أن تـراك. تقول سـيبل: «إذا أتى، فأنا لا آتـي» وهي أقرب صديقات نورجيهان. غير هذا، فهي التي عرّفت نورجيهان على محمد».

قلت: «أنا أيضًا أقرب الأصدقاء لمحمد. وأنا أيضًا أعدُّ مَن عرف أحدهما على الآخر».

«لا تعمل منها قضية، وتحزن».

قلت: «لماذا يُوافق على ما تقوله سيبل؟» ولكنني لم أشعر بأنني على حق وأنا أقول هذا.

قال زعيم: «سيبل بنظر الجميع مظلومة. تركتها بعد الخطوبة، وإقامتك معها في الشاليه نفسه على سرير واحد. الجميع تكلم بالتفصيل طويلًا بهذا الأمر. الأمهات يشُرن لبناتهن إلى هذه القضية كأنهن يشرن إلى قضية ثأر بقول: حزن الكل من أجل سيبل، ولكنه غير مبالٍ! وغضبوا منك كثيرًا بالطبع. لا تعلق كثيرًا على وقوفهما الآن إلى جانب سيبل».

قلت: «لا أتوقف». ولكنني توقفت.

بدأنا بتناول سمكنا وشرب عرقنا بصمت. إنها المرة الأولى التي نتناول فيها الطعام - زعيم وأنا - في فوآية بصمت. انتبهتُ إلى وقع أقدام الندل المتراكضين. ثمة هدير ناجم عن القهقهة والحديث وقرقعة الشوكات والسكاكين. قررت بغضب ألا آتي ثانية إلى فوآية. ولكنني حتى أثناء تفكيري بهذا كنت أعرف أنني أحب هذا المكان، وليس لدي عالم آخر غيره.

كان زعيم يتحدث عن رغبته بشراء مركب سريع، ولكنه يبحث عن محرك خلفي قوي قبل بحثه عن المركب، ولم يجد شيئًا في محلات قرة كوي.

فجأة قال: «كفى، لا تعبس. لا يحزن الإنسان لعدم ذهابه إلى عرس في الهيلتون. أما ذهبت نهائيًّا؟».

«لا يعجبني نبذ أصدقائي بسبب سيبل».

«لا أحد ينبذك».

«حسنٌ، لو كان القرار لك، ماذا تفعل؟».

قال زعيم بتصنع: «أي قرار؟ آآ، فهمت. بالطبع أنا أريدك بشدة أن تأتي. نحن نلهو معك كثيرًا في الأعراس».

«القضية ليست قضية لهو، بل أعمق».

قال زعيم: «سيبل فتاة جيدة وخاصة. وجرحت قلبها. الأكثر من هذا أنك وضعتها بموضع صعب أمام الجميع. عليك أن تقبل ما فعلته بدلًا من نظرك إليّ هكذا بعبوس يا كمال. صدقني حينئذ ستكون عودتك إلى حياتك السابقة، ونسيان كل هذه الحادثة أسهل بالنسبة إليك».

قلت: «أي أنني مذنب بنظرك، أليس كذلك؟». وتابعت على الرغم من معرفتي أنني سأندم على إطالتي الموضوع: «إذا كانت البكارة مهمة إلى هذه الدرجة حتى الآن، فلماذا نتظاهر بالأوربة والحداثة إلى هذه الدرجة؟ لنكن صادقين على الأقل».

«الجميع صادقون... خطؤك هو اعتقادك أن البكارة مشكلتك. لعلها ليست مهمة بالنسبة إليك وإليّ... ولكننا مهما كنا متأوربين وحداثيين فإن هذا الموضوع في هذا البلد مهم بالنسبة إلى الفتاة بالطبع».

«قلت إن سيبل لا تهتم..».

قال زعيم: «إن لم تهتم سيبل، فالمجتمع يهتم. وأنا واثق بأنك لا تهتم، ولكن القرنفلة البيضاء عندما كتب خبرًا كاذبًا وملفقًا عنك، تحدث الجميع بهذا. وعلى الرغم من عدم اهتمامك، فأنت تغضب مني، أليس كذلك؟».

قررت أن زعيمًا يستخدم تفاصيل تغضبني، وتعبيرات مثل «حياتك السابقة» بشكل خاص. إذا كان يريد أن يحزنني، فأستطيع أن أحزنه. قال لي جانب من عقلي أن أضبط نفسي، وأنني أتكلم بتأثير كأسي عرق، وأنني سأندم، ولكنني غضبت.

قلت: «في الحقيقة يا عزيزي زعيم، أنا أجد أن أداء نرجس أغنية الدعاية مع الأوراق الفضية في العرس عملًا تجاريًا جدًا، وخاطئًا».

«يا هذا، المرأة توقع معنا عقدًا من أجل حملة إعلانية. هيا، لا تغضب مني، هيا..».

«سيكون الأمر سوقيًّا..».

قال زعيم بثقة: «إيه، نحن اخترنا نرجس بشكل خاص لأنها سوقية». اعتقدت أنه سيقول لي أنت طرحت هذه السوقية في الساحة بالفيلم الذي أنتجته، ولكن زعيمًا إنسان طيب، لم يخطر بباله شيء كهذا. قال إنه سيساير نرجس، وأضاف بجدية: «عزيزي كمال، لم ينبذك أولئك الناس، أنت نبذتهم».

«ماذا فعلت؟».

«انطويت على نفسك. لم تجد وسطنا غريبًا ومسليًا كفاية. فعلت ما تراه عميقًا ومنطقيًّا. أصبح هذا العشق مثلك. لا تغضب منا..».

«ألا يمكن أن يكون الأمر أبسط؟ كنا نمارس الحب بشكل جميل جدًّا، ثم تعلقت بها... العشق أمر كهذا. ثم تشعر بمعنى عميق يتعلق بهذه الدنيا وهذا العالم. الأمر لا يتعلق بكم!».

خرجت كلمة «بكم» تلقائيًّا من فمي. فجأة شعرت بأن زعيمًا ينظر إلي من بعيد جدًّا، وأنه تخلى عني منذ زمن طويل. لم يعد يستطيع البقاء معي على انفراد. في أثناء استماعه إلي، لا ينتبه لما أقوله، بل إلى ما سيقوله الأصدقاء. بت أقرأ هذا من وجهه. مع أن زعيمًا رجل ذكي، وهذا يعني أنه ينتبه إلى أمور كهذه، وهو غاضب مني. شعرت بهذا أيضًا. مع ابتعاده بنظره عني، كنت أبتعد فجأة عن ماضيي وعن زعيم بنظري.

قال زعيم: «أنت عاطفي جدًّا. لهذا أنا أحبك كثيرًا».

«ما رأي محمد بكل هذا؟».

«إنه يحبك كثيرًا كما تعلم. ولكنه سعيد مع نورجيهان إلى درجة لا يمكن لك أو لي أن نفهمه. إنه يطير من الفرح، ولا يريد لأي شيء أو هم أن يعكر هذه السعادة».

قلت: «فهمت». وقررت أن أغلق الموضوع.

فهم زعيم هذا فورًا. قال: «لا تكن عاطفيًّا، وكن معقولًا!».

قلت: «حسن، أنا معقول». ولم نتكلم بشيء يستحق الذكر حتى نهاية الغداء.

حاول زعيم مرة أو مرتين أن يروي لي بعض شائعات الوسط الراقي من أجل إمتاعي، وأن يمازح حلمي اللقيط ونسليهان اللذين جاءا إلى طاولتنا من أجل تلطيف الجو، ولكن لم يحدث. تبدو لي أناقة حلمي وزوجته الآن تقليدًا فاقعًا، وحتى مصطنعًا. انقطعتُ عن أصدقائي جميعًا ومحيطي. لعلني أحزن لهذا، ولكن ثمة حقد وغضب أعمق في داخلي.

أنا دفعت الحساب. لحظة انفصالنا عند باب فوآية، تعانقنا وتبادلنا القبل كأننا صديقان قريبان قديمان يعرفان أنهما لن يلتقيا لأعوام طويلة بسبب السفر. ثم سرنا باتجاهين مختلفين.

بعد أسبوعين اتصل محمد إلى صاطصاط، واعتذر كثيرًا لعدم دعوته لي إلى عرسه في الهيلتون، وأخبرني بأن سيبل وزعيمًا معًا منذ فترة طويلة. كان يعتقد أنني أعرف هذا الأمر الذي يعرفه الجميع.

٧٢ ـ الحياة أيضًا كالعشق تمامًا...

حين كنت على وشك الجلوس إلى مائدة العشاء في بيت عائلة كسكين في مطلع عام ١٩٨٣، شعرت بغرابة ونقص، وتلفّت فيما حولي بدقة. لم تكن أمكنة الأرائك قد تغيرت، ولا كلب جديد وُضِع فوق التلفاز، ولكن شعورًا بالغرابة أثير في داخلي كأن الجدران قد صبغت بالأسود. لم أكن أعيش الحياة ـ كما العشق ـ في تلك الأيام بمعرفة وحزم، بل ثمة شعور متصاعد بأنها عبارة عن سلسلة أحداث تقع لي كما لو أنها خارجة من الأحلام، وكنت

أتصرف بطريقة لا أحارب فيها هذه الرؤية المتشائمة للحياة، ولا أستسلم لها تمامًا لأنني لم أكن أفكر بهذا. يمكن القول إن هذا قرار بترك الأمور على هواها. بالمنطق نفسه لم أتوقف عند القلق الذي أثارته بي غرفة الطعام، وقررت تجاهل الأمر.

كانت قناة الثقافة والفن «TRT 2» في تلك الأيام تعرض أفلام غريس كيلي بمناسبة وفاتها. مساء كل خميس، يقرأ علينا صديقنا الممثل الشهير أكرم في موعد «الفيلم الفني» ورقة بيده. كان الناقد السينمائي الشاب صديق فريدون في زمن ما (وقد خربت العلاقة بينهما بسبب مقال يسخر فيه من «حيوات مكسرة») يكتب النصوص التي يقرؤها السيد أكرم وهو يخفي يديه المرتجفتين بتأثير إدمانه الكحول خلف مزهرية مليئة بالورد. يقرأ السيد أكرم تلك النصوص الثقافية من دون أن يفهم شيئًا كثيرًا منها، ثم يرفع رأسه عن النص، وقبل قوله إن الفيلم سيبدأ «الآن»، يقول وكأنه يبوح بسر إنه تعرف على «الأميرة النجمة الأمريكية الظريفة» في مهرجان سينمائي قبل أعوام طويلة، وهي تحب الأتراك، ويتخذ موقفًا شاعريًّا يوحي باحتمال عيشه معها عشقًا كبيرًا. لا تفوّت فسون أفلام غريس كيلي التي سمعت من فريدون في أولى أعوام زواجها ومن صديقه الناقد الشاب أمورًا كثيرة حول هذه النجمة. وأنا أتخذ مكاني على مائدة عائلة كسكين مساء كل خميس لأنني لا أريد أن أفوت فرصة الفرجة على فسون وهي تشاهد غريس كيلي الخجولة واليائسة ولكنها سليمة البنية.

شاهدنا في ذلك المساء فيلم «النافذة الخلفية» لهيتشكوك. وبدلًا من أن ينسيني الفيلم قلقي، فقد أثر عكسيًّا. كان هذا فيلمًا شاهدته قبل ثمانية أعوام في السينما التي ذهبت إليها متخلفًا عن تناول الغداء مع موظفي صاطصاط وأنا أفكر بتبادل القبل مع فسون. لم تسلّني فرجتي على فسون بطرف عيني وهي تشاهد الفيلم بكل كيانها، ومحاولة إيجادي فيها شيئًا من ظرافة غريس كيلي وبراءتها. على الرغم من الفيلم، أو بسببه، لم يسيطر عليّ الشعور الذي يسيطر عليّ عادة ـ وإن لم يكن باستمرار ـ على العشاء التي كنا نتناوله في

بيت تشوقور جمعة. كان ذاك شعورًا يشبه عدم استطاعة الخروج من غرفة تضيق باستمرار في الحلم. كأن الزمن أصبح أمرًا يضيق باستمرار.

بذلت جهدًا كبيرًا لعرض الشعور بعدم استطاعة الخروج من هذا الحلم. لهذا الشعور جانبان: (أ) الحالة النفسية التي أعيشها. (ب) ظهور هذه الدنيا كأنها نوع من المخاتلة.

(أ) شعور بأننا في حلم من خلال الحالة النفسية التي نعيشها يشبه الشعور عندما نشرب المشروب الكحولي أو الحشيش. ولكنه مختلف أيضًا. هذا الشعور يشبه عدم عيش الحاضر في تلك اللحظة. كثيرًا ما كنت أشعر أثناء تناولي العشاء في بيت عائلة فسون بأن تلك اللحظة قد عشتها من قبل... نشعر بأننا شاهدنا فيلم غريس كيلي الذي نشاهده في تلك اللحظة في التلفاز أو شبيهه، وتحدثنا على المائدة أحاديث متشابهة، ولكن سبب ما أعيشه ليس ذلك الشعور. لم أكن أشعر بأنني أعيش في تلك اللحظة ما عشته من قبل. أثناء عيشي الراهن، كأن جسمي جسم شخص آخر على خشبة المسرح، وأنا أراقب نفسي وفسون من بعيد. كأن جسمي يعيش في الراهن، أما نفسي فهي تراقبه من بعيد. كأن اللحظة الراهنة التي أعيشها هي ذكرى. على زوار متحف براءتي ألا ينظروا إلى الأشياء والأزرار والكئوس ونعال فسون البيتية والصور القديمة كأنهم في مواجهة الراهن، بل أن ينظروا إليها وكأنها ذكرياتي.

(ب) عيش اللحظة الراهنة كأنها ذكرى هي مخاتلة تتعلق بالزمن. أشعر بخديعة بصرية تتعلق بالمكان. الشعور الأقرب لهذا هو القلق الذي تثيره ألعاب خديعة البصر في المجلات التي كنت أقرؤها في طفولتي، وأعرض منها نموذجا أو اثنين، أو الألعاب التي تطلب إيجاد الفروق السبعة، أو الشكل الأصغر بين الأشكال. كانت ألعاب طفولتنا التي تقول: «جدوا المخرج من الدهليز الذي يختبئ فيه الملك!»، أو «من أي حفرة يجب أن يذهب الأرنب لكي يخرج من الغابة؟» تسليني بقدر ما تقلقني. مع أنني في السنة السابعة

لذهابي إلى العشاء في بيت عائلة كسكين، بدأت مائدتها تبدو لي أقل لهوًا، ومكانًا خانقًا. شعرت فسون بهذا في ذلك المساء.

«ماذا حدث يا كمال؟ أما أعجبك الفيلم؟».

«بلى، أعجبني».

قالت بانتباه: «لعل موضوعه ليس محببًا لك..».

قلت: «على العكس تمامًا»، وصمتّ.

اهتمام فسون بمتعتي، ومزاجي وقلقي، وهذا الاهتمام الخاص على المائدة على مسمع من والديها هو أمر خاص إلى درجة جعلني أتكلم عبارة أو عبارتين جميلتين بحق غريس كيلي.

قالت فسون: «ولكنك منزعج جدًّا هذا المساء، لا تخفِ الأمر يا كمال».

«حسنٌ، سأتكلم... كأن شيئًا قد تغير في هذا البيت، ولكنني لم أعرف ما هو».

فجأة ضحك الجميع.

قالت العمة نسيبة: «انتقل ليمون إلى الغرفة الداخلية يا سيد كمال. ونحن كنا نقول كيف لم ينتبه إلى الآن».

قلت: «حقًّا! كيف لم أنتبه؟ مع أنني أحب ليمونًا كثيرًا..».

قالت فسون بتباهٍ: «ونحن أيضًا نحبه كثيرًا. قررت أن أرسمه، لذلك نقلت قفصه إلى الداخل».

«هل بدأت بالرسم؟.. رجاء، هل يمكنني أن أراه؟».

«طبعًا».

تركت فسون منذ فترة طويلة رسم سلسلة طيور إسطنبول لعدم رغبتها

وتعكـر مزاجهـا. عندما دخلت إلى الغرفة الداخلية، نظرت إلى رسـم ليمون الذي بدأته فسون حديثًا قبل نظري إلى ليمون نفسه.

قالت فسـون: «لـم يعد فريدون يجلب صور طيور. وأنا قررت أن أرسـم عن الواقع الحي بدلًا من الصور».

دوخنـي جو فسـون، وراحتهـا، وحديثها عن فريـدون كأنه مـاض فورًا. ولكننـي ضبطت نفسي، وقلـت: «بدايتك لهذا الرسـم جيدة جدًّا يا فسـون. سـيكون ليمـون أفضل رسـومك. لأنك تعرفيـن الموضوع جيـدًا. إذا تناول الإنسان أحب الموضوعات إليه في الرسم، يحقق النجاح».

«ولكنني لن أكون واقعية».

«مثل ماذا؟».

«لـن أرسـم القفـص. سـيكون ليمـون طائـرًا حـرًّا جاء بنفسـه إلـى أمام النافذة».

ذهبـت فـي ذلـك الأسـبوع ثلاث مـرات أخـرى إلى العشـاء عنـد عائلة كسـكين. فـي كل مرة أنتقل إلى الغرفة الخلفية بعد العشـاء، ونناقش الرسـم بتفاصيلـه. يبدو ليمون خارج القفص أسـعد وأكثر حيويـة. عندما ندخل إلى الغرفـة الخلفيـة نهتم برسـم ليمون أكثر ممـا نهتم به. بعد أن نتكلم بمشـاكل الرسـم بشكل شبه رسمي ولكنه صادق، كنا نتحدث في كل مرة عن الذهاب إلى باريس والمتاحف.

مسـاء الثلاثـاء، قلت الكلمات التي حضرتها من قبـل بانفعال مثل طالب ثانوية وأنا أنظر إلى رسم ليمون.

قلت هامسًا: يا روحي، أصبح علينا أن نخرج من هذا البيت وهذه الحياة. الحيـاة قصيـرة، تمر الأيام والأعـوام بالعناد. علينا أن نذهـب إلى مكان آخر معًـا، ونعيش سـعداء». كانت فسـون تتظاهر بأنها لـم تسـمع كلماتـي نهائيًّا، ولكـن ليمـون رد علي بـ «جق، جـق، جق» قصيرة. «لم يعد هناك ما يُخشـى

منه أو يدعو إلى التردد. لنخرج أنا وأنت من هذا المكان والبيت، ولنسعد في مكاننا وبيتنا إلى نهاية حياتنا. أنت في الخامسة والعشرين من عمرك، وأمامنا حياة نصف قرن يا فسون. عانينا كفاية في الأعوام الستة الأخيرة من أجل أن نستحق سعادة الخمسين عامًا تلك! لنذهب بعد الآن معًا. عاندنا كفاية».

«هل نحن نعاند يا كمال؟ ليس لدي علم. لا تضع يدك هناك، الطائر يخاف».

«لا يخاف، انظري، إنه يأكل من يدي. سنضعه في صدر بيتنا».

قالت بصدق وأداء كاتمة الأسرار: «سينشغل بال والدي الآن».

في الخميس التالي شاهدنا «القبض على اللص» لهيتشكوك أيضًا. لم أتابع الفيلم، بل تابعت مشاهدة فسون للفيلم. كنت أرى اهتمام جميلتي بالأميرة النجمة بكل كيانها بدءًا من نبض أوردة رقبتها الزرقاء وصولًا إلى تململ يدها على المائدة، ومن حركة ترتيب شعرها إلى إشعال سيجارتها الصمصون.

عندما دخلنا لرؤية رسم ليمون، قالت فسون: «هل تعرف يا كمال أن غريس كيلي أيضًا كانت ضعيفة بالرياضيات؟ وانتقلت إلى التمثيل من عرض الأزياء. ولكنني لم أغر إلا من قيادتها السيارة».

في تعريفه لمشاهدي الفيلم الفني الأتراك، أعطى السيد أكرم معلومة بأن الأميرة النجمة عملت حادث سيارة وهي تقود على الطريق الذي استخدمته في هذا الفيلم، وكأنه يعطي المعلومة حول قريب خاص جدًّا.

«لماذا تغارين منها؟».

«لا أدري. قيادتها السيارة تظهرها قوية جدًّا وحرة. لعل هذا هو السبب».

«اسمعي، أنا أعلمك فورًا إن أردت».

«لا، لا، مستحيل».

«فسون، أعرف أنك موهوبة جدًّا. يمكنني أن أعلمك قيادة السيارة بحيث تحصلين على الرخصة خلال أسبوعين، وتقودين براحة في شوارع إسطنبول. ليس هناك ما يدعو للخجل. عندما كنت بعمرك (هذا ليس صحيحًا)، علمني تشتين قيادة السيارة. عليك أن تكوني صبورة وهادئة فقط».

قالت فسون بثقة: «أنا صبورة».

٧٣ ـ رخصة قيادة فسون

في نيسان/ إبريل من عام ١٩٨٣ بدأنا ـ فسون وأنا ـ إجراءات امتحان رخصة قيادة السيارة. بعد فتح الموضوع بمزيج من المزاح والجد، مضت خمسة أسابيع بالتردد والدلال والصمت. كلانا نعرف أن الأمر يتجاوز نجاحها بامتحان رخصة قيادة السيارة، وهو يعني تجاوز امتحان القرب بيننا. فوق هذا، فسيكون امتحاننا الثاني، وكنت متوترًا لتوقعي بأن الله لن يمنحنا الفرصة الثالثة.

من جهة أخرى أدركُ أن هذه فرصة كبرى للاقتراب من فسون، وأنا فرح جدًّا لأنها منحتني هذه الفرصة. النقطة التي أريد أن ألفت إليها النظر، هي أننا أصبحنا تدريجيًّا خلال هذه الفترة كلها أكثر راحة ومرحًا وتفاؤلًا. بعد شتاء طويل مظلم، تبرز الشمس ببطء من بين الغيوم.

بعد ظهر يوم ربيعي برّاق (يوم الجمعة ١٥ نيسان/ إبريل ١٩٨٣، بعد ثلاثة أيام من احتفالنا بعيد ميلادها السادس والعشرين بكعك محلى بالشيكولاتة اشتريته من محل ديوان) أخذت فسون من أمام جامع فيروز آغا بالشيفروليه للذهاب إلى درسنا الأول. أنا كنت أقود السيارة، وجلست فسون بجانبي. أرادت ألا آخذها من أمام بيتها في تشوقور جمعة، بل من زاوية أعلى الطلعة على بعد خمس دقائق من نظرات أبناء الحي الفضولية.

إنها المرة الأولى التي نذهب فيها وحدنا بعد ثمانية أعوام. كنت سعيدًا

بالتأكيد، ولكنني متوتر ومنفعل إلى درجة عدم انتباهي إلى سعادتي. كنت أشعر بأنني ألتقي للمرة الأولى مع مرشحة عروس وجدها لي الآخرون، ووفقوا بيننا، وقالوا بأنها مناسبة بكل ما فيها، وليس مع فتاة عانيت العذاب لثمانية أعوام من أجلها، ولدينا كثير من الأمور المشتركة.

ارتدت فسون ثوبًا أبيض عليه ورود برتقالية وأوراق خضراء يليق بها كثيرًا. تلبس هذا الثوب الذي يصل إلى تحت الركبة، وفتحة ياقته «V» كلما ذهبنا إلى دروس القيادة مثل رياضي يلبس اللباس الرياضي نفسه دائمًا إلى التدريب، ويصبح الثوب في نهاية الدرس مبللًا تمامًا بالعرق مثل اللباس الرياضي. فور رؤيتي هذا الثوب معلقًا في خزانة فسون بعد ثلاثة أعوام من بدئنا الدروس، ذكّرني بساعات الدروس المتوترة والمدوّخة والسعادة التي عشناها برغبة في حديقة يلضظ على مبعدة من قصر عبد الحميد، وبدافع غريزي أشم رائحة فسون الفريدة في ذراعي الثوب وصدره من أجل عيش تلك اللحظات من جديد.

كان ما تحت إبط ثوب فسون يتبلل بداية، وتنتشر الرطوبة ببطء إلى الثديين والذراعين والبطن بشكل ممتع. أحيانًا نطفئ محرك السيارة في مكان مشمس من الحديقة، وتسقط علينا شمس ربيعية لذيذة كما كان يحدث في بناء مرحمة أثناء تبادلنا الحب قبل ثمانية أعوام، ونتعرق بشكل خفيف. ولكن ما كان يعرّق فسون، وفيما بعد يعرقني أساسًا هو جوّنا داخل السيارة، وخجلنا، وتوترنا، وارتباكنا. عندما ترتكب فسون خطأ مثل تلامس عجل السيارة الأيمن بحافة الرصيف مثلًا، أو إصدار ذارع السرعة صوتًا يذكرنا بوجود المسننات، أو انطفاء محرك السيارة تغضب، وتمتقع بالحمرة، وتبدأ بتصبيب العرق. ولكن العرق الأساسي يتدفق عندما تضغط بشكل خاطئ على فاصل الحركة.

قرأت فسون قواعد المواصلات في البيت من الكتاب، وحفظتها تقريبًا، ولم تكن سيئة بإمساك المقود، ولكنها لم تستطع تعلم استخدام فاصل

الحركة مثل كثير من متدربي القيادة. أثناء تقدمها على مضمار التدريب ببطء، تبطئ السرعة عند المنعطف، وتقترب من الرصيف بحذر مثل قبطان يقترب بالسفينة من مرسى الجزيرة، ولحظة قولي: «أحسنت يا جميلتي، أنت موهوبة جدًّا»، ترفع قدمها بسرعة أكثر من اللازم عن فاصل الحركة، فتبدأ السيارة بالارتجاف كعجوز تكح وكأنها ستختنق. داخل السيارة التي تهتز بشكل متقطع كمريض يكح ويفهق، أصرخ: «فاصل الحركة، فاصل الحركة». ولكن فسون كانت تضغط على الوقود أو المكابح نتيجة الهلع. عندما تضغط عليه تصبح نوبات سعال السيارة أقوى وأكثر خطرًا، ثم تقف فجأة. وكنت أرى العرق يتدفق كالماء من وجه فسون الممتقع بالحمرة، وجبهتها، ورأس أنفها، وصدغيها.

كانت فسون تقول بخجل وهي تمسح عرقها: «حسنٌ، يكفي. أنا لن أستطيع أن أتعلم، تراجعت! أنا لم أخلق لأكون سائقة». وتنزل بسرعة من السيارة، وتبتعد. وأحيانًا تنزل من السيارة من دون أن تقول شيئًا، وتبتعد وهي تمسح عرقها بالمنديل، وتدخن سيجارة بحنق وحدها على بعد أربعين أو خمسين خطوة (بدأ شابان يدوران حولها فورًا لاعتقادهما أنها وحدها). أو تشعل صمصون قبل أن تنزل من السيارة، وتضغط العقب المبلل بالعرق بالمنفضة، وتقول إنها لن تأخذ رخصة قيادة، وليس لها رغبة بهذا أصلًا.

أرتبكُ حينئذ وكأن سعادتنا المستقبلية ستبوء بالفشل، وليست قضية رخصة القيادة فقط، وأكاد أتوسل إلى فسون لتصبر، وتهدأ.

يلتصق ثوبها المبلل بالعرق على كتفيها. كنت أتفرج طويلًا على ذراعيها، وتعبير الهلع على وجهها، وحاجبيها المقطبين، وتوترها المرتبك، وجسمها الجميل الذي يتصبب عرقًا كما كنا يوم ممارسة الحب. يمتقع وجه فسون بالحمرة بعد جلوسها على مقعد القيادة بقليل بسبب الارتباك والتوتر، وعندما يزداد تصبب العرق، تفتح أزرار ثوبها العلوية، ولكنها تتعرق أكثر. في أثناء النظر إلى رقبتها وصدغيها وخلف

أذنيها المرطبة بالعرق، أحاول إخراج شكل ثديها الظريف المذهل الشبيه بأجاصة صفراء ووضعته بفمي قبل ثمانية أعوام، ورؤيته، وتذكره (في الليلة ذاتها، بعد شربي عدة كئوس عرق في البيت، أتخيل أنني رأيت رأسي ثدييها بلون الفراولة). أحيانًا أغضب بشدة لشعوري بأن فسون انتبهت إلى فقداني نفسي بمتعة الفرجة عليها أثناء قيادتها السيارة، ولكنها لم تبالِ، وحتى سرت من هذا الأمر. عندما أمد يدي لأريها كيفية تغيير السرعة بحركة الذراع الناعمة، تلمس يدي يدها أو ذراعها الجميل أو فخذها، فأفكر بأن أرواحنا اتحدت قبل أجسادنا. بعدئذ ترفع فسون قدمها ثانية عن فاصل الحركة بسرعة، فترتجف الشيفرولية ١٩٥٦ وهي تتخبط بالحرارة مثل حصان مسكين إلى أن تفقد وعيها. وهكذا يصمت محرك السيارة، وننتبه فجأة إلى صمت الحديقة، والقصر الذي إلى الأمام قليلًا، والعالم. نستمع إلى طنين حشرة طارت باكرًا قبل أن يدخل الربيع بتأثير السحر، وما أعظم أن نكون في الحديقة في يوم ربيعي، وفي إسطنبول، وفي الحياة.

الحديقة الكبيرة التي اختبأ فيها عبد الحميد عن العالم كله، وأدار منها الدولة العثمانية، ولعب بمجسم السفينة بالبركة الكبيرة (خطط أنصار تركيا الفتاة لتفجيره مع تلك السفينة)، والقصور بداخلها، وقد تجول فيها الأغنياء بسياراتهم بعد إعلان الجمهورية، تحولت إلى ساحة تعليم قيادة السيارة لمن لا يعرف. سمعت من أصدقائي حلمي اللقيط، وطيفون، وحتى من زعيم أن الذين لديهم مشكلة بتدبير مكان، يتبادلون القبل في أماكنها الظليلة خلف أشجار الدلب والكستناء. عندما نرى أولئك الذين يتعانقون خلف الأشجار أُدفن مع فسون في صمت طويل.

عندما ينتهي درسنا المستغرق ساعتين، ويبدو لي أنه طال ساعات كما كنت أشعر عندما مارسنا الحب في بناء مرحمة، يحل علينا صمت ما بعد العاصفة.

أثناء خروجنا من باب الحديقة، كنت أقول لها: «هل نذهب إلى أميرغان لنشرب شاي؟».

كانت فسون تهمس كصبية خجولة: «حسنٌ، نذهب».

كنت أنفعل بشدة مثل شاب أمضى أول لقاء مع مرشحة العروس التي تدبرها له آخرون بشكل جيد. أقود السيارة على طريق البوسفور، وأركنها على الرصيف الإسمنتي في أميرغان، وأثناء شربنا الشاي داخل السيارة، أسعد إلى درجة أنني لا أستطيع الكلام. وكانت فسون المتعبة من الثقل المعنوي لما عشناه إما أن تصمت، وإما أن تتحدث عن درس القيادة الذي أمضيناه.

حاولتُ أثناء شرب الشاي وراء زجاج الشفروليه المغشى أن ألمس فسون أو أقبلها مرة أو اثنتين، ولكنها دفعتني بلباقة مثل فتاة بدائية شريفة ترفض أي تواصل جنسي قبل الزواج. أسعدتني رؤية فسون أنها لم تفقد شيئًا من مرحها، ولم تغضب مني. أعتقد أن فرحي كان يحمل نوعًا من فرح مرشح العريس الريفي الذي عرف بأن الصبية التي يريد الزواج منها «مبدئية».

عندما أكملنا ـ فسون وأنا ـ الأوراق اللازمة من أجل دخول امتحان الحصول على رخصة القيادة، كنا قد تجولنا في إسطنبول من أولها إلى آخرها تقريبًا. بعد أن انتظرنا نصف يوم في طابور أوراق ديوان مستشفى قاسم باشا العسكري وعلى باب طبيبه العصبي حيث يحوّل المرشحون للحصول على رخص القيادة لأسباب استثنائية في تلك الفترة، أخذنا تقريرًا بأن أعصاب فسون سليمة، وردود فعلها جيدة، فخرجنا للنزهة في الأزقة الخلفية، ومشينا حتى جامع بيالة باشا. وبعد أن انتظرنا أربع ساعات في طابور مستشفى تقسيم الإسعافي في يوم آخر، وذهب الطبيب إلى بيته، تناولنا عشاء مبكرًا في مطعم روسي صغير في غوموش صويو من أجل تهدئة أعصابنا. في مرة أخرى، أثناء ذهابنا إلى مستشفى حيدر باشا بسبب إجازة طبيب الأذن والأنف والحنجرة، ألقينا قطع كعك للنوارس من مؤخر سفينة قاضي كوي.

أثناء انتظارنا بعد وضع أوراقنا في ديوان مستشفى كلية تشبا للطب من أجل تسييرها، أذكر أننا مشينا طويلًا، وأثناء تقدمنا في الطلعات المبلطة بالحجارة والأزقة الضيقة مررنا من أمام فندق الفاتح. بدا لي الفندق الذي عانيت فيه آلاما شديدة من أجل فسون في غرفته، وفيه تلقيت خبر وفاة والدي كأنه في مدينة أخرى في ذلك اليوم.

عندما ننهي ورقة جديدة، ونضعها في ملف مغطى ببقع الشاي والقهوة والحبر والدهون نحمله معنا، ونخرج من المستشفى فرحين، وندخل إلى مطعم أحد الأحياء للاحتفال بنجاحنا، ونتناول الطعام ونحن نضحك ونتبادل الحديث. تشرب فسون سيجارتها بحرية دون توتر أو محاولة لإخفائها عن أحد، وأحيانًا تمد يدها دون حرج إلى المنفضة، وتأخذ سيجارتي - مثل رفيق جندية - وتشعل منها سيجارتها، وتلقي نظرة متفائلة برغبة اللهو إلى الدنيا. أرى انفتاح حبيبتي المتزوجة والمهمومة على النزهة والتجول، ومشاهدة حياة الآخرين وأحيائهم، والدهشة من تجليات حياة المدينة، والتعرف على أناس جدد، وإقامة صداقات معهم بحرية، فأعشقها بعمق أكبر.

كانت فسون تقول: «هل رأيت الرجل؟ يحمل مرآة أطول منه!». بعد أن تتفرج على الأولاد الذي يلعبون كرة القدم في زقاق مبلط بالحجارة بمرح وصدق أكثر مني، تشتري زجاجتي مياه غازية من بقالية البحر الأسود التي في الخلف (لم يكن هناك ملتم أيضًا!). ترى العامل الذي يحمل بيده قضيبًا حديديًّا ومضخة، وينادي «فتح بلوعات!» وهو ينظر إلى شبابيك البيوت الخشبية، وشرفات الإسمنت المسلح، والطوابق العليا بفضول طفل؛ تقلب بيدها أداة المطبخ الجديدة التي يعرّف بها بائع في سفينة قاضي كوي وتقشّر الكوسا، وتعصر الليمون وتفرم اللحم. فيما بعد، تقول وهي تسير في الزقاق: «هل رأيت الولد؟ كان يخنق أخاه الأصغر بكل معنى الكلمة!». حين ترى زحامًا عند تقاطع طريق، وفي الساحة أمام حديقة الأطفال مباشرة، تقول: «ماذا يحدث؟ ماذا يبيعون؟» وتركض فورًا، وكنا ننظر معًا إلى النَوَر الذين يلعِّبون دبًّا، وشجار أولاد المدارس بصدرياتهم السوداء، وتدحرجهم

بعضهم فوق بعض وسط الزقاق، وأعين الكلاب الحزينة المقبوض عليها وهي تمارس الجنس (أثناء إطلاق أهل الحي صيحات السخرية، ونظرهم بخجل). كنا نقف مع الجميع للفرجة على نزول سائقين من سيارتين تصادمتا بمقدميهما بغضب وهما متوفزان للشجار؛ ونزول كرة برتقالية وهي تنط بالنزلة بشكل جميل؛ وحركات سيارة صاخبة تحفر أساسات بناء، وتلفاز مفتوح في واجهة محل.

كنت أجد متعة شديدة وكأن أحدنا يعرف الآخر توًّا، وباكتشاف إسطنبول معًا، ورؤية إسطنبول وفسون بحالة جديدة كل يوم. عندما شهدنا على فقر المستشفيات وفوضاها، ورؤيتنا بؤس المسنين في الطابور أمام أبواب مستشفيات الجامعات منذ الصباح الباكر من أجل رؤية الطبيب، وقابلنا الجزارين الهلعين الذين يذبحون الحيوانات بعيدًا عن رقابة البلدية في مقاسم البناء الخاوية في الأزقة الخلفية، شعرنا بأن جوانب الحياة المظلمة تقرّب أحدنا من الآخر. لعل الجانب الغريب وحتى المنفر من قصتنا أن ظلمات المدينة والناس التي نشعر بها أثناء مسيرنا في الأزقة ليست مهمة. تشعرنا المدينة بالجانب العادي من حياتنا، وتعلمنا التواضع دون أي شعور بالذنب. أشعر بقوة سلوان الانخراط في زحام المدينة أثناء السير في الأزقة بسيارات الخدمة والحافلات، وأنظر بإعجاب إلى فسون التي تطور علاقتها مع الخالة المحجبة التي تجلس على المقعد المجاور لها وهي تحتضن حفيدها الذي يغفو بين فترة وأخرى.

بفضلها عشتُ في تلك الأيام متع النزهة مع امرأة جميلة مكشوفة الرأس، وتوتراتها وكأنها لهو خارق. عندما ندخل إلى ديوان مستشفى، أو نعتّب دائرة حكومية تلتفت إلينا الرءوس كلها. وبدلًا من نظرة الموظفين المسنين المتعالية للمرضى الفقراء والموقف المتعالي الذي يعتبرونه مناسبًا مع العجائز، يتخذون موقف الموظف النشيط المخلص لوظيفته وقواعدها، ويخاطبونها «السيدة المحترمة» دون النظر إلى سنها. وهناك من يخاطب المرضى بضمير مفرد المخاطب، ولكنه يخاطبها بضمير جمع

المخاطب، وهناك أيضًا كثيرون لا ينظرون نهائيًّا إلى وجهها. هناك أطباء شباب يقتربون بلباقة الأفلام الأوربية وتهذيبها، ويقولون: «هل أستطيع المساعدة؟»، وأساتذة جامعات محرومون من النساء يمازحون فسون، ويحاولون إغواءها قبل أن يروني... كل هذا بسبب الارتباك اللحظي، وحتى الهلع الذي يحدث بين موظفي دائرة حكومية عندما يرون امرأة جميلة سافرة الرأس. بعض الموظفين لا يدخلون الموضوع الأساسي مع فسون نهائيًّا، وبعضهم يتأتئون، وبعضهم لا يتكلمون معها نهائيًّا، ويبحثون عن رجل معها يتكلم باسمها. عندما يرونني معها، يشعرونني بالارتياح لاعتقادهم أنني زوجها، ولم يكن أمامي سوى مشاركتهم الشعور نفسه.

كنت أقول: «السيدة فسون تريد تقرير طبيب الأذن والأنف والبلعوم من أجل طلب الحصول على رخصة قيادة سيارة خاصة. حوّلونا من بشكطاش».

يقول الآذن الذي ينظم الزحام في الممر: «لم يأت الطبيب بعد». ويفتح الملف الذي نحمله، ويلقي نظرة. «سجلوا التحويل في الديوان، وخذوا رقمًا في الطابور». ويضيف عندما ننتبه إلى طول الطابور الذي أشار إليه بعينه: «الجميع يقف بالطابور، لا يجوز دون طابور».

جربت ذات يوم دس بضعة قروش بيد آذن، ولكن فسون عارضت قائلة: «مستحيل، لنعمل مثل الجميع».

كنت معجبًا باعتقاد الجميع أنني زوجها أثناء الوقوف بالطابور والحديث مع الأذنة والمرضى. لم أكن أفسّر هذا بعدم إمكانية ذهاب امرأة إلى المستشفى بصحبة غير زوجها، بل برؤية هؤلاء أن أحدنا يليق بالآخر. عندما فقدتُ فسون أثناء تجوالنا في أزقة منطقة جراح باشا الخلفية بانتظار دورنا في مستشفى كلية الطب، فتحت خالة محجبة نافذة بيت خشبي مهلهل، وقالت: «زوجتك دخلت إلى بقال الزقاق المجاور». لم نكن نثير هلع أحد حتى وإن جذبنا اهتمامًا في الأحياء المتطرفة. أحيانًا يتبعنا الأولاد، ويعتقدون

أننا أضعنا طريقنا، وحتى إننا سائحون. أحيانًا يتأثر شاب بفسون، فيلحق بنا ليتمكن من رؤيتها مدة أطول، وعندما تلتقي عيناي بعينيه، يبتعد بتهذيب، ويترك ملاحقتنا. وكثيرا ما تمتد رءوس من النوافذ والأبواب، وتسأل النساء فسون، ويسألني الرجال عمن نبحث هنا، والعنوان الذي نقصده. رأت عجوز طيبة القلب فسون تهم بأكل برقوق أخضر اشترته من بائع، فقالت: «انتظري يا بنتي، لأغسله لك، ثم كليه!». وقفزت من بيتها، وأخذت الكيس الورقي من يدها، وغسلت البرقوق في مطبخ حجري في الطابق السفلي، وأعدّت لنا قهوة، وسألتنا عما نبحث عنه هناك، وعندما قلت لها بأننا زوجان نبحث عن بيت خشبي جميل لنسكنه، أرسلت خبرًا لجيرانها كافة.

نتابع أحيانًا دروس القيادة المُتْعِبة والميئِّسة في حديقة يلضط ونحن نصبب العرق دمًا، ونحضّر للامتحان الكتابي أيضًا. أثناء تمضيتنا الوقت في إحدى مقاهي الحدائق، تُخرج فسون من حقيبتها منشورات مثل «كتاب السائق السهل» و«أسئلة امتحان رخصة القيادة وأجوبتها» أحيانًا، وتقرأ لي سؤالًا أو اثنين وجوابهما وهي تضحك.

«ما هو الطريق البري؟».

«ما هو؟».

تجيب فسون وهي تقرأ نصف الجواب من الذاكرة، ونصفه الآخر من الكتاب: «شريط الأرض والساحات المفتوحة لفائدةِ العامة... حسنٌ، ما المواصلات؟».

أجيب من ذاكرتي متأنيًا بالجواب الذي كثيرًا ما سمعته: «المواصلات، حالة المشاة، والحيوانات..».

قالت فسون: «نسيت (هي) بعد المواصلات»، وتقول: «المواصلات هي حالة المشاة، والحيوانات، ووسائط النقل المتحركة بالمحركات، والجرارات ذات العجلات المطاطية فوق الطريق البري، وحركتها».

أحب أسلوب السؤال والجواب هذا، وأستمتع بتذكر الدروس المعتمدة على الحفظ، وسجلات نهاية العام التي تضع درجات «الوضع والسير العام»، وأمرح، وأطرح أنا على فسون سؤالًا.

«ما هو العشق؟».

«ما هو؟».

«هو ما يطلق على شعور كمال بالتعلق بفسون أثناء نظره إليها وهي تتنزه على الطرق البرية والأرصفة والبيوت والحدائق والغرف، ومقاهي الحدائق، والمطاعم، وتجلس على مائدة العشاء».

كانت فسون تقول: «هممم... جواب جميل. ألا يكون هناك عشق عندما لا تراني؟».

«حينئذ يصبح شغفًا بائسًا، ومرضًا».

كانت فسون تقول: «لا أدري كم يفيد هذا في امتحان رخصة القيادة!» وتتخذ موقفًا يشعرني بأنها لا تسمح بهذا النوع من المزاح والإغواء قبل الزواج، وأنا لا أقْدم ثانية على مزاح من هذا النوع في ذلك اليوم.

أجري الامتحان الكتابي في القصر الصغير الذي كان يمضي ابن السلطان عبد الحميد المجنون نعمان أفندي الوقت فيه وهو يستمع لعزف نساء الحرم على العود، ويرسم لوحات انطباعية للبوسفور الواقع في بشكطاش. أثناء انتظاري فسون عند باب البناء المحول إلى دائرة حكومية بعد إعلان الجمهورية، شعرت بالندم لأنني كنت يجب أن أنتظرها أمام باب الثكنة الحجرية عندما كانت تصبب عرقًا وهي تقدم امتحان الدخول إلى الجامعة قبل ثمانية أعوام. لو ألغيت خطبتي لسيبل في الهيلتون، وأرسلت أمي لطلب فسون، لكان لدينا ثلاثة أولاد في هذه الأعوام الثمانية. ولكننا إذا تزوجنا بعد وقت قريب، فسيكون لدينا وقت لعمل ثلاثة أولاد، وحتى أكثر. كنت واثقًا من هذا إلى درجة أنني كدت أسأل فسون «كم ولدًا سنعمل في

المستقبل؟». حين خرجت من الامتحان فرحة وهي تقول: «حللتها كلها!»، ولكنني ضبطت نفسي. ما زلنا نتناول العشاء على مائدة العائلة، ونجلس ونحن نشاهد التلفاز دون أن نضحك ونلهو كثيرًا.

حصلت فسون على علامة تامة بالامتحان، ونجحت، ولكنها رسبت في أول امتحان قيادة دون أن تظهر أي حضور. يرسب كل من يدخل امتحان القيادة أول مرة لكي يفهم جدية الأمر، ولكننا لم نكن جاهزين لهذا كفاية. انتهى الامتحان بسرعة كبيرة. ركبت فسون الشفروليه مع أعضاء لجنة الامتحان الثلاثة، ودوّرت السيارة، وبعد أن تقدمت قليلًا، قال لها عضو اللجنة صاحب الصوت الرخيم الجالس في الخلف: «لم تنظري إلى المرآة!». التفتت إليه فسون، وقالت له: «نعم؟». فطلبوا منها إيقاف السيارة فورًا، والنزول. لا يجوز للسائق أن يلتفت إلى الخلف أثناء القيادة. نزل أعضاء لجنة الامتحان من السيارة بهلع من لا يريد أن يعرض نفسه للخطر بالبقاء في سيارة سائق سيئ إلى هذه الدرجة، وقلقت فسون من هذا الموقف المهين.

أعطوا فسون موعدًا جديدًا لامتحان القيادة بعد أربعة أسابيع، في نهاية تموز/ يوليو. نظر العارفون ببيروقراطية رخص القيادة، ودورات القيادة والرشوة إلى حالتنا المهمومة والمهانة، وضحكوا، وفي مشرب شاي محول من بيت مخالفات مملوء بكل من يهتم بامتحان القيادة في إسطنبول (كانت هناك أربع صور لأتاتورك، وساعة جدارية ضخمة) علمونا بود طرق الحصول على رخصة القيادة. إذا سجلنا في دورة تعليم قيادة غالية جدًّا يعطي الدروس فيها شرطي مرور متقاعد (ليس شرطًا أن نذهب إلى الدروس)، ننجح في امتحان القيادة، لأن لجنة الامتحان وكثيرًا من الشرطة شركاء في تلك الشركة. من يدفع النقود لهذه الدورة التي يشارك فيها الشرطة، يدخل الامتحان بسيارة فورد قديمة معدة بشكل خاص. بجوار مقعد السائق مباشرة لهذه السيارة فُتح ثقب كبير. مرشح السائق الذي يطلب منه أن يركن في مكان ضيق، يرى من هذا الثقب الإشارات الملونة المرسومة على الطريق، وإذا قرأ

الدليل المعلق خلف المرآة في الوقت نفسه، يفهم عند أي إشارة ملونة يجب أن يُدوّر المقود إلى النهاية، وعند أي منها يجب أن يضع ذراع علبة السرعة على التراجع الخلفي، ويمكنه أن يركن السيارة في مكان ضيق دون خطأ. يمكننا أيضًا أن ندفع مبلغًا كبيرًا دون أن نتقدم إلى أي دورة. أعرف بوصفي رجل أعمال عدم إمكانية التهرب من الرشوة في بعض الأحيان. ولكننا تابعنا دروسنا في حديقة يلضط لأن فسون قالت بحسم إنها لن تشمم حتى رائحة النقود للشرطة الذين رسبوها.

حدد كتاب الامتحان مئات القواعد الصغيرة التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء قيادة السيارة. لا يكفي للمتقدم أن يقود السيارة بشكل جيد أمام اللجنة، بل يجب أن يثبت أنه أدى هذه القواعد بحركات فيها مبالغة، مثلًا، عندما يُطلب منه أن ينظر إلى المرآة، يجب أن يمسك المرآة ليبين أنه ينظر إليها. شرح لفسون هذا الوضع شرطي حنون ومسنّ شاب شعره في دورات رخص السيارات وامتحاناتها بأداء ودود إلى أبعد الحدود، فقال: «يا بنتي، في الامتحان عليك أن تقودي السيارة، وأن تتظاهري بقيادة السيارة في الوقت نفسه. الأولى من أجلك أنت، والثانية من أجل الدولة».

بعد درس القيادة في الحديقة، وفقدان الشمس حدتها، لا أفكر بأي من هموم الامتحان أو غيره سوى متعة الذهاب معها إلى أميرغان، وركن السيارة على الشاطئ، وشرب القهوة والمياه الغازية، أو الجلوس في إحدى مقاهي سور روملي وشرب الشاي من السماور. ولكن على القراء ألا يعتقدوا أننا عاشقان متلألئان.

قلت ذات مرة: «نحن بهذه الدروس أنجح من دروس الرياضيات».

قالت فسون بحذر: «سنرى..».

أحيانًا نجلس صامتين ونحن نشرب الشاي مثل زوجين مضى على زواجهما أعوام طويلة، واستهلكا الموضوعات التي من الممكن أن يتحدثا فيها كلها، وننظر بإعجاب مثل التعيسين إلى ناقلات النفط الروسية، وسفن

الخطوط الداخلية الذاهبة إلى جزيرة هيبلي وحتى سفينة صمصون الذاهبة برحلة إلى البحر الأسود ذات مرة حالمين بحيوات وعوالم أخرى.

لم تنجح فسون في الامتحان الثاني. طلبوا منها هذه المرة أمرًا صعبًا جدًّا، وهو أن تصعد طلعة خلفيًّا، وتركن السيارة في موقف مفترض. عندما ارتجفت الشيفروليه، واهتزت، أنزلوها من السيارة فورًا بالموقف المهين ذاته.

عندما رأى أحد المتفرجين معي على امتحان فسون ضمن الزحام المؤلف من كاتب العرائض إلى بائع الشاي، ومن الشرطي المتقاعد إلى مرشحي السائقين أن عضو لجنة التحكيم ذا النظارة جلس على مقعد السائق، قال: «رسّبوا المرأة». وضحك شخص أو اثنان.

السكين لم تفتح فم فسون في طريق العودة. ركنتُ السيارة في أورطا كوي دون أن أسألها. جلسنا في خمارة صغيرة وسط السوق، وطلبت كأسي عرق بالثلج.

بعد عدة رشفات عرق، قلت: «في الحقيقة أن الحياة قصيرة وجميلة جدًّا. لا تسمحي لهؤلاء الظالمين أن يعذبوك».

«لماذا هم مقرفون إلى هذه الدرجة؟».

«يريدون نقودًا. لندفع لهم النقود».

«ألا يمكن للنساء أن يقدن السيارة بشكل جيد برأيك؟».

«هذا رأيهم هم، وليس رأيي..».

«رأي الجميع..».

«يا روحي، احذري من جعل الأمر قضية عناد».

أردت ألا تنتبه فسون لجملتي الأخيرة هذه.

قالت: «أنا لم أتناول أي قضية في الحياة بعناد يا كمال. على الإنسان ألا

يطأطئ برأسه عندما تداس كرامته بالأقدام. الآن سأطلب منك شيئًا، ورجائي أن تسمعني بجد. لأنني مصممة. أنا سأحصل على رخصتي دون رشوة يا كمال. ولا تدفع رشوة سرًّا من خلف ظهري، ولا تتوسط لي، سأدرك هذا، وأجرح بعمق».

قلت مطرقًا: «حسنٌ».

شربنا كأسي عرق أخريين دون أن نتحدث كثيرًا. كانت الخمارة داخل السوق خاوية قريب المساء. كان الذباب يحط مترددًا ومتململًا فوق الكفتة بالزعتر والكمون. ذهبت إلى أورطا كوي بعد أعوام طويلة من أجل رؤية تلك الخمارة الشعبية لأن ذكراها مهم جدًّا بالنسبة إليّ، ولكنني وجدت أن البناء كله قد هدم، وفتحت مكانه وحوله دكاكين تبيع هدايا للسياح وخرزًا...

عند خروجنا من المطعم قريب المساء كي نركب بالسيارة، أمسكت بذراع فسون.

«هل تعرفين يا جميلتي، هذه أول مرة نتناول فيها الطعام على انفراد في خمارة».

قالت: «نعم». وظهر بريق في عينيها للحظة أسعدني بشكل لا يُصدق. «سأقول لك أمرًا آخر. أعطني المفتاح، سأقود السيارة أنا».

«طبعًا».

تعرقت قليلًا عند منعطفات وطلعات بشيكطاش وضولمة بهتشة، ولكنها أوصلت السيارة إلى أمام جامع فيروز آغا بنجاح على الرغم من كونها شاربة. عند أخذي لها من المكان نفسه بعد ثلاثة أيام من أجل الامتحان، أرادت أن تقود السيارة أيضًا، ولكنني أقنعتها بالتراجع لأن المدينة كانت تعج بالشرطة. أما درسنا، فقد مر بغاية الجمال على الرغم من الجو الحار.

في طريق العودة، قلنا ونحن ننظر إلى مياه البوسفور الهائجة والرياح القوية: «يا ليتنا جلبنا معنا لباس السباحة!».

في المرة التالية، لبست فسون تحت ثوبها المزهر لباس البحر الأزرق الذي أعرضه هنا. في مسبح شاطئ طرابية الذي ذهبنا إليه بعد الدرس، لم تخلع ثوبها إلا قبيل أن تقفز إلى البحر مباشرة. بعد ثمانية أعوام تمكنتُ من إلقاء نظرة خجولة إلى جسم جميلتي. في الوقت نفسه قفزت فسون إلى البحر كأنها تهرب مني. الماء الذي تطاير عندما غاصت في البحر، والرغوة، والضوء الممتع، وزرقة البوسفور الداكنة، ولباس البحر الذي ترتديه شكلت شعورًا، ولوحة في عقلي لا يمكن أن تنسى. بعد أعوام طويلة بحثتُ طويلًا بين الصور القديمة والبطاقات البريدية ولدى أصحاب المجموعات الإسطنبوليين المهمومين عن هذا الشعور واللون السعيد.

بعد فسون مباشرة، أنا أيضًا ألقيتُ بنفسي إلى البحر. ثمة جانب غريب في عقلي يقول لي إن الوحوش والمخلوقات الشريرة ستهاجمها في البحر. علي أن ألحق بها، وأن أنقذها في ظلمات البحر. أذكر أنني سبحت بكل قوتي بهلع الخوف من فقدانها وأنا أطلق صيحات الفرح والسعادة أثناء بحثي عنها في المياه الهائجة، وكدت ذات لحظة أن أختنق. انجرفت فسون في تيار البوسفور، وراحت! في تلك اللحظة أردتُ أن أموت معها، وأن أموت فورًا. فجأة هدأ هياج البوسفور الممازح، ورأيت فسون أمامي. كنا نلهث. ابتسم أحدنا للآخر مثل عاشقين سعيدين. ولكنني كلما حاولت لمسها، وتقبيلها، تعبس مثل فتاة مبدئية وشريفة، وتسبح على ظهرها مبتعدة بموقف بارد. وأنا أتبعها سابحًا بالحركات نفسها. أثناء السباحة أتفرج على حركات ساقيها الجميلتين داخل الماء، واستدارة فخذيها. بعد زمن طويل، شعرت بأننا ابتعدنا كثيرًا.

قلت: «كفى! لا تهربي مني، تبدأ هنا التيارات، ستجرفنا، وتأخذنا، ونموت كلانا».

عندما التفتُّ إلى خلفي، رأيتُ كم ابتعدنا، وخفت. كنا وسط المدينة. ابتعد عنا خليج طرابية، ومطعم الطمأنينة الذي كنا نذهب إليه معًا في زمن

ما، والمطاعم الأخرى، وفندق طرابية، والسيارات والحافلات الصغيرة والحافلات الحمراء على الطريق الساحلي المتلوي، والتلال التي خلفها، وأحياء المخالفات على سفوح بيويك درة، والمدينة كلها.

لم أكن أتفرج على المدينة والبوسفور فقط كأنني أتفرج على لوحة منمنمات كبيرة، بل أتفرج على حياتي التي تركتها خلفي. في بعدي هذا عن المدينة وماضيّ جانب يبدو كأنه خارج من الأحلام. الكينونة وسط المدينة والبوسفور وبعيدًا كل هذا البعد عن الجميع مع فسون شعور يثير القشعريرة كالموت. عندما هزت موجة كبيرة فسون أطلقت صيحة خفيفة، ثم لفت ذراعها حول رقبتي وكتفي من أجل أن تتمسك بي. أصبحت أعرف جيدًا أنني لن أنفصل عنها حتى الموت.

بعد هذه اللمسة ـ يمكن القول إنها عناق أيضًا ـ التي تشبه النار، ابتعدت فسون بذريعة سفينة فحم تقترب. كانت تسبح بشكل جميل جدًّا وسريع، ووجدتُ صعوبة باللحاق بها. عندما صعدنا إلى الشاطئ، ابتعدت عني فسون، وذهبت إلى غرف المشالح. لم نكن مثل عاشقين لا يخجلان من جسميهما. على العكس تمامًا، فقد كنا خجلين صامتين منكمشين لا ينظر أحدنا إلى جسم الآخر مثل اثنين تعارفا عن طريق عائلتيهما من أجل أن يتزوجا.

تعلمت فسون قيادة السيارة بمواظبتها على الدروس، وقيادة السيارة في المدينة أحيانًا. ولكنها لم تنجح أيضًا في الامتحان الذي دخلته في مطلع آب/ أغسطس.

قالت فسون: «رسبت، ولكن لا تهتم، لننس هؤلاء السيئين. هل نذهب إلى البحر؟».

«لنذهب».

ابتعدنا بالسيارة عن مكان الامتحان، وفسون تدخن، وتطلق مزمار السيارة بعنترية مثل كثير من المتقدمين الذين يأتون إلى الامتحان مع

أصدقائهم، ويلتقطون الصور التذكارية كأنهم ذاهبون إلى الجندية، ويعودون بعد فشلهم (عندما ذهبت بعد أعوام طويلة رأيت أن تلك التلال الجرداء المليئة بالزبالة قد غُطيت بضواحٍ سكنية فخمة ذات برك سباحة). تابعنا الدروس في حديقة يلضظ حتى نهاية الصيف. استأجرنا زورقًا من جوار مرسى ببك عدة مرات، وجدفنا، وسبحنا في مكان بعيد عن قناديل البحر وبقع المازوت مقاومين التيار. كان أحدنا يمسك الزورق، ويمسك بيد الآخر لكي لا يجرفنا التيار.

لم نعش عشقنا الذي أزهر بعد ثمانية أعوام بانفعال، بل بحذر كصداقة متعبة. ما عشناه في الأعوام الثمانية، دفع العشق الذي داخلنا إلى مكان عميق. كنا نشعر بوجود العشق حتى حين يكون اهتمامي بها في أدنى مستوياته. ولكنني أرى أن فسون لا تريد أن تقترب أكثر دون زواج، وأقاوم أنا أيضًا رغبتي التي لم تغب للحظة بعناقها، وتقبيلها. بدأت أفكر بأن فقدان صواب اثنين قبل الزواج، وممارستهما الحب بطيش لن يجلب السعادة بعد الزواج، بل الأكثر من هذا ستجلب خيبة أمل وضيق. أصبحت أرى أصدقائي حلمي اللقيط وطيفون ومحمد الذين ما زلت أصادفهم كل فترة، ويذهبون إلى بيوت الدعارة، ويباهون بفسقهم بأنهم دون روح. بعد زواجي من فسون أتخيل أنني سأنسى نزواتي، وأحظى بأصدقائي ومحيطي السابق بسعادة ونضج.

في نهاية الصيف دخلت فسون امتحان القيادة أمام اللجنة نفسها، ورسبت مرة أخرى. علّقت فترة على رؤية الرجال المسبقة حول النساء اللواتي يقدن السيارات في إسطنبول. عندما يُفتح هذا الموضوع، يظهر على وجهها ذلك التعبير الذي ظهر قبل أعوام عندما حدثتني عن الرجال الكبار الذين تحرشوا بها ولمسوها.

بعد درس القيادة، ذهبنا قريب المساء إلى شاطئ السباحة في صارير، فوجدنا فاروق صديق محمد يجلس مع خطيبته جانبًا، ويشربان مياه ملتم

الغازيـة (هـذا يعني أن دعاية نرجس نجحت قليلًا)، فشـعرت للحظة بخجل غريب. لم يكن هذا الخجل بسبب ذهاب فاروق كثيرًا إلى الشاليه في أيلول/سبتمبر ١٩٧٥، وشهادته عن قرب على حياتنا هناك أنا وسيبل، بل لجلوسي مع فسـون وشـربي ملتم دون أن نتكلـم، وعدم ظهور السـعادة علينا. كنا في ذلـك اليـوم صامتين لأنني شـعرت بأنها المـرة الأخيرة التي أذهـب فيها مع فسون إلى البحر. وبالفعل فقد مر في ذلك المساء من فوقنا أول سرب لقالق ليذكرنا بأن الصيف قد انتهى. عندما أغلقت شـواطئ السـباحة بعد أسـبوع، ومع نزول أول مطر، لم أجد دافعًا للذهاب إلى حديقة يلضظ لقيادة السيارة، كما لم تجد فسون دافعًا.

بعد أن رسـبت فسـون ثـلاث مرات أخـرى، نجحت بامتحـان القيادة في مطلع عام ١٩٨٤. سـئموا منها، وفهموا أنها لن تدفع رشـوة. من أجل الاحتفاء برخصة القيادة أخذتها مع العمة نسيبة والسيد طارق إلى مقصف مكسيم في ببك للاستماع لأغنيات مزين سنار القديمة.

٧٤ ـ السيد طارق

سـكرنا جميعًـا عندمـا ذهبنا إلى مكسـيم في ببـك في ذلك المسـاء. بعد صعود مزيّن سنار إلى المنصة، شاركنا جميعًا على الطاولة ببعض الأغنيات. أثناء غنائنا مع اللازمة معًا نتبادل النظر جميعنا، ونبتسم. الآن بعد أعوام طويلة أتخيل أن جوّ السـهرة كان حفل وداع. في الحقيقة أن السـيد طارق يسـتمتع بالسـماع إلى مزين سـنار أكثر من فسـون. ولكنني اعتقدت بأن فسون ستسر من رؤية والدها يشـرب ويغني، ويستمع من مزين سنار أغنيات مثل «لا أحد يشبهك». الجانب الآخر الذي جعل تلك السهرة لا تنسى هو عدم استغراب غياب فريدون. أفكر بسعادة بالوقت الذي قضيته مع فسون ووالديها.

أحيانًـا أدرك مرور الزمن الطويل من هدم بنـاء، ومن تحول طفلة صغيرة

إلى امرأة مرحة ضخمة الثديين، ومن إغلاق دكان، وأهلع. رؤية بوتيك شانزليزيه قد أغلق في تلك الأيام، أشعرتني بالألم ليس لأنني فقدت ذكرياتي فقط، بل لأنني شعرت بتفويت الحياة. كان ثمة قلائد مقانق إيطالية، وصفائح جبن قشقوان، وصلصات سلطة أوربية تدخل البلد بعد أعوام طويلة جدًّا، ومعكرونة، ومشروبات غازية معروضة في الواجهة حيث رأيت حقيبة جيني كولون.

عندما أسمع من والدتي على العشاء الشائعات وأخبار آخر الزيجات والولادات والعائلات في تلك الأيام، فإنها كانت تقلقني على الرغم من استمتاعي بها دائمًا. في أثناء حديث أمي بشكل مبالغ فيه عن مجيء ولد ثانٍ لصديق طفولتي فاروق الفأر، عكرتْ مزاجي فكرة أنني لا أعيش الحياة مع فسون، ولكن والدتي تتحدث، وتتحدث من دون أن تنتبه إلى هذا الأمر.

منذ أن زوجت شازمنت ابنتها إلى ابن عائلة قرة خان أخيرًا، لم تعد تذهب إلى أولو ضاغ كل شباط للتزلج، بل تصطحب ابنتها الصغرى، وتذهب مع عائلة قرة خان شهرًا إلى سويسرا. ابنتها الصغرى وجدت لنفسها هناك في الفندق أميرًا عربيًّا غنيًّا، وعندما كانت شازمنت على وشك أن تنجح بتزويجها له، تبين أن لدى العربي في بلده امرأة، وحتى حرم. سمعت أمي من السيد أسعد جار بيت سعادية أنه قُبض على ابن عائلة خالص ـ أطلقت أمي قهقة خفيفة عندما قالت: «صاحب الذقن الأطول»، وأنا شاركتها ـ مع المدبرة الألمانية ذات يوم شتوي في المصيف. دهشت أمي لعدم سماعي نهائيًّا بأن ابن تاجر التبغ معروف الأصغر الذي كنا نلعب معه في الحديقة بالمجرفة والدلو قد خطفه الإرهابيون، ثم أطلقوه بعد أن دفعت عائلته الفدية. نعم، لقد تم التستر على القضية من دون أن تصل إلى الصحف، ولكن «الجميع» تحدث بها طوال أشهر، لأن العائلة حاولت أن تكون بخيلة ولا تدفع النقود، فكيف لا أعرف بالأمر؟

أشعر بالأسى نتيجة التفكير ما إذا كان وراء سؤال أمي هذا وخز بزياراتي

لعائلة فسون، وأذكر سؤالها عن المكان الذي كنت فيه، ومع من عندما آتي مساء بتبان السباحة الرطب، وتطلب من السيدة فاطمة أيضًا أن تسألني، فأحاول تمرير الموضوع بقولي: «أنا أعمل كثيرًا يا أمي» (مع أن أمي يجب أن تكون على علم بوضع صاطصاط المهلهل)، فأحزن لأنني لم أستطع حتى الآن أن أتكلم ولو بشكل موارب ـ وليس بشكل مباشر ـ عن شغفي بفسون بعد تسعة أعوام، فأطلب من أمي أن تروي لي قصة جديدة مسلية أكثر. روت لي والدتي بتفصيل التفصيل أن صديقة لها أجّرت قصرها الخشبي الممتد عمره إلى ثمانين سنة، وبات من الصعب على العائلة صيانته لتصوير فيلم تاريخي مثلما فعلت السيدة مكرم صديقة السيدة جميلة التي قابلتُها ذات يوم في سينما ماجستيك الصيفية مع فسون وفريدون، ولكن ذلك «القصر الضخم الغالي» احترق نتيجة تماس كهربائي أثناء التصوير، والجميع يقولون إن العائلة جعلتهم يحرقونه عن قصد لأنها تريد إنشاء بناء مكانه، فأدركتُ أن والدتي تعرف مدى انخراطي في الأوساط السينمائية.

لم تكن أمي تروي لي الأخبار المسلية مثل خبر تعرقل قدم وزير الخارجية الأسبق مليك خان بالسجادة في حفل راقص، وموته بعد يومين بنزيف دماغي والذي قرأته في الجرائد لأن هذا النوع من الأخبار يذكّر بسيبل والخطوبة. الأخبار التي لا تريدني أمي أن أسمعها، آخذها من الحلاق بصري الذي في نيشان طاش. يروي لي أن صديق والدي فاخر فصيح وزوجته قد اشتريا بيتًا في بوضروم، وأن صبيح الدب في الحقيقة رجل طيب جدًّا، وأن استثمار النقود بالذهب في هذه الأيام خطأ، لأن أسعاره ستنخفض، وسيكون هناك كثيرٌ من التلاعب بنتائج سباق الخيل في هذا الربيع، وأن السيد طورغاي ما زال يأتي بشكل منتظم إليه كسيد محترم على الرغم من عدم بقاء ولو شعرة واحدة في رأسه، وأنه عرض عليه قبل سنتين أن يكون حلاق الهيلتون، ولكنه رفض لأنه صاحب مبدأ (لم يقل ما هو هذا المبدأ)، ثم يبدأ بطرح الأسئلة عليّ، ويحاول أخذ الكلام مني. أشعر بعصبية أن بصري وزبائنه الأغنياء في نيشان طاش يعرفون شغفي بفسون، فأذهب أحيانًا إلى حلاق والدي القديم

جواد في بيه أوغلو، وأستمع منه لقصص المجرمين (أصبح يطلق عليهم اسم مافيا) والسينمائيين في بيه أوغلو. على سبيل المثال، سمعت منه شائعة علاقة نرجس بالمنتج الشهير مظفر. مصادر الشائعات والأخبار هذه كلها لم تكن تذكر لي شيئًا حول سيبل، وزعيم، وعرس محمد ونورجيهان. علي أن أستنتج من هذا الأمر أن الجميع يعرف حزني وألمي من هذا الموضوع، ولكنني لا أستنتج هذا، وأعتبر انتباه النمامين هذا مثل فتحهم قصص إفلاس جامعي الأموال التي أحبها بشكل مستمر من أجل بث الفرح في نفسي.

كنت أحب أخبار إفلاس جامعي الأموال والذين أطعموهم نقودهم التي كنت أسمعها قبل سنتين من هنا وهناك، وفي مكتبي لأنها تشير إلى غباء أغنياء إسطنبول، وتابعيهم كالعبيد أغنياء أنقرة. كانت أمي تقول: «كان المرحوم والدكم دائمًا يقول: «لا يمكن الوثوق بجامعي الأموال هؤلاء»!»، وتحب هذا الموضوع لأننا لم نطعم نقودًا لجامعي الأموال مثل بقية الأغنياء الأغبياء (كنت أشعر أحيانًا بأن عثمان أطعم جزءًا من النقود التي كسبها من شركاته لجامعي الأموال، ولكنه يخفي هذا عن الجميع). تحزن أمي على إطعام بعض العائلات التي تحبها وما زالت مستمرة بصداقتها (مثلًا عائلة قدري الدلو التي أرادتني أن أتزوج ابنتها الجميلة في زمن ما، والسيد جنيد والسيد فيضان، والسيد جودت وآل باموق) نقودها لجامعي الأموال هؤلاء، ولكنها تتظاهر بالاستغراب (تغمض عينيها، وتهز برأسها إلى اليمين وإلى اليسار بين المزاح والجد كأنها ستدوخ من الاستغراب) من إيداع عائلة لِرظان أموالها كلها «لمن يسمى جامع أموال» ابن محاسب كان يعمل في مصنعهم (كان قبلها حارسًا) لمجرد أن الرجل «لديه مكتب أنيق، ويقدم إعلانات في التلفاز، ويستخدم دفتر شيكات مصرف موثوق به» ولكنه كان يعيش قبل فترة قصيرة في حي مخالفات. ثم تضيف: «لو أودعها لدى كاستللي صديق جماعتك الفنانين»، وتطلق قهقهة. لم أكن أتوقف نهائيًّا عند عبارة «جماعتك الفنانين»، ونستمتع ـ أمي وأنا ـ بالفضول والمرح نفسهما في

كل مرة بالحديث عن مدى خبل هؤلاء «الطبيعيين وعقولهم برءوسهم» ومن بينهم ـ كما يعرف القارئ ـ زعيم.

السيد طارق أيضًا من الذين تسميهم أمي «مخبولين». أودع السيد طارق نقوده لدى كاستيللي الذي مثل في أفلامه الدعائية أصدقاؤنا الممثلون من بلور إلى المشاهير. كنت أعتقد أن نقوده قليلة جدًّا عندما أفلس قبل سنتين، لأن السيد طارق لم يظهر لي نهائيًّا حزنه وألمه.

بعد حصول فسون على رخصة القيادة بشهرين، وعندما أقلني تشتين إلى بيت تشوقور جمعة من أجل العشاء يوم الجمعة في ٩ آذار/ مارس ١٩٨٤، رأيت نوافذ البيت وستائره كلها مفتوحة. كانت المصابيح منارة في الطابقين (مع أن العمة نسيبة تتوتر من إشعال أي مصباح في الأعلى باعتبار هذا إسرافًا، وتقول: «يا بنتي فسون، مصباح غرفة نومكما بقي منارًا»، وتصعد فسون فورًا، وتطفئ المصباح).

صعدت إلى الأعلى وأنا مستعد لرؤية شجار عائلي بين فسون وفريدون. في التلفاز المفتوح، كان صديقنا السيد أكرم يخطب حول الكفار بلباس الصدر الأعظم، وإحدى الجارات العجائز وزوجها ينظران بطرف عينيهما إلى التلفاز دون أن يعرفا ما يفعلانه.

قال الجار الكهربائي إفة: «سيد كمال، توفي السيد طارق، البقية بحياتكم».

صعدت راكضًا، وبدافع غريزي دخلت إلى غرفة فسون، تلك الغرفة الصغيرة التي حلمت لسنوات طويلة برؤيتها، وليس إلى غرفة العمة نسيبة والسيد طارق.

جميلتي منكمشة على سريرها، وتبكي. شدت نفسها حين رأتني، ونهضت. جلستُ بجانبها. فجأة تعانقنا بكل ما أوتينا من قوة. أسندت رأسها إلى ما بين صدري ورقبتي، وبدأت تبكي وهي ترتجف بقوة.

يـا إلهـي ما أعظـم السـعادة بوضعها بيـن ذراعي! شـعرت بعمـق الحياة وجمالها ولا محدوديتها. أسـندت صدرها إلى صدري، ورأسـها إلى كتفي، وبـدا لـي الأمر أنني أعانـق العالم كلـه، ولـم أعانقهـا فقـط. ارتجافها القوي يحزننـي، ويكدرني بعمق، ولكنه يسـعدني كثيرًا أيضًا! كنت أداعب شـعرها بحنان وعناية كأنني أمشـطه. كلما لمسـت يدي جبهتها وبداية منبت شعرها، تبكي فسون بغزارة جديدة وهي ترتجف.

فكرت بموت والدي كي أشـاركها ألمها. ولكنني على الرغم من محبتي الشـديدة لوالدي، فقد كان هناك بيننا تنافس وتوتر. أما فسـون فتستطيع حب والدهـا دون صعوبـة وتعـب، وبعمق، مثل حب الإنسـان للحياة والشـمس والأزقة وبيته. وبدا لي أنها تصبب دموعها على أحوال الدنيا، وشـكل الحياة بقدر ما تصببها على والدها.

همسـتُ في أذنها: «لا تشـغلي بالك يا روحي. من الآن فصاعدًا سيكون كل شيء جميلًا. سيستقيم كل شيء بعد الآن. سنكون سعداء جدًّا».

قالـت: «لـم أعـد أريد أي شـيء!». وبكت بقـوة أكبر. في أثناء شـعوري بارتجافها بين ذراعـي، نظرت طويلًا وبإمعان إلى الأغراض التي في الغرفة، وخزانتهـا، والدرج، والكوميدينة الصغيرة، وكتب السـينما العائدة لفريدون، وكل شيء. كم رغبت بالدخول إلى هذه الغرفة التي تضم كل أغراض فسون وألبستها طوال ثمانية أعوام.

عندما اشـتد نشيج فسون، جاءت العمة نسيبة، وقالت: «آه يا كمال، ماذا سـنفعل الآن؟ كيف أعيش من دونه؟». وجلسـت على حافة السرير، وبدأت تبكي.

أمضيـت الليـل كله فـي بيت تشـوقور جمعـة. أحيانًا أنزل إلى الأسـفل، وأجلس مع المعـارف والجيران القادمين للتعزية. أصعد إلى الأعلى أحيانًا، وأسلي فسون التي تبكي في غرفتها، وأعطيها منديلًا نظيفًا. وأثناء تمديد جثة والدها في الغرفة المجاورة، وتدخين الجيران والمعارف وشربهم الشاي في

الأسفل، تمددنا ـ فسون وأنا ـ لأول مرة في غرفة نوم ونحن متمددون بعد تسعة أعوام. وأسحب إلى داخلي رائحة شعرها وبشرة رقبتها المتعرقة. فيما بعد نزلت إلى الأسفل، وقدمت الشاي للضيوف.

لم يأتِ فريدون إلى البيت، وليس له علم بالوضع. أدرك الآن بعد أعوام طويلة كم كان تصرف الجيران وكأنني زوج فسون إضافة إلى اعتبارهم وجودي طبيعيًّا، تصرفًا لبقًا. تحضير الشاي والقهوة لهؤلاء الناس الذي أعرفهم من ترددي على تشوقور جمعة، وأثناء دخولي إلى البيت، وخروجي منه، وإفراغ منفضات السجائر، وتقديم رقائق العجين التي جُلبت على عجل من المحل، كان يسليني ويسلي العمة نسيبة وفسون. عانقني ذات لحظة في الغرفة الخلفية ثلاثة أشخاص هم النجار اللاظي صاحب الدكان في الطلعة، وابن رحمي أفندي الذي سيتذكره زوار المتحف من يده الاصطناعية، وصديق قديم للسيد طارق يلتقي به، ويلعب معه الورق بعد الظهر، وقالوا لي: «الحي أبقى من الميت»، وأعادوا الجملة عدة مرات. في الحقيقة أنني كنت أشعر بأعماقي برغبة غير محدودة بالحياة، وأنني كنت سعيدًا في تلك الليلة لأنني أقترب من بدء حياة سعيدة على الرغم من حزني على السيد طارق، وهذا ما يخجلني.

عندما أفلس جامع الأموال الذي أودع عنده السيد طارق النقود في حزيران/ يونيو ١٩٨٢، وهرب إلى خارج البلد، بدأ يتردد على الجمعية التي أسسها «المتضررون» من جامعي الأموال (كانت الجرائد تطلق عليهم لقب بنكير زادة). هدف هذه الجمعية استعادة المتقاعدين والموظفين الصغار أموالهم التي أطعموها لجامعي الأموال عن طريق القانون، ولكن هذا لن يحدث. وكما يروي السيد طارق ضاحكًا في بعض السهرات بجو من اللامبالاة ـ كان يقول: «المخبولون المجتمعون في الجمعية!» ـ عن عدم تمكنهم من اتخاذ قرار، ثم دخولهم بجدل فيما بينهم. كان ذلك الجدل يتضمن شجارًا وتدافعًا، ولكزًا، ولكمًا أحيانًا... أحيانًا يرسلون معروضًا كتبوه بألف صعوبة وصعوبة وصراخ إلى وزارة أو على باب مصرف أو

جريـدة لا تهتم بالقضية. في هذه الأثناء يرجـم بعضهـم المصرف بالحجارة، ويصرخون، ويحاولون إيصال همومهم، وأحيانًا يضربون موظف المصرف. بعد أحداث كسر أبواب مراكز جامعي الأموال، ومكاتبهم وبيوتهم، ونهبها ـ على ما يبدو أن السيد طارق كان طرفًا في ذلك الشجار ـ ابتعد عن الجمعية، ولكنه عاد إلى التردد على الجمعية في الصيف الماضي أثناء تصبيبنا العرق ـ فسون وأنا ـ في سبيل رخصة القيادة، وسباحتنا. توتر لأمر ما في الجمعية بعد ظهر أحد الأيام، وعاد إلى البيت شـاعرًا بوخز في صدره، بعد ذلك شـخّص الطبيب القادم إلى البيت خلال ثانية أنه توفي بنوبة قلبية.

كانت فسـون تشـعر بالألم لأن والدها توفي أثناء غيابها عن البيت. يجب أن يكـون السـيد طارق قد تمـدد على السـرير، وانتظر زوجتـه وابنته طويلًا. ذهبت العمة نسـيبة وفسـون إلـى بيت في منطقة موضة مـن أجل إنجاز ثوب مستعجل. علـى الرغم مـن كل مسـاعداتي للعائلـة، أعرف أن العمة نسـيبة تحمـل صندوق عـدة الخياطة ذا الرسـوم، وتذهـب إلى الخياطـة في بعض البيـوت، مثلمـا تذهـب الخادمات. لا أعتبر عمـل العمة نسـيبة مهينًا لي كما يعتبـره بعض الرجال الآخرين، وأحترم عملها بالخياطة إلى الآن على الرغم من عدم حـاجتها. ولكنني كنت أشـعر بالقلق كلما سـمعت أن فسـون ذهبت معها. أحيانًا يسـيطر علي الهمّ متسائلًا عما تفعله جميلتي ووحيدتي في تلك البيـوت الغريبـة، ولكن فسـون تتحدث عن تلـك الأيام التي نـادرًا ما تذهـب فيها، وتذكرها بشكل أندر ـ كما كانت والدتها تذهب إلى والدتي في سعادية قبل أعوام طويلة ـ كما لو أنها تتحدث عن نزهة أو ترويح عن النفس، وتروي شـربها اللبـن الرائب في سـفينة قاضي كـوي، وإلقاء قطع الكعـك للنوارس وجمال البوسـفور بمرح شـديد إلى درجة أنني لا أسـتطيع القول لها إننا بعد الزواج سنعيش بين هؤلاء الأغنياء، ولن يكون جيدًا مقابلتنا أحد الذين كانت تذهب إليهم من أجل الخياطة.

بعـد أن ذهب الجميع، وبعد منتصف الليل بكثير، تمددتُ على الأريكة فـي الغرفـة الخلفية السـفلية، ونمـت. النوم في بيـت واحد معهـا لأول مرة

في حياتي... كانت هذه سعادة عظيمة. قبل النوم سمعت الخشخشة التي أصدرها ليمون من الغرفة الداخلية، ثم سمعت أبواق السفن.

أثناء رفع أذان الفجر، وكثافة أبواق السفن في الخليج، استيقظت. اقترن في حلمي ذهاب فسون بالسفينة من قرة كوي إلى قاضي كوي، مع وفاة السيد طارق.

أحيانًا أسمع بوق الضباب. غطى البيت الضوء الغريب بلون الصدف الخاص بالأيام الضبابية. صعدت الدرج كأنني أتحرك في حلم أبيض. كانت فسون والعمة نسيبة متعانقتين وتنامان على السرير الذي قضت عليه فسون وفريدون أولى لياليهما السعيدة. شعرتُ بأن العمة نسيبة سمعتني. نظرت بانتباه إلى الداخل عبر الباب: فسون نائمة حقيقة، أما العمة نسيبة فهي متظاهرة بالنوم.

دخلتُ إلى الغرفة الأخرى، ونظرتُ للمرة الأولى إلى جثة السيد طارق الممدودة على السرير. كانت عليه السترة التي لبسها عند ذهابه إلى جمعية المتضررين من جامعي الأموال. كان وجهه بمنتهى الشحوب، وتجمع الدم في رقبته من الخلف. كأن البقع والشامات والتجاعيد في وجهه قد زادت فجأة مع موته، وكبرت. هل هذا بسبب خروج روحه، ومغادرتها، أم لأن جثته بدأت بالتفسخ والتغير منذ الآن؟ كان وجود الموت وخوفه أقوى بكثير من حبي للسيد طارق. أريد الآن أن أهرب من الموت، وليس أن أضع نفسي مكان السيد طارق، وأفهمه.

أحببت السيد طارق لأنه والد فسون، وجلسنا معًا لأعوام طويلة على المائدة نفسها، وشربنا عرقًا، وشاهدنا التلفاز. ولكنني لم أحبه تمامًا في أي وقت لأنه لم يكن محبًّا مخلصًا لي من كل قلبه في أي وقت. لم يكن أحدنا يحب الآخر بكل معنى الكلمة، ولكننا سايرنا بعضنا بعضًا بشكل جيد.

فور تفكري بهذا، فهمتُ أن السيد طارق منذ البداية، مثله مثل العمة نسيبة يعرف عشقي لفسون. عليّ أن أقول اعترفت، وليس فهمت. وهناك احتمال

كبيـر معرفته منذ الأشـهر الأولى أننـي ضاجعت ابنته وهي في الثامنة عشـرة دون تحمـل مسـئولية. بسـببي زوّج ابنته لصهر طفـران وتافه، ومـن المؤكد أنـه يكرهني! علـى الرغم من هذا لم يبـد قط أنه يكرهنـي. أو أنني لم أرد أن أرى. كرهني، وسـامحني. تصرفنـا مثل اللصوص والمجرميـن الذين يبنون صداقاتهم على عدم رؤية تقصيرهم وسفالاتهم. وهذا ما جعل علاقتي بالسيد طارق بعد عدة سنوات علاقة شركاء بالذنب أكثر من ضيف ومضيف.

أثناء نظري إلى وجه السيد طارق المتجمد، ثمة ما ينبع من أعماق روحي، ويذكرني بتعبير الدهشة والخوف الذي تجمد على وجه والدي عند مواجهته المـوت. أما السـيد طـارق، فلم يكن على وجهـه تعبير الدهشـة لأنه على ما يبدو عاش الأزمة القلبية وقتًا طويلًا نسبيًّا، وصارع الموت قليلًا. طرف شفته التوى قليلًا نحو الأسفل، وطرفها الآخر منفرج قليلًا كأنه يُكشر مبتسمًا. في الطرف المبتسـم من شـفتيه يكون عادة هناك سيجارة وأمامه كأس عرق على المائـدة. ولكن ضباب الفراغ والموت كان مخيمًا على الغرفة، وليسـت قوة ما عشناه معًا.

الضـوء الأبيـض الداخل إلـى الغرفة كان يأتـي على الأغلب مـن النافذة اليسـرى للمشـربية. عندما نظرت إلـى الخارج، رأيت الزقـاق الضيق، وكان قفرًا. لأن المشـربية بارزة إلى وسـط الزقاق، شـعرتُ بأنني في الفراغ وسـط الزقـاق. بصعوبـة تُـرى زاوية تقاطع الزقاق مع شـارع بوغاظ كسـان بسـبب الضبـاب. الحـي كلـه ينام وسـط الضبـاب، وهناك قطٌّ يسـير ببـطء وثقة في الزقاق.

فوق رأس السـيد طارق صورة مؤطرة له مع طلابه الذين مثلوا مسـرحية في صالة مسـرح قـارص الآيل من عهد الروس عندما كان مدرسًـا في ثانوية قـارص. ذكرني مـا على الكوميدينـة ودرجها المفتوح نصفه بوالدي بشـكل عجيب. كان ينبعث من الدرج مزيج رائحة لذيذة لغبار ودواء وشراب سعال وورق جريـدة مصفـر. رأيت فوق الكوميدينة طقم أسـنان فـي كأس، وكتابًا

لرشيد أكرم قوش الذي يحبه السيد طارق. كان في داخل الدرج زجاجات دواء قديمة، ومشارب سجائر، وبرقيات، وتقارير أطباء مطوية، وأخبار جامعي الأموال، وفواتير الغاز الطبيعي والكهرباء، وعلب دواء قديمة، وقطع نقود معدنية اختفت من التداول.

ذهبتُ صباحًا إلى نيشان طاش قبل تجمع الزحام في بيت عائلة كسكين. استيقظت أمي، وهي تفطر خبزًا محمرًا، وبيضًا، ومعقودًا، وزيتونًا أسودَ جلبته لها فاطمة في صينية، ووضعتها على مخدة في حضنها. تحسّن مزاجها كثيرًا، وفرحت عندما رأتني. حين علمت بوفاة السيد طارق، تعكر مزاجها، وحتى حزنت. فهمتُ من وجهها وحالتها أنها تشعر بقلبها بألم نسيبة. ولكنني شعرت بوجود شعور أعمق من الحزن. كانت غاضبة.

قلت: «أنا ذاهب إلى هناك. ليقلك تشتين إلى الجنازة».

«أنا لن أذهب إلى الجنازة يا بني».

«لماذا؟».

بداية قالت ذريعتين عبثيتين: «لماذا ليس هناك إعلان وفاة في الجرائد؟». و«لماذا لا يشيعونه من جامع تشوبكية، هذا خطأ». الجميع كانوا يشيعون جنازاتهم من جامع تشوبكية. من جهة أخرى، فقد رأيت أنها حزنت من أجل نسيبة التي خاطت معها أثوابًا وهما يتضاحكان ويتبادلان الحديث، وتحبها. ولكن هناك أمرًا آخر أعمق وأكثر حزمًا. غضبت عندما رأت أنني مصر، وقلق.

قالت: «هل تعرف لماذا لن أذهب إلى الجنازة؟ لأنني إذا ذهبت، ستتزوج أنت تلك الفتاة».

«من أين تخترعين هذا؟ إنها متزوجة».

«أعرف. سأجرح قلب نسيبة. يا بني، أنا منتبهة إلى كل شيء منذ أعوام. إذا ألححت على الزواج منها، فلن يكون هذا جيدًا أمام المحيط».

«أمي، ما أهمية ما يقوله المحيط؟».

قالت أمي: «احذر أن تسيء فهمي، أرجوك». وضعت الخبز المقمر وسكين الزبدة على حافة الصينية بجد، ونظرت إلي عيني بإمعان: «من المؤكد أن كلام الآخرين في النهاية لا أهمية له. المهم هو مدى حقيقة مشاعرنا، وصوابها. ليس لدي أي اعتراض على هذا يا بني. أحببت امرأة... وهي جميلة. ولكن هل أحبتك هي؟ ماذا حصل في ثمانية أعوام؟ لماذا لم تترك زوجها حتى الآن؟».

ألقيت بخجل عبارة: «ستتركه بعد الآن، أعرف هذا».

«دعك من هذا، المرحوم والدك أيضًا تعلق بمسكينة بعمر ابنته، وشغف بها... وحتى إنه اشترى لها بيوتًا. ولكنه لم يبهدل نفسه مثلك. لم يكن حتى أقرب أصدقائه يعرف بهذا». التفتت نحو السيدة فاطمة التي دخلت من الباب: «فاطمة، لدينا حديث قصير». خرجت فاطمة فورًا، وأغلقت خلفها الباب. قالت أمي: «كان المرحوم والدك قويًّا وذكيًّا وراقيًا، ولكن لديه بعض النزوات ونقط الضعف. عندما طلبت مفتاح شقة بناء مرحمة قبل أعوام طويلة أعطيتك إياه، ولكنني حذرتك لأنك ورثت ضعف والدك. قلت: «رحماك، انتبه». أما قلت؟ ابني، لم تسمع مني نهائيًّا. حسنٌ، ستقول إنه ذنبك، ما ذنب نسيبة؟ لا أسامح نسيبة لأنها عرضتك لهذا العذاب طوال عشرة أعوام».

لم أصحح قائلًا بأنها ثمانية أعوام، وليست عشرة. قلت: «حسنٌ يا أمي، أنا أقول لهم شيئًا ما».

«ابني، لا يمكنك أن تسعد مع تلك الفتاة. لو أن هذا ممكن، لسعدت حتى الآن. أنا أعارض ذهابك إلى تلك الجنازة أيضًا».

لم تؤثر بعقلي عبارات أمي بأنني محقتُ حياتي. على العكس تمامًا، كانت بشارة لي بسعادة قريبة كما كنت أشعر في تلك الأيام. لهذا السبب لم أكن غاضبًا منها، حتى إنني كنت أبتسم وأنا أستمع لها، وأريد أن أعود إلى جانب فسون بأقرب فرصة ممكنة.

غضبت والدتي عندما رأت أنني لم أتأثر. قالت بجو من اليقين: «ليس هناك عشق في البلد الذي لا تجلس فيه المرأة بجانب الرجل، ولا يلتقيان، ولا يتكلمان. هل تعرف السبب؟ لأن الرجال لحظة رؤيته امرأة مناسبة، يقفزون عليها مثل الحيوانات الجائعة دون النظر ما إن كانت جميلة أو قبيحة، طيبة أم سيئة. ثم يعتقدون أن هذا عشق. هل يمكن أن يكون هناك عشق في مكان كهذا؟ احذر من خداع نفسك».

نجحت أمي بإغضابي أخيرًا. قلت: «حسنٌ يا أمي. أنا ذاهب».

قالت: «النساء لا يذهبن إلى صلاة جنازة تقام في جامع حي». وكأن هذه هي الذريعة الأساسية.

بعد ساعتين، والصلاة في جامع فيروز آغا، وتفرق الناس كان ثمة نساء بين الذين يعانقون العمة نسيبة، ويعزونها، ولكنهن لسن كثيرات. أذكر أنني رأيت السيدة شيناي صاحبة بوتيك شانزيلزيه المغلق، وجيدا. عندما رأيتهما، كان فريدون بجواري، ووضع نظارة سوداء مستلفتة للانتباه.

ذهبتُ في الأيام التالية كل مساء إلى تشوقور جمعة باكرًا. ولكنني كنت أشعر بقلق عميق في البيت وعلى المائدة. كأن جدية وضعي مع فسون، وتصنعه قد ظهر إلى العلن. كان السيد طارق أكثر من يتجاهل ما يحدث، وهو أفضل من كان «يتجاهل». الآن في غيابه لا نستطيع أن نتصرف بشكل طبيعي، ولا نعود إلى موقف شبه الصادق وشبه المزور الذي كنا نتخذه على العشاء طوال ثمانية أعوام.

٧٥ ـ محل إنجي للمعجنات

بعد أن ثرثرنا ـ أمي وأنا ـ صباح يوم ماطر في مطلع نسيان، ذهبت إلى صاطصاط قريب الظهر. اتصلت العمة نسيبة أثناء شربي قهوتي، وقراءة الجريدة. طلبت مني ألا أذهب إليهم فترة، وأن هناك شائعات سيئة تدور في

الحي، وقالت إنها لا تستطيع أن تشرح كل شيء على الهاتف الآن، ولكن لديها أخبارًا جيدة بالنسبة إليّ. كانت سكرتيرتي السيدة زينب تتنصت علينا من الغرفة الجانبية، فلم أرغب بأن أبدي للعمة نسيبة فضولي، لذلك لم أسألها عما حدث.

في نهاية يومين انتظرتهما على أحر من الجمر، جاءت العمة نسيبة في ساعة الاتصال نفسها من الصباح إلى صاطصاط. على الرغم من قضائي كل هذا الوقت معها طوال ثمانية أعوام فقد استهجنت وجودها في المكتب كثيرًا إلى درجة أنني نظرت إليها نظرة خاوية كأنني أنظر إلى زبونة جاءت من أحد الأحياء المتطرفة، أو من الريف لتبديل منتج لصاطصاط تبين أن فيه عطلا، أو أنها جاءت لتحصل على تقويم أو منفضة سجائر من التي توزعها الشركة، وصعدت إلى الأعلى بالخطأ.

أدركت السيدة زينب ـ إما من حالتي، وإما لأنها تعرف أساسًا أمورًا ما ـ أن القادمة مهمة جدًّا بالنسبة إليّ. عندما سألت كيف نشرب النسكافيه، فقالت العمة نسيبة: «آخذ قهوة تركية إن كانت موجودة يا بنتي».

أغلقتُ الباب الذي بيننا. وجلست مقابل العمة نسيبة أمام الطاولة، ونظرت إلى عينيها مباشرة.

قالت بجو يوحي بأن الحياة بسيطة جدًّا في الحقيقة، أكثر مما توحي بأنها تعطيني بشارة: «حُلَّ كل شيء. فسون وفريدون سينفصلان. إذا تركت له ـ لفريدون ـ ليمون للسينما، سينهي الأمر بود. وهذا ما تريده فسون أيضًا. ولكنكما يجب أن تتكلما بداية».

«أنا وفريدون؟».

«لا، أنت وفسون».

بعد أن رأت فرحي على وجهي، أشعلت سيجارتها، وألقت ساقًا على ساق على أريكتها، وبدأت تروي القصة بمتعة ولكن دون إطالة.

جـاء فريـدون قبل يوميـن إلى البيت سـكران. انفصل عـن نرجس. يريد أن يعود إلى فسـون والبيت، ولكن فسـون بالطبع لم تقبل. نشب شجار، وللأسف أن الجيران سمعوا الصراخ، وخجلا كثيرًا. لهذا السبب طلبت منـي العمة نسـيبة ألا أذهـب إليهم... فيما بعـد اتصل فريـدون، والتقى بالعمة نسيبة في بيه أوغلو. وقرر الزوجان الانفصال.

خيّم صمت. قالت العمة نسيبة: «لم يعد بيتنا بيت فريدون».

اعتقـدت أن العالـم كله التف بالصمت، وليسـت الحافـلات التي تمر من أمام صاطصاط. عندما رأتني أسـتمع إليها مسـحورًا وبيدي السيجارة، أعادت العمة نسـيبة القصة مضيفة شـيئًا من التفاصيل. قالت: «لم أغضب مـن ذلك الولد في أي وقت». قالت هذه الجملة الأخيرة بنبرة الواثقة التي توقعـت النتيجـة منـذ البداية. ثم قالـت: «نعم، طيـب القلب جـدًّا، ولكنه ضعيـف جدًّا... أي أم تريد أن تعطي ابنتها لصهر كهذا..». صمتت لحظة. وبالطبع كنت أنتظر أن تلحقها بعبارة «طبعًا اضطررنا»، ولكنها قالت ما هو مختلف تمامًا.

«عشـت شيئًا من هذا بنفسـي. صعب جدًّا أن تكون المرأة جميلة في هذا البلـد، وصعب أن تكـون الفتاة جميلـة.. أنت تعرف أيضًا الرجـال يا كمال. يسـيئون للمـرأة الجميلـة التـي لا يسـتطيعون الحصـول عليها، وقـد حافظ فريدون على فسون من هذه المساوئ».

فكرت للحظة ما إن كنت إحدى هذه المساوئ.

بعدئذ قلت: «طبعًا، يجب ألا يستمر الأمر كل هذا».

كنـت صامتًـا بمزيج مـن الغرابة والهـدوء وكأنني ألاحـظ أول مرة غرابة شكل حياتي.

قلت فيما بعد: «طبعًا، ليمون للسينما من حق فريدون! أنا أكلمه. هل هو غاضب مني؟».

قالت العمة نسيبة: «لا» وقطبت حاجبيها. «ولكن فسون تريد أن تتكلم معك بشكل جاد. طبعًا هناك أشياء كثيرة في قلبها. ستتكلمان».

قررنا هناك فورًا أن ألتقي بفسون بعد ثلاثة أيام في محل إنجي للمعجنات في بيه أوغلو. ودون أن تطيل العمة نسيبة بالكلام، ذهبت كأنها قلقة من هذا الوسط الغريب عنها، ولكنها لم تخفِ سعادتها كإنسانة طيبة.

عندما خرجتُ باتجاه بيه أوغلو يوم الاثنين في ٩ نيسان/ إبريل ١٩٨٤ من أجل لقاء فسون، كنت سعيدًا ومنفعلًا مثل فتى يذهب للقاء طالبة ثانوية. لم أستطع النوم جيدًا في الليل من التململ. وصلتُ إلى الظهر بصعوبة في صاطصاط، وطلبتُ من تشتين أن يقلني إلى تقسيم باكرًا. كانت ساحة تقسيم مشمسة، ولكن برودة شارع الاستقلال ورائحة الرطوبة والغبار في مداخل السينمات والأسواق حسنت حالتي. الذكريات وانتظار مستقبل سعيد يدوخني، وأتفاءل مع الزحام الذي يريد أن يأكل شيئًا جيدًا، ويشاهد فيلمًا.

دخلت إلى محلات فاكّو وبيمن ومحل أو محلين آخرين من أجل اختيار هدية لفسون، ولكنني لم أستطع أن أقرر ما أشتريه. في أثناء سيري باتجاه النفق من أجل تهدئة أعصابي، رأيت فسون أمام بناء المصري قبل موعد لقائنا بنصف ساعة. ارتدت ثوبًا أبيض ربيعيًّا مبهجًا عليه نقط كبيرة، وضعت نظارة سوداء مثيرة وقرطي والدي. لم تنتبه إلي لأنها كانت تنظر إلى واجهة إحدى المحلات.

بدأتُ الحديث قائلًا: «أي مصادفة هذه؟ أليس كذلك؟».

«آآ.. مرحبا كمال! كيف حالك؟».

قلت: «يوم جميل جدًّا، هربت من العمل». كأنه ليس لدينا موعد بعد نصف ساعة، والتقينا بمحض المصادفة. «هل نسير معًا؟».

قالت فسون: «يجب أن أجد لأمي أزرارًا أولًا. إنها تنجز ثوبًا مستعجلًا

جدًّا، لأن أصحابه ألحوا عليها، وبعد لقائنا سأعود إلى البيت لأساعدها. هل نبحث عن أزرار خشبية في سوق آينلي (ذو المرآة)؟».

لم نعرج على دكاكين سوق آينلي فقط، بل على كثير من الدكاكين في أسواق أخرى. ما أجمل الفرجة على فسون أثناء حديثها مع الباعة، ونظرها إلى مختلف ألوان الأزرار، وطرحها الأسئلة، ومحاولتها توليف مجموعة من الأزرار القديمة.

استقرت على مجموعة قديمة، أرتني إياها. «ما رأيك بهذه؟».

«جميلة».

«حسنٌ».

دفعت ثمن الأزرار التي وجدتها بعد تسعة أشهر في خزانتها ولم تفك ورقتها.

قلت: «هيا، تعالي لنمشي قليلًا. منذ ثمانية أشهر وأنا أتخيل أن ألتقي بك في بيه أوغلو، ونسير معًا.

«بحق؟».

«بحق..».

سرنا قليلًا من دون أن نتكلم نهائيًّا. أحيانًا كنت أنظر إلى الواجهات مثلها. ولكن عينيَّ لم تكونا على ما هو معروض في الواجهات، بل على جمالها المنعكس على الزجاج. لم يكن الرجال فقط ينظرون إليها بدقة، بل النساء أيضًا، وكانت فسون مسرورة من هذا.

قلت: «لنجلس في مكان، ونأكل كعكًا محلى إذا أردت».

أطلقت فسون صيحة فرح دون أن تجيب، وعانقت امرأة تخرج من وسط الزحام. كانت جيدا، ومعها ابناها أحدهما في الثامنة أو التاسعة من عمره، والثاني أصغر منه. أثناء حديثهما معًا، كان الطفلان واسعي العينين كعيني

جيدا والحيويان وصحيحي البدن ببنطاليهما القصيرين، وجواربهما البيضاء يرمقانني بطرف أعينهما.

قالت جيدا: «ما أجمل رؤيتكما معًا!».

قالت فسون: «التقينا الآن..».

قالت جيدا: «كل منكما يليق بالآخر». تحدثا فيما بينهما بصوت خفيض.

قال الولد الكبير: «ماما، مللت، هيا لنذهب».

تذكرتُ أن هذا الولد عندما كان في بطن جيدا كنت أجلس معها في حديقة طاشلق وأنا أنظر إلى ضولمة بهتشة ونحن نتكلم بآلام عشقي. ولكن هذا لم يفرحني ولم يحزني.

بعد ذهاب جيدا، أبطأنا السير أمام سينما سراي. كان فيلم «لحن يحمل بلاء» من بطولة نرجس يُعرض فيها. إذا كان ما كتبته الجرائد صحيحًا فإن نرجس كسرت رقمًا قياسيا بلعبها بطولة سبعة عشر فيلما ورواية مصورة في اثني عشر شهرًا. تطلق صفحات المنوعات كذبة أن عروضًا أتتها من هوليود، وتنفخ بالكذب أكثر بتصويرها تحمل كتاب مدخل لونغمان على أنها تتلقى دروسًا باللغة الإنكليزية، وأنها ستبذل أقصى ما بوسعها من أجل تمثيل تركيا أفضل تمثيل. أثناء تدقيق فسون صور المدخل، رأت أنني أنظر إلى تعبير وجهها بدقة.

قلت: «هيا لنذهب يا روحي».

قالت بحكمة: «لا تشغل بالك، أنا لا أغار من نرجس».

سرنا ونحن ننظر إلى الواجهات دون أن نتكلم.

قلت: «تليق بك النظارة السوداء كثيرًا. هل ندخل لتناول بروفيتوال؟».

كنا أمام محل إنجي للمعجنات في الوقت الذي حددته أمها بالضبط.

دخلنا دون توقف، كانت هناك طاولة فارغة في الخلف كما تخيلت طوال ثلاثة أيام. جلسنا، وطلبنا بروفيتوال المشهور به المحل».

قالت فسون: «لا أضع النظارة لكي تليق بي. عندما أتذكر أبي، تدمع عيناي أحيانًا. لا أريد أن يراني أحد. فهمت أنني لا أغار من نرجس، أليس كذلك؟».

«فهمت».

تابعت قائلة: «ولكنني أقدرها. صممت على شيء، وحزمت أمرها كبطلات الأفلام الأمريكية، ونجحت. أنا لا أحزن لأنني لم أصبح ممثلة سينمائية مثل نرجس، بل لأنني لا أتمسك بالحياة بإصرار مثلها، وأدين نفسي بهذا».

«أنا أصر منذ تسعة أعوام، ولكن الإصرار لا يحقق كل شيء».

أجابت بأعصاب باردة: «ممكن. تحدثت مع أمي. لنتحدث نحن الآن».

أخرجت سيجارتها بحركة حازمة. وأثناء إشعالي سيجارتها بقداحتي، نظرت إلى عينيها، وعبرت لها هامسًا لكي لا يسمعنا أحد في محل المعجنات الصغير عن حبي الكبير لها، وأخبرتها مرة أخرى بأن الأيام السيئة قد انتهت، وأن أمامنا سعادة كبرى على الرغم من الوقت الذي أضعناه.

قالت بانتباه وجو من التوازن: «وأنا أيضًا أفكر على هذا النحو». شعرت من خلال حركاتها المتوترة وتعبير وجهها الذي لا يبدو عليه أي حالة طبيعية بأن عواصف تهب في داخلها، ولكنها تستخدم قوتها كلها من أجل كبتها. أحبها أكثر لأنها تستخدم إرادتها بحزم من أجل أن يكون كل شيء على ما يرام، وأخاف من قوة العواصف التي في داخلها.

قالت: «بعد انفصالي بشكل رسمي عن فريدون أريد أن ألتقي بكل أصدقائك وأفراد عائلتك، وأتحدث معهم». وبأداء الطالبة المتفوقة على الصف التي تشرح ما ستكون عليه في المستقبل: «لستُ مستعجلة.

بَالتدريـج... بعـد انفصالي عن فريدون، بالطبع يجـب أن تأتي والدتك إلينا، وتطلبنـي. والدتـك ووالدتـي تتفاهمان بشـكل جيـد. ولكن بدايـة يجب أن تتصل والدتك بوالدتي، وتراضيها لعدم مجيئها إلى جنازة والدي».

«كانت متعبة جدًّا».

«طبعًا، أعرف».

صمتنـا لحظـة، وبدأنـا نتنـاول البروفيتـوال. نظـرت إلـى فمهـا المليء بالشيكولاتة والكريمة بحب أكثر من نظرة الشهوة.

«أريـدك أن تؤمـن بهـذا، وتتصـرف على أساسـه. لـم يكن بينـي وبين فريـدون علاقـة زوج وزوجة طوال فترة زواجنـا. لا بد لك أن تؤمن بهذا! بهـذا المعنى، أنا بكـر. لن أكون إلا معك فقط في الحيـاة. لا ضرورة لأن نتحدث لأحد عن الشـهرين (في الحقيقة شـهر ونصف الشـهر إلا يومين أعزائي القراء) اللذين قضيناهما معًا قبل تسع سنوات. كأننا نتعرف حديثًا. أي أنني تزوجت أحدهم كما في الأفلام، ولكنني ما زلت بكرًا».

قالـت الجملتين الأخيرتين وهي تبتسـم ابتسـامة خفيفـة، ولكنني قطبت حاجبي، وقلت: «مفهوم!» لأنني رأيت جدها بما تطلبه.

قالت بتعبير متفهم: «هذا ما يسعدنا أكثر. ولدي طلب آخر. وهذه فكرتك، وليسـت فكرتي. أريد أن نخرج كلنا معًا برحلة إلى أوربا بالسـيارة. ستذهـب والدتي معي أيضًا إلى باريس. نذهب إلى المتاحف، ونرى اللوحات. وأريد أن أشتري جهاز بيتنا من هناك قبل زواجنا».

ابتسـمت بشـكل خفيف لكلمة «بيتنا». لـم يكن صوت فسـون يحمل نبرة الأمر، بل على العكس تمامًا، فهي تتحدث مبتسـمة بشـكل خفيف كقائد لبق يتلو مطالبه المحقة بعد حرب طويلة انتهت بنصره. فيما بعد، قطبت حاجبيها بجـد وهـي تقول: «ليكـن العرس كبيـرًا وجميلًا فـي الهيلتون مثـل الجميع! سـيكون كل شـيء علـى مـا يـرام، مرتبًا ومنظمًـا». قالت هـذا بأداء خـاوٍ من

المشاعر كأنها تطلب عرسًا جيدًا فقط، وليس لديها أي ذكرى سيئة أو جيدة من خطوبتي في الهيلتون قبل تسعة أعوام.

«أنا أيضًا أريد هذا».

صمتنا قليلًا.

طوال ثلاثين عامًا لم يتغير محل إنجي للمعجنات الصغير الذي كان محطة مهمة من نزهاتنا ـ أمي وأنا ـ في بيه أوغلو عندما كنت طفلًا. ولكنه كان مزدحمًا أكثر، ونجد صعوبة بالحديث.

عندما خيم صمت ساحر للحظة على المحل قلت لفسون هامسًا إنني أحبها كثيرًا، وسأعمل كل ما تريده، وليس لي رغبة في هذه الدنيا غير أن أعيش معها ما تبقى من حياتي.

قالت بجو طفولي كذاك الذي كان عند دراستها الرياضيات: «بحق؟».

كانت حازمة وواثقة بعبارتها هذه إلى درجة أنها ضحكت أيضًا. أشعلت سيجارة بحركة دقيقة، وعددت طلباتها الأخرى. لن يكون لدي أي سر أخفيه عنها، وسأبوح لها بكل أسراري، وسأجيب عن كل سؤال تسألني إياه عن ماضيّ بصدق.

أحفر في ذاكرتي مع هذه الكلمات كل ما أراه: تعبير وجه فسون الحازم والحاد، آلة المثلجات القديمة في محل المعجنات، حاجبي صورة أتاتورك المؤطرة المقطبين مثل حاجبي فسون بالضبط. قررنا عمل الخطوبة بين أفراد العائلة قبل الذهاب إلى باريس. وتحدثنا باحترام عن فريدون.

وتحدثنا حول حقيقة عدم عمل تقارب جنسي قبل زواجنا مرة أخرى على النحو التالي:

«لا تضغط علي، ممكن؟ أصلًا لن تحصل على نتيجة».

قلت: «أعرف. في الحقيقة أنني أريد أن أتزوجك وفق تقاليد الخاطبة».

قالت بجو الواثقة من نفسها: «يعتبر الأمر هكذا أصلًا!».

قالت بأن مجيئي إليهم كل مساء (كل مساء!) سيفهم خطأ في الحي بسبب عدم وجود رجل في البيت.

قالت فيما بعد: «بالطبع أن الحي ذريعة... بغياب والدي لا يكون هناك حديث ممتع كما كان سابقًا. وأنا أحزن كثيرًا».

اعتقدت للحظة أنها ستبكي، ولكنها ضبطت نفسها. لم تكن أبواب محل المعجنات ذات النوابض التي تفتح بدفعها تغلق بسبب الزحام الذي في الداخل. ملأ المكان جمع من طلاب الثانوية الصاخبين بستراتهم الكحلية وربطات أعناقهم الرفيعة الفوضوية. كانوا يتضاحكون ويتدافعون. نهضنا دون إطالة الأمر. رافقت فسون مستمتعًا بالمشي معها وسط زحام بيه أوغلو إلى بداية طلعة تشوقور جمعة دون أن نتكلم.

٧٦ ـ سينمات بيه أوغلو

نجحنا بالبقاء صادقين لروح حديثنا في محل إنجي للمعجنات. صديقي في الجندية البعيد تمامًا عن أوساط نيشان طاش، ويعيش في الفاتح صار محاميًا يمثل فسون. كان الأمر سهلًا أساسًا لأن الزوجين قررا الانفصال بالتراضي. قالت لي فسون وهي تضحك بأن فريدون كان سيستشيرني من أجل إيجاد محام. لم أعد أستطيع الذهاب إلى تشوقور جمعة ورؤيتها، ولكننا نلتقي مرة كل يومين في بيه أوغلو، ونذهب معًا إلى السينما.

أحببت برودة سينمات بيه أوغلو المنعشة في طفولتي أيضًا عندما ترتفع حرارة الشارع في أشهر الربيع. ألتقي بفسون في غلاطة سراي، ونختار سينما من استعراض الملصقات، ونقطع تذكرتين، وندخل إلى السينما المظلمة والخاوية والمنعشة، ونجلس في مكان خلفي بعيد عن الضوء المنعكس من الستارة، ويمسك كل منا بيد الآخر، ونشاهد الفيلم المعروض على الشاشة براحة من لديه وقت لا ينتهي.

في أيام مطلع الصيف التي تعرض السينمات فيها فيلمين أو ثلاثة بتذكرة واحدة، رفعت بنطالي، وجلست. وعندما وضعت الجريدة أو المجلة التي بيدي على المقعد الفارغ بجواري في الظلام، وتأخرت يدي بلقاء يد فسون، والإمساك بها، صعدت يد فسون الجميلة بتململ إلى حضني كعصفور، وطارت فوق بطني كأنها تقول: «أين أنت؟»، وفي الوقت نفسه تحركت يدي بسرعة نابعة من روحي، وعانقتها بشوق.

في سينمات بيه أوغلو التي تعرض فيلمين (إملك، فيتاش، أطلس) وحتى ثلاثة أفلام (رؤيا، ألقطار، لالة) تقدم الفيلم دون استراحة وسطه كما يحدث في الشتاء عندما تعرض فيلمًا واحدًا، ولا نستطيع رؤية الزحام الذي يشاهد معنا الفيلم إلا عندما تنار الأضواء بين الفيلمين. في تلك الاستراحات كنا نستعرض الرجال الوحيدين المنزلقين في مقاعدهم، والمنكمشين، والمرتخين على المساند حاملين الجرائد المجعلكة يرتدون ألبسة مجعلكة، والمسنين الذين غطوا بالنوم في إحدى الزوايا، والمشاهدين الحالمين الذين يجدون صعوبة بالانتقال من عالم الفيلم الحلمي إلى عالم السينما الخفيض الإضاءة والمفعم برائحة الغبار في الصالة الكبيرة المنارة بأضواء خافتة وتفوح منها رائحة العفن، ونتحدث ـ فسون وأنا ـ همسًا حول آخر التطورات، وأموز متفرقة (لم نكن نمسك بأيدي بعضنا بعضًا في الاستراحات). في استراحة فيلم كهذه، قالت لي فسون همسًا في ردهة سينما سراي ما كنت أنتظر حدوثه منذ ثمانية أعوام وهو أنها انفصلت رسميًّا عن زوجها.

قالت: «أخذ المحامي ورقة القرار. أصبحت مطلقة بشكل رسمي».

حُفرت مشاهد مسرحِ سينما سراي التي تساقط دهان سقفها المذهب وفقدت صالتها الخفيضة الأضواء فخامتها السابقة، وستائِرها، ومشاهديها الغافين على مقاعدها في ذهني لحظتئذ بحيث لا تمحى إلى نهاية حياتي. كانت شرفات سينمات أطلس وسراي مثلها مثل الأماكن الظليلة في حديقة يلضظ يستخدمها من لا يجد مكانًا لتبادل القبل مع الفتاة التي معه حتى قبل

عشرة أعوام. فسون لا تسمح بتقبيلها في الشرفة، ولكنها لا تعارض وضع يدي على فخذها.

كان لقائي الأخير مع فريدون جيدًا، ولكنه بقي ذكرى سيئة على عكس ما أملته وتوقعته. زلزلني ادعاء فسون في محل إنجي للمعجنات أنها لم تمارس معه الحب، وطلبها مني أن أؤمن بهذا. لأنني مثل كثير من الرجال العاشقين لنساء متزوجات أؤمن في زاوية من عقلي بهذا. بفضل هذا الإيمان الذي يشكل نقطة رئيسة سرية من قصتنا استطاع عشقي لفسون أن يستمر كل هذه المدة الطويلة.

لو تمكنت من التفكير بوضوح وقوة أن فسون وفريدون يعيشان حياة جنسية سعيدة كزوجين (جربت هذا مرة أو اثنتين، وشعرت بألم شديد، لذلك لم أجربه مرة أخرى)، لما استمر عشقي لفسون مدة طويلة. عندما قالت لي فسون ما آمنتُ به على مدى أعوام خادعًا نفسي بتحد، وطلبت مني أن أؤمن به، فكرت فورًا بأن هذا الأمر غير صحيح، وحتى شعرت بأنني خدعت نفسي. ولكنني أستطيع تقبل هذه الحقيقة لأن فريدون قد تركها أساسًا اعتبارًا من السنة السادسة. وفور سماعي هذا شعرت بغضب وغيرة من فريدون لا تقاوم، فأردت أن أهينه. وعدم شعوري بهذا الغضب منه على مدى ثمانية أعوام، تم بفضل عدم اصطدامنا نهائيًّا طوال هذه الفترة. أفهم جيدًا الآن بعد ثمانية أعوام أن السبب الذي جعل فريدون يتحملني، وخصوصا في أول عامين هو الحياة الجنسية السعيدة مع زوجته. أراد فريدون أن يخرج في السهرات مثل أي رجل يعيش حياة سعيدة مع زوجته، ولكنه يحب الخروج إلى المقهى والثرثرة مع أصدقائه. فكرت وأنا أنظر بعيني فريدون بأن فسون حددت السعادة التي تعيشها مع زوجها ـ معلومة أخرى أخفيتها عن نفسي ـ في أعوام زواجها الأولى، ولكنني شعرت بالذنب.

الغيرة التي تقف داخلي في أعمق مكان من المحيط وأوسعه، بدأت

تتحـرك فـي لقائي الأخير مع فريدون، وقد أدركـت أنني يجب ألا أراه إلى آخـر حياتـي مثل بعض أصدقائـي القدامى. من يعرف أنني شـعرت بأخوة ورفقـة تجاه فريدون لأنه عانى من ألـم عشـقه لفسـون لأعوام قبلي، يمكنه أن يتفهم غضبي منه بعد أن وصلت المشـاكل كلها إلى عتبة الحل. لأغلق هـذا الموضـوع بقولي إنني بـدأت أفهـم فريدون الآن بعـد أن كان يبدو لي دائمًا غامضًا.

شعرت من عيني فريدون أنه يغار قليلًا من سعادتي المستقبلية مع فسون. ولكننـا شـربنا كثيـرًا من العرق علـى الغداء الطويـل الذي تناولنـاه في فندق ديـوان، وبعـد أن حللنا التفاصيل المتعلقة بنقل ليمون للسـينما إلى فريدون، انتقلنا إلى موضوع جديد أراحنا وأفرحنا ورسم الابتسامة على وجهينا.

أفرطـت بالشـرب مع فريدون في ذلك اليوم ممـا جعلني أعود إلى البيت سـيرًا على الأقدام ببطء دون أن أمر على صاطصاط، ونمت فورًا. أذكر أنني قلـت لأمـي التي انشـغل بالهـا علي، وجاءت إلى عند سـريري قبـل أن أغط بالنوم: «الحياة جميلة جدًّا!». مسـاء يوم كانت السـماء تبـرق وترعد فيه بعد يومين، أخذت أمي بالسـيارة التي يقودها تشـتين إلى تشـوقور جمعة. كانت أمي تتصرف كأنها نسـيت عـدم رغبتها بحضور جنازة السـيد طارق. ولكنها لم تكن هادئة، ولـم تصمت طوال الطريق كعادتها عندما تكون متوترة. قالت ونحن نقترب من بيت فسون: «آآ، ما أجمل الأرصفة التي عملوها هنا. طالما أحببـت رؤية هذه الأحياء، ما أجمـل هذه الطلعة، وما أجمل هذه الأمكنة!». أججـت الريـح البـاردة التي عصفت قبـل المطر الغبـار عن الطريـق المبلط بالحجارة لحظة دخولنا البيت.

اتصلت والدتي بالعمة نسيبة من قبل، وعزّتها بالوفاة، والتقيتا عدة مرات. علـى الرغم من هذا فقد تحولـت زيارتنا الأولـى لخطبة الفتاة إلى زيارة عزاء بوفاة السيد طارق. ولكننا جميعًا شعرنا بما هو أعمق من العزاء. بعد العبارات الحلـوة الأولـى، والمجاملات اللبقة، وقـول: «ما أجمل هـذا المكان، وكم

اشـتقت إليكم، وكـم حزنا!» تعانقت العمة نسـيبة ووالدتـي، وبدأتا بالبكاء. خرجت فسون من الغرفة، وصعدت إلى الأعلى.

عندما سـقطت صاعقة فـي مكان قريب، نهضـت المرأتـان المتعانقتان. قالـت أمـي: «خير!» وأثناء اسـتمرار الرعد مـع المطر الغزير، جلبت فسـون المطلّقة البالغة السابعة والعشرين من عمرها صينية القهوة بحركات لبقة مثل فتاة في الثامنة عشرة من عمرها تعرض نفسها للخاطبين.

قالت أمي: «نسـيبة، فسـون أصبحت مثلـك بالضبط! مثلـك... ما أذكى ضحكتها، وكم أصبحت جميلة!».

قالت العمة نسيبة: «لا، إنها أذكى مني بكثير».

قالت أمي: «كان المرحوم ممتاز يقول دائمًا بأن عثمان وكمال أذكى منه، ولكن لا أدري إن كان يصدّق ما قاله. كأن الجيل الجديد أذكى منا».

قالت نسيبة: «البنات أذكى بالتأكيد. هل تعرفين يا وجيهة (لا أدري لماذا لم تقل هذه المرة أختي الكبيرة) أكثر ما أندم عليه في الحياة؟». أثناء حديثها عـن رغبتها الشـديدة في مرحلة من المراحل بفتـح دكان تبيع فيها ما تخيطه، وتذيـع شـهرتها، وعـدم جرأتها بهـذا الموضوع، اشـتكت قائلـة: «الذين لا يعرفون كيف يمسك المقص، ولا يعرفون كيف يسرّجون أصبحوا أصحاب محلات أزياء شهيرة».

ذهبنا جميعًا إلى النافذة، وراقبنا المطر والسيل النازل من الطلعة.

أثناء جلوسنا إلى المائدة، قالت العمة نسيبة: «كان المرحوم السيد طارق يحب كمالًا كثيرًا. كان كل مساء يقول: لننتظر قليلًا لعل السيد كمال يأتي».

شعرتُ بأن أمي لم تعجبها هذه العبارة.

قالت أمي: «كمال يعرف ما يريد».

قالت العمة نسيبة: «فسون أيضًا حازمة جدًّا».

قالت أمي: «إنهما أعطيا قرارهما أصلًا».

ولكن كلمات «طلب الفتاة» لم تتجاوز هذا.

أخذنا ـ العمة نسيبة وفسون وأنا ـ كأسَ عرق. نادرًا ما تشرب والدتي، ولكنها طلبت كأسًا، وأصبحت مرحة فورًا من رائحته وليس منه بحسب قول والدي. تذكرت كيف كانت تسهر حتى الصباح مع نسيبة وهما تعملان من أجل إنجاز ثوب سهرة. أمتعهما هذا الموضوع، وتذكرا أعراس تلك الأيام وأثوابها.

قالت العمة نسيبة: «اشتهر ثوب وجيهة المكشكش كثيرًا، وطلبت مني نساء نيشان طاش أن أخيط مثله، وحتى إنهن وجدن القماش نفسه في باريس، وجلبنه، ووضعنه أمامي، ولكنني لم أخط لهن مثله».

عندما نهضت فسون عن المائدة بجو مراسمي، وذهبت إلى قفص ليمون، نهضت أنا أيضًا.

نادتنا أمي قائلة: «كرمى لله لا تنشغلوا بالطائر وسط الطعام! لا تشغلا بالكما، سيكون لديكما وقت طويل ليرى أحدكما الآخر... انتظرا، انتظرا. لا أسمح لكما بالجلوس إلى المائدة قبل أن تغسلا أيديكما».

صعدت إلى الأعلى لأغسل يدي. يمكن لفسون أن تغسل يديها في الأسفل، في المطبخ، ولكنها جاءت خلفي. في الأعلى عند رأس الدرج، أمسكت بذراعي فسون، ونظرت إلى حدقتي عينيها، وقبلتها من شفتيها بشغف. كانت قبلة عميقة وناضجة ومزلزلة استمرت عشر ثوان أو خمس عشرة ثانية. كنا نتبادل القبل قبل تسعة أعوام مثل الأطفال. أما هذه القبلة فقد كانت بعيدة جدًّا عن الطفولة بكل ثقل الأعوام التسعة وقوتها ومعنوياتها. بداية ركضت فسون، ونزلت إلى الأسفل.

أنهينا طعامنا دون مزيد من المرح، وبانتباه إلى كل كلمة نقولها. وعندما هدأ المطر، نهضنا دون إبطاء.

قلتُ لأمي في السيارة أثناء العودة: «أمي، نسيت أن تطلبي البنت».

سألتني أمي: «كم ذهبت إليهم في هذه السنوات؟». عندما رأت أنني صامت، اختصرت، وتابعت: «ذهبت قدر ما ذهبت... قالت نسيبة ما قبض قلبي. لعل قلبي مجروح منك لأنك قليلًا ما جلست مع أمك لتناول العشاء ـ داعبت ذراعي ـ، ولكن لا تشغل بالك يا بني، لم أهتم. ولكنني لا أستطيع أن أطلبها كما أطلب طالبة في الثانوية. إنها امرأة كبيرة تزوجت، وانفصلت. واعية، وهي تعرف ما تفعله جيدًا. تكلمتما فيما بينكما؟ وقررتما كل شيء. ما ضرورة الكلمات المصطنعة، والألعاب؟ إذا أردت رأيي، فلا ضرورة للخطوبة أيضًا... تزوجا فورًا دون إطالة هذا الأمر، والإفساح في المجال للقيل والقال... ولا تذهبا إلى أوربا. أصبح هناك بعض الأشياء في دكاكين نيشان طاش، لماذا ستذهبان إلى باريس؟.».

أغلقت الموضوع عندما رأت أنني صامت.

في البيت، وقبل أن تدخل غرفتها لتنام، قالت أمي: «معك حق. إنها امرأة جميلة وذكية. ستكون زوجة جيدة لك. ولكن عليك أن تنتبه، يبدو عليها أنها عانت كثيرًا. أنا لا أعرف، ولكن احذر أن يسمم الحقد والغضب الذي في داخلها حياتكما».

«لا يسممها!».

على العكس تمامًا ثمة شعور يربطنا بالحياة وإسطنبول والأزقة والناس وكل شيء يقرب فيما بيننا بعمق. عندما أمسك يدها في السينما، أشعر بأنها ترتجف بشكل خفيف. أصبحت تسند رأسها أو كتفها على كتفي بشكل خفيف. وأغوص كثيرًا في المقعد لكي تستند إلي بشكل أفضل، وأمسك يدها بين يدي، وأحيانًا كنت أداعب فخذها بشكل خفيف. لم تعد فسون تعارض الجلوس في شرفات السينمات كما كانت في الأسابيع الأولى. أثناء إمساك يدها أشعر بردود فعلها إزاء الفيلم الذي نشاهده مثلما يشعر الطبيب بنبض مريضه عندما يجسه، وأستمتع كثيرًا بشعوري برؤيتها العاطفية للفيلم على هذا النحو.

في استراحة الفيلم، نتحدث عن التحضير لسفر أوربا، والانخراط تدريجيًّا بين الناس، ولكنني لم أفاتحها بكلام والدتي حول الخطوبة. تتفهم فسون أن حفل الخطوبة لن يكون جميلًا، وسيثير لغطًا كثيرًا، وحتى إنه سيكون مقلقًا لو عملناه بين العائلة، وسينمون علينا إذا وسعنا الدعوات لأننا وسعناها، وسينمون أيضًا إذا ضيقنا الدعوات لأننا ضيقناها، وأشعر بأن فسون تقترب تدريجيًّا من الفكرة نفسها. وأعتقد أنها تبتعد عن موضوع الخطوبة نتيجة القلق ذاته. وهكذا قررنا من دون أن نتكلم عدم إقامة حفل خطوبة، والزواج مباشرة بعد العودة من أوربا. كنا نستمتع كلانا بالحديث عن أحلامنا بالسفر إلى أوربا ونحن ندخن السجائر متقابلين في استراحات الأفلام، وفي محلات بيه أوغلو التي بدأنا نجلس فيها. اشترت فسون كتابًا بعنوان: «أوربا بالسيارة» مكتوبا خصيصًا للأتراك، كانت تأتي إلى السينما وهي تحمله. أذكر أننا كنا نتحدث بخط السير ونحن نقلب صفحاته. قررنا أن نقضي ليلتنا الأولى في أدرنة، ثم نذهب عبر يوغسلافيا والنمسا. كانت فسون تحب رؤية مناظر باريس في أدلتي، وتقول: «لنذهب إلى فينا أيضًا». كانت تلتف بصمت غريب وحزين وتشرد بالأحلام أثناء نظرها إلى مناظر أوربا.

كنت أسألها: «ماذا حدث يا روحي؟».

كانت فسون تقول: «لا أعرف».

كانت العمة نسيبة وفسون وتشتين يستخرجون أولى جوازات سفرهم لأنهم يسافرون خارج تركيا للمرة الأولى. أدخلتُ المفتش سلامي الذي يعمل في صاطصاط بهذا الأمر لكي أخلصهم من عذاب دوائر الدولة وإنهاك الطوابير (سيتذكر القراء اليقظون أنني كلفت المفتش المتقاعد سلامي بالبحث عن فسون وعائلة كسكين قبل ثمانية أعوام). وهكذا انتبهت إلى أنني لم أخرج خارج تركيا طول تسعة أعوام بسبب العشق، ولم أكن بحاجة إلى أمر كهذا. مع أنني في فترة ما كنت أشعر بالتعاسة إذا لم أخرج مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر بذريعة ما.

وهكذا ذهبنا إلى دائرة جوازات السفر في مديرية الأمن التابعة للمحافظة في الباب العالي من أجل التوقيع لإجراءات جوازات السفر في يوم صيفي حار. البناء الذي جلس فيه الصدور العظماء والباشوات الوزراء في الأعوام الأخيرة من الدولة العثمانية وشهد كثيرًا من المداهمات والجرائم السياسية وكثيرًا من الفظائع التي تروى في كتب الثانوية، فَقَدَ كثيرًا من بهرجته وأبهته مثل كثير من الأبنية التي انتقلت من الدولة العثمانية إلى الجمهورية، وتحول إلى مكان ينتظر الخاتم والتوقيع والطابع على أدراجه وفي ردهاته الآلاف وهم بائسون وسائمون ويتشاجرون ويتصايحون مثل يوم المحشر. عجّنت الأوراق التي بأيدينا نتيجة الحر والرطوبة.

وقبيل المساء حُولنا إلى بناء صانصاريان في سيركجي من أجل ورقة أخرى. في أثناء نزولنا من الباب العالي، وفوق مقهى مسرة القديم بقليل، دخلت فسون إلى مشرب شاي صغير من دون أن تستأذن أحدًا منا، وجلست.

قالت العمة نسيبة: «ماذا يحدث لهذه ثانية؟.».

دخلت أثناء انتظارها مع تشتين أفندي في الخارج.

سألتها: «ماذا حدث يا روحي؟ هل تعبت؟».

قالت فسون: «أنا تراجعت، لم أعد أريد الذهاب إلى أوربا». كانت قد أشعلت سيجارة، وسحبت الدخان بقوة إلى داخلها. «اذهبوا أنتم، واستكملوا جوازات سفركم، أنا لم يبق لدي حيل».

«شدي نفسك يا روحي، سبحنا كثيرًا، وشارفنا على الشط».

قاومت قليلًا، وشاغبت، ولكن جميلتي جاءت معنا في النهاية. عشنا أزمة مشابهة عندما كنا نعمل على أخذ تأشيرة النمسا. لكي لا يتعذبوا في طابور التأشيرة، ولا يهانوا في المقابلة، حضّرت للعمة نسيبة وفسون كما حضرت لتشتين أوراقًا تثبت أنهم موظفون خبراء براتب كبير في صاطصاط.

أعطونا تأشيرات، ولكنهم شكّوا بسبب عمر فسون، فطلبوا مقابلتها من أجل التأشيرة. وذهبت معها.

اتخذت إجراءات أمنية مشددة على الأقسام القنصلية في إسطنبول لأن رجلًا غاضبًا أطلق أربع رصاصات على رأس موظف في القنصلية وقتله قبل ستة أشهر بسبب رفض طلب حصوله على التأشيرة من قنصلية سويسرا على مدى أعوام. لم يعد طالبو التأشيرة يقابلون الموظفين الأوربيين وجهًا لوجه، بل بواسطة هاتف ويفصلهما زجاج لا يمرر الرصاص وقضبان كما يحكى مع محكومي الإعدام في الأفلام الأمريكية. كان هناك سيل من الناس يتلاكزون من أجل الاقتراب من قسم التأشيرات في القنصليات، والدخول إلى الحديقة والفسحة. الموظفون الأتراك (يقال عن موظفي القنصلية الألمانية بشكل خاص: «صاروا ألمانًا أكثر من الألمان بيومين!») يؤنبون هذه الجموع لأنها لا تقف بالطابور، ويدفعونها ويلكزونها، وينظرون إلى هندام البعض، ويقولون: «لا تأتِ أنت دون جدوى!»، وبهذا يعملون التصفية الأولى. الحصول على موعد من أجل اللقاء يفرح طالبي التأشيرات كثيرًا، ويرتجف الكل مثل طالب يتقدم للامتحان خلف الزجاج المانع للرصاص والصوت، ويصمتون، ويصبحون مطيعين كالخراف.

لأن لدينا واسطة، لم تقف فسون في هذه الطوابير، ودخلت إلى اللقاء بابتسامة، وقبل مرور وقت طويل خرجت ممتقعة بالحمرة ومتخبطة، وسارت نحو الزقاق مباشرة دون أن تنظر إلي. وصلت إليها عندما أبطأت في الخارج من أجل إشعال سيجارة. سألتها عما حدث، ولكنها لم تُجب. عندما دخلت إلى محل الوطن للسندوتش والمشروبات، وجلست، قالت: «لا أريد أن أذهب إلى أوربا، تراجعت».

«ماذا حدث؟ ألن يعطوك تأشيرة؟».

«سألني عن حياتي كلها. حتى إنه سألني عن سبب طلاقي. سألني عن

مصدر عيشي إذا كنت دون عمل، ومطلقة. لن أذهب إلى أوربا، ولا أريد تأشيرة أحد».

قلت: «أنا أحلها بطريقة أخرى. أو نذهب إلى إيطاليا بالسفينة».

«كمال، صدق أنني تراجعت عن الذهاب إلى أوربا. كما أنني لا أعرف لغة، وخجلت».

«نرى الدنيا قليلًا يا روحي... هناك أناس أكثر سعادة يعيشون بطريقة مختلفة في أماكن أخرى من العالم. يمسك أحدنا بيد الآخر، ونسير في أزقتهم. العالم ليس تركيا فقط».

«يجب أن أرى أوربا قليلًا لكي أصبح لائقة بك، أليس كذلك؟ ولكنني تراجعت عن الزواج منك أيضًا».

«سنكون سعداء جدًّا في باريس يا فسون».

«أنت تعرف كم أنا عنيدة. لا تلح يا كمال. حينئذ سأعاند أكثر.

على الرغم من هذا ألحت، وعندما شعرت بالندم على إلحاحي بعد أعوام طويلة، أتذكر أنني تخيلت نفسي أمارس الحب مع فسون سرًّا في غرفة الفندق. بمساعدة سليم المتبختر الذي يستورد ورقًا من النمسا، حصلنا على تأشيرة دخول فسون بعد أسبوع. في الأيام نفسها أنجزنا معاملة «تريبتيك» للسيارة. أثناء إعطائي جواز السفر الملونة صفحاته بتأشيرات الدول التي سنمر منها في طريق باريس في شرفة سينما سراي شعرت بمباهاة غريبة، ونوع من المباهاة بأنني أصبحت زوجًا. من بين أشباح فسون التي رأيتها قبل أعوام في مختلف أماكن إسطنبول، رأيت واحدًا منها في سينما سراي. ضحكت فسون بداية عندما أخذت جواز السفر، ثم قطبت حاجبيها، وقلبت الصفحات، ودققت بالتأشيرات.

حجزتُ ثلاث غرف في فندق دو نورد في باريس بواسطة شركة سياحية. لي ولتشين أفندي، ولفسون مع والدتها. عندما كنت أذهب إلى باريس لرؤية

سـيبل أثناء دراستها في السـوربون ـ أي في الجامعة ـ أنزل في فنادق أخرى، ولكنني حلمـت بأنني سـأقضي ليلة في هـذا الفندق القديم الـذي يبدو كأنه خـارج من الأحلام لكي أعيش سـاعات سـعيدة مثل طالـب يحلم بالأماكن التي سيذهب إليها في المستقبل عندما يصبح غنيًّا.

كانت أمي تقول: «لا ضرورة لهذا نهائيًّا، تزوجا ثم اذهبا. أنت ستستمتع بالسـفر مع الفتاة التي تحبها... ولكن ماذا عن نسـيبة وتشـتين أفندي؟.. ما عملهما معكما؟ تزوجا أولًا، ثم اذهبا شـهر عسـل إلى باريس بالطائرة. أنا أطلـب من القرنفلة البيضـاء أن يكتب الأمر في عمود المجتمع الراقي على أنه قضية رومانسـية يحبها الجميع، ويُنسى كل شيء بيومين. أساسًا تغيرت تلك الحياة القديمة. أغنياء الريف ملئوا كل مكان. ثم ماذا أفعل أنا من دون تشتين؟ من سيقلني إلى هنا وهناك؟».

«أمي، لم تخرجي من بيت سـعادية وحديقته في الصيف الماضي سـوى مرتيـن. لا تقلقـي، سـنعود قبل أن يمضـي أيلول. أعدك أن يقلك تشـتين في العـودة إلى نيشـان طاش فـي مطلع تشـرين الأول/ أكتوبر... والعمة نسـيبة ستختار لك ثوبًا من أجل العرس».

٧٧ ـ فندق سميراميس الكبير

جئت في السـاعة الثانية عشرة إلا ربعًا من يوم ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٨٤ إلى بيت تشوقور جمعة بالسيارة التي يقودها تشتين من أجل الانطلاق برحلة أوربا. مضى على لقائي الأول بفسون في بوتيك شانزليزيه تسعة أعوام وأربعة أشهر بالضبط، ولكنني لم أتوقف لأفكر كيف تغيرت حياتي وحياتها في هذه الفتـرة. تأخرنا بسـبب نصائح أمي التي لا تنتهي وزحمـة المواصلات. كنت أريـد أن أغلـق هذه الفتـرة من حياتي، وأنطلـق في الطريق بأسـرع ما يمكن. أثناء وضع تشـتين أفندي حقائب فسـون والعمة نسـيبة في صندوق السـيارة

شعرت بالضيق من نظرات أبناء الحي الذين أحييهم مبتسمًا، وفي الوقت نفسه شعرت بالفخر. أثناء نزول السيارة إلى طوبخانة رأت فسون عليًّا العائد من لعب كرة القدم، فلوحت له بيدها. خطر ببالي أن فسون سيكون لها ولد مثل علي قريبًا.

أثناء عبورنا جسر غلاطة، فتحنا نوافذ السيارة، وسحبنا إلى داخلنا بسعادة رائحة إسطنبول المؤلفة من روائح الطحالب والبحر وسقط الحمام ودخان الفحم والسيارات. جلست فسون والعمة نسيبة في المقعد الخلفي. أنا كنت في المقعد الأمامي بجوار تشتين كما تخيلت طوال أيام. وأثناء تقدم السيارة من أقسراي عبر الأسوار والأحياء القديمة وهي تنزل في الحفر وتخرج منها على الطريق المبلط بالحجارة، كنت ألقي بذراعي على المسند، وأنظر إلى فسون بسعادة.

أثناء مرورنا خارج المدينة وسط الورش والمستودعات والأحياء الجديدة والنُّزُل خلف بكر كوي، وقعت عيني على مصنع السيد طورغاي للنسيج الذي زرته قبل تسعة أعوام، ولكنني لم أعد أتذكر جيدًا الغيرة التي كنت أشعر بها في ذلك اليوم. فور خروج السيارة من إسطنبول تحول كل العذاب الذي عانيته من أجل فسون على مدى أعوام إلى قصة حب لذيذة لا تستحق أكثر من بضع جمل ككل قصص الحب التي تنتهي نهاية سعيدة! كان الصمت يخيّم تدريجيًّا على السيارة مع ابتعادي عن إسطنبول، ولعل هذا هو السبب. وقبل أن نعبر جسر كوتشوك تشكمجة، نامت العمة نسيبة بعد أن كانت تغرد بالمزاح، وتقول: «الرحمة، لم ننس هذا أليس كذلك!». وتسأل أسئلة حول كل شيء ـ سألت حتى عن حصان جلد على عظم يقضم العشب في أحد المقاسم ـ بدهشة.

عند مخرج تشاطلجا ملأ تشتين أفندي خزان الوقود من المحطة، ونزلت فسون وأمها من السيارة. اشترتا لفة من جبن المنطقة التي تبيعها امرأة عجوز، وجلستا في مشرب الشاي المجاور، واستمتعتا بتناول الكعك والجبن مع

الشاي. فكرت بأن رحلتنا إلى أوربا بهذه السرعة ستستغرق شهورًا وليس أسابيع، وجلست معهما. هل كنت أشكو من هذا؟ لا! كنت أنظر إلى فسون وأنا جالس مقابلها دون أن أتكلم نهائيًّا. كان ثمة ألم لذيذ ينتشر ببطء في بطني وصدري من النوع الذي كنت أشعر فيه عندما ألتقي فتاة جميلة جدًّا في حفل راقص أو في بدايات الصيف. لم يكن ذلك الألم ألمَ عشق عميق وهدام، بل هو تململ العشق اللذيذ.

في الساعة السابعة وأربعين دقيقة غربت الشمس وسط حقول عباد الشمس وهي تنظر إلى عيوننا. بعد أن أشعل تشتين أفندي مصابيح السيارة بقليل، قالت العمة نسيبة: «علينا ألا نسير بهذا الظلام، حبًّا بالله!».

كان سائقو الشاحنات يأتون نحونا على الطريق المزدوج دون إطفاء مصابيح المسافات البعيدة. بعد عبورنا بابا إسكي بقليل بدا لي فندق سميراميس الذي يغمز بمصابيحه النيون الزرقاء مكانًا مناسبًا للمبيت. طلبتُ من تشتين أن يبطئ السير، وعندما انعطفنا من عند محطة وقود (نبح علينا كلب)، بدأ قلبي يخفق بسرعة من العشق لأنه قرر بأن ما حلمت به منذ تسع سنوات سيتحقق هنا.

في الفندق النظيف البعيد عن العناية باستثناء اسمه، والمؤلف من ثلاث طوابق، طلبتُ من موظف الاستقبال صف الضابط المتقاعد (هناك صورة له بالبزة العسكرية والسلاح وهو سعيد معلقة على الجدار) غرفة للعمة نسيبة وفسون، وغرفتين لي ولتشتين أفندي. أثناء تمددي على سرير الفندق وأنا أنظر إلى السقف، شعرت بأن النوم وحدي كل ليلة في هذه الرحلة الطويلة بينما فسون تنام في الغرفة المجاورة سيكون صعبًا جدًّا.

عندما دخلت إلى صالة الطعام الصغيرة في الأسفل، رأيت أن فسون قد دخلت الجو المناسب للمفاجأة التي حضرتها لها. نزلت فسون إلى العشاء مجددة زينتها بعناية ومعطرة بعطر لاسوليل نوير الذي أهديتها إياه قبل أعوام طويلة، وأعرض زجاجته، وارتدت ثوبًا أحمر قانيًا بلون شفاهها تمامًا كأن

الفندق مكان فخم يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر في بلدة ساحلية أوربية غنية. بريق ثوبها وجماله أبرز بريق شعرها الداكن جيدًا. يلتفت الأولاد الفضوليون وآباؤهم الشهوانيون أحيانًا إليها وينظرون من الطاولات الجانبية حيث تجلس عائلات العمال المتعبين العائدين من ألمانيا.

قالت العمة نسيبة: «لاق بك كثيرًا هذا الأحمر هذا المساء. عندما تلبسينه في الفندق والشوارع في باريس سيبدو أجمل. ولكن لا تلبسيه كل مساء في الطريق يا روحي».

ألقت العمة نسيبة إليّ نظرة كي أوافقها الرأي، ولكن شيئًا لم يخرج عن لساني. في الحقيقة أن هذا لم يكن لمجرد أنني أريد أن تلبسه فسون كل ليلة لتظهر جميلة فقط... لقد توترتُ مثل شاب يشعر بأن سعادته قريبة جدًّا، ولكن الحصول عليها صعب، فلا أجد دافعًا لفتح فمي. وأشعر أيضًا بأن فسون الجالسة مقابلي تمامًا تشعر الشعور نفسه. تهرب بنظراتها مني، وتدخن سيجارتها بشكل بدائي مثل طلاب الثانوية الذين تعلموا التدخين توًّا، وتنفخ دخانها جانبًا.

أثناء النظر إلى قائمة الطعام البسيطة المصدّقة من بلدية بابا إسكي خيّم صمت طويل وغريب كأنني أستعرض الأعوام التسعة التي قضيناها، وتركناها خلفنا.

عندما أتى النادل، طلبت منه زجاجة عرق كبيرة.

قلت: «أنت أيضًا اشرب هذا المساء يا تشتين أفندي، ولنقرع الكئوس. كيفما كان فإنك لن تقلني إلى البيت بعد العشاء».

قالت العمة نسيبة بشعور تقدير مبطن: «ما شاء الله، انتظرتم كثيرًا يا سيد تشتين». ورمقتني بنظرة، وأضافت: «ليس هناك قلب لا يمكن كسبه، أو قلعة لا يمكن فتحها بالصبر والتوكل، أليس كذلك؟».

عندما جاء العرق، صببت بقدح فسون كثيرًا مثل الجميع، ونظرت إلى

عينيها وأنا أصب. أستمتع برؤيتها وهي تنظر إلى رأس سيجارتها أثناء التدخين عندما تكون متوترة. بدأنا جميعنا بمن في ذلك العمة نسيبة بشرب العرق بالثلج برغبة كأننا نشرب عصيرًا مركزًا. ارتحت بعد قليل.

الحياة في الحقيقة جميلة، وكأنني أنتبه إلى هذا حديثًا. بت أعرف جيدًا أنني سأداعب جسم فسون الرهيف، وذراعيها الطويلتين وصدرها الجميل طوال عمري، وأدفن رأسي عند رقبتها، وأسحب إلى داخلي رائحتها وأنا أنام على مدى أعوام طويلة.

وكما كنت أفعل في طفولتي، خجلت من «خصوصية» ما يسعدني، ونظرت إلى الدنيا من حولي بنظرة جديدة مكتشفًا أن كل شيء جميل: كان ثمة صورة لأتاتورك معلقة على الجدار مختلفة وجميلة. بجانبها منظر سويسري، وصورة تظهر جسر البوسفور، وصورة لإنغة وهي تشرب مياه ملتم الغازية كذكرى تعود إلى ما قبل تسعة أعوام. رأيت ساعة تشير إلى التاسعة وعشرين دقيقة، ولوحة في الاستقبال مكتوب عليها: «يسأل الأزواج عن بطاقة الزواج».

قالت العمة نسيبة: «اليوم يعرض «طلعات عاصفة»، لنطلب منهم أن يفتحوا التلفاز عليه..».

قالت فسون: «ما زال هناك وقت يا أمي».

دخل زوجان أجنبيان في الثلاثينيات من عمريهما إلى قاعة الطعام. التفت الجميع، ونظروا إليهما. وهما حييانا بلباقة. لم يكن كثير من السياح يأتون إلى تركيا في تلك الفترة، ولكن غالبيتهم يأتون بسياراتهم.

عندما حل الوقت، ضبط صاحب الفندق وزوجته المحجبة وابنتاه غير المحجبتين ـ رأيت إحداهما تعمل في المطبخ ـ التلفاز، وبدءوا يشاهدون المسلسل بصمت وظهرهم باتجاه الزبائن.

قالت العمة نسيبة: «سيد كمال، لن تستطيع المشاهدة من هناك. تعال إلى جانبي».

وضعتُ كرسيي في المكان الضيق بين فسون والعمة نسيبة، وجلست، وبدأت أتابع «الطلعات العاصفة» الذي تدور أحداثه على هضاب إسطنبول. ولكنني لا أستطيع القول إنني فهمت ما أراه. استند ذراع فسون العاري إلى ذراعي بقوة! تتأجج النار في ذراعي اليسرى الملتصقة بذراع فسون، وبخاصة القسم العلوي منها. كانت عيناي على الشاشة، ولكن روحي كأنها ولجت إلى أعماق روح فسون.

عين أخرى في داخلي ترى رقبة فسون، ونهديها الجميلين، وحلمتيها شبيهتي الفراولة، وبياض بطنها. فسون أيضًا تسند ذراعها تدريجيًّا بقوة أكبر إلى ذراعي. لم أهتم بعفس فسون سيجارتها بالمنفضة المكتوب عليها «زيت عباد الشمس باطانيا»، ولا بأعقاب السجائر التي تحمل آثار أحمر شفاهها.

أغلق التلفاز عندما انتهى المسلسل. ابنة صاحب الفندق الكبيرة فتحت المذياع. وجدتْ موسيقى خفيفة ممتعة من النوع الذي يحبه الفرنسيون. كدت أقع وأنا أسحب كرسيي إلى مكانه السابق. شربت كثيرًا. فسون أيضًا شربت ثلاث كئوس، وارتخت أجفانها.

قال تشتين أفندي: «نسينا أن نرفع الأنخاب».

قلت: «نعم، لنرفعها. في الحقيقة، حل وقت إقامة حفل صغير. أنت ستلبسنا خاتمي الخطبة يا تشتين أفندي».

أخرجتُ علبة الخاتمين اللذين اشتريتهما قبل أسبوع من السوق المسقوف، وفتحتهما بجو من إعداد المفاجأة، وفتحتها.

قال تشتين أفندي مسايرًا الوضع فورًا: «هذا هو الصحيح يا سيدي. لا زواج من دون خطبة. مدا أصبعيكما لأرى».

كانت فسون قد مدت أصبعها مبتسمة، ولكن بانفعال.

قال تشتين أفندي: «لا عودة عن هذا الأمر. ستسعدان كثيرًا، أعرف هذا... أنت ستمد يدك الأخرى يا سيد كمال».

ألبسنا خاتمين بلحظة دون تردد. دوى التصفيق. كان الفرنسيان على الطاولة المجاورة يراقباننا، وانضم إليهما زبون أو زبونان يتناومان. كانت فسون تبتسم بلذة شديدة، وتنظر إلى الخاتم بأصبعها كأنها تختار خاتمًا عند الصائغ.

قلت: «هل ناسب أصبعك يا روحي؟».

قالت دون أن تخفي ابتسامتها: «ناسبها».

«ولاق بها كثيرًا».

«نعم».

قال الفرنسيان: «دَنْس، دنس».

قالت العمة نسيبة: «نعم، هيا لنرى!».

كانت الموسيقى الممتعة المنبعثة من الإذاعة مناسبة. هل أستطيع الوقوف على قدمي؟

نهضنا معًا في اللحظة نفسها. لففت ذراعي حول خصر فسون، وعانقتها. كانت تفوح منها رائحة زكية جدًّا. شعرت بوسطها وعمودها الفقري تحت أصابعي.

كانت فسون أصحى مني. ورقصت بجد أكبر، وضمتني بشاعرية. أردت أن أعبر لها عن مدى حبي بأذنها، ولكن انكماشًا سيطر عليّ.

كنا سكرانين، ولكن جانبًا من عقلينا يمنعنا من إفلات نفسينا. بعد قليل جلسنا بمكانينا. صفق الفرنسيان لنا ثانية.

قال تشتين أفندي: «لأنهض أنا. سأتفقد المحرك صباحًا. سننطلق في الطريق باكرًا، أليس كذلك؟».

لو لم ينهض تشتين فورًا، لعل العمة نسيبة ستبقى جالسة.

قلت: «تشتين أفندي، أعطني مفتاح السيارة».

«سيد كمال، شربنا هذا المساء كثيرًا، أرجوك لا تلمس المقود».

«بقيت حقيبتي الصغيرة في صندوق السيارة، سآخذ كتابي منها».

أخذت المفتاح الذي قدمه لي. شد تشتين أفندي نفسه فجأة، وعمل إحدى حركات الاحترام الشديد التي كان يعملها لوالدي، وانحنى.

قالت فسون: أمي، «كيف ستعطيني مفتاح الغرفة؟».

قالت العمة نسيبة: «لن أقفل الباب. تفتحين، وتدخلين».

«سألحق بك الآن، وآخذه».

«لا تستعجلي. سيكون المفتاح على الباب من الداخل. أضعه في القفل، ولا أقفله. تأتين متى ما شئتِ».

عندما ذهب تشتين أفندي والعمة نسيبة، ارتحنا وتوترنا في الوقت نفسه. ومثل العروس التي بقيت وحدها مع العريس الذي ستقضي معه عمرها كله، كانت فسون تهرب بعينيها مني. ولكن من يعرف هذا، يدرك أنه شعور غير الخجل. أردت أن ألمسها. مددت يدي لأشعل سيجارتها.

قالت فسون: «هل ستصعد إلى غرفتك لتقرأ كتابًا؟» وكانت كأنها تستعد للنهوض.

«لا يا روحي، فكرت أن نقوم بنزهة بالسيارة».

«شربنا كثيرًا يا كمال، لا يجوز».

«نتنزه معًا».

«اصعد إلى الأعلى، ونم».

«هل تخافين أن أعمل حادثًا؟».

«لا أخاف».

«لآخذ السيارة إذًا، وننعطف إلى الطرق الجانبية، ولنضعْ في التلال وسط الغابة».

«مستحيل، اصعد، ونم. أنا ذاهبة».

«هل تتركينني وحيدًا على الطاولة، وتذهبين ليلة خطبتنا؟».

كان الفرنسيان ينظران إلينا من طاولتهما. يجب أن نكون قد جلسنا هناك نصف ساعة تقريبًا دون أن نتكلم. كانت أعيننا تلتقي أحيانًا، ولكن نظراتنا انطوائية. كانت سينما عقلي تعرض فيلمًا غريبًا مؤلفًا من ذكرياتي، ومخاوفي، ورغباتي، وكثير من الصور التي لم أستنتج معناها نهائيًّا. فيما بعد دخلت ذبابة كبيرة من بين الكئوس التي على الطاولة إلى الفيلم. كانت يدي، ويد فسون التي تحمل السيجارة، والكئوس، والفرنسيان يدخلون إلى الفيلم، ويخرجون منه. على الرغم من العشق والسكر الذي أشعر فيه، هناك جانب من عقلي يعتقد بأن الفيلم منطقي جدًّا، وأفكر بأن الأهم الآن هو معرفة أن العالم كله ليس سوى العشق الذي بيني وبين فسون والسعادة فقط. علي أن أحل هذه المشكلة بالسرعة التي تسير فيها الذبابة بين الأطباق. ابتسمت للفرنسيين بشكل أريهما فيه أنني سعيد، وهما ابتسما لنا بالطريقة نفسها.

«اضحكي أنت أيضًا لهما».

قالت فسون: «ضحكت، حسنٌ. ماذا أفعل غير هذا، هل أرقص لهما وأهز بطني؟».

أنسى أن فسون سكرانة جدًّا، وآخذ كل ما تقوله على محمل الجد، وأحزن. ولكن سعادتي ليست من النوع الذي يمكن أن يخرب بسهولة. لكثرة الشرب دخلت تلك الحالة النفسية العميقة التي تُشعر بوحدة العالم وفرادته. وهذه هي الفكرة التي أعطاها فيلم عقلي ذي الذكريات والذبابة. تبدو لي مشاعري نحو فسون طوال أعوام كلها، وآلامها متكاملة، وهذا التكامل مذهل الجمال، ويمنحني طمأنينة عميقة. فجأة تعلق عقلي بكيفية سير الذبابة بهذه السرعة الكبيرة دون أن تتعرق قوائمها فيما بينها. بعدئذ اختفت الذبابة.

كنت ممسكًا بيد فسون على الطاولة، وأدرك أن الطمأنينة والجمال الذي

أشعر به ينتقل من يدي إليها، ومن يدها إلي. يد فسون اليسرى الجميلة كانت في الأسفل مثل حيوان متعب، وكأن يدي اليمنى أمسكته بالعكس، وصعدت فوقه بفظاظة، وتضغط عليه. العالم كله يدور داخل رأسي، وداخل رأسينا.

قلت: «هل نرقص؟».

«لا..».

«لماذا؟».

قالت فسون: «لا أريد الآن. الجلوس هكذا يكفيني».

ابتسمت مدركًا أنها تقصد يدينا. كأن الزمن قد توقف، فأشعر بأننا ممسكين بأيدي بعضنا بعضًا لساعات، وأعتقد بأننا أتينا توًّا. فجأة نسيت ما نفعله هناك. عندما نظرت فيما بعد، رأيت أن أحدًا غيرنا لم يبق في المطعم.

«ذهب الفرنسيان».

قالت فسون: «إنهما ليسا فرنسيين».

«كيف عرفت؟».

«رأيت لوحة سيارتهما. إنهما قادمان من أثينا».

«أين رأيت سيارتهما؟».

«سيغلقون المطعم، لنذهب نحن أيضًا».

«ها نحن أولاء جالسان!».

قالت بنضج: «أنت محق».

جلسنا فترة ممسكا بيدها.

أخرجت بيدها اليمنى سيجارة من علبتها بدقة، وأشعلتها بمهارة بيد واحدة، ودخّنت ببطء وهي تبتسم لي. بدا لي هذا أنه استمر ساعات. ما إن بدأ فيلم جديد في رأسي حتى سحبت فسون يدها من يدي، ونهضت. كنت ماشيًا خلفها. صعدت الدرج بانتباه شديد دون أن أترنح وأنا أنظر إلى ثوبها الأحمر من الخلف.

قالت فسون: «غرفتك بهذه الجهة».

«لأوصلك أولًا إلى غرفتك عند أمك».

همست: «لا، أنت اذهب إلى غرفتك».

«حزنت كثيرًا، أنتِ لا تثقين بي. كيف ستمضين حياتك كلها معي؟».

قالت: «لا أعرف. هيا اذهب إلى غرفتك».

قلت: «إنها سهرة جميلة جدًّا. أنا سعيد جدًّا. ستمضي كل لحظة من حياتنا بهذه السعادة، صدقيني».

رأتني أقترب منها كي أقبلها، وضمتني قبل أن أعانقها. قبلتها بكل قوتي، وبعنف تقريبًا. تبادلنا القبل طويلا. فتحت عيني لحظة، فرأيت صورة أتاتورك في الممر الضيق والخفيض السقف. أذكر أنني بين القبل توسلت لفسون من أجل أن تأتي إلى غرفتي.

تناهى إلينا صوت كح ينبهنا من إحدى الغرف. عبث بقفل باب.

خرجت فسون من بين ذراعي، وانعطفت من الدهليز، وغابت.

نظرت خلفها بتعاسة. دخلت غرفتي، وألقيت بنفسي على سريري بثيابي.

٧٨ ـ المطر الصيفي

لم تكن الغرفة شديدة الظلمة. كانت أضواء طريق أدرنة ومحطة الوقود تصل إلى الداخل. هل هناك غابة في المدى؟ انتبهت إلى لمعان برق خفيف في مكان بعيد. فُتح عقلي على العالم كله، والأشياء كلها.

مضى وقت طويل. قرع الباب، نهضت، وفتحت.

قالت فسون: «أقفلت أمي الباب.

كانت تحاول رؤيتي في الظلام. أمسكتها من يدها، وسحبتها إلى الداخل. مددتها بجانبي، وأسندتها علي وأنا أعانقها. اندست بي كقطة تريد الحماية. دفنت رأسها في مكان ما بين صدري ورقبتي. تجذبني إليها بقوة، وكأن سعادتها تزيد باندساسها بقوة أكبر، وترتجف. كأنني إذا لم أقبلها بأسرع ما يمكن فسنموت كما في الحكايات. أذكر أننا تبادلنا القبل، وخلعنا ثوبها الأحمر الذي تجعد كثيرًا ونحن نشده شدًّا، وتبادلنا القبل طويلًا وبقوة، وخجلنا من قرقعة السرير، فهدأنا قليلًا، وأثارني كثيرًا سقوط شعرها على عيني ووجهي، ولكنني لا يمكن أن أقول عبارة «فعلتها» بحزم، يجب ألا يُعتقد بأن ما عشناه قد عشناه بوعي، وأنني أتذكر كل لحظة.

نتيجة الإفراط بالشرب والانفعال والتوتر لم أنتبه لما عشناه إلا بشكل غير جلي تمامًا بعد عيشنا تلك الثواني واللحظات واحدة تلو الأخرى. الارتباك بعيش ما انتظرته أعوامًا طويلة دون أن أضيّع أي لحظة، ولا معقولية إيجاد السعادة في هذه الدنيا، والمتعة التي يجب أن أتذوقها بممارسة الحب، جعلت اللحظات التي تبرق تارة وتختفي تارة تمنحني انطباعًا عامًّا. كأن أمورًا ما تقع لي خارج إرادتي، ولكنني أعتقد بأنني أعيش هذه الأمور بإرادتي وإدارتي كما في الحلم.

أذكر بأننا دخلنا تحت الملاءات، وأن بشرتي التهبت عندما لمست بشرتها. شعرت وأنا مسحور بأنني عشت من جديد ممارستنا الحب قبل تسعة أعوام ونسيتها مع كثير من التفاصيل التي نسيتها، ولا أعرف أنني نسيتها مع تفاصيل الحياة الأخرى لتلك الأيام السعيدة. رغبة السعادة المكبوتة لأعوام في داخلي، وحصولي على ما أردته (حتى إنني وضعت ثديها إلى النهاية في فمي) توحدت مع الشعور بالنصر والفرح، فجعلت ما عشته غائمًا، وشابكت بين الذكريات والمشاعر والمتعة. فيما كانت زاوية من عقلي تقول إنني حصلت عليها، كنت أشعر بإعجاب وحنان لتأوهات عشقها، وعناقها لي كطفلة، وبريق بشرتها المخملية وكل ما فيها. أذكر جيدًا اللحظة الفريدة لتبادلنا النظر بمرح ومتعة بضوء شاحنة صاخبة (هدير محركها العميق

والمتعب يقلدنا) يقترب، ويقوى بالتدريج عندما جلست فسون ذات لحظة في حضني. بعدئذ هبت ريح قوية فجأة، فارتجف كل شيء للحظة، وصُفع باب في مكان قريب، وحفت أوراق الأشجار كأنها تبوح لنا بسر. ضوء برق بنفسجي بعيد جدًّا أنار الغرفة للحظة.

في أثناء ممارستنا الحب برغبة متسارعة تشابك ماضينا ومستقبلنا وذكرياتنا ومتعة سعادة تلك اللحظة المتصاعدة. ذهبنا «إلى النهاية» ونحن نحاول كبت صراخنا وسط العرق. كنت مسرورًا من الدنيا وحياتي وكل شيء. كان كل شيء جميلًا ويحمل معنى. اندست فسون بي جيدًا، وأسندتُ رأسي إلى رقبتها، ونمت وأنا أشم تلك الرائحة الطيبة.

فيما بعد بكثير رأيت بعض مشاهد السعادة في حلمي. أقدّم هنا لزوار المتحف هذه المشاهد. البحر الذي رأيته في حلمي كان لونه أزرقَ مخضرًّا كما في طفولتي. ذكريات نزهات الزورق عند الذهاب إلى بيت سعادية في مطلع الصيف، والأوقات السعيدة التي تزلجت فيها على الماء، وخروجنا إلى صيد السمك للمتعة مساء ملأت قلبي بتململ ممتع. كأن البحر الهائج الذي في حلمي يوقظ سعادة مطلع الصيف الممتعة تلك. فجأة رأيت الغيوم الناعمة التي تسير ببطء فوقي، وكانت إحداها تشبه والدي. ورأيت سفينة تغرق ببطء في المحيط وسط عاصفة، ورأيت ظلالًا بالأسود والأبيض تذكرني بروايات طفولتي المرسومة، وذكرياتٍ، ورسومًا مظلمة وغامضة ومخيفة. كان فيها طعم الذكريات المنسية، وقد وجدت من جديد. عبرت من أمام عيني مشاهد إسطنبول في الأفلام القديمة، وأزقة المدينة المغطاة بالثلج، وبطاقات بريدية بالأسود والأبيض.

مشاهد حلمي هذه تعلمني سعادة الحياة، وأنني لن أنفصل عن متعة رؤية هذا العالم.

بعد ذلك، مرت بي ريح قوية وهي تبث الحياة في هذه المشاهد كلها، وقشعرت ظهري المتعرق. تدور أوراق أشجار الأكاسيا وكأنها تنثر النور

إلى اليمين وإلى اليسار، وتصدر حفيفًا ممتعًا بتأثير الريح. عندما يشتد الريح، يتحول حفيف الأوراق إلى هدير مهدد. أرعدت السماء طويلًا. كان الصوت قويًّا إلى درجة أنني استيقظت.

قالت فسون: «ما أجمل نومك»! وقبلتني.

«كم نمت؟».

«لا أعرف، وأنا أيضًا استيقظت على صوت الرعد قبل قليل».

قلت لها: «هل خفتِ؟» وضممتها، وجذبتها نحوي.

«لا، لم أخف».

«بعد قليل سيبدأ المطر بالهطول..».

أسندت رأسها إلى مابين صدري وكتفي. نظرنا إلى الخارج عبر النافذة من حيث نتمدد في الظلام مدة طويلة. في مكان بعيد جدًّا، تنار سماء ملبدة بالغيوم بضوء بنفسجي وزهري. كأن المسافرين في حافلات وشاحنات طريق أدرنة إسطنبول الصاخبة لا يرون ذلك المكان العاصف البعيد، ولا أحد سوانا ينتبه إلى تلك الزاوية الغريبة من العالم.

قبل مرور وسائط النقل على الطريق تدخل أضواؤها إلى الغرفة، وتقوى بصمت على الجدار الواقع على يميننا وهي تنير الغرفة، ولحظة سماعنا هدير الواسطة يغيّر الضوء شكله، ويختفي.

كنا نتبادل القبل أحيانًا. ثم بدأنا ننظر إلى ألعاب الضوء التي تسقط على الجدار مثل الأطفال الذين ينظرون عبر المشكال. كانت سيقاننا تحت الملاءات تتمدد متجاورة مثل زوجين.

بداية تبادلنا المداعبة بشكل خفيف وبانتباه كأن كلًّا منا يكتشف جسد الآخر من جديد. ممارسة الحب الآن ستكون أجمل بكثير وأعمق معنى بسبب ابتعادنا عن سكرتنا الأولى. قبلت صدرها ورقبتها التي تفوح منها رائحة زكية. في سنوات شبابي الأولى التي اكتشفت أن الرغبة الجنسية

قوة لا يمكن صدها، أذكر أنني فكرت بنوع من الاستغراب والإعجاب على النحو الآتي: إذا كان الرجل متزوجًا من امرأة جميلة، يمارس الحب معها من الصباح إلى المساء، ولن يجد وقتًا ليفعل شيئًا آخر. خطرت ببالي الفكرة الطفولية نفسها. أمامنا زمن غير محدود. الحياة قريبة من الجنة، ولكنها في مكان شبه مظلم.

في أضواء حافلة قوية بعيدة رأيت شفاه فسون الجذابة والحلوة، والتعبير الذي يوحي بأنها ذهبت من هذه الدنيا إلى مكان بعيد جدًّا. بعد اختفاء أضواء الحافلة، عشت هذا الشعور مدة طويلة. بعدئذ قبّلت بطن فسون. كان الطريق يلتف بالصمت بين حين وآخر. حينئذ نسمع صوت جدجد من مكان قريب. لا أدري إن كان يتناهى نقيق ضفدع من مكان أبعد قليلًا، أم أنني عندما ألمس فسون أكتشف أصوات الدنيا الداخلية الرهيفة، وحفيفا من وسط الأعشاب، وهديرا عميقا وصامتا من داخل الأرض، وتنفس الطبيعة غير الجلي تمامًا الذي لم أنتبه إليه وسط الحياة. قبّلت بطنها طويلًا، ومررت بشفتي لا على التعيين فوق بشرتها المخملية. أرفع رأسي أحيانًا بمتعة كما يرفع رأسه غراب بحر بعد أن يغطه بالماء، وأحاول أن أقابل نظراتي بنظرات فسون في الضوء المتغير باستمرار. وكان هناك بعوضة تحط على ظهري، وتلدغني، وتطن بين حين وآخر.

مارسنا الحب طويلًا بمتعة اكتشاف كل منا الآخر. مع تكرارنا الحركات نفسها أثناء ممارسة الحب، تسجل في زاوية من زوايا عقلي انفعالات تعارفنا من جديد بحيث لا تمحى، وفي الوقت نفسه تصنفها:

١ . أعيش من جديد بفرح بعض حركاتها الخاصة بها التي عشتها واكتشفتها في تجربتي السعيدة الأولى أثناء ممارسة الحب معها على مدى أربعة وأربعين يومًا عام ١٩٧٥ . تخيلت في تسعة الأعوام الماضية كثيرًا من المرات تأوهها أثناء ممارسة الحب، ونظرتها البريئة والحنونة التي تظهر على وجهها (كانت تقطب حاجبيها باهتمام)، والتناغم الخاص بين مختلف

جوانب جسمينا عند الإمساك بها ما بين خصرها ووركها من الجانبين، ووضع جسمينا أحدهما فوق الآخر ـ مثل قطع تربط آلة واحدة ـ وفتح شفتيها كالزهرة عندما تقترب شفتاي منهما لتقبيلهما، ورغبت بعيشه من جديد.

٢. كان ثمة تفاصيل كثيرة لم أستطع تخيلها لأنني نسيتها، وتذكرتها عندما رأيت فسون من جديد، ودهشت: نسيت جعل أصابعها كالملقط، وإمساكها برسغي؛ الشامة التي خلف كتفها تمامًا (كثير من الشامات الأخرى كانت في الأمكنة التي أتذكرها فيها)؛ وضبابية عينيها في أمتع لحظة من ممارسة الحب، وتركيزها على أحد الأشياء المحيطة (ساعة على الطاولة، أو انعطاف أنبوب الكهرباء عند السقف)؛ واعتقادي بأنها تبتعد عني تدريجيًّا عندما ترتخي ذراعاها وهي تضمني بقوة، ثم ضمها لي بقوة أكبر، وتذكرتها في ليلة واحدة. التصرفات والحركات الصغيرة التي نسيتها جعلت ممارستنا الحب حالة من الفنتازيا لكثرة ما تخيلتها طوال تسعة أعوام، ولكنها تحولت إلى نشاط حقيقي من هذه الحياة.

٣. أما بعض حركات فسون التي لم أتذكرها بأي شكل، فقد كانت تدهشني وتقلقني وتثير غيرتي. غرزها أظافرها بعنف في ظهري، وتوقفها في ذروة ممارستنا الحب لحظة، وشرودها بالتفكير كأنها تقدر متعة ما نعيشه ومعناه، أو بقاؤها دون حركة كأنها نامت، أو عضها ذراعي وكتفي بقوة كأنها تريد أن تؤلمني، تشعرني بأن فسون ليست فسون القديمة. في الأيام الأربعة وأربعين تلك قبل تسعة أعوام لم تبق عندي ليلًا لممارسة الحب، ولعل هذا سبب ما عشناه كله. ولكن ثمة عدوانية أقلقتني في حركاتها الحادة، وانسحابها فجأة وهي تفكر.

٤. إنها الآن امرأة أخرى. في داخل هذه المرأة فسون التي عرفتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، ومارست معها الحب، ولكنها تبدو كشجرة خلعت قشرتها الخارجية خلال الأعوام التي مرت، ودفعت الفسيلة إلى الخلف. أحب فسون المتمددة الآن بجانبي أكثر من تلك الصبية التي عرفتها

قبل أعوام طويلة. كنت مسرورًا من كوننا أذكى وأعمق وأكثر تجربة بمرور تلك الأعوام.

نقرت قطرات المطر الكبيرة على الزجاج وبلاطة النافذة السفلية. هطل المطر مع الرعد. تعانقنا أثناء استماعنا لهدير مطر الصيف الغزير. غططت بالنوم.

عندما استيقظت، كان المطر قد توقف، ولم تكن فسون بجانبي. كانت واقفة، وترتدي ثوبها الأحمر.

قلت: «هل أنت ذاهبة إلى غرفتك؟ لا تذهبي رجاء».

قالت: «سأبحث عن زجاجة ماء. شربنا كثيرًا. عطشت بشدة».

قلت: «وأنا أيضًا عطشت. اجلسي أنت، أنا رأيت زجاجات ماء في ثلاجة المطعم في الأسفل».

ولكنها فتحت الباب وخرجت وأنا أنهض من السرير. غططت بالنوم أثناء تمددي سعيدًا مفكرًا بأن فسون ستعود بعد قليل.

٧٩. سفر إلى عالم آخر

عندما استيقظت بعد فترة طويلة، لم تكن فسون قد عادت. فكرت بأنها عادت إلى أمها، فنهضت من السرير، وأشعلت سيجارة وأنا أنظر عبر النافذة إلى الخارج. لم تُشرق الشمس، والجو لم يُنر بعد، وكان ثمة ضوء غير واضح تمامًا. كانت رائحة التراب الرطب تدخل من النافذة المفتوحة. مصابيح محطة الوقود النيون إلى الأمام قليلًا، وضوء لوحة فندق سمير أميس تنعكس على الجزء الأسمنتي الرطب من حافة الطريق والشفروليه خاصتنا المركونة على مبعدة.

رأيت أن للمطعم الذي تعشينا ولبسنا فيه خاتمي الخطوبة نافذة

صغيرة تطل على الطريق الرئيس. ترطبت المخدات والكراسي التي هناك. إلى الأمام قليلًا جلست فسون على مقعد طويل تحت ضوء ينبعث من مصباح معلق بين أوراق شجرة تين. تجلس ملتفتة نحوي قليلًا تنتظر شروق الشمس.

ارتديت ثيابي، ونزلت فورًا. همست: «صباح الخير».

لم تقل شيئًا. هزت رأسها كأنها مثقلة بالهموم فقط. رأيت كأس عرق على الكرسي المجاور للمقعد.

قالت: «رأيت زجاجة عرق مفتوحة وأنا آخذ الماء!». ظهر على وجهها تعبير يذكر بأنها ابنة السيد طارق.

قلت: «ماذا نفعل إذا لم نشرب في أجمل صباح من الحياة؟ الطريق حار. ننام في السيارة طوال النهار. هل يمكن أن أجلس بجانبك أيتها السيدة الصغيرة؟».

«لم أعد سيدة صغيرة».

لم أجب، وجلست بجانبها، وأثناء نظرنا إلى المنظر الذي أمامنا، أمسكت يدها وكأننا في سينما سراي.

راقبنا إنارة الدنيا تدريجيًّا من دون أن نتكلم. ما زال البرق البنفسجي يقدح في مكان بعيد. كانت الغيوم البرتقالية تهطل مطرًا على أمكنة ما من البلقان. مرت حافلة نقل بين المدن بصخب. نظرنا إلى أضوائها الحمراء الخلفية حتى غابت.

اقترب منا كلب أذناه سوداوان من طرف محطة الوقود وهو يهز بذيله بود. إنه كلب شارع عادي ليس له أي خصوصية. شمني بداية، ثم شم فسون، أسند أنفه إلى حضن فسون.

قلت: «أحبك».

ولكن فسون لم تجب.

قلت: «نبح ثلاث مرات عندما دخلنا إلى هنا البارحة. هل تذكرين؟... كان هناك دمية كلب مثله تمامًا على تلفازكم».

«سرقته، وأخذته أيضًا».

«لا تُعد سرقة. أمك وأبوك وكلكم تعرفون منذ السنوات الأولى».

«نعم».

«ماذا كانوا يقولون؟».

«لا شيء. كان أبي يحزن. وأمي تتصرف كأن الأمر تافه. وأنا كنت أريد أن أصبح نجمة سينمائية».

«تصبحين».

قالت بجد: «كمال، كلمتك الأخيرة هذه كذب، أنت أيضًا لا تصدق. أنا أغضب حقيقة من هذا. إنك تكذب بسهولة شديدة. أنت تعرف أنك لن تجعلني نجمة سينمائية في أي وقت. لم يعد هناك ضرورة».

«لماذا ليس هناك ضرورة؟ لو أردت حقيقة لأصبحت».

بادر الكلب بحركة إظهار محبة لفسون.

قلت: «إنه مثل ذلك الكلب الدمية بالضبط. فوق هذا فإنه مصفر قليلًا وأذناه سوداوان مثله تمامًا».

«ماذا تفعل بتلك الكلاب، والأمشاط، والساعات، والسجائر، وكل شيء؟».

قلت بقليل من الغضب: «إنها تحسن حالتي. وهي الآن في بناء مرحمة محفوظة كمجموعة واسعة. أنا لا أخجل منك نهائيًا يا جميلتي. أريد أن أريك إياها عندما نعود إلى إسطنبول».

نظرت إلي، وابتسمت بشفقة، ورأيت أن فيها سخرية استحقتها قصتي وعقدتي».

قالت فيما بعد: «هل تريد أن تضعني في بيت خليلة خاص ثانية؟».

قلت بغضب، مكررًا عبارتها: «لم يعد هناك ضرورة».

«أنت محق. خدعتني مساء البارحة. أخذت ثروتي الأغلى قبل الزواج، لقد امتلكتني. أمثالك لن يتزوجوا بعد الآن. أنت من هذا النوع».

قلت بمزيج من الغضب والتمثيل: «صحيح، انتظرت هذا تسع سنوات، وتحملت ألمه. لماذا أتزوج؟».

ولكن يدها مازالت بيدي. مددت نفسي من أجل ألا أطيل اللعبة، وأنهي الموضوع بشكل حلو، وقبلتها من شفتيها بكل قوتي. بادلتني فسون القبلة بداية، ثم هربت بشفتيها.

قالت: «أريد في الحقيقة أن أقتلك». ونهضت.

«لأنك تعرفين كم أحبك».

لم أدرك ما إذا كانت سمعت هذا أم لا. غضبت، وقاطعتني، وذهبت جميلتي السكرانة وهي تضغط على كعبي حذائها العاليين.

لم تدخل إلى الفندق. لحق الكلب بها. خرجا إلى الطريق الرئيس، وسارت والكلب خلفها باتجاه أدرنة. شربت العرق المتبقي في قعر كأس فسون (كنت أفعل هذا أحيانًا في بيت تشوقور جمعة عندما لا يكون هناك من ينظر إلي). نظرت طويلًا من خلفهما. الطريق باتجاه أدرنة مستقيم تمامًا، يمتد إلى ما لانهاية تقريبًا، ومع ظهور نور الشمس يصبح ثوب فسون الأحمر مرئيًّا أكثر، وبدا لي أن فقدانها مستحيل.

ولكنني بعد فترة لم أعد أسمع وقع قدميها. وبعد فترة لم تعد البقعة الحمراء تظهر وهي تسير باتجاه المدى غير المحدود كما في نهايات أفلام قطاع السينما التركية، فقلقت.

بعد قليل رأيت البقعة الحمراء من جديد. ما زالت حبيبتي الغاضبة تسير. تأجج في داخلي حنان خارق. سنُمضي ما تبقى من حياتنا بممارسة الحب

كما في الليلة الفائتة، وبالجدل كما حدث قبل قليل. على الرغم من هذا أريد أن أتشاجر معها أقل، وأن أطيّب خاطرها، وأن أسعدها.

تزداد زحمة المواصلات على طريق أدرنة إسطنبول. لا يمكن أن يتركوا فتاة جميلة بثوب أحمر جميلة الساقين تسير وحدها براحتها. قبل أن يخرب عيار المزاح، ركبت الشفروليه ٥٦، وانطلقت خلفها.

رأيت الكلب تحت شجرة دلب على بعد كيلومتر ونصف. إنه جالس ينتظر فسون. اكتوى قلبي، وبدأ يخفق بقوة. هدّأت من سرعة السيارة.

رأيت بساتين، وحقولَ عباد الشمس، وبيوتَ مزارع صغيرة. طالعتني لوحة إعلانية ضخمة: «طماطم آلطاط». غدا فراغ وسط اللوحة هدفًا، وتثقب بالرصاص المطلق من السيارات. وقد صدئت الثقوب.

عندما رأيت البقعة الحمراء في الأفق بعد دقيقة، أطلقت قهقهة من السعادة. خففت السرعة مع اقترابي منها. مازالت تسير على يمين الطريق غاضبة ومقاطعة. لم تتوقف عندما رأتني. مددت نفسي، وفتحت زجاج السيارة الأيمن.

«هيا يا روحي، اركبي لكي نعود، تأخرنا».

ولكنها لم تجب.

«فسون، صدقي أن طريقنا اليوم طويل جدًّا».

قالت مثل طفل، ودون أن تهدئ من سرعة سيرها: «أنا لست ذاهبة، اذهبوا أنتم».

تسير السيارة بسرعة مشيها، وأناديها من مقعد السائق.

قلت: «فسون، انظري إلى هذه الدنيا، والعالم المذهل يا روحي. لا معنى لتسميم الحياة بالغضب والشجار».

«أنت لم تفهم أبدًا».

«ماذا؟».

قالت: «لم أستطع أن أعيش حياتي بسببك يا كمال، أنا حقيقة أريد أن أكون فنانة».

«أنا آسف».

قالت بغضب شديد: «ماذا يعني أنا آسف؟».

أحيانًا لا تتوافق سرعة السيارة مع سرعتها، فلا يفهم أحدنا الآخر.

صرخت بقوة من جديد معتقدًا أنها لم تسمعني: «أنا آسف».

«منعتماني من التمثيل في أفلام أنت وفريدون عن قصد. هل تعتذر من أجل هذا؟».

«هل تريدين أن تكوني مثل نرجس والنساء السكرانات في بلور حقيقة؟».

قالت: «أصلًا نحن دائمًا سكارى. فوق هذا أنا لا يمكنني أن أكون مثلهن. أما أنتما فقد أغلقتما علي الباب من الغيرة خشية أن أصبح مشهورة، وأترككما».

«أنت أيضًا في تلك السنوات خفت دائمًا من الخروج وحدك من دون أن يكون معك رجل قوي يا فسون..».

قالت: «ماذا؟». لقد غضبت حقيقة، وشعرت بهذا.

قلت: «هيا يا روحي، اركبي السيارة، ومساء نشرب، ونتناقش ثانية». أنا أحبك كثيرًا جدًّا. أمامنا حياة مذهلة. اركبي السيارة».

قالت بأداء طفولي كما فعلت قبل أعوام طويلة عندما طلبت دراجة طفولتها: «لدي شرط!».

«نعم؟».

«أنا سأقود السيارة».

«شرطة المرور في بلغاريا مرتشية أكثر من جماعتنا. هناك دوريات كثيرة».

قالت: «لا، لا... أريد أن أقودها الآن ونحن عائدان إلى الفندق».

أوقفت السيارة فورًا، وفتحت الباب، وخرجت. في أثناء تبادلنا الأمكنة، أمسكت فسون عند مقدم السيارة، وقبلتها بكل قوتي. هي أيضًا طوقت رقبتي بذراعيها، وضغطت بصدرها الجميل على صدري، وعانقتني، اختل توازني.

جلستْ على مقعد السائق. شغلت المحرك بانتباه يذكّر بأولى دروس حديقة يلضظ، وأنزلت ذراع المكبح اليدوي، وانطلقت في الطريق بشكل جميل. أسندت ذراعها اليسرى على نافذة السيارة المفتوحة مثلما فعلت غريس كيلي في فيلم «القبض على اللص».

تقدمنا ببطءٍ باحثين عن مكان ننعطف منه بالاتجاه العكسي. أرادت أن تنعطف بحركة واحدة عند تقاطع طريق قرية طيني مع الطريق الرئيس، ولكنها لم تستطع، اهتزت السيارة، وتوقفت.

قلت: «انتبهي إلى قابض السرعة».

قالت: «لم تنتبه حتى إلى قرطي».

«أي قرط؟».

دوّرت السيارة، وكنا عائدين.

قلت: «لا تسرعي كل هذا. أي قرط؟».

قالت بصوت يشبه صوت من لم يستيقظ تمامًا من المخدر: «في أذني..».

كان القرط الضائع زوجه بأذنها اليمنى. هل كان بأذنها أثناء ممارسة الحب؟ لماذا لم أنتبه؟

أسرعت بالسيارة كثيرًا.

صرخت: «هدئي قليلًا!». ولكنها كانت تضغط على الوقود إلى النهاية.

كأن الكلب الصديق عرف السيارة وفسون، فتقدم نحو وسط الطريق. رفعت فسون درجة السرعة، وضغطت على الوقود إلى النهاية، فطلبت منها أن تركن إلى اليمين لكي تنتبه إلى الجرو، ولكنها لم تركن.

أسرعنا كثيرًا، وكنا مسرعين أكثر. بدأت فسون إطلاق مزمار السيارة لتنبيه الكلب.

ذهبنا إلى اليمين وإلى اليسار، ولكن الكلب ما زال بعيدًا. فجأة بدأت السيارة تسير بخط مستقيم تمامًا كما لو أنها مركب شراعي وسط بحر هدأ بعد توقف الريح بشكل مفاجئ. ولكن هذه الاستقامة ترسم انحرافًا بسيطًا نحو خارج الطريق. فهمت أننا لم نذهب بأقصى سرعتنا باتجاه الفندق بل نحو شجرة دلب على جانب الطريق، وأن الحادث لا بد منه.

حينئذ شعرت بروحي أننا وصلنا إلى نهاية السعادة التي عشناها، وأن هذه هي لحظة الانفصال عن هذا العالم الجميل. كنا ذاهبين بأقصى سرعة نحو شجرة الدلب. وضعتنا فسون باتجاه هذا الهدف. هذا ما شعرت به. ولم أعد أجد مستقبلًا لنفسي مع غيرها. إننا ذاهبان إلى حيث تذهب، وقد فوتنا السعادة في هذه الدنيا. شيء مؤسف جدًّا، ولكن كأنه أمر لا مفر منه.

على الرغم من هذا صرخت بدافع غريزي: «انتبهي!». وكأن فسون ليست منتبهة إلى ما يجري. في الحقيقة أنني كنت أصرخ بدافع غريزي من أجل الاستيقاظ من كابوس والانتقال إلى الحياة العادية. برأيي أن فسون كانت سكرانة قليلًا، ولكنها ليست بحاجة لتنبيهي نهائيًّا. تقود السيارة بسرعة مائة وخمسة كيلومترات في الساعة، وتسلم نفسها إلى شجرة الدلب التي عمرها مائة وخمسة أعوام كأنها تعي ما تفعله جيدًا. فهمت أن هذه نهاية حياتنا.

صدمت سيارة والدي الشفروليه ٥٦ التي بقيت عنده ربع قرن بأقصى سرعتها بشجرة الدلب التي على يسار الطريق.

حقل عباد الشمس والبيت الذي وسطه هو مصنع زيت عباد الشمس الصغير باطانيا الذي استخدم أعوامًا طويلة على مائدة عائلة كسكين. قبل الحادث بقليل عندما كانت السيارة بأقصى سرعتنا انتبهت فسون، كما انتبهت أنا لهذا.

لمس قطع الشفروليه التي وجدتها بعد أشهر خردة قطعة قطعة، والأحلام التي رأيتها بعد أعوام طويلة ذكرتني بأن نظراتنا ـ فسون وأنا ـ تقابلت بعد الحادث مباشرة.

في تبادلنا النظر الأخير ذاك أثناء إدراك فسون أنها تموت عبرت لي عن أنها لا تريد أن تموت نهائيًّا، وأنها مرتبطة بكل ثانية من الحياة، وتوسلت لي لإنقاذها. أما أنا، فلاعتقادي أنني أموت أيضًا فقد ابتسمت فقط لخطيبتي الجميلة التي تضج بالحياة وعشق حياتي كما لو أننا خارجين معًا في سفر إلى عالم آخر.

لم أذكر ما جرى بعد ذلك لا في المستشفى الذي نمت فيه شهورًا، ولا في الأعوام التالية، وجمعت المعلومات من كلام الآخرين، والتقارير، والشهود الذين رأيتهم عندما ذهبت إلى موقع الحادث بعد أشهر.

بعد الاصطدام بست أو سبع ثوان ماتت فسون بدخول المقود إلى صدرها، وعصرها داخل السيارة التي عصرت كلعبة كونسورة. ضرب رأسها بالزجاج الأمامي بالقوة القصوى (ما زال هناك خمسة عشر عامًا على فرض حزام الأمان في تركيا). بحسب تقرير الحادث الذي أعرضه هنا، فقد تحطمت الجمجمة، وتمزق غشاء مخها الذي طالما أدهشني، وأصيبت بضربة قوية على رقبتها. وغير تكسير عظام الصدر وقطع الزجاج التي في الجبهة ليس ثمة أذى في جسدها الجميل، وعينيها الحزينتين، وشفتيها المذهلتين، ولسانها الكبير الزهري، وخديها المخمليين، وكتفيها السليمين، وبشرة

رقبتها وصدرها وبطنها الحريري، وساقيها الطويلتين، وقدميها اللتين تثيران ضحكي كلما رأيتهما، وذراعيها الطويلتين الرفيعتين العسليتين، والشامات على بشرتها الحريرية، والزغب الناعم الخرنوبي، واستدارة فخذيها وروحها التي أردت أن أبقى بجوارها دائمًا.

٨٠ ـ بعد الحادث

أريد أن أحكي عن العشرين عامًا التي تلت هذا دون إطالة، لأنهي قصتي. أُنقذتُ لأنني فتحت زجاج النافذة قبل الحادثة من أجل أن أتكلم مع فسون براحة، ومددت يدي إلى الخارج بدافع غريزي. أصبتُ بنزيف دماغي صغير تحت تأثير الصدمة، وبعض التمزق بالأغشية، فدخلت حالة غيبوبة. أوصلتني سيارة إسعاف إلى جهاز التنفس في مستشفى كلية تشبا للطب.

نمت الشهر الأول في العناية المركزة من دون أن أتكلم نهائيًّا. لم تكن الكلمات تخطر ببالي، والعالم تجمد. لا أنسى زيارة برين وأمي وهما تبكيان والخرطوم بفمي. حتى عثمان كان مشفقًا، ولكن على وجهه تعبيرًا بمعنى: «أما قلت لك؟».

أنا مدان بنظرات أصدقائي الآخرين مثل زعيم وطيفون ومحمد المعيبة عليّ والحزينة التي تشبه نظرات عثمان لاعتبار تقرير الشرطة سبب الحادثة سكر سائقة السيارة (لم ينتبهوا للدور القرط)، وإضافة الصحف شيئًا من الفضائحية للخبر. كان موقف موظفي صاطصاط محترما وعاطفيا.

بعد ستة أسابيع بدءوا بتطبيق معالجة فيزيائية على المشي. تعلم المشي من جديد شعور يشبه البدء بالحياة من جديد. في حياتي الجديدة هذه أفكر بفسون دائمًا. ولكن التفكير بفسون لم يكن رغبة تتعلق بالمستقبل كما في السابق، فهي تتحول تدريجيًّا إلى خيال يتعلق بالماضي والذكريات. كان هذا محزنًا جدًّا، ولا يعني الألم من أجلها والرغبة بها، بل يعني الألم على نفسي.

ووصلت إلى فكرة المتحف في نقطة ما بين التفكير والتذكر، وما بين ألم الفقدان ومعنى الفقدان.

من أجل السلوان قرأت كتبَ كتّابٍ مثل بروست ومونتاين. أثناء تناولي العشاء مقابل أمي والإبريق الأصفر يتوسطنا كنت أشاهد التلفاز شاردًا. برأي أمي فإن موت فسون يشبه موت والدي. بما أننا فقدنا من نحب، يمكننا أن نعبس براحة ونعاقب الناس. فوق هذا أعقب حالتي الوفاة كئوس عرق مسكرة، وحمل عالم آخر سري في داخلنا، وعدم تحمل المحافظة عليه في الداخل، والبوح به. أمي لا تحب البوح، ولكنني أحب أن أبوح بكل شيء.

في الأشهر الأولى بعد خروجي من المستشفى كان هذا التعبير يثار عندما أذهب إلى بناء مرحمة، وأجلس على السرير الذي مارسنا عليه الحب فسون وأنا، وأدخن السجائر وأنا أنظر إلى الأشياء. أشعر بأن ألمي سيخف فيما لو قصصت قصتي. لهذا السبب يجب أن أخرج مجموعتي إلى العلن.

كنت أرغب بشدة بمصاحبة زعيم، والتكلم معه. ولكنني في كانون الثاني/ يناير ١٩٨٥ سمعت من حلمي اللقيط أنه سعيد جدًّا مع سيبل، وأنهما على وشك أن يرزقا بطفل. وروى لي حلمي اللقيط أن العلاقة خربت بين نورجيهان وسيبل لسبب تافه. ولا أذهب نهائيًّا إلى مطاعم مثل فوآية وكراج ونواد يتردد إليها الناس لأنني أعطي لقصتي أهمية، ولا أريد أن أذكر باعتباري إنسانًا مكسورًا ومسحوقًا، وهذا ما أراه في نظرات الناس. في المرة الأولى والأخيرة التي ذهبت فيها إلى مطعم شمعدان، بالغت بمظاهر المرح، وأطلقت القهقهات، ومازحت، وعلّقت على النادل طيار المنتقل من بلور إلى هنا بعد أن قضى أعوامًا طويلة هناك، وأفسحت في المجال للقيل والقال بمعنى: «نفد من البنت في النهاية».

التقيت ذات يوم بمحمد عند زاوية نيشان طاش، واتفقنا على عشاء «رجل لرجل» على البوسفور. خرجت خمارات البوسفور من كونها أمكنة يتم الذهاب إليها بمراسم، وتحولت إلى أمكنة تقصد يوميًّا. شعر محمد

بفضولـي، فـروى لي عمـا يفعله أصدقائـي القدامى. أخبرنـي أنه ذهب مع نورجيهـان وطيفون وزوجته فيغن إلى أولوضـاغ، وأن فاروق (الذي قابلته أنا وفسـون على شـاطئ صارير للسـباحة) اقتـرض بالـدولار، وأفلس بعد التضخم، ولكنه أجل الإفلاس بواسطة قروض حصل عليها من المصارف، وأنـه لا يلتقـي بزعيم علـى الرغم مـن عدم وجود أي شـيء بينهما بسـبب خراب العلاقة بين نورجيهان وسيبل. ودون أن أسأل قال لي بأن سيبل ترى نورجيهـان تقليديـة تركية أكثر من اللازم، وتسـتمع للمطربيـن الأتراك مثل مزين سنار وزكي موران في المقاصف، وتصوم (سألته مبتسمًا: «هل تصوم نورجيهان؟»)، وتسـخر منها. شـعرت فورًا بأن هذا ليس السـبب الأساسي لبـرودة العلاقة بيـن الصديقتين القديمتيـن. اعتقد محمد أنني سـأعود إلى عالمـي القديـم، وأراد أن يسـحبني إلـى طرفـه، ولكن هذا انطبـاع خاطئ. بعد موت فسـون بستة أشـهر أدركت تمامًا أنني لا أستطيع العودة إلى ذلك العالم.

بعـد قليـل من العـرق، اعترف محمد بأنـه لم يعد يجـد نورجيهان جذابة كما كانت على الرغم من حبه واحترامه لها كثيرًا (أصبح الشـعور الثاني الآن أهـم) بعد أن وضعت ولدًا. عاش معها حالة حـب كبيرة، وتزوجها، وعندما جاء الولد، عاد كل شيء إلى ما كان عليه في السابق خلال فترة قصيرة، وعاد محمد إلى عاداته السـابقة. أحيانًا يذهـب وحده إلى حفلات اللهو الجديدة. أحيانًـا يتركان الولد عند جدتـه، ويذهب مع نورجيهان. من أجل أن يمتعني، ويسرني، قرر أن يريني المطاعم والنوادي والبارات الجديدة التي يذهب إليها الأغنياء وأوساط قطاع الإعلان، واصطحبني إلى أحياء المدينة الحديثة.

انضمـت إلينا نورجيهان في سـهرة أخرى، وتناولنا شـيئًا غاية في التعقيد باسـم طعـام أمريكي في حي جديد وكبيـر ظهر خلف منطقـة إتيلر. لم تذكر نورجيهان سـيبل، ولا سـألتني عن مشـاعري بعد فسون. فعلتْ شـيئًا واحدًا حفر في قلبي، وهو أنها توقفت وسـط الطعام فجأة، وقالت إنها تشـعر بأنني سـأكون سعيدًا ذات يوم. أشـعرتني هذه العبارة بأن احتمال السعادة قد أغلق

أمامـي. كان محمد كما عرفته محمد القديم، ولكـن نورجيهان كأنها واحدة جديـدة أتعرف عليهـا توًّا، وكأن ذكرياتنا المشـتركة الكثيرة قد زالت. وكنت أشـعر بزاويـة من عقلـي بأن هذا يرتبط بجـو المطعم الذي ذهبنـا إليه، وأزقة المدينة الجديدة هذه التي لم أحبها نهائيًّا.

هـذه الأزقة الجديـدة، والأحياء الإسـمنتية العجيبة التـي تضاف كل يوم إلى إسـطنبول، وما شـعرت به إثر خروجي من المستشفى قوى شعوري بأن إسـطنبول تحولـت إلى مـكان مختلف تمامًا بعـد وفاة فسـون. يمكنني الآن القـول إن هذا هو الشـعور القـوي الذي يحضّرني إلى أسـفار طويلة تسـتمر أعوامًا.

عندما أزور العمة نسـيبة فقط أشـعر بأن إسـطنبول هي إسطنبول القديمة التـي أحبهـا. بعد الزيارات الأولى التي صببنا فيهـا الدمع، قالت لي ذات مرة دون لف أو دوران بأنني أستطيع الصعود إلى غرفة فسون، وأفتش كما أريد، وآخذ ما أريد.

قبـل صعـودي إلى الأعلـى، فعلت ما جعلناه ـ فسـون وأنـا ـ تقليدًا لمدة طويلـة: ذهبت إلى جانب القفص، ونظرت إلى طعـام ليمون ومائه. تذكُّر ما فعلناه على مائدة العشـاء، وما تحدثنا به أثناء مشـاهدة التلفاز، وما تشاركنا به طوال ثمانية أعوام على المائدة يدفع الدمع إلى عيني العمة نسيبة.

الدموع... والصمت... ولأن تذكر فسـون ثقيـل علينا كنت أقوم بأعمال ما قبل الصعود إلى غرفة فسون على عجل. أذهب مرة كل أسبوعين إلى بيت تشـوقور جمعة من بيه أوغلو سـيرًا علـى الأقدام؛ وأتناول العشـاء مع العمة نسـيبة، وأشـاهد التلفـاز بصمت، ونحـاول ألا نأتي على ذكر فسـون؛ وأهتم بليمون الذي عجز كثيرًا؛ وأنظر إلى رسوم فسون للطيور رسمًا رسما، ولمدة طويلـة؛ وأصعـد إلـى الأعلى بذريعة غسـل يـدي، وأدخل إلى غرفة فسـون وقلبي يخفق بسرعة، وأفتح الخزانة والأدراج، وأفتش فيها.

خبأت فسون الهدايا التي جلبتها لها طوال أعوام من أمشاط وفرش شعر،

ومرايا صغيرة، ودبابيس صدر على شكل فراشات، وأقراط، وكل شيء في فتحة قسم خزانتها الصغير. إيجادي المناديل التي نسيت أنني أهديتها إياها وأكياس الطومبالا والأزرار الخشبية التي اعتقدت أننا اشتريناها لوالدتها وملاقط الشعر (والموستانغ الدمية التي أهداها إياها السيد طورغاي)، ورسائل الغرام التي أرسلتها لها مع جيدا في الأدراج، ورائحة فسون الكثيفة التي تحملها الأدراج والخزانة تجرني إلى حالة تهيج معنوي تجعلني لا أستطيع الوقوف هناك أكثر من نصف ساعة. أجلس أحيانًا على حافة السرير، وأرتاح وأنا أدخن سيجارة، وأحيانًا أنظر عبر النافذة، وإحدى الشرفات التي رسمت فسون الطيور عليها كي أصبب دموعي، وأحيانًا آخذ من الجوارب والأمشاط واحدًا أو اثنين.

أدرك أنني يجب أن أجمع الأشياء التي بدأت بجمعها على مدى تسعة أعوام منذ البداية، ودون أن أعرف لماذا جمعتها، مع الأشياء التي في بيتها، وحتى كل ما في بيتها في مكان ما، ولكنني لم أعرف أين سيكون هذا المكان. لم أجد جوابًا لسؤالي إلا بعد سفري. عندما بدأتُ بزيارة المتاحف الصغيرة كلها في العالم، أدركت الأمر بكل عمقه.

ذات ليلة مثلجة من شتاء عام ١٩٨٦، وبعد العشاء، وأثناء استعراضي دبابيس الصدر التي على شكل فراشات، والأقراط، والحلي التي جلبتها لفسون دون جدوى، رأيت قرطي فسون الذي بقي أحدهما مفقودًا لأعوام طويلة، ولبسته يوم الحادث في زاوية علبة. أخذت القرطين، ونزلت.

قلت: «عمة نسيبة، هذان القرطان وضعا في علبة حلي فسون حديثًا».

«عزيزي كمال، خبأت ما كان على فسون في ذلك اليوم من الثوب الأحمر إلى الحذاء، وكل شيء من أجل ألا تحزن. قلت لنفسي لأعيدها إلى أمكنتها، وقد انتبهت إليها فورًا».

«هل كانت تلبس القرطين؟».

«لعل ابنتي كانت ستنام في غرفتنا تلك الليلة في ذلك الفندق بعد أن

ذهبتَ إلى غرفتك. ولكنها أخرجتْ هذين القرطين من الحقيبة فجأة، ولبستهما. أنا كنت أراقبها متظاهرة بالنوم. أردت أن تسعدا بعد كل هذا».

لم أقل للعمة نسيبة بأنها قالت لي إن والدتها أقفلت الغرفة.

كيف لم أنتبه إلى القرطين أثناء ممارسة الحب معها؟ ولكنني سألتها سؤالًا آخر:

«عمة نسيبة، نسيت أحد القرطين هذين أمام المرآة في الحمام عندما جئت إلى هذا البيت أول مرة قبل أعوام طويلة. وسألتها: «هل لديك علم به»؟».

«لا أعرف أبدًا يا بني. لا تفتح هذه الأمور ثانية، وتبكيني. ولكنها كانت ستلبس قرطين في باريس، وتفاجئك. هذا ما قالته، ولكنني لا أعرف أي قرطين. كانت فسون ترغب بالذهاب إلى باريس كثيرًا».

بدأت العمة نسيبة بالبكاء. ثم اعتذرت لأنها بكت.

في اليوم التالي، حجزت في فندق دي نورد. وقلت لأمي مساء إنني سأذهب إلى باريس، والسفر سيحسن حالتي.

قالت أمي: «حسنٌ. وتابع الشغل أيضًا، وأمور صاطصاط. لا تدع عثمان يمتلك كل شيء».

٨١ ـ متحف البراءة

لم أقل لأمي: «لست ذاهبًا إلى باريس من أجل العمل». لأنها لو سألتني عن سبب رحلتي، لما استطعت أن أجيبها جوابًا كاملًا. أنا أيضًا لا أريد أن أعرف سبب رحلتي. أثناء ذهابي إلى المطار، كنت مؤمنًا بأن السفر هو عقدة لدفع كفارة إهمالي قرطي فسون.

ولكنني فور ركوبي الطائرة، أدركت بأنني أريد أن أنسى وأعيش حالة من

الخيال في آن واحد. كل زاوية من زوايا إسطنبول مليئة بإشارات تذكرني بها. ومنذ إقلاع الطائرة انتبهت إلى أنني أستطيع التفكير بقصتي مع فسون بشكل أعمق وأكثر تكاملًا خارج إسطنبول. عندما أكون في إسطنبول أراها من خلال عقدتي، أما في الطائرة فقد كنت أرى عقدتي وفسون من الخارج.

شعرت بالسلوان والمفهوم العميق نفسه أثناء تجوالي على غير هدى في المتاحف. أنا لا أتحدث عن متاحف مزدحمة وفخمة مثل اللوفر وبومبيدو، بل عن المجموعات والمتاحف الخاوية التي كثيرًا ما تظهر أمامي، ولا يزورها أحد. عندما أذهب إلى أحد الأمكنة مثل متحف أديت بياف الذي أسسه أحد المعجبين بها، أدخل إليه بموعد مسبق (رأيت فرش شعرها، أمشاطها، دمى الدببة الخاصة بها)، أو متحف الشرطة الذي قضيت فيه يومًا كاملًا، أو متحف جاكومارت أندريه الذي يجمع بين اللوحات والأشياء (رأيت كراسيَّ فارغة، ثريات، أمكنة خاوية تبعث القشعريرة)، وأجوب غرفها وحدي، أشعر بأن حالتي جيدة جدًّا. في إحدى الغرف الخلفية النائية أتخلص من نظرات حراس المتحف الذين يراقبونني ويراقبون وقع قدمي، وأثناء تناهي أصوات المدينة والمواصلات وصخب ورش البناء من الخارج، أشعر بأنني قريب جدًّا من المدينة والزحام، وفي الوقت نفسه أنني في عالم مختلف تمامًا، وأدرك أن غرابة هذا العالم الجديد وجوّه الذي يبدو خارج الزمن يخفف ألمي، ويسليني.

مع شعور السلوان هذا أشعر أيضًا بأنني أستطيع جمع مجموعتي في إطار قصتي، وأحلم بسعادة أنني بعرض حياتي التي تعتقد أمي كما يعتقد أخي والجميع أنني أهدرتها دون جدوى، وعرض ما تبقى من فسون وقصتي في متحف، يمكن أن يكون درسًا للجميع.

متحف نسيم دو كاموندو الذي أعرف أنه شامي من أصول إسطنبولية ذكرني بأنني يمكن أن أعرض أطقم الأطباق والشوكات والسكاكين ومجموعات مملحات عائلة كسكين بفخر، وأشعرني بالحرية. في متحف

البريد شعرت بأنني أستطيع عرض رسائلي لفسون، ورسائلها لي، وفي متحف المفقودات الصغيرة، شعرت أيضًا بأنني أستطيع عرض كل ما يذكرني بفسون، على سبيل المثال، طقم أسنان السيد طارق، وعلب دوائه الفارغة، وفواتيره. كادت أن تدمع عيني لرؤيتي فرشاة أسنان الموسيقار الشهير موريس رافيل وفناجين قهوته، وتماثيله الصغيرة، ودماه، وألعابه، والقفص الحديدي الذي في داخله بلبل معدني يغني (ذكرني بليمون فورًا) في متحفه المنزلي الواقع خارج المدينة، واستغرق ذهابي إليه بسيارة أجرة ساعة. لم أكن أخجل من مجموعتي التي في بناء مرحمة أثناء زيارتي لهذه المتاحف في باريس. كنت أتحوّل تدريجيًّا من جامع أشياء يخجل مما جمعه إلى صاحب مجموعة يشعر بالفخر.

لا تحدث هذه التحولات في روحي عبر هذه المفاهيم فقط، بل وأشعر بالسعادة عندما أدخل إلى المتاحف، وأحلم بأنني أستطيع أن أقص قصتي بواسطة الأشياء. قبضت على نفسي ذات مساء أثناء شربي في بار فندق دي نورد ونظري إلى الأجانب من حولي متلبسًا بالتفكير بما يفكر فيه الأوربيون حولي، وحتى حولنا جميعًا مثل أي تركي خرج خارج بلده (وتلقى قليلًا من التعليم، وغني إلى حد ما).

فيما بعد فكرت كيف يمكن أن أشرح ما شعرت به إزاء فسون لمن لا يعرف إسطنبول ونيشان طاش وتشوقور جمعة. كنت أرى نفسي شخصًا ذهب إلى بلدان بعيدة، وقضى هناك أعوامًا طويلة: كأنني عشت بين سكان نيوزيلندا المحليين، وفي أثناء مراقبتي لطريقة عملهم، واستراحتهم، ولهوهم (وكلامهم أثناء مشاهدة التلفاز)، وتقاليدهم عشقت فتاة. تداخلت مشاهداتي مع عشقي.

ومثل عالم إنسانيات، لا يمكنني أن أعطي أعوام حياتي معنى إلا إذا عرضت الأشياء والمواعين والحلي والألبسة والرسوم التي جمعتها.

ذهبت في أيامي الأخيرة إلى متحف غوستاف مورو لأن بروست تحدث

عن هذا الرسام بحب. كانت رسوم الطيور التي رسمتها فسون ببالي، وتمرير الوقت أيضًا. لم أستطع أن أحب لوحات مورو التاريخية المصطنعة ذات الأسلوب الكلاسيكي، ولكن المتحف أعجبني. أعطى الرسام مورو آخر فترة من أعوام حياته الأخيرة لتحويل بيت عائلته الذي قضى فيه معظم حياته إلى متحف بعد موته تعرض فيه آلاف اللوحات التي رسمها، وحوّل فعلًا مرسمه الكبير المؤلف من طابقين مع البيت المجاور إلى متحف. بتحويل المنزل إلى متحف، تحول إلى نوع من بيت ذكريات أو «متحف عواطف» تشع كل قطعة من قطعه بالمعاني. أثناء سيري في غرف المتحف الخاوية وحراسه جميعًا نيام، وصرير قدمي على الأرض، سيطر علي شعور يشبه الشعور الديني (زرت هذا المتحف في الأعوام العشرين التالية سبع مرات، وكلما سرت ببطء في غرفه، شعرت بالخشوع نفسه).

عندما عدت إلى إسطنبول، ذهبت بسرعة إلى العمة نسيبة. بعد أن حدثتها عن باريس ومتاحفها باختصار، وبعد جلوسنا إلى العشاء بقليل، فتحت الموضوع الذي أفكر فيه فورًا.

قلت براحة مريض شفي من مرض مزمن يستطيع أن يبتسم: «تعرفون يا عمة نسيبة أنني أخذت من هذا البيت أشياء طوال سنوات. الآن أريد أن آخذ البيت نفسه، والبناء كله».

«كيف؟».

«بيعيني هذا البيت كله، والبناء بأغراضه».

«ماذا سيحل بي؟».

ناقشنا الموضوع بمزيج من الجد والمزاح. وقلت لها كلمات منمقة مثل: «سأعمل هذا البيت ذكرى لفسون». وكنت أدقق على موضوع تعاسة العمة نسيبة وحدها في هذا البيت وهي تشعل المدفأة. بكت العمة نسيبة قليلًا على «وحدتها». أخبرتها أنني وجدت شقة بناء جيد جدًّا في زقاقهم القديم بستان البئر في نيشان طاش.

قالت: «أي بناء؟».

بعد شهر، اشترينا شقة كبيرة للعمة نسيبة في أجمل مكان من زقاق بستان البئر، على مقربة من بيت فسون القديم (مقابل دكان العم السافل المتحرش بائع السجائر والصحف تمامًا). وأعطتني العمة نسيبة بيت تشوقور جمعة بطابقه السفلي وما فيه من أغراض. نصحني صديقي المحامي الذي وُكِّل بدعوى طلاق فسون بأن آخذ ورقة تنازل عن الأغراض مصدقة لدى الكاتب بالعدل، ففعلنا هذا.

لم تتسرع العمة نسيبة بالانتقال إلى بيتها الجديد في نيشان طاش. وبدعم مني تشتري أغراضًا جديدة، وترتبها، وتركب مصابيح مثل عروس صبية، ولكنها في كل لقاء لنا تقول لي باسمة إنها لن تستطيع الخروج من بيت تشوقور جمعة.

كانت تقول: «ابني كمال، أنا لا أستطيع ترك هذا البيت وذكرياتي، ماذا سنفعل؟».

وأنا أقول لها: «في هذه الحالة سنحول البيت إلى مكان نعرض فيه ذكرياتنا يا عمة نسيبة».

كنت أراها مرات أقل بسبب رحلاتي المتزايدة تدريجيًّا. لأنني لم أكن أعرف بعد ما سأفعله بالبيت والأغراض وكل ما يتعلق بفسون، وأخشى عليه حتى من نظري.

شكلت رحلتي الأولى لباريس نموذجًا لرحلاتي الأخرى. عندما أذهب إلى مدينة جديدة، أنزل في فندق قديم وسطها حجزت فيه من إسطنبول، وأزور متاحفها التي أكون قد اطلعت على معلوماتها من الأدلة والكتب من قبل بتأن مثل طالب مجد ينفِّذ وظيفة بيتية دون أي نقص، وأستعرضُ أسواق الأدوات المستعملة ومحلات التحف القديمة والتماثيل الصغيرة، وأشتري مملحة أو منفضة سجائر أو فتاحة زجاجات رأيت مثلها في بيت عائلة كسكين أو أعجبتني. عندما يحين وقت العشاء في ريو دي جانيرو،

أو هامبرغ، أو باكو، أو كيوتو، أو ليشبونة أو حيثما كنت من العالم، أسير في الأزقة الخلفية والأحياء النائية طويلًا، راغبًا برؤية ما داخل البيت من نوافذه المفتوحة، والعائلات الجالسة إلى العشاء مقابل التلفاز، والأمهات وهن يطبخن الطعام في مطبخ له نافذة كما في بيت فسون، والأولاد، والآباء، وحتى الصبايا المتزوجات وأزواجهن محطمي الآمال، وحتى رؤية قريبٍ يعشق ابنة البيت.

في الصباح، أفطر في الفندق على مهل، وأمشي في الشوارع، وأمضي الوقت في المقاهي حتى ساعة فتح المتاحف الصغيرة، وأرسل لكل من أمي والعمة نسيبة بطاقة بريدية، وأحاول معرفة ما يدور في العالم وإسطنبول من الجرائد المحلية، وعندما تشير الساعة إلى الحادية عشرة، أبدأ بزيارة المتحف بتفاؤل وأنا أحمل دفترًا.

في غرف متحف مدينة هلسنكي الذي دخلت إليه صباح يوم بارد وماطر، شخصت أمامي زجاجات دواء السيد طارق التي وجدتها في درجه. رأيت قبعات مطابقة تمامًا لقبعات والدتي ووالدي في مصنع قبعات قديم تحول إلى متحف في مدينة كازيل الصغيرة قرب ليون وأنا أتجول في غرفه التي تفوح برائحة العفن (لم يكن في الداخل غيري). أثناء فرجتي على أوراق اللعب والخواتم والعقود ومجموعات الشطرنج واللوحات الزيتية في متحف ولاية فورتنبيرغ المخصص له برج قلعة قديمة في شتوتغارت، استلهمت فكرة أن عشقي لفسون وأغراض عائلة كسكين تستحق عرضًا مبهرجًا كهذا. قضيت يومًا كاملًا في مركز العطر في مدينة غراس «مركز العطر العالمي» جنوب فرنسا وعلى مبعدة من البحر المتوسط وأنا أحاول تذكر عطر فسون. لوحة «أضحية حضرة إبراهيم» لرامبرانت التي رأيتها في متحف ألتة بناكوهوتك في ميونخ الذي اتخذتُ من أدراجه المرتفعة نموذجًا لمتحفي، ذكرتني بجوهرها، وهو تقديم مالنا دون انتظار أي مقابل، وشرحي هذه القصة لفسون قبل أعوام طويلة. في متحف الحياة الشاعرية في باريس نظرت طويلًا إلى قداحة جورج ساند، ومجوهراتها، وأقراطها، وشعرها

المغروز على ورقة، وشعرت بقشعريرة. في متحف التاريخ الذي يروي قصة مدينة غوتنبرغ، جلست بصبر أمام الخزفيات والأطباق التي جلبتها شركة الهند الشرقية. عندما عرفت أن متحف مدينة بريفيك الصغيرة الذي ذهبت إليه بناء على نصيحة زميلي من أيام المدرسة الموظف في السفارة التركية في أوسلو في آذار/ مارس ١٩٨٧، عدت إلى أوسلو، وبتُّ فيها، ثم جئت في اليوم التالي لرؤية بريد عمره ثلاثة قرون وأستوديو تصوير. متحف البحر الذي يضمه بناء استخدم في زمن ما سجنا في مدينة تريس، ذكرني قبل كثير من المتاحف من خلال إحدى نماذج سفن البوسفور (قلندر على سبيل المثال) المرتبطة بذكرى فسون بكثير من أشياء عقدتي التي يمكن عرضها. في هندوراس التي تعبت كثيرًا بالحصول على تأشيرة دخولها، وفي مدينة لاسيبا على الساحل الكاريبي، أثناء سيري بين السياح بالتبانات في متحف الفراش والحشرات، حلمت بأنني أستطيع أن أعرض عقود الفراشات التي اشتريتها لفسون في مجموعة، وحتى يمكنني أن أفعل الشيء نفسه في بيت عائلة كسكين فأعرض بعوضًا، وذبابًا، وقرادًا وحشرات أخرى. في المتحف الطبي الصيني في مدينة هانغزهو الصينية شعرت بأنني أمام علب دواء السيد طارق. رأيت بكبرياء أن مجموعة متحف النفق المفتوح حديثًا في باريس أضعف من مجموعتي بكثير. ذات صباح ربيعي ممتع في مدينة آكس أون بروفانس، أذكر أنني نظرت إلى المواعين والأشياء على رفوف غرف متحف مرسم بول سيزان المضيئة بسعادة غير محدودة. أدركت مرة أخرى في متحف روكوكس المنزلي المتلألئ المخدوم في أنتويرب جمالًا يربطني بالحياة في المتاحف المنزلية الصغيرة الصامتة حيث يندس الماضي بالأشياء كالروح. ولكن هل من الضروري أن أذهب إلى متحف فرويد في فينا، وأرى مجموعة الطبيب الشهير المكتظة بالتماثيل والأشياء القديمة من أجل قبول مجموعتي التي في بناء مرحمة، وأباهي بعرضها؟ هل كانت زيارتي لدكان الحلاق القديم في متحف مدينة لندن في كل زيارة من زياراتي الأولى ناجم عن شوقي للحلاق بصري في إسطنبول أو الثرثار جواد؟ في متحف الممرضة

الشـهيرة التي ذهبت إلى إسـطنبول أثناء حرب القرم فلورانس نايتنغل داخل مستشـفى في لندن ذهبت إليه على أمل رؤية صورة من إسـطنبول، فلم أر ما يذكرني بإسـطنبول، بل ملقط شـعر تسـتخدم فسـون واحدًا طبق الأصل له. في متحف الزمن داخل قصر قديم في مدينة بيسانتشـون في فرنسا، استمعت للصمت العميق وسـط السـاعات، وفكرت بالمتاحف والزمن. أثناء سـيري فـي متحف تيلر في مدينة هارلـم الهولندية وأنا أتفرج على الفلزات المعدنية والمسـتحدثات والميداليـات والنقـود والآلات القديمـة في خزائن خشـبية قديمـة ذات واجهات زجاجية، اعتقدت بأنني سـألهم بمـا يعطي حياتي التي عشتها معنى ويمنحني شعورًا عميقًا بالسلوان، ولكنني لم أستطع التعبير عما يربطني بهذه الأمكنة فورًا، كما في حالة العشـق. شـعرت بالسعادة نفسها في متحـف القديس جورج فورت أول قلعة للإنكليز في الهند في مادراس أثناء مطالعتي للرسـائل واللوحات الزيتيـة والنقود والأشـياء اليومية وتدور فوق رأسـي مروحـة في جو حار ورطـب. التجوال فـي متحف كاستلفيتشـيو في فيرونا، وصعود أدراجه، ورؤية الضوء السـاقط علـى تماثيل المعماري كالو سـكاربا كالحريـر جلب إلى تفكيـري لأول مرة بأن المجموعـة التي يضمها المتحـف لا تمنحني السعادة وحدها، بل والتوازن في توزيع الرسوم والأشياء أيضًا. ولكن متحف الأشياء الذي استضيف فترة في بناء مارتن غروبيوس في برلين، ثم بقي دون مأوى فيما بعد، علمني أن العكس أيضًا ممكن، إذ يمكن جمع كل شيء بذكاء ومرح، وأننا يجب أن نجمع كل ما نحب، وكل ما يتعلق بمن نحب، وإن لم يكن لدينا بيتنا ومتحفنا، فإن شِـعر مجموعتنا سيكون بيتًا لهذه الأشياء. دمعت عيناي بداية لأنني لم أر لوحة الفنان كارافاغو الموسومة «التضحية بإسماعيل» التي رأيتها في متحف أوفيزي في فلورنسا، ثم تذكرت العبـرة من قصة سـيدنا إبراهيـم بوضع الآخر مكان من نحب، وأرتني سـبب ارتباطي بأغراض فسـون طوال أعوام. كلما ذهبت إلى لندن أجلس سـاعات في متحف منزل السـير جون سـوان الذي أدوخ إعجابًا بفوضويته وأسـلوب عرض الرسـوم فيه، وأسـتمع لصخـب المدينة، وأشـعر بالسـعادة وأنا أفكر

بأنني سأعرض أشياء فسون على هذا النحو ذات يوم، وأن روحي حبيبتي ستبتسم لي من بين الملائكة. ولكن المتحف العاطفي في الطابق الأخير من متحف فريدريك ماريس في برشلونة حيث يُملأ بالأقراط، وأوراق اللعب، والمفاتيح، والمراوح، وزجاجات العطر، والمناديل، ودبابيس الصدر، والعقود، والحقائب، والأساور، أفضل من علمني ما أفعله بالأشياء الآيلة من فسون. في جولتي الأمريكية الأولى التي استغرقت أكثر من خمسة أشهر، وزرت فيها مائتين وثلاثة وسبعين متحفًا، تذكرت القسم الشاعري من متحف القفازات في مانهاتن. عندما كنت في متحف تقنيات العصر الجوراسي في لوس أنجلس شعرت بالقشعريرة التي شعرت بها في بعض المتاحف الخاصة، وذكرني بأنني علقت في مكان آخر أثناء عيش الناس في زمن آخر. عندما رأيت صور آفا غاردنر في سجل المدرسة السنوي، وثوب نومها، وقفازيها، وبوطها في متحفها في مدينة سمثفيلد في كارولينا الشمالية حيث سرقتُ لوحة معرض محبب لدعاية طقم سفرة خزفي للنجمة الشهيرة، اشتقت لفسون بألم إلى درجة أنني أردت أن أقطع رحلتي، وأعود إلى إسطنبول. بعد أن قضيت يومين من أجل رؤية مجموعة علب المياه الغازية والبيرة في متحف علب المشروبات والإعلانات المفتوح حديثًا في تلك الأيام قرب ناشفيل، وأغلق فيما بعد، أذكر أنني رغبت ثانية بالعودة إلى البيت، ولكنني تابعت. بعد خمسة أسابيع، وفي متحف آخر سيغلق لاحقًا، عندما رأيت عدادات سيارة البويك موديل ١٩٦٦ وقطعها المفتتة والصدئة التي عملت فيها حادثًا نجمة السينما الشهيرة في الستينيات جين مانسفيلد في متحف التراجيدية في التاريخ الأمريكي في مدينة سانت أوغوسطين في فلوريدا، قررت أخيرًا العودة إلى البيت في إسطنبول. أدركت بأن صاحب المجموعة الحقيقي يجب أن يكون لديه متحفه الخاص.

لم أبق طويلًا في إسطنبول. عندما رأيت الشفروليه ١٩٥٦ تحت شجرة تين في مقسم خلف ورشة المعلم شوكت مصلحها الخاص الذي وجدته في مكان خلف طريق المذبح دلني عليه تشتين أفندي، ترنحت للحظة من

الانفعال. كان غطاء صندوقها مفتوحا يتجول فيه دجاج خم الشبك وسط الخردة، ويلعب الأولاد حولها. بعض أمكنة السيارة بقيت كما هي بحسب قول المعلم شوكت. غطاء خزان الوقود، وعلبة السرعة، وقضيب إطار الزجاج الخلفي وعدة قطع بقيت سليمة بعد الحادث، ركبها على سيارات موديل ٥٦ ما زالت تعمل أكثرها في إسطنبول بالخدمة. دسست رأسي داخل السيارة حيث المؤشرات والإبر والأزرار والمقود التي غدت خردة، وترنحت قليلًا عندما شممت رائحة غطاء المعقد المرتفعة حرارته بتأثير الشمس. لمست المقود الذي يعود قدمه إلى طفولتي بدافع غريزي. ترنحت بكثافة الذكريات المدسوسة داخل الأشياء، وتعبت.

قال تشتين أفندي بتفهم: «سيد كمال، ماذا حدث؟ استريحوا هنا لو سمحتم. كأس ماء إذا أمكن يا أولاد».

كادت الدموع تزرف من عيني أول مرة أمام الآخرين بعد وفاة فسون. استجمعت قوتي فورًا. أثناء شربنا الشاي التي جلبها ولد أجير مسوّد كعمال مناجم الفحم وملوث بالزيت ونظيف اليدين في صينية كُتب عليها قبرص تركية (أكتب هذا نتيجة الاعتياد، لكي لا يبحث زوار متحف البراءة دون جدوى)، أجرينا مساومة قصيرة، واستعدنا سيارة والدي.

سأل تشتين أفندي: «أين سنضع هذه الآن يا سيد كمال؟».

قلت: «أريد أن أعيش إلى آخر حياتي تحت سقف واحد مع هذه السيارة».

قلت هذا مبتسمًا، ولكن تشتين أفندي فهم رغبتي بصدق، ولم يقل كالآخرين: «الرحمة يا سيد كمال، يجب ألا نموت مع الميت». لو قال، لقلت له إنني أسست متحف البراءة من أجل العيش مع الميت. لأن هذا الجواب الذي حضرته بقي في داخلي، قلت شيئًا آخر تمامًا بتفاخر.

«هناك كثير من الأشياء أيضًا في بناء مرحمة. أريد أن أجمعها كلها في مكان واحد، وأعيش معها».

كان لـدي كثير من أبطال المتاحف الذين حولوا بيوتهم التي عاشـوا فيها أعـوام حياتهـم الأخيرة مـع مجموعاتهـم إلـى متاحف تفتح بعـد موتهم مثل غوسـتاف مورو. كنت أحـب المتاحف التي أسسـوها. وتابعت رحلاتي من أجـل زيارة مئات المتاحف التي أحببتهـا، وآلاف المتاحف التي لم أرها قط ولدي فضول لرؤيتها.

٨٢ ـ أصحاب المجموعات

فـي رحلاتي العالميـة، وتجربتي الإسـطنبولية طوال أعـوام، رأيت هذا: هناك نوعان من أصحاب المجموعات:

١ . مفاخـرون بمجموعاتهـم، ويريدون أن يعرضوها (يظهر هؤلاء عمومًا في الحضارة الغربية).

٢ . خجولون يضعون ما يجمعونه جانبًا (وضع خارج الحداثة).

بحسـب المفاخريـن فـإن المتاحـف هـي نتيجـة طبيعيـة للمجموعات. وبرأيهـم فـإن المجموعـة مهما كانت أسباب البدء بجمعها، فهـي تعد لكي تعرض بفخر في متحف. في القصص الرسمية للمتاحف الصغيرة والخاصة رأيت هذا كثيرًا: كتب في تعريف متحف علب المشـروبات والدعايات على سـبيل المثـال أن توم تناول مـن الأرض أول علبة مياه غازيـة أثناء عودته من المدرسة. فيما بعد أخذ الأخرى، ثم الثالثة، وجمعها، وبعد فترة أصبح هدفه «جمع علب المياه الغازية كلها» ثم عرضها في متحف.

أما الخجولون فيجمعون من أجل الجمع. وجمع الأشـياء بالنسـبة إليهم في البداية ـ سيسـتنتج القارئ أنهم مثلي ـ هو سلوان لألم في الحياة، أو دافع مجهول، وحتى علاج مثل الجامعين المفاخرين. ولأن المجتمع الذي يعيش فيـه جامعـو المجموعـات الخجولـون لا يهتـم بالمجموعـات والمتاحف، فيعيشـون عملية الجمـع باعتبارها أمـرًا مخجلًا يجب إخفـاؤه، وليس لأنها

أشياء ذات أهمية تساهم بتقديم علم ومعلومات. لأن المجموعات في بلد الخجولين تشير إلى جرح صاحب المجموعة فقط، وليس إلى معلومة.

في أثناء بحثي عن ملصقات الأفلام التي شاهدناها في صيف عام ١٩٧٦ وصور مداخل سينماتها من أجل عرضها في متحف البراءة، علمني فورًا أصحاب مجموعات السينما الذين أقمت معهم علاقة في الأشهر الأولى من سنة ١٩٩٢ خجل الجمع، وذلك الشعور المظلم الذي سأراه لاحقًا في أماكن كثيرة من المدينة. بعد أن اشتريت صور مدخل فيلمي «عذاب العشق ينتهي بالموت» و«بين نارين» من السيد حافظ إثر مساومة شديدة، أعاد شكره لي مرات لاهتمامي بمجموعته، ودخل بحالة المعتذر.

قال: «أنا حزين جدًّا لأنني أبيعكم هذه الأمور، وأُبعدها عني يا سيد كمال. ولكن ليرى الذين يضحكون على هوايتي، ويسخرون مني، ويقولون «لماذا تملأ البيت بهذه الأوساخ؟» أن واحدًا مثلكم متعلما وابن عائلة محترمة اهتم بما جمعته. أنا لا أشرب الخمر، ولا أدخن، ولا ألعب القمار، ولا أعمل فسوقًا. عادتي الوحيدة هي جمع صور الفنانين والأفلام... هل تريدون الصورة الملتقطة في سفينة ڤالندر من فيلم «اسمعوا صرخة أمي» الذي مثلته نرجس في طفولتها؟ كان ثوبها بحمالتي كتف، وكتفاها عاريين... هل تأتون إلى هذا البيت المتواضع ذات يوم لأريكم صور فيلم «القصر الأسود» الذي لم يكتمل تصويره لأن بطله طاهر طان انتحر، ولم يرها أحد غيري؟ غير هذا لدي صور فيلم «المحطة المركزية» من الجيل الأول للسينما التركية الألمانية المشتركة الذي مثلت فيه العارضة الألمانية إنغة شخصية الحملة الإعلانية لأول مياه غازية وطنية تركية بالفواكه، وأدت دور السيدة الألمانية الطيبة المحبة للأتراك، وتتبادل القبل من الشفتين مع أكرم غوتشلو لضرورة الدور».

عندما سألته: «أين يمكنني أن أجد ملصقات الأفلام التي أبحث عنها؟». أخبرني السيد حافظ بأن كثيرًا من بيوت أصحاب المجموعات مليئة بالصور

والملصقات. عندما تمتلئ غرف بيت جامع المجموعة بقطع الأفلام والصور والأوراق والجرائد والمجلات، ولا يبقى مكان لأقربائهم الذين يعيشون معهم (أغلبهم لا يتزوجون)، فيبدءون بجمع كل شيء، وتغدو بيوتهم مزبلة لا يمكن الدخول إليها. لدى بعض مشاهير أصحاب المجموعات ما أبحث عنه، ولكن الإنسان لا يمكن أن يجد ما يبحث عنه في هذه البيوت المزابل، وأصلًا مجرد الدخول إليها صعب.

على الرغم من هذا لم يحتمل السيد حافظ إلحاحي، ونجح بإدخالي إلى بعض البيوت التي يعتبرها أصحاب الهوايات الإسطنبوليين في التسعينيات أسطورة.

كثير من صور مداخل السينمات التي أعرضها في متحفي، ومشاهد إسطنبول، والبطاقات البريدية، وتذاكر السينما، وقوائم طعام المطاعم التي لم أفطن للاحتفاظ بها وقتئذ، وعلب الكونسروة الصدئة القديمة، وصفحات الجرائد القديمة، وأكياس الورق التي عليها شعارات الشركات، وعلب الدواء، والزجاجات، وصور الفنانين والمشاهير، وصور الحياة اليومية المعبرة عن إسطنبول التي عشناها ـ فسون وأنا ـ بالشكل الأمثل، وجدتها بنفسي في بيوت الزبالة. قال لي صاحب بيت قديم مؤلف من طابقين في طرلاباشِ مظهره طبيعي نسبيًّا مفاخرًا وهو يجلس على كرسي بلاستيكي بأن لديه ألفين وسبعمائة واثنتين وأربعين قطعة.

شعرت بالخجل الذي شعرت به في ذلك البيت وأنا أنظر إلى «مجموعة» في غرفة بيت في أسكودار دخلته بصعوبة بالغة، يعيش فيه جابي غاز طبيعي متقاعد مع والدته طريحة الفراش وفيه مدفأة غاز (لا يستطاع الدخول إلى غرف البيت الأخرى المليئة بالأغراض، والباردة كالثلج: رأيت من بعيد مصابيح قديمة، وعلب سائل فيم للجلي، وبعض ألعاب طفولتنا). لم يكن حزني هناك نتيجة تأنيب الأم طريحة الفراش لابنها جابي الغاز الطبيعي المتقاعد، وإهانته باستمرار، بل لمعرفتي بأن هذه الأشياء كلها ذكريات

أناس تجولوا في أزقة إسطنبول، وعاشوا في بيوتها، ومات أغلبهم الآن، ستزول دون أن تصنّف، أو تدخل أي خزانة زجاجية، أو متحف. في تلك الأيام استمعت لقصة مصور رومي حزينة أحرق صوره السلبية كلها في موقد تدفئة بناء مركزية لعدم وجود مكان، أو طالب لها بعد أن عمل أربعين عامًا بتصوير حفلات الأعراس والخطوبة وأعياد الميلاد واجتماعات العمل والخمارات. لم يطلب أحد الصور السلبية لأعراس مركز المدينة وملاهيها واجتماعاتها كلها ولو بالمجان. أصحاب بيوت الزبالة يغدون محط سخرية في أحيائهم، ويخشى منهم بسبب مزاجهم العكر ووحدتهم وعبثهم بصفائح الزبالة وعربات باعة الأدوات المستعملة. أخبرني السيد حافظ من دون إبداء حزن زائد، وكأنه يخبرني عن حقيقة حياتية، أن كوم الأشياء التي في بيوت هؤلاء الوحيدين بعد وفاتهم إما أن تحرق في مقسم فارغ (المقسم الذي تذبح فيه الأضاحي في العيد) بما يشبه المراسم الدينية، أو تعطى للزبال أو بائع الأدوات المستعملة.

في كانون الأول/ ديسمبر من عام ١٩٩٦ انهارت أبراج الورق والأشياء القديمة على جامع أشياء (في الحقيقة من الخطأ تسميتهم أصحاب مجموعات) وحيد يدعى نجدت آضصظ في بيته الصغير الكائن في طوبخانة على مسافة مسير سبع دقائق من بيت عائلة كسكين، ومات، ولم ينتبه أحد إلى هذا إلا بعد أربعة أشهر عند دخول الصيف، وفوحان رائحة لا تحتمل من البيت. ولم يستطع رجال الإطفاء الدخول إلا من النافذة لأن الأشياء سدت الباب من الخلف. وعندما كتبت الجرائد عن الموضوع بمزيج من السخرية والإخافة، صار الإسطنبوليون يخافون أكثر من جامعي الأشياء. تفصيلٌ آمل ألا يجده القارئ دون جدوى، كنت مدانًا بكل شيء لاستطاعتي التفكير في تلك الأيام بكل ما يتعلق بفسون في الوقت نفسه. نجدت آضصظ الذي مات مسحوقًا تحت الأشياء والجرائد، وتفسخ جسده هناك، هو نجدت الذي ذكرته فسون في نهاية حفل خطوبتي في الهيلتون عندما دار الحديث حول تحضير الأرواح، واعتقدت أنه مات.

رأيت في عيون أصحاب المجموعات الأخرى الذين ساهموا بتأسيس متحفي وذكرى فسون ـ وأشكرهم على مساهمتهم هذه ـ خجلًا عميقًا وشعورًا بأن عملهم مخجل يجب إخفاؤه. ذكرت سابقًا صاحب مجموعة البطاقات البريدية الأشهر في إسطنبول السيد خالد المريض الذي عرفته أثناء محاولتي الحصول على بطاقة لكل حي وزقاق زرناه ـ فسون وأنا ـ في أحد الأيام بين عامي ١٩٩٥-١٩٩٩. عرض علي صاحب مجموعة مقابض أبواب ومفاتيح بفرح، ولا يريد أن أذكر اسمه في كتابي، وقال إن كل إسطنبولي يمسك ما لا يقل عن عشرين ألف مقبض باب في حياته، ومن المؤكد أن حبيبتي لمست غالبية هذه المقابض، وأقنعني. وأشكر هنا جامع الصور السيد سيامي الذي وهب آخر ثلاثين عامًا من حياته للحصول على صورة كل سفينة عبرت البوسفور بعد اختراع التصوير، وأعطاني صورة من التي لديه اثنتان منها، ومنحني فرصة عرض السفن التي كنت أسمع أبواقها أثناء تفكيري بفسون لزوار المتحف، وهو لا يخجل نهائيًّا من عرض ما جمعه على الناس كأي غربي.

أنا مدان بالشكر لصاحب مجموعة صور الياقات المعلقة في الجنازات بين عامي ١٩٧٥-١٩٨٠، وهناك صاحب مجموعة آخر حريص لم يرغب بذكر اسمه ساومني بشدة على كل صورة، ثم سأل السؤال الأساسي الذي سمعته من هذا النوع من الناس كثيرًا بأداء مستخف، وأجبته الجواب المحفوظ الذي أجيب به الجميع.

«أعمل متحفًا..».

«لا أسأل عن هذا. لماذا تطلب هذه، هذا ما أسأله عنه».

كان هذا السؤال يعني بأن وراء كل صاحب عقدة بجمع الأشياء، وحفظها في مكان جرحُ قلب، وهمٌّ عميق، وجرحٌ نفسي يصعب شرحه. ما هي مشكلتي؟ هل ماتت من أحبها، وأتحرق همًّا لأنني لم أضع صورتها

على ياقتي؟ أم هناك همٌّ عميق ومخجل لا أستطيع الإفصاح عنه مثل صاحب هذا السؤال؟

ومثلما كان جامعو الأشياء في إسطنبول يستخفون بأنفسهم في التسعينيات بسبب عقدتهم وعدم تطور المتاحف الشخصية، كان كل منهم يستخف بالآخر أيضًا في كل فرصة. ويصبح الأمر أسوأ حين تدخل الغيرة مع هذا الاستخفاف. سُمع هنا وهناك بانتقال العمة نسيبة إلى نيشان طاش، وجهدي بتحويل بيت عائلة كسكين بواسطة المعماري إحسان، أي أنني غني، و«أسستُ متحفًا خاصًّا كما في أوربا تمامًا». هذا ما جعلني آمل بأن يخفف جامعو الأشياء في إسطنبول استخفافهم. لأنه يمكن التفكير بأنني أجمع هذه الأشياء، وأفتح متحفًا لأنني غني ومن أجل المكانة فقط، وليس لأن لدي جرح نفسي مثلهم، بمعنى أنني مضروب بمخي.

إثر إلحاح السيد حافظ، وعلى أمل إيجاد ما يذكّر بفسون وله مكان في قصتي، ذهبت إلى اجتماع «رابطة محبي الأشياء القابلة للجمع» وهي الأولى من نوعها في تركيا، ومؤسسة حديثًا في تلك الأيام. شعرت بنفسي هناك في صالة أفراح صغيرة استأجرت صباحًا بأنني وسط مصابين بالجدري منبوذين خارج المجتمع. عاملني بعض أعضاء الجمعية الذين سمعت بأسمائهم من قبل (بينهم صبحي البارد جامع علب الكبريت، وسبعة آخرون يعرفهم غالبية القراء) باستخفاف أكثر مما يعاملون جامع أشياء إسطنبولي، ويعاملون بعضهم بعضًا. قليلًا ما تحدثوا معي، ونظروا إلي كأنني جاسوس أو غريب، وجرحوا قلبي. وكما شرح لي فيما بعد السيد حافظ باعتذار، فإن بحثي عن دواء لمشكلتي بالأشياء، يثير غضبهم واشمئزازهم، وحتى اليأس إزاء الحياة. لأن هؤلاء أناس بسطاء يعتقدون بأنهم سيشفون من مرضهم فيما لو أصبحوا أغنياء ذات يوم. عندما انتشر خبر عشقي لفسون تدريجيًا بالقيل والقال، قدم لي جامعو الأشياء الجادون الأوائل هؤلاء في إسطنبول المساعدة، وأفصحوا لي عن نضالهم بالخروج من تحت الأرض إلى النور.

قبل نقل الأشياء التي في بناء مرحمة إلى متحف تشوقور جمعة، التقطت صورة عامة لمجموعتي المتراكمة في الغرفة التي مارست فيها الحب أول مرة مع فسون (أصبح يتناهى صوت جهاز التهوية من الحديقة الخلفية بدلًا من صياح الأولاد الذين يلعبون كرة قدم، وشتائمهم). عندما جمعت هذه الأشياء مع الأخرى التي وجدتها في رحلاتي، وما في بيت عائلة كسكين، وما حصلت عليه من بيوت الزبالة وأعضاء الجمعية ومعارفي الذين دخلوا بقصتي في متحف تشوقور جمعة المنزلي، تجلت أمام عيني كالصورة فكرة خطرت لي في أسواق الأشياء المستعملة بشكل خاص.

الأشياء، والمملحات تلك كلها، ودمى الكلاب، والكشتبانات، والأقلام، وملاقط الشعر، ومنفضات السجائر تغيّر عالمها مثل اللقالق التي تمر بإسطنبول مرتين في العام. رأيت مثل هذه القداحة التي اشتريتها لفسون في أسواق أثينا وروما للأشياء المستعملة، وما يشبهها كثيرًا في دكاكين باريس وبيروت. أنتجت هذه المملحة التي بقيت على مائدة عائلة كسكين سنتين في إحدى ورش إسطنبول، ورأيت مثلها في مطاعم إسطنبول النائية، ولكنني رأيتها في مطعم إسلامي في نيودلهي، ومطعم قديم في أحد الأحياء القاهرية القديمة، وعلى بسطة يفرشها باعة الأشياء القديمة يوم الأحد على الرصيف في برشلونة، وفي دكان يبيع أدوات مطبخ في روما. من الواضح أن أحدهم أنتج هذه المملحة في مكان ما، واستخرجوا قالبها في دول أخرى، وصنعوها بمواد شبيهة، وطرحوها في السوق. ملايين نسخ المملحة تستخدمها ملايين العائلات لأعوام طويلة في جنوب البحر المتوسط ودول البلقان بشكل خاص. طريقة توزع المملحات على تلك الزوايا البعيدة قضية غامضة مثلها مثل طريقة تواصل الطيور المهاجرة فيما بينها. تأتي بعد ذلك موجة مملحات أخرى، وتترك المملحات القديمة مكانها مثل الرياح التي تهب على الشاطئ، وينساها الناس من دون أن ينتبهوا حتى إلى الزمن المهم الذي أمضوه معها، والعلاقة العاطفية التي ربطتهم بها.

أخذت السرير الذي مارسنا عليه الحب ـ فسون وأنا ـ في بناء مرحمة

وفراشـه الـذي تفوح منه رائحة العفـن، وملاءته الزرقاء إلـى الطابق الملحق بالبناء الـذي أعدت إعداده متحفًا، وأعدت ترتيبهـا. الطابق الملحق المظلم العَفِـن الـذي كانت الفئـران والعناكـب والصراصير تتجول فيـه، ويوجد فيه خزان الماء عندما كانت عائلة كسكين تعيش في هذا البيت، أصبح الآن غرفة مشـرقة تطـل على النجوم. بعد أن وضعت السـرير هناك، وليلة شـربي ثلاثة كئوس عرق، أردت أن أنام مع هذه الأشياء التي تذكر بفسون وأنا أعانق جوها الشـاعري. وذات مساء ربيعي دخلت إلى البيت المحوّل إلى متحف من بابه الجديد على زقـاق ضالغتش بالمفتاح، وصعدت درجه الطويل والمسـتقيم كشبح، وألقيت بنفسي على السرير، ونمت.

البعـض يملئون البيت الذي يعيشـون فيه بالأشـياء، وفـي أواخر حياتهم يحولون هذا البيت إلى متحف. أما أنا فأحاول أن أحول من جديد بيتًا حولته إلى متحف ليكون سريري وغرفتي ووجودي، وما يمكن أن يكون أجمل من النوم ليلًا في المكان نفسه الذي يرتبط معه بعلاقات عاطفية عميقة!

بـدأت أبيت علـى الأكثر في قسـم الملحق أيـام الربيع والصيف بشـكل خاص. بفضل الفراغ الواسـع الذي فتحه المعماري إحسـان وسـط البناء، لا أشـعر بأشـياء المجموعة كل على حدة فقط، بل أشعر بداخلي بعمق المكان كله. المتاحف الحقيقية هي الأمكنة التي يتحول فيها الزمان والمكان.

بدئـي العيش في القسـم الملحق من المتحف، أقلـق والدتي، ولكنها لم تكـن تنبس لأننـي كثيرًا ما أتنـاول معها الغـداء، وبدأت أصاحـب أصدقائي القدامى ما عدا سيبل وزعيم، وأذهب في الصيف إلى سعادية والجزر، وأقوم برحـلات باليخت، ولأنها تعتقد أنني بهذه الطريقة فقط يمكن أن أتحمل ألم فقدان فسون، وكانت تجد تأسيسي متحفًا يروي قصة عشقي لفسون بالأشياء التي شـكلت جزءًا من حياتنا في بيت عائلة كسـكين أمـرًا طبيعيًا على عكس معارفي كلهم.

كانـت تقـول: «طبعًـا يمكنك أن تأخذ الأشـياء القديمة التـي في غرفتي،

والتـي فـي الأدراج أيضًا... لـن أضع تلك القبعات، كمـا أن الحقائب قديمة من والدك... خذ مجموعة الحبكة والأزرار أيضًا، لن أخيط بعد السبعين، لا تنفق نقودًا على أخرى مثلها».

كنـت أرى العمة نسـيبة مرة في الشـهر عندما أكون في إسـطنبول، وتبدو مسـرورة من بيتها ومحيطها الجديد. رويت لها بانفعال عن متحف برغروين الـذي زرته حديثًـا في برلين، وأن هاينز برغروين عقـد اتفاقية مع إدارة مدينة برلين بـأن ينام في الطابق الملحق للبناء الذي أعطي لعرض مجموعاته حتى نهاية حياته.

«يمكـن للإنسـان أن يقابل مؤسـس المجموعة أثناء تجولـه في المتحف أو فـي إحـدى الغرف، أو على الدرج قبل أن يمـوت. أليس هذا غريبًا يا عمة نسيبة؟».

قالـت العمة نسـيبة: «أطال الله بعمرك يا سـيد كمال». ثـم صببت بعض الدمـوع علـى فسـون، ودون أن تمسـح الدمـوع عـن خديهـا، ابتسـمت لي والسيجارة بفهمها.

٨٣ ـ سعادة

اسـتيقظت ذات منتصـف ليـل مقمر في غرفتـي الصغيرة دون سـتائر في ملحق بيت تشـوقور جمعة في ضوء ممتع، ونظـرت عبره إلى فراغ المتحف الواسـع في الوسـط نحو الأسـفل. يدخل من نوافذ المتحف الـذي يبدو لي أحيانًـا أنـه لن يكتمل ضـوءُ قمرٍ فضي يظهـر البناء والفراغ أنـه مكان مخيف واسع إلى حدود غير متناهية. مجموعتي التي جمعتها على مدى ثلاثين سنة تقبع وسـط الظلال في الطوابق السفلية التي يبدو كل طابق منها مثل الشرفة. أسـتطيع رؤية الأشياء التي استخدمتها فسـون وعائلة كسكين في هذا البيت، وحطام الشـفروليه الصدئة، وكل شـيء من المدفأة إلى الثلاجة، ومن طاولة

السفرة إلى التلفاز الذي شاهدناه طوال ثمانية أعوام، وأشعر بأن قصصها تتململ ككاهن شاماني.

في تلك الليلة أدركت ضرورة إعداد دليل يضم قصة أغراض متحفي غرضًا غرضا. ومن المؤكد أن هذه القصة ستكون قصة عشقي لفسون وإعجابي بها.

كل من الأشياء التي تبدو وسط الظلال في ضوء القمر وكأنها في الفراغ يشير إلى لحظة لا يمكن فصلها مثل ذرة أرسطو التي لا تقبل القسمة. أدرك أن الخط الذي يربط بين هذه الأشياء سيكون قصة، كما يشكل الخط الذي يربط بين اللحظات زمنًا بالنسبة إلى أرسطو. هذا يعني أن كاتبًا يمكنه أن يكتب دليل متحفي كما لو أنه يكتب رواية. لم أكن أرغب حتى مجرد خوض تجربة كتاب كهذا. من يمكنه أن يفعل هذا من أجلي؟

وهكذا اتصلت بالسيد أورهان باموق ليروي عن لساني وبموافقتي. في زمن ما عمل والده وعمه مع والدي وأسرتي. فكرت به لأنه من إحدى عائلات نيشان طاش التي فقدت ثروتها، ويمكنه أن يدرك خلفية قصتي بشكل جيد. وسمعت أنه يحب رواية القصص بشكل جاد، وشغوف بعمله.

ذهبت إلى لقائي الأول بالسيد أورهان مستعدًا. قبل أن أفتح حديث فسون، أخبرته أنني زرت في الخمسة عشر عامًا الأخيرة ألفًا وسبعمائة وثلاثة وأربعين متحفًا، وأنني جمعت تذاكرها، وحدثته عن متاحف الكتاب الذين يحبهم لعلني أجذب اهتمامه: لعله يبتسم عندما أشرح له أن القطعة الحقيقية الوحيدة في متحف ديستوفسكي في سان بطرسبرغ هي قبعة وضعت في حافظة زجاجية، وكتب بجانبها «إنها لديستوفسكي حقيقة». ما رأيه بأن متحف نابوكوف في المدينة نفسها كان يستخدم مكتبًا للجنة الرقابة المحلية في عهد ستالين؟ شرحت له أن رؤيتي لصور الشخصيات التي اتخذ منها مارسيل بروست نماذجَ لأبطال روايته المعروضة في متحف الكاتب في إليرس كومبراي لم تعطني فكرة حول رواياته، بل أعطتني فكرة

عن العالم الذي عاشه. لا، أنا لا أجد متاحف الكتاب عبثية. مثلًا وجدت أنه من الصواب جمع كتب سبينوزا الواردة في محضر بعد وفاته دون أي نقص، وعرضها بحسب كبرها كما كان سائدًا في القرن السابع عشر في بيته في مدينة ريجنسبورغ الهولندية الصغيرة. كم كنت سعيدًا وأنا أنظر إلى رسوم طاغور المائية في متحف هذا الكاتب متذكرًا رائحة الغبار والرطوبة في متاحف أتاتورك العائدة للمرحلة الأولى، واستماعي لهدير مدينة كالكوتا الذي لا ينتهي، وقضيت يومًا كاملًا هناك! حدثته عن الصور التي رأيتها في بيت بيرانديللو في مدينة أغريجنتو الصقلية، وبدت لي كأنها صور عائلتي؛ ومنظر المدينة من نوافذ متحف سترندبرغ في ستوكهولم؛ وبيت خالة إدغار ألان بو الصغير والحزين المؤلف من أربعة طوابق في بالتيمور، وسكنه مع ابنة خالته فرجينيا التي تزوجها وهي في العاشرة من عمرها، وبدا لي مألوفًا (متحف إدغار ألان بو هذا المؤلف من أربعة طوابق، والواقع اليوم وسط حي متطرف وفقير من بالتيمور، في الحقيقة أنه أكثر المتاحف التي رأيتها شبهًا ببيت عائلة كسكين بصغره وحزنه وغرفه وشكله). وأخبرت السيد أورهان أن أفضل متحف كاتب رأيته في حياتي هو متحف ماريو براز في شارع جوليا في روما. لو أخذ موعدًا، ودخل إلى بيت ماريو براز مؤرخ الرومانسية الكبير والشغوف بالقدر نفسه بالرسم والأدب، فلابد له أن يقرأ كتابه الذي يحكي فيه الكاتب الكبير عن مجموعته المذهلة غرفةً غرفة كما لو أنه رواية... كان البيت الذي ولد فيه فلوبير في روان مليئًا بكتب الطب العائدة لوالده، وليس ثمة ضرورة للذهاب إلى متحف فلوبير وتاريخ الطب. ثم نظرت إلى عيني الكاتب، وقلت:

«لا بد أنكم تعرفون من رسائله يا سيد أورهان أن فلوبير يحتفظ بخصلة شعر، ومنديل، ونعل بيتي لحبيبته لويزا كوليت ملهمته عندما كتب مدام بوفاري، ومارس معها الحب في فنادق البلدة وعربات الخيل كما في الرواية، ويخرج تلك الأشياء أحيانًا، ويداعبها، ويتمسح بها، وينظر إلى النعل البيتي ويحلم بها وهي تمشي».

قال: «لا، لم أكن أعرف. ولكن الأمر أعجبني كثيرًا».

«وأنا أيضًا أحببت بشدة إلى درجة أنني احتفظت بشعر المرأة ومناديلها وملاقط شعرها، وأغراضها كلها، ووجدت بها سلوانًا لسنوات يا سيد أورهان. هل أروي لكم قصتي بكل صدق؟».

في لقائنا ذاك في مطعم هنكار الذي فتح مكان فوآية بعد إغلاقه، رويت له قصتي كما خرجت من قلبي، ولكن من دون انتظام قافزًا من غصن إلى غصن في ثلاث ساعات. انفعل كثيرًا، وشرب ثلاث كئوس عرق، وأعتقدُ أنه بسّطَ ما جرى لي بانفعال.

قال السيد أورهان: «أنا أعرف فسون. وأذكرها من حفل خطوبتكم في الهيلتون. حزنت كثيرًا على وفاتها. كانت تعمل في بوتيك هناك. ورقصت معها في حفل خطوبتكم».

«بحق؟ كم كانت إنسانة مذهلة، أليس كذلك؟.. أنا لا أتحدث عن جمالها، بل عن روحها يا سيد أورهان، وهل تحدثتما أثناء الرقص؟».

«إذا كانت لديك أغراض فسون كلها، فأريد أن أراها».

جاء بداية إلى تشوقور جمعة، وأبدى اهتمامًا قلبيًّا من دون أن يخفي تأثره بمجموعتي في البيت الذي تحول إلى متحف. أحيانًا يتناول أحد الأشياء (على سبيل المثال، الحذاء الأصفر الذي كانت فسون تلبسه عند لقائي بها أول مرة في بوتيك شانزليزيه)، ويسأل عن قصته، وأنا أروي له.

بعدئذ بدأنا نعمل بشكل منتظم. كان يأتي مرة في الأسبوع إلى غرفة الملحق عندما أكون في إسطنبول، ويسأل عن سبب تسلسل بعض الأشياء بحسب ذاكرتي، ووضع الصور في الصندوق نفسه، والخزائن الزجاجية نفسها، ولماذا سترد في الفصل نفسه من الرواية، وأنا أشرح له بمتعة. شعرت بالفخر حين رأيته يستمع إلى كل كلمة أقولها بانتباه، وكتابته الملاحظات.

«انهوا هذه الرواية، وليأتِ الناس إلى متحفي حاملين كتابًا في أثناء

تجوالهم على الخزائن الزجاجية واحدة تلو الأخرى لكي يشعروا بعشقي لفسون عن قرب، وأخرج أنا من القسم الملحق بالمنامة، وأدخل بينهم».

أجابني السيد أورهان فورًا: «ولكنكم أنتم أيضًا لا تنهون متحفكم يا سيد كمال».

قلت بابتسامة: «هناك كثير من المتاحف في العالم لم أزرها بعد». الله أعلم كم مرة حاولت أن أشرح له التأثير النفسي لصمت المتحف عليّ، وسبب سعادتي في زيارة متحف وأنا أهرب من أعين الحراس في يوم «ثلاثاء» في متحف منسي في حي متطرف في مدينة بعيدة من العالم. أصبحت أتصل بالسيد أورهان فور عودتي من رحلتي، وأحدثه عن المتاحف التي رأيتها، وأريه التذاكرَ، وأدلةَ التعريف، وشيئًا رخيصًا دسسته بجيبي من أحد المتاحف التي أحبها، ولوحاتِ الطريق داخل المتحف.

بعد رحلة من هذه الرحلات، حكيت له حكايتي بداية، ثم حدثته عن المتاحف التي زرتها، وسألته عن المرحلة التي وصلت إليها الرواية.

قال السيد أورهان: «أكتب الرواية بصياغة ضمير مفرد المتكلم».

«كيف؟».

«في الكتاب تروون قصتكم بصيغة «أنا» يا سيد كمال. أنا أتحدث بلسانكم. أحاول كثيرًا في هذه الأيام أن أضع نفسي مكانكم، وأكون أنتم».

قلت: «مفهوم. حسنٌ، أما عشتم عشقًا كهذا يا سيد أورهان؟».

قال: «هممم... موضوعنا ليس أنا». وصمت.

بعد أن عمل فترة طويلة، شربنا في قسم الملحق من المتحف. كنت متعبًا من حديثي له عن فسون وما عشته. بعد أن ذهب، تمددت على السرير الذي مارست عليه الحب مع فسون في زمن ما (أكثر من ربع قرن)، وفكرت بالجانب الغريب بروايته القصة على لساني.

لم يكن لدي شك بأن القصة ستكون قصتي، وأنه سيحترم هذا الأمر،

ولكنني أستهجن إخراجه صوتي. هذا نوع من الضعف. طبيعي أن أروي قصتي للزوار وأنا أريهم الأشياء، حتى إنني كثيرًا ما تخيلت أن متحفي قد انتهى، وسيفتتح، وأفعل هذا. ولكنني أتوتر من وضع السيد أورهان نفسه مكاني، وسماع صوته بدلًا من صوتي.

بعد يومين، سألته عن فسون بهذا الشعور. التقينا ليلًا في ملحق متحفي، وقَلَبَ كل منا قدح عرق.

«رجاءً سيد أورهان، ممكن أن تحدثني عن رقصتك مع فسون في تلك الليلة، في حفل خطوبتي؟».

قاوم فترة، وأعتقدُ أنه خجل. وبعد أن شرب كل منا كأسًا أخرى، روى لي السيد أورهان كيف رقص مع فسون قبل ربع قرن بصدق جعلني أثق به، وفهمت أنه أفضل من يروي قصتي بلساني لزوار المتحف.

وفي تلك الأثناء قررت فورًا بأن صوتي خرج كثيرًا، والأفضل أن أترك له قضية إنهاء قصتي. اعتبارًا من المقطع التالي، سيكون السيد أورهان هو من يحكي حكايتي. وأنا واثق بأنه سيعرض في الصفحات الأخيرة انتباهه القلبي الذي أبداه لفسون في تلك الرقصة. أستودعكم الله.

مرحبا، أنا أورهان باموق! بعد إذن السيد كمال، أبدأ من رقصتي مع فسون: كانت أجمل فتيات السهرة. لم أكن في ذلك الوقت وسيمًا وذا أبهة وناضجًا ـ على الرغم من أنني أكبرها بخمسة أعوام ـ أو واثقًا بنفسي إلى درجة أن أجذب انتباهها. كانت ثمة أفكار وكتب وروايات أخلاقية تمنعني من الاستمتاع بتلك السهرة. أما هي فقد كان عقلها مشغولًا بأمر آخر، وأصبحتم تعرفون هذا.

على الرغم من هذا جرفني الخيال، بعد قبولها دعوتي للرقص، وأثناء سيرها في المقدمة وسيري خلفها نحو منصة الرقص، نظرت إلى طولها، وكتفيها العاريين، وظهرها البديع، وابتسامتها. يدها خفيفة، ولكنها دافئة. عندما وضعتْ يدها الأخرى على كتفي، شعرتُ بالفخر وكأنها لم تضعها

من أجل الرقص، بل لإبداء حميمية خاصة لي. أثناء اهتزازنا بشكل خفيف، والتفافنا ببطء، شوشَ عقلي قربُ بشرتها، وشموخُ قامتها، وحيوية كتفيها وثدييها، ومع مقاومتي لهذه الجاذبية، تمر الخيالات التي أحاول كبتها من أمام عيني بسرعة: كنا نخرج من الرقص ممسكا كل منا بيد الآخر، ونصعد معًا إلى البار؛ ونقع بعشق فظيع؛ ونتبادل القبل تحت الأشجار إلى الأمام قليلًا؛ ونتزوج!

أول عبارة قلتها لمجرد أن أقول شيئًا («كنت أراك في المحل أثناء عبوري على الرصيف من نيشان طاش»). كانت عادية، وتُذكِّر بأنها بائعة جميلة جدًّا فقط، فلم تبالِ. أصلًا قبل الوصول إلى منتصف المقطوعة الأولى أدركتْ بأنني لن أستطيع أن أفعل شيئًا، فكانت تراقب المدعوين من فوق كتفي، وتنتبه إلى الجالسين على الطاولات، ومن يرقص مع من، والشباب المهتمين بها ومع من يتحدثون ويتضاحكون، والنساء الجميلات الجذابات، وتحاول أن تستنتج ما ستفعله بعد ذلك.

أضع يدي اليمنى باحترام ومتعة فوق وسطها بقليل، وأشعر برأسي أصبعي الوسطى والسبابة حركات عمودها الفقري حتى أدق تفاصيلها كما لو أنني أجس نبضًا. وقفتها شامخة غريبة تسلب الألباب. لم أستطع نسيانها لأعوام طويلة. في بعض اللحظات أشعر بعظامها، ودمها الذي يدور بصعوبة في جسمها، وحيويتها، واهتمامها فجأة بشيء جديد، وتململ أحشائها الداخلية، وظرافة هيكلها كله برأسي أصبعيّ، وبصعوبة أضبط نفسي لكي لا أحضنها بكل قوتي.

عندما ازدحمت منصة الرقص، صدم بنا زوجان من الخلف، فالتصق جسدانا للحظة. صمتُّ طويلًا بعد ذلك التماس المزلزل. أثناء نظري إلى رقبتها وشعرها، أنجرفُ بالسعادة التي يمكن أن تمنحني إياها، وأشعر بأنني يمكن أن أنسى كتبي ورغبتي بأن أكون روائيًّا. كنتُ في الثالثة والعشرين من عمري، وعندما عرف بورجوازيو نيشان طاش وأصدقائي بقراري أن أغدو

روائيًّا، ويقولون لي باسمين إنني في هذا العمر لا أستطيع معرفة حياة أحد، أغضب. بعد ثلاثين سنة، وأنا أصحح هذه الأسطر أريد أن أضيف أن أولئك الأشخاص كانوا على حق. لو عرفتُ الحياة، لسعيت إلى جذب انتباهها، وآمنت بأنها يمكن أن تهتم بي، ولا أنظر يائسًا لذهابها، وفقدانها من بين يدي. قالت: «تعبت. ممكن أن أستريح بعد المقطوعة الثانية؟». كنت أرافقها إلى طاولتها بلباقة تعلمتها من الأفلام، فلم أستطع ضبط نفسي.

قلت بتحذلق: «هذا الزحام ممل جدًّا. ممكن أن نجلس في الأعلى، ونتكلم براحتنا؟». لم تسمعني تمامًا بسبب الضجيج، ولكنها فهمت ما أردته من وجهي فورًا. قالت: «يجب أن أجلس مع والديّ»، وابتعدت عني بلباقة.

عندما رأى السيد كمال أنني قطعت قصتي هنا، هنأني، وقال: «نعم، هذه تصرفات فسون بالضبط، لقد فهمتها بشكل جيد جدًّا! وأشكركم جزيل الشكر لأنكم ذكرتم التفاصيل الجارحة للكبرياء. نعم، الموضوع هو الكبرياء يا سيد أورهان. لا أريد أن أعلم الأمة التركية فقط بمتحفي التباهي بالحياة التي عشناها، بل والأمم كلها. تجولت، ورأيت: يفاخر الغربيون بما تخجل منه غالبية العالم العظمى. مع أننا إذا عرضنا ما يثير خجلنا في معرض، يتحول فورًا إلى كبرياء».

كان هذا أول خطاب ألقاه علي السيد كمال كأنه يعطيني درسًا في غرفته الصغيرة في القسم الملحق للمتحف بعد منتصف الليل، وشرب عدة كئوس. لم أستهجن الأمر لأن كل من يجد أمامه روائيًّا في إسطنبول، يلقي عليه خطابًا بدافع غريزي، ولكن عقلي يتشوش بما يجب أن أضعه في الكتاب، وكيف (عبارة كثيرًا ما يستخدمها السيد كمال).

عندما التقينا مرة أخرى في الطابق الملحق ذات منتصف ليل قال السيد كمال: «هل تعرف يا سيد أورهان من علمني أن الموضوع الأساسي للمتحف هو التباهي؟ حراس المتاحف بالطبع... في أي مكان من العالم، يجيب حراس المتحف عن كل سؤال أسأله دائمًا بتباه. في مدينة غوري

الجورجية بقيت حارسة متحف ستالين ساعة تشرح لي عن عظمته. علمت من شرح حارس متحف الرومانسية المحبب في مدينة أوبورتا البرتغالية مدى تأثير ملك ساردونيا المنفي كارلو ألبيرتو بالرومانسية البرتغالية حيث عاش آخر ثلاثة أشهر من حياته هناك في عام ١٨٤٩ . سيد أورهان، يجب أن يكون في متحفنا أيضًا حراس إذا سألهم أحد سؤالًا يشرحون للزوار بكل صدق تاريخ مجموعة كمال بصمجي، وعشقه لفسون، ومعنى الأشياء التي جمعها. رجائي أن تضعوا هذا أيضًا في الكتاب. مهمة حراس المتحف ليست حماية الأشياء كما يعتقد البعض (بالطبع يجب أن يحموا كل ما يتعلق بفسون إلى النهاية)، وإسكات من يصدر ضجيجًا، وتنبيه من يتبادلون القبل ويمضغون اللبان، بل ضرورة إشعار زوار المتحف بالتواضع والاحترام والخشوع كما لو أنهم في جامع أو معبد. يجب أن يلبس حراس متحف البراءة بزات مخملية بلون الخشب الداكن، وتحتها قمصانًا زهرية فاتحة بما يناسب ذائقة فسون وجو المجموعة، وأن يربطوا ربطات عنق خاصة ـ وأقراط فسون المصنوعة خصيصًا ـ وألا يتدخلوا نهائيًّا بمن يمضغون اللبان أو يتبادلون القبل. سيبقى متحف البراءة مفتوحًا إلى النهاية من أجل الذين لا يجدون مكانًا لتبادل القبل».

أحيانًا أشعر بالملل من أسلوب الأمر هذا الذي يشبه أسلوب الكتاب السياسيين المباهين في السبعينيات بعد أن يشرب السيد كمال قدحين، وأترك كتابة الملاحظات، ولا أريد أن أراه في الأيام التالية. ولكن دقائق قصة فسون، وجو تلك الأشياء الخاص يجذبني، فأذهب بعد فترة إلى قسم الملحق، وأريد أن أسمع خطابات هذا الرجل المتعب الذي يشرب عندما يتذكر فسون، وينفعل بالشرح أكثر مع الشرب.

يقول السيد كمال: «احذروا أن تنسوا أن منطق المتحف ومعنى المعرض هو إظهار المجموعة كلها، والخزائن كلها، وكل شيء من كل نقطة. سينسى زائر المتحف الزمن، لأنه سيرى الأشياء كلها في الوقت نفسه، أي يرى القصة كلها. هذا هو أكبر سلوان في الحياة. لا نشعر بالسلوان في المتحف

الشاعري المنظم بهاجس قلبي، وتأسس بشكل جيد نتيجة رؤيتنا الأشياء القديمة التي نحبها، بل لأن الزمن يزول. رجائي أن تكتبوا هذا أيضًا في كتابكم. ولا تخفوا كيف أمليت عليكم الكتاب، وكيف كتبتموه... وعندما تنتهون من العمل أعطوني مسودات كتابكم، ودفاتركم لكي نعرضها. كم سيستغرق الأمر؟ بالطبع أن قراء الكتاب سيرغبون بالمجيء إلى هنا لرؤية شعر فسون وأثوابها، وكل ما لها مثلكم. ورجائي أن تضعوا خريطة في نهاية الرواية لكي يجد المحبون متحفنا بأنفسهم وهم يسيرون في أزقة إسطنبول. عندما ينظر الذين يعرفون فسون وقصتنا أثناء مسيرهم، ورؤيتهم مناظر إسطنبول كما كنت أفعل، سيتذكرونها بالتأكيد. ليكن الدخول إلى المتحف مرة مجانًا لمن يقرأ كتابنا. لهذا، الأفضل وضع بطاقة في الكتاب. من يأتي حاملًا الكتاب، يختم الموظف الخاص الذي عند الباب تذكرته بخاتم متحف البراءة الخاص، ويُدخل الزائر».

«أين نضع التذكرة؟».

«لتوضع هنا!».



تذكرة دخول متحف البراءة في أسطنبول

«أشكركم. لنضع في الصفحة الأخيرة ثبتًا بالأسماء يا سيد أورهان. وبفضلكم يعرفون عدد الأشخاص الذين يعرفون قصتنا، وشهدوا حياتنا. حتى أنا أحفظ أسماءهم بصعوبة».

في الحقيقة أن السيد كمال سيفرح لبحثي عن الأشخاص الواردة سيرتهم في القصة، وإيجادهم، ولكنه كان يتسامح مع جانبي الروائي. أحيانًا أتوق لمعرفة ما يقوله الأشخاص الذين أجدهم، وما يفعلونه اليوم، وأحيانًا لا أهتم بهم نهائيًّا، وهم لا يفهمون سبب عدم اهتمامي بهم.

مثلًا السيد عبد الكريم وكيل صاطصاط في قيصري، لم يعرف لماذا كتبت له رسالة، والتقيت به في إحدى زياراته لإسطنبول. ولكن السيد عبد الكريم الذي ترك صاطصاط، وأخذ وكالة «تك ياي» التي أسسها عثمان والسيد طورغاي في قيصري ذكر لي بأن سبب إفلاس صاطصاط هو قصة حب وفضيحة.

وجدت ممثلة أدوار الشر سوهاندان يلضظ (سوهاندان الغدارة) التي شوهدت على الشهور الأولى في بلور. وقالت إن السيد كمال يائس ووحيد، وتعرف كما يعرف الجميع مدى عشقه لفسون، ولكنها لم تشفق عليه كثيرًا، لأنها لا تحب الأغنياء الذين يدخلون أوساط التمثيل من أجل أن يقيموا علاقة مع فتاة. في الحقيقة أن سوهاندان الغدارة أشفقت على فسون «التي تريد أن تمثل في الأفلام وتصبح نجمة بارتباك قريب من التململ». لو أصبحت نجمة سينمائية، فستكون نهايتها سيئة أيضًا بين أولئك الذئاب. ولم تفهم سبب زواج فسون من ذلك «السمين» (فريدون). أما حفيدها الذي كانت تحبك له كنزة بثلاثة ألوان في تلك الأيام أثناء جلوسها في بلور، فقد بلغ الآن الثلاثين من عمره، وعندما يرى الأفلام التي مثلت فيها جدته في التلفاز، يضحك كثيرًا، ولكنه يُدهش من فقر إسطنبول الشديد في تلك الأيام.

الحلاق بصري في نيشان طاش كان حلاقي أيضًا في زمن ما. ما زال مستمرًّا بالحلاقة، ويذكر السيد ممتاز والد كمال بحب واحترام أكثر من كمال. كان المرحوم السيد ممتاز مرحًا وكريمًا وطيب القلب. وكما لم أجد ما يمكن معرفته لدى حلمي اللقيط وزوجته نسليهان، وحياتي الخيال،

ونزيل بلور الآخر صالح صارلي، وكنان، لم أجد ما يمكن التوقف عنده لدى الحلاق بصري. جارة فسون آيلا التي كانت تخفيها عن كمال تعيش الآن مع زوجها المهندس وأولادها الأربعة الذين يذهب أكبرهم إلى الجامعة في أحد الأزقة الفرعية من بشكطاش. حكت لي بأنها كانت تستمتع كثيرًا بصحبة فسون، وتحب حيويتها ومزاحها وطريقة حديثها، وكل ما فيها، وحتى إنها تقلدها، ولكن فسون للأسف لم تبادلها الصحبة كما أرادت. كانت الفتاتان ترتديان ألبسة جيدة، وتخرجان معًا إلى بيه أوغلو، وتدخلان إلى السينما. لأن أحد أبناء الحي يعمل دليلًا للمشاهدين في مسرح ضورمن، فقد كان يدخلهما لحضور البروفات. ثم تأكلان سندوتشًا، وتشربان لبنًا رائبًا، وتحميان إحداهما الأخرى من الشبان المتحرشين. تدخلان أحيانًا إلى محل فاكو أو أحد المحلات الأخرى الراقية، وتقيسان أثوابًا كأنهما ستشتريان حقيقة، وتنظران إلى المرآة، وتلهوان. يتعلق عقل فسون بشيء ما أثناء حديثهما وضحكهما، أو في وسط الفيلم، فيتعكر مزاجها بلحظة، ولكنها لا تبوح بما في داخلها لآيلا نهائيًا. الحي كله يعرف أن السيد كمال غني جدًا، ويتردد عليهم، وأنه مضروب بعقله قليلًا، ولكن أحدًا لا يتكلم عن هذا العشق. لم تكن آيلا على علم بما جرى بين فسون وكمال قبل أعوام طويلة، وكذلك أهل حي تشوقور جمعة كلهم، وقد انقطعوا أساسًا عن أهل الحي.

ترقّى القرنفلة البيضاء من مراسل شائعات لمدة عشرين عامًا، إلى رئاسة تحرير ملحق منوعات يومي في إحدى الجرائد الكبرى. غير هذا فقد كان مدير تحرير مجلة منوعات وشائعات شهرية تهتم بفضائح نجوم الأفلام المحلية والمسلسلات، وعشقهم. ومثل غالبية الصحفيين الذي يحزنون الناس، وحتى يسودون حياتهم بالأخبار الكاذبة والخاطئة، فقد نسي بكل صدق ما كتبه حول السيد كمال، وأرسل له تحية، ويرسل أعمق احتراماته لوالدته السيدة وجيهة التي بقي حتى فترة قصيرة يتصل بها، ويأخذ منها بعض الأخبار. اعتقدَ أنني اتصلت به من أجل كتاب تدور أحداثه بين الممثلين، ولهذا سيحقق مبيعات كبرى، وعبّر بجو من الود أنه جاهز لتقديم كل أنواع

المساعدة: هل أعرف بأن ابن النجمة نرجس من زواجها غير الناجح من المنتج مظفر هو اليوم صاحب إحدى أهم الشركات السياحية في ألمانيا؟

ابتعد فريدون تمامًا عن الوسط السينمائي، وفتح شركة إعلانات ناجحة. وتسميته الشركة الجديدة باسم «المطر الأزرق» ذكرني بأنه لم يتخل عن أحلام شبابه، ولكنني لم أسأله عن الفيلم الذي لم يُصور. كان فريدون يصور أفلامًا دعائية ذات أعلام وكرة قدم تشرح خوف العالم كله من نجاح البسكويت التركي، وجينزات تركيا، وشفراتها، وفتواتها. سمع بمشروع متحف السيد كمال، ولكنه عرف مني أنني أكتب كتابًا حول حياة فسون: شرح لي بصراحة مذهلة أنه عشق مرة واحدة بالحياة، ولكن فسون لم تبادله العشق. وقال بانتباه إنه حذر من عشقها ثانية بعد الزواج لكي لا يتألم من جديد. لأنه يعرف أن فسون تزوجته «مضطرة». أحببت صدقه. أثناء خروجي من مكتبه الفخم، طلب مني أن أسلّم على السيد كمال بالحذر واللباقة نفسهما، وحذرني وهو مقطب الحاجبين: «إذا كتبتم ما يسيء لفسون، فلن تفلتوا مني يا سيد أورهان، أنتم تعرفون». ثم اتخذ موقفًا مريحًا مرحًا يليق به. أخذوا حملة دعائية لمُنتج اسمه «بورا» من شركة مياه غازية كبرى أنتجت ملتم يعمل معها، وسألني عما إذا كان يمكنه أن يستخدم الجملة الأولى من روايتي الحياة الجديدة.

اشترى تشتين أفندي سيارة أجرة بمكافأة نهاية الخدمة، ويؤجرها لسائق آخر، وعلى الرغم من تقدمه بالسن، يخرج بها إلى أزقة إسطنبول أحيانًا، ويعمل. عندما التقينا في موقف سيارات أجرة في بشكطاش، أخبرني بأن السيد كمال كما هو منذ طفولته وشبابه حتى الآن: في الحقيقة إنه متفائل كالأطفال، يحب كل لحظة من لحظات الحياة، منفتح على العالم والناس. لعل عيشه الحياة كلها عاشقًا مهمومًا أمر غريب. ولكنني لو عرفت فسون، لفهمت أن السيد كمال عشق هذه الفتاة لأنه يحب الحياة كثيرًا. في الحقيقة أن فسون وكمال طيبان جدًّا، وبريئان جدًّا، وأحدهما يناسب الآخر كثيرًا، ولكن الله لم يجمعهما، وواجبنا ألا نبحث في هذا الأمر.

في أول لقاء مع السيد كمال بعد عودته من رحلة طويلة، وبعد أن استمعت منه لقصص المتاحف الجديدة التي زارها، نقلت له كلمات تشتين أفندي، وما قاله حول فسون بالكلمة.

قال: «سيعرف زوار متحفنا بقصتنا ذات يوم، ويشعرون بشخصية فسون يا سيد أورهان». بدأنا الشرب فورًا، وأصبحت أحب الشرب معه. في أثناء نظر الزوار إلى هذه الأشياء في كل خزانة زجاجية وصندوق، سيرون كيف كنت أراقب فسون على العشاء، وأنتبه إلى يدها، وذراعها، وابتسامتها، وتموّج شعرها، وعفسها عقب سيجارتها، وتقطيب حاجبيها، وابتسامتها، ومناديلها، وملاقط شعرها، وأحذيتها، وإمساكها الملعقة، وكل ما لها (لم أقل له: «لم تنتبه إلى قرطيها يا سيد كمال»). سيشعرون بأن الحب يتطلب حنانًا وانتباهًا كبيرين... انهوا الكتاب، واكتبوا بأن الأشياء في متحفنا يجب أن تنار بضوء خفيف يناسب انتباهي لها. عندما ينظر زوار متحفنا إلى الأشياء، سيحترمون عشقنا ـ فسون وأنا ـ، ويتداخل عشقنا مع ذكرياتهم. يجب ألا يكون مزدحمًا في أي وقت، لكي يشعر الزائر بأشياء فسون كلًّا على حدة، والمجموعة كلها، وصور زوايا إسطنبول التي تجولنا فيها ممسك كل منا بيد الآخر. أنا أمنع دخول أكثر من خمسين شخصًا إلى متحف البراءة في وقت واحد. المجموعات والمدارس يجب أن تأخذ موعدًا مسبقًا قبل الزيارة. المتاحف تزدحم تدريجيًّا في أوربا يا سيد أورهان. تخرج العائلات الأوربية إلى المتاحف أيام الأحد كما كنا نخرج في نزهات عائلية إلى البوسفور. ومثلما نتناول الغداء في خمارات البوسفور، هم أيضًا يجلسون في مطاعم المتاحف، ويتضاحكون. كتب بروست في كتابه أنه باع أغراض خالته بعد موته إلى بيت دعارة، وكلما رأى أرائك خالته وطاولاتها في بيت الدعارة ذاك، يشعر بأن الأغراض تبكي. الأشياء تبكي في المتحف أثناء تجوال زحام الزوار أيام الأحد يا سيد أورهان. الأشياء في متحفي أصلًا ستبقى في بيتها. أخشى أن يرى أغنياؤنا الجاهلون غير الواثقين من أنفسهم طراز المتاحف الشائع في

الغرب، ويقلدونها، ويصبح لديهم شغف افتتاح متاحف فن حديث ذات مطاعم. مع أننا كأمة ليس لدينا معلومات وذائقة وموهبة بالرسم. على الأمة التركية ألا تتفرج في المتاحف على التقليد السيئ للفن الغربي، بل على حياتها. يجب ألا تعرض متاحفنا أحلام أغنيائنا بشعور التغريب، بل تعرض حياتنا. متحفي هو حياتنا ـ فسون وأنا ـ كلها، وكل ما عشناه؛ وكل ما شرحته لكم هو واقعي يا سيد أورهان. يمكن أن تبدو بعض الأشياء لبعض زوار المتحف والقراء غير واضحة كفاية. لأنني رويت لكم قصتي وحياتي بكل صدق، ولكنني نفسي لا أعرف إلى أي مدى أنا فهمتها. ليشرح هذا علماء المستقبل بالمقالات التي سينشرونها في مجلة متحفنا «البراءة». لنعرف منهم العلاقة البنيوية بين ملاقط شعر فسون وفرشها، وبين الكناري المرحوم ليمون. عندما يجد زوار المتحف من الأجيال القادمة أن ما عشته، وما عانيته من ألم العشق، وعذاب فسون، وسلواننا بالتقاء نظرنا على العشاء، وسعادتنا بإمساك كل منا بيد الآخر في شواطئ السباحة والسينمات مبالغ به، فعلى الحراس أن يشرحوا لهم بأن كل ما عشناه هو حقيقي. ولكن لا تشغلوا بالكم، فأنا ليس لدي شك بأن الأجيال القادمة ستتفهم عشقنا. أنا واثق بأن طلاب الجامعة المرحين القادمين بالحافلة من قيصري بعد خمسين سنة، والسائحين اليابانيين المصطفين بالطابور أمام باب المتحف حاملين كاميراتهم، والنساء الوحيدات اللواتي يدخلن لأنهن ضللن طريقهن، والعشاق الإسطنبوليين السعداء في ذلك الوقت، سيشعرون بحبنا وما عشناه بعمق عندما ينظرون إلى ألبسة فسون، والمملحات، والساعات، وقوائم طعام المطاعم، وصور إسطنبول القديمة، وألعاب طفولتنا المشتركة، وبقية الأشياء. الجماهير التي ستزور متحف البراءة في المستقبل، تزور المعارض المؤقتة إن شاء الله، وحينئذ سيرون ما جمعه أخوتنا المساكين في بيوت الزبالة، وما يحملونه إلى اجتماعات الرابطة من صور سفن، وأغطية زجاجات مياه غازية، وعلب كبريت، ومزاليج أبواب، وبطاقات بريدية. ولتروى قصص

تلك المجموعات والمعارض في أدلة. في تلك الأيام ستروى قصة فسون وكمال من خلال الفرجة على الأشياء باحترام وخشوع، وسيدركون أنها قصة عشق للعالم كله، أي قصة إسطنبول مثلها مثل قصة قيس وليلى، وحُسن وعشق. هل تريد كأس عرق أخرى سيد أورهان؟».

مات بطل روايتنا، ومؤسس متحفنا كمال بصمجي في ١٢ نيسان/ إبريل ٢٠٠٧، أي يوم ذكرى ميلاد فسون الخمسين، وهو في الثانية والستين من عمره في غرفته الواسعة المطلة على «فيا مانزوني» من فندق غراند ميلانو الذي ينزل فيه دائمًا في غرفته قريب الصباح بأزمة قلبية أثناء نومه. كان السيد كمال يذهب في كل فرصة إلى ميلانو من أجل أن «يعيش» ـ بحسب التعبير الذي يستخدمه ـ في متحف باغاتي فالسيتشي «أحد أهم خمسة متاحف في حياته!» (زار حتى وفاته ٥٧٢٣ متحفًا). (ملاحظة سجلتها في لقاءاتي الأخيرة معه: «المتاحف: ١. ليست من أجل الزيارة والفرجة، بل من أجل الشعور بها وعيشها، ٢. إذا شعرت بروح الأشياء تصبح مجموعة. ٣. المتحف الذي لا يحوي مجموعة ليس متحفًا، بل بيت معرض»). المجموعة التي سحرت السيد كمال في بيت عصر النهضة للقرن السادس عشر الذي أسسه الأخوان في القرن التاسع عشر، وتحول إلى متحف في القرن العشرين يضم أشياء يومية عادية كان الأخوان يعيشان معها (أي الأسرة القديمة، والمصابيح، ومرايا عصر النهضة، والمواعين).

شاركتْ في جنازته التي شُيعت من جامع تشويكية غالبية الأسماء الواردة في الكتاب. أما والدة السيد كمال السيدة وجيهة، فقد تابعت الجنازة من الشرفة كما هي عادتها، وغطّت رأسها. ونحن الذين في باحة المسجد رأيناها بعيون دامعة كيف تودع ابنها وهي تنشج بالبكاء...

القريبون من السيد كمال الذين لم يقبلوا أن أقابلهم، أرادوا أن يقابلوني في الأشهر التالية للجنازة بشكل غريب ولكنه منطقي. والسبب هو أنني أسأت

لأوساط نيشان طاش كلها في كتبي السابقة. للأسف فإن شائعات انتشرت على نطاق واسع تقول إنني لم أسئ لوالدتي وأخي الأكبر وعمي والعائلة فقط، بل ولكثير من الشخصيات المحترمة في نيشان طاش، مثل جودت بيك وأولاده وعائلته، وصديقي الشاعر كا، وحتى كاتب الزاوية المعجب به جلال صاليك، وصاحب الدكان الشهير علاء الدين، وكثير من كبار رجال الدولة والدين والباشاوات. خاف زعيم وسيبل مني قبل قراءة الكتاب. أصبح زعيم أغنى مما كان عليه أيام الشباب. مُحيت مياه ملتم الغازية من السوق، ولكن الشركة بقيت كبيرة. استقبلوني بشكل جيد جدًّا في بيتهم على سفوح ببك بإطلالته الجميلة على البوسفور. قالا إنهما فخوران بكتابتي قصة حياة السيد كمال (المقربون من فسون كانوا يقولون إنني كتبت قصة حياة فسون)، ولكن عليّ ألا أكتب الكتاب من وجهة نظر واحدة، وأن آخذ رأيهما.

ولكنهما سيرويان لي المصادفة الكبرى عندما التقيا بالسيد كمال في أحد أزقة ميلانو قبل نصف يوم من وفاته في ١١ نيسان/ إبريل (شعرت فورًا بأنهما دعواني من أجل هذا). ذهبا إلى ميلانو مع ابنتيهما الجميلتين غول (في العشرين من عمرها)، وإبرو (في الثامنة عشرة من عمرها) اللتين جلستا معنا على مائدة العشاء سياحة إلى ميلانو لثلاثة أيام. بداية رأى كمال من أفراد العائلة السعيدة الذين كانوا يلعقون المثلجات الملونة بالبرتقال والشيكولاته والبطيخ الأصفر، ويتفرجون على الواجهات غول، واقترب بدهشة من الفتاة التي تشبه والدتها بشدة، وقال: «سيبل! سيبل! مرحبا، أنا كمال».

قالت السيدة سيبل باسمة بفخر: «غول تشبهني كثيرًا عندما كنت في العشرينيات من عمري، وقد لفت على كتفيها شال حبكة كنت أضعه في تلك الأعوام. أما كمال فقد كان يبدو عليه التعب، والإنهاك، والتعاسة الشديدة. حزنت على حالته كثيرًا جدًّا يا سيد أورهان. لم أحزن عليه وحدي، بل زعيم أيضًا حزن عليه. ذهب ذلك الإنسان المحب جدًّا للحياة، والمرح والظريف دائمًا الذي خطبني في الهيلتون، وحل محله رجل هرم منقطع عن الحياة والعالم، عابس الوجه وفي فمه سيجارة. لو لم يعرف

غول، لما عرفناه. لم يتقدم بالسن، بل هرم وانهار. حزنت كثيرًا. فوق هذا، إنها المرة الأولى التي أراه فيها بعد سنوات طويلة جدًّا».

قلت: «بعد العشاء الأخير الذي تناولتماه في مطعم فوآية بإحدى وثلاثين سنة».

خيّم صمت مثير للقشعريرة.

قالت سيبل بعد قليل بألم: «حكى لكم كل شيء!».

في أثناء استمرار الصمت، أدركت الأمر الأساسي الذي أرادا أن يشرحاه لي: يريد زعيم وسيبل أن يعرف القارئ أن حياتهما سعيدة جدًّا، وأنهما يعيشان حياة عادية.

ولكن بعد انسحاب الفتاتين إلى غرفتيهما، وأثناء شرب الكونياك، فهمت أن هناك موضوعًا آخر يريدان أن يفتحاه. أثناء شرب كأس الكونياك الثانية أفضت سيبل بما تريد أن تفضي به بصراحة أقدرها دون لف أو دوران كما فعل زعيم.

«في نهاية صيف ١٩٧٥، بعد أن اعترف لي كمال بمرضه ـ أي بعشقه بشكل رهيب للآنسة فسون ـ أشفقت على خطيبي، وأردت أن أساعده. أمضينا في بيتنا الشاطئي عند سور الأناضول شهرًا معًا بنيّة طيبة من أجل معالجته يا سيد أورهان (الحقيقة ثلاثة أشهر). في الحقيقة أن هذا لم يعد مهمًّا... لم يعد شباب هذه الأيام يعيرون اهتمامًا للبكارة (وهذا ليس صحيحًا)، ولكنني على الرغم من هذا أرجوكم بشكل خاص ألا تتحدثوا عن تلك الأيام بشكل مهين... يمكن ألا يكون هذا الموضوع مهمًّا، ولكن بسببه خربت علاقتي مع أعز صديقاتي نورجيهان. عندما تعلم البنتان أيضًا لن يهتما، ولكن الأصدقاء والنمامين... رجاء لا تكسروا بخاطرنا..».

أبلغني زعيم بأنه أحب كمال دائمًا، وأنه إنسان صادق، وافتقد صداقته،

واشتاق إليه. وهنا سأل بمزيج من الاستغراب والخوف: «هل جمع السيد كمال كل ما يتعلق بالآنسة فسون حقيقة؟ هل يؤسس متحفًا بحق؟».

قلت: «نعم. وأنا سأقدم بكتابي دعاية هذا المتحف».

أثناء مغادرتي في ساعة متأخرة جدًّا ونحن نتضاحك ونتحدث، وضعت نفسي للحظة مكان كمال. لو كان حيًّا، واستمر بصداقته مع سيبل وزعيم (وهذا ممكن جدًّا)، لغادر كمال في تلك الليلة من هناك وحيدًا مثلي بشعور السعادة والذنب في آن واحد.

قال زعيم وهو بالباب: «سيد أورهان، خذوا رجاءَ سيبل بعين الاعتبار لو سمحتم. ونحن أيضًا كشركة ملتم نريد أن ندعم المتحف».

أدركت في تلك الليلة عدم جدوى الحديث مع شهود آخرين: أنا أريد أن أكتب قصة السيد كمال كما رواها، وليس كما يراها الآخرون.

نتيجة عنادي هذا فقط ذهبت إلى ميلانو، ورأيت أن ما أحزن كمال يوم مصادفته سيبل وزعيم والبنتين إلى هذه الدرجة هو حال متحف باغاتي فالسيتشي الخربة عندما ذهب لرؤيته، وتأجير جزء منه لشركة جين كولون الشهيرة لتأمين دخل له. كانت أعين حارسات المتحف دامعات، ومرتديات الأسود، وبحسب الإدارة فإنهن حزنّ بشدة على السيد التركي المحترم الذي يأتي لزيارة المتحف مرة كل عدة سنوات.

هذه المعلومة فقط ذكرتني بأنني يجب ألا أستمع لنميمة أحد من أجل إكمال كتابي. كنت أريد أن أرى فسون فقط، وأستمع إليها. ولكنني قبلت دعوات القريبين منها الملحة إلى بيوتهم وهم خائفون من كتابي لمجرد أن أجلس معهم، وأستمتع بتناول الطعام في بيوتهم.

وهكذا تلقيت نصيحة من عثمان بألا أكتب هذا الكتاب نهائيًّا. نعم، لعل صاطصاط قد أفلست بسبب إهمال أخيه، ولكن الشركات الأخرى التي أسسها والده اليوم هي نجوم التصدير الذي أحدث قفزة

كبرى. لديهم أعداء كثيرون، وكتاب كهذا سيفسح في المجال لكثير من النميمة وجرح المشاعر، سيكون سببًا للإساءة إلى بصمجي القابضة، وسيضحك منا الأوربيون كثيرًا بشكل خاص. على الرغم من هذا غادرت السهرة بذكرى جميلة، فقد أعطتني السيدة برين كرة زجاجية (دحل) تعود لطفولة كمال في المطبخ من دون أن تُشعر زوجها.

أما العمة نسيبة التي عرّفني عليها كمال من قبل فلم تقل شيئًا جديدًا في بيتها الواقع في زقاق بستان البئر. إنها الآن لا تبكي على فسون فقط، بل على كمال أيضًا الذي تقول عنه: «صهري الوحيد». لم تذكر المتحف سوى مرة واحدة. كان لديها مبشرة سفرجل، اشتهت أن تعدّ معقودًا، بحثت عنها، ولم تجدها بأي شكل. ترى هل بقيت في المتحف؟ أنا أعرف هذا، وهل يمكنني أن أجلبها في زيارتي القادمة؟ أثناء وداعي عند الباب، قالت: «سيد أورهان، إنكم تذكرونني بكمال». وبكت.

عرفني كمال قبل وفاته بستة أشهر على جيدا أعز صديقات فسون، وعارفة أسرارها كلها، وبرأيي أكثر من يفهم كمال. وكان لحبّ جيدا قراءة الروايات أثرٌ بهذا التعارف. ابناها اللذان في الثلاثينيات من عمريها مهندسان ومتزوجان، وأرتني صورة كنتيها اللتين أعطياها منذ الآن سبعة أحفاد. لم يكن زوجها الذي بدا لي ثملًا قليلًا، وخرفًا قليلًا، وهو أكبر من جيدا بكثير (ابن آل سديرجي) مهتمًا بقصتنا، وحتى بشربي العرق كثيرًا مع كمال.

روت لي جيدا ضاحكة بأن فسون وجدت القرط في الليلة نفسها التي أتى فيها كمال إلى تشوقور جمعة، ونسيه في الحمام، وحكت لجيدا الأمر فورًا في تلك الأيام، وقررا معًا بأن تقول فسون لكمال عقوبة له: «ليس هناك قرط». وقد عرف كمال بهذه القصة من جيدا مثلما عرف كثيرًا من أسرار فسون قبل أعوام طويلة. أثناء استماعي لها ابتسمتْ بألم فقط، وملأتْ لنا كأسي عرق.

قال كمال فيما بعد: «جيدا، التقينا دائمًا في حديقة طاشلق في ماتشكا

من أجل أن آخذ خبرًا عن فسون. وأثناء حديثك، كنتُ دائمًا أنظر من ماتشكا نحو ضولمة بهتشة. نظرت قبل فترة، فوجدت أن عددًا كبيرًا من صور ذلك المنظر تراكم في مجموعتي».

لأن موضوع الصور فتح، وأعتقد أنها قامت بالأمر على شرفي، قالت إنها وجدت صورة لفسون لم يرها السيد كمال. التقطت الصورة في الكواليس أثناء همس خاقان سرينقان بأسئلة الثقافة العامة التي سيسألها في نهائي مسابقة مليبت لملكة الجمال عام ١٩٧٣. أعجب المطرب الشهير الذي أصبح نائبًا في البرلمان عن حزب إسلامي بفسون كثيرًا.

قالت جيدا: «للأسف أننا لم ندخل الدرجات الأولى يا سيد أورهان، ولكننا حقيقة ضحكنا في تلك الليلة مثل طالبات الثانوية الحقيقيات حتى أدمعت أعيننا. في تلك اللحظة تمامًا التقطت هذه الصورة لفسون». فور النظر إلى الصورة الشاحبة التي سحبتْها فورًا، ووضعتها على الطاولة الخشبية، شحب وجه السيد كمال، ودفن بصمت طويل.

لأن زوج جيدا لا يحب قصة مسابقة ملكات الجمال، لم نستطع النظر طويلًا إلى صورة فسون. ولكن جيدا المتفهمة دائمًا، أهدت الصورة في نهاية السهرة للسيد كمال.

عندما خرجنا من بيت جيدا في ماتشكا، سرتُ مع السيد كمال باتجاه نيشان طاش. قال لي: «لأوصلك إلى بناء باموق. وأنا سأبقى هذا المساء مع أمي في تشويكية، وليس في المتحف».

ولكن قبل بناء باموق بخمسة أبنية، عندما وصلنا إلى بناء مرحمة، توقف أمامه، وابتسم.

قال: «سيد أورهان، قرأت روايتكم «ثلج» إلى نهايتها. أنا لا أحب السياسة. لهذا السبب وجدت صعوبة بها، عدم المؤاخذة. ولكنني أحببت نهايتها. وأنا أريد أن أكلم القارئ بشكل مباشر مثل البطل الذي هناك. هل لدي هذا الحق؟» متى ينتهي كتابكم؟».

قلت: «بعد متحفكم». كانت هذه مزحة فيما بيننا. «ما هي كلمتكم الأخيرة للقارئ؟».

«لن أقول مثل بطل تلك الرواية إن القارئ لن يفهمنا من بعيد. على العكس تمامًا، فإن زوار متحفنا وقراء كتابكم سيفهموننا. ولكن لدي كلمة أخرى».

فور قوله هذا، أخرج صورة فسون من جيبه، وتحت الضوء المنبعث من مصباح الشارع أمام بناء مرحمة، نظر إلى فسون بعشق، وأنا جئت إلى جانبه.

قال كما قال له والده قبل أكثر من ثلاثين عامًا: «جميلة أليست كذلك؟».

نظرنا نحن الرجلين بإعجاب وعشق واحترام إلى صورة فسون بالمايوه الأسود وقد طرز عليه رقم ٩، وذراعيها العسليين، ووجهها الحزين وغير الفرح نهائيًّا، وجسمها الرائع، والإنسانية الكبيرة في تعبير وجهها المذهل حتى بعد ثلاثين سنة.

قلت: «رجاء ضعوا هذه الصورة في المتحف يا سيد كمال».

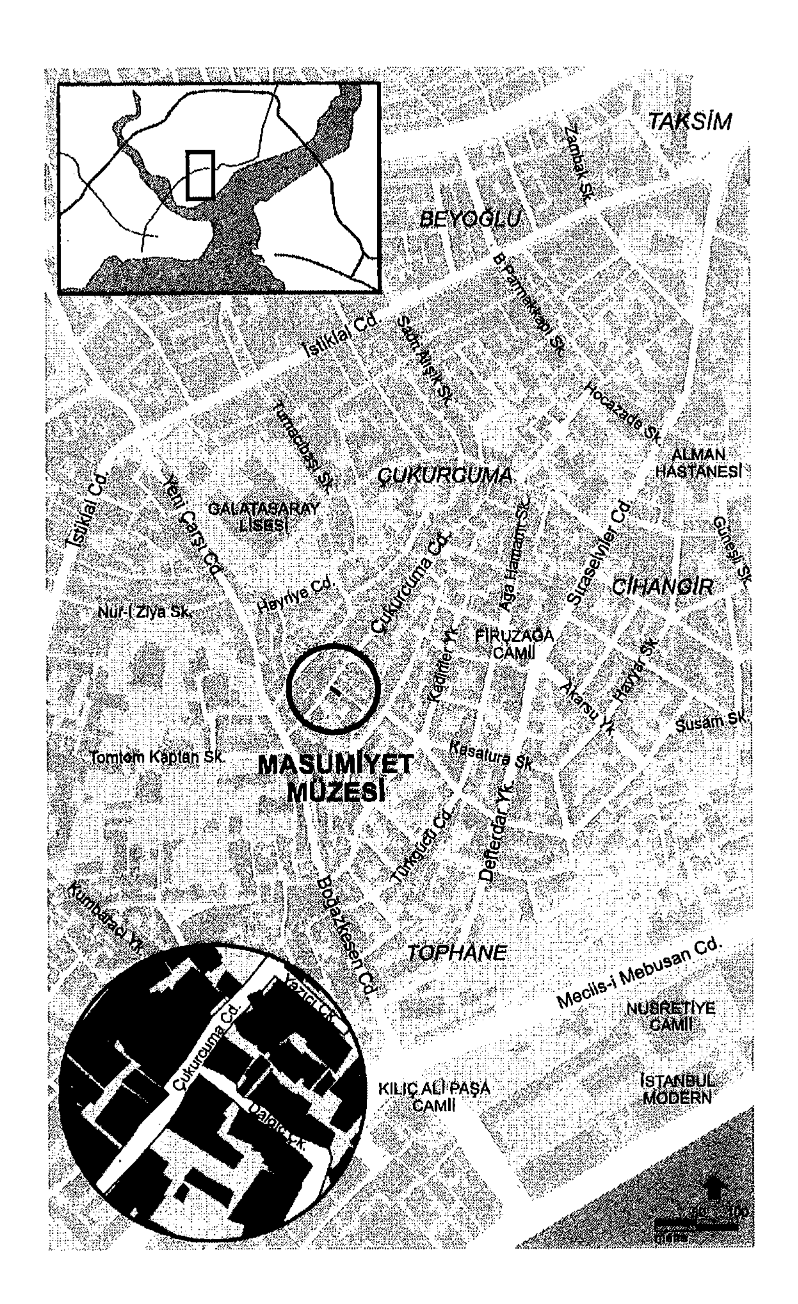
«كلمتي الأخيرة في الكتاب يا سيد أورهان، رجائي ألا تنسوها..».

«لا أنساها».

قبّل صورة فسون بعشق، ووضعها في جيب سترته الداخلي بعناية. ثم ابتسم لي ابتسامة المنتصر.

«ليعرف الجميع أنني عشت حياة سعيدة جدًّا».

٢٠٠١/ ٢٠٠٢
٢٠٠٣/ ٢٠٠٨



TAKSİM
Zambak Sk.
BEYOĞLU
B. Parmakkapı Sk.
İstiklal Cd.
Sadri Alışık Sk.
Hocazade Sk.
Turnacıbaşı Sk.
ALMAN HASTANESİ
ÇUKURCUMA
İstiklal Cd.
Yeni Çarşı Cd.
GALATASARAY LİSESİ
Sıraselviler Cd.
Ağa Hamamı Sk.
Güneşli Sk.
Çukurcuma Cd.
CİHANGİR
Hayriye Cd.
Nur-i Ziya Sk.
FİRUZAĞA CAMİİ
Kadirler Yk.
Akarsu Yk.
Havyar Sk.
Susam Sk.
Tomtom Kaptan Sk.
MASUMİYET MÜZESİ
Kasatura Sk.
Türkgücü Cd.
Defterdar Yk.
Boğazkesen Cd.
Kumbaracı Yk.
TOPHANE
Meclis-i Mebusan Cd.
Yazıcı Çk.
Çukurcuma Cd.
NUSRETİYE CAMİİ
Dalgıç Çk.
KILIÇ ALİ PAŞA CAMİİ
İSTANBUL MODERN

كلمة أخيرة
حول العشق والمتحف

فتحت متحف البراءة ـ أي المتحف ذاته ـ في البناء الذي عاشت فيه عائلة فسون في تشوقور جمعة بعد صدور رواية متحف البراءة بأربعة أعوام في الأسبوع الأخير من آب/ أغسطس عام ٢٠٠٨. من يريد رؤية المتحف فليصطحب معه الرواية، وإذا ختمت البطاقة المدرجة في الكتاب عند الباب، يمكنه الدخول مجانًا، ورؤية أقراط فسون، وملاقط شعرها، وأثوابها، وأحذيتها، ورخصة قيادتها، وكثيرًا من أشيائها الأخرى. في المتحف المفتتح عام ١٩١٢ في تشوقور جمعة، لا يعرض ما يعود لفسون فقط، بل ما لأمها السيدة نسيبة أيضًا، ووالدها السيد طارق، وكمال، ووالده، وكثير من الأبطال الواردة أسماؤهم في الرواية من أشياء يومية، وألبسة، وهدايا قدموها بعضهم لبعض، وأعقاب سجائر، وقداحات، ومشاهد لإسطنبول ذُكرت في الراوية، وصور، وأفلام، وبطاقات بريدية، وكثير من الأشياء الأخرى.

فكرت برواية متحف البراءة والمتحف اعتبارًا من أواسط التسعينيات. أي أنني خططت لكتابة رواية حب، وفتح متحف أعرض فيه الأشياء التي تذكر في الرواية. شرحت في كتابي المصور «براءة الأشياء» كيف تطورت فكرة المتحف، ومررت على الخزائن الزجاجية والصناديق فرادى. الآن سأحاول أن أتكلم بأمر أو أمرين حول تطور الرواية، والأشياء والعشق الرومانسي.

لأبدأ من بناء المتحف مكان بيت فسون بداية. بين عامي ١٩٩٦–٢٠٠٠ كنت أصطحب ابنتي رؤيا إلى مدرستها صباحًا. بعد أن أدع ابنتي عند باب

مدرستها خلف طوبخانة (على بعد ٣٠٠ متر من بيت عائلة كسكين)، أعود سيرًا على الأقدام مارًّا ببيه أوغلو، تشوقور جمعة، فيروز آغا، ومن الأزقة الخلفية لجيهان غير إلى مكتبي وأنا أفكر بما سأكتبه (اسمي أحمر، ثلج). كنت أستمتع جدًّا بالسير في الأزقة أثناء فتح الدكاكين أبوابها في برودة الصباح، وتتناهى رائحة الخبز والكعك من الأفران، ومشي الطلاب الحثيث للحاق بمدارسهم. لعل السبب كونه يومًا جميلًا، وكتابة صفحتين من رواية أمامي... ولعل السبب هو أنني رأيتُ في تلك الأزقة كثيرًا مما آل من سنوات طفولتي ويفاعتي قد عتق دون أن يتفسخ، وعاش دون أن يُجدد، ويعطى بنية جديدة مصطنعة... فكرت أحيانًا أن تلك الأزقة وأولئك الناس والجو خارج الزمن لن يتغير قط. ما رأيته في تلك الأزقة، الخبز والكعك الطازج في واجهات الأفران، إعلان مسكن ألم قديم جدًّا يظهر الأحشاء الداخلية للإنسان على واجهة صيدلية، ألوان مطربانات كبيرة صفت بعناية في واجهة دكان مخللاتي تثير فيّ رغبة جامحة للرؤية والفرجة؛ وكنت أريد أن أمتلك هذه المشاهد، وأضعها ضمن إطار والفرجة عليها، وأثق بأنني لن أفتقدها قط.

سوق الأدوات المستعملة المتواضع في أزقة تشوقور جمعة تطور كثيرًا أثناء كتابة الرواية، وحتى تاريخ فتحي المتحف. في سوق الأدوات المستعملة ذاك، كان هناك كثير من الأشياء، بدءًا من الطاولات القديمة إلى منفضات السجائر، ومن الشوكات والسكاكين إلى ألعاب طفولتنا المحلية الصنع، وصولًا إلى مبْشرات السفرجل والمملحات. المحلات التي تبيع المجلات والكتب الخرائط والصور القديمة أججت رغبتي بوضع ما أراه ضمن إطار، والاحتفاظ به إلى ما لانهاية. في هذه الأثناء فكرت بشراء بعض الأغراض من هذه المحلات، وضمها إلى ما احتفظت به من عائلتي وحياتي، وأفتح متحفًا منزليًّا.

تجولت كثيرًا في الأزقة من أجل إيجاد بيت قديم للبيع يمكن تحويله إلى متحف. عندما اشتريت بيتًا يمكن تحويله إلى متحف (متحف البناء

اليوم)، وجد جامع المجموعة الصغير الذي في داخلي جرأة. ولكنني أعرف بأنني لا أمتلك روح جامع مجموعة. لم أكن أشتري مملحة قديمة رأيتها في واجهة محل، أو مشرب سجائر، أو عداد سيارة أجرة قديما، أو زجاجة كولونيا من أجل عمل مجموعة، بل لأجعل من هذه القطعة جزءًا من الرواية التي تقرءونها. شراء قطعة سأدخلها الرواية، وتصويرها فيها، ووضعها على الطاولة كان يسعدني. أحيانًا أشتري شيئًا لم يكن يخطر ببالي نهائيًّا، لمجرد أنني رأيته في واجهة محل، وأجلبه إلى البيت.

العالم يعج بالأشياء التي يمكن أن توضع في روايتي ومتحفي. ولكن انفعالي لم يكن انفعال جامع مجموعة، أو جامع أشياء يريد عمل سلسلة، بل انفعال فنان روائي يريد أن يجعل من هذا الشيء جزءًا من رواية ومتحف. كنت أحب هذه الأشياء مثل كثير من الأشياء في حياتي لأنها ستكون جزءًا من قصة وكتاب. أحيانًا أنجح، أي أنني أضع الشيء أمامي، وأتحدث عنه وأنا ممعن النظر فيه مثل روائي «واقعي». وفي أكثر الأحيان أفتح الحديث قليلًا عن ذلك الشيء، وأكبح نفسي لكي أحمي روايتي من المبالغة بالتصوير، ومخاتلة جاذبية الواقع. أحيانًا أُدخل إلى الحكاية أشياء مألوفة: وهكذا فعلت بجعل ربطات عنق والدي القديمة لوالد كمال، وأسياخ حبكة والدتي لوالدة فسون، لأن استخدام الأبطال أشياء من حياتي وحياة عائلتي يمتعني. ومثلما يعطي جناح العائلة الغني الأشياء التي يستخدمها للجناح الفقير من الأقرباء البعيدين في الرواية، كنت أجد الأشياء التي أعرفها من حياتي، وتركت أثرًا فيها، وأعطيها لأبطال الرواية. أحيانًا أتناول غرضًا ترك لدي أثرا في طفولتي، مثلًا أتذكر إبريقًا أصفرَ استخدمته خالتي أعوامًا على مائدتها، وأضعه على مائدة البطل قبل أن أدخله إلى مجموعة متحفي. بعد أن كتبت الرواية، وصدرت في عام ٢٠٠٨، وأثناء ترتيب مكتبي، وجدت صندوقًا؛ كان فيه عدة أشياء اشتريتها من دكان للأدوات المستعملة من أجل أن أضعها في الرواية، ثم نسيتها: وأنا أنظر إلى جرس باب بيت غني مر عليه عز ذات يوم، ومصباح

ليلي ما زال يستعمل حتى الآن في عربات الخيل في جزر الأميرات، أشعر بدافع لكتابة رواية أخرى أتحدث فيها عن هذه الأشياء.

قبل صدور رواية متحف البراءة اكتشفتُ إمكانية استنباط قصة بالنظر إلى مجموعة من الأشياء فقط، وإمكانية التفكير برواية، وأن تصبح هذه عادة لدي. يقول منظّر الأدب الشكلي الروسي فيكتور شلوفسكي، سرد ما يدعى حبكة حدث، هو خط يمر من النقط والصور التي نريد البحث بها. إذا اخترنا سلسلة أشياء بدافع غريزي، ووضعناها أمامنا، وربطناها بقصة، وتخيلنا كيف يمكن إدخالها إلى حياة الأبطال، هذا يعني أننا بدأنا بتشكيل رواية. بعد «الجريمة والعقاب» لديستوفسكي وقصص إدغار ألان بو، وفي الرواية البوليسية ذات التأثير الدائم بتشكيل الرواية الحديثة فإن البطل السيد المحقق يوحد بين مجموعة من الأدلة ويتخيل قصة.

ولكننا يجب أن نؤسس علاقة عاطفية مع الأشياء التي نجمعها من أجل أن تقودنا إلى حبكة حدث، ومنه إلى عالم إنساني منسجم وغني. لا يمكننا أن نتخيل رواية إلا إذا نظمنا الأشياء التي تثير فينا شعورًا عاطفيًّا وشعريًّا. بالطبع أن العشق هو الأمثل من أجل أن يترك فيها أثرًا عاطفيًّا، وينقل الأثر إلى قوة تبعث الحياة في ذكرياتنا. أنا لم أكتب روايتي من أجل تأسيس متحف فقط، بل أؤسسه من أجل تحليل الحالة التي نسميها عشقًا بحسب رؤيتي.

لم يكن المتحف هو الهدف الأول من روايتي، بل شرح التعقيد والحالة النفسية والثقافية والإنسانية التي نسميها عشقًا ببرودة أعصاب. لا أريد أن أضع العشق في مكان سامٍ، والقول «يا إلهي ما أجمل هذا الشعور!» كما نفعل في الأغنيات المحبوبة. أريد أن أتحدث عن هذا الشعور باعتباره أمرًا يؤلمنا يحل بنا دون أن نرغب بذلك في أكثر الأحيان، مثل حادث السير تمامًا. «متحف البراءة» قبل كل شيء فكرة حول العشق.

نعيش العشق بحسب طبقتنا، وجنسنا، وثقافتنا، وبلدنا، وحتى ديننا. العشق في هذه الرواية هو عشق سيد إسطنبولي في النصف الثاني من القرن

العشـرين. أثناء كتابتي الرواية كنت أتوقع بأن فكرة القارئ عن العشـق أغنى وأعمق من فكرة كمال. بعد نشر الرواية، اشتكى بعض القراء من أنانية كمال، وقالـوا إنهم لـم يجدوه «شـاعريًّا» أو «عاطفيًّا». قراء آخرون سـامحوا كمالًا بسـبب الآلام التي عانى منها مع تقدم الرواية، حتى إنهم وجدوه «شـاعريًّا». وأنا أجد هذين الشعورين صائبين.

وهـذا ما يأتي بالسـؤال المطروح كثيرًا بعد نشـر الرواية: «سـيد أورهان، هل أنتم كمال؟». من السهل قول: «لا، أنا لست كمالًا! إنه بطل أنا نسجته». ولكن الأصعب إقناع القارئ الذي دخل إلى تفاصيل مشاعر كمال الخاصة، وآمـن بهـا بأنني لـم أعش هذا الشـعور في حياتـي. أصلًا الروايـة هي مهارة عـرض الروائي مشـاعره كأنها مشـاعر الآخريـن، وعرض مشـاعر الآخرين كأنها مشاعره. مهما قلت إن كمال شخصية خيالية، أريد من قرائي أن يشعروا بأنني عشت قصة العشق التي كتبها، مثل كل روائي.

أفضل جواب للقراء الذين يسـألون: «حسـنٌ يا سـيد أورهان، أما عشـقتم مثـل بطل روايتكم، وجمعتم أشـياء حبيبتكم؟». أقدّم لهـم مدى الغذاء الذي اسـتمده كتابي من الحياة: كان لدى أسرة خالتي شـفروليه ٥٦، واسم سائقها تشتين. في الحربية، ومقابل تمثال أتاتورك في المدخل، أي مكان صاطصاط بالضبط، كان لوالدي مكتب في الأعوام التي عمل فيها مديرًا لشركة آي غاز. كانـت جدتـي تجمع أولادها وكناتها وأصهارهـا وأحفادها في بناء باموق في رأس السنة على العشـاء، وتلعّب الطومبالا من أجلنا نحـن الأحفاد، وتختار الهدايا التي سـتقدمها قبل أشـهر، وتحضرها. بين عامي ١٩٥٠-١٩٧٠ كان في كثير من بيوت إسـطنبول ودكاكينها أقفاص كناري أو حوض سـمك زينة، وزالـت مع البدء بالبث المرئي وانتشـاره، الأكثر من هـذا، أن الوضع الجديد علمنـي بـأن علاقتنـا بالحيوانـات لا تتجـاوز رغبتنا بإشـغال أعيننـا. في عام ١٩٨٣ عندمـا تزوجـت وكنـت بحاجة لبعض النقـود، بدأت بكتابة سـيناريو لروايتـي الأولى «جودت بيك وأبناؤه» بتشـجيع من مخرج سـينمائي، ولكن الفيلـم لـم يُصور، والسـيناريو لم يكتمل. فـي هذه الفترة، بـدأ صديق مخرج

يصطحبني إلى بارات السينمائيين في بيه أوغلو، وعندما رآني أسكر من قوة النميمة التي أسمعها من الممثلات، وكأسي جعة أشربهما، يضحك علي، ويسخر مني بحب. دخنت في اليوم ثلاثين سيجارة وسطيًّا بين ١٩٧٤-١٩٧٥ عندما تركت دراسة العمارة والرسم، وتركت التدخين أول مرة عام ١٩٩٥. لم يكن قول الغربيين «يدخن مثل الأتراك» يعني بالنسبة إليّ الإفراط بالتدخين والجلوس تحت سحابة من الدخان، بل عادات اجتماعية خاصة مثل أن تمد علبة الدخان عندما تفتحها لشخص تعرفت إليه حديثًا تعبيرًا عن الصداقة والسلام، وتدوير السيجارة بين الأصابع من أجل تليينها لجعلها قابلة للتدخين، ومئات طرائق نفخ الدخان، وتفسيرها الفردي (ومعرفة هذه التفسيرات، والتعرف عليها). في قرية سياحية صغيرة على شاطئ مرمرة تحدثت عن مثيل لها في «البيت الصامت»... كنا نذهب في أواخر الستينيات إلى سينما صيفية، ونشاهد الأفلام التركية ونحن نشم رائحة الروث الكثيفة المتناهية من الإسطبل المجاور، ونسمع خوار الأبقار. وأذكر جيدًا أننا في مطلع السبعينيات كنا نشاهد الأفلام مع زملائي في الجامعة وآلاف المشاهدين الذين يقصقصون البذر في حديقة قامبورون الشهيرة في بشكطاش. عندما قررت والدتي الحصول على رخصة قيادة سيارة في مطلع الستينيات كانت تصطحبني مع أخي الكبير في أيام الصيف إلى الدروس التي تتلقاها لأننا كنا نشعر بالملل في البيت، وعندما تتوقف السيارة وهي ترتجف، إما أن نضحك - أخي وأنا - من حيث نجلس في المقعد الخلفي، وإما أن نخاف. لم أفهم ضيق والدتي إلا عندما بلغت الثامنة عشرة بعد عشرة أعوام، وقررت الحصول على رخصة قيادة سيارة، ورسبت عددًا كبيرًا جدًّا من المرات في امتحان القيادة. استلهمت جزءًا من شخصيات الأغنياء الذين كتبت عنهم في الرواية من أصدقاء والدي وأعمامي، وجزءًا من أصدقاء أبناء عمومتي، وجزءًا من زملائي في المدرسة. شرح مدى استفادتي من تجربتي الحياتية بعرض المطاعم «الفخمة»، وخمارات البوسفور، وأزقة إسطنبول، وكثير من الدكاكين، عمل لا ينتهي مثله مثل استفادتي من إسطنبول في كتبي.

بعـد افتتـاح المتحـف عـام ٢٠١٢، كانت لدي رغبة شـديدة بـأن أجيب بإيجـاب عن سـؤال كثيرًا مـا طرح علي: «أورهـان، هل أنت كمـال؟». لعل هـذا ما جعلني أطور هذه الإجابـة: «نعم، أنا أيضًا قضيـت طفولتي ويفاعتي في الفترة التي تتناولها الرواية بين ١٩٥٠-١٩٩٠ وسـط بورجوازيي نيشـان طـاش. عائلة كمال وأصدقاؤه، يشـبهون عائلتي وأصدقائـي، والأمكنة التي يعيـش فيها ويذهب إليها، هي الأمكنة التي عشـت فيها، وذهبت إليها. وفيما بعـد، كمال وأنـا نبذنا من طبقتنـا ومحيطنا: بمعنى أننا سـقطنا خارج طبقتنا. هو بسـبب عشقه لفسون، وأنا بسبب حبي للأدب ووضعي السياسي. وكلانا لسنا نادمين».

آب/ أغسطس ٢٠١٣.

أورهان باموق

الجزيرة الكبيرة من جزر الأميرات

عن أورهان باموق

ولد عام ١٩٥٢، وترعرع في حي نيشان طاشِ ضمن عائلة كبيرة كتلك التي وردت في «جودت بيك وأبناؤه» و«الكتاب الأسود». عاش طفولته حتى الثانية والعشرين من عمره وهو يرسم، وفي تفكيره أنه سيكون رسامًا في المستقبل كما شرح في كتابه «إسطنبول» الذي تناول سيرته الذاتية. درس الثانوية في روبرت كلج الأمريكية في إسطنبول. وبعد أن درس ثلاث سنوات في كلية العمارة في الجامعة التقنية في إسطنبول، قرر أنه لن يكون مهندسًا معماريًّا ورسامًا، ودرس الصحافة في جامعة إسطنبول. في الثالثة والعشرين من عمره قرر باموق أن يكون روائيًّا، وترك كل شيء ما عدا هذا المجال، وأغلق على نفسه الباب وبدأ يكتب. كان أحد كاتبين فازا بجائزة الرواية لمنشورات جريدة ملييت عن روايته الأولى «جودت بيك وأبناؤه». نشر الكتاب عام ١٩٨٢، وفي السنة ذاتها حاز جائزة أورهان كمال للرواية. نشر باموق في السنة التالية روايته الموسومة «البيت الصامت»، وحازت هذه الرواية بعد ترجمتها إلى الفرنسية جائزة «Prix de la Découverte Européenne» لعام ١٩٩١. كانت روايته «القلعة البيضاء» التي تروي علاقة صداقة وتوتر بين عبد من البندقية وعالم عثماني، وصدرت عام ١٩٨٥، أولى رواياته التي نقلته إلى العالمية من خلال ترجمتها إلى كثير من اللغات. غادر في العام ذاته إلى الولايات المتحدة مع زوجته، وعمل بين عامي ١٩٨٥-١٩٨٨ عضو هيئة تدريسية زائرًا في جامعة كولومبيا. نشر روايته «الكتاب الأسود» التي تتناول أزقة إسطنبول وماضيها وكيمياءها ونسيجها

بواسطة محامٍ يبحث عن زوجته المفقودة عام ١٩٩٠. حازت هذه الرواية التي تتحدث بالانفعال ذاته عن الماضي والحاضر بعد ترجمتها إلى الفرنسية جائزة الثقافة الفرنسية، ووسعت شهرته في تركيا والعالم. رزق باموق بفتاة أسماها «رؤية» عام ١٩٩١. نشر عام ١٩٩٢ سيناريو «الوجه الخفي»، وحاز جائزة أفضل سيناريو في مهرجان البرتقالة الذهبية السينمائي في أنطاليا. نشر عام ١٩٩٤ رواية بلغة شاعرية تتناول قصة طالب جامعي تأثر بكتاب مفعم بالأسرار بعنوان «الحياة الجديدة». في عام ١٩٩٨ نشر روايته «اسمي أحمر» التي يتناول فيها المنمنمات العثمانية والإيرانية، وأشكال الرؤية والرسم خارج العالم الغربي. حازت هذه الرواية على جوائز «Prix du Meilleur livre étranger» (٢٠٠٢) في فرنسا، و«Grinzane Cavour» (٢٠٠٢) في إيطاليا، و«International IMPAC-Dublin» (٢٠٠٣) في أيرلندة. اتخذ موقفًا نقديًّا من الدولة التركية عبر مقالاته التي كتبها في موضوع حقوق الإنسان والحرية الفكرية اعتبارًا من أواسط التسعينيات. نشر كتابه «الألوان الأخرى»، وهو مختارات واسعة من المقالات الأدبية والثقافية التي كتبها في مختلف الجرائد والمجلات في تركيا وخارجها عام ١٩٩٩. نشر ما أسماه «روايتي السياسية الأولى والأخيرة» الموسومة «ثلج» عام ٢٠٠٢. تناول في هذه الرواية العنف والتوتر بين الإسلام السياسي والعسكر والعلمانيين والقوميين الأكراد والأتراك، وصنفتها «New York Times Book Review» واحدة من أفضل عشر روايات لعام ٢٠٠٤. يُعَدّ كتابه «إسطنبول» الذي نشره عام ٢٠٠٣ تجربة كتابية حول إسطنبول تناول فيها ذكرياته حتى الثانية والعشرين من عمره، وأغناه ببعض أعمال التصوير من مجموعته الخاصة ولمصورين أتراك وغربيين. تُرجمت كتبه إلى ٦٣ لغة وباع من كتبه اثني عشر مليون نسخة في العالم، ومنحته كثير من الجامعات دكتوراه شرف. حاز جائزة السلام التي يمنحها اتحاد الناشرين الألمان منذ عام ١٩٥٠، وتُعَدّ أرفع جائزة ثقافية ألمانية. كما أن رواية «ثلج» حازت على جائزة «Le Prix Médicis étranger» التي تُمنح في فرنسا كل عام لأفضل رواية أجنبية. في

العـام نفسـه اختارته مجلـة «Prospect» من بين مائة مثقـف عالمي، وفي عام ٢٠٠٦ اختارتـه مجلـة «Time» أحد أكثر مائة شـخصية مؤثـرة. باموق عضو شـرف في الأكاديمية الأمريكية للفن والثقافـة، وأكاديمية العلوم الاجتماعية فـي الصيـن، ويحاضر فترة معينة من كل عام فـي جامعة كولومبيا. أول تركي يحوز جائزة نوبل عام ٢٠٠٦. في عام ٢٠٠٧ جمع كلمة جائزة نوبل بعنوان «حقيبـة أبي» مـع كلمتين بمناسـبة جائزتيـن أخريين في كتـاب حمل عنوان «كلمة نوبل». في عام ٢٠٠٨ نشـر روايته الموسـومة «متحف البراءة» والتي تناول فيها موضوعات العشـق والزواج والصداقة والسـعادة ببعديها الفردي والاجتماعـي. وفي عام ٢٠١٠ نشـر كتابـه «أجزاء من المشـهد» التي تناول فيـه مقالاته وحواراته التي تتناول حياته اعتبـارًا من طفولته وعلاقاته الأدبية. جمـع محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد عام ٢٠٠٩ في كتاب بعنوان «الروائي البسيط والمفكر»، وصدرت عام ٢٠١١. افتتح عام ٢٠١٢ متحف البـراءة في إسـطنبول، وفـي دليل المتحف نشـر «براءة الأشـياء»، وفي العام نفسـه مُنح في الدانمـرك جائـزة «Sonning» تقديرًا لخدماتـه الجليلة للثقافة الأوربية. وفي عام ٢٠١٣ نشـر كتابًا تضمن ما اختاره من كتبه بوصفه أجمل المقاطع بعنوان «أنا شـجرة». اختار منتدى المتاحف الأوربية متحف البراءة بكونـه أفضل متحف في أوربا لعام ٢٠١٤. نشـرت روايته «غرابة في عقلي» التـي عمل عليها سـت سـنوات في كانون الأول/ ديسـمبر مـن عام ٢٠١٤، وحاز جائزة أوقاف آيدن ضوغان للرواية لعام ٢٠١٥.



«في بحثه عن روح مدينته الحزينة اكتشف باموق رموزًا جديدة لتصادم الحضارات وتضافرها»
أكاديمية نوبل السويدية

لسنوات طويلة ظل أورهان باموق يتلقى هذا السؤال: «هل أنت كمال؛ بطل روايتك متحف البراءة؟»

وعندما جاء الوقت ليفتتح كاتب نوبل التركي الأشهر متحفًا على الضفة الأوروبية للبوسفور يحمل اسم روايته، قرر أخيرًا أن يجيب قائلًا: «نعم، أنا أيضًا قضيت طفولتي وشبابي في الفترة بين عامي ١٩٥٠ و١٩٩٠، وترعرعت وسط أبناء الطبقة البورجوازية في «نيشان طاش». وفيما بعد، كمال وأنا تعرضنا للنبذ من الطبقة التي ننتمي إليها. للدقة، تم إسقاطنا خارجها. كمال بسبب عشقه لـ«فسون»، وأنا بسبب حبي للأدب ووضعي السياسي. وكلانا لسنا نادمين».

«متحف البراءة» قبل كل شيء فكرة حول العشق. قصة حب مستحيلة تجمع بين كمال المنحدر من الطبقة الأرستقراطية لإسطنبول في سبعينيات القرن العشرين، و«فسون» الفتاة الفقيرة التي تربطه بها صلة قرابة بعيدة.

تتجاوز التفاصيل حدود الغرام التقليدي، لتكشف حيرة الإنسان بين ثقافة الشرق والغرب، دون معزل عن التغيرات الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بإسطنبول في هذا الوقت، وتركت أثرًا عميقًا حتى في قصص العشاق.

أورهان باموق؛ روائي وأكاديمي من مواليد ١٩٥٢. حصل على جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٦. يُعَدُّ من أبرز الكُتَّاب الأتراك، وباعت أعماله فوق ١١ مليون نسخة، وتُرجمت إلى ٦٣ لغة. درس العمارة ثم الصَّحافة حتى أدرك أنه يريد أن يكون روائيًّا؛ فترك كل شيء وبدأ يكتب. نشر روايته الأولى «جودت بيك وأبناؤه» في ١٩٨٢، وحاز في العام ذاته جائزة أورهان كمال للرواية. من أشهر رواياته: «اسمي أحمر»، و«الكتاب الأسود»، و«الحياة الجديدة».

دار الشروق
www.shorouk.com

